مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي
كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله ﷺ

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم
محمد الصادق ابراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقاً

الجزء الرابع

دار القلم
دمشق

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣
دار البشير
للطباعة والنشر والتوزيع جدة: ٢١٤٦١ - ص. ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

من بدر وأحد إلى الحديبية

كانت غزوة بدر نموذجاً للسلوك المنهجي للمجتمع المسلم

أساس تخيرنا للمغازي التي أقمنا لها دعائم البحث.

أقمنا حديث الغزوات والبعوث والسرايا ـ التي وقعت في حياة رسول الله ﷺ مما قاده ﷺ بنفسه الشريفة أو عقد ألويته وراياته لبعض أصحابه من أبطال الجهاد لإعلاء كلمة الله أن تسري مع النسيم إلى آفاق العقول وشغاف القلوب، وأن تسابق ضوء الشمس إلى أرجاء الحياة لتنبه الغافلين، وتوقظ الرقود، وتحرر الإنسان من رق الوثنية البليدة الجهول ـ على أساس استبانة ما حوته تلك الغزوات بين حناياها من الجوانب المنهجية لرسالة الخلود، ولا سيما ما يتصل من هذه الجوانب بسياسة الإعداد للجهاد القتالي، وتبين الأسس التي أقامت على دعائمها هذا النوع من الجهاد رسالة الإسلام الخالدة لتكون تلك الجوانب المنهجية حيّة في مسيرة الدعوة إلى الله، لتحقيق عقيدة التوحيد الخالص الذي يفرد الله تعالى بالتعبُّد الخالص له وحده، وليتخذ المجاهدون من أبطال كتائب الإسلام تلك المعالم نبراساً يهتدون بإشراق نوره في نشر رسالة الحق والخير والهدى والنور التي أنزلت على خاتم النبيين محمد ﷺ، حتى تقام موازين العدل الاجتماعي في معترك الحياة، فيأخذ كل ذي حق حقه، ويؤدي كل قادر واجبه، ويسود الإخاء الإيماني بين الناس، وتتهاوى صروح الشرك الظلوم، وتتهدم أوكار الوثنية والإلحاد والنفاق والتزندق وتحريف كلمة الحق عن مواضعها.

الجهاد في منهج رسالة الإسلام دعوة إلى الله ودفاع عن الحق.

وقد أوضحنا فيما عرضنا له من مقدِّمات الحديث عن تلك الغزوات والبعوث أنها كانت خرجات تستهدف الدعوة إلى الله لإعلاء كلمته، ولم يكن قطُّ في مقاصدها إكراه أحد على الإيمان برسالة الإسلام ذلك الدين

القيِّم الذي فطر الله الناس عليه فحّرفته البيئات الاجتماعية عن مساره، فهي لم تكن أبداً غزوات هجومية على قوم غافلين، لم يُدْعوا إلى الهدى دعاء بيِّناً يقيم الحجّة عليهم، ويريهم من آيات الله في الكون ما يوقظهم من غفلاتهم، مع إعطائهم الفرصة الممكنة لهم من النظر فيما بين أيديهم من الدلائل والبراهين، ليعلموا حقيقة هذا الدين القيّم في عقيدته التوحيدية التي هي الركيزة الأولى لبناء رسالة الإسلام، وركنها الأقوم في بناء ما جاءت به من تعبدات وشرائع ونظم اجتماعية، وآداب سلوكية تعتمد على أرفع مكارم الأخلاق التي ينبغي أن تساس بها الحياة بمن فيها وما فيها، بأسلوب يعطي كل عقل إنساني ما تبلغه طاقته من النظر والتطبيق العملي مع نفسه ومع مجتمعه الخاص في بيئته، ومجتمعه الأساسي في بيئته العامة المنتشرة في أكناف الحياة.

غزوة بدر نموذج عملي لمنهج رسالة الإسلام في الجهاد القتالي.

وقد كانت غزوة بدر العظمى هي المجال الأول الذي أتاح فيه التقدير الإلهي بالصورة التي بدأت بها هذه الغزوة المباركة والتي لم يقصد النبي ﷺ والمسلمون إلى القتال في خرجاتها حتى أُلجئوا إليه إلجاء ـ تطبيقاً لنظريات منهج الرسالة تطبيقاً عملياً، أخرج إلى الناس في إطار الأحداث والوقائع المشهودة في واقع الحياة مثلاً إيجابية مدركة بالعقول والبصائر، ومنظورة بالأبصار.

وقد أطلنا النَّفس فيما كتبناه من حديث هذه الغزوة التي كانت اللبنة الأولى في بناء صرح الجهاد للدعوة إلى الله في مباديها ومقدماتها، وأسبابها ودوافعها، وعواملها التي أحاطت إعداداً وسياسة قيادية، ومشاورات لتهيئة النفوس لخوض معركتها، وما جرى فيها من أحداث ووقائع انتهت إلى غايتها من النصر المؤزر للمجتمع المسلم وكتائب جهاده، مع التفاوت في حجم القوة المادية لدى العدو ولدى المجاهدين من أبطال الإسلام.

آثار النصر في غزوة بدر في أنفس القبائل العربية المتربِّصة.

ذلك النصر الذي دوّى صداه في أرجاء الجزيرة العربية شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، حتى رُجّت له القلوب رجاً كاد يخلعها من بين أضالعها رهبة ورعباً، وقد طوّف صدى هذا النصر حتى دخل كل خباء في مضارب القبائل

العربية وبطونها ومنازلها، وتنادت بـه محافلهم ومجتمعـاتهم في مواسمهـا وأسواقها، حتى أصبح الذين يقطنون هذا الركن من أرض الله في الحياة بين مؤمن مطمئن القلب بإيمانه، ومفزَّع مرعوب مرتجف فؤاده حيران لا يدري من أمر نفسه في حاضره ومستقبله شيئاً، ومتربص تؤرجحه تخيلات النوازل والمحن ويكبته الدهش، ويستولي عليه الذهول، فإذا هو ساهم مأخوذ.

وخلت مكة من طواغيت ملئها وشياطين طغاتها، ولم يبق فيها إلا مكظوم بالهزيمة متهالك يناغي الموت، يتهاوى كأنه طائر منتوف الخوافي والقوادم، يستصرخون المرتزقة من الأحابيش، ويستنجدون بالمفزّعين من دقل القبائل المنثورة بين رمال الصحراء هنا وهناك.

وقد أفزع غَدَرة اليهود نصر المجتمع المسلم في بدر، وأدار رؤوسهم على مناكبهم بزعامة فجّارهم من أضراب الملعنين: كعب بن الأشرف، وحُيي ابن الأخطب وابن أبي الحُقَيق، فأقامهم وأقعدهم وأبكاهم وأضحك منهم، فكانوا سخرية الساخرين بعد أن كانوا سادة تجار إليهم قريش، ويحتمي بحماهم المتزعمون، فهمُّوا بما لم ينالوا، وذهبوا إلى من بقي من غثاء الشرك، وغَلَتْ الوثنية في مكة يعدونهم وما يعدونهم إلا غروراً، ويمنّونهم وما يمنونهم إلا سراباً خادعاً، يحرضونهم على قتال المجتمع المسلم الذي أشجاهم وأذاقهم ذلَّ الهوان، إذ نكّل بحشودهم في بدر وقتل أشرافهم وصناديدهم، وتركهم كذيل الوحرة إذا قُطع رأسها رأيته يرقص للموت ليوهم الحياة.

كانت محنة أُحُد درساً تربوياً
في حياة المجتمع المسلم

الأسباب المباشرة لمحنة غزوة أحد.

ثم جاءت وقعة (أحد) فكانت درساً تربوياً ألقته العناية الإلٓهية على المجتمع المسلم بكل ما فيه من شدائد ومرائر، وأحداث قواصم منكيات، وكوارث عاصفة موجعات. أصابت من المسلمين حوازم أعصابهم ومداخل أفئدتهم، حتى كان منهم مالم يكن من شيمتهم ولا هو معروف في خلائقهم، ولا أنست به سجاياهم، ولا لهم به عهد، إذْ ولّوا الأدبار فراراً عن رسول الله ﷺ، وتركوه في معمعة المعركة وقد استعر أوارها وحيداً إلا من فئة قليلة لا تغني عن نفسها شيئاً.

وقد بيّنا أن السبب الأعظم في كارثة (أحد) كان منطوياً:

أولاً - في مخالفة رأي رسول الله ﷺ، والتقدم بين يديه بآراء تخالف ما أشار به على أصحابه عند التهيؤ والاستعداد للمعركة، معتمداً على وحي الرؤيا التي أريها ﷺ عشية الخروج إلى المعركة وأوّلها لأصحابه بأنّ المدينة هي الدرع الحصينة التي أدخل فيها يده في الرؤيا، فأبى المتحمسون من الشباب الذين فاتهم فضل بدر إلا الخروج إلى أعدائهم ومقاتلتهم خارج المدينة خشية أن يجبّنوهم، ورأى رسول الله ﷺ أن لا يخالف جمهرة هؤلاء المخالفين اتقاء الفشل الذي ينشأ عن المنازعة، فخرج بهم ﷺ وهو كاره لهذا الخروج.

ونشبت المعركة واشتعلت حمية كتائب الجهاد، وسَرْع ما ألمت الهزيمة بحشود الأعداء من المشركين على ما كان من كثرة عددهم وتوافر عدتهم وكلبهم على قتال المسلمين.

بيد أن هذا النصر لجيش المسلمين لم يكن إلا نصراً للجولة الأولى في صدق العزيمة وفورة الحماسة عند الذين آثروا الخروج من المدينة مخالفين لرأي رسول الله ﷺ على البقاء فيها متابعة له وإذعاناً لأمره، وهو القائد الأعظم، المؤيد بوحي الله تعالى.

ومن ثَمّ لم يكن هذا النصر ليقوى على البقاء والثبات إلى نهاية المعركة، ولكنه كان نصراً لم يحتمل البقاء أمام تخلخل صفوف المسلمين إثر مكيدة كادهم بها الشيطان في صفوف الرماة.

ثانياً ـ كانت مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ ووصاياه هي المِعْول الذي فكّك عرى التماسك بين صفوف المسلمين، لأن هؤلاء المخالفين من الرماة لم يطيقوا الصبر على تجرُّع مرارة الطاعة المطلقة عن تعسف التأويل لأوامر القيادة العظمى، قيادة النبي ﷺ، إذ أنهم لم يكادوا يرون معالم النصر تلوح في أفق جيش المسلمين حتى تركوا أماكنهم التي وضعهم فيها رسول الله ﷺ، وأمرهم أن لا يبرحوها حتى يأذن لهم، وركضوا إلى الدنيا يريدونها، ونزلوا إلى مشاركة الجيش المنتصر في جمع الغنائم واحتيازها، وتركوا أميرهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه الذي ذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ فلم يعبأوا بتذكيره، وتشبثوا بأهداب التأويل المتعسِّف، ولم يبق مع قائد الرماة إلا فئة قليلة صبرت معه حتى استشهدوا جميعاً رضي الله عنهم، وتنزلت المحنة وأقبلت عواصف القواصف، وكان ما كان مما فصلناه من أحداث وأزمات وشدائد تحمّل عبء وطئها رسول الله ﷺ مع طائفة قليلة من خُلّص أصحابه وأبطالهم.

العوامل المؤثرة التي كانت وراء محنة أحد هي مخالفات أوامر القيادة العظمى.

وبهذا العرض الاجمالي يتبين أن محنة (أحد) إنما كانت كما أسلفنا بسبب انحراف بعض المجاهدين فيها انحرافات نالت من نفوسهم نيلاً أبعدهم قليلاً عن سواء القوة الإيمانية التي كانت لهم في جميع مواقفهم وصدق عزائمهم قبل أن تنزل بهم هذه المحنة القاسية.

وهذه الانحرافات وكما قلنا ـ تتمثل في :

أولاً ـ انحراف من انحرف من جند الجهاد عن صراط وجوب متابعة

رسول الله ﷺ في قيادته الحربية والسياسية، كوجوب متابعته في القيادة العقدية والتعبدية والنظامية التي يقوم على دعائمها توجيه المجتمع المسلم توجيهاً تربوياً سلوكياً في نظام حياته وعلاقاته داخل إطاره الإيماني وعلاقاته خارج هذا الإطار.

وهو ﷺ في هذه القيادات وغيرها من سائر توجيهات المجتمع أعلم بالله وتصاريفه في حركات الحياة وسكناتها، وهو المؤيد بالتوفيق وسداد الرأي، وتنزّل الوحي، فما كان ينبغي لأصحابه الذين شهدوا تأييد الله له ﷺ بنصره وهو وحيد، يدعو الحياة ومن فيها إلى متابعته فيما جاء به من الهدى والنور والخير والإصلاح، وأن لا يخالفوا عن أمره وقد أخبرهم برؤياه ﷺ عشية صبح المعركة - ورؤياه ﷺ مرتبة من مراتب الوحي المقتضية بقاءه بأصحابه المجاهدين معه في المدينة، وفيها يلقى عدوه لأن الله تعالى أراه في منامه أنها درعه الحصينة، ولكن نخوة الحماسة الشبوبية تغلبّت بكثرتها على أهل التجارب من الأكابر، فخرج بهم ﷺ موافقة لهم بعد أن تهيأ للخروج، واتخذ آلة الحرب تفادياً للتنازع الذي يفتُّ في عزائمهم.

ثانياً - انحراف من انحرف منهم عن صراط وجوب متابعته ﷺ والتسليم له في جميع ما يأمر به أو ينهى عنه مع السمع والطاعة لتحقيق مراداته والإسراع إلى تنفيذ وصاياه دون تأويل متعسف أو انحراف متكلف.

لكن جمهور الرماة الذين وطّأ لهم القائد الأعظم مواقف يحمون منها ظهر الجيش المسلم وهو مشتبك مع أعدائه تنكّبوا صراط وجوب المتابعة، وخالفوا أمره ﷺ الذي أكّده عليهم تأكيداً بيّنا لا يحتمل التأويل بأن لا يبرحوا مكانهم حتى يرسل إليهم.

كان لعامل قوة الحب العاطفي على قوّة الحب الإيماني أثره في وقوع محنة أحد.

ثالثاً - انحراف من انحرف منهم عن مَهْيَع الحب الإيماني - الذي يجب أن يحاط به النبي ﷺ من كل مؤمن برسالته، وهو حب يجعله ﷺ بمنزلة فوق منزلة كل أحد من الخلق، ومظهر ذلك الحب هو التسليم المطلق بكل ما جاء به من الهدى وما يأمر به من صنوف الخير، وتحكيمه ﷺ في كل ما يعترض المؤمنين في حياتهم حتى يكون أحب لقلوب المسلمين من أنفسهم التي بين

جنوبهم، وأحب إليهم من والديهم وولدهم ومالهم وسائر ما يعز ويؤثر في الحياة ـ إلى التزيّد في الحب العاطفي، والعاطفة تعجب فتحب وحبها جموح لا يُملك زمامه، تغذّيه الغرائز ويقوده الإعجاب الشخصي ويداخله الهوى النفسي، فيخلع على المحبوب ما ليس له بحق، ويخرج بالمحب إلى الغلو المفرط والتقديس المؤلّه، أما الحب الإيماني: فهو حبٌّ تمليه العقيدة، ويغذّيه الإيمان، ويقوده الإعجاب بالمعاني والحقائق الإيمانية الخالدة، فهـو حب مكسوب لا يجمح بصاحبه، ولا يعطي شخص المحبوب شيئاً ليس له في شرعة الإيمان.

فواصل بين الحب الإيماني والحب العاطفي.

بيد أن الحب العاطفي يستحوذ عليه التخيل الذي يصـوِّر حياة المحبوب في نظر المحب على غير حقيقتها، وينسى المحب أن محبوبه خاضع بالقهر لمقاييس الحياة التي يلاحقها الموت حتى يلقي بها بين أحضان الفناء الذي يُنْهي هذا الحب العاطفي مطوِّحاً به إلى غير قرار.

أما الحب الإيماني فهو حب منشؤه الإيمان بحقائق لها طابع الخلود والبقاء السرمدي في داخل النفس الإنسانية، وهي حقائق لا يلاحقها موت ولا يدركها فناء؛ لأنها لا ترتبط بالشخص المحبوب وإنما ترتبط بـالمعاني والحقائق الإيمانية التي لأجلها يجب أن يؤثر المحبوب بكل ألوان الحب الإيماني، فالحب من أجل الحقائق الإيمانية هو الحب الخالد المهذب بخلود تلك الحقائق، لكنها أشبه بأشعة الشمس المضيئة لآفاق الأرض، إذا حجبت عن أفق أشرقت في أفق آخر، وهي هي لا تتغير ولا تتبدل ولا يلحقها ضمور ولا خمود.

كان هذا الانحراف من الحب الإيماني الذي كان يغمرهم بجلاله وهدوئه وقوة فاعليته إلى التزيد في الحب العاطفي هو العامل الأقوى في زلزلة الأقدام وخلخلة التماسك في صفوف المجاهدين من أصحابه ﷺ، فإنهم رضوان الله عليهم لم يكادوا يسمعون إرجافة الشيطان وصرخة ابن قمئة ـ لعنه الله ـ بأن محمداً ﷺ قتل حتى انفرط عقد وحدتهم في ميدان المعركة، وانحلّت عرى ترابطهم، وتزايلت مفاصلهم، وانخلعت وصائل أعصابهم عن

معاقدها وأوضعت الفتن خلالهم، فاستزلهم الشيطان بوساوسه، وضعفوا واستكانوا والرسول ﷺ يدعوهم في أخراهم «إليّ عباد الله»، فأصمّهم الدهش المذهل عن سماع ندائه والصَّغْوِ إلى دعائه، وأنساهم التزيد في حبهم العاطفي لرسول الله ﷺ أن محمداً صلوات الله عليه إنسان من البشر المصطفين لحمل رسالات الله وتبليغها للناس، يجوز عليه ما جاز على إخوته من الرسل قبله الذين مضوا إلى لقاء ربهم مفارقين الدنيا إلى ما أعده الله لهم من عظيم الإنعام في دار الخلود، وهي خير لهم وأبقى.

الحب الإيماني يهدي للحق والحب العاطفي جموح لا ضابط له.

وقد كان هذا التزيد في الحب العاطفي غطاء كثيفاً حجب عن بصائر المجاهدين الحقيقة البشرية لمحمد ﷺ، وأنساهم حدود الحب الإيماني، هذا الحب الذي يضع الأمور في مواضعها، لأنه حب يعرف لكل موجود خصائصه الذاتية وحقّه في الحياة بمقتضى تلك الخصائص، ويعرف أن حقّ محمد رسول الله ﷺ على أمته أن يكون حبهم له نبياً ورسولاً فوق حبهم لأنفسهم التي بين جوانحهم وفوق حبهم آباءهم وأمهاتهم وولدهم والناس أجمعين، ويعرف أن أعظم ثمرات هذا الحب هو الإسراع إلى امتثال أمره ومتابعته في جميع أقواله وأفعاله وإقراراته، وأن يكون هوى كل مسلم تبعاً لما جاء في رسالته رسالة الحق والخير، والهدى والنور.

وهذا الحب الإيماني يعرف قبل هذا وبعده أن محمداً رسول الله ﷺ بشر، ولد كما يولد البشر، ويجري عليه ما يجري على سائر البشر من النبيين والمرسلين، وهم قد عاشوا في هذه الدنيا ما كتب الله لهم من آجال ثم مضوا وفارقوها فهو مثلهم يعيش ما كتب له من أجل ويمضي إلى لقاء ربه، ولم يجعل الله لبشر من قبله الخُلْد حتى تذهب بمن زلزلوا عند الإخبار بقتله ﷺ إرجافاً وكذباً الأوهام فيتوهمون خلوده بينهم، ويصيبهم من الدَّهش المذهل ما أنساهم بشريته، وأنه ﷺ ليس في فضله على سائر البشر وامتيازه إلا أنه رسول يوحى إليه ويجري عليه ما جرى على إخوانه الرسل من قبله فيخلو كما خلوا.

ولهذا خاطبهم الله تعالى مذكِّراً لهم بحقيقة محمد ﷺ التي أنساهم

إياها غلوهم في الحب العاطفي، فلعبت بهم التخيلات والأوهام، وربطوا إيمانهم ببقاء شخصه ﷺ بأسلوب إنكاري معنف فقال لهم: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل؛ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾.

وهكذا كان الغلو والتزيد في الحب العاطفي هو العامل الأكبر في هزيمة الكتائب المسلمة، بعد أن أمسكوا زمام النصر بأيديهم لأول جولة من جولات المعركة قبل أن يرجف بهم الشيطان بصرخته وصرخة الخبيث الملعّن ابن قمئة: إن محمداً قتل، لأنهم لم تكد تلك الصرخة الفاجرة تقرع آذانهم حتى أرسلوا أقدامهم مع ريح الهزيمة مولِّين الأدبار لا يعرف بعضهم بعضاً لقسوة ما نزل بهم.

وصبر رسول الله ﷺ وحده في موقفه لا يزول عنه فتراً وهو يضارب العدو بقوسه حتى تشظَّت، فضاربهم بالحجارة، حتى تحيّز له فئة من أبطال الجهاد من الذين لم يبعدوا في التولّي وحداناً يتبع بعضهم بعضاً حتى كانوا جماعة فاءت إلى عزائم الإيمان وشمّروا للدفاع عنه ﷺ، وأحاطوا به من أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله يفدونه ﷺ بأرواحهم وما ملكت أيديهم، وباعوا لله تعالى أنفسهم، وتجلّت لهم منازل الشهداء من وراء حُجُب الغيب.

وكان رسول الله ﷺ قد أصيب في المعركة بجراحات دامية، وانقشعت عنه ﷺ جحافل الشرك وحشود الوثنية، وبلغت المعركة نهايتها وجراحات رسول الله ﷺ تبض بالدم الطاهر وجراحات أصحابه تستن، وصدورهم تئز أزيز المراجل فوق الأثافي من شدة الأوجاع والآلام وهم صابرون محتسبون ليتوب الله عليهم ويشملهم بعفوه ورحمته.

وقد عاتب الله تعالى المجاهدين الذين شهدوا معركة أحد عتاباً شديداً ولا سيما على تغاليهم وتزيدهم في الحب العاطفي لرسول الله ﷺ وتولّيهم عن ميدان المعركة. وقد أبان الله تعالى في هذا العتاب العنيف شؤم مخالفة جنود كتائب الجهاد لقائدهم الأعظم في خططه الحربية وسياسته في إدارة

المعركة وخاصّة إذا كان القائد الأعظم هو رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي المسدّد بالتوفيق.

كان عتاب أهل بدر تعليمًا وتربية ونصحاً وإرشاداً.

كان هذا العتاب القاسي لوناً من ألوان التربية التي اشتملت عليها محنة أحد، وهي أول موقعة يقع فيها هذا الابتلاء الممحّص، وتنتهي بأقسى محنة عرفها المجتمع المسلم في جهاده بقيادة رسول الله ﷺ لأنها جاءت بعد نصر (بدر) العظيم مع ما كان في بدر من مخالفة جمهرة المجاهدين عوتب عليها البدريون عتاباً لم يبلغ عتاب (أحد) في شدته وتنوّعه، واكتفى القرآن المجيد في عتابهم بقوله تعالى: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ وذلك أنهم أسرعوا إلى إنهاء المعركة بمجرد ظهور بشائر النصر، وشغلوا بجمع الغنائم وأسر الرجال قبل أن يثخنوا في الأرض، وهذا عتاب أشبه بالنصح والتعليم منه بعتاب اللوم والتعنيف، لأن مخالفة البدريين لم يكن فيها أمر من رسول الله ﷺ، لكن مخالفات (أحد) تعدّدت واستعظمت وكانت فيها أوامر ووصايا من رسول الله ﷺ، فكان العتاب فيها عنيفاً شديداً أشبه بالتأديب والزجر منه بعتاب التنبيه والإرشاد، ليأخذ درس (أحد) التربوي مكانه من مداخل النفوس المسلمة، حتى تكون منه على ذكر، لا تنسيها معالمه شدائد ما تلقى من الحياة وصروفها في مستقبل مسيرها برسالتها.

كان درس محنة أحد تعميقاً للآلام ليبقى أثره في حياة المجتمع المسلم تتوارثه الأجيال المقبلة.

وكان هذا الدرس الأُحدي في حقيقته تعميقاً للإحساس بإيجاع الآلام التي نالت المجتمع المسلم نتيجة لما صنعه بيده من الانحراف عن منهج الرسالة وهي في عراقة نشأتها وقوة شبوبها عن مهدها، ليبقى هذا الاحساس آية مسطورة في قلب كل مؤمن يلازمه في حياته ويتوارثه الخلف عن السلف وتتلقّاه أجيال عن أجيال، فلا يغرب عن حياة المجتمع المسلم ما دام قائماً بأمر رسالته الخالدة على أساس منهجها، وهو عتاب على ما كان فيه من شدة لم يكن عتاب مسخطة من الله تعالى على أولئك المجاهدين، وإنما هو درس عملي من دروس التربية الإلّهية لهذا المجتمع القائم بأمر الله في حماية دينه، يستهدف وضع آثار الانحرافات عن منهج الرسالة وضعاً يجعل من المجتمع المسلم قوة مطهَّرة من أوضار المخالفات، ولا سيا في ميادين الجهاد في ظل وحدة إيمانية تقوم في أصولها التربوية على الإيحاء لهذا المجتمع بما

سيقابله في الحياة من شدائد وأزمات، ومحن لا يقيه أخطارها المدمرة إلا اعتصامه بمنهج رسالته.

عتاب تربوي يشعر الحياة بما كان للصحابة من منزلة رفيعة عند الله تعالى.

ولهذا جاء العتاب قاسياً عنيفاً، بَيْد أنه خفّ بالتلطف الرباني المتمثل في التفضل بالعفو عنهم بأسلوب جمع من ألوان التوكيد ما يقتلع جذور المساءة باللوم والتقريع، ويزرع مكانها من قلوبهم كرمة الترضّي لله منهم والرضا من الله عنهم، فقال تعالى حاكياً لما وقع حتى لا ينسى مبيناً أسبابه ودوافعه لانحرافهم عن صراط المنهج الجهادي الذي جاءتهم به الرسالة الخالدة وذلك في قوله عز شأنه: ﴿إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ببعض ما كسبوا﴾ تأنيس لهم ببرد العفو مع خطورة ما وقع منهم من الانحراف عن المنهج حتى لا يداخلهم اليأس في مآل إحساناتهم وحسناتهم وهي كثيرة جمة قام على دعائمها هذا الدين القيِّم، وفي أسلوب سياق العفو المؤكد مبالغة في التلطف بهم لمسح ما علق بقلوبهم من خشية الله وخوف مواقعتهم بطشه بهم.

وفي ختم آية العتاب بهذه الفاصلة المكسوة باستبرق الرأفة والتذكير بالإنعام بسط للعفو الإلَهي بسطاً ينتهي بالمغفرة السابغة والحكم الأكرم، حتى لا يبقى مع هذا البسط بما احتف به من الغفران الستور والحلم الكريم وخز يعكّر صفو جهادهم لإعلاء كلمة الله. وهذا هو عتاب الودود للمودود، والمحب للمحبوب الذي أريد به وضع أصول التربية للمجتمع المسلم تربية لا تعرف في شدتها الحقد والاضطغان، ولا تعرف في تلطفها الميوعة والإدلال، لتتلقّاها أجيال المجتمع المسلم جيلاً بعد جيل، وليتخذها قادة هذا المجتمع أينها كانوا ميزاناً لتقويم عوج المجتمع وإصلاح ما يكون فيه من فساد، ولتكون هذه الأصول التربوية ديدنهم في سياسة حياة المجتمع حتى يكون مجتمعاً صالحاً قوي الشكيمة موحّد القوى، لا تعرفه الأحقاد، ولا تمزقه الضغائن، بل يجمع بينه الوُد والحب والتآخي الكفول.

وفي الحق أن هذا اللون من ألوان التربية الإسلامية التي تلقاها

عتاب يقيم للمجتمع المسلم موازين التربية السلوكية القويمة ويرسم لقادته السياسة الحكيمة.

المجتمع المسلم وهو لا يزال في مهده يكاد يكون إعجازاً، لأنه لم يترك الشدة القاسية حيث كان الموقف يطلبها، ولم يبخل بالتلطّف الودود بعد أن قامت الشدة بما يطلب منها، فهو لم يتسامح قطُّ في تعريف المخطىء خطأه على قدر ما فيه من خطر على المجتمع أو ضرر للحياة، فقد اشتد في وصف ما وقع من الانحراف حتى أبكى وأدمى، ثم هو يتلطّف ليداوي جراحات القلوب حتى يسيل رقّة ورأفة وحلماً ومغفرة، ومن وراء ذلك كله ما لا يدري كنهه من صنوف الإحسان وضروب الإنعام الذي لا تستطيع وصفه الألسنة والأقلام.

ومن ثَمَّ أمر الله جل شأنه نبيه محمداً ﷺ أن يكوِّن في قيادته لمجتمعه وتربيته لأمته ومعاملته لها أفراداً وجماعات ظلاً ظليلاً من العفو والغفران والحلم والإحسان والترفق، فيسبغ أكرم مكارم الأخلاق لطفاً ورأفة وتجاوزاً عما عسى أن يبدر منهم أو بدر منهم نحو منهج الرسالة، حتى ناله ﷺ ما ناله، وأن يستغفر لهم لتطمئن قلوبهم إلى منزلة الرضا من قلبه.

ثم زادهم حفاوة في معاملة رسول الله ﷺ لهم معاملة تزيد من قربهم بعد أن صوّرت الأحداث أنهم بعدوا بها عن مرضاته وحبه ومتابعته، فأمره الله تعالى أن يشاورهم فيما ينوب الحياة المسلمة من أحداث إلى جانب العفو عما بدر منهم في معركة أحد ليمحي ما ألمّ بنفوسهم من شدّة وطأة العتاب.

وقد تحقّق ذلك عملياً في الخروج بهم قبل أن ينفض عنهم غبار معركة أحد إلى حمراء الأسد وهم في جراحهم التي بلغت بهم من الآلام والأوجاع أن أحدهم لا يكاد يستوي قائماً من شدة ما يجد، ولكن فرحهم بعفو الله ورضوانه، وتلطّف رسول الله ﷺ بهم في رقّة المعاملة أنساهم كل آلامهم.

وقد زادهم الله في فضله أنهم لم يكادوا يبلغون حمراء الأسد متحمّلين على جراحهم حتى ألقى الله تعالى في قلوب أعدائهم المشركين ـ وهم يتآمرون بالرجوع إلى من بقي منهم ليستأصلوهم ـ الرعب والفزع، فصدّهم عنهم وعادوا على أعقابهم خاسرين، وانقلب المسلمون إلى دارهم ومدينتهم وهم يردّدون مع رسول الله ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وهكذا كانت بدر في نصرها المؤزر الوثيق، وهكذا كانت (أحد)

بعدها من قريب في درس محنتها التربوي القاسي العميق في مفتتح الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله وتقويض بناء الشرك وصروح الوثنية ـ غزوتين أخذتا بطرفي الحياة ليناً وشدة، وقسوة ورحمة، ونصراً وهزيمة، وقد جعل الله منهما إطاراً لما ينبغي أن تتمثله الأمة الإسلامية في مستقبل مجتمعها، تصب فيه الأحداث والوقائع، وتصور فيه الخطوط الأساسية التي يجب أن تقوم عليها حياة هذا المجتمع الريادي المستكشف في ريادته لمعالم الحياة التي نيط به قيادها في ضوء الواقع الذي لا يغلّفه الخيال بألوانه البرّاقة الخادعة.

بدر وأحد نموذج لإطار الحياة تمثل خيوطه الحياة بجوانبها أصدق تمثيل.

فالحياة في واقعها أشبه بطائر يطير في أجواز الكون بجناحين: جناح محنة وجناح منحة، فيوم لك ويوم عليك، ويوم تُساء، ويوم تُسر.

وليست الحياة كما يفهمها الفراغيون عبيد الشهوات المادية وروداً وأزاهيرمفروشة في طريق السالكين، ولا هي أشواكاً تُدمي أقدام الغادين والرائحين، ولكنها حلاوة تعقبها مرارة، ومرارة تليها حلاوة، فمن أذاقته حلاوتها فليرتقب مرارتها.

ولم يغفل المنهج الإسلامي هذا الواقع ليؤخذ الناس على غفلاتهم، ولكنه نبّه إليه بأسلوب صوره قانوناً طبيعياً من قوانين سير الحياة التي قدّرها الله في غيبه المحجوب، وسنّة من سنن الله التي تخضع لها أنظمة الحياة، فالله تعالى يقول في القرآن الكريم ـ وهو الدستور الأعظم للمجتمع المسلم ـ: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسَسْكم قَرْح فقد مَسّ القوم قَرْحُ مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[1].

الإيمان لا يفقد قط خصيصته في منزلته من الله وسنن الحياة.

وليس معنى هذا أن الإيمان يفقد خصيصته في علو منزلته وسمو مكانته من الله وإنما معناه أن التغالب في الحياة قانون قائم تسير الحياة به على مقتضى سنن الله العامة، ليأخذ أهل الإيمان حذرهم من الركون إلى مجرد الإيمان، بل يجب عليهم أن يجعلوا من قوادم الإيمان وخوافيه ركائز له بالعمل الجاد وعدم الغفلة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء

---

(١) سورة آل عمران آيتا (١٣٩ ـ ١٤٠).

القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله مالا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً﴾[1].

كما بيّن القرآن الحكيم أن النصر والخذلان لا يرتبطان ارتباطاً مادياً اعتماداً على القوة المادّية وحدها، ولكنهما في سنن الله العامة كفتا ميزان طبيعي في يد العزيز القهار وهو وحده الذي يملكه ويتحكم فيه، فيؤتي نصره من يشاء من عباده، جرياً على مقتضى حكمته تعالى وهو العزيز الحكيم، ويخذل بحكمته من يشاء من عباده، فلا تستطيع قوة في الحياة أن تجعل من هذا الخذلان نصراً مهما كانت القوة المادية التي تقف إلى جانب من يملك هذه القوة المادّية، وهذا ما يقرره القرآن الحكيم في قول الله عز شأنه: ﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء﴾[2] وفي قوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾[3].

وليس معنى ذلك أن أمور الحياة تجري سبهللة بغير ضوابط تربطها من سنن الله الكونية، وإنما معناه أن السنن الكونية التي تحزم المتفرق من أمور الحياة محكومة بالقهر الإلّهي، وتنزل بحكمة التقدير الإلّهي يسيّرها خالق الكون وحده، لأنه هو مالك نواصيها، ومدبِّر أسبابها ومسبباتها، سواء أن تكون تلك الأسباب والمسبّبات مادّية أو معنوية، وهذه الأسباب والمسبّبات المعنوية ترتكز على قوة الإيمان واليقين، فلا القوة المادّية وحدها بجالبة للنصر، ولا ضعف هذه القوة المادّية وحده بمسبب للخذلان، وإنما المرجع إلى الله مالك القوى والقدر، ولهذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين بصدق التوكل عليه بعد إعداد الأسباب المادية فقال جل شأنه: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

وللنصر أسباب مادّية ظاهرة وعوامل مرئية تتنزل من سموات فضل

---

(١) سورة النساء آية (١٠٤).
(٢) آل عمران آية (٢٦).
(٣) سورة آل عمران آية (١٦٠).

الله تعالى وإنعامه، وللخذلان أسباب تستجلبه من مواقع بأس الله وبطشه.

والنصر والخذلان ظاهرتان كونيتان ليست لهما دلالة ذاتية على رضاء الله أو سخطه، وليست لهما ثبات السنن الكونية التي يقوم عليها نظام الحياة في سيرها إلى غايتها، وإنما هما من طائفات الأحداث التي تندرج في إطار الوقائع التي تتداول الحياة في موازينها الاجتماعية لتوازن الوضع الاجتماعي بين طوائف البشر وأممهم وشعوبهم ودولهم ليأخذ كل فرد ومجتمع حقّه منها طبقاً لمجرى الحكمة الإلٓهية في الكون.

وقد سبق لنا أن ذكرنا بالتفصيل ما كان لغزوة بدر من مقدِّمات وأسباب، وما كان في ذلك من مواقف سياسيّة للنبي ﷺ جعلت من هذه الأسباب إعداداً نفسياً لخوض المعركة مهما كانت آثارها وعواقبها، ثم ذكرنا ما كان في (بدر) من أحداث ووقائع انتهت بها إلى النصر المؤزر، وما كان لذلك من أثر عميق في قلوب من بقي من أعداء الإسلام؛ مما جعلهم بعد إفاقتهم من سكرة الهزيمة المنكرة التي حلّت بهم فأهلكت أشرافهم وصناديدهم يفكرون في الثأر من المجتمع المسلم بغزوه في عقر داره بقوة لا يستطيع مواقفتها في قتال.

وقد جعلوا من عيرهم التي كانت سبب غزوة بدر بعد أن نجا بها قائدها أبو سفيان بن حرب مصدرا لتجهيز حشد من المرتزقة والأحابيش، وصعاليك العرب من القبائل المتربصة.

وكانت غزوة أحد بأحداثها وأزماتها وشدائدها درساً تربوياً أفاد منها المجتمع المسلم كثيراً من العبر في تصاريف الحياة وتقلباتها.

كانت محنة أحد سراجاً أضاء الطريق أمام المجتمع المسلم في سيره برسالته.

لقد فتحت محنة أحد أمام المجتمع المسلم الطريق ليتعرف موقف المتربصين به دون إقدام على محاربته لما أصابهم من الدهش المذهل حين سمعوا دويّ نصر بدر الذي ملأ قلوبهم رهباً ورعباً وهلعاً.

وكانت أخبار هؤلاء وهؤلاء ترد متوالية على رسول الله ﷺ، فيأخذ لكل حدث أهبته، وتتابعت البعوث والسرايا المستكشفة تجوب مواقع

الأحداث، وكانت محنة (أحد) صيقلاً أذاب صدأ هزيمتها عن صدور أصحاب رسول الله ﷺ، فجعلت منهم بطولات فدائية لا ترهب الموت، وجعلت منهم قيادات سياسية تحسن الرأي وتحكم الفكرة، وجعلت منهم قيادات عسكرية تدير المعارك القتالية بتفكير مجرب يعرف المخارج من أزمات المضايق، ويعرف المداخل التي يؤخذ منها العدو.

ومن ثمّ تتابعت البعوث والسرايا والغزوات، ووقف أصحاب رسول الله ﷺ متأهبين لكل حادث ونازلة، لا ينامون ولا ينيمون، ولا يغفلون عن بادرة يحسون نبأتها إلا أسرعوا إليها خفافاً وثقالاً يخوضون لججها، ويقتحمون سعير أوارها بنفوس رضية سمحة بالفداء وحب الشهادة.

ولم يكد يمضي يوم منذ محنة (أحد) دون أن يكون فيه بعث فدائي محارب أو سرية ترهب وترعب، أو إعداد لغزوة تقاتل فيها كتائب الإسلام فتنتصر.

هدف هذا البحث إبراز جوانب منهج رسالة الإسلام العقدية والاجتماعية.

وقد بيّنا أن منهجنا في البحث لا يقصد إلى سرد الروايات والأقاصيص، واستيعاب الوقائع والأحداث، وإنما أقمنا إطار البحث على إبراز الخطوط الأصيلة لجوانب منهج رسالة الإسلام، وما فيها من هداية وإصلاح، لأن ذلك هو المقصود الأعظم لهذه الرسالة الخالدة في ظل العقيدة التوحيدية،وهذه هي خصيصة الإسلام بوصفه ديناً لإقامة صرح التوحيد وتقويض الشرك بجميع أنواعه وهدم الوثنية في سائر صورها وأشكالها، ثم بوصفه نظاماً اجتماعياً متكاملاً، ونمطاً فكرياً متوازناً، ومنهجاً إصلاحياً متوافقاً، لا يردّ عقلاً مستقيم التركيب الفكري عن الدخول في ساحته، ولا يرفض علماً سويّ المعالم في مقدماته ونتائجه، ولا يعرف للفكر الإنساني حدوداً يقف عندها لا يتجاوزها.

ولهذا كان حديثنا في إطار الغزوات حديثاً قائماً على التنقّي والاختيار، ونرجو دائماً أن لا تفوتنا المحاولة في أن لا يندّ عن البحث والنظر حادث يحمل في طياته جانباً منهجياً من خصائص الرسالة الخالدة وحقائقها ومعانيها

التي نزلت لتحقق في الحياة عملاً واقعياً يعيش الناس فيه، ويعيش مع الناس.

* * *

تدرج البحث في أحداث وأحاديث الغزوات المنتقاة وتأخير البحث المفصل عن اليهود والمنافقين.

لقد استقام لنا عند النظر في خطة البحث أن نجعل الحديث موصولاً في الغزوات التي كانت مع قبائل العرب وبطونها بقيادة زعامات محليّة من رجالات هذه القبائل بعد أن انهارت زعامات قريش، مؤجِّلين البحث فيما كان من أحداث اليهود والمنافقين، والقضاء على هؤلاء وهؤلاء أفراداً وجماعات حتى نصل إلى الحديث عن (الحديبية ومعاهدتها) التي كانت نهاية النهاية لأحداث اليهود وربائبهم من المنافقين ذات الشأن التاريخي في صدر الإسلام، إذ لم يعد لهم ذكر في شأن من شؤون الحياة سوى ما بقي لبعض اليهود من وجود محدود محصور، يعملون فيه أجراء في أرض خيبر، حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن قتلوا رجلاً أنصارياً، وفدعوا رِجْل عبدالله بن عمر، فانكشف لعمر رضي الله عنه سوء طوياتهم واستمرارهم على الخيانة والغدر ونقض العهود والمواثيق، فنفَّذ فيهم أمر رسول الله ﷺ، وأجلاهم نهائياً للقضاء على فسادهم وإفسادهم وتطهير أرض الجزيرة العربية من رجسهم.

أما المنافقون فكانوا ربائب اليهود في لؤم الطباع، وسوء السريرة، وسيىء المكر، وتدبير المحقرات من الدسائس المنحطة عن رذائل الأرذال.

وقد بدأ انهيار هؤلاء الفجّار الجبناء بإجلاء أول قبيلة من اليهود الأخابث وهم بنو قينقاع أعْتى وأجرم طوائف اليهود، وكانوا صاغة في سوق المدينة، يساكنون أهلهاويخالطونهم في أسواقهم وأعمالهم، وكانوا أول يهود نقضوا العهود وحاربوا بعد (بدر) وقبل (أحد)، ثم بحصار بني النضير وإجلائهم بعد خذلان المنافقين لهم، وكانوا وعدوهم النصر لهم والقتال معهم، فلما كشَّرت الحرب عن أنيابها تخاذل المنافقون عنهم وجبنوا عن الوقوف معهم، ثم بحصار بني قريظة عقيب غزوة الخندق، لنقضهم عهد رسول الله ﷺ وممالأتهم أعداءه من شراذم الكفر والشرك والوثنية، وكان قد

دخل معهم في حصنهم فرعونهم أخبث يهود حيي بن أخطب، فقتل معهم في مقتلتهم.

ثم فتحت خيبر بعد الحديبية بنحو عشرين يوماً، وكان الله تعالى قد تقدم إلى عباده المؤمنين مبشراً لهم بفتحها فقال تعالى: ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وجمهور المفسرين من السلف والخلف على أنه فتح خيبر.

وهكذا كان القضاء على اليهود وقوتهم المادية وإجلاؤهم عن جزيرة العرب قضاء على المنافقين ودسائسهم وسيىء مكرهم وسوء ائتمارهم على المجتمع المسلم، فانماعوا بعدهم انمياع صخرة من الملح انساب عليها سيل جارف فأذابها في غثائه، وذهبوا يضاجعون الغثاء بعد أن ساقهم لؤم الطبع إلى حتوفهم جموعاً ووحداناً بغير قتال شن عليهم.

مَراحِلُ البَحث في الغَـزَوَات

ومن ثَمّ رأينا أن يكون البحث منذ ابتداء الجهاد القتالي الذي ألجىء إليه المسلمون إلجاء بغزوتي (بدر) و(أحد) جارياً على خمس مراحل جمعاً للمتوافقات ـ التي فرقتها الأحداث وشتّتها الزمن ـ في إطار واحد، تيسيراً على الناظـرين والقارئـين والباحثـين، وتقريبـاً لما يـطلبون من الـوقائـع والأحداث، دون أن تختلط بغيرها فيصعب العثور عليها، ويطول بهم التفتيش عنها، ويعسر ربط الوقائع المتشابهة بمثيلاتها.

المرحلة الأولى: وقد عقدناها على غزوتي (بدر) و(أحد) لأنهما أعظم الغزوات وأسبقها وأشملها لكثير من جوانب المنهج التربوي في الإسلام، لما في أحداثهما وألوان التربية فيهما، عقدياً وتعبداً، ونظماً اجتماعية، وسياسية عسكرية وأوضاعاً اقتصادية، وآداباً سلوكية من كل ما يردّ إليه كثير مما تنطوي عليه حياة المجتمع المسلم في حياته المستقبلة، وهو يحمل لواء دعوته إلى الله هادياً ومعلِّماً مسالماً، أو مصلحاً مرشداً أو مدافعاً مقاتلاً.

وقد فصَّلنا حديث هاتين الغزوتين تفصيلاً أتى على مقدماتهما ومباديهما وأحداثهما التي انتهت بها كل واحدة منهما، مبينين المعالم التي يستهدفها المجتمع المسلم في مسيرته لإعلاء كلمة الله، وإقامة موازين الحق والعدل بين الناس، أفراداً وجماعات، أمماً وشعوباً، ودولاً تحكم، وترْعى لإحلال التآخي الإيماني في شعاب الأرض محـل التفرق العنصـري، والشقاق المـذهبي والتعصب القومي، ليكون التراحم هو الدعامة القوية في حياة النـاس والأشياء.

المرحلة الثانية: والحديث فيها يجري من حيث انتهت المرحلة الأولى وما بدأ من البعوث والسرايا والغزوات في هذه المرحلة الثانية حتى ينتهي بنا الحديث إلى غزوة (الحديبية) ومعاهدتها التي كانت مقدمة ممهدة لأعظم فتح أعقبته سائر فتوحات الإسلام، وما كان لها من عظيم الأثر في دخول الناس في دين الله أفواجاً طوعاً ومحبة واقتناعاً، دون تعرض منا أثناء ذلك لما كان من مواقف اليهود وأحداثهم وخياناتهم وغدرهم ونقضهم العهود والمواثيق وفجور أفرادهم، مما أدّى إلى القضاء عليهم قضاء مبرماً شتّتهم في أرض الله إلا بقايا انجحروا في خيبر حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته إجلاء كاملاً عن جزيرة العرب لإفسادهم وفسادهم وسوء مكرهم.

والحديث في هذه المرحلة يدور حول بعض البعوث والسرايا والغزوات التي كان لها أثر في إبراز بعض جوانب المنهج في رسالة الإسلام، دون التقيد باستيعاب الروايات وسردها، ودون التقيد بترتيب الحوادث والوقائع ترتيباً زمنياً إذا لم يكن لهذا الترتيب شأن في إبراز جانب أو جوانب من منهج الرسالة الخالدة.

بَعْثُ الرَّجِيع

أسباب ذكر بعث الرجيع ملحقاً بالغزوات المختارة.

وأول ذلك وأشهره عقب (أحد) بعث الرجيع، لأن هذا البعث انطوى على أحداث ووقائع جعلته مندرجاً في إطار منهجنا في البحث ـ لما اشتمل عليه من معالم كانت أشبه ما تكون بالدروس التربوية العملية التي تلقّاها المجتمع المسلم في غزوة (أحد).

ولما كان فيه من بطولات فدائية كشفت عنها الشدائد والمحن، وأقامت بفدائيتها منائر اليقين الإيماني، وجعلت كلمة الكفر في عهوده هي السفلى، فداست عليها بأقدامها ولم تعطها شيئاً من الثقة بها وبمن يبذلها مزلقة للغدر، والخيانة، وهي ترى الموت يحفها من جميع جوانبها.

ولما ظهر في أبطال هذا البعث من قوة الحب الإيماني لرسول الله ﷺ عند الذين كانت رقابهم تحت شفرات السيوف، وهم ينظرون إلى الموت يهرول إليهم ليتخطّفهم، فلا يرضون أن يفديهم رسول الله ﷺ بشوكة يشاكها، وهو ﷺ في مكانه بين أصحابه آمناً معززاً موقراً، وينجون بأنفسهم من الموت.

والرجيع الذي سمّي به هذا البعث موضع لهذيل بين مكة وعسفان بناحية الحجاز كانت الوقعة بالقرب منه، فسميت به، قال الواقدي: والرجيع على ثمانية أميال من عسفان وكانت وقعته سنة أربع للهجرة، على رأس ستة وثلاثين شهراً منها.

وجعلها ابن إسحاق في أواخر سنة ثلاث من الهجرة، وهذا ليس

بخلاف لاحتمال احتساب الكسور من الشهور أو رفعها من البين.

اختلاف الروايات في أسباب بعث الرجيع وأحداثه وتحقيق ما وقع من توهيم للبخاري في مواهب القسطلاني.

وقد اختلفت الروايات في هذا البعث وفي أسبابه، وأحداثه اختلافاً واسعاً، فالبخاري رحمه الله تعالى أدخله في ترجمة الصحيح مع بعث بئر معونة وغيره، فقال باب غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، وبئر معونة وحديث عضل والقارة، وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه. وقد وهّم القسطلاني في مواهبه كلام البخاري، فقال: وقوله أي البخاري في الترجمة المتقدمة ـ يوهم أن بعث الرجيع وبئر معونة شيء واحد، وليس كذلك، لأن بعث الرجيع كان سرية عاصم وخبيب وأصحابه، وهي مع عضل والقارة، وسرية بئر معونة كانت سرية القرَّاء، وهي مع رِعْل وذَكْوان كما صرح به البخاري في حديث أنس، فقال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة، يقال لهم القراء، فعرض لهم حيّان من بني سُلَيم، ورِعْل وذَكْوان عند بئر يقال لها (بئر معونة).

وفي حديث أنس أيضاً من طريق قتادة أن رِعْلاً وذَكْوان وعُصيّة، وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدوٍّ فأمدهم بسبعين من الأنصار، كنا نسميهم القرَّاء في زمانهم.

ثم اعتذر القسطلاني عن نقده لصنيع البخاري، فقال: وكأن البخاري أدمجها أي الرجيع ـ معها ـ أي بئر معونة ـ لقربها منها.

ثم قال القسطلاني: ويدل على قربها منها ما في حديث أنس من تشريك النبي ﷺ بين بني لحيان، وبين عصيّة وغيرهم كرِعْل وذَكْوان في الدعاء عليهم في قنوت الصبح شهراً.

قال الزرقاني في شرحه لمواهب القسطلاني: ووجه الدلالة أن بَعْث الرجيع مع بني لحيان، وبئر معونة كانت مع عصية ورعل وذكوان، وقد جمع الكل في الدعاء.

ثم قال القسطلاني في الاعتذار عن توهيمه لكلام البخاري رحمه الله في ترجمته، ولم يُرد البخاري أنها قصة واحدة لأنه خلاف الواقع، وإن أوهمه كلامه، وبالتأمل يظهر أنه لا إيهام.

وهذا كله كلام بعيد عن التعمق والنظر المتمهل في كلام الإمام البخاري، وكذلك هو بعيد عن التفقه في الأحاديث التي أوردها تحت عنوان ـ باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة، لأن جمع عدة سرايا وبعوث تحت ترجمة واحدة ـ ثم ذكر أحداثها ووقائعها المختلفة باختلاف أسبابها وما جرى في كل بعث أو سرية منها ـ لا يدل من قريب أو بعيد على أن هذه البعوث والسرايا أدمجت فجعلت شيئاً واحداً.

ويدل على أن الإمام البخاري رحمه الله قصد إلى ذكر أحداث وبعوث وسرايا مختلفة تحت باب يجمعها في صحيحه لتقارب بعض أحداثها وتشابه بعض وقائعها أنه أفرد لكل بعث أو سرية منها حديثاً أو أحاديث، فقد ساق رحمه الله حديث أبي هريرة مقصوراً على بعث الرجيع، ثم ذكر بعده حديث أنس بن مالك وهو خاص ببعث بئر معونة، فأين الدمج بين البَعْثين وأحداثهما الذي يوهمه كلام البخاري كما زعم القسطلاني.

وقولُ الزرقاني في شرح المواهب بعد أن ساق كلام الواقدي: إن خبر بئر معونة وخبر أصحاب الرجيع جاء إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة، فهذا يدل على أن البخاري أدمجها معها للقرب ـ بعيد جداً، والبخاري أجلّ من أن يفوت عليه مثل هذا، وهو لم يدمج القصتين في الذكر إلا في العنونة، لكنه في تفصيل الأحداث أفرد كل قصة بما صح عنده.

الرد على الزرقاني في استدلاله بكلام الواقدي على إدماج البخاري للوقعتين.

على أن وصول خبر حادثين أو حوادث وقعت لبعوث النبي ﷺ وسراياه في ليلة واحدة أمر غير غريب، بل هو مما يؤلف ويقع كثيراً، لأن النبي ﷺ لم يكد يفرغ يوماً من أيام حياته الجهادية من إرسال بعث هنا، وسرية هناك، وهو ﷺ لا يرسل بعوثه وسراياه إلا وهو مترقب أخبارهم تأتيه بما وقع لهم، وبما عساهم أن يطلبوه من مدد أو إرشاد وتوجيه، فمجيء خبر الحادثين في ليلة واحدة لا يخفى أمره على آحاد الناس فضلاً عن سيِّد المحدِّثين الإمام البخاري.

فدعوى أن البخاري أدمج القصتين لمجيء خبرهما في ليلة واحدة غير مسلّمة؛ لأن مجيء الخبر عن أحداث متعدّدة وقعت في زمن متقارب أو

متوحد لا يسوّغ ادّعاء الإدْماج على البخاري، لأن كثيراً من أخبار الوقائع المختلفة زماناً ومكاناً وأحداثاً كانت تصل إلى النبي ﷺ في وقت واحد وزمن متقارب من الليل والنهار، ولم يؤدِّ ذلك بأحد من الرواة إلى دمج الأخبار وحوادثها وجعلها حادثاً واحداً، وأصل كلام القسطلاني لابن حجر في الفتح، وكان من الحق على القسطلاني أن ينسبه إلى قيّم صحيح البخاري الحافظ ابن حجر ليحمل كلٌّ مسؤوليته.

والبخاري رحمه الله بعد أن عنون لغزوة (الرجيع) وغزوة (بئر معونة) ذكر تحت هذا العنوان الذي توهَّم منه من توهَّم عن البخاري أن صنيعه هذا يوهم أن غزوة الرجيع وبئر معونة شيء واحد.

الرد على ابن حجر في توهيم البخاري.

قال ابن حجر في الفتح: (تنبيه) سياق هذه الترجمة يوهم أن غزوة الرجيع و(بئر معونة) شيء واحد، وليس كذلك كما أوضحته، فغزوة (الرجيع) كانت سرية عاصم وخبيب في عشرة أنفس، وهي مع عضل والقارة، وبئر معونة كانت سرية القراء السبعين، وهي مع رعل وذكوان، وكأن المصنف - أي البخاري - أدرجها معها لقربها منها، ويدل على قربها منها ما في حديث أنس من تشريك النبي ﷺ بين بني لحيان وبني عصية وغيرهم في الدعاء عليهم، وذكر الواقدي أن خبر بئر معونة وخبر أصحاب الرجيع جاء إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة.

ونحن نسوق حديث أبي هريرة كما أخرجه البخاري رحمه الله ليتبين منه أن البخاري بريء من تهمة الإدماج أو الإدراج بين (الرجيع) و(بئر معونة).

قال البخاري: حدثني إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف عن معمر، عن الزهري، عن عمرو بن أبي سفيان الثقفي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بعث النبي ﷺ سرية عيناً، وأمَّر عليهم عاصم ابن ثابت - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب - : بل خاله، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفان ومكة ذُكروا لحيٍّ من هُذَيل، يقال لهم بنو لِحْيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا به نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم،

فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فَدْفَد ـ أي رابية مشرفة ـ وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا:

لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللّهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقى خُبَيب وزيد، ورجل آخر ـ هو عبدالله بن طارق ـ كما في رواية ابن إسحاق ـ فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حَلّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما ـ أي عبدالله ابن طارق ـ هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما في مكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني، وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خُبَيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلِّ ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لأكثرت، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللّهم أحصهم عدداً، ثم قال:

قصة خبيب وزيد بن الدثنة في يقينهما ورسوخ إيمانهما وشديد حبهما لرسول الله ﷺ.

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شقٍّ كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإلّه وإن يشأ يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم ـ قال ابن حجر: لعل العظيم المذكور عقبة بن أبي معيط، فإن عاصماً قتله صبراً بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر.

ثم قال ابن حجر: ووقع عند ابن إسحاق وكذا في رواية بريدة ابن سفيان أن عاصماً لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه وبيعه من سلافة بنت سعد ابن شهيد، وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة العبدري، وكان عاصم قتلهما يوم أحد، وكانت نذرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه، فمنعته الدبر.

هذا أول حديث ساقه الإمام البخاري تحت عنوانه المتقدِّم الذي جمع فيه بين غزوة (الرجيع) وغزوة (بئر معونة) مع أسماء الذين قتلوا من رجال الغزوتين، وأسروا في (الرجيع) خبيباً وزيد بن الدثنة، مما أدخل الوهم على من اتهم سياق البخاري بأنه يوهم أن غزوتي (الرجيع وبئر معونة) كانتا شيئاً واحداً.

دلالة حديث أبي هريرة على عدم دمج الواقعتين وجعلهما شيئاً واحداً كما زعمه ابن حجر على البخاري.

والحديث كما يرى أي ناظر فيه مسوق بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، وليس فيه ـ على طوله ـ بالنسبة للأحاديث الآتية في الموضوع عن أنس، عبارة أو كلمة أو حرف يوحي من قريب أو بعيد بشيء ممّا يخص غزوة بئر معونة أو شيء مما يصل الغزوتين ببعضهما فضلاً عن أن يكونا شيئاً واحداً، لا في أسبابهما المحرِّكة لهما، ولا في عدد رجالهما، ولا في تسمية أمير كل غزوة منهما، ولا في مكان وقعتهما وأحداثهما ووقائعهما.

ثم ساق الإمام البخاري رحمه الله عقب حديث أبي هريرة عدداً من أحاديث أخر تختص بغزوة (بئر معونة) وهي غزوة شهرت في تاريخ المغازي باسم غزوة (القرّاء) لأن رجالها كانوا يعرفون في زمانهم بالقرّاء، وهذه الأحاديث كلها عن أنس، لكنها بأسانيد مختلفة.

أولها ـ قال البخاري رحمه الله: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة، يقال لهم (القرّاء) فعرض لهم حيان من بني سُلَيم: رعل، وذَكْوان عند بئر يقال لها (بئر معونة) فقال القوم ـ أي الصحابة ـ والله ما إياكم أردنا، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ فقتلوهم، فدعا عليهم النبي ﷺ في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت.

ثانيها ـ قال البخاري حدثنا عبد الأعلى بن حمّاد، حدثنا يزيد ابن زُريع، حدثنا سعيد عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رِعْلاً، وذَكْوان وعُصّية، وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدوٌ فأمدهم بسبعين من الأنصار، كنا نسمِّيهم القرّاء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلّون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنت شهراً، يدعو في الصبح على أحياء من أحياء العرب، على رِعْلٍ وذَكْوان، وعُصَيّة، وبني لحيان.

ثالثها ـ قال البخاري رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا همّام، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، قال حدثني أنس أن النبي ﷺ بعث خاله ـ أي خال أنس ـ أخا أم سُلَيم ـ أم أنس ـ في سبعين راكباً، وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل، خيّر بين ثلاث خصال ـ أي خيّر النبي ﷺ ـ فقال: يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف، فطُعن عامر في بيت أم فلان، فقال غدّة كغدّة البكر في بيت امرأة من آل بني فلان؟ ائتوني بفرسي فمات على ظهر فرسه، فانطلق حرام ـ أخو أم سُلَيم ـ هو ورجل أعرج وثالث معهما هكذا صوّب هذه العبارة ابن حجر، قال حرام أخو أم سليم لصاحبيه: كونا قريباً فإن آمنوني كنتم وإن قتلوني أتيم أصحابكم.

قال حرام للمشركين: أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ، فجعل يحدِّثهم، وأمأوا إلى رجل، فأتاه من خلفه فطعنه حتى أنفذه بالرمح، قال حرام خال أنس: الله أكبر فزت ورب الكعبة، فلحق الرجل فقتلوا كلهم غير الأعرج، كان في رأس الجبل.

رابعها ـ قال البخاري رحمه الله: حدثني حيان، أخبرنا عبدالله، أخبرنا معمر قال: حدثني ثُمامة بن عبدالله بن أنس انه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: لما طعن حرام بن ملحان يوم بئر معونة قال بالدم هكذا فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة.

خامسها ـ حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: قالت عائشة: فكان

عامر بن فهيرة غلاماً لعبد الله بن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها، فلما خرج رسول الله ﷺ من غار ثور هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه خرج معهما عامر بن فهيرة يخدمهما، يُعْقبانه حتى قدما المدينة، فقتل عامر بن فهيرة يوم (بئر معونة). قال البخاري: وعن أبي أسامة قال: قال هشام بن عروة، وأخبرني أبي قال: لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة قال عامر بن الطفيل: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع.

فأتى النبيَّ ﷺ خبرُهم فنعاهم فقال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا» فأخبرهم عنهم.

ثم ذكر البخاري عدداً من الأحاديث في القنوت، وفيها حديث عاصم الأحول الذي سأل فيه أنس بن مالك رضي الله عنه عن موضع القنوت من الصلاة، وذكر له أن فلاناً يخبر عنك أنك قلت: إن القنوت كان بعد الركوع فقال أنس كذب، إنما قنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً أنه كان بعث ناساً يقال لهم القُرّاء وهم سبعون رجلاً إلى ناس من المشركين وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد قبلهم، فظهر هؤلاء الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فقنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً يدعو عليهم.

أظهر الفوارق التي تمنع من زعم دمج البخاري قصتي الرجيع وبئر معونة.

هذا عدد من الأحاديث بأسانيد مختلفة كلها عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهي خاصة بغزوة (بئر معونة)، وهي المعروفة في تاريخ الغزوات بغزوة (القُرّاء) وكلُّهم من الأنصار، وليس فيها جملة، أو كلمة أو حرف تشير من قريب أو بعيد إلى شيء من غزوة (الرجيع)، فمن أين تسلّل اتهام سياق البخاري - وهو سيد المحدثين - بأنه يوهم جعل (الرجيع) و(بئر معونة) شيئاً واحداً؟ وبين الغزوتين في أحاديث البخاري نفسه مغايرات وفوارق كثيرة.

أولاً - أن غزوة (الرجيع) رجالها عند البخاري عشرة رجال، وغزوة (بئر معونة) رجالها سبعون عند البخاري، كلهم من الأنصار، وكانوا يسمون

القرّاء في زمانهم، وشهرت غزوتهم باسمهم، وعرفت بين المغازي بغزوة القرّاء، وعنونَ لها ابن سعد في الطبقات باسم أميرها (المنذر بن عمرو الساعدي الأنصاري) وهو الملقب باسم (المُعْنِق ليموت) أخذاً من قول رسول الله ﷺ (أعنق ليموت) لأنه رضي الله عنه لمّا رأى مصرع حَرَام ابن مِلْحان خال أنس بن مالك شدّ على أعداء الله المشركين الغدرة فقاتلهم، وهو لا يبالي بكثرة جموعهم وقوتهم المادية حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ منوِّهاً بشجاعته وبطولته (أعنق ليموت) أي إنه تقدم للموت وهو يعرفه.

ثانياً ـ إن غزوة (الرجيع) كان أميرها عند البخاري عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح الأنصاري جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وقد سبق لنا أنه خاله، لا جده.

أما أمير (بئر معونة) فهو كما ذكرناه (المنذر بن عمرو الساعدي) وهذا فرق أساسي بين الغزوتين لا يمكن أن يصيرا معه شيئاً واحداً كما زعم من وهّم سياق البخاري.

ثالثاً ـ أن غزوة (الرجيع) كانت مع عضل والقارة كما هو صريح نص البخاري، وهما بطنان من بني سليم وسرية (بئر معونة) كانت مع رعل وذكوان، وهما أيضاً من بني سليم.

رابعاً ـ أن أحداث غزوة (الرجيع) ووقائعها مغايرة كل المغايرة لأحداث ووقائع (بئر معونة)، فأمير (الرجيع) عاصم بن ثابت وقف للموت وقفة الأبطال، فلم يخدع بعهود المشركين ولم يرض أن يثق بهم فقال إذ أعطاهم المشركون العهد ألا يقتلوا أحداً منهم إذا نزلوا إليهم: (أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر) فقاتل حتى قتل في سبعة من رجاله، وقد أكرمه الله تعالى أفضل وأعجب إكرام إذ حمته الدَّبْر أن لا يمسه مشرك، وأما أمير (بئر معونة) فقد ذكرنا موقفه البطولي، وهو وإن كان يتفق في الشجاعة والبطولة وحب الشهادة في سبيل الله مع موقف عاصم أمير غزوة (الرجيع) لكنه يختلف معه في الأسلوب والطريقة التي اختارها للاستشهاد والموت عزيزاً كريماً.

كل هذه المغايرات والفوارق بين الغزوتين مذكورة صراحة في سياق البخاري لأحاديث الغزوتين؛ فكيف إذاً ساغ للحافظ ابن حجر - وهو بشهرة فتحه الذي شرح به صحيح البخاري قيِّم شراح الصحيح - أن يزعم أن سياق البخاري للغزوتين يوهم أنهما شيء واحد؟

هذا أمر عجيب من ابن حجر فتح به باباً لنقد سياق البخاري دخل منه من لم يسند هذا النقد لصاحبه، فكثّر على البخاري نقّاده، وهو في الحقيقة الناقد الوحيد، ونقده أملته الغفلة وعدم التعمق في صنيع البخاري، لأن التراجم إنما توضع عنواناً لما يساق تحتها من المسائل والقضايا والموضوعات المتناسبة لا الموحدة.

وجمع عدة بعوث أو سرايا، وذكر أحداثها ووقائعها المختلفة باختلاف أسبابها ونتائجها تحت ترجمة واحدة مع إفراد كل بعث أو سرية بنصوصه الخاصة بوقائعه في مباديه ونهاياته لا يدل من قريب أو بعيد على أن هذه البعوث والسرايا أدمجت فجعلت شيئاًواحداً، وهو أمر معهود عند المؤلفين غير منكور عليهم.

تخصيص كل قصة بأحاديث دليل قاطع على نفي تهمة الإدماج.

ويدل على أن البخاري رحمه الله قصد إلى ذكر أحداث بعوث وسرايا مختلفة الوقائع والأسباب تحت عنوان يجمعها في ترجمته لتشابه بعض أحداثها وتقارب زمنها أنه أفرد لكل بعث منها حديثاً أو أحاديث تخصه ولا تدمج معه وقائع بعث آخر يجعله معه شيئاً واحداً.

ولهذا ساق البخاري رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة بسنده مقصوراً على بَعْث (الرجيع) وما فيه من أحداث ووقائع، ثم قفّاه بذكر عدّة أحاديث مقصورة على أحداث (بئر معونة) بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه.

فقول الزرقاني في شرح كلام القسطلاني في المواهب الذي أخذه من ابن حجر في الفتح - بعد أن ساق كلام الواقدي -: إن خبر (بئر معونة) وخبر أصحاب الرجيع جاء إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة - وهذا محتمل الوقوع - بيد أن قوله: فهذا يدل على أن البخاري أدمجهما لقرب زمنهما - بعيد جداً، لأن البخاري رحمه الله لم يدمج القصتين بجعلهما قصة واحدة وهذا بيّن لا يحتاج

إلا لإزالة الرمص عن العين، لأن البخاري أفرد كل قصة بذكر ما صح عنده فيها من الأحاديث والآثار.

ووصول أخبار القصتين إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة لا يدل قط على الإدماج المدّعى على البخاري لأن كثيراً من أخبار الوقائع المختلفة زماناً ومكاناً وأشخاصاً، ووقائع وأحداثاً، ومقدمات ونتائج كانت تصل إلى النبي ﷺ في وقت واحد وزمن متقارب من الليل والنهار، ولم نر أحداً يقول إن مجيء أخبار الحوادث المختلفة في وقت واحد يجعلها مدمجة لتصير شيئاً واحداً.

تلميح ابن كثير إلى ترجيح سياق ابن إسحاق من باب التمليح.

ومن أعجب العجب أن نرى ابن كثير ينهض لنقد البخاري فيقول موازناً بين سياقه لقصتي (الرجيع) و(بئر معونة) وسياق محمد بن إسحاق صاحب السيرة، بل مرجّحاً سياق ابن إسحق على سياق البخاري، بعد أن ذكر حديث أبي هريرة في قصة الرجيع عند البخاري: هكذا ساق البخاري في كتاب المغازي من صحيحه قصة (الرجيع) وقد خالفه محمد بن إسحاق، وموسى بن عقبة، وعروة بن الزبير في بعض ذلك.

ولنذكر كلام ابن إسحق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف، على أن ابن إسحق إمام في هذا الشأن غير مدافع كما قال الشافعي رحمه الله تعالى: من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق.

وقبل أن نذكر كلام ابن إسحق كما ساقه ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) نقف وقفة مع ابن كثير، لأن كلامه على غرابته يحتاج للكشف عن بعض ما فيه من الغلو والمبالغة في الثقة في ابن إسحاق، وهو لا يجري في غلوة البخاري في دقة النظر مع علو زمنه عن زمن البخاري.

ذلك لأنه لا يوجد ميزان عند أهل العلم العارفين بالرجال وأقدارهم وخصائصهم يقبل أن يوضع محمد بن إسحق في ميزان مع البخاري.

وإمامة ابن إسحاق التي لا يدفع عنها إنما هي إمامة جمع الروايات والحوادث والقصص، والأشخاص وقبائلهم وبطونهم، وما يحمل إليه وعليه

من أشعار منتحلة يتقبلها بحسن نية وشيء من الغفلة، ولا يمكن أن تصعد إلى مدرجة البخاري في صحة أسانيده وثقة الرجال.

كلمة الإمام الشافعي في تزكية ابن إسحاق لا دلالة لها على دعوى ابن كثير.

وقول الإمام الشافعي الذي ساقه ابن كثير ليزكّي به ابن إسحاق في مخالفته للبخاري لا يحمل أكثر من أن ابن إسحاق جمّاع للروايات حفّاظ للقصص والحوادث ووقائع السيرة التي كانت ولعلها لم تكن، فهو أشبه بتاجر يجمع المواد ويعطيها لمن أراد استخدامها في مقاصده وأغراضه، ولا يعنيه وراء ذلك صحة ما يرويه إسناداً.

وتهذيب سيرته الذي قام به عبد الملك بن هشام حتى أصبحت السيرة الإسحاقية هي هذا التهذيب الذي اشتهر فشرّق وغرب، وغار وأنجد يحمل الدليل القاطع على حدود إمامة ابن إسحاق في المغازي والسير.

إيراد ابن كثير كلام ابن إسحاق وغمزه لسياق البخاري.

قال ابن كثير وهو يسوق كلام ابن إسحق في قصة (الرجيع): قال محمد بن إسحق: حدثنا عاصم بن عمرو بن قتادة قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رَهْطٌ من عضل والقارة، فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام.

فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة من أصحابه، وهم: مرثد ابن أبي مرثد الغنوي، حليف حمزة بن عبدالمطلب، وهو أمير القوم، وخالد ابن البكير الليثي حليف بني عدي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عدي، أخو بني جحجبى بن كلفة بن عمرو، وزيد بن الدثنة أخو بني بياضة بـن عامر، وعبدالله بن طارق حليف بني ظفر، رضي الله عنهم.

قال ابن كثير: هكذا قال ابن إسحاق: إنهم كانوا ستة، وكذا ذكر موسى بن عقبة وسمّاهم كما قال ابن إسحاق، وعند البخاري كانوا عشرة، وعنده أيضاً كان كبيرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ـ فالله أعلم ـ.

قال ابن إسحاق: فخرجوا مع القوم حتى كانوا على (الرجيع) ماء

لهذيل بناحية الحجاز غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلاً، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا سيوفهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم، فأما مرثد وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً ثم قاتل حتى قتل وقتل صاحباه.

رسوخ يقين عاصم ابن ثابت واستشهاده يمثلان ذروة منهج الرسالة في عدم الثقة بأعداء دين الإسلام.

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه سلافة بنت سعد ابن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمرَ في قحفه، فمنعته الدبر، فلما حالت بينهم وبينه قالوا دعوه حتى يمسي فيذهب فنأخذه، فيبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً فذهب به، وكان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك وأن لا يمس مشركاً أبداً تنجّساً، فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدَّبْر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن.

قال ابن إسحاق: وأما خبيب وزيد بن الدثنة وعبدالله بن طارق فلانوا ورقُّوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبدالله بن طارق يده من القِران، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران.

وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنة فقدموا بهما إلى مكة فباعوهما من قريش بأسيرين كانا بمكة.

رسوخ الإيمان وبلاهة الشرك في محاورة بين زيد بن الدثنة وأبي سفيان بن حرب.

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية، ليقتله بأبيه، فأخرجه من الحرم، واجتمع الرهط من قريش فيهم أبو سفيان ابن حرب، فقال أبو سفيان لزيد حين قدِّم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب

أصحاب محمد محمداً ـ قال ابن إسحاق: وأما خبيب فلبث عند ماوية مولاة حجير بن أبي إهاب ـ أسلمت بعد ـ وذكر ابن إسحق قصتها مع خبيب وطفلها، وقصة قطف العنب الذي رزقه الله خبيباً فكان يأكل منه وما بمكة من ثمرة، وإخراجه إلى التنعيم ليقتلوه، وصلاته الركعتين على نحو قريب مما ذكره البخاري.

قال ابن كثير: وفي مغازي موسى بن عقبة أن خبيباً وزيد بن الدثنة قتلاً في يوم واحد، وأنهم لما صلبوا زيداً رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه، فما زاده ذلك إلا إيماناً.

وذكر ابن عقبة أنهم لما وضعوا خبيباً على الخشبة نادوه بمثل ما نادوا به زيداً في حبِّه رسول الله ﷺ، فأجابهم بـأنه يفديه ﷺ بنفسه من أقل ألم يلم به، على غرار ما أجابهم به زيد رضي الله عنهما.

الاختلاف
بين سياق البخاري وسياق ابن إسحاق
في قصتي (الرجيع) (وبئر معونة)

ذكر ابن كثير في (البداية) عن الواقدي أن سرية (الرجيع) كانت في صفر سنة أربع من الهجرة، وقال: بعثهم رسول الله ﷺ لأهل مكة ليخبروه، ثم قال: والرجيع على ثمانية أميال من عسفان.

ثم ساق ابن كثير حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإخراج البخاري، وهو أوفى الروايات التي ساقها ابن كثير، وقال في عقبها: هكذا ساق البخاري في كتاب المغازي من صحيحه قصة (الرجيع) ثم قال: ورواه ـ أيضاً ـ في التوحيد، وفي الجهاد من طرق عن الزهري عن عمرو ابن أبي سفيان وأسد بن حارثة الثقفي حليف بني زهرة.

ثم قال ابن كثير: وفي لفظ للبخاري، بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عيناً، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وساق نحوه.

الوجه الأول في الاختلاف بين سياقي البخاري وابن إسحاق

وقد حاولنا في نطاق البحث أن نجيل النظر في سياق البخاري وابن إسحق للقصة، فكان من أظهر ما بدى لنا من التفاوت والاختلاف بينهما عند التحقيق هذه الأمور.

أولاً ـ أن البخاري ذكر سرية (الرجيع) في حديث أبي هريرة على أنها كانت عيناً لرسول ﷺ بعثها إلى مكة لتأتي بأخبار قريش، وهذا أمر معقول تقتضيه متابعة السياسة للوقوف على ما يجري في صفوف أعداء المجتمع المسلم من تدبير وحركة لأن سَرِيّة (الرجيع) كانت قليلة عدد الرجال مما يناسب أن تكون عيناً لمعرفة الأخبار، ويُسْر التخفي للإحاطة بشيء من

الأسرار، وكانت بُعَيد (أُحد) التي جرى فيها على المجتمع المسلم ما جرى من شدائد الأحداث والمحن، وكانت آثارها وعواقبها لا تزال تقلق المجتمع المسلم المتحفز إلى مفاجآت العدو، وتجعل رسول الله ﷺ شديد الحرص على معرفة ما يدور في محافل قريش وتفكيرها وتدبيرها، ولاسيما بعد الذي وقع في (حمراء الأسد) من التآمر القرشي بزعامة أبي سفيان بن حرب، وعزمهم على الرجوع إلى المدينة ليفرغوا ممّن بقي من أبطال كتائب الإسلام، وما كان من موقف الوفاء والنبل الذي وقفه معبد الخزاعي مثبِّطاً ومخذِّلاً أولئك المتحمسين للرجوع إلى مهاجمة المجتمع المسلم في عقر داره في المدينة المنورة، إذ قال لقريش وهي تستعد للرجوع بأن محمداً ﷺ وأصحابه قد جمعوا لهم جموعاً لا طاقة له بلقائهم، وهم متحرقون غيظاً عليهم، يريدون قتالهم وهم في الطريق إليهم، وكأنهم بمقدمة الخيل تحمل الأبطال إليهم قد أظلتهم، ففزعوا ورعبوا، وداخلهم الفشل، وعزموا على السير إلى مكة فراراً أن ينزل بهم ما أنبأهم به معبد الخزاعي من مفاجأة القتال، فكان من الحزم السياسي وحكمة التدبير، وبعث اليقظة الحازمة أن لا يترك رسول الله ﷺ أمر قريش وتدبيرها دون أن يعمل على التعرف عليه والإحاطة به، ليكون أصحابه على بصيرة من أمرهم.

أما ابن إسحاق فقد جعل سبب هذه السرية استجابة رسول الله ﷺ لنفر من عضل والقارة قدموا على رسول الله ﷺ وذكروا له أن فيهم إسلاماً وهم يريدون أن يبعث معهم نفراً من أهل العلم في أصحابه، لتعليمهم شرائع الإسلام، فبعث معهم ﷺ ستة نفر من أصحابه ليقوموا بهذه المهمة التي هي إحدى دعائم الدعوة إلى الله تعالى.

التوفيق بين سياقي البخاري وابن إسحاق في وجه الاختلاف الأول بين السياقين.

وهذا - عند التأمل - ليس اختلافاً ولا تفاوتاً يوجب الموازنة بين سياقي الغزوة عند البخاري وابن إسحق، لاحتمال التوافق بالتوفيق بين الروايتين، وذلك بحمل السبب الأول لبعث السرية على إرادة التعرف لأخبار قريش وتدبيرها، ليتخذ رسول الله ﷺ أهبته واستعداده لما عسى أن تكون قريش قد دبرته وائتمرت به من مكر سيء يكيدون به المجتمع المسلم.

ثم قُبيل أن تأخذ البعثة طريقها إلى مهمتها في التعرف على أخبار المشركين وهم في بلدهم يأتمرون حضر نفر من عضل والقارة ليطلبوا من رسول الله ﷺ بعث نفر من أصحابه يفقهونهم في الدين، فرأى رسول الله ﷺ أن فرصة إجابتهم إلى طلبهم تتحقق بهذه السرية المرسلة إلى مكة عيناً لتعرف أخبار المشركين فيها.

ولا تنافي مطلقاً بين مهمتي البعثة: مهمة تعرف أخبار الأعداء من قريش في مكة، ومهمة التفقيه في الدين، وحينئذ فلا اختلاف ولا تفاوت في سياقي البخاري وابن إسحاق لقصة (الرجيع).

وقد ذكر الزرقاني في شرح المواهب نحو هذا، فقال: ويجمع - أي بين السياقين - بأنه لما أراد بعثهم عيوناً وافق مجيء النفر في طلب من يفقههم في الدين، فبعثهم في الأمرين.

الوجه الثاني في الاختلاف بين سياقي البخاري وابن إسحاق

ثانياً - أن البخاري رحمه الله ذكر أن سرية (الرجيع) كانوا عشرة رجال، موافقاً لابن سعد على ذلك، وجرى ابن إسحاق على أنهم كانوا ستة نفر، وهذا - أيضاً - ليس اختلافاً ولا تفاوتاً لاحتمال أن يكون رجال السرية الأصليين ستة نفر، والأربعة المكملون للعشرة كانوا أتباعاً لهم فلم يذكرهم ابن إسحق، واكتفى البخاري بذكر عدد من كانوا في السرية إجمالاً.

وقد أشار إلى هذا الحافظ ابن حجر فقال بعد أن ذكر في رجال السرية معتّب بن عبيد ومغيث بن عوف كما ذكره موسى بن عقبة: فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعاً فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم.

الوجه الثالث والجواب عنه

ثالثاً - أن البخاري ذكر أن السرية كانت تحت إمرة عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح الأنصاري، أما ابن إسحق فجعل أمير السرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي.

وهذا الاختلاف في أمير السرية يحتمل أن أحد الأميرين المسمَّيَينْ كان أمير حرب، والآخر كان أمير تفقيه في الدين على حسب معرفتها وتربيتها في هذه المعرفة، ولذلك لما أبى عاصم أن ينزل على عهد الكفار وذمتهم قاتلهم

حتى فني نبله، فقتلوه، وقتلوا معه سبعة من أصحابه.

وفي رواية أن عاصماً نثر كنانته، وفيها سبعة أسهم، فقتل بكل سهم رجلاً من عظماء المشركين، ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه، ثم سل سيفه، وقال: اللّهم إني حميت دينك صدر النهار فاحمِ لحمي آخره، وقُتل عاصم في سبعة من رجال السرية، وفي هذا دلالة على أن عاصماً كان أمير حرب السرية إذا حوربت، وأن مرثداً كان أمير التفقيه في الدين وتعليم الجاهلين.

الوجه الرابع والجواب عنه.

رابعاً - أن رواية البخاري رحمه الله ذكرت أن الغادرين برجال السرية، الذين قتلوا من قتلوا من رجالها هم بنو لحيان، وهم حيٌّ من هذيل، ولم يذكر البخاري اشتراك عضل والقارة في هذا الغدر والقتل الخئون.

فأما ابن إسحاق فقد قال: إن عضل والقارة - وهما حيّان من هذيل، ومنهم النفر الذين قدموا على رسول الله ﷺ، يطلبون منه من يفقههم في الدين من أصحابه - هم الذين غدروا برجال السرية، واستصرخوا عليهم هذيلاً، فلم يرع رجال السرية وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهم، فأخذ رجال السرية سيوفهم ليقاتلوا الغادرين بهم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، فقاتلوا القوم حتى قتلوا، ونزل إليهم بالعهد خبيب وزيد وعبدالله بن طارق الذي تفلّت منهم في الطريق، وسل سيفه ليقاتلهم فرجموه بالحجارة حتى قتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة.

ومن هذا يتضح أن لا وجه لما زعمه ابن كثير من وجود تفاوت واختلاف بين صنيعي البخاري وابن إسحق في سياقهما لقصة (الرجيع)، وباب التوفيق واسع يمكن الخروج منه ببعض التأويل القريب عن مضائق الاختلاف في ظاهر الأمر بعد التأمل والنظر.

منحى آخر في سبب سرية (الرجيع)

على أن سرية (الرجيع) كان لها عند بعض أصحاب المغازي منحى آخر يتصل بسرية عبدالله أنيس الأنصاري إلى أحد شياطين الفجور من أخابث العرب، هو سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي ثم اللِّحياني.

وكان سفيان هذا يقيم بـ (عُرَنة) مدخل عرفات للحجيج القادمين من مكة ومنى، وليست (عرنة) من (عرفات) لوقفة الحجيج، فمن وقف بها ولم يقف بعرفة فلا حج له.

وقد توالت الأخبار على رسول الله ﷺ أن هذا الفاجر الخبيث، سفيان ابن خالد بن نبيح الهذلي ـ لعنه الله ـ قد جمع الجموع لحرب رسول الله ﷺ، فأراد النبي ﷺ أن يغافصه فيقضي عليه في زوبعة مهده، قبل أن يستفحل أمره ويستشري شره، فبعث إليه عبد الله بن أنيس الأنصاري، ثم الجهني وحده ليأخذه بغتة وهو غارق في فجور غروره.

سَرِيَّة عَبْدِالله بن أُنَيْس

إلى سفيان بن خالد وقتله

سيرّ النبي ﷺ عبدالله بن أنيس إلى سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي يوم الإثنين لخمسٍ خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة ليقتله بعد أنْ استفاضت الأخبار على رسول الله ﷺ أن هذا الفاجر الخبيث يريد حرب المجتمع المسلم، وهو يجمع الجموع لذلك.

شجاعة عبدالله ابن أنيس ووصف النبي ﷺ سفيان ابن خالد له ليعرفه.

وكان عبدالله بن أنيس رضي الله عنه من أفذاذ أصحاب رسول الله ﷺ شجاعة وبطولة وجرأة لا يهاب الموت في لقاء الرجال، ولكنه كان لا يعرف هذا الخبيث الفاجر الجوّاظ، فقال لرسول الله ﷺ: صفه لي يا رسول الله، حتى أعرفه، فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيته هبته وفَرِقْتَ، ووجدت له قشعريرة، وذكرت الشيطان».

وهذه صفات مفزعة مرعبة، تخلع القلب من بين أضالع من يسمعها، وتخيف أشجع الأبطال وأجرأهم أن يقدم على ملاقاة هذا الفاجر الذي تقمّصه الشيطان، أو تقمّص هو الشيطان، ولكن رسول الله ﷺ كان أعرف البشر بشياطين الفجور في البشر، كما كان ﷺ أعلم الناس بأصحابه وموازينهم في البطولة، وإقدامهم على الموت في سبيل إعلاء كلمة الله استجابة لرسول الله ﷺ إذا دعاهم لما يحييهم حياة أبدية خالدة.

وكان عبدالله بن أنيس من هؤلاء الذين يعرف رسول الله ﷺ شجاعتهم وإقدامهم على مواقف البطولة الفدائية، فندبه رسول الله ﷺ لمّا لم ير أن يندب له سواه من أبطال الصحابة رضوان الله عليهم.

ولما سأل عبدالله بن أنيس رسول الله ﷺ أن يصف له هذا الفاجر الخبيث وصفه له فصدقه، وضرب له المثل في عتوه وفجوره بالشيطان في لبسته الشيطانية الظاهرة والخفية مما لم يتفق لأحد من أعداء الإسلام أن يكون في صورته التي وضعه رسول الله ﷺ في إطارها.

وكانت الأخبار قد توالت على رسول الله ﷺ أن هذا الخبيث سفيان ابن خالد بن نبيح الهذلي اتخذ من (عُرَنة) وهي مدخل عرفات للحجيج القادمين من مكة والمدينة مقاماً له، ومجمعاً لكل من يلتف حوله من صعاليك العرب ومرتزقيهم لحرب رسول الله ﷺ، فأراد صلوات الله عليه أن يبغته بما لم يكن في حسابه وتدبيره ليقضي عليه وهو في مهده قبل أن يزداد عتوه، ويكثر جمعه، فبعث إليه البطل الجريء عبدالله بن أنيس الأنصاري الجهني صاحب السوابق البطولية الفدائية، وسيّره إليه في خفية حتى لا تتسرب أخبار سيره إلى هذا الفاجر، فيحذر، وكان عبدالله بن أنيس رضي الله عنه بطلاً شجاعاً جريء القلب لا يهاب الموت ولا يَفْرقَ من لقاء الأبطال في حَوْمة الوغى، ولهذا اختاره ﷺ ووصف له هذا الفاجر وصفاً محذراً فقال: «إذا رأيته هبته وفرقت، ووجدت له قشعريرة، وذكرت الشيطان» فقال عبدالله ابن أنيس رضي الله عنه: يا رسول الله ما فرقت من شيء قط، فقال له رسول الله ﷺ: «آية ما بينك وبينه ذلك» ليزيد في تحذيره، ويشدّ من عزيمته.

وهذا الوصف لشخصية هذا العتيّ الفاجر يدل على أنه بلغ من قبح المنظر، وسوء المشهد، وشراسة الخلق ولؤم الطبع، ودناءة النفس ما تتضاءل معه رؤوس الشياطين التي ضربها الله مثلاً لأقبح القبح وأسوأ السوء.

فرؤيته تمثل لرائيه صورة الشيطان في أقبح وأبشع مرائيه، ألقى الله عليه من أوصاف الفجور والقبح وبشاعة المنظر ما يجعله أمام كل من يراه مرعباً مخيفاً، يهابه أفتك الناس وأجرؤهم على الفتك.

فخرج إليه عبدالله بن أنيس رضي الله عنه، يمشي وحده، وليس معه إلا سيفه، وليس له على هذا الفاجر دليل سوى ما وصفه به رسول الله ﷺ، حتى وصل إلى موضعه الذي يقيم فيه، ويجمع الصعاليك على أرضه في

(عرنة) ولقيه في هذا الموضع وحوله جموع من الصعاليك والفتّاك، فوجده يمشي ووراءه الأحابيش ومن ضوى إليه من المرتزقة والفجار.

قال عبدالله بن أنيس رضي الله عنه: فهِبْته وعرفته بنعته ﷺ له، وقلت في نفسي: صدق الله ورسوله، فلما دنوت منه قال: ممّن الرجل؟ قلت: من خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد، فجئتك لأكون معك، وكان رسول الله ﷺ قد قال لابن أنيس (انتسب إلى خزاعة).

فقال الجوّاظ العُتّل ابن نبيح: أجل، إني لفي الجمع له، قال ابن أنيس: فمشيت معه وحدثته فاستحلى حديثي.

شجاعة وحكمة ابن أنيس.

وكان ابن أنيس قد استأذن النبي ﷺ أن يقول ـ أي من المعاريض ولحن الكلام والتورية ـ ما يدخل على هذا العتل الجواظ الفجور الطمأنينة إليه، حتى لا يداخله الشك فيه، وفي مجيئه إليه وموقفه منه ليؤكد له أنه جاء إليه ليكون معه.

قال ابن أنيس رضي الله عنه وهو يحدّثه ليرضي غروره: عجباً لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث، فارق الآباء، وسفّه أحلامهم.

وهذه كلمات سداها ولحمتها من الحق الصريح البين، فهي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لأنها إلهام الإيمان الصادق، واليقين الراسخ، وتنزيل السكينة على قلب كل مؤمن موطّد دعائم الإيمان وآيات الإخلاص المستنير بنور الهداية، وهي صريحة في مبانيها، بيّنة في معانيها، واضحة في حقائقها، ليس فيها من معاريض الكلام ولحنه وتوريّاته شيء، ولكن جهول هذيل وجواظ لحيان ابن نبيح لم يعقل منها إلا كما تعقل الحُمُر من أسفار الهداية والإيمان والمعرفة بالحق والعلم بالله تعالى ورسالاته إلى خلقه، وهي تحملها على ظهورها الدّبرة، فابتلعها كما سمعها على ما فيها من حميم يهرأ أمعاءه ويرسله إلى هاوية الفناء والعذاب المقيم، وكلها حق وهدى لأن محمداً رسول الله ﷺ أحدث ديناً هو الإسلام دين الحق الذي أرسله الله به ليخرج الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وهو دين سفّه عقول فجّار الطغاة من عَبَدة الحجارة والأوثان.

فقال العتل الخبيث ابن نبيح يستحلي كلمات ابن أنيس ويستطعمها متنفّجاً، قد نفشه الغرور الأحمق: إنه ـ أي محمداً ﷺ ـ لم يلق أحداً يشبهني، فوقعت كلمة هذا الفاجر الخبيث تحت قدمي عبدالله بن أنيس فداسها مع رمال الصحراء العرنية، ولم يعرها سمعاً يشغله عن القيام بحق رسالته التي بعثه بها رسول الله ﷺ، ومضت مارّة بأذنيه إلى ملاقف الرياح كأن لم يسمعها لتفاهتها إلى جانب ما جاء إليه من عظيمة العظائم.

ثم قال ابن أنيس يصف هذا الفاجر المتشيطن في مشيته وهو يتوكأ على عصا يهدّ الأرض من ثقل وطئه وعتو كبريائه وهو يماشيه ويحدثه حتى انتهى إلى خبائه، وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قريبة منه، وهم يطيفون به، ويلتفُّون حول خبائه، فقال لابن أنيس: هلمّ يا أخا خزاعة، فدنوت منه، وقال: اجلس ومشيت معه ساعة قبل الجلوس ثم جلست معه حتى هدأ الناس ونام أصحابه اغتررته، وحملت عليه السيف فقتلته وأخذت رأسه، ثم أقبلت فصعدت جبلاً فدخلت غاراً، وأقبل الطلب وأنا مكتمن في الغار، وضرب العنكبوت على الغار، وأقبل رجل معه إداوة ضخمة ونعلاه في يده، وكنت حافياً فوضع إداوته ونعله، ثم قال لأصحابه: ليس في الغار أحد، فانصرفوا راجعين، فخرجت فشربت ما في الإداوة ولبست النعلين وكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة، فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد، فقال لي عليه الصلاة والسلام: «أفلح الوجه» فقلت: أفلح وجهك يا رسول الله، ووضعت رأسه بين يديه، وأخبرته خبري، ودفع إليّ عصاً وقال: «تخصّرْ بها في الجنة، فإن المتخصرين في الجنة قليل».

فكانت هذه العصا عند عبدالله بن أنيس حتى إذا حضرته الوفاة أوصى أن يدرجوها في أكفانه، ففعلوا ودفنت معه.

* * *

قتل ابن نبيح كان سبباً في محنة الرجيع في رواية الواقدي.

أما المنحى الآخر في سبب سرية الرجيع ـ الذي أثارها وأشعل أوارها حتى انتهت بما انتهت إليه من الغدر الخئون والخيانة الغادرة مما أدّى إلى قتل جميع رجالها العشرة وقائدهم عاصم بن ثابت ـ فيرجع إلى ما ذكره الواقدي

متصلاً بقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي ثم اللحياني الذي قتله عبدالله ابن أنيس لتجميعه الجموع لمهاجمة المجتمع المسلم وإشعال الحرب على رسول الله ﷺ.

روى الواقدي عن شيوخه قال: مشت بنو لحيان من هذيل بعد قتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي إلى عضل والقارة فجعلوا لهم إبلاً على أن يكلِّموا رسول الله ﷺ أن يُخْرِج إليهم نفراً من أصحابه، فقدم سبعة نفر من عضل والقارة مقرِّين بالإسلام فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم رسول الله ﷺ رهطاً عشرة رجال، كما جاء في رواية الصحيح، وأمرّ عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، فلما وصلوا معهم إلى (الرجيع) وهو ماء لهذيل غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً ليعينوهم على قتلهم بعد أن عاهدوهم على أن لايقتلوهم، ولكن الغدرة خاسوا بالعهد فقتلوهم إلا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة رحمهما الله ورضي عنهما.

فهذا المنحى يدل صراحة على أن بني لحيان مشوا إلى عضل والقارة وهما بطنان من هذيل فأغروهم على خيانة الله ورسوله والمسلمين من أجل قطيع من الإبل قدّموه لهم ثمناً لخيانتهم وغدرهم.

وقبلت عضل والقارة أن يقوم نفرهم الذين قدموا على رسول الله ﷺ فحدّثوه الكذب والبهتان، وزعموا له ﷺ أن فيهم إسلاماً وهم منطوون على أحط ضروب الغدر، وأسفل دناءات الخيانة، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث معهم نفراً من أصحابه يعلمونهم الدين وشرائع الإسلام، وقد استأجرهم بنو لحيان قوم ابن نبيح الخبيث الفاجر بأبخس وأحط ما يستأجر به مرضى القلوب وضعاف النفوس للقيام بأحط خيانة تشمئز منها المروءة العربية فضلاً عن مكارم الدين وأخلاقه، لأن هؤلاء القوم تجردوا من كل إنسانية من أجل سقط من فتات متعفِّن تتلمظ إليه النفوس المريضة بالتعبد لرغائب الشهوات الوضيعة.

كشف عن معالم منهج الرسالة في سرية عبدالله بن أنيس.

وفي سرية عبدالله بن أنيس آيات بينات من جوانب منهج رسالة الإسلام التي ينبغي أن تحتذى في حياة المجتمع المسلم طريقاً للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وإعزاز الأمة الإسلامية في أوطانها المتفرقة، وتفرّقها المذل.

وقد نثرنا بعض هذه الآيات في عرضنا لأحداث القصة، لنذكر بما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم في الدفاع عن كيانه ودينه، وعزته وكرامته، وخصائصه التي كسبها من التربية النبوية له فأصبحت في تاريخه معلماً تميزه عن سائر الأمم الضالّة المتكالبة عليه تريد أن تلتهمه للقضاء على رسالته رسالة الهدى والنور والحق، ولتكون عقبات في طريق دعوته إلى إقامة موازين العدل والتآخي والتراحم، حتى تنفرد ديمقراطيتهم الملحدة الداعرة بالسلطان في الأرض.

فالرسول ﷺ رأى تجمعات الشرك والوثنية تتكاثف لتقف في وجه مسيرة الدعوة إلى الله، وسمع ﷺ عن تجمعات الفجور والكفر حول سفيان ابن خالد بن نبيح الهذلي ثم اللحياني لمهاجمة المجتمع المسلم في عقر داره، فندب عبدالله بن أنيس الأنصاري ثم الجهني وحده ليقضي على تجمعات هذا الفاجر الخبيث بالقضاء عليه قبل أن يتعاظم خطبه ويتفاقم خطره، لأن الذين تجمّعوا حوله كانوا شراذم من صعاليك العرب وفتاكهم، لا يحزمهم إلا رباط الفجور، وسفك الدماء ونهب الأموال، وهتك الاعراض، وسوء الأخلاق، وأخبث المقاصد والأغراض.

فاستجاب عبدالله بن أنيس لدعاء رسول الله ﷺ لمّا نُدب إليه، وأسرع إلى الصدع بأمره وهو يعلم أنه يخرج فلا يدري هل يحالفه النجح فيما ندب إليه، أم يصادفه الموت فيتخطفه وهو في مسيره.

وهذا ما يجب أن يكون عليه كل مسلم في حياته، ومن ثَمّ أقبل النصر على المسلمين في سحائب المحن تمطرهم بلاءً وتمحيصاً، فيزدادون على الحياة الجادة إقبالاً يطلبون الموت في مظانّ الجهاد لنصرة الحق.

وقد كانت شجاعة عبدالله بن أنيس الفدائية نسيج وحدها، وكان

تصرفه مع هذا الفاجر الخبيث تصرف البطل المؤمن الذي لا يهزه فجور أفجر الفاجرين في مظهرهم ومخبرهم، وكان رضي الله عنه قوي القلب، ثبت الجنان، راسخ اليقين، عظيم الإيمان.

فقد لقي فاجر هذيل، وخبيث لحيان، فلم يأخذه الفزع ولم يروعه الرعب، فماشاه وتحدث إليه، وعرفه بنعت رسول الله ﷺ له، فلم يفرق منه، حتى دخل معه خباءه وأصحابه حوله لا يردون له إشارة، ولا يرجعون إليه همساً.

ولم يتلبث ابن أنيس رضي الله عنه إلا بقدر أن يسدل الليل ثوب ظلماته على الحياة ويسكن هرج الفجار إلى هدأة النوم، وحينئذ يرى ابن أنيس رضي الله عنه أن فرصته تناديه وأن سيفه يدعوه، وهو أنيسه الوحيد في غربته الفدائية، فيقتل هذا الفاجر الخبيث ويحتز رأسه ويحملها معه في أوبته إلى رسول الله ﷺ، ويقضي على تجميعه وجموعه.

ويستقبل النبي ﷺ صاحبه البطل عبدالله بن أنيس رضي الله عنه استقبال نموذج أعدّه ﷺ بتربيته البطولية ليكون أسوة في حياة أمته.

وقد صحّح ابن هشام أن عبدالله بن أنيس قال هذه الأبيات في سريته، وما وقع فيها:

تركت ابن ثور كالحوار وحوله	نوائح تفري كل جيب مقدّد
تناولته والطعن خلفي وخلفه	بأبيض من ماء الحديد مهند
أقول له والسيف يعجم رأسه	أنا ابن أنيس فارساً غير قُعْدُدِ
وقلت له خذها بضربة ماجد	حنيف على دين النبي محمد
وكنت إذا هم النبي بكافر	سبقت إليه باللسان وباليد

آثار التربية المنهجية في مواقف أبطال سرية الرجيع.

ومن يتأمل موقف أبطال سرية (الرجيع) وما أبدوا من صبر صبور وشجاعة خارقة، وجلد على عظائم الأمور، ومقابلة لشدائد المحن بالرضا والتسليم، وتطلُّب للموت في ميادين العزّة والكرامة، والترفّع عن دنيات الحياة تطلُّباً للحياة من سمو وتقدّم للتضحية بأرواحهم، وهي أعز وأغلى ما يملكون، وإقدام على الاستشهاد برؤوس مرفوعة لا تطأطىء لغير عزة الله

وجبروته ـ يتجلّى له موقف الانحطاط الذي تمثل في الغدر والخيانة التي تسربلها الهذليون واللحيانيون، كما يتجلى له سمو التربية التي ربَّ عليها النبي ﷺ مجتمعه المسلم تطبيقاً لمنهج رسالته الخالدة.

وقد كانت هذه التربية ممثلة بآثارها العملية في مواقف أبطال سرية (الرجيع) الذين رسخ إيمانهم بالله تعالى، فكانوا في أشد مواقف الأزمات والتضحية أثبت من الأطواد الشامخات، كما ظهر ذلك في مواقف عاصم ابن ثابت أمير السرية في رواية البخاري، ومن قتل معه من أقرانه في البطولة وثبات الإيمان.

وكما ظهر في مواقف خبيب وزيد بن الدثنة، وهما يرفعان على خشبة الصلب ليقتلا على أبشع صورة وهم يرون الموت يمشي إليهم في رماح ونبل الغادرين من خائني هذيل ولحيان، ثم في موقف خبيب وهو محبوس في بيت ماوّية مولاة حُجَير بن أبي إهاب وهي تحدث عنه بعد إسلامها فتقول: ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، طلب مني حين أجمعوا على قتله حديدة يتطهّر بها استعداداً للموت، فغفلت عن ابن لي صغير، فدرج الطفل إلى خبيب، والموسى في يده فخشيت أن يقتله، ففزعتُ فزعةً عرفها خبيب، فقال أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، وفي رواية (ما كنت لأغدر) وهي رواية تعبر عن سمو التربية في المنهج الإسلامي؛ لأنها تبين أن الغدر أقبح القبح، يستوي فيه الأعداء والأولياء، لأنه خصلة ذميمة منحطة لا تصدر إلا عن نُفس جانبتها بداثه الفضائل الإنسانية.

ثم كما ظهر في موقف زيد بن الدثنة وخبيب، وقد سألهما فجّار الشرك والوثنية ـ ساعة رفعهما إلى خشبة الصلب ليقتلوهما على هذه الصورة الشنيعة البشعة تشفياً لأحقادهم فيهما وهما في قبضة أيديهم لا يخافون فرارهما من القتل ـ ننشدكما الله أتحبّان أن محمداً في مكانكما نضرب عنقه، وأنكما في أهلكما؟ فقال زيد بن الدثنة وخبيب بلسان ينطق بقوة الحب الإيماني لرسول الله ﷺ تعبيراً عما ملأ قلبيهما من إجلال لرسول الله ﷺ وحبه حباً فوق حبهما نفسيهما اللتين بين جنبيهما: ـ والله ما نحب أن يفدينا محمد ﷺ بشوكة تؤذيه وهو في مكانه، وأنّا بين أهلينا.

فقال أبو سفيان بن حرب وكان قائد القوم وزعيمهم: والله ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه كما يحب أصحاب محمد محمداً.

أجل إنها مواقف لا تجود بمثلها الحياة، ولا يعرفها البشر في تاريخ المجتمع البشري كله، لأنها مواقف تسامى فيها الإيمان في سموه ورسوخه تسامياً أملاه المنهج التربوي الذي ربى عليه محمد ﷺ مجتمعه المسلم، وجُعل شريعة في هذا المنهج قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده ونفسه التي بين جنبيه» فقال عمر بن الخطاب وهو يسمع التعبير عن هذا المنهج: لأنت يا رسول الله أحب إليّ إلا من نفسي فقال رسول الله ﷺ: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر: لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر» يعني إنك الآن كمل إيمانك إذ رقيت إلى ذروة الحب الإيماني.

إنها مواقف نور الإيمان وصفائه أمام ظلمات الكفر وكدورته وتسفّله ووضاعته وأحقاده وضغائنه، ومواقف البطولة المسلمة أمام فجور الشرك والوثنية، ومواقف حب الموت شهادة في سبيل الله لإعلاء كلمته أمام مهانة الاستعباد الكفور للشهوات، ومواقف الهداية أمام حالك الظلمات.

* * *

ذكر خبيب بن عدي فيمن شهد بدراً لم يعرفه أحد من أهل المغازي.

بقي في بحث سرية (الرجيع) إشكال غير مدفوع إلا بتعسُّف التأويل المتعصب للأسانيد، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في (الفتح) وهو يتكلم على قول أبي هريرة في حديثه عند البخاري: وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، واعتمد البخاري على ذلك، فذكر خبيب بن عدي فيمن شهد بدراً، وهو اعتماد متجه، لكن تعقّبه الدمياطي ـ شرف الدين، عبد المؤمن ابن خلف، أحد الأعلام الأفذاذ في القرن السابع ـ فقال: إن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي شهد بدراً، ولا هو قتل الحارث ابن عامر، وإنما ذكروا أن الذي قتل الحارث بن عامر ببدر هو خبيب بن إساف وهو غير خبيب بن عدي، وخبيب بن إساف أنصاري خزرجي، وخبيب ابن عدي أنصاري أوسي.

قال ابن حجر يجيب عن هذا الاعتراض القوي الذي لم ينكره أحد من الباحثين في القديم ولا في الحديث: قلت ـ أي ابن حجر ـ يلزم من كلام الذي قال ذلك ردّ هذا الحديث الصحيح ـ وما في ذلك ـ ؟ وصحة الحديث هنا ترتبط بصحة السند، وقد عارضها إجماع أولي الشأن من علماء المغازي بأن متن هذا الحديث غير صحيح تاريخاً، وقاعدتهم المتفق عليها أن صحة السند لا تستلزم صحة المتن، فردّ الحديث الصحيح سنداً لما عارضه من ضعف أو وهم في المتن لا يهدم شيئاً استقام بناؤه.

ثم قال ابن حجر مشيّداً لكلامه: فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث ابن عامر ما كان لاعتناء بني الحارث بن عامر بأسر خبيب معنى، ولا بقتله مع التصريح في الحديث الصحيح ـ سنداً ـ أنهم قتلوه به.

ثم نكص الحافظ على عقبيه متراجعاً بما يهدم إجابته، فقال: لكن يحتمل أنهم قتلوه ـ أي خبيب بني عدي ـ لكون خبيب بن إساف قتل الحارث على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض، ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شرك في قتل الحارث.

هذا كلام ابن حجر، أما النظر فيه فمن وجوه.

مناقشة ابن حجر في انتصاره لصحة السند مع ضعف المتن.

أولاً ـ إن صحة حديث البخاري الذي اعتمد عليه في ذكر خبيب ابن عدي فيمن شهد بدراً لا تتلاقى مع كلام الدمياطي الذي جزم بأن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي شهد بدراً، وهذا حكاية عن ثقة إمام لإجماع أهل هذا الشأن بأن خبيب بن عدي لم يذكره أحد من أهل المغازي فيمن شهد بدراً، وهذا لا ينافي صحة هذا الحديث سنداً، والحديث ليس فيه نصٌّ على خبيب بن عدي، بل ذكر خبيب غير منسوب، فاحتمال أنه خبيب بن إساف قائم لم يدفع، فلا وجه لاعتماد البخاري على هذا النص الخالي من نسبة خبيب لعدّ خبيب بن عدي فيمن شهد بدراً، وحينئذ فلا وجه مطلقاً لقول الحافظ ابن حجر: وهو اعتماد متجه، ومن المعروف عند أهل الحديث أن صحة السند لا يلزمها صحة المتن، فالحديث صحيح سنداً ولا دلالة في متنه على ما اعتمد عليه البخاري، فلعل متن الحديث

دخله الوهم ففسر بما لا دلالة له عليه، ولا سيما مع اتحاد الاسم، وأما أسر خبيب بن عـدي فلما قيل أنه هو الذي قتل الحارث بن عامر، والنص لا يمنع منه، ولكن كلام الدمياطي صريح في ردِّ هذا التفسير، لا في ردِّ صحة الحديث سنداً ـ إذ لم يتعرض الدمياطي لذلك قط.

ثانياً ـ إن قول الحافظ ابن حجـر: فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر ما كان لاعتناء أبناء الحارث بن عامر بأسر خبيب معنىً ولا بقتله.

هذا فرض لا وزن له في الرد على اعتراض الدمياطي، لأن أبناء الحارث بن عامر جاءتهم هذيل بخبيب بـن عدي أسيراً، وكان أبوهم الحارث بن عامر قد قتله المسلمون في بدر، وشاع على الألسنة أن الذي قتله خبيب الأنصاري، والأنصار كان فيهم رجلان كلاهما يسمَّى خبيباً، وأحدهما هو الذي قتل الحارث قطعاً، فهل من المعقول المتعارف في عادات العرب وأعرافهم الجاهلية في أخذ الثأر أن لا يعتني أبناء الحارث بن عامر بخبيب هذا الذي جاءتهم به هذيل أسيراً؟ ثم يجادلون في أنه هو الذي قتل أباهم أو آخر مسمّىً باسمه، ثم يردون هذا الذي أصبح في أيديهم يأخذون به ثأرهم من المسلمين، سواء أكان هو الذي قتل أباهم أو سمّيه وهما أنصاريان، هذا بعيد جداً عن المتعارف في عادات العرب وأخذهم الثأر حيث أمكنهم من القبيلة.

على أن هذا الوجه في كلام ابن حجر للرد على اعتراض الدمياطي بعيد جداً عن سمت الكلام الذي كان محوره صحة الحديث واعتمـاد البخاري في ذكره خبيب بن عدي فيمن شهد بدراً.

ويؤكد هذا من قولنا قول ابن حجر نفسه: لكن يحتمل أن يكون قتلهم لخبيب بن عدي لكون خبيب بن إساف قتل الحارث بن عامر على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض ـ أي أنهم قتلوا خبيب ابن عدي بخبيب بن إساف الذي قتل أباهم الحارث بن عـامر والخبيبـان أنصاريان يسدّ أحدهما في أخذ الثأر عن صاحبه، فقتلوا من تمكنوا من قتله على عادة الجاهلية.

ومما بعد جداً عن مَهْيع الكلام وسننه وفارق معالم البحث قول ابن حجر: ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شرك في قتل الحارث بن عامر لأن هذا الاحتمال لا يدخل في صميم الكلام ولا في حواشيه، ولا يتعلّق بأهدابه وشواشيه، ولا ندري كيف ساغ للحافظ ابن حجر ذكره؟ إن القضية الأصيلة في اعتراض الدمياطي هي أن خبيب بن عدي لم يشهد بدراً بإجماع أهل المغازي، فكيف تتحقق مشاركته في قتل الحارث بن عامر الذي قتل في بدر بإجماع مؤرخي السيرة والمغازي؟ والمشاركة في قتله لا تثبت إلا إذا ثبت بنص تاريخي صحيح أن خبيب بن عدي شهد بدراً وهذا هو موضع النزاع.

سَرِيَّةُ بِئرِ مَعُونَة
وَهِيَ بَعْثَةُ القُرّاء
أسبابها وأحداثها وآثارها

سمّاها بعض أهل المغازي ـ ابن سعد وغيره ـ سرية (المنذر بن عمرو) وكان المنذر أميرها، وهي معروفة مشهّرة بسرية القّراء، وسرية (بئر معونة) وهذان أشهر، وهي بهما أعرف وهو مسلك جمهور علماء السيرة.

أشد وأقسى سريات الجهاد والصبر على البلاء في سبيل الله.

وكانت بعد غزوة أحد في شهر صفر، على رأس أربعة أشهر منها، وعلى رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ.

وكانت هذه السرية من أشد وأقسى ما مر على المجتمع المسلم بعد أحد، بقيادة (المنذر بن عمرو الساعدي). وقد اختلفت الروايات وتعددت في ذكر أسبابها وأحداثها ووقائعها ومرارة آثارها، وكثرة شهدائها، وقد وجد النبي ﷺ لوقوعها وأخبارها وَجْدَاً شديداً، وحزن على قتلاها، وقنت يدعو على قاتليهم الذين غدروا بهم، وخانوا الله ورسوله في شأنهم.

وكان الذي تولّى كبر فجورها عدو الله الفاجر المغرور عامر بن الطفيل العامري، فقد غدر بهم وقتلهم جميعاً، ولم ينج منهم من القتل سوى عمرو ابن أمية الضمري الذي عرف عامر بن الطفيل أنه مضري، وأعتقه عن رقبة كانت نذراً على أمه فيما زعم بعد أن جزَّ ناصيته، وكعب بن زيد الذي ارتث ولم يقتل، وعاش حتى استشهد بعد ذلك.

وتلقّى النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري ببالغ الأسى والحزن وشديد الأسف عند عودته إليه، فقال له تعبيراً عن حزنه على أصحابه الذين قتلوا غدراً، وكانوا زينة المجتمع المسلم صلاحاً وعلماً وتقوى حتى اشتهروا باسم القراء كلمته المشهورة يعيره بها.

وزاد في تأسف النبي ﷺ أن عمرو بن أمية أخبر النبي ﷺ أنه قتل رجلين من بني عامر في طريق عودته وسلبهما ما كان معهما من متاع، وكان هذان الرجلان معهما عهد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية فقتلهما بعد أن استنسبهما فعرف أنهما من بني عامر، قوم عدو الله الفاجر عامر ابن الطفيل، وهو يرى أنه قد أصاب بقتلهما ثأراً من بني عامر، فأنكر عليه النبي ﷺ ذلك، وقال له: «بئس ما صنعت، قد كان لهما مني جوار وأمان لأدِيَنّهما».

أرجح الروايات في سبب سرية القراء

ومن أحسن ما ذكر وأرجحه في سبب سرية القّراء، وهي سرية (بئر معونة) ما رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم القّراء، فعرض لهم حيّان من بني سليم: ورعل وذكوان عند بئر يقال لها (بئر معونة)، فقال القوم ـ أي القراء رجال السرية ـ : والله ما إياكم أردنا، وإنما نحن قوم مجتازون في حاجة للنبي ﷺ، فقتلوهم.

وقد تكلم أهل العلم في تفسير الحاجة التي بعثهم إليها النبي ﷺ فقالوا بما عنّ لهم، ومن أحسن ما قيل في تفسيرها أنها الدعوة إلى الله تعالى ونشر الإسلام وشرائعه، لأن هذا هو اللائق بحال المبعوثين وهم القّراء، وقد شهروا بين الصحابة بتسميتهم بهذا الاسم الكريم.

قراء بئر معونة كانوا صفوة الصفوة في الإسلام.

وفي حديث مكحول عن أنس أنهم كانوا يستعذبون لرسول الله ﷺ الماء ويحتطبون، حتى إذا كان الليل قاموا إلى السواري للصلاة. وفي الصحيح من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه أنهم كانوا يشترون الطعام لأهل الصفّة وفقراء المسلمين بما يحتطبون ويأتون ببعض الحطب إلى حُجَر أمهات المؤمنين.

فهذه الصفات الكريمة الطيبة التي تجعلهم متفرغين لعمل الخير، وعبادة الله، وخدمة مساكين المجتمع المسلم من المنقطعين إلى ذكر الله

وعبادته، وكفاية الحُجَر الشريفة حاجتها من الوقود نهارهم، فإذا أقبل الليل قاموا إلى سواري المسجد فصفُّوا أقدامهم يصلُّون ما كتب الله لهم، ويتدارسون القرآن، يتلونه حق تلاوته ويتفقّهون في آياته وأحكامه وشرائعه ـ إنما تناسب أن يكون بعثهم للدعوة إلى الله ونشر رسالة الإسلام.

قصة قدوم أبي براء ملاعب الأسنة على النبي ﷺ ورد هديته لشركه.

يؤيد ذلك ما ذكره ابن إسحاق وابن سعد من قدوم أبي براء عامر ابن مالك (ملاعب الأسنة) على رسول الله ﷺ، فأهدى له، فلم يقبل منه ﷺ هديته، وقال له: «لا أقبل هدية مشرك» وفي رواية: «إني نهيت عن زبد المشركين».

قال السهيلي في روضه في غزوة تبوك مبيناً حكمة قول النبي ﷺ: «إني نهيت عن زبد المشركين» أي رفدهم وعطائهم، ولم يقل ﷺ: «عن هديتهم» لأنه ماكره ملاينتهم ومداهنتهم إذا كانوا حرباً له، لأن الزبد مشتق من الزّبد، كما أن المداهنة مشتقة من الدهن، فعاد المعنى إلى معنى اللين، ووجوب الجد في حربهم ومخاشنتهم، وقد ردّ ﷺ هدية أبي براء، كان أهدى له فرساً، وفي رواية فرسين وراحلتين، وأرسل إلى النبي ﷺ: إني أصابني وجع فابعث إليّ بشيء أتداوى به، فأرسل ﷺ إليه بعكّة عسل، وأمره أن يستشفي به، وردّ عليه هديته.

ويعكّر على كلام السهيلي ما جاء في روايتي ابن إسحق وابن سعد من أنه ﷺ قال: «لا أقبل هدية مشرك». وسواء أصح أن النبي ﷺ قال ما نقله السهيلي، وهو: «إني نهيت عن زبد المشركين» ولم يقل: «إني نهيت عن هديتهم» أم قال ما رواه ابن إسحق، وابن سعد من أنه ﷺ قال: «لا أقبل هدية مشرك» فإن كلام السهيلي لا يعدو أن يكون كلاماً أدبياً لا يحتمل البحث والتمحيص المنطقي الذي يتمشّى مع أصول البحث العقلي.

وقد يكون أقرب في التماس حكمة ما زعمه السهيلي دون ما رواه ابن إسحق وابن سعد أن النبي ﷺ إنما رد هدية أبي براء ولم يقبلها لأنه ﷺ أراد إثارة مشاعر أبي براء نحو النظر في رسالة الإسلام التي كانت السبب المباشر في قدمته على النبي ﷺ، ليطلب منه بعث جماعة من أصحابه لدعوة قوم أبي

براء إلى اعتناق الإسلام ومتابعة النبي ﷺ.

وهذه أمور نفسية أكثر منها عقلية، وكل إنسان يخاطب بما يوائمه في بيئته وأحواله، والبيئة البدوية تعيش بمشاعرها وعواطفها أكثر مما تعيش بعقلها.

سياسة حكيمة يرسمها موقف النبي ﷺ مع أبي براء.

والنبي ﷺ آتاه الله من الحكمة وحسن التأتِّي للأمور وتدبيرها ما لم يؤته أحداً غيره، فهو ﷺ أعلم بمداخل النفوس التي تحتف به والتي تفد إليه، والأمور الشعورية والنفسية لها عند الزعماء الذين يعيشون في البوادي شأن عظيم يدركه النبي ﷺ إدراكاً يجعل منه علاجاً لمرض نفوسهم، ففي الوقت الذي يرد هدية أبي براء، ويقول له ما يشعره نفسياً أنه يرد هديته لأنه لا يقبل مصافاة المشركين المحاربين له بقبول هداياهم ـ يجيبه إلى طلبه فيرسل له العسل ليستشفي به.

وهذه أمور لها أثرها في العواطف والمشاعر، وكان النبي ﷺ قد دعا أبا براء إلى الإسلام فلم يسلم، ولكنه لم يبعد، ووقف موقفاً أطمع النبي ﷺ في إسلامه وإسلام قومه بقوله: يا محمد إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً.

فموقف النبي ﷺ مع أبي براء كان موقفاً تمليه الحكمة السياسية في أسلوب تبليغ دعوته ونشر رسالته بما اشتمل عليه هذا الموقف الكريم من ضروب مكارم الأخلاق، والتولج إلى مداخل النفوس البشرية، ولا سيما عند صنف من الناس بما يلائم طبائعهم بالرضا والنظر فيما يدعوهم إلى الدخول فيه.

وفي ظل هذا الرجاء عرض ﷺ الإسلام على أبي براء فلم يقدم ولم يحجم، ولعله إنما تلبّث بنفسه عن الدخول في الإسلام قبل قومه مع إدراكه شرف هذا الدين وحسنه ليتحقق رجاؤه في قومه إذا وفد إليهم وحدَّثهم عن النبي ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن دينه ودعوته إلى الله وتوحيده، ولهذا طلب إلى النبي ﷺ أن يبعث معه نفراً من أصحابه إلى قومه، يدعونهم إلى ما يدعو إليه رسول الله ﷺ، روى ابن سعد: أن أبا براء قال لرسول الله ﷺ: يا محمد، لوبعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك لرجوت

أن يجيبوا دعوتك ويتبعوك، فقال النبي ﷺ: «إني أخاف عليهم أهل نجد» فقال أبو براء: أنا لهم جار أن يعرض لهم أحد، فبعث النبي ﷺ سبعين من الأنصار شَبَبَة، يُسمون القّراء، وأمّر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي.

اختلاف واسع بين روايتي الصحيحين وابن إسحاق في عدد سرية القراء.

وهذا العدد في تقدير رجال السرية هو رواية الصحيحين، قال السهيلي: وهو الصحيح وذهب ابن عقبة وابن إسحق إلى أنهم كانوا أربعين رجلاً، وهذا فارق كبير جداً لا يعدل عن رواية الصحيحين إليه، وقد ازداد بعداً من زعم أنهم كانوا ثلاثين.

وقد حاول ابن حجر على عادته أن يوفق بين هذه الروايات المتباعدة في تقدير عدد سرية القراء فزعم أنه يمكن أن يكون الأربعون كانوا رؤساء، وبقية العدد أتباعاً.

ضعف كلام ابن حجر في الجمع بين الروايتين.

وهذا كلام ـ كما يرى ـ ضعيف واهن لا يدفع اعتراضاً ولا يحل إشكالاً، لأن سريّة القّراء وهم من صفوة أصحاب رسول الله ﷺ بما وصفوا به من نعوت الإخلاص ورسوخ اليقين والزهد في الدنيا وطرحها وراء ظهورهم، واشتغالهم بخدمة الفقراء والمساكين من إخوتهم المنقطعين لعبادة الله، كل ذلك وغيره لا يجعل سبيلاً إلى تقسيم سريتهم إلى رؤساء وأتباع، وما كان يليق بالحافظ ابن حجر أن يعدل عن الأخذ بظاهر رواية الصحيحين إلى وضع روايات أصحاب المغازي معها في ميزان، ثم يعنّي نفسه بمثل هذه التأويلات المتعسفة.

والفرق بين عدد رجال السرية في الصحيحين، وروايات أصحاب السِّير والمغازي كبير جداً ولا سيما في رواية من زعم أنهم كانوا ثلاثين رجلاً، وإن كان ابن حجر قد وهّم هذا القول، ولكنه هدم بيده ما شيّده بفكره، فنقل الدفاع عن هذا القول المتهاوي عن صاحب (الغرر) أن رواية القليل لا تنافي رواية الكثير، وهو من باب مفهوم العدد.

ويؤكد ما اخترنا في سبب بعث هذه السرية حديث أنس عند البخاري من طريق قتادة، قال: إن رِعْلاً وذكوان، وعصيّة وبني لحيان استمدّوا رسول الله ﷺ، وقد اختلف أهل العلم في تفسير المقصود من هذا الاستمداد،

وأحسن ما قيل فيه ما قاله ابن حجر: ولا مانع أن يستمدوه ﷺ في الظاهر للدعاء للإسلام، وقصدهم الغدر وهذا أقرب الاحتمالات، ويدل عليه ما قدّمناه من الأسباب التي احتفت بالقصّة وربطها بقصة أهل (الرجيع) وقتلهم غدراً للأخذ بثأر فاجر هذيل سفيان بن خالد بن نبيح - لعنه الله - بسيف البطل الفدائي عبدالله بن أنيس الأنصاري رضي الله عنه، وعلى هـذا الاحتمال اعتمد القسطلاني في مواهبه في سياق كلام ابن إسحق.

* * *

سارت السرية بإمرة أميرها (المنذر بن عمرو الساعدي) حتى وصلوا إلى موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان، ونزلوا على ماء يقال له (بئر معونة) وبه سمِّيت الوقعة، كما سميت هذه السرية (سرية القّراء) تسمية لها بما شهر به رجالها من كثرة قراءتهم للقرآن وقيامهم على حفظه وإحسان تلاوته، والعمل بأحكامه والتزين بحِكَمه، وسمِّيت هذه السرية أيضاً سرية (المنذر ابن عمرو) باسم أميرها أحد نقباء العقبة وهو بدري أنصاري خزرجي.

أفجر غدر ينمّ عن لؤم سريرة الخبيث عامر بن الطفيل.

ولما وصلت السرية إلى (بئر معونة) أرسلت أحد رجالها، وهو حَرَام ابن مِلْحان - خال أنس بن مالك رضي الله عنهما، أخو أمه أم سُلَيم بنت ملحان الأنصارية الأوسية رضي الله عنها - بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله الخبيث الفاجر الغادر عامر بن الطفيل ابن أخي أبي براء، فلم ينظر عامر في كتاب النبي ﷺ بل حمله الطيش الأحمق الغَرور، واللؤم الفجور على أن عَدَا على رسول رسول الله وحامل كتابه بالدعوة إلى الإسلام إليه وإلى قومه فقتله غدراً ولؤماً.

وكان - كما ذكرت روايات القصة - عامر بن الطفيل عدو الله وعدو رسوله، وعدو دعوته قد قدم على رسول الله ﷺ فخيّره - كما في صحيح البخاري - فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف، وفي رواية بألف أشقر، وألف شقراء. فدعا عليه النبي ﷺ فقال: «اللهم اكفني عامراً» فاستجاب الله لنبيه وحبيبه محمد ﷺ وقتل الله عامر بن الطفيل أبشع قتلة على أشنع صورة وأحط حال، إذ رماه بغدّة كغدّة البعير جزاء غروره وفجوره، وكان عامر حينما أحاط به هذا

البلاء الموبق المذلّ لطغيانه وفجوره وغدره ينزل في بيت امرأة من سلول، فكان يندب حاله، ويبكي نفسه، ويقول: غدّة كغدّة البكر في بيت سلولية؟

وعند الطبري: فخرج (حرام بن ملحان) إلى بني عامر يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا أهل (بئر معونة) إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، فآمنوا بالله ورسوله، وجعل يحدثهم عن الإسلام ومكارمه، فأومأوا إلى رجل منهم فأتاه من خلفه ـ أي أتى حرام بن ملحان من خلفه ـ فطعنه بالرمح حتى أنفذه، فقال حرام بن ملحان رضي الله عنه: فزت ورب الكعبة.

عامر بن الطفيل يخفر ذمة عمه أبي براء ويقتل رجال السرية.

ثم استصرخ عدو الله عامر بن الطفيل على رجال السرية قومه بني عامر فلم يجيبوه، وجبّهوه مقرِّعين له، وقالوا: لن نخفر أبا براء وننقض عهده وزمامه مع رسول الله ﷺ.

فلما يئس الخبيث عامر بن الطفيل من قومه بني عامر تركهم إلى بعض بطون بني سليم: رِعْل، وذَكْوان، وعُصّية، فاستصرخهم على أصحاب رسول الله ﷺ فأجابوه، وخرجوا على رجال السرية وهم غارّون في رحالهم، حتى أحاطوا بهم، فلما رأوهم والشر يتطاير من أعينهم والفجور يتفجر من أنفاسهم قاموا إلى سيوفهم فقاتلوهم حتى استشهدوا جميعاً إلا كعب بن زيد النجاري البدري، ارتثّ فظنوه قد مات فتركوه بين القتلى من رجال السرية وبه رمق، وعاش حتى استشهد يوم الخندق رضي الله عنه، وإلا عمرو ابن أمية الضمري الذي كان في سَرْح السرية مع المنذر بن محمد بن عقبة، فلما أقبلا من السرح رأيا رجال السرية مضرّجين في دمائهم، والخيل التي أصابتهم واقفة عليهم، فتفاوض عمرو بن أمية والمنذر بن محمد في أمرهما وموقفهما، فرأى عمرو الضمري أن يلحقا برسول الله ﷺ ليخبراه خبر السرية، فأبى عليه المنذر وقال له: ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ـ أمير السرية ـ ثم قاتل المنذر بن محمد حتى قتل، وأسر عمرو بن أمية الذي أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن استنسبه فعرف أنه مضري، وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

فلما بلغ النبيَّ ﷺ خبرهُم وجد عليهم وَجْداً شديداً، وأكثر التأسف، وقال: «هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوِّفاً» فبلغ أبا براء قول

النبي ﷺ، فمات كمداً مما صنع ابن أخيه الفاجر عامر بن الطفيل من الغدر وخفر ذمته ونقض عهده وحط أمره بين قبائل العرب.

تحريض حسان ابن ثابت ربيعة ابن أبي براء على عامر ابن الطفيل.

قال الزرقاني في شرح المواهب: وذكر أبو سعيد السكري في ديوان حسان رواية عن جعفر بن حبيب قال حسان لربيعة بن عامر ملاعب الأسنة، يحرِّضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء:

ألا من مبلغ عني ربيعاً	فما أحدثت في الحدثان بعدي
أبوك أبو الفعال أبو براء	وخالك ماجد حكم بن سعد
بني أم البنين ألم يرعكم	وأنتم من ذوائب أهل نجد
تحكُّم عامر بأبي براء	ليخفره وما خطأ كَعَمْد

وقد روى السهيلي في روضه هذا الشعر فقدّم فيه وأخر، وجعل البيت الأول رابعاً، وقال فيه: تهكم عامر بأبي براء، وهو أشعر وأجود، وجعل البيت الثالث أولاً، وذكر الشطر الأول من البيت الأول في رواية السكري هكذا: ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي، وهذا أمدح، ورواية السكري أبعث على التحريض.

والسهيلي أقعد بمعرفة الشعر وتوافق شطرات أبياته، وترتيب تلك الأبيات على حسب المقصود منها، وطرافة ألفاظه، ومواضع بعضها من بعض، لأنه أعنى باللغة والأدب وأصولها.

فلما بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشعر، وهو عندهم أوجع من رشق النبل، وقط السيوف للرقاب، وطعن النحور بالرماح، جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، أيغسل عن أبي هذه الغدرة أن أضرب عامراً ضربة أو أن أطعنه طعنة؟ فقال ﷺ: «نعم».

فرجع ربيعة بن أبي براء فضرب عامر بن الطفيل ضربة أشواه بها ـ أي لم تصب منه مقتلاً ـ فوثب عليه قومه، وقالوا لعامر: اقتص، فقال: قد عفوت، وفي رواية أنه قال: إن مت فدمي لعمي، فلا يتبعن به، وإن عشت فسأرى رأيي فيما أتي إليّ.

النسخ في القرآن
من أخطر ما يجب التعمق في الحكم به
بحث وتحقيق
هل نزل قرآن في شأن سرية القراء
ثم نسخ؟

خطر دعوى نزول قرآن ثم نسخه بغير بدل على العقيدة ونصوص آيات القرآن.

قضية نزول قرآن قرأه الناس في حياة النبي ﷺ، ثم نسخ، أو رفع من غير بدل للنص المنسوخ من أخطر قضايا العقيدة في دين الإسلام، وعظائم قضايا الفكر في هذا الدين القيِّم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، وعليم خبير، يدبِّر الأمر بحكمته الشاملة، ويتعبّد خلقه بحمده، لكمال جلاله الذاتي، وسبوغ نعمه على خلقه.

والقضية هنا قضية سرية القّراء الذين بعثهم رسول الله ﷺ للدعوة للإسلام، وهم في قول جمهور أهل العلم ورواية الصحيح سبعون رجلاً من عبّاد الصحابة وأهل الله الذين طرحوا الدنيا وراءهم ظهرياً وعكفوا في محاريب الإخلاص لله، يمجدونه بحمده، ويقومون على خدمة الفقير والمسكين في المجتمع المسلم، وهم في دنياهم أفقر الفقراء، وأترب المساكين، ولكنهم في دينهم أغنى الأغنياء، وأرفع المؤمنين رؤوساً وأقومهم بالحق في رسالة الإسلام.

ومن ثَمّ اختارهم رسول الله ﷺ على عينه صنفاً واحداً لتبليغ رسالته ونشر دعوته دعوة الخير والهدى والنور، فغدر بهم الغدرة الفجار من بطون هذيل وأحياء سليم وبني لحيان فقتلوهم.

وهؤلاء الفجرة الكفرة الذين قتلوا هذه الصفوة من المسلمين هم الذين استجابوا لفاجرهم الخبيث الملعّن عامر بن الطفيل، ولما بلغ خبرهم

النبي ﷺ وجد عليهم وجداً شديداً، فقنت يدعو على الفَجَرة الغادرين في صلاة الصبح.

وكانت سريتهم رضي الله عنهم قد احتلت مكاناً عظيماً بين الغزوات وأحاديث السيرة النبوية ولا سيما في روايات الصحيحين، بيد أن هذه الروايات قد أخذت من قصتهم وأحداثها ووقائعها أسلوباً استعظم وقعه على جمهور المجتمع المسلم، وقبلوا في شأنهم ما قيل وما لم يقل.

وكان من أبعد ذلك عن القبول لولا ثورة العواطف واشتعال الاحساسات والمشاعر القول بأنه قد نزل في شأنهم قرآن قرأه الناس على عهد النبي ﷺ، ثم نسخ أو رفع أو نسي.

نزول قرآن ثم نسخه لا بدَّ فيه من ثبوت النص المنسوخ وناسخه بالتواتر.

وفي دواوين المفسرين، وكتب الحديث والسنة النبوية: الصحيحين، فما دونهما مشابه لقضية قرّاء (بئر معونة) في دعوى نزول قرآن قرىء ثم نسخ، ولم يعرف للنص المنسوخ بدل، والبحث الذي يسجّل في قضية قراء (بئر معونة) عام يسري إلى كل ما شابه هذه القضية من جهة زعم نزول قرآن قرأه الناس في عهد النبي ﷺ، ثم نسخ وذهبت قرآنيته، وإن كان النص لا يزال قائماً فيما تزعمه الروايات، ولكنه فقد خصائص القرآنية وبقي كلاماً من كلام الناس.

وهذه القضية كما صورناها من المزالق المدحضة، والمداحض الموبقة، زلّت فيها أقدام بعض الفطاحل من المسمَّين في أهل العلم قديماً، وتحيّرت فيها مدارك العقول منذ نجمت ناجمة مسلمة اليهود الذين نهدوا في مهاد الإسلام، وشبّوا في أحضانه في بيئات مختلطة الأفكار والتراث، وكانت لديهم في جعابهم وكناناتهم سهام من الأباطيل والترّهات رووها عن أسلافهم من الأحبار والرهبان في شرح توراتهم التي بدلّوا من نصوصها وحرفوا كلمها عن مواضعها، وحرّفوا آياتها، وتعسّفوا في تأويل وقائعها، وأضافوا إليها من الموبقات الدنيئات والأساطير والخرافات ما هيأت لهم عقولهم المنكوسة من الأكاذيب.

وقد فضحهم القرآن الحكيم فبيّن سوء صنيعهم، فقال جل شأنه:

﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

قال الزمخشري في كشافه: (ويقولون هو من عند الله) تأكيد لقوله: (هو من الكتاب) وزيادة تشنيع عليهم، وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنهم لا يعرّضون ولا يورون، وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك، لفرط جراءتهم على الله وفساد قلوبهم ويأسهم من الآخرة.

نزول قرآن ثم نسخه دون بدل فكر يهودي خبيث في أكاذيب النسخ.

ثم قال الزمخشري: وعن ابن عباس هم اليهود الذين غيّروا التوراة، وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

وذكر ابن كثير أن الزبير بن باطا القرظي ذكر أن توراة موسى التي نزلت عليه كانت عند أبيه (باطا) وليس فيها هذا التبديل الذي سمّوه (المثاني).

والمقصود أن أباطيل أعداء الله اليهود وأكاذيبهم التي عبثت بنصوص توراتهم كانت أساس كل بلاء أصاب تفكير العقول عامة في ضعف معرفة خصائص القرآن الإعجازية، وأصل كل شر يرجع إليه ما دخل على بعض حذّاق أهل العلم والمعرفة من المسلمين من الغفلة عن خصائص القرآن الإعجازية التي نزل بها ليكون أعظم آية على صدق من نزل على قلبه ولسانه محمد ﷺ في رسالته الخاتمة الخالدة، وتناسيهم في غمرة ما نال المجتمع المسلم من قوة ماديّة كانت أحد الأسباب في انتصاراته العسكرية أن هذه الخصائص هي الميزان الأقوم في الحكم على قرآنية آيات هذا الكتاب الحكيم.

ومن ثم سهل على بعضهم وهو يعيش في خضم مجتمع مسلم قوي، عليم، قدير، يعظمه ويقدسه أن يدرج ـ بحسن نية تغلّفها الغفلة والتناسي لاستحضار خصائص القرآن العظيم، في كتبه وهي موسومة بميسم الصحة والقبول ـ مثل قضية نزول قرآن في شأن قراء (بئر معونة) ونسخه برواية من

يثق به في صدق روايته، واستقامة حاله، وضبطه لما يسمع وعلى أساس صحة السند تناقلها عنهم من بعدهم من المؤلفين الذين خلّفوهم في مكانتهم وحلقاتهم ثقة بهم.

وكان جهد من استحضر شيئاً من خصائص القرآن الكريم عند النظر في قرآنيته ما قيل أنه قرآن نزل في شأن قراء بئر معونة وما شابهه أن يفزع إلى التأويل المتعسف متقبلاً دعوى قرآنية هذا الكلام الذي قيل في الروايات إنه قرآن نزل، وقرأناه وقرأه الناس، ثم نسخ ورفعت تلاوته.

وهذا جهد لا يدفع شراً، ولا يفيد شيئاً في اقتلاع جذور التقّول على الله بغير الحق، ولو كانت روايته يحفُّ بها حسن النية.

البخاري يروي في صحيحه قصة نزول قرآن ثم نسخه بغير بدل موقوفة على أنس ابن مالك.

وقضية قراء بئر معونة السبعين الذين استشهدوا فحزن عليهم النبي ﷺ حزناً لم يحزنه على جماعة من أصحابه رضوان الله عليهم هي التي زعم فيها أنه نزل في شأنها قرآن قرأه الناس ثم نسخ.

هذه القضية روى قصتها الإمام البخاري في صحيحه تحت عنوان: باب غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، وبئر معونة، في أكثر من حديث، وقد اختلفت رواياته لها في نسقها وسياقها وأسلوبها وألفاظها وجملها وعباراتها، وكلُّها موقوفة على أنس بن مالك رضي الله عنه، لم ترفع منها رواية من رواياتها إلى النبي ﷺ، وليس في شيء من رواياتها لفظ مشعر بأن النبي ﷺ قال شيئاً من ذلك، ولا يمكن قط أن يثبت نزول قرآن ثم نسخه بحديث موقوف، أو حتى بحديث آحادي صحيح.

نصوص الأحاديث كما يرويها البخاري في صحيحه ـ الحديث الأول.

والحديث الأول في روايات البخاري رواه عن أنس من طريق قتادة. قال البخاري: حدثنا عبد الأعْلى بن حماد، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رِعْلاً وذكوان، وعصية، وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدّهم بسبعين من الأنصار، كنا نسمّيهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلُّون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم، وغدروا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنت

شهراً يدعو في الصبح على أحياء من أحياء العرب، على رعل وذكوان، وعصية وبني لحيان.

قال أنس: فقرأنا فيهم قرآناً، ثم إن ذلك رفع (بلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) وقول أنس في هذا الحديث ـ كما تقول الرواية ـ بلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) هو الجملة المزعومة قرآنيتها، وهي محكية من قول القرّاء أو من قال منهم إن كان ذلك قد قيل، وهذا مخالف لقول أنس من طريق إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة عند البخاري أيضاً، فأنزل الله علينا، ثم كان من المنسوخ (إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا).

أحاديث أنس في النسخ في قصة القراء يجب التوقف في قبولها حتى يظهر وجه صحيح لتخالفها.

والتخالف بين الروايتين فيما زعم أنه قرآن من وجوه:

أولاً ـ من جهة السند، فالرواية الأولى من طريق عبد الأعلى ابن حماد، في حديث يزيد بن زريع، حدثه سعيد، عن قتادة عن أنس بـن مالك رضي الله عنه.

والرواية الثانية من طريق موسى بن إسماعيل، بالتحديث عن همام، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن قتادة، عن أنس بن مالك.

ثانياً ـ من جهة اختلاف النص المزعوم أنه قرآنٌ نزل وقرأه الناس، ثم نسخ، فالذي جاء في الرواية الأولى (بلِّغوا عنَّا قومنا أنا لقينا ربنا) فلفظ (أنا) في المحكي عنهم (أنا لقينا ربنا) مفتوحة وهي واسمها وخبرها معمولة لقوله: (بلِّغوا) الذي هو ابتداء جملة بدأ بها النص المزعوم أنه قرآن نزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ وأقرأه الناس فقرؤوه ثم نسخ، أو رفع، أو نسي.

والذي جاء في الرواية الثانية من الكلام المزعوم أنه قرآن هو ما حكي عنهم مبتدأ بقولهم: (إنا لقينا ربنا) وليس فيه (بلِّغوا عنا) وما حكي عنهم من هذا الكلام مبتدأ بـ (إنا لقينا ربنا) جملة ابتدائية مبدوءة بـ (إن) التوكيدية المكسورة التي تقع في أول جملة يبتدأ بها الكلام، فهي ليست معمولة لشيء

قبلها كما في الرواية الأولى، وهذا اختلاف أساسي في تركيب الكلام، يستحيل أن يقع مثله فيما ثبتت قرآنيته بالتواتر القاطع ـ كما هو شرط القرآنية في آيات القرآن الحكيم ـ وهذا اضطراب في النص يكفي للجزم بإبطال الرواية، أو على الأقل وجوب التوقف في قبولها،ولا سيما أن الحديث بروايتيه من كتاب واحد لمؤلف واحد عرف بالدقّة والوضوح، وهما في موضوع واحد وإيراد متقارب أو موحّد في باب واحد من الكتاب.

رواية أخرى يتسع فيها التخالف بينها وبين الروايتين قبلها.

ثالثاً ـ من جهة أن هذا الكلام جاء في رواية ثالثة ذكرها البخاري في جامعه بعد حديث عائشة في الهجرة الذي ساقه في (المغازي) بسنده عن يحيى بن بكير، بالتحديث عن مالك، عن إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك هكذا (قال أنس: فأنزل الله تعالى لنبيه في الذين قتلوا أصحاب (بئر معونة) قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد (بلِّغوا قومنا، فقد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه).

والاختلاف بين هذه الرواية والروايتين اللتين قبلها أوسع مدى من الاختلاف بين الروايتين السابقتين بالنسبة لبعضهما مع بعض.

والمذكور في هذه الرواية:ـ

أولاً ـ لا يفيد من بعيد ولا من قريب أن ما حكي على لسان القراء المستشهدين في قولهم المزعوم قرآنيته (بلِّغوا عنا قومنا فقد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) هو القرآن المنزّل على نبي الله ﷺ، وقرأه الناس، إذ المبلَّغ عن القراء إلى قومهم ـ في زعم الرواية ـ غير مذكور في هذا النص، فهو كلام مقطوع عما قبله، وليس معمولاً لقوله، فأنزل الله لنبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ.

ثانياً ـ هذه الرواية هي الوحيدة بين روايات البخاري التي جاء فيها التصريح بأن الله أنزل لنبيه قرآناً، ومع قطع قولهم: (بلِّغوا عنا) عن سابقه لا يدرى ما الذي أنزله الله لنبيه ﷺ ليبلِّغ عنهم إلى قومهم، وكل ما في الكلام أنه حكى عن شهداء القّراء أن يبلِّغ عنهم قومهم أنهم لقوا ربهم فرضي عنهم ورضوا عنه، وذلك أنهم سألوا ربهم أن يبلِّغ عنهم قومهم ما

أحاط بهم من الشدائد ومعالم القتل، فبلّغ الله تعالى رسوله ﷺ بوساطة جبريل عليه السلام، وبلّغ جبريل محمداً ﷺ، وبلّغ محمد أصحابه، فقال لهم: «إن إخوانكم أصيبوا» ولا يلزم من هذا قط أن يكون الله قد أنزل فيهم قرآناً قرأه الناس ثم نسخ.

روايات مركبة الأسانيد لم تجد من يقف في طريقها وهي تمضي في ظل أسانيدها إلى كتب الثقاة.

ومن أعجب العجب، وأغرب الغريب هذا التباعد المترامي الأطراف بين رجال السند في فضلهم وعلمهم وفقههم في دين الله، وبين موضوع الروايات التي رويت بأسانيد زُجَّ فيها بأسماء هؤلاء الأجلاء الذين اتخذتهم الأمة ركائز لأخذ دينها ودعامات يعتمد عليها نقل الدين والشريعة في أسلوب نقيٍّ مصفًّى من الخرافات والأساطير وأقاصيص القصّاص.

فهذه الرواية التي تزعم أن قرآناً نزل على النبي ﷺ فقرأه الناس ثم نسخ بعدُ، وهي الرواية الوحيدة التي صرّح فيها بنزول قرآن على النبي في الذين قتلوا أصحاب (بئر معونة) أن نجد في سندها الإمام مالك بن أنس، وهو الذي تقطع أعناق الفحول دون منزلته في الثقة ورصانة العقل ورزانة الفكر، والتنائي بعلمه وفضله عن الخرافات والأساطير الملفّقة وأباطيل الروايات التي رُكِّبت لها أسانيد أدخل فيها زوراً بعض قادة أهل الفضل، حتى اقتحمت بعض نسخ الكُتب التي نالت أرفع الدرجات في الثقة والصحة عند الأمة.

ومؤلفو هذه الكتب برءاء من جريرة هذه الروايات الباطلة بهذه الأسانيد المركبة، وهذا ما يوجب على أهل العلم وحماة السنة مراجعة هذه الكتب الرفيعة في أسانيدها ومتونها، حماية لأصول الإسلام وتنقيتها ممّا أدخل عليها في عصور الاهتمام بالعالي والنازل، وكثرة ما يحفظ فلان، ويروي فلان، مما فتح باب الأباطيل المزوَّرة والأكاذيب المدخولة، التي خلع عليها طول مرور زمن الجهالة في عصور الجمود الفكري شيئاً من قداسة نصوص وروايات هذه الكتب التي تغلب عليها الصحة، والتي قام على تأليفها أعلام من الثقاة يوم أن كان أصحابها أعلم أهل زمانهم بما يروون فيها.

وبالجملة فهذه روايات يجب التوقف في قبولها، لأن للقرآن الحكيم

خصائصه الإعجازية التي ينفرد بها عن جميع كلام البشر.

لباب الإعجاز الخالد للقرآن في هدايته وشرائعه وآدابه في براعة أسلوبها البياني.

وإعجازُ القرآن الذي هو خصيصة قرآنيته المتحدّى بها في الدلالة على صدقه وصدق من نزل عليه ﷺ على مر الزمان وتعاقب الأجيال هو إعجازه في هدايته للخلق، وإخراجهم من ظلمات الجهالة والضلال إلى نور العلم والمعرفة والهدى؛ بما اشتمل عليه من حِكَم وأحكام وشرائع وآداب ومهايع للتربية وطرائق للنظم الاجتماعية من كل ما صُبّ في قوالب البراعة البيانية التي لا تلحقها بلاغة بشرية ولا يشبهها أسلوب في روعتها. وهذا التحدِّي بالهداية وطرائقها وضروبها في إبراز العقيدة التوحيدية والتعبدات العملية والنظم الإنسانية في التربية ومكارم الأخلاق هو مناط الإعجاز الأبدي الخالد في هذا الكتاب الكريم، وهو مستمد من طرائق الهداية التي ترقى بالحياة إلى آفاق الحضارة الإيمانية.

أما إعجاز الأسلوب وطرائق الأداء للمعاني والحقائق الإلٓهية والإنسانية فهو من قبيل المساوقة التصوّرية بين الروح وحيزها الذي تتحرك فيه إلى آفاق الإشراق الإيماني.

والإعجاز بالهداية وأنواعها هو الروح الخالد لإعجاز هذا الكتاب الحكيم، وبراعةُ الأسلوب والفوق البياني هي القالبُ الذي اختير لإبراز هذه الروح المشرقة في إطار التنسيق بين المعنى واللفظ في نورانية الخلود الأعم الأشمل، وخلود الحجة التي لا يذهب بها مرور الزمان وتوالي الأجيال، وتنوع الحقائق والأفكار، ووثبات العقل الإنساني في مجالات العلم والمعارف، والكشف عن أسرار الكون ومعالم الطبيعة.

الإعجاز بالأسلوب وروعة البيان جاء قالباً صب فيه إعجاز الهداية.

وقد تحدّى القرآن العظيم خصومه منذ أنزل، وما يزال يتحدّاهم في نمط من التحريش أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله في وخز يعترض حلاقيمهم، ويأخذ عليهم أنفاسهم، فلا يجدون من أنفسهم إلاّ العجز المذهل، والبهت المدهش عن معارضته ومقاولته، فضلاً عن مساماته أمام وخز تحدِّيه، وصرامة تحريضه، وإيجاع تقريعه، وإيلام تعييره إياهم بالعجز الفاضح، وإخبارهم في تحدِّيه بعجزهم عن الإتيان بشيء من

مثله في أنماط هدايته وسجاحة بيانه، ولطف تأتِّيه بالتعبير عن أعضل قضايا الإلهيات، وأعوص مشكلات الفكر الإنساني، ولو اجتمعوا إنسهم وجنهم، متظاهرين بجميع أجناسهم وألسنتهم ومداركهم وألوانهم واختلاف أفكارهم، وصنوف علومهم وأنواع معارفهم، ومعالم آدابهم ومسالك سيرهم في الحياة، وأنظمتهم الاجتماعية في معاشهم، وسياساتهم.

فالقرآن الكريم له خصائصه الإعجازية التي فصَّلها العلماء تفصيلاً أبان عن انفراده بها، وأبانت عن الجهة التي كان منها القرآن معجزاً في هدايته وتحدِّيه وأسلوبه، والتي كان بها هذا الكتاب كتاب رسالة خاتمة لرسالات الأنبياء والمرسلين، والتي كان بها آية صدق الرسالة، وصدق من جاء بها ﷺ.

كل كلام لا يجمع خصائص القرآن الإعجازية فهو ليس بقرآن.

فكل كلام لا يجمع هذه الخصائص في حقائقه ومعانيه وهدايته ونمط أسلوبه وبراعته فهو كلام من كلام البشر، وتفاوته في التعبير إنما هو بتفاوت الطاقة البشرية، وليس هذا من القرآنية في شيء، ولا سبيل إلى إثبات قرآنيته، لأنه لم يبلغ من خصائص القرآن شيئاً.

ومن ثَمّ كان هذا الكلام المروي في صحيح البخاري على أنه قرآن نزل في شأن شهداء بئر معونة من القراء من عند الله على رسول الله ﷺ ثم نسخ، أو رفع أو نُسي مما يجب التوقف عن قبوله حتى يظهر له مخرج من التأويل الصحيح.

ويؤيد ما ذهبنا إليه من التوقف في قبول هذه الروايات الزاعمة أن قرآناً نزل فقرأه الناس في حياة النبي ﷺ، وسمعهم يقرؤونه سواء في قصة قرّاء (بئر معونة) أو غيرها ثم نسخ أو رفع، أو نسي من غير بدل للنص المنسوخ ما يأتي:

أولاً ـ إن جميع ما جاء في روايات صحيح البخاري ـ في مواضع منه موقوفة على أنس رضي الله عنه ولم يرفع شيء منها إلى النبي ﷺ ـ جاء مختلف النص اختلافاً يستحيل وقوع مثله في القرآن الحكيم، وقد جاء في

وجوه توجب شدّة التوقف في قبول الروايات الزاعمة نزول قرآن ثم نسخ بغير بدل.

صحيح مسلم وغيره بعض ما جاء في صحيح البخاري، فيسري عليه ما قررناه من التوقف في قبوله.

ثانياً - إن جميع هذه الروايات موقوفة على أنس رضي الله عنه، ولم يرفع منها شيء إلى النبي ﷺ إذ ليس في رواية منها فقرأ علينا رسول الله ﷺ قرآناً نزل، ثم نسخ، وليس في رواية منها أن النبي ﷺ أمر بكتب ما زعم أنه قرآن في قصة قرّاء (بئر معونة)، ووضعه في سورة من سور القرآن كما هو الشأن في جميع آيات القرآن.

ثالثاً - إن الإمام البخاري نفسه روى في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها في حديث الهجرة الذي أخرجه في كتاب المغازي لما فيه من التنويه بشأن عامر بن فهيرة رضي الله عنه في إكرام الله تعالى له يوم قتل في سرّية قراء (بئر معونة) وكان خبر قتل رجال السرية قد بلغ إلى النبي ﷺ بإخبار جبريل عليه السلام، فنعاهم النبي ﷺ إلى أصحابه، فقال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم سألوا ربهم، فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا» فأخبرهم عنهم.

هذا كلام نبوي مرفوع صراحة إلى النبي ﷺ أخبر به أصحابه في جمع يشبه أن يكون فاق حدَّ التواتر الذي يفيد الجزم بما أخبر به ﷺ، وهو برواية البخاري نفسه عن أبي أسامة، قال: قال هشام بن عروة: فأخبرني أبي قال: لما قتل الذين ببئر معونة، وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر ابن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، قال عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، فقال - أي عامر بن الطفيل -: لقد رأيته بعد ما قتل رُفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع، فأتى النبي ﷺ خبرهم، فنعاهم فقال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم، فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا» فأخبرهم عنهم.

فأين يقع هذا الكلام النوراني الذي يحفّه إشراق الهداية من جميع أكنافه - وليس فيه قط تعرّض إلى أن الله تعالى أنزل في رجال سرية القراء الذين قتلوا عند بئر معونة غدراً وخيانة لله ورسوله قرآناً قرأه الناس، ثم

نسخ أو رفع، أو نسي ـ مما وقع في روايات أنس رضي الله عنه وأخرجها البخاري نفسه عنه موقوفة عليه من زعم نزول قرآن في شأن قراء سرية بئر معونة، قرأه الناس في عهد رسول الله ﷺ، ثم نسخ، أو رفع، أو نسي؟ من غير بدل للمنسوخ؟.

النبي ﷺ وحده هو صاحب الحق في الإخبار بقرآنية ما ينزل عليه من القرآن.

والنبي ﷺ هو وحده صاحب الحق المطلق أولاً وآخراً بمقتضى منصب رسالته في إخبار أصحابه أنه نزل عليه قرآن في شأن رجال سرية القراء أن لو كان نزل ما يزعمون، ولو كان ﷺ أخبر أصحابه بشيء من ذلك لاستحال أن يقف هذا الإخبار على رجل واحد من أصحابه، وهو أنس بن مالك رضي الله عنه، فيخبر به موقوفاً عليه دون أن يرفعه إلى النبي ﷺ، لوجوب التواتر القاطع في إثبات آيات القرآن الحكيم.

والمعروف المتعالم الذي لا يقبل غيره من إنسان كائن من كان أن شأن القرآن أجلّ في إثبات قرآنيته وأخطر وأعظم من أن ينقله إلى الأمة فرد واحد من الصحابة رضي الله عنهم نقلاً مجرداً عن الرفع إلى رسول الله ﷺ.

روايات مختلفة تؤكد عدم قرآنية ما زعم أنه قرآن.

ثم روى البخاري حديث أنس عن طريق إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة الذي رواه عنه مالك بن أنس الإمام، وقد ساق هذا الحديث اليعمري صاحب عيون الأثر بسنده إلى مسلم من طريق يحيى بن أبي يحيى عن مالك عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس، قال اليعمري: حدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك عن إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحاً، يدعو على رعل ولحيان، وعصية عصت الله ورسوله. قال أنس: أنزل الله في الذين قُتِلوا ببئر معونة قرآناً قرأناه، ثم نسخ بعد (أن بلِّغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه).

وهذه الرواية أوضح من رواية البخاري، لأن عبارة رواية البخاري لا تخلو من غموض وإبهام، فقد جاءت هكذا (فأنزل الله تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ في الذين قتلوا أصحاب بئر معونة) بدل من الموصول (الذين

قتلوا) والمعنى: أنزل الله لنبيه في شأن الذين قتلوا من أصحابه عند بئر معونة، قرآناً قرأناه ثم نسخ.

وعند ابن سعد من حديث قتادة عن أنس (فقرأنا بهم قرآناً زماناً)، ثم إن ذلك رفع أو نسي، والتعبير في هذه الرواية بقولها: (فقرأنا بهم) لم يظهر لنا فيه معنى لفظ (بهم) إلا بتأويل متعسِّف. وهذه الرواية تخالف الروايات السابقة في قولها: (فقرأنا بهم قرآناً زماناً) وفي قولها: (أو نسي). وهذا اختلاف في النص لم يقع مثله في القرآن الكريم قط، فلا يجوز اعتقاد قرآنية مثل ذلك ولو لحظة واحدة قبل ادّعاء نسخه.

ومن الغريب أن البخاري ذكر حديث أنس الأول في أحاديث بئر معونة والثاني فيها ولم يذكر شيئاً قط فيهما عن قرآن نزل، وإنما اقتصر فيهما على ذكر القنوت ومكانه من الصلاة، فذكر في الحديث الأول من طريق أبي مَعْمَر حدثنا عبد الوارث حدثنا عبد العزيز عن أنس قال: فدعا النبي ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداة وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت، ثم جاء في الحديث: قال عبد العزيز: وسأل رجل أنساً عن القنوت: أبعد الركوع، أو عند الفراغ من القراءة؟ قال: لا، بل بعد فراغ من القراءة.

ثم ذكر البخاري حديث أنس الثاني من طريق مسلم من طريق قتادة فقال: حدثنا قتادة عن أنس قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً بعد الركوع يدعو على أحياء من العرب، ولم يذكر في الحديثين كلمة واحدة عن قرآن نزل في سرية القراء وقرأه الناس ثم نسخ. وعلى هذا النهج نَهَج ابن القيم في (الهدي) فقد ذكر ضمن فصوله عن غزوة (بئر معونة) وأسبابها وأحداثها فصلاً صغيراً جداً لا يزيد عن سطر واحد وبعض سطر في القنوت، وقال: وقنت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على الذين قتلوا القراء أصحاب (بئر معونة) بعد الركوع ثم تركه لما جاؤوا تائبين مسلمين.

إغفال ابن القيم روايات نزول قرآن قرأه الناس ثم نسخ يدل على عدم قبولها عنده.

وهذا من ابن القيم أخذ بأحد حديثي أنس في مكان القنوت من الصلاة، وترك للحديث الآخر الذي جعل مكان القنوت من الصلاة بعد الفراغ من القراءة، والحديثان مخرّجان في صحيح البخاري.

ولم يعرض ابن القيم قط بكلمة واحدة عن نزول قرآن في شأن رجال سرية القراء الذين قتلوا عند بئر معونة، وأقرب ما يوجّه به هذا النهج أن ابن القيم أعرض عن روايات القرآن في شأن القّراء لأن هذه الروايات لم تقع عنده موقع القبول والصحة السالمة من الوهم والوهن، كإعراضه عن حديث جعل القنوت بعد الفراغ من القراءة.

ومن سانحات اللطائف أن القرآن الكريم عرض لما يشبه موقف قراء (بئر معونة) من تسجيل أرفع المنازل في الفضل والشرف وصفاء الإخلاص القائم على دعائم أقوى وأعز مراتب الإيمان، والتضحية بالنفس في إعزاز العقيدة التوحيدية ونشر دعوتها وتبليغ رسالة الإسلام تطلّباً لرضاء الله عنهم، وسبحهم في بحار الرضا عنه، والإذعان الصادق للصدع بأوامر النبي ﷺ والمسارعة لتنفيذها وتحقيق أهدافها بالتعبد لله تعالى تعبداً يرفؤ من حال فقراء المجتمع ومساكينه وضعفائه بسدٍّ خلّتهم والقيام بحاجاتهم وما تتطلبه حياتهم في عيشهم، وفي خدمة أبيات رسول الله ﷺ بما لا يقدر عليه إلا الذين أخلصوا حب المتابعة الصادقة له ﷺ، وحب إقرار عينه بالقيام على توفير وسائل الراحة لما تتطلبه حياة العيش الرضي.

بيد أن القرآن العظيم إذ يعرض إلى هذا النحو من الثناء الأرفع على الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه إنما يعرضه في نمط من الأسلوب البارع، وروعة البيان الذي يحف به رونق الإعجاز في جزالة اللفظ وسلاسة المعنى، ولطف الأداء، ورصانة التعبير وحسن الموقع في السمع، وإشراق نور الهداية في آفاق القلب مع جلال الحقائق والمعاني، والتسامي بها عن مواطن متعارف كلام البشر، ومألوف الناس في مدائحهم وأثنيتهم.

آيات محكمة ضوهيء بها ما زُعم أنّه قرآن نزل ثم نسخ.

وقد التقطنا من رياض أزاهير القرآن الكريم، وجواهر خزائنه آيات من سور منثورة في حدائق أنواره أُتحِفْنا بها التوفيق، رأيناها متفقة أكمل اتفاق مع موضوع ما قيل أنه قرآن في شأن قراء بئر معونة، ثم نسخ ليظهر بالنظرة العابرة أن للقرآن خصائصه الإعجازية التي يستحيل أن يكون شيء منها لغيره من سائر كلام البشر.

ومعاذ الله أن نقصد بذلك إلى شيء من الموازنة أو المشابهة التي تتراءى للعين الحولاء أو الفكر الفطير، بين آيات القرآن الحكيم، وبين ما جاء في روايات قصة قراء بئر معونة ونظائرها، لأن الموازنة لا تكون إلاّ بين المتشابهات، وأنّى للحصى أن يشابه اللؤلؤ والمرجان!.

وإنما قصدنا أن نستل شبهة الرواية في الصحيح، وما تخلّفه على ما يروى فيها من هالات القداسة وبريق البروق الخادعة من قلب من لم يُجد النظر الفكري في تمحيص البراعة البيانية والهداية الإلّهية، وبين كلام أريد به المحاكاة لما يشتبه به في موضوع الحديث.

وقد اكتفينا بأربعة مواضع من أربع سور من القرآن الكريم، ثنتان منها في النصف الأول منه، وثنتان منها في النصف الثاني منه، وكلُّها في موضوع رضاء الله عن صفوة عباده الذين انقطعوا له في محاريب التبتل والإخلاص، ورضائهم عنه في تصاريف أقداره ومنازل غيبه، وإسلام وجوههم له جلّ شأنه بتدبير ما يدبر في الكون من نفع وضر.

الموضع الأول من الآيات المحكمة وتفسيرها وبيان مراميها.

الموضع الأول ـ آية من آخر سورة المائدة، وهي من آخر سور القرآن نزولاً، ذكرها الله تعالى بعد قصة عيسى عليه السلام، ومدحه بالتسليم لله تسليمًا مطلقاً، مع وصفه عز شأنه له عليه السلام بأكمل أوصاف الكمال البشري، فيما حكاه الله تعالى عنه في قوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وفي أحاديث الشمائل المحمدية أن سيدنا محمداً ﷺ قام ليلة كاملة بهذه الآية يردّدها في كل ركعة من تهجّده، لما يشهد فيها من جلال ملكه وقهره ورحمته، ولما يرى فيها من التسليم المطلق لتصاريف الأقدار، ومطلق مشيئة الله تعالى في تدبير خلقه بين الرضاء والغضب، فلا يقال: لم، لأنه تعالى في جلال ألوهيته لا يسأل عما يفعل، وهو الفعّال لما يريد.

بعد هذه الآية التي حكاها الله تعالى عن قوة روحه عيسى عليه السلام في التسليم المطلق لتصرف الألوهية قال تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾.

هذه آية نزلت من سماء العزّة الإلٰهية محفوفة بالرضا والرحمة، ذكر فيها الترضّي من الله عن خلّص عباده، فبيّن أنه تعالى أرضاهم لرضائه عنهم، فهي في روعة بيانها ونسقها في آي القرآن الحكيم، وما فيها من هداية وحكمة ونور أبعد من أن تُحاكى بكلام أُلبس ما ليس بمقاسه، ووسم بما لا يتفق مع سمته وميسمه، ثم قيل عنه إنه قرآن نزل وقرىء، ثم نسخ، وذلك كالذي رواه رواة المغازي، وفي طليعتهم البخاري ومسلم في روايات مختلفة مضطربة متضاربة لفظاً وأسلوباً وأداء، ثم زُعم أنه قرآن نزل من عند الله على رسول الله ﷺ وقرأه الناس - أي بإقرار النبي ﷺ لهم - ثم نسخ أو رفع أو نُسي.

فأين إذاً (يا ضفدع نقي ما تنقين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدّرين) من قول العزيز الحكيم: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾.

الموضع الثاني من الآيات المحكمة مع تفسيرها.

الموضع الثاني - آية من سورة التوبة، ذكرها الله جل وعلا، يثني فيها أعطر ثناء على عمودي المجتمع المسلم: المهاجرين والأنصار، ثم تفضّل سبحانه فضمّ إليهم تحت جناح رحمته، أولئك الذين اتبعوهم بإحسان الاتّباع، فترضّى عن المتبوعين، وهم أصل قادة الإسلام وخميرة الخير والنور في هديه وحِكَمه وأحكامه، وشرائعه وآدابه، وطرائق تربيته، ثم عطف عليهم أغصان دوحة الإيمان وهم التابعون لجذور الدوحة الإيمانية في نمائها وثبات أصلها في أرض العقيدة التوحيدية، وذهاب فروعها سامقة إلى سماء العزّة والكرامة الإسلامية.

وقد ضرب الله تعالى لهؤلاء المتبوعين والتابعين في سورة الفتح المثل، فذكر الذين قام على كواهلهم بناء المجتمع المسلم شامخاً قوياً، وهو يحمل الدنيا في كفة، وهداية رسالته الخالدة في كفة، ثم بدأ هذا المجتمع مسيرته إلى آفاق الحياة يدعو إلى قوة موحّدة في وحدة إيمانية، يؤازر شطؤه وفروعُه أصولَه، حتى استغلظ فاستوى على سوقه، فكان وحدة روحية فتحت القلوب والعقول.

قال تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾ قال الزمخشري: وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقّيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم.

وبهذه الأوصاف الحميدة التي تضمّنها المثل المضروب لهم ذكرهم أجمل الذكر وأحسنه فقال تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان﴾ ثم ترضّى عنهم جميعاً بعد أن حزمتهم وحدة الإيمان، مبشراً لهم أنه تعالى رضي عن المتبوعين لسابقتهم التي فازوا بها، فلا يلحقهم فيها المشمرون مع صدقهم في اللحاق بهم، ولهذا الصدق في التبعية تفضّل الله عليهم فجعلهم مع المتبوعين السابقين في الترضي عنهم وما أعدّ لهم من جزيل الثواب والنعيم المقيم، فقال: ﴿رضي الله ورضوا عنه، وأعدّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد ختمت بالترضّي من الله تعالى عن صفوة المجتمع المسلم وهو يبني من لبنات الإيمان والإخلاص، متبوعين وتابعين لهم بالإحسان، والإحسان ذروة قمة العمل الإيماني وأرفع مراتبه، وأعلى درجاته، لأنه عمل مقرون باستحضار شهود جلال الله وشمول مراقبته للسر والنجوى، والجهر وما هو أخفى، وبهذا المعنى في بيان معنى الإحسان أجاب سيدنا رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام في حديثه المشهور عن الإحسان ما هو؟ فقال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وهذه ـ في رأينا ـ درجة المتبوعين السابقين الأولين، وأما التابعون لهم بإحسان فهم الذين صدقوا المتابعة، فكانوا على أدنى المستوى الذي كان عليه المتبوعون وهم الأعلون في درجات الشهود، وكانوا من الذروة في حفافيها لأنهم لم يتمكنوا من شهود الجلال الإلٰهي تمكن المتبوعين منه، فكان حسب المتبوعين أنهم لهم درجات مراقبة الله في إحاطته بنبضات قلوبهم في خفقها خشيةً من جلال الله.

وهذه هي المرتبة الثانية من مراتب الإحسان التي ذكرها النبي ﷺ في

جواب جبريل عليه السلام فقال: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ومعنى ذلك: فإن لم تكن من أهل شهود جلال الربوبية في خشية العبودية فكن من أهل الصدق في الإيمان واليقين.

فالذين رأوا في روايات الصحيح وشلاً من بريق وحدة المعنى في الترضي عن أولئك الصفوة من القراء الذين استشهدوا عند بئر معونة من أرض هذيل، والترضي عن صفوة خاصة المؤمنين في هذه الآيات البينات تخيلوا، وخالوا، وتوهموا أن هذه الكلمات قرآن نزل فيهم وقرأوه، ثم نسخ أو رفع أو نُسي دون بدل يعرف أنه هو الناسخ لهذا الذي قيل أنه نسخ، وما كان منه من قرآن قط ولا قرأه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بأمره وإخباره أنّ ذلك مما نزل عليه، ولا سمعه منهم صلوات الله عليه وأقرهم عليه أنه من المنزَّل عليه.

أما الذين عرفوا خصائص القرآن الإعجازية، فإنهم بتثبيت الله لم يرفعوا رؤوسهم لهذا الكلام المزعوم قرآنيته، وأنه أُدخل على أوهام أهل السلامة من الرواة الذين لا يهمهم إلا التكثر من الرواية.

الموضع الثالث من الآيات المحكمة وبيان معانيها.

الموضع الثالث ـ آية من سورة الفتح، افتتحت بالترضِّي عن المؤمنين الذين قدَّموا أرواحهم وأعزّ ما يملكون فداءً لدينهم، وكرامة مجتمعهم المسلم، والدفاع عن حرية هذا المجتمع وعقيدته وعزته ووحدته.

وهؤلاء المؤمنون الذين أقسم الله تعالى على رضائه عنهم هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، على أن لا يفروا عنه أو يموتوا دفاعاً عنه وعن دعوته في ميدان معركة العزة الإسلامية التي أراد أحلاس الوثنية من مشركي مكة وألفافها أن يسيموهم بها ذلّة في احتباسهم رسولَ رسولِ الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إليهم، مبلِّغاً لهم أن رسول الله ﷺ إنما جاء زائراً إلى هذا البيت العتيق، معظِّماً حرمته، ولم يأتِ لقتال أحد، فحبسوه عندهم، وأشاعوا أنهم قتلوه، وبهذه الآية الرضوانية سمِّيت البيعة بيعة الرضوان.

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما أرجف به المرجفون من قتل عثمان رضي

الله عنه قال النبي ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا أصحابه إلى البيعة، فبايعوه على الموت، وعلى أن لا يفرّوا، وقال لهم ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وقد أثنى الله تعالى على أهل بيعة الرضوان في هذه الآية بعد أن بشّرهم برضائه عنهم، فقال منوّها بعظم شأنهم فيما أقدموا عليه من ذروة الفدائية في بيعة الموت وعدم الفرار من ميدان المعركة: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم﴾ من صدق الإخلاص، وقوة اليقين، ونقاء الضمائر من غلس التردد وضعف العزائم.

ثم زادهم من فضله وإنعامه فأنزل السكينة على قلوبهم بما ملأها طمأنينة وأمناً وسكوناً إلى قدر الله، وغيبه ورضائه عنهم، وعجّل لهم من الثواب على قوة يقينهم وخلوص نياتهم فتحاً قريباً هو فتح خيبر الذي وعدهم به تقدمة للفتح الأعظم، ليكون بشرى لهم بين يدي الفتح المبين فتح مكة الذي شقق قناة قريش، وأصاب شوكتهم فلم تقم لهم بعده قائمة، ودخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً، وجعل الله من خلصائهم، ومن أصلابهم كتائب حملت لواء الجهاد ونشر رسالة الإسلام وتبليغ دعوة التوحيد والحق والخير والهدى والنور، والإصلاح الاجتماعي.

وقد آتاهم الله تعالى في فتح خيبر الذي عجّله لهم مغانم كثيرة أخذوها سهلة هنيئة، راشهم الله بها وأصلح حالهم وقوّاهم مادياً، وأنالهم من الخير في معاشهم وإعداد أهبتهم للقاء أعدائهم ما جعلهم قوّامين بحقِّ الله في جهاد أعدائه ونشر دعوة وحدانيته وتبليغ رسالته إلى كافة الخلق.

الموضع الرابع من الآيات المحكمة وتأويلها.

الموضع الرابع ـ آيتان من سورة (البينة، وتسمّى القيِّمة) ختمت بهما هذه السورة الكريمة، وكانت أولاهما إخباراً عن حالة المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنهم خير خلق الله، وذلك في مقابلة الإخبار عن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين بأنهم شر خلق الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية﴾.

ثم ذكر المؤمنين الذين يجعلون من إيمانهم حافزاً للعمل الصالح بعد

الثناءعليهم ثناء خُصُّوا به فلا يناله غيرهم، فقال: ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضُوا عنه، ذلك لمن خشي ربه﴾ فكان جزاؤهم على إخلاص إيمانهم ووثيق يقينهم وملازمتهم العمل الصالح - يقومون به تزكية لنفوسهم وتطهيراً لقلوبهم وتنويراً لأرواحهم وشحذاً لعقولهم في إطار هذا الإيمان الذي أخلصوه لوحدانية الله وإفراده بألوان العبودية الصادقة، ويقومون به لخدمة مجتمعهم الإنساني، ونشر دعوة الحق، ليخرجوا الناس من ظلمات الجهالات إلى أنوار الحق والهدى والعلم والمعرفة أنهم أُدخلوا جنات، يخلدون في نعيمها أبداً، لا يلحقهم فناء، ولا ينالهم غصص، فهم في نعيم مقيم لا ينقطع ولا يمنع، لذائذه لا تنفد، وهم سابحون في بحار رضوان الله، لأنهم آمنوا إيمان خشية لجلال الله وعظمته.

هذه الآيات الكريمة جاءت كلها إخباراً من الله تعالى عن حفاوته بمن نزلت فيهم من عامة صفوة المؤمنين، أهل الصدق واليقين والإخلاص في الإيمان، ومتابعة العمل الصالح، سواء أكان عملاً بالقلب، أم عملاً بالعقل، أم عملاً بالروح، أم عملاً بالإحساس والشعور، أم عملاً بالجوارح منوّهة برفيع منزلتهم عند الله، وما أعدّه لهم من عظيم النعيم والرضاء عنهم ورضاهم عنه.

ويدخل فيهم من أوسع الأبواب الذين جادوا بأرواحهم، وهي أعزُّ ما يملكون في حياتهم من شهداء الجهاد الإسلامي في صدر مطالع الدعوة إلى الله، ونموذجهم الباقي على مر العصور وتتابع الأجيال شهداء سرية القرّاء الذين قتلوا غدراً عند بئر معونة وهم يبلِّغون رسالة رسول الله ﷺ إلى الناس، دون حاجة إلى أن يزعم لهم أن قرآناً نزل في شأنهم ثم نسخ، أو رفع، أو نسي.

وقد بقيت آيات الله التي ترضَّى بها عن عباده من صفوة المؤمنين في كتابه الحكيم المحكم متلوة بأسلوبها فيه، جامعة لخصائصه الإعجازية ونمطها في الهداية والشرائع والآداب والنظم الشاملة لحياة الأفراد والجماعات في

هذه الآيات بقيت في مواضعها من القرآن الحكيم محكمة لم يلحقها نسخ ولا نسيان.

الأمم والشعوب، متعبداً بها، لم يزعم أحد قط أن شيئاً منها قد لحقه النسخ وأنه رفع من كتاب الله فلم يقرأ تعبداً، أو اعترى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها نسيان شيء منه فلم يذكروه بعد إذ نسوه، وهي كلها تحمل في ألفاظها وكلماتها وجملها وتركيبها الأسلوبي كلمات الترضّي، وتخبر عن رضاء الله تعالى عمن نزلت فيهم للتنويه بشأنهم، ورضائهم عن الله لما أفاضه عليهم من نعمة الرضا وهي أعظم نعم الله على المصطفين من صفوة عباده.

فلماذا خُصّ بالنسخ ما زُعم أنه قرآن نزل في شأن قرّاء بئر معونة، وقرأه الناس ثم نسخ أو رفع أو نُسي، وليس فيه إلا الإخبارِ بطلب إبلاغ قومهم أنهم لَقُوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم؟. وهذا الترضّي مذكور في جميع الآيات القرآنية الإعجازية في المواضع التي سقناها في الآيات التي عرضناها فيما سبق، وفي غيرها من آيات القرآن الحكيم، مع وحدة المعنى العام.

والتشبّث بخفاء الحكمة عن العقول في كثير من الأحكام التعبدية والتشريعية لا يرفع الشبهة عن هذا الكلام المزعومة قرآنيته، بل هذا التشبّث بخفاء الحكمة لا يرفع عن هذا الكلام صفة فقده الخصائص الإعجازية للقرآن الكريم في أسلوبه وطرائق هدايته، وما اشتمل عليه من المعاني الرفيعة والحقائق العالية.

وهي مشتملة على ما قصده الزاعمون من قرآنية ما ليس له من خصائص القرآن الإعجازية في معانيه وأسلوبه شيء سوى التوافق في ذكر هذه الألفاظ: (رضي عنا ورضينا عنه)، مع اختلاف الروايات في ألفاظ الترضّي عنهم من الله أو الترضي منهم عن الله تعالى اختلافاً لا يمكن وقوع مثله في القرآن العزيز الحكيم الذي وصفه الله عز شأنه بقوله: ﴿وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾[1].

---

(١) سورة فصلت آيتا (٤١ ـ ٤٢).

وقفة مع السهيلي وتحقيق
أنه لا نسخ بغير بدل
مناقشة رأيه فيما زعم من صحة روايات قرآن
نزل ثم نسخ إلى غير بدل

تعريف موجز بالإمام السهيلي.

الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُهَيلي من أعلام علماء الأمة الذين أوتوا حظاً وفيراً من الذوق الأدبي وغزارة تحصيل في علوم اللغة والأدب وفنونه، بلغا به منزلة الاجتهاد المتخيّر، وهو إلى جانب ذلك محدِّث ناقد، ونسّابة راوية، ومؤرخ حفيظ، وفقيه عليم، ومفسّر درّاك.

بيد أن النزعة الأدبية اللغوية كانت هي الغالبة على فنونه وبحوثه، تجد له غوصاً على لآلىء النحو وعلله والصرف وتصريفاته، والبلاغة وأسرارها ولمحاتها، وقد كان رحمه الله صورة لحذق شيخه الإمام الحاذق الغوّاص في بحار المعاني القاضي أبي بكر بن العربي المعافري رحمهما الله تعالى، وتظهر ملامح الفضل والمعرفة وسعة الاطّلاع على تراث من سبقه وعاصره عند السهيلي في كتابه الفريد (الروض الأُنُف) الذي شرح به سيرة ابن إسحاق.

ومن هذه النزعة الأدبية كانت سبحاته في فهم إعجاز القرآن الكريم الأسلوبي، وبراعة بيانه الأدائي، وروعة وفائه بالحقائق الإلٰهية الغامضة، وكشفه عن المعاني الإنسانية المبثوثة في حنايا هذا الكتاب الحكيم المحكم والمنثورة لآليها في أكناف سوره وآياته وجمله وكلماته، وسلاسة عباراته، وسجاحة ترسّله، وتنغّم فقراته.

ومن ثَمَّ كان أبو القاسم السهيلي العالم المسلم الوحيد الذي رأيناه أنكر في صراحة أن يكون هذا الكلام الذي رواه الصحيح على أنه قرآن ـ نزل من عند الله في التنويه بشأن قـرّاء بئر معونة وقرأه الناس ثم نسخ أو رفع، أو

السهيلي ينكر قرآنية الكلام الذي جاء في رواية الصحيح ولكنه يتمحل التأويل تقدساً في محراب الأسانيد.

نُسي، قرآن له خصائص الإعجاز القرآني ورونقه، فقال: ولما قتل أصحاب بئر معونة نزل فيهم قرآن، ثم رفع (أن بلِّغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) فثبت هذا في الصحيح - أي عند البخاري ومسلم وغيرهما - مما صحَّت روايته سنداً عند من روى القصة، وليس عليه رونق الإعجاز.

ولكن السهيلي كعّ عن الإصرار على قولة الحق - التي طعن بها هذا الكلام الذي جاء في الصحيحين بزعم أنه قرآن نزل من عند الله تعالى وقرىء ثم نسخ، طعنة ردته إلى مكانه من عامة كلام البشر المقدور على مثله من سائر أفراد البشر الذين لم تكن فيهم عاهة تعوقهم عن مكالمة الناس في أسواقهم ومجتمعاتهم وبيوتهم ومرافق حياتهم، تهيباً منه أن يقدم على ردّ رواية الصحيح وإن كان الوهم والوهن أدّياه إلى أن يثبت ما لا يثبت، وأسند بعلمه ماوَهَى وانقض، ولهذا اتبع السهيلي كلمته النابغة البالغة شأو الحجة وذروة البرهان بما أوهنها فقال مجيباً عن اعتراض توهّمه: وهذا الاعتراض يفرض في نظر السهيلي - تسليم وقبول رواية الصحيح أن قرآناً نزل في شأن قرّاء بئر معونة وقرأه الناس، ثم نسخ أو رفع، أو نُسي، ولكن كان بلفظ آخر غير ما ذكرته رواية الصحيح.

ومحصل توهّم السهيلي: كيف يحكم على هذا الكلام - الذي رواه الصحيح، وقالت الرواية أنه قرآن نزل من عند الله قرأه الناس ثم نسخ - أنه قرآن وهو مجرّد عن أخصِّ خصائص القرآنية، وهي ظهور رونق الإعجاز عليه، كما هو الشأن في أي كلام يثبت بالدليل القاطع بوجود خصائص القرآنية فيه، وأولها وأجلُّها ظهور رونق الإعجاز عليه ، لأن القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة التي أعطيت حق التحدي العام بها للدلالة على صدق محمد ﷺ في جميع ما جاء في رسالته الخاتمة لرسالات الله تعالى إلى كافة الخلق، ولم يقع التحدِّي العام قط بغير القرآن الكريم من جميع ما أكرم الله به نبيه محمداً ﷺ من الكرامات والمعجزات الماديّة الحسية، وهي كثيرة جداً بلغت في مجموعها حد التواتر، وأكثرها مروي بالأسانيد الصحيحة التي لا يشوبها الوهم، ومتونها سليمة مما يضعفها.

وإذا كان هذا هكذا فقد بطل ادّعاء كون ما روي في الصحيح ـ من نزول قرآن قرأه الناس ثم نسخ ـ قرآناً لأن الحكم بتجريده من رونق الإعجاز أخرجه عن القرآنية، فبطلت الرواية التي جاءت به على أنه قرآن، ولا يمنع بطلانها رواية الصحيح لها، كيف ورواية الصحيح لأي كلام لا تمنحه الثقة والصحة، والحماية عن البطلان، ولو كان ممّا لا يصح معناه ولا يثبت متنه.

تراجع السهيلي عن قولة الحق تهيباً لصحة سند الصحيح.

وهنا نكص السهيلي متراجعاً عن قولة الحق التي أعلنها من زعم أن ما جاء في رواية الصحيح أنه قرآن نزل من عند الله، وقرأه الناس، ثم نسخ لم يكن قط قرآناً، لأنه ليس عليه رونق الإعجاز الذي هو أخص خصائص قرآنية القرآن الحكيم المحكم.

ولكن السهيلي استعظم جداً أن يكون شيء من روايات الصحيح باطلاً ولو جاء متنه بالمحال من المعاني، فذهب يحاول الإجابة عن اعتراضه والخروج مما أدخل الحق في مضائقه، فقال في تعسف ومداورة: إن هذا الكلام الذي جاءت به رواية الصحيح بزعم أنه قرآن نزل من عند الله على النبي ﷺ وبلّغه أصحابه وقرأوه، ثم نسخ، ووصفه السهيلي بأنه ليس عليه رونق الإعجاز، فأبطل قرآنيته، وبهذا تبطل رواية الصحيح بزعم أنه قرآن، والحكم ببطلان رواية الصحيح خروج على ما للصحيح من قداسة تمنع رواياته من الحكم على شيء منها بالبطلان.

فلا بدّ إذاً من التمحّل وتعسف التأويل لتبقى لرواية الصحيح قداستها ومكانتها من الثقة والصحة التي تحميها عن الحكم بالبطلان، وفي مجال التأويل متسع لهذه الحماية.

ومن ثم فقد شمّر السهيلي ليخوض معركة الدفاع عن رواية الصحيح فقال: إن هذا الكلام الذي جاءت به رواية الصحيح، وزعم أنه قرآن لم ينزل بهذا النظم ـ أي الذي خلا من رونق الإعجاز، ففقد خصيصة القرآنية ـ ولكنه نزل بنظم معجز كنظم القرآن.

وحينئذ لا يجوز قط وصف الكلام الذي جاءت به رواية الصحيح بأنه

قرآن نزل من عند الله، وقرأه الناس ثم نسخ، لأن هذا الوصف لهذا الكلام باطل، بل محال لم يقع.

السهيلي يدعي ما لا دليل له عليه.

ودعوى السهيلي بأن هذا الكلام المزعومة قرآنيته في رواية الصحيح لم ينزل بهذا النظم الذي ليس به رونق الإعجاز، أنه نزل بنظم معجز كنظم القرآن ـ دعوى تنادي على نفسها باليتم، وأنها زعم مخترع لا يعتمد على شيء من ركائز الاستدلال، فهي دعوى ثكلت برهانها، وفقدت الحجة لها، فهي محض كلام لا يرتكز على شيء من دعائم المنطق ومدارك العقل، لأن أسلوب الروايات كلها صريح بأن ما فيها هو الذي نزل وقرىء ثم نسخ أو نُسي، ثم إن هذه الدعوة إذا قُبلت من السهيلي ـ عملاً بحسن الظن ـ مع التغاضي عن المطالبة بدليلها نقلاً أو عقلاً ـ كانت من الطامّات الدواهي التي جرّ إليها تهيب أن توهّى أو توهّم رواية الصحيح.

خطر ما ذهب إليه السهيلي على نصوص القرآن وأدائه إلى تجهيل الأمة الإسلامية بخصائص قرآنها.

وما ندري هل خفي على السهيلي ـ وهو العالم الحاذق الناقد ـ أن كلامه في دعواه هذه التي لا تعتمد إلا على خواء يجره إلى طامة أدهى وأمر، أو أنه قال ما قال وهو على علم بما قال، وكلا الفرضين وخيم العاقبة، كسير الخوافي والقوادم، لأن كون الكلام المروي في الصحيح على أنه قرآن لم يكن قرآناً منزلاً، وإنما كان كلاماً بدّل بالقرآن الذي نزل وقرأه الناس، ثم رفع وقيل عن هذه الألفاظ في رواية الصحيح أنها قرآن نزل من عند الله، وقرأه الناس، ثم نسخ، أو رفع، أو نسي.

وإن صحّ ما ادعاه السهيلي ـ وهو أن الذي رواه الصحيح عن أنس ابن مالك رضي الله عنه ليس هو النظم الذي نزل، وإنما هو كلام جعل بديلاً عما نزل، والذي نزل كان قرآناً عليه رونق الإعجاز، فنظمه كنظم القرآن الذي بين يدي المسلمين يتعبّدون به ويتحدّون بإعجازه، ثم بدل هذا الكلام الذي جاء في رواية الصحيح ـ كان ذلك تبديلاً لكلم القرآن الكريم وآياته بكلام بشري سمَّته الرواية قرآناً منزلاً، وأن الصحابة قرأوه والنبي ﷺ بين أظهرهم، ثم نسخ أو رفع أو نسي.

وهذا باب في التأويل في آيات الله، يفتح على الإسلام والمسلمين شراً

مستطيراً، وأهون من ذلك أن يقع في القرآن ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل والتحريف، ويقع ما خشيه حذيفة على عهد عثمان رضي الله عنه، أو يفتح باب تلقي القرآن بالمعنى، وتنسى نصوصه وألفاظه وأسلوب إعجازه وبراعة بيانه كما وقع في الحديث الشريف بعد أن فتح باب الرواية بالمعنى، وأصبحت أحاديث رسول الله ﷺ تروى بالمعنى دون تحرّج حتى كثر ذلك جداً، ولم يبق حديث من أحاديث النبي ﷺ يمكن أن يكون قد وقع عليه الاتفاق الإجماعي بين المحدِّثين من السلف والخلف بأن ألفاظه هي ألفاظ النبي ﷺ، وإذا وجد ذلك فهو أندر من الندرة، وبهذا المذهب ضاع على الأمة ألفاظ نبيها ﷺ، وهي تحمل في طواياها من الحقائق الشريفة والمعاني السامية ما لا يمكن أن تؤديه ألفاظ غير ألفاظه صلوات الله عليه.

باب من التأويل يفتح على المسلمين شراً مستطيراً.

ولا سيما المعاني الثانوية التي تتعلق بها أحكام وشرائع وآداب وسياسات ونظم اجتماعية وطرائق اقتصادية لا تؤدي بالدلالات الوضعية الأولى قبل صياغة الجمل ووضع كل جملة وكل كلمة في موضعها الذي يتطلبه الأسلوب البياني.

وهذه مزلقة لو انحدر إليها المسلمون في نصوص القرآن وآياته لانعدمت الثقة القطعية، وفقد اليقين القطعي التواتري بالنصوص القرآنية المتعبد بتلاوتها، المتحدّى بإعجازها وهدايتها، وأسلوبها وروعة بيانها، وأدائها للمعاني والحقائق الإلٰهية والإنسانية.

ثم ذكر السهيلي اعتراضاً آخر ينفي به أن يكون ما زعم أنه قرآن قرىء ثم نسخ فقال: فإن قيل: إنه ـ أي ما زعم في رواية الصحيح أنه قرآن ـ خبر والخبر لا يدخله نسخ.

تعسف السهيلي في تأويل دخول النسخ في الأخبار، والرد عليه.

وقد أجاب عن هذا الاعتراض بجواب وهِنٍ واهي، فقال: لم ينسخ منه ـ أي الكلام المزعومة قرآنيته ـ الخبر، وإنما نسخ منه الحكم، فإن حكم القرآن أن يتلى في الصلاة، وأن لا يمسّه إلا طاهر، وأن يكتب بين اللوحين، وأن يكون تعلمه من فروض الكفاية، فكل ما نسخ ورفعت هذه الأحكام وإن بقي محفوظاً فإنه منسوخ، وإن تضمن حكماً جاز أن يبقى ذلك الحكم

معمولاً به، وإن تضمن خبراً بقي ذلك الخبر مصدّقاً به، وأحكام التلاوة منسوخة عنه.

والبحث مع السهيلي في هذا الاعتراض وجوابه أن قول الأصوليين: الخبر لا يدخله نسخ معناه عند أهل العلم أن الأخبار لما كانت بمعرض الصدق والكذب ذاتياً - لا إعلام عن وقوع شيء في الماضي أو تيقن وقوعه في المستقبل - كانت بمعزل عن النسخ في إخبار الله تعالى وإخبار رسوله ﷺ، لأن دخول النسخ فيها معناه نفي وقوع مضمونها في الماضي أو نفي تيقن وقوعها في المستقبل، وهذا المنفي هو الجانب المتحتم في إخبار الله تعالى وإخبار رسوله ﷺ وهو الصدق، فإذا نسخ الخبر ورفع صدقه بقي الجانب الآخر المقابل له في الاحتمال وهو الكذب، وهذا محال، ومن ثَمَّ اتفقت كلمة الأصوليين على عدم وقوع النسخ في الأخبار لأنها تؤدي إلى المحال وما أدّى إلى المحال محال فدخول النسخ في الأخبار محال.

والسهيلي رحمه الله تعالى لما رأى أن القول بدخول النسخ في الأخبار - ومنها خبر الله تعالى وخبر رسوله ﷺ وكل خبر قامت الدلائل القاطعة على وقوع مضمونه كالأخبار بالمتواترات القطعية مثل الأخبار عن وجود البلاد في مواطنها، والأشخاص الذين شوهدوا بالتواتر وبقي التاريخ حفيظاً عليهم دون نكير - ينتهي إلى هذا الباطل المحال، ورأى أن قضية الكلام المزعوم أنه قرآن في قصة قرّاء بئر معونة من قبيل الأخبار، وأن دخول النسخ فيها باطل وغير مقول لأحد من أهل الأصول، ذهب في تأويل ادّعاء نسخ خبر هذه القصّة مذهباً غريباً يعتمد على التعسف فقال: إن نسخ الأخبار يراد به نسخ ما تضمنته من أحكام، ولفظها باق على خبريته محفوظ، والمنسوخ أحكامه التي تثبت به وبغيره من الأخبار المماثلة، ولو لم تكن تلك الأحكام مقصودة بهذا الخبر.

ومن المعروف المسلّم به عند أهل العلم أن الأخبار لا يحدث المخبر بها أحكاماً، وإنما هو مخبر بها عن وقوع مضمون نسبتها الإسنادية في الخارج، أو تيقن وقوع تلك النسبة في المستقبل والنظر في الأخبار إلى نسبتها، واقعة أو

غير واقعة، فهي بهذه المثابة لا يدخلها النسخ قط ما دامت على خبريتها، والأحكام التي ذكرها السهيلي عامة لها طرقها في الطلب والامتثال، وما ذكر في القصة من الكلام المزعومة قرآنيته ليس فيه حكم خاص مما ذكره السهيلي، وإنما هو محض إخبار بحال الشهداء في هذه الموقعة بأن الله تعالى رضي عنهم ورضوا عنه.

والنسخ إنما يدخل الأوامر والنواهي في صيغتها الإنشائية الطلبية، أو صيغتها الخبرية لفظاً، وهي في المعنى إنشاء، أي خبر مقصود به الطلب لرفع أحكامها المدلول عليها بصيغتها الإنشائية الصريحة أو المؤولة، فالخبر الصريح لفظاً ومعنى لا يدخله نسخ. ونسخ الأحكام التي لا دلالة مقصودة قصداً خاصاً للفظ عليها بمنطوقه الوضعي كالجزئيات الفقهية من الأحكام التي ذكرها السهيلي لا يعتبر نسخاً لحكم الخبر الدال عليه بالنسبة الإسنادية ـ وهو موضع النزاع ـ أحكام عامة لا تختص بالخبر الذي زعم أنه قرآن نزل وقرأه الناس ثم نسخ.

فقول السهيلي: فكل ما نسخ ورفعت منه هذه الأحكام وإن بقي محفوظاً فإنه منسوخ كلام خارج عن معنى النسخ عند الأصوليين، لأن النسخ عندهم رَفْعُ حكم دلّ عليه النص بمنطوق دلالته الوضعية، إما مع النص الذي دل عليه أو بدونه، فالأول نسخ لفظ النص وحكمه معاً، والثاني نسخ الحكم مع بقاء النص متلواً متعبداً به، متحدّىً بهدايته وروعة بيانه وبراعة أسلوبه وعلّوه على كل كلام بشري مهما بلغ من الفصاحة.

والذي جرى فيه كلام السهيلي خبر من الله ـ فيما زعمت الرواية ـ نسخ لفظه وحكمه الخاص الدال عليه دلالة مقصودة به، وهذا هو ما أجمع أهل الأصول على عدم جواز دخول النسخ فيه، لأن دخول النسخ فيه يؤدّي إلى تمحيض خبر الله تعالى للكذب، وهذا أبطل الباطل وأمحل المحال.

والأحكام التضمينية لا مدخل لها في نسخ الأخبار أو عدم نسخها، لأن هذه الأحكام قد تكون ثابتة بغير هذا الخبر، فتكون حينئذ منسوخة به ـ كما زعم السهيلي ـ ثابتة بغيره من محكمات النصوص، وهذا خُلْف وتناقض.

وجميع الجزئيات التي ذكرها السهيلي في هذا المقام وحكم عليها بالنسخ، ليسلم له الخبر من دخول النسخ ثابتة بنصوص خاصة أخرى كثيرة، فهي ليست بمنسوخة، لا بهذا النص، ولا بغيره، وإلا فتح باب الدعوى على الأخبار الإلّهية كلها بأنها منسوخة بنص خبري ثابتة بنص آخر سواء أكان خبرياً أم إنشائياً، وهذا مع ظهور بطلانه متهافت متعسِّف التأويل لا يقبل في نصوص القرآن الكريم وأحكامه وتشريعاته، فضلاً عن أنه يفتح باباً من الفوضى في تأويل النصوص، لأنه ما من خبر إلا وله أحكام تضمنية ثابتة بنص غيره فتكون منسوخة بنص آخر ثابتة بنص غيره، وهذا يرفع الثقة عن التشريع الإخباري لقيام احتمال النسخ في أحكامه.

كانت وقفة السهيلي عند قولة الحق التي أنكر بها قرآنية كلام الروايات الحديثية أكرم به وله.

وليت الإمام السهيلي كفّ إملاءه على قلم كاتبه ووقف عند قولة الحق التي قالها ليرد ما زعم أنه قرآن نزل في قصة قرّاء بئر معونة بأنه ليس عليه رونق الإعجاز، أي أنه فقد خصيصة الإعجاز القرآني، فهو ليس بقرآن إذاً ـ لكان له إلى جانب وقوفه مع الحق على رغم روايات الصحيح فضل تضييق مسالك الفتنة على عامة الأمة وكثير من خاصتها فيما يقال حول قرآنهم المجيد من أحاديث ليس لها من رونق الإعجاز ولا من شعاع الهداية شيء.

ولكن يظهر أن الإمام السهيلي استحلى الحديث جرياً على نهج أهل الأدب في كلام أبعدية السير، فأعرض عن نهجه الموفق في إنكاره أن يكون ما جاء في روايات قصة سَرِية القراء في الصحيح أو غيره قرآناً منزلاً من عند الله قرىء ثم نسخ لفقده أخص خصائص القرآنية، وأنه ليس عليه رونق الإعجاز إلى نهج السنديين الذين يتهيبون قولة الحق في روايات صحّ سندها ولو لم تصح متونها.

فرجع عن مذهبه الشجاع الموفق، وذهب مع الذاهبين إلى أن ما جاء في الروايات وزعُم أنه قرآن لم ينزل بهذا النظم الذي قالت الروايات إنه أنزل به، وإنما هو ـ في رأي السهيلي ـ كان قد نزل بنظم معجز كنظم القرآن الكريم الذي يتداول المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها تلاوته والتعبد به، والتحدي بإعجازه وهم مئات مئات الملايين من عامتهم وخاصتهم في أرجاء

الأرض، ثم نسخ أو رفع أو نسي، وجاء التعبير عنه في الروايات بعبارات وألفاظ غيَّرها الرواة بما يفيد أنها هي التي نزلت من عند الله وقرأها الناس، ثم نسخت كما هو ظاهر أسلوب الروايات، ودخل السهيلي من هذا المضيق إلى اعتراضه بأن ذلك من قبيل الأخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ، وأجاب عن ذلك بما ناقشناه فيه إظهاراً لبعد مأخـذه في التأويل الذي أنزله منزلته من عامة الكلام واختلاف الأقاويل، وهذه رجعة في الرأي كان السهيلي أبعد عنها في منهجه الأول، ولكنه التهيب لردّ ما ثبت في الصحيح هو الذي قاده إلى ذلك.

استطراد يقتضيه البحث والسهيلي هو الذي فتح بابه.

وقد بالغ السهيلي في تمسكه بالمنهج التأويلي ليثبت ما ثبت في الصحيح من زعم قرآنية كلام الرواة في قصة قراء بئر معونة، فشبّه به في كونه قرآناً نزل من عند الله كلاماً آخر زعم أنه نزل قرآناً ثم نسخ لفظه وبقي حكمه، فقال: كما قد نزل (لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على من تاب).

والإمام السهيلي رحمه الله إذ يسوق هذا الكلام الذي لا يحمل مسحة من شوب البيان القرآني يقدِّم له بجملة يؤكدها بحرف التحقيق فيقول كما قد نزل، وهذا الكلام الذي يقدِّم له السهيلي بهذه الجملة التوكيدية المفتتحة بحرف التحقيق أبعد ما يكون عن رونق الإعجاز من الكلام الذي زعم أنه قرآن نزل في قصة بئر معونة، وأبطله السهيلي نفسه بأنه ليس عليه رونق الإعجاز، وما كان كذلك استحال أن يكون قرآناً نازلاً من عند الله للتعبد بتلاوته، والتحدِّي بهدايته وروعة بيانه.

ثم راح السهيلي يتعسف طريق التأويل بما ناقشناه فيه، ومع ذلك يورد السهيلي هذا الكلام المشبّه في كونه قرآناً نزل به الوحي من عند الله بكلام روايات قراء بئر معونة بما يشعر أنه محقَّق النزول.

السهيلي نفسه يروي (لو أن لابن آدم) بروايات متخالفة.

ولا ندري على أي أساس من النظر بنى السهيلي زعمه هذا، وهو يذكر اضطراب النص في رواياته التي رويت في الصحيح، فيقول: ويُروى: لا يملأ عيني ابن آدم، وقد كان النص ولا يملأ جوف ابن آدم، كما أنه روي

ولا يملأ فم ابن آدم، وقال الزرقاني ـ وكذا روي: لو كان لابن آدم واديان من مال بدل قوله: من ذهب، ومن طرق التخالف والاختلاف التي أوردها ابن حجر في الفتح ما جاء في حديث ابن عباس الأول (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً) فقد جاء هذا النص في الرواية الثانية من الصحيح عن ابن عباس (لو كان لابن آدم ملء واد مالاً لأحبَّ أنّ له إليه مثله) ولكن ابن حجر ساقه متخالفاً مع متن الصحيح، فقال في الرواية الثانية: (لو كان لابن آدم وادياً مالاً لأحبَّ أن له إليه مثله).

ومن طرق التخالف والاختلاف ما جاء في فضائل القرآن لأبي عبيد (لو كان لابن آدم واديان من ذهب وفضة لابتغى الثالث) وله من حديث جابر بلفظ (لو كان لابن آدم وادي نخل).

قال ابن حجر: وقال في حديث أنس: (لتمنى مثله، ثم يتمنى مثله، حتى يتمنى أودية) وعند الاسماعيلي (لا يملأ نفس ابن آدم) بدل (جوف ابن آدم)، وفي حديث ابن الزبير (لا يسد جوف)، وفي الرواية الثانية في الباب (ولا يملأ عين ابن آدم)، وفي حديث أنس (ولا يملأ فاه ابن آدم)، وفي حديث زيد ابن أرقم (ولا يملأ بطن ابن آدم)، والقرآن الحكيم يستحيل أن يدخله شيء من الاختلاف في نصه مما يوجب اضطرابه ويفقده الثقة في نصوص آياته.

ثم يقول السهيلي: وكل ذلك في الصحيح، ثم قال السهيلي معقِّباً على اختلاف النص في الروايات: فهذا خبر حق، فكيف يكون هذا خبر حق؟ وفيه هذا الاختلاف؟ فهل تعاور هذا الاختلاف على هذا الكلام قبل أن تنسخ تلاوته؟ فإن قلتم نعم، قلنا لكم: فأي رواية كان نصها هو القرآن المنزَّل، وأيها كان نصُّها مصنوعاً من كلام الناس لأداء المعنى القرآني؟ وما وجه اعتبار هذه الرواية بخصوص أن نصها هو القرآن المنزّل دون غيرها من الروايات؟ وإن قلتم كانت جميع نصوص الروايات قرآناً منزلاً من عند الله، وبقي على اختلافه في روايات الصحيح، قلنا لكم عندئذ وجب السكوت عن مكالمتكم.

ومن أخطر ما قال السهيلي في (روضه) وأبعده عن تقبل العقول

المستنيرة بهداية القرآن واستحلاء التذوق القرآني في سماحة ألفاظه، وسجاحة جمله، وسلاسة تراكيبه، ولطف مقاطعه، وحلاوة نغمه، وترنيمات نظمه في تلاوته، واتساق وقعه في أذن سامعه، وانسياب معانيه إلى القلوب كما ينساب النمير العذب إلى جوف الصديان في حمارّة القيظ وتشابك حقائقه تشابك الحب بشغاف قلوب المحبين، واستدعاء أوائلها ثوانيها، وتطلّب مباديها أواخرها ـ: وكانت هذه الآية ـ أي هذا الكلام المتخالف المختلف المضطرب في ألفاظه وأسلوبه وتراكيبه وعباراته كما بيناه فهو في رواية بلفظ (لا يملأ جوف ابن آدم)، وفي ثانية بلفظ (لا يملأ عينيه)، وفي ثالثة (لا يملأ فم ابن آدم)، ثم صاحب هذا التخالف والاختلاف تخالف واختلاف آخر في قول الروايات (لو كان لابن آدم واديان من ذهب) فقد أبدل لفظ من ذهب إلى لفظ (من مال) في الرواية الأخرى، ثم خلاف آخر يتعلق بأسلوب الكلام واستقامة عربيته على قواعد اللغة الكثيرة الدوران والاستعمال حتى أصبح هذا الاستعمال قاعدة يقوم عليها إعراب المثنى في الاستعمال المشهور.

فجاءت العبارة في أشهر الروايات (لو أن لابن آدم واديان) وحق الكلام أن يكون (لو أن لابن آدم واديين) بالنصب لأنه اسم (إن)، وقد تمحّل بعض الناظرين لهذا فقال إن هذا الاستعمال جاء على لغة من يلزم المثنى الألف في جميع أحوال إعرابه.

التخالف والاختلاف في رواية (لو أنَّ لابن آدم) ينفي أنَّه قرآن نزل ثم نسخ لاستحالة ذلك في القرآن.

وكل ذلك ينفي نفياً قاطعاً أن يكون هذا الكلام قرآناً منزلاً من عند الله، ولكنه يمكن أن يكون من حديث رسول الله ﷺ الذي أجاز جمهور المحدثين والرواة روايته بالمعنى، بشرط أن يكون الراوي حفيظاً على احتواء المعنى، عارفاً بنظم الكلام ومواقع كلماته من العبارات والجمل.

ولا ندري أين زُوي عن الإمام السهيلي حذقه الناقد، وعقله الحصيف، وذوقه الأدبي الرفيع، بل أين شرد عنه حسّه البياني البديع إذ يسمح لنفسه ـ على ما كان عليه من فضل في التفكير، والذوق الأسلوبي ـ أن يطلق على هذا الكلام المتخالف المختلف المضطرب في رواياته لفظ (آية)، فيقول في مجازفة متفلتة العُقُل، متسيبة الأزّمة والخُطُم، وهي مجازفة لا تقال

عثرتها، وكبوة جواد لالعالها: إنه ـ أي هذا الكلام الذي سماه (آية) ـ كان في سورة يونس بعد قوله تعالى: ﴿كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصِّل الآيات لقوم يتفكرون﴾.

ثم قال السهيلي: كذلك قال ابن سلّام، ولا ندري هل هذه الإحالة على ابن سلّام للتخلص من عهدة هذا القول، أو لتوثيق الرأي الذي ذهب إليه؟

أبطل الباطل أن يكون هذا الكلام كان في سورة يونس أو غيرها من سور القرآن الحكيم.

هكذا في بساطة ساذجة أُخذ هذا الكلامُ المتخالف المختلف المضطرب في رأي السهيلي، ومن ذهب مذهبه وصفَ القرآنية المنزلة من عند الله، وأنه آية كآيات القرآن الكريم، وأن سيد المرسلين وأفصح البشر أجمعين محمداً ﷺ وضع هذا الكلام بمقتضى منصب رسالته ووحدة حقه في ترتيب آيات القرآن ووضعها في مواضعها من السور ـ في ترتيب آيات سورة يونس بعد آية من أروع آيات البيان القرآني، آية ضرب الله فيها مثل الحياة الدنيا في زخرفها ويانع زهرتها، واغترار أهلها بها، وسرعة تقضّي لذائذها، وذهابها فانية كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

وقد كانت فاصلة الآية الكريمة كافية في زجر المجازفين عن التفوّه بما قالوا وما خطّته أقلامهم، بما فيها من روعة الإعجاز، وبراعة البيان، ونهنهة الإنسان عن غروره بهذه الدنيا الفانية.

وهكذا على غير ترقب وانتظار يجيء هذا الكلام المتخالف المختلف المضطرب في نصوص رواياته فيوضع بين آيات سورة يونس، بعد هذه الفاصلة الإعجازية المبدعة، التي لا يمكن لعاقل سَوِيِّ العقل أن يزعم شبه تلاؤم وانسجام بينها وبين هذا الكلام الذي زعموا أنه حُطّ بعدها فانحط عن تساميها في إعجازها وبراعة مقطعها، واتساق ترنيمها في نغم التروّح لقارىء القرآن الحكيم.

ثم ذهب هذا الكلام النازل في درجته غير المنزل من سماء عظمة القرآن الحكيم مع عواصف النسخ في غمامات النسيان التي قصمت صدوره وإعجازه، وقصفت أمل زاعميه قرآناً، وهو ليس من القرآن في سبد ولا لبد.

وهل ينسجم في تذوق حلاوة النظم واستطعام الكلام، وهشاشة النفوس، وإثارة المشاعر، وتحريك الحس، وانصياع الآذان لنغم اللفظ في أسلوب القرآن المتناسق المتسق أن يجيء هذا الكلام المتخالف المختلف، المضطرب في أوضاعه الروائية بعد هذا السلسل النمير، والعذب السلسبيل، فيأخذ له مكاناً بين آيات الكتاب المبين؟ هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل.

ويظهر أن الإمام السهيلي رحمه الله لم يطمئن قلبه إلى زعم قرآنية هذا الكلام المتخالف المختلف بعد أن وسمه بميسم نفي خصيصة القرآنية عنه في قولته: بأن هذا الكلام ليس عليه رونق الإعجاز، فأسرع إلى البراءة منه ونسبه إلى قائله، وما قيمة هذا العزو إلى ابن سلام؟ هل يحق باطلاً، أو يصلح فاسداً، أو يبرىء من عهدة، وهل تثبت قرآنية القرآن الكريم بمجرد قول فلان، ابن سلام أو غيره، دون أن يثبت ذلك عن رسول الله ﷺ ثبوتاً بيِّناً قاطعاً متواتراً بنقل جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب في اللفظ والمعنى، وأن ينقل عن هذا الجمع جمع مثلهم مع وحدة المعنى واللفظ، وأن الجمع الأول سمع النص منه ﷺ مباشرة موحد اللفظ والمعنى، فأدّاه إلى جمع مثله، وهؤلاء أدُّوه إلى الأمة آيات من كتابها يكسوها رونق الإعجاز وروعة البيان وبراعة الهداية.

ومن الغرائب العجيبة في هذا الكلام أن الإمام السهيلي رحمه الله قد غلط على الصحيح غلطاً بيناً في قوله: كما قد نزل (لو أن لابن آدم واديان) - هكذا ذكره السهيلي في الروض مرفوع اسم (إن) - بالجزم القاطع الذي يدل على أنه يذهب مذهب الزاعمين أن هذا الكلام قرآن نزل من عند الله، ثم نسخ.

كما غلط - أيضاً - في قوله: وكل ذلك في الصحيح، وفي قوله: فهذا خبر حق ووجه الغرابة والعجب في قول السهيلي أنه نسب ذلك إلى الصحيح دون تردد أو ثُنْية ثم جزم بأنه خبر حق.

في أصح الصحيح، وهو جامع البخاري أن هذا الكلام رواه البخاري

في كتاب الرقاق من جامعه في باب ما يتّقى من فتنة المال في أحاديث خمسة متتابعة بأسانيد مختلفة، وليس في حديث منها ما يوهم أن هذا الكلام روي على أنه قرآن نزل به الوحي، ثم نسخ، بل بعض الروايات صريح بأن هذا الكلام من حديث رسول الله ﷺ، روي بالمعنى فاختلفت بعض ألفاظه في الروايات.

تحقيق روايات البخاري بما يبين أنه ليس فيها ما يدل على دعوى أن (لو كان لابن آدم واديان) قرآن.

الرواية الأولى ـ حديث ابن عباس من طريق أبي عاصم عن ابن جريج، عن عطاء، قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على من تاب».

فهذه الرواية صريحة صراحة لا تحتمل الشك في أن هذا الكلام من حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه ابن عباس، وليس فيه إشارة من قريب أو بعيد إلى احتمال أنه قرآن نزل به الوحي، ثم نسخ.

الرواية الثانية ـ حديث ابن عباس من طريق محمد، أخبرنا مَخْلد، أخبرنا ابن جريج قال: سمعت عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أن لابن آدم ملء وادٍ مالاً لأحب أن له إليه مثله، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» قال ابن عباس: فلا أدري من القرآن هو أم لا، قال عطاء: وسمعت ابن الزبير يقول ذلك على المنبر، قال ابن حجر: وظاهر أنه اللفظ المذكور بدون زيادة ابن عباس ـ أي قوله: فلا أدري من القرآن هو أم لا.

وهذا الشك الذي صرح به ابن عباس في الحديث الثاني من رواية البخاري قاطع بنفي قرآنية هذا الكلام، لأن القرآن لا يمكن أن يثبت على الشك، ولا بد في إثباته من القطع بتلقّي نصّه عن رسول الله ﷺ تلقياً متواتراً. على أن هذه الزيادة موقوفة على ابن عباس، فهي من كلامه لم يروها عنه جمع من الصحابة كما هو شرط إثبات القرآن، قال ابن حجر: ووجه ظنهم أن الحديث المذكور من القرآن ما تضمنه من ذم الحرص على الاستكثار من جمع المال، والتقريع بالموت الذي يقطع ذلك، ولا بد لكل أحد منه، فلما

توجيه ابن حجر لظن مَن ظن أنّ هذا الكلام قرآن غير مسلم.

نزلت هذه السورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ وتضمنت معنى ذلك، مع الزيادة عليه علموا أن الأول من كلام النبي ﷺ، وفي تعميم ابن حجر إسناد ذلك إلى عموم الصحابة أو جمهورهم أو إلى فريق منهم غير ابن عباس نظر للبحث، لأن عبارة ابن عباس رضي الله عنهما صريحة في أن الشك راجع إليه وحده، ونقل التعميم الوارد في حديث أبيّ بن كعب إلى رواية ابن عباس في هذه الزيادة خلط بين نصوص الروايات يوجب إدخال من لم يقل مع من قال، ثم قال ابن حجر: وقد شرحه بعضهم على أنه كان قرآناً ونسخت تلاوته لما نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فاستمرت تلاوتها ونسخت تلاوة ذلك، وأما الحكم فيه والمعنى فلم ينسخ، أو نسخ إذ نسخ التلاوة لا يستلزم المعارضة بين الناسخ والمنسوخ لنسخ الحكم، فالأول أولى، وليس ذلك من النسخ في شيء.

ثم أورد الحافظ ابن حجر حديث أبيّ بن كعب من طريق زِرّابن حُبَيش عند الترمذي أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»، فقرأ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ وقرأ فيها: ﴿إن الدين عند الله الحنيفية السمحة﴾ وفي هذا الحديث: أنه قرأ عليه «لو أن لابن آدم وادياً من مال» قال ابن حجر: سنده جيّد والجمع بينه وبين حديث أنس عن أبيّ المذكور آنفاً أنه يحتمل أن يكون أبيّ لما قرأ عليه النبي ﷺ ﴿لم يكن﴾ وكان هذا الكلام في آخر ما ذكر النبي ﷺ احتمل عنده أن يكون بقية السورة، واحتمل أن يكون من كلام النبي ﷺ، ولم يتهيأ له أن يستفصل من النبي ﷺ عن ذلك حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فلم ينتف الاحتمال.

ثم قال ابن حجر: ومنه ما وقع عند أحمد وأبي عبيد في فضائل القرآن من حديث أبي واقد الليثي قال: كنا نأتي النبي ﷺ إذا أنزل عليه فيحدثنا، فقال لنا ذات يوم: «إن الله قال: إنما أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ لأحبّ أن يكون له ثان» قال ابن حجر: وهذا يحتمل أن يكون النبي ﷺ أخبر به عن الله تعالى على أنه من القرآن، ويحتمل أن يكون من الأحاديث القدسية.

مناقشة ابن حجر في كلامه وتزييفه وبيان ما فيه من خطر على نصوص القرآن.

ونحن نقول للحافظ ابن حجر: إن المسألة ليست مسألة احتمال يتسرب منه الشك والتشكيك في نص القرآن الحكيم، ويرفع الثقة عن آياته وسوره، وإنما المسألة مسألة ثبوت النص القرآني ثبوتاً قاطعاً، كتاباً متعبداً به، متلوة ألفاظه التي يقطع بنزولها في أسلوبه وهدايته دون احتمال أن لا يكون كذلك، وذلك لا يكون إلا بثبوت التلقي عن رسول الله ﷺ تلقياً قاطعاً لا احتمال فيه، ثم بثبوت الإعجاز لأقصر سورة من سوره أو آية قدر أقصر سورة في ألفاظها وجملها كآية الكرسي ثبوتاً لا يشتبه فيه على من كان خلّص العرب وأهل البيان، والصحابة هم الخلاصة والصفوة في ملكات الشعور بإعجاز القرآن في هدايته وروعة جزالته وتوافق أسلوبه مع معانيه وحقائقه.

أما الجري مع الاحتمالات فهو إلى ما فيه من فتح باب الشك والتشكيك إفساد لملكات الشعور بالإعجاز الذي كان يدرك ولا يُقدر على التعبير عنه.

ومن ثَمّ كان خلّص العرب ـ وهم على شركهم في أوائل الطلائع ـ يدركون إعجازه قبل أن يؤمنوا به، لأن ملكات الشعور بالروعة البيانية متمكنة من طبائعهم الأصيلة التي لم يفسدها عناد الكفر، وهذا يبين ما جاء في بعض الآيات من أن بعض الأبيناء من أهل الفصاحة واللّسن لمّا سمعوا ما أُنزل على الرسول من آيات الكتاب المبين قبل أن ينتكسوا قالوا: وما هو بقول بشر، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطِم ما تحته، وإنه ليأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الأمور.

فاتهام بعض كبار الصحابة وذوي الزكانة والفطنة والذكاء من ألبّائهم بأنهم لا يفرقون بين القرآن في رونق إعجازه وروعة بيانه وبين كلام بلغاء الفصاحة من أبناء البشر غلو لا يليق بمقامهم من اللّسن العربي؛ وهم الذين نقلوا إلينا القرآن الحكيم برونق إعجازه، ونقلوا حديث رسول الله ﷺ بسمو عباراته التي أضرَّبها تجويز الرواية لها بالمعنى.

والذي ندين به أن كل كلام لم يقطع بقرآنيته، وصار يحتمل أن يكون قرآناً وأن لا يكونه فهو ليس من القرآن في شيء، والقرآن له خصائصه

عقيدتنا في مثل هذه الأحاديث وما قيل فيها من إثبات أو نفي.

البيانية التي سجد لها من لم يكن بها مؤمناً فلا ينبغي التغافل عنها، والجري وراء الأسانيد ورجالها.

الرواية الثالثة ـ حديث ابن الزبير على منبر مكة من طريق أبي نعيم قال: حدثنا عبد الرحمن بن سليمان بـن الغسيل عن عباس بن سهل بن سعد قـال: سمعـت ابـن الـزبير على المنبر بمكـة في خطبتـه يقـول: يـا أيهـا النـاس إن النبي ﷺ كان يقول: «لو أن ابن آدم أعطي وادياً ملآن من ذهب أحب إليه ثانياً، ولو أعطي ثانياً أحب إليه ثالثاً، ولا يسدّ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

وهذه الرواية على مثل صراحة الرواية الأولى عن ابن عباس في إفادتها أن هذا الكلام من حديث رسول الله ﷺ الذي كان يحدِّث به أصحابه، وهم حوله، يستمعون إلى قوله، وينظرون إلى سمته، ويرون خلائقه، ولطف ما يأخذ به مجتمعه من دروس التربية السلوكية ليقتدوا به في حياتهم حتى يكون كل واحد منهم نموذجاً حيّاً لمعنى الإسلام جيلاً بعد جيل.

وليس في هذه الرواية كلمة تشير من قريب أو بعيد إلى أن أحداً من الناس الذين شهدوا أحداث ابن الزبير سمعوا منه خطبة توهم أن هذا الكلام الذي رواه ابن الزبير عن رسول الله ﷺ قرآن نزل به الوحي من عند الله ثم نسخ أو رفع أو نسي، فهي كرواية ابن عباس الأولى التي لم يزد فيها تشككه في قرآنية هذا الكلام.

الرواية الرابعة ـ حديث أنس بن مالك من طريق عبد العزيز ابن عبدالله، حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لابن ادم وادياً من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» وهذه الرواية لا حاجة بها إلى بيان أن الكلام الذي فيها هو من حديث النبي ﷺ، لأن ذلك ظاهر بيّن، ولم يزعم أحد أن ما جاء فيها من كلام يشبه القرآن فضلاً عن أن يكون قرآناً نزل به الوحي على رسول الله ﷺ ثم نسخ.

الرواية الخامسة ـ حديث أنس عن أبيّ بن كعب من طريق أبي الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس عن أبيّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ وهذه الرواية تفيد أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كانوا يظنّون لأول وهلة يسمعون فيها هـذا الكلام، ويتذوّقون معانيه وحقائقه الزاجرة عن الحرص على جمع الدنيا قبل التأمل في أسلوبه وسمته البياني أنه قرآن حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾،وفيها ما تضمنه هذا الكلام من الزجر عن الركون إلى الدنيا وزيادة عليه مما صبّ في قالب البراعة البيانية والروعة البلاغية والرونق الإعجازي، فعندئذ ثابوا إلى ساحة الحقيقة بأن هذا الكلام لا يمكن أن يكون قرآناً لفقده خصائص القرآنية، وإنما هو بيان لبعض ما جاء في سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ من آيات في الهداية بيّنات، ليزدادوا ببيان رسول الله ﷺ إيماناً مع إيمانهم، وترسخ عندهم ملكات الشعور بالإعجاز القرآني، فلا يحتاجون إلى التفرقة بين القرآن وغيره لأن القرآن لا يشتبه بكلام البشر.

على أي شيء اعتمد السهيلي في دعواه قرآنية هذا الكلام المتخالف.

فكيف إذن بعد هذا التحقيق ساغ للسهيلي أن يقول في هذا الكلام: (لو أن لابن آدم) إلخ (كما قد نزل) وهذا معناه أن هذا الكلام وحي قرآني نزل من عند الله ثم نسخ.

وقد ظهر مما فصّلناه الفَرْق بين هذا الكلام وبين ما زُعم في قصة قرّاء بئر معونة، لأن في قصّة القّراء تصريح واضح في أحاديث أنه نزل في شأنهم قرآن قرأه الناس ثم نسخ، وقد أبطلنا هذا الزعم بالدلائل الواضحة والبراهين الصادقة.

أما ما قال فيه السهيلي هنا (كما قد نزل) فإنه لم يعرف عن أحد من أئمة السلف أنه قال إن هذا الكلام (لو أن لابن آدم وادياً) قرآن نزل به الوحي على رسول الله ﷺ، ثم نسخ، وأقصى ما بلغ فيه أن بعض الناس كان يظن أنه قرآن حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾، فعرفوا أنه من حديث رسول الله ﷺ، فقول السهيلي في شأن هذا الكلام: كما قد نزل غلط من جهة المعنى والبيان.

ثم كيف ساغ للسهيلي أن ينسب للصحيح هذا الغلط ويقول كل ذلك في الصحيح، وهذا غلط آخر تركّب مع الغلط الأول، وهو غلط بيّن يظهر من إلقاء نظرة عابرة على روايات أصح الصحيح التي سقناها بأسانيدها فلا يجد الناظر فيها ما يفيد قط أن هذا الكلام زعم له أحد أنه قرآن نزل بالوحي على رسول الله ﷺ، ثم نسخ بنزول سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ سوى ما أشار إليه ابن حجر في الفتح عن بعضهم ثم رده وقال: إن هذا ليس من النسخ في شيء.

وكل ما في إحدى روايتي ابن عباس شك يقضي عليه الجزم القاطع في الرواية الأخرى، وقد قدّم البخاري الرواية الخالية من الزيادة الموجبة للشك على الرواية الأخرى، ولعله يشير بذلك إلى أن الرواية التي لا شك فيها أرجح، ولو سلّمنا جدلاً أن رواية ابن عباس الأولى جاءت مثل أختها بالشك لما كان ذلك مفيداً لقرآنية الكلام، لأن للقرآن خصائصه التي تميّزه عن سائر كلام البشر، فلا يثبت بقول واحد لم يسنده إلى النقل عن رسول الله ﷺ بالتواتر القاطع.

أما رواية أبيّ (كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ألهاكم التكاثر) فليس فيها ما يفيد تلقّي قرآنيتها عن رسول الله ﷺ، وكل ما كان عند أبيّ ظن أن هذا قرآن نزل، وذلك بالنظر إلى ما تضمنه هذا الكلام من معنى شريف لأول وهلة، ثم لمّا نزلت سورة التكاثر رجع عنه ورجع معه من كان على ظنه بعد التأمل في خصائص القرآن الإعجازية.

هاتان الروايتان هما ما يتخيل التشبّث بهما، وهما بريئتان مما يتوهّمه الواهمون، فهذا غلط من السهيلي جاءه من إسناد قوله: (كما قد نزل) إلى الصحيح، فقال: وكل ذلك في الصحيح، وقد بينّا أنه ليس في أصح الصحيح شيء من ذلك، ومنشأ هذا الغلط المرجع الذي أسند إليه السهيلي قوله الذي ذهب إليه.

* * *

وكما سلكنا في قصة سرية قرّاء بئر معونة إذ عرضنا بعض آيات من

القرآن الحكيم في موضوع ما زعم أنه قرآن نزل في استشهاد رجال تلك السرية المجاهدة في سبيل الله، ثم نسخ بعد أن تداول الناس قراءته، ليكون للنظر فيما نعرضه من هذه الآيات الكريمة طريق عملي يظهر به ما فيها من رونق الإعجاز، وهو خصيصة القرآنية في ثبوت القرآن، وهذه الخصّيصة قد عري منها الكلام المزعوم قرآنيته في زعم السهيلي ومن ذهب مذهبه (لو أن لابن آدم واديين من ذهب لتمنى ثالثاً)، كما عري الكلام الذي جاء في قصة قرّاء بئر معونة في أحاديث أنس عند البخاري، كما قال السهيلي فيه إنه ليس عليه رونق الإعجاز، فبطل الزعم بأنه قرآن نزل به الوحي من عند الله وقرأه الناس ثم نسخ.

يقول ربنا تبارك وتعالى في سورة الحديد: ﴿إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفّراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾[1].

قال الزمخشري في كشافه: أراد أن الدنيا ليست إلا محقّرات من الأمور، وهي اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام، وهي العذاب الشديد، ومغفرة من الله ورضوان، وشبّه حال الدنيا وسرعة تقضّيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتمل مما أعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث الله عليه العاهة، فهاج واصفر وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم.

بيان ما في سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ من زجر لمن يركن إلى الدنيا وزينتها.

وقال عز شأنه: ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ عيّرهم زاجراً لهم ومقبّحاً ما هم عليه من الركون إلى زخارف الدنيا والتكاثر بحطامها حتى ألهتهم عن النظر لأنفسهم وما يكون فيه نجاتهم من عذاب الله، وهذا الإلهاء برغائب الدنيا وشهواتها من المال والولد والمتع الفانية واللذائذ المتقضية قد أحاط بأقطارهم حتى أضلهم، وسدّ عليهم منافذ العمل الصالح الذي هو طريق الفوز برضوان الله ونعيمه، واستحوذ عليهم بسلطانه الشهوي إلى أن

(١) سورة الحديد آية (٢٠).

قضَوا أعمارهم فيما يضرهم ولا ينفعهم من التفاخر والتكاثر، فاجأهم الموت فذهب بهم إلى ظلمات القبور ودُفنت معهم أمانيهم الكواذب، وفاتهم ركب الآمال والترّهات لشغلهم أنفسهم بشهوات الحياة الفانية، وغفلتهم عن معالي الأمور من الإيمان والعمل الصالح حتى رأوا رأي عين اليقين ما أعدّ لهم من عذاب الله وسخطه، ثم ردعهم ردعاً بعد ردع محذراً ومخوفاً لهم عواقب ما سيلقون إن لم يراجعوا التوبة ويثوبوا إلى ساحة الإيمان، ووزن الدنيا بميزانها الذي أقامها الله عليه لتكون نعمة على عباده الذين وصفهم بقوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾[1].

كشف عن الحقائق الجبلية في الإنسان من الحرص والشح.

ويقول الله جل شأنه في وصف جشع الإنسان وشدّة كلبه على حيازة الدنيا وزخارفها والركون إليها والاغترار بزهرتها وشدة حرصه على لَمِّها، وشحّه بها في إنفاقه لها في مصادر الخير وموارده، وتحرّقه على التكثّر منها ولو ملك خزائن أقطارها: ﴿إن الإنسان خُلِق هلوعاً * إذا مسّه الشر جزوعاً. وإذا مسّه الخير منوعاً﴾[2].

فهذه ثلاث آيات موجزات، قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني والحقائق النفسية التي خلق الله عليها ابن آدم، ففي الآية الأولى وصف الله الإنسان بأنه خُلق هلوعاً، أي مطبوعاً على شدة الجزع ودواعيه ودوافعه، واستثنى أهل الإيمان الموحِّدين الموقنين الذين يقيمون الصلاة إقامة ملازمة ودوام.

وهذا الهلع الذي خلق عليه الإنسان هو أصل أصول الشرور الاجتماعية في الحياة، لأنه يؤدِّي إلى شيوع التظالم والفساد في المجتمع الإنساني والفوضى بين الناس، لأن كل فرد أو جماعة تحرص على أن تكون مظاهر الدنيا في يدها أكثر من يد غيرها، فيتقاتلون ويتخاصمون وتُسفك الدماء وتُهدد القيم، وتُهتك الأعراض، ويستحوذ الشر بشرائع القهر والغلبة على الحياة، فيسوسها بغير قانون إلاّ قانون التسلط بالبطش والقوة.

ثم بيّن الله تعالى المظاهر النفسية لخليقة الهلع فقال عز شأنه: ﴿إذا

(١) سورة الفرقان آية (٦٧).

(٢) سورة المعارج آيات (١٩ - ٢٠ - ٢١).

مسّه الشر جزوعاً﴾ ومعناه أن أظهر مظاهر خليقة الهلع التي جُبل عليها الإنسان أنه سريع الجزع ولزيمه لا يفارقه، كما يستفاد ذلك من صيغة المبالغة في قوله (جزوعاً)، فهو إذا مسّه الشر جزع جزعاً يخرجه عن ضوابط العقل فتضعف مُنّته عن حمل ما نزل به من البلاء، ويفارقه الصبر، وتلازمه البلبلة وقلق الأفكار، ثم ذكر الله تعالى مقابل ذلك فقال: ﴿وإذا مسّه الخير منوعاً﴾ فيشتد حرصه على الاستمساك به وعدم إخراجه عن قبضة يده، فيمنع الحقوق والواجبات، فلا يؤدّي زكاة واجبة، ولا صدقة مرغّباً فيها، ولا يواسي ولا يؤاسي، ولكنه يؤثر بما عنده الخزائن يملؤها ويقفل عليها بمفاتيح الشحّ فلا يخرج ما دخل فيها، فهو معذّب إذا مسّه الشر مُنغّص، وإذا مسّه الخير فحياته نكد وغصص لا يهنأ فيها إن أعطى ولا يستريح إن منع، حياته لهفة ورغبات مجنونة، وترقب وخوف من سلب النعمة، تراه أفقر الناس وإن كان أكثرهم مالاً وأوسع ثراء وغنى، لا يطمع قريب في برّه، ولا يتسقّط بعيد شيئاً من رفده، فهو من المنافقين الذين عاهدوا الله ﴿لئن آتانا من فضله لنصّدقنّ ولنكوننّ من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾[1].

لون من الأسرار النفسية التي جبل عليها الإنسان يكشف عنه القرآن الكريم.

وقال تعالى في سورة الفجر: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانَنْ. كلاّ، بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لمّاً. وتحبون المال حبّاً جمّاً﴾[2]. فالله تعالى يصف الإنسان في هذه الآيات الكريمة بأنه إذا ما ابتلاه واختبره بالإكرام والإنعام ليظهر أن كان من الشاكرين لنعم الله قائماً بحقّها أم من الكافرين الجاحدين أسرع إلى الإقرار بإنعام الله عليه بلسانه، وهو إقرار لا يحمل شكراً قلبياً، وإنما هو إقرار يقف عند مجرد القول باللسان، ولهذا فليس له دوام الشكر القلبي الذي إذا بدّلت أسبابه فتحوّل الإكرام والتنعيم إلى تضييق في الرزق، تحوّل

(١) سورة التوبة آيات (٧٥ - ٧٦ - ٧٧).

(٢) سورة الفجر آيات (١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠).

هذا الشكر اللساني إلى جحود، ونكران لما كان من جميل الإكرام والتنعيم، وإلى ضجر وهلع يذهبان بصبره، بل ربما ذهبا بإيمانه فيقول متعدّياً حدود الله، كفوراً بإكرامه وتنعيمه: (ربِّ أهانن).

ثم بيّن تعالى أن الشكر القلبي الذي يؤدي حقّ القيام عملياً إنما هو الشكر الذي يترجمه العمل المناسب لجوهر النعمة، وقد كانت النعمة إكراماً وتنعيماً، فهي تتطلب شكراً يترجمه العطف على اليتيم والمسكين ببذل نصيب من عطاء الله وفضله في سبيل ما يقيم أودهما، ويصلح من حياتهما، ويريش أمرهما، وينعش حالهما، ويخرجهما من مذلّة العوز والحاجة إلى عز القناعة والرضا.

ولكن الذي كان من هذا الإنسان الكفور لنعمة الله عليه، الشحيح المقتِّر في الإنفاق والبذل على وجوه الخير أنه لحبه للمال وشغفه بجمع الدنيا ضن بها في موقف وجوب البذل والجود، وحبسها عن المعوزين ذوي الحاجة من أهل الفاقة الفقراء واليتامى والمساكين الذين فقدوا عند هذا الإنسان ـ البخيل بمال الله على خلق الله، الجشع الشحيح بكل خير ـ حتى الكلمة الطيبة التي تخفِّف من لأواء حاجة هؤلاء المحتاجين، وقد تسد خلتهم بالتحاضِّ والتعاون على رزقهم مما منّ الله به من نعمة على القادرين من الموسرين، وهذه الصفة أبخل البخل، ففي الأثر الشريف «أبخل الناس من بخل بمال الناس على الناس».

ثم ذكر الله تعالى ما جبل عليه الإنسان في أفراده وجماعاته من حبِّ الدنيا والحرص عليها مما يتجلّى عليهم في التقتير على ذوي الحاجة الذين ندب الله تعالى القادرين من عباده إلى إعطائهم من رزقه وفضله، وسعيهم في الانهماك للازدياد من تكديس المال في الخزائن، لا يبالون من أي طريق أخذوه، ولا يعرفون فيه حلالاً، ولا حراماً، بَيْدَ أنهم أحذق الناس في معرفة طرائق الوصول إليه ليملؤا به الخزائن.

وقد ذكر الله التراث الذي هو الحصول على المال من أيسر الطرق بغير سعي واكتساب فقال جل شأنه: ﴿وتأكلون التراث أكلاً لمًّا، وتحبّون المال

حبّاً جمّاً﴾ ومعناه أنكم بما جبلتم عليه من الجشع والشح تضمون إليهما ما هو شرٌّ منهما، لأن الله تعالى أكرمكم بكثرة المال فلم تؤدوا حقّ الإنفاق منه، وما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد لأحواله ومبرته، والتعاون فيما بينكم والقادرين من أمثالكم على أن يحضّ بعضكم بعضاً بالكلمة الطيبة التي تلين القلوب القاسية، وتحبّب إليها العطاء والإنفاق على ذوي الحاجة من اليتامى والمساكين، وتأكلون مما جمعتم من حطام الدنيا أكل البهائم التي تأكل ما يجاء به إليها، ولا تعرف من أي سبيل جاءها، بل أنتم أقبح عملاً من البهائم لأنها تحرص على أن تأكل إذا جاعت، وإذا أكلت فإنها تأكل حتى تشبع، فإذا شبعت تركت ما أبقت غير شحيحة به على غيرها، وأنتم في حبّكم المسعور للمال تأكلون منه وربما لا تشبعون لحرصكم على إبقاء المال مكنوزاً، فإذا أبقيتم أسرعتم إلى رفع ما أبقيتم ودفنتموه في قبور الخزائن، وإنما عبّر في هذا المقام بالأكل تعبيراً لهم بأن يعيشون كالبهائم لبطونهم.

الشح طبيعة إنسانية يهذبها الإيمان.

وقال جل وعلا واصفاً لأبلغ ما بلغ إليه الإنسان من الشح والإمساك والتقتير مع القدرة على الانفاق: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾[1].

فالله تعالى يقول لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الذين لاهمَّ لهم إلا الدنيا ومتاعها والتكالب على جمعها من الكفرة المشركين: إنكم أخس طبعاً من الأنعام وأضلّ سبيلاً، لأنكم أشحّاء على أنفسكم وعلى ذوي الحاجة من ذوي العوز والفاقة مع عظيم قدرتكم على البذل والإنفاق، وهذه الطبيعة المقيتة متمكنة منكم تمكّن الجبلّة من الطبع، لا يمكنكم التخلص منها، لأنكم لو أنتم ملكتم خزائن رحمة ربي وهي مليئة لا ينقصها إنفاق الإنس والجن مجتمعين، ولا يستنفدها البذل منها، وهي مملوكة لكم بين أيديكم مفتّحة الأبواب سهلة التناول لقبضتم أيديكم عن الإنفاق في وجوه البر لما جبلتم عليه من الشح الهالع، قال الزمخشري في تفسيرها: ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم لما في التركيب من الدلالة

(١) سورة الإسراء آية (١٠٠).

على الاختصاص، أي أن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ.

وقد سجّل الله عليهم الشح مرة أخرى في قوله: ﴿إذاً لأمسكتم﴾ فالإمساك الشحيح نحيزة لهم، وطبيعة ركبوا فيها، وهذا بيان لهم بأنهم إنما تمسكون أيديهم وتقبضونها عن الامتداد إلى خزائن رزق الله ورحمته التي ملّككم إياها خوفاً وهلعاً أن يلحقها الفناء والنفاد، فيلحقكم الفقر والعوز والحاجة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

ثم ختم الله تعالى هذه الأوصاف بوصف جامع لقبائح الشحّ والأشحّاء جبلوا عليه وألزموه فقال: ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ أي بخيلاً شحيحاً بالغاً من البخل والشح نهاية مداهما، فهما محيطان به إحاطة الغلّ بأيدي الجارمين المفسدين في الأرض غروراً بما عندهم من زخارف الدنيا وحطامها.

نتيجة طبيعية للبحث فيما زعم قرآناً وآيات من القرآن العظيم.

أفتكون هذه الآيات البينات ـ بما يكسوها من رونق الإعجاز في هدايتها وبراعة بيانها وروعة أسلوبها، وقوة سلطانها على العقول والقلوب، وفوقها في جلال نظمها وجزالة ألفاظها وسمو تعبيرها، وبلوغها في شأو البلاغة والفصاحة منزلة الذروة العليا من الكلام الإلٰهي ـ في نظر العقل الوازن للحقائق الفكرية والمداخل النفسية وألوان الحياة الاجتماعية بين البشر قرآناً منزلاً بالوحي من عند الله للتعبد بتلاوته، والتحدِّي بهدايته وأسلوبه قرآناً جامعاً لخصائص القرآنية، يقرؤه مئات الملايين من المسلمين في شرق الأرض وغربها، ثم يكون ذلك الكلام المتخالف المختلف من مثل (لو أن لابن آدم وادياً) مع اختلاف ألفاظه في رواياته قرآناً منزّلاً من عند الله مثل هذه الآيات البينات التي ذكرناها وألممنا بشيء من تفسيرها وبيان معانيها وحقائقها.

هذا ما لا يمكن أن يتقبله عقل مسلم، ولا يؤمن به قلب مؤمن، لأنه محال وباطل، وكان ينبغي أن لا يشحن به كتب الأجلّاء من المحدِّثين.

* * *

استطراد آخر انساق إليه السهيلي أشد خطراً من سابقيه.

ولم يشأ السهيلي رحمه الله أن يقف به البحث في موضوع ما زعم أنه قرآن نزل وقرأه الناس ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه عند هذا الحد، ولكنه استطرد مرة أخرى إلى الحديث فيما لم تطلبه المناسبة فقال: وأما الحكم الذي بقي وكان قرآناً يتلى (فالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، ولا ترغبوا عن آبائكم، فإن ذلك كفر بكم).

قال السهيلي: فهذا حكم كان نسخه جائزاً حين نسخ حكم التلاوة، وكان جائزاً أن يبقى حكم التلاوة وينسخ هذا الحكم.

وسبيلنا في مناقشة هذا الكلام هو سبيلنا في مناقشة ما تقدم ممّا ماثله في التخالف والاختلاف، ولا سيما أن كثيراً ممن ينسب إلى العلم في الإسلام جعلوا هذا الكلام (الشيخ والشيخة) مثالاً للقرآن الذي أنزل وثبت به حكم النص، ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه، وهو رجم المحصن والمحصنة إذا زنيا.

والنظر في هذا الكلام الذي استطرد إليه السهيلي من وجوه:

الوجه الأول ـ أن القرآن العظيم له ألفاظه المتخيرة لاتساقها مع حقائقه الإلّهية ومعانيه الإنسانية التي تؤدى بها، ولكل معنى ألفاظه، ولكل مقام مقال، ولكل حقيقة قالب تصب فيه مع ظهور رونق الإعجاز في آيات الكتاب المبين بجزالة اللفظ ولطفه في أداء أدق المعاني وأعمق الحقائق في أسلوب يزيد معانيه وضوحاً وحسناً، وترنيماته حلاوة ونغمه سلاسة وعذوبة.

القرآن الحكيم لم يستعمل قط لفظة (الشيخة) وصفاً للمرأة.

ولفظ (الشيخة) تستشعر منه الآذان عند سماعه كزازة وجفوة، ولم نعلم أن القرآن الكريم استعمل هذه اللفظة (الشيخة) وصفاً للمرأة المحصنة قط على أي معنى من معاني الاحصان، ولا بمعنى الثيوبة، ولا بمعنى تصاعد السن ومقاربة الهرم، ولا جاء متوارداً بين العفّة والحرية أو التزوج.

بل لم نعلمه مستعملاً بمعنى الإحصان في لغة العرب، بل لا نعلمه مستعملاً للمرأة العجوز المشرفة على الهرم، بل أكثر من ذلك لم نعلمه

مستعملاً وصفاً للمرأة بأحد هذه المعاني في أقوال رسول الله ﷺ.

أما لفظ (الشيخ) وصفاً للرجل الذي تجاوز سن الكهولة، ودلف منها إلى الشيخوخة، وأصابه الكبر وهو يمشي وئيداً إلى الهرم، أي إلى السن التي لا يقدر معها على الحركة الشبابية المتوثبة ـ فكذلك لا نعلمه ورد في القرآن لفظاً مفرداً إلّا ثلاث مرات، كلها بعيدة عن المعنى المناسب لموضوع البحث.

المرة الأولى ـ جاء على لسان امرأة إبراهيم خليل الله عليه السلام، أم ولده إسحق، وجدة حفيده يعقوب عليهم السلام، ويسمّيها المؤرخون والمحدِّثون (سارّة)، وذلك في قول الله تعالى إذْ بشرت الملائكة إبراهيم عليه السلام وامرأته بولدهما إسحق وحفيدهما يعقوب: ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، قالت: يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾[1].

المرة الثانية ـ جاء لفظ (الشيخ) على لسان إخوة يوسف فيما حكاه الله عنهم حين قالوا ليوسف مستعطفين ليترك لهم أخاهم لأبيهم ويأخذ أحدهم مكانه معتذرين: ﴿إن له أباً شيخاً كبيراً، فخذ أحدنا مكانه﴾[2].

المرة الثالثة ـ جاء لفظ (الشيخ) حكاية عن اعتذار ابنتي الرجل الصالح لعدم حضور أبيهما لسقي غنمه وإرسالها للقيام بهذه المهمة، وهذا ـ قبل ظهور سببه ـ مما يستحي منه ذوو المروءات القادرون على تفاديه، وكان الرعاء قد ازدحموا على الماء، وكانت ابنتا الرجل الصالح تذودان غنمهما عن التقدم للشرب في غمرة هذا التزاحم والتدافع اللذين يُخشى منهما على المرأة لضعفها وشدّة حيائها، فلما رأى موسى عليه السلام منهما ذلك سألهما: (ما خطبكما) أي ما شأنكما تذودان أغنامكما عن المسقى؟ فقالتا معتذرتين في أدب جم واحتشام كريم اعتذاراً تضمّن أنه لم يكن لأبيهما راع يرعى له غنمه ولم يكن لهما إخوة أو أولياء من المحارم يغنون عنهما في القيام بمهمة سقي الغنم، وتضمّن العذر لأبيهما في عدم حضوره بنفسه لسقي أغنامه: (وأبونا شيخ كبير) لا يحتمل في علو سنه حركة حفظ الغنم عن الانتشار والشرود، ولا

(١) سورة هود آيتا (٧١ ـ ٧٢).

(٢) سورة يوسف آية (٧٨).

يستطيع مزاحمة الرعاء على السقي، واعتذرتا عن ذَوْد أغنامهما عن المسقى، فقالتا: (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) فقام موسى عليه السلام مقام النخوة والشهامة وصدق المروءة والنجدة فسقا لهما أغنامهما، ثم عاد إلى حيث كان من الظل، وتوجه إلى ربه ضارعاً بالدعاء يسأله من رزقه الذي كان حاجة إليه فقال: (ربي إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير).

استصفاء ألفاظ القرآن عنصر من عناصر إعجازه البياني.

والمتأمل في لطائف القرآن واستعماله في أداء معانيه وحقائقه ألفاظاً منتقاة متخيَّرة يرى رونق الإعجاز يكسو هذا الكتاب العظيم نوراً في هدايته وروعة بيانه وبراعة أسلوبه، ممّا لايمكن بالتسليم معه بما زُعم أنه قرآن ثم نسخ نصه وبقي حكمه أن يكون قرآناً منّزلاً من عند الله.

ولو لم يكن من نور الإعجاز إلا هذا الإيجاز في هذه الجملة (وأبونا شيخ كبير) لكفى في فضل أسلوب القرآن وإعجازه، وقد بيَّنا ما تضمنته هذه الجملة من المعاني الكثيرة التي لو فصلت لتولّد منها كثير من الحقائق والمعاني.

ونحن نكتفي بتحليل واحدة من هذه المرّات التي ذكر فيها لفظ (الشيخ) في القرآن الكريم. تأمل قوله تعالى على لسان امرأة إبراهيم عليه السلام إذْ وصفت نفسها في مقام التعجب من أمر هذه البشرى التي زفتها الملائكة إليها وإلى زوجها إبراهيم عليه السلام، وقد فاتت أسبابها الظاهرة بأنها (عجوز)، ووصفت زوجها بأنه (شيخ)، وكل لفظ من هذين اللفظين يؤدي في موضعه من نسق الكلام ولطف المعنى ورقّة التعبير ما لا يمكن أن يؤديه غيره من الألفاظ التي هي بمعناه في لغة العرب في وضعها الأصيل.

ولنتأمل فيما لو كان الكلام المحكي عن امرأة إبراهيم عليه السلام جاء في هذه الصورة (أألد وأنا شيخة وهذا بعلي شيخاً)، أو (أألد وأنا عجوز وهذا بعلي عجوزاً)؛ أكان سامعه أو تاليه يشعر لهذا الكلام بشيء من حلاوة الجرس، وسلاسة اللفظ، وروعة الأسلوب ومائية التعبير باللفظ المناسب في المكان المناسب؟ بل لعل مرهف الحس رقيق الشعور منغم الأذن إذا سمع هذا الكلام في صورته المصنوعة سمّج عنده ما يسمع، لأن لجرس ألفاظ القرآن وحلاوة نغمه وروعة أسلوبه تأثيراً على النفوس، ولعلّ هذا هو السر في نهي

غطارفة الشرك وطواغيته لغوغائهم أن يسمعوا للقرآن خشية عليهم أن تملك روعته مقاليد نفوسهم فيؤمنوا به، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾(١)

ومن هنا يظهر جلياً أن المروي في الصحيح وغيره من كلام زُعم أنه قرآن نزل وقرأه الناس ثم نسخ نصّه وبقي حكمه لا يحمل شيئاً قط من خصائص القرآن ورونق إعجازه التي لم تكن ولن تكون لكلام غيره قط، وهي منبع إعجازه الأسلوبي وروعة بيانه.

الوجه الثاني ـ أن القرآن الحكيم إذ ترك لفظ (الشيخة) فلم يستعملها وصفاً للمرأة مطلقاً فيما نعلم، بَلْه وصفاً لها بمعنى محصنة، أي سبق لها أن تزوجت، سواء أكان زواجها قائماً أم ثُيّبت بموت زوجها أو طلاقها منه، لكزازة لفظها وعدم مواءمته لنسق القرآن ولطف ملاءمته، واتساق ألفاظه مع رونق معانيه ـ فإنه استعمل في مكانها بالمعنى المقصود لفظ (محصَّنة) أو (محصِّنة) و(مُحْصَنة) وفي كل ذلك لمحٌ لمعنى العفّة والعفاف والتعفف.

بحث في مادة حصن والإحصان في القرآن.

ومادة (حصن) كما يقول ابن فارس في مقاييس اللغة ترجع إلى الحفظ والحياطة والحذر، ومن هذا المعنى جاء لفظ (حاصن) للمرأة المتعففة، ومنه قول إياس بن قبيصة الطائي:

فما ولدتني حاصن ربعية　　　لئن أنا مالأت الهوى لاتباعها

ومن هذا المعنى قولهم للمرأة العفيفة: (حصان) وعليه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح سيدة الممدّحات السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

حصَان رزان ما تزن بريبة　　　وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قال أحمد بن يحيى ثعلب: كل امرأة عفيفة فهي محصَنة ومحصِنة، وقال

(١) سورة فصلت آية (٢٦).

الزمخشري: الإحصان العفّة، ومنه قول الله تعالى: ﴿مُحْصَنات غير مُسَافحات ولا متخذات أخدان﴾ وكل امرأة متزوجة فهي مُحَصَنة لا غير، ومنه قوله تعالى في حدِّ الإماء المتزوجات إذا قارفن موجب الحد: ﴿فإذا أُحْصِنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المُحْصَنات من العذاب﴾ أي نصف حد الحرّة، لأن المراد بالمحصنات هنا الحرائر المتزوجات، وحدُّهن الرجم بأمر رسول الله ﷺ وفعله، ولما كان حد الرجم لا يتبعّض إذْ هو أمر واحد لا يقبل التجزئة، فالعدل الشرعي الذي أنقص الإماء عن الحرائر في الحقوق يقضي بأن ينحططن عنهن في العقوبة مع المحافظة على حق سيد الأمة في مُلكيته لها، لأن زواج الأمة لا يخرجها عن ملكية سيدها.

ومن مجيء الإحصان بمعنى التزوج قول الله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء﴾ والمراد بهن ذوات الأزواج، لأنهن أحصنَّ فروجهن بالتزوج، فهن محصَنات ومحصِنات.

وقد جاء الإحصان في القرآن بمعنى الحرية وعدم شائبة الرق، وذلك في قوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلاً﴾ أي سعة في المال للإنفاق على زواج الحرائر ﴿أن يَنْكِح المُحْصَنات المؤمنات﴾ أي الحرائر من النساء المؤمنات.

ومنه قوله عز اسمه: ﴿والمُحْصَنات من المؤمنات، والمُحْصَنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي أحل لكم النساء الحرائر العفيفات من المؤمنات، والعفائف الحرائر من النساء الكتابيات أن تتخذوهن زوجات لكم.

وكذلك استعمل القرآن الكريم لفظ ثيِّبة بمعنى من تقدّم لها زواج صحيح، وهذا المعنى أحد معاني الإحصان الذي لا يكاد يفارقه في الاستعمال معنى العفّة والتعفف والعفاف تضمنياً، وهو المناسب لمقام الكلام في حدِّ الرجم، وكذلك استعملت الأحاديث النبوية مادة الثيوبة للرجل والمرأة، فالرجل إذا تزوج فهو ثيِّب، والمرأة إذا تزوجت فهي ثيب، ويجمع المذكر على: «ثيبون» والمؤنث على ثيبات، ومنه الحديث الشريف: «الثيب أحق

بنفسها» ومنه أيضاً ما أخرجه مسلم من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ، وهو أظهر في استعمال كلمة ثيِّب، وعدم استعمال كلمة (شيخة) في مقام البيان لحد الزنا المذكور مبهماً في قوله تعالى: ﴿أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾ قال ﷺ: «خُذُوا عني قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيِّب بالثيب جلد مائة والرجم» ولم تذكر لفظ (الشيخ والشيخة) في مقام الإحصان والرجم قط في القرآن ولا في السنة.

ويظهر أن ذكر هذين اللفظين في كلام من ذكرهما في مقام أبشع الحدود كان من باب تقبيح جرم من يقترفه بعد أن شاخ، وأصبح يجلّله وقار الشيخوخة واستحياء السن لأن ارتكاب هذا الجرم الشنيع المقيت ممّن بلغ سن الشيخوخة أفحش وأقبح من اقتراف هذا الجرم من لم يبلغ هذه السن، بل بقي فيه من دواعي الشباب ودوافعه ما قد يحجزه عن التورط في أسباب هذه القتلة الشنيعة الفظيعة التي توائم الشيخوخة الفاجرة.

والكلام في وهن رواية (الشيخ والشيخة) بل بطلان نزولها قرآناً معجزاً، قرىء على الناس وقرأوه، ثم نسخ أو رفع أو نسي وبقي حكمه كالكلام على ما تقدّم من نحو ما قيل في قصة بئر معونة أنه نزل في شأن شهدائها من القرّاء قرآناً، ومن نحو ما قيل في (لو أن لابن آدم) من الوهي والوهن، بل من بطلان الزعم بذلك لما في جميع الروايات من التخالف والاختلاف. والقرآن الحكيم الذي أحكم الله آياته وحفظها عن التخالف والاختلاف يستحيل أن يقع فيه شيء من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[1] وهذا عام في كل اختلاف يؤدي إلى الاضطراب ورفع الثقة بالنص، وقصره على بعض الاختلاف قصور بعموم النص.

وقد بيّنا بياناً واضحاً فيما سبق اختلاف الروايات وتخالفها واضطرابها وقلق كلماتها في مواضعها من الكلام على ما زُعم أنه قرآن نزل في قراء بئر معونة، وعلى ما زعم في (لو أن لابن آدم وادياً) من كونه قرآناً نزل من عند

---

(١) سورة النساء آية (٨٢).

الله بالوحي القرآني وقرأه الناس، ثم نسخ بما يتضح به بطلان هذا الزعم وما ضاهاه من المزاعم.

تتمة في الكشف عن وهن رواية (الشيخ والشيخة).

ونحن نتمم الكلام فيما ساقه السهيلي رحمه الله في روضه من رواية (الشيخ والشيخة) وما وقع فيها من تخالف واختلاف ليتضح أن هذا كله نمط واحد أريد به دغدغة الثقة بإعجاز القرآن العظيم، ليكون ذلك باباً من أوسع أبواب الطعن في أن القرآن الكريم كتاب أنزله الله على عبده محمد ﷺ معجزة صادقة الدلالة على صدقه ﷺ في رسالته الخاتمة الخالدة، وأنه تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله في هدايته وروعة بيانه وعلو أسلوبه، فعجزوا جميعاً، وكعّوا عن محاجته بالدليل والبرهان، ولجؤا إلى السيف وسفك الدماء، فقهرهم الله وأرغم أنوفهم، وأذلهم بالهزائم النكراء المتكررة، هزيمة في إثر هزيمة.

وقد بيّنا بياناً شافياً أن ألفاظ ما زعموه آية قرآنية نزلت في وجوب حد الرجم لمن زنى بعد إحصان في رواياتهم (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله) لم تكن قط من ألفاظ القرآن ولا ألفاظ الحديث الشريف، فلم يستعملا كلمة (الشيخة) في معنى الإحصان ولا كلمة (الشيخ) في هذا المعنى، وكذلك كلمة (البتة) لم ترد في القرآن الحكيم ألبتة، لا فيما ثبتت قرآنيته بالتواتر ثم نسخ، ولا فيما أحكم فلم ينسخ منه شيء.

وهذا وجه إن لم يدلّ صراحة على بطلان الرواية فهو دال على استبعاد نزول آية قرآنية في زعم من رواها قرآناً بألفاظ طرحها القرآن والحديث فلم يستعملاها في المعنى المقصود للرواية.

وهذه وجهة لفظية ترجع إلى خصائص القرآن في ألفاظه وملاءمتها في الفصاحة ولطف الأداء، وهي كافية في إلقاء الشك في قرآنية هذا الكلام.

تعمد البخاري ترك لفظي (الشيخ والشيخة) من الحديث.

ويؤيد ذلك تأييداً واضحاً أن الإمام البخاري وهو سيّد المحدِّثين في صحة سنده ترك هذين اللفظين (الشيخ والشيخة) وطرحهما من روايته عمداً كما قال شارحه الحافظ ابن حجر، وهذا يدل دلالة بينة على أن الإمام البخاري رحمه الله لم ير أن هاتين اللفظتين (الشيخ والشيخة) من الحديث،

ولا أن النبي ﷺ قالها، لا على أنها قرآن نزل ثم نسخ، ولا على أنها غير قرآن.

قال البخاري: حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا سفيان عن الزهري، عن عبيد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البيّنة، أو كان الحمل أو الاعتراف.

قال سفيان: كذا حفظت، ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. فهذا الحديث وهو من أعلى وأرفع الأسانيد لم يذكر فيه (الشيخ والشيخة) ومعناه كلُّه منصب على إثبات حدِّ الرجم للمحصن، وهو أمر مجمع عليه من الأمة سلفها وخلفها، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا طوائف من الخوارج والمعتزلة، فإنهم أنكروا حدّ الرجم، وقالوا لم يكن الرجم في كتاب الله، وقول عمر رضي الله عنه: فيضل عن فريضة أنزلها الله يحتمل أن المراد من إنزال الله إياها وحيه بها إلى نبيه محمد ﷺ وحياً غير قرآني، فتكون فريضة الرجم ثابتة بوحي السنة، ويدل لذلك قول عمر رضي الله عنه: ألا وإن الرجم حقٌّ على من زنى وقد أحصن، بل يجب حمل كلام عمر على هذا الوجه السديد.

وهذه الحقّية للرجم لا يلزم أن تكون ثابتة بنص قرآني، بل يكفي فيها أن تكون ثابتة عن النبي ﷺ في حديث صحيح، كما يستفاد ذلك من قوله ﷺ: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه».

وفي قول عمر رضي الله عنه: ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ما يقوي ما ذهبنا إليه من فهم قوله: فيضلُّوا بترك فريضة أنزلها الله، لأن معناه: فيضلوا بترك فريضة أوحى بها الله إلى رسوله ﷺ بضرب من ضروب الوحي غير القرآني، فقام ﷺ بتنفيذ ما أوحى به الله من حدِّ الرجم، واتّبعه من بعده الراشدون من خلفائه والمتقون من ولاة أمر أمته ﷺ.

فالبخاري رحمه الله لم يذكر في روايته الثابتة الصحيحة (الشيخ والشيخة) لأنهما لم تثبتا عنده، لا لأنهما سقطتا من روايته، كما تقوّله عليه بعض من يجري وراء السراب.

وإخراج الإسماعيلي لهذا الحديث من طريق الفريابي عن شيخ البخاري علي بن عبدالله وفيه: وقد قرأناها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة) لا يلزم البخاري صحة هذه الرواية، ولهذا قال ابن حجر: ولعل البخاري هو الذي حذف ذلك عمداً، ولكن ابن حجر لم يعلّل لتعمد ترك البخاري لهذين اللفظين، ولم يوجِّه تعمد البخاري حذفه لهذه الزيادة التي جاء بها من رواية الإسماعيلي من رواية جعفر الفريابي، والظاهر أنها لم تصح عند البخاري، ولذلك تعمد حذف هذين اللفظين.

توهيم النسائي سفيان في ذكر لفظ (الشيخ والشيخة) يؤيد حذف البخاري لهما عمداً لعدم ثبوتهما عنده.

ويؤيد صنيع البخاري في تعمّده حذف هذه الزيادة لعدم صحتها عنده أن النسائي أخرج هذا الحديث عن محمد بن منصور، عن سفيان كرواية جعفر الفريابي، أي بزيادة (الشيخ والشيخة) وقد عقّب النسائي على ذلك فقال: ما أعلم أحداً ذكر في هذا الحديث (الشيخ والشيخة)، غير سفيان، وينبغي أن يكون وهم في ذلك، ويؤيد توهيم النسائي لسفيان في ذكر هذه الزيادة قول الحافظ ابن حجر: وقد روى الأئمة هذا الحديث من رواية مالك، ويونس، ومعمر، وصالح بن كيسان وعقيل وغيرهم من الحفّاظ عن الزهري فلم يذكروها ـ أي الزيادة (الشيخ والشيخة)، ووقوع الزيادة في الموطأ من رواية يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب لا يقاوم عدم ذكرها من رواية الجماعة وفي طليعتهم الإمام مالك رحمه الله.

وقول عمر رضي الله عنه: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن معارض بما جاء في حديث أبيّ بن كعب عند النسائي والحاكم من قوله: ولقد كان فيها ـ أي في سورة الأحزاب ـ آية الرجم (الشيخ والشيخة) لأنها إذا كانت موجودة في سورة الأحزاب فكيف لم يعرفها عمر مكتوبة فيها؟ ويقول: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن.

وفي رواية عنه قد قرأناها: الشيخ والشيخة، وهذا يدل على أن الذين قرؤوها جماعة فأنى ذهبت؟ وكيف يخشى عمر بن الخطاب قالة الناس ـ وهو من هو في قوة الدين، وشدة الشكيمة وصلابة الشوكة ومضاء العزيمة، وشدة البأس ـ في أمر يجب عليه أن يقوم به ولو كان في ذلك حتفه، وجميع مواقف عمر في الإسلام تشهد بأن هذا بعيد جداً عن خلائقه وأخلاقه.

حديث زيد بن ثابت ورده على مروان يدلان على عدم قرآنية (الشيخ والشيخة).

وليس في حديث زيد بن ثابت أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة» ما يشعر قط أن هذا قرآن منزل من عند الله، وزيد بن ثابت أكثر كتّاب الوحي لزوماً لرسول الله ﷺ وأعظمهم حظاً في كتابة وحي القرآن، فلو كان الذي سمعه من رسول الله ﷺ قرآناً لأمره النبي ﷺ أن يكتبه في المصحف.

وفي حديث خالة أبي أسامة بن سهل أنها قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم، ولم يبين هذا الحديث نص الآية المزعومة، وقد جاء في هذه الرواية زيادة (بما قضيا من اللذّة) وهذه زيادة لا وجه لذكرها، لأن قضاء اللذة ليس خاصاً بالشيخ والشيخة، فهي زيادة تشير إلى ضعف الرواية، كما أن في هذه الزيادة (بما قضيا من اللذة) إلى جانب أنها لفظة لم تعهد في ألفاظ القرآن واستعمالاته، فسبيلها سبيل لفْظَي (الشيخ والشيخة) كما أنها بعيدة عن مواقعة الأدب اللفظي والمعنوي.

وقد روى أبو عبيد القاسم بن سلّام حديث خالة أبي أسامة بن سهل فقال بعد سرد سنده: عن أبي أسامة بن سهل أن خالته قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم: الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة.

وأبو عبيـد صاحب طامات في هذا الموضوع، رواها عنه السيوطي في الإتقان.

وفي حديث مروان بن الحكم عند النسائي أنه قال لزيد بن ثابت: ألا نكتبها في المصحف؟ قال زيد رضي الله عنه: لا، ألا ترى أن الشابين الثيبين يرجمان، وهذا يفيد أن زيد بن ثابت لم يتحقق عنده أن ما سمعه من رسول الله ﷺ من قول (الشيخ والشيخة) قرآن تجب كتابته في المصحف، ولهذا جاء

ردّه على مروان بأن هذا الكلام الذي يزعم أنه قرآن لا يتفق معناه مع واقع التشريع المجمع عليه في حدِّ الثيب، سواء أكان شاباً أم شيخاً، فتخصيص الرجم بالشيخ والشيخة لا وجه له، وهذا يخرجه عن كونه قرآناً تجب كتابته في المصحف.

كراهية النبي ﷺ الإذن في كتابة ما زعم أنها آية الرجم وقوله: (لا أستطيع) قاطعان في عدم قرآنيتها.

وقد جاء في هذا الحديث أنهم ذكروا ذلك فقال عمر رضي الله عنه: أنا أكفيكم فقال: يا رسول الله أكتبني آية الرجم، فقال ﷺ: «لا أستطيع».

وهذا يشبه أن يكون قاطعاً في أن ما يزعم من قولهم: (الشيخ والشيخة) قرآن نزل ثم نسخ كلام لا يعتمد فيه على شبه دليل، لأن قول عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: أكتبني أو اكتب لي، ومعناهما: ائذن لي أن أكتبها، وهذا بالقطع قبل أن تنسخ، لأنه لا يعقل من عمر ولا من غيره أن يطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له في كتابة ما نسخ، وإذا كان هذا الطلب من عمر قبل النسخ فلماذا قال له النبي ﷺ: «لا أستطيع»؟ وفي رواية كأنه كره ذلك، ومن العجيب أن عمر رضي الله عنه هو الذي كشف عن حقيقة ما يدل على أن هذا الكلام (الشيخ والشيخة) لا يمكن أن يكون قرآناً، فقال كما ذكر ابن حجر في الفتح: ألا ترى أن الشيخ إن زنا ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنا وقد أحصن رجم، كما قال زيد بن ثابت.

قال ابن حجر معقِّباً على ذلك: فيستفاد من هذا الحديث السبب في نسخ تلاوتها لكون العمل على غير الظاهر من عمومها، ولو أنصف ابن حجر رحمه الله ودقق في البحث لقال: ويستفاد من هذا الحديث أن هذا الكلام (الشيخ والشيخة) ليس بقرآن منزل من عند الله لإجماع الأمة على العمل بخلافه.

ولعل وجه سؤال عمر النبي ﷺ أن يأذن له في كتابتها أنه رضي الله عنه سمع كما سمع زيد بن ثابت من رسول الله ﷺ يقول: (الشيخ والشيخة) فتوهّما لأول وهلة أن هذا قرآن، فأما زيد فسكت لأن النبي ﷺ لم يأمره في شأنها بشيء حتى قال له مروان: لم لا تكتبها في المصحف؟ فردّ الحصيف العقول بما ينفي أنها قرآن يكتب في المصحف لمخالفتها شريعة حدّ

الرجم، وأما عمر رضي الله عنه فطلب من النبي ﷺ أن يأذن له بكتابتها عنده خشية أن يطول بالناس زمان فيتركوا فريضة الرجم ويضلُّوا بتركها، ولم يرد عمر رضي الله عنه أن يأذن له النبي ﷺ بكتابة ما سمع منه أنه قرآن منزّل من عند الله، ولو كان ما سمعه عمر قرآنا لما قال له النبي ﷺ: «لا أستطيع» كارهاً لذلك.

ويبيِّن ذلك ما أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن من طريق يعلى ابن حكيم عن زيد بن أسلم أن عمر خطب الناس، فقال: لا تشكوا في الرجم، فإنه حق، ولقد هممت أن أكتبه في المصحف فسألت أبي بن كعب، فقال: أليس أنني وأنا أستقرئها رسول الله ﷺ فدفعت في صدري، وقلت: أتستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون كما تتسافد الحمر.

قال ابن حجر: وفيه إشارة إلى بيان السبب في رفع تلاوتها وهو الاختلاف لكون العمل على غير ظاهر عمومها، ولو قال ابن حجر: بل فيه إشارة إلى عدم قرآنيتها لكان أصرح في الحق وأجدر به في شهرته حافظاً للسنَّة وأحاديثها.

وهذا الاختلاف كما أوضحنا يوجب كون هذا الكلام ليس بقرآن، وإلا لو كان قرآناً ما منع من استقراء رسول الله ﷺ أيّ مانع من مفاسد المجتمع مهما بلغ سوء تلك المفاسد، لأن رسالة الإسلام إنما جاءت لإصلاح مفاسد المجتمعات الإنسانية، فإنكار عمر على أبي بن كعب رضي الله عنهما استقراء رسول الله ﷺ آية الرجم المزعومة بحجة وجود هذه المفسدة في المجتمع ممّا لا وجه له، ومن ثَمّ يكون ثبوت هذا الإنكار عن عمر غير مسلّم وقول ابن حجر: رجاله ثقات توثيق للسند وتوثيق السند لا يدل على صحة المتن.

ومما يقوِّي بطلان رواية (الشيخ والشيخة) ما جاء في حديث البخاري الطويل عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي ساق فيه حديث السقيفة: أن عمر رضي الله عنه لما رجع من حجَّته التي لم يحجّ بعدها جلس على المنبر يوم الجمعة فقال بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها،

رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، وأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف.

والمتأمل في هذه العبارة في ضوء ما قدمناه من البحث يرى فيها:

وجوه في حديث للبخاري تدل على عدم قرآنية ما زعم أنه آية الرجم.

أولاً - أن عمر رضي الله عنه قال: فكان مما أنزل الله آية الرجم، ولم يذكر نص ما زُعم أنه آية منزلة في كتاب الله، وقد علمنا بما سبق من البحث أن الكلام الذي يذكر فيه (الشيخ والشيخة) لا يمكن أن يكون هو المعنيّ بقوله: فكان مما أنزل آية الرجم، لأن هذا قد ظهر بطلانه بما لا يترك مجالاً للشك في هذا البطلان، وليس في موضع النزاع كلام آخر غير رواية (الشيخ والشيخة)، وقد علمنا أن البخاري تعمّد حذف هذا الكلام لبطلانه عنده. وقول عمر - إذا صح عنه -: فكان مما أنزل الله آية الرجم يمكن تأويله بأن المراد به حكم الرجم، وتسمية هذا الحكم آية من باب التأكيد لثبوته، ويدل لصحة هذا التأويل قول عمر بعده في هذه الرواية: إن الرجم حكم ثابت، نفّذه رسول الله ﷺ ومن بعده من الراشدين، ومن تبعهم من ولاة الأمر المهتدين بهدي رسول الله ﷺ.

وثبوت حكم فريضة الرجم حق لا يمتري فيه مؤمن، والذين أنكروه من بعض طوائف الخوارج والمعتزلة حائدون عن صراط الله الذي أنزل على عبده محمد رسول الله ﷺ السنة كما أنزل القرآن، وكل حكم شرعي يثبت بالسنة سنداً ومتناً هو في وجوب الإقرار والعمل بمقتضاه كالأحكام الثابتة بالقرآن الكريم، لهذا خشي عمر إن طال بالناس زمان أبعدهم عن عهد رسول الله ﷺ، وعن عهود الراشدين المهديين أن يجترىء مجترىء فينكر فريضة الرجم، لأنه لم يجده في الكتاب مسطوراً بين آياته المتعبد بتلاوتها، المتحدّى بها، فيضل بترك فريضة الرجم وهي منزلة من عند الله على رسوله ﷺ في تشريع السنة المطهرة.

ومن ثَمّ يتبين أن إنزال الفرائض على رسول الله ﷺ الملزم للأمة

بمتابعتها له ﷺ ليس بلازم أن يكون قرآناً متعبداً بتلاوته متحدياً للجاحدين هدايته؛ لأن تنزيل الفرائض كما يكون بالقرآن يكون بالسنة الصحيحة سنداً ومتناً، وقد أبنّا هذا المعنى بياناً شافياً في كتابنا (سماحة الإسلام).

ثانياً ـ جاء في هذا الحديث قوله: والرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنى إذا أحصن، من الرجال والنساء إذا قامت البينة، والذي نفّذه رسول الله ﷺ عملياً وقاله أمران: هما الرجم والتغريب، والذي في الرواية المزعومة (الشيخ والشيخة) هو الرجم فقط، فالجمع بين الرجم والتغريب مذكوران في القرآن بواسطة الأمر باتباع الرسول ﷺ، وما كتبه على عباده، فالكتاب في قوله: أنزله الله في كتابه أي فيما كتبه على عباده، قال ابن حجر: وقيل المراد به القرآن، وهو المتبادر، وقال ابن دقيق العيد: والأول أولى.

تأويل قول عمر: والرجم في كتاب الله حق.

وهذا الكلام إن أريد به أن الرجم في كتاب الله، أي في حكمه وفرضه، وما كتبه على عباده حق فهو حق لا مرية فيه، ويدل لذلك قول ابن حجر: وقوله عند قول عمر: (والرجم في كتاب الله حق) أي في قوله تعالى: **﴿أو يجعل الله لهنَّ سبيلاً﴾، فقد بيّن النبي ﷺ أن المراد بالسبيل في هذه الآية:** أن المراد رجم الثيب وجلد البكر، وهذا صريح في حقيّة الرجم في كتاب الله هو بيان النبي ﷺ لإجمال القرآن، وليس معناه أن آية قرآنية نزلت بوحي قرآني مستقلة تبين حكم الرجم.

وإن أريد أن الرجم في كتاب الله أي في القرآن فهذا ما لم يثبت قط ثبوت القرآن بخصائصه الإعجازية، والكلام الذي زعم أنه قرآن (الشيخ والشيخة) ليس فيه: إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف، والعموم **الذي في هذا الكلام أن كل شيخ وشيخة إذا زنيا كان حكمهما الرجم تبطله** البداهة الشرعية، إذ ليس كل شيخ وشيخة إذا زنيا كان حكمهما الرجم، وقد سبق أنّ هذا ورد في كلام عمر وزيد بن ثابت، ومن هنا علّل ابن حجر تعمد البخاري حذف (الشيخ والشيخة) وقد أبطلنا هذا التعليل ورجّحنا أن تعمد البخاري حذف هذا الكلام لبطلانه وعدم ثبوته.

ولعل بعض المتشبّثين بالروايات لصحة أسانيدها يقولون: إن تعيين

آية الرجم المقصودة في كلام عمر ولم يذكر نصها في هذا الحديث هي ما جاءت صريحة في روايات أخر بأنها (الشيخ والشيخة). قلنا في الرد على هؤلاء المتعلّقين بخيط العنكبوت: قد بطل أن يكون (الشيخ والشيخة) قرآناً منزلاً ثم نسخ.

وذكرنا أن أظهر وجوه بطلانه كراهية النبي ﷺ أن يأذن لعمر بكتبها، وقول عمر رضي الله عنه: ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم، ومعنى ذلك أن الحكم بأن الشيخ والشيخة إذا زنيا فحكمهما الرجم حكم غير صحيح، فلا يصح أن ينزّل به قرآن.

وإلى هنا نكف عنان القلم عن الحديث في (الشيخ والشيخة) وأنه كلام قرآني نزل ثم نسخ، غير أننا وجدنا أن الرواية قد نسبت إلى عمر رضي الله عنه في هذا الحديث كلاماً اتبعه في زعم الرواية لكلامه في آية الرجم، وهي (الشيخ والشيخة) فاصلاً بين الكلامين بحرف الترتيب والمهلة، فيقول: ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

شأن كل ما جاء بعدما زعم أنه آية الرجم هو شأنها في القطع بعدم قرآنيتها.

ونحن نتساءل: ما شأن هذا الكلام المزعومة قرآنيته الذي يصله عمر - في زعم الرواية - بقصة الرجم وآيتها التي لم تنزل قط في القرآن الحكيم.

ونجيب عن تساؤلنا الذي قد يتساءله غيرنا فنقول: إن شأن هذا الكلام هو شأن (الشيخ والشيخة) في زعم قرآنيته ثم نسخه كما نسخت آية الرجم.

والمتأمل في هذا الكلام يرى الشك يحوطه من أكنافه، والقلق في ألفاظه يستحوذ عليه، وهو خلِّي من سماحة الاتساق القرآني في أسلوبه وعباراته، وليس فيه رائحة من الجزالة البيانية والرونق القرآني الذي هو خصيصة القرآنية.

والرواية نفسها تذكر النص بالشك، أي أن الراوي لا يدري هل النص هو الشق الأول من العبارة أو الشق الثاني منها، لكن الحافظ ابن حجر قد زاد في الطنبور نغمة نشاز فقال: بالشك في رواية معمر، لكنّ معمراً قال: لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم، أو إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

وهذا نـص مخالف للنص الأول مع وجود الشك فيهما، أفيجوز أنّ هذا الكلام المتخالف المختلف مدخول الشك قرآن معجز أنزل وقرىء ثم نسخ؟ هذا محال، وهو أبطل الباطل.

ومن غرائب هذه الرواية أنها أقحمت كلاماً على لسان عمر لا تظهر له أدنى صلة بالكلام الذي جاء في أحضانه، فقالت الرواية على لسان عمر: ألا ثم إن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أُطري عيسى بن مريم، وقولوا عبدالله ورسوله».

هذا أسلوب في الكلام يؤدِّي إلى التعمية والغموض، والتفكك بين المعاني، والسامع لهذا الكلام متتابعاً لا يفهمه في ربط بعضه ببعض، وهو في غرابته أعجب من أن ينسب إلى عمر بقوله للناس وهو على المنبر.

محاولة ابن حجر تلمس ربط بين هذا الكلام وآية الرجم المزعوم قرآنيتها.

وقد حاول ابن حجر أن يلتمس له روابط تسلكه في قرن واحد، فقال: والنكتة في إيراد عمر هذه القصة أنه خشي الغلو على من لا قوة له في الفهم أن يظن بشخص استحقاقه الخلافة فيقوم في ذلك مع أن المذكور لا يستحق، فيطريه بما ليس فيه فيدخل في النهي.

ثم قال ابن حجر: ويحتمل أن تكون المناسبة أن الذي وقع في مدح أبي بكر ليس في الإطراء المنهي عنه، ومن ثم قال: ليس منكم مثل أبي بكر.

ثم قال ابن حجر: ومناسبة إيراد عمر قصة الرجم والزجر عن الرغبة عن الآباء للقصة التي خطب بسببها، وهي قول القائل: لو مات عمر لبايعت فلاناً، أن عمر أشار بقصة الرجم إلى زجر من يقول: لا أعمل في

الأحكام الشرعية إلا بما وجدته في القرآن، وليس في القرآن تصريح واشتراط التشاور إذا مات الخليفة، بل إنما يؤخذ ذلك من جهة السنة، كما أن الرجم ليس فيما يتلى من القرآن وهو مأخوذ من طريق السنة ـ تأمل هذه العبارة جيداً لتدرك أن الرجم لم ينزل فيه قرآن قط ـ ثم قال ابن حجر: وأما الزجر عن الرغبة عن الآباء فكأنه أشار إلى أن الخليفة يتنزل من الرعية منزلة الأب، فلا يجوز لهم أن يرغبوا إلى غيره، بل يجب عليهم طاعته بشرطها كما تجب طاعة الأب.

وهذا كله كلام يظهر أن ابن حجر شعر بما فيه من تعسف ومعاناة، فأراد أن لا يلزم به فقال كالمعتذر عن ضعفه: هذا ما ظهر لي من المناسبة، والعلم عند الله تعالى.

ضعف ربط ابن حجر وصواب الرأي في نظرنا على فرض ثبوت هذا عن عمر رضي الله عنه.

ونحن نقول للحافظ: إن هذا الكلام الذي أراد به أن يلائم بين قصص مختلفة متخالفة في الأحكام والآثار والوسائل كلام عسير الفهم على أوساط الناس، مغلق على عامتهم، فهو متعسف التأويل متمحل المخارج، لا تطمئن إليه العقول المتفقهة في الدين والعلم والمعرفة.

ولعل الصواب في هذا الكلام أنه قيل مبعَّضاً في مرات من المناسبات صالحة، فهو بمنزلة أحاديث متعددة الروايات، مختلفة المساقات، جمعها الحفاظ الرواة المشهورون بالحفظ الفائق في سوقها لتلاميذهم والآخذين عنهم، فتوهَّم بعض الرواة أنها حديث واحد قيل في زمن واحد، واشتمل على جميع ما ذكر فيه من قصص وأحاديث وردت في أحداث متفرقة لمناسباتها في بعض متعلقاتها تناسباً بعيد التقارب بين حقائقها وعناصرها، والعلم عند الله.

* * *

وبهذا التحقيق الذي عرضنا في جلبابه ما قيل عن كلام زُعم أنه قرآن نزل من عند الله بوحي قرآني ثم نسخ، ساقنا إليه السهيلي رحمه الله باستطراد في الحديث عن شهداء بئر معونة من القرّاء وما زعمت روايات

الصحيح عن أنس ـ موقوفاً ـ أنه قد نزل في شأنهم قرآن، قرأه الناس، ثم نسخ، إلى الحديث عما زعم قرآنيته من كلام النبي ﷺ وقوله: «لو أن لابن آدم واديين من ذهب» إلى الحديث فيما زعم أنه قرآن نزل في حكم الرجم (الشيخ والشيخة) ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه.

وقد بقيت للحديث كمالة لا بد من ذكرها استيفاء لبحث الموضوع، لأن الكلام لم يقف بهذه المزعومات عند هذا الحد، ولكن فئة ممن يذكر في أهل العلم تزّيدت تزيداً عجيباً نرى من الضروري التعرض له وردّ باطله.

ففي (لو أن لابن آدم وادِيَيْن) نقل السهيلي عن ابن سلّام أن هذا الكلام كان آية من سورة يونس بعد قوله تعالى: ﴿كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصِّل الآيات لقوم يتفكرون﴾.

كلام باطل يرويه أبو عبيد بن سلام تتناقض رواياته.

وقد عورض هذا القول الباطل بما رواه ابن سلّام نفسه من حديث أبي موسى الأشعري، قال أبو عبيد القاسم بن سلام ـ كما في إتقان السيوطي ـ حدثنا حجاج، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبي موسى الأشعري قال: نزلت سورة نحو (براءة) ثم رفعت، وحفظ: إن الله سيؤيد هذا الدين بقوم لا أخلاق لهم، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ﴿ويتوب الله على من تاب﴾.

هذا حديث مظلم، وهو من أبطل الباطل، وأمحل المحال، لأنه يجعل هذا الكلام المزعومة قرآنيته من سورة نحو سورة (براءة) نزلت ثم رفعت، ولم يحفظ منها شيء على طولها وكثرة كلامها سوى هذه الكليمات القليلات، على كثرة عدد أصحاب رسول الله ﷺ بعد نزول سورة (براءة) المدنية، وهذه السورة المزعومة لا بد أن تكون ـ في نظر زاعميها ـ قد نزلت بعد سورة (براءة) لأنها شُبهت بها في حجمها وتعداد آياتها، وكانوا رضي الله عنهم يعدُّون بعشرات المئات، فقد قال الإمام أبو زرعة: توفي رسول الله ﷺ عن مائة وأربعة وعشرين ألفاً من الصحابة، فهل يعقل أن هذا العدد أو نصفه أو ثلثه، أو ربعه، أو خمسه، بل أو عشره تنزل على نبيهم ﷺ وهم أحرص

الناس على أن لا يفوتهم حرف مما نزل عليه سورة في قدر سورة (براءة) والنبي ﷺ بين أظهرهم ينزل عليهم متتابعاً، لا يفتر ولا ينقطع، ولا يحفظ أحد منها إلا هذه الكليمات؟ هذا شيء لا سبيل إلى تصديقه وقبوله عقلاً.

وأي الروايتين أصدق حديثاً وكلاهما عن ابن سلاّم في روايتها، فهذه ذكرنا روايتها عن إتقان السيوطي عن ابن سلاّم، وتلك ذكرنا روايتها عن السهيلي في روضه إذ يقول: إن هذا الكلام كان آية في سورة يونس بعد فاصلة من فواصل آياتها التي وصفت الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها، وفنائها فناء صوّره رب العـزة تبارك وتعالى في جملة موجزة أبدع إيجاز فقال: (كأن لم تَغْنَ بالأمس).

ثم جاءت فاصلة الآية لتبعث في أهل الإيمان حركة عقلية، وتثير في قلوبهم ثورة فكرية تطلب إليهم التدبر في أمر هذه الدنيا بما فيها من زخرف وزينة ومتاع، وتطلب إليهم أن يتدبروا شأن عظمة الله تعالى وجلال كبريائه إذا جرى قضاؤه بانتهاء هذه الحياة بما بلغت من نفوس أهلها وعبيد شهواتها وأحلاس رغائبها حتى توهّموها خالدة لا تزول، وأنهم قادرون عليها وعلى التمتع بزينتها وزخرفها، أنزل الله عليها من سماء كبريائه ما جعل زينتها حصيداً فانياً كأنها لم توجد بالأمس ساعة افتنان أهلها بها الذين استولت على أفئدتهم، وغطّت على مشاعرهم فاستغرقتهم بالغفلة عن التدبر والتفكر في شأن الله وأخذه للغافلين بغتة، لأنها سلبت عقولهم بشهواتها، ثم إذا هي في طرفة عين حصيداً رمرماً متساقطاً موطوءاً بأقدام الفناء.

فما نقله السهيلي عن ابن سلاّم متعارض مع ما رواه ابن سلاّم من حديث أبي موسى الأشعري وهي رواية متهاوية واهية مظلمة المتن والسند، بل باطلة فاسدة، وهذه جعلت (لو أن لابن آدم واديين) من سورة نزلت من الفضاء إلى الخواء مع طولها وكثرة آياتها كما تزعم هذه الرواية الباطلة دون أن يَعْلق بحافظة أحد من الصحابة شيء منها سوى هذا الكليمات المعدودات.

والرواية الأخرى التي نسبها السهيلي إلى ابن سلاّم نفسه تجعل هذا الكلام آية كانت في سورة يونس بعد واسطة عقدها في نعي الدنيا إلى أهلها.

فهل ثمّة ما يوجب عقلاً ونقلاً طرح هذا الكلام بجميع رواياته بعيداً عن حمى القرآن الكريم أكثر من هذا؟.

أباطيل أخرى تروى ولا تناقش لإظهار بطلانها.

ومما يزيد في غرابة هذه الروايات وغرابة العقول التي قبلتها ودوّنتها في كتب تحمل اسم الإسلام في طرّتها ما رواه الحاكم في المستدرك من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» فقرأ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ ومن بقيتها: لو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه سأل ثانياً، وإن سأل ثانياً فأعطيه سأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية، ومن يعمل خيراً فلن يكفره.

أهذا أسلوب قرآني يا أهل العقول؟ أفيجوز في شرعة العقل والدين أن يحتفل النبي ﷺ أعظم احتفال بمثل هذا الكلام، ويخصُّ به ربُّ العزة جل شأنه أقرأ الأمة للقرآن، الصحابي الجليل أبي بن كعب رضي الله عنه، ويأمر رسول الله ﷺ أمراً خاصاً أن يقرأ القرآن على هذا الصحابي العليم سيّد القراء في عهده، فيقرأ عليه هذا الكلام الملفّق من جمل وكلمات، لا هي شرقية ولا غربية، لا يجمعها زمام ولا يضمها خُطام، أيجد إنسان له أدنى إلمام بمواقع الكلام وتذوّق معانيه، واستطعام أسلوبه رائحة من شميم الهداية القرآنية في هذه الهلهلة المزعومة أنها قرآن.

ولكن ما الحيلة مع هؤلاء الرواة الذين لا يسمحون لأنفسهم بشيء من التعليق على ما يروون ليؤدّوا حقَّ النصيحة للأمة المسلمة التي لها في أعناقهم حقُّ الإخلاص بالنصيحة لعامتها وخاصتها.

وحديث المستدرك يزيد الإشكال إشكالات، فقد جعل هذا الحديث هذا الكلام الملفق المزعوم قرآناً من سورة البيّنة وتسمى سورة (القيِّمة)، وقد كان هذا الكلام نفسه في بعض الروايات التي سقناها فيما سبق من سورة يونس، وفي بعضها من سورة الخواء التي لم يعرف عنها أحد شيئاً سوى أنها كانت مثل (براءة) ولم يحفظ منها سوى هذه الكليمات، ومع تعدد الروايات

المقتضي بطلانية أن يكون هذا الكلام قرآناً نجد الروايات تسوق هذا الكلام في ألفاظه وترتيبها مساقات مختلفة متخالفة مما يحقق أن من المحال أن يكون ذلك قرآناً نزل من عند الله ثم نسخ.

ونحن ندين بأن من حُمل عليهم هذا الغثاء من الصحابة وأهل العلم واليقين بالقرآن من سلف الأمة بأسانيد مركّبة ملفّقة برءاء من أنهم قالوا أو رووا شيئاً من ذلك، لأنه كلام لا يمكن أن يكون من ينابيع ما نزِّل على محمد خاتم النبيين ﷺ.

ومن بدائه ما يكسوه البطلان ثوب المحالية ما ذكر السيوطي في الإتقان إذ قال: قال الحسين ابن المناوي في كتابه الناسخ والمنسوخ: ومما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت في الوتر، وتسميان سورتي (الخلع والحفد).

يدا الزندقة وخبث اليهود اشتركتا في صنع هذه الأكاذيب وروجها البله وتقديس ذوي الهالات

هذا كلام لـه أمثلة كثيرة شحنت بها كتب دست على التـراث الإسلامي، وكانت مادة سخية لأعداء الإسلام، لا ينضب معينها من المستشرقين وتلاميذهم من الملاحدة المستغربين. ولا شك عندنا في أن هذا كلام دخيل وضعه الزنادقة واليهود، وتلقفه البله من ذوي الغفلة وسلامة الصدور، كما تلقفوا أقصوصة الزندقة الغرنوقية التي رمينا بشوب من حميم التحقيق فألقاها في هاوية الفناء.

مـن البيِّن أن كل ما عرضناه للبحث والمناقشة مما جاء في الروايات سواء أكانت من روايات الصحيح، أم من غيره بزعم أنه قرآن نزل من عند الله، ثم نسخ نصه وبقي حكمه مدفوع بقول الله في القرآن الحكيم: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وهذا إخبار لا يدخله النسخ ولا يدخله الخلف، وهو المعبر عنه عن أهل الأصول بالنسخ لغير بدل، لأن الآية جملة شرطية قطعية الملازمة بين الشرط وجوابه، وهي مقتضية باللزوم العقلي أن كل آية ينسخها الله فلا بد لها من بدل يحل محلها، يكون خيراً منها في يسر التكليف وسهولة الامتثال وكثرة الثواب، أو مثلها مما يدعو إليه القرآن من هداية وإصلاح ورحمة.

النسخ بغير بديل لم يقع لأنه مخالف لنص القرآن.

قال ابن الحصّار: إن قيل كيف يقع النسخ إلى غير بدل، وقد قال الله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها﴾ وهذا خبر لا يدخله خلف؟ والجواب أن نقول: كل ما ثبتَ الآن في القرآن ولم ينسخ فهو بدل مما قد نسخت تلاوته، فكل ما نسخه الله من القرآن مما لا نعلمه الآن فقد أبدله بما علمناه، وتواتر إلينا لفظه ومعناه.

وهذا جواب ضعيف مستعجم لأن محل النزاع نص نسخ وبقي حكمه الخاص، فكان بمقتضى منطوق الملازمة العقلية في شرطية الآية أن ينزل نص يكون بديلاً عن النص المنسوخ، وليس فيما زعمت الروايات أنه قرآن نزل من عند الله ثم نسخ نص كان بديلاً عن النص المنسوخ.

فجواب ابن الحصّار عن سؤاله لا محصل له، والجواب الصحيح هو القطع ببطلان كل رواية زعمت أن قرآناً نزل من عند الله ثم نسخ إلى غير بديل عنه متواتر النقل عن رسول الله ﷺ مقطوع بقرآنيته، والنص المنسوخ يشترط فيه كذلك ثبوت قرآنيته ثبوتاً قاطعاً بالنقل المتواتر، والروايات التي جرى في شأنها حديثنا كلها أحادية لا تفيد العلم، ولكنها تفيد الظن وتوجب العمل إذا صحّت أسانيدها، ولم تصادم متونها أصلاً من الأصول التي قام على دعائمها الدين، لأن صحة السند لا يلزمها صحة المتن، قال الباقلاني في كتاب (الانتصار): أنكر قوم هذا الضرب من النسخ لأن الإخبار فيه آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها.

والشرطية في الآية المقتضية للتلازم العقلي بين الشرط وجوابه توجب أن كل حكم نسخ نصه ومعناه فلا بد من الإتيان بنص بديل عنه متضمن لحكم خير من الحكم المنسوخ في يسره، وسهولة امتثاله، أو كثرة ثوابه، أو تحقيقه لمصلحة أرجح مما كانت في الحكم المنسوخ، أو دفع مضرة كانت في الحكم المنسوخ، أو متضمن لحكم مثل الحكم المنسوخ، وإن كل نص نسخ وبقي حكمه فلا بدّ من الإتيان بنص بديل عن النص المنسوخ يتضمن نفس الحكم الذي لم ينسخ، وإن كل حكم نسخ وبقي النص الدال عليه فلا بدّ من الإتيان بنص يتضمن حكماً خيراً من الحكم المنسوخ أو مثله.

أما نسخ نص وبقاء حكمه بغير بديل للمنسوخ فهو مخالف لمنطوق الآية فلا يقع، وبهذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه، ونص عبارته في (الرسالة): وليس يُنسخ فرض أبداً إلا إذا ثبت مكانه فرض... وكل منسوخ في كتاب وسنة هكذا.

وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ولا محيص منه، ولا ينبغي لمؤمن بالله ورسوله أن يمتري بـه. والله ولي التوفيق والسداد.

غَـزْوَة الأحـزَاب

وَهيَ غزوَة الخندَق

أسبابها وأحداثها وآثارها

مشابه بينها وبين غزوة (أُحد)

كانت شدائد أحد دروساً تربوية لبطولات لم تهزها أعاصير المحنة

غَــزْوَة الأحــزَابْ

جاءت غزوة الأحزاب بعد غزوة (أُحد)، فكانت آخر غزوة هجومية في غزوات أحلاس الشرك وعبيد الوثنية المتحجّرة الذين كان يسوقهم الصَّلَف بسياط الغرور الكذوب والتنفّج بالقوى المادية، وكانت في هذه الغزوة هزيمة الشرك البليد بحشوده وجحافله، وقد تعرّى عن سوآته القبيحة، وهزيمة الشرك المتسترِّ بالغطرسة اليهودية التي أحرق أكبادها الحسد القاتل والحقد الأسود.

تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أوفق بلمحة القرآن.

وقد لَمَّح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾[1] إلى تسمية هذه الغزوة باسم (الأحزاب) الذي يصوِّر جوهرها في تكالب شراذم المشركين وفجّار اليهود على المجتمع المسلم ليستأصلوه من فوق الأرض.

وتسمَّى هذه الغزوة في مؤلفات الغزوات والسِّير غزوة (الخندق) تسمية لها باسم أول (تطوّر) في وسائل الدفاع الحربي أخذ به الإسلام في جهاده القتالي قبل أن يعرفه العرب، ليضع لمجتمعه مَعْلَماً من معالم الحركة المتجدِّدة في ظل الترقّي والأخذ بكل جديد صالح تتطلّبه الحياة الثائرة المتجددة، باعتباره من أهم وأعظم جوانب التأهب والاستعداد لمواجهة أعداء الحقِّ في منهج الجهاد القتالي لرسالة الإسلام، إذا ألجىء إليه المجتمع المسلم للدفاع

(١) سورة الأحزاب آية (٢٢).

عن دينه وعقيدته وكيانه، وإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الهدى والخير والإصلاح.

وقد عكس الإمام البخاري الوضع الإشاري الذي لَّمح إليه القرآن المجيد، فقال في الترجمة لها: بأن غزوة الخندق وهي الأحزاب، ولو عكس فقدم ما أخّر، وأخّر ما قدم لكان أوفق بلمح القرآن الحكيم.

وفي صنيعه هذا إيثار لتقديم الوسائل على المقاصد، وكان الأخذ بإشارة القرآن في تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أو ـ على الأقل ـ تقديم هذا الاسم على اسم (الخندق) أحرى وأقعد وأوفق.

لأن هذه التسمية التي أشار إليها القرآن تعبِّر تعبيراً صادقاً عن الصورة التي، وضع أعداء الله من المشركين وفجّار اليهود هذه الغزوة في إطارها للأحداث التي جمعت حشود الشرك وعبيد الوثنية، وأقامت دعائمها على القوة الماديّة من المؤن والسلاح، وأقامت عناصرها على التكالب المسعور لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومستقر دعوته.

ولعل الإمام البخاري رحمه الله ومن أخذ بطريقته آثر تقديم الوسيلة الجديدة اهتماماً بالوسائل المُحْدَثة؛ إيماءً منه إلى أن (تطوّر) الحروب في حياة الأمم والدول يتطلّب هذه الوسائل المتجدِّدة باعتبارها سبباً من أسباب الأهبة والاستعداد الدفاعي المفاجىء للعدو، فيدهشه ويذهله، ويقلب عليه خططه في خوض الحرب والقتال، ولهذا قال فرسان الأعداء لمّا رأوا (الخندق) وهم يجولون بخيولهم ليشتبكوا مع كتائب المجتمع المسلم: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها، وكذلك ممّا يلتمس للإمام البخاري في صنيعه أن الوسائل مقدّمة بالطبع على المقاصد.

كان صبر رسول الله ﷺ واحتماله فوق مستوى المحن في غزوة الأحزاب حتى جاء نصر الله.

كانت هذه الغزوة مليئة بالأحداث والوقائع التي كانت تمثل كثيراً من معالم منهج الرسالة الخالدة في شدائدها وأزماتها ومحنها، والتي قابلها رسول الله ﷺ وهو القائد الأعظم بأعظم الصبر وقوة الاحتمال، فكان لأصحابه المجاهدين تحت لوائه أجلّ قدوة وأعظم أسوة فيما تطلبته أحداث الغزوة من

مواقف تعتمد على العزائم الصادقة والإيمان الراسخ واليقين الذي لا تزلزله كوارث البلاء والمحن.

هذا إلى جانب ما كان في أحداثها من معالم الغيب الإلٰهي الذي يمثّل فضل الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أصحابه في تفريج مضايق النوازل والبلايا التي كانت تمحيصاً لهم وإظهاراً لقوة عزائمهم وإخلاصهم، وليكون فضل الله في تفريج النوازل والمحن تضميداً لجراحهم، وبشرى لهم في مستقبل حياة مجتمعهم، وشحذاً لفضائلهم الإنسانية النبيلة، التي ربّاهم عليها قائدهم الأعظم ﷺ، ولتكون هذه الفضائل هي سلاحهم المعنوي في تحمّل لأواء الحياة بصبر صبور، ونضال لا تُفـلُّ قناته، ولا تخضد شوكته، ولا تغمز كرامته، ولا يطمع في النيل منه الطامعون، وتزداد قوتهم الروحية التي تستمد عناصرها من إيمانهم بالله الذي يردّ بها كيد الكائدين، ويهبها من قوة العزيمة ما تتحدّى به قوى أعدائها المادية، ومن قوة الإرادة ما تقهر به قوى حشودهم مهما تكاثرت وتكاثفت عدداً وعُدّة.

كانت المشابه بين (أحد) و (الأحزاب) دروساً تربوية للمجتمع المسلم.

ومن ثَمّ كانت المشابه التي وصلت هذه الغزوة بغزوة (أُحد) في أزماتها المستحكمة واستحكام شدائدها الضارية، وقسوتها الشرسة دروساً تربوية كامنة في أحداث (أُحد) ولا سيما في أسبابها، وتجمُّع لفائف الشرك المزري بالعقول، والوثنية المنحطة من هنا وهناك، وتأهبهم لمهاجمة المجتمع المسلم تأهباً بلغ أقصى ما يستطاع التأهب به من رجال وأسلحة ومؤن ليستأصلوه ويستأصلوا دعوته إلى توحيد الله وإقامة منائر العدل على طريق الإنسانية في مسيرتها المقدورة لحياتها، ويقفوا مدّ انتشار الدعوة إلى الله التي حمل لواءها بعد الهجرة مجتمع جديد في تكوينه الروحي والمادي مما أغصّهم وكشف أغشية قلوبهم وأحرق أكبادهم، وألبسهم لباس الذل والهوان.

بَيْدَ أن شدائد (أُحد) التي تفتقت عنها وقائعها وأحداثها كانت شدائد تربوية وضعت للمجتمع المسلم ركائز جديدة أقام عليها بناء منهج الرسالة في مستقبل الحياة لتخليص المجتمع المسلم من رواسب التراث الجاهلي الذي كانت آثاره لا تزال قائمة في النفوس، هذا التراث الجاهلي القريب من

أنفسهم ممّا كانت تعتمد عليه الجاهلية في حروبها، وكان هذا التراث يعتمد على القوة المادية وحدها، ولا يعرف غيرها، وهي قوة حشد التجمعات من الرجال، وكثرة السلاح ووفرة المؤن.

وقد كان مظهر هذه القوة الماديّة التي تصبغ بصبغتها التراث الجاهلي المترسب في حنايا النفوس ماثلاً في غزوة (بدر) و(أحد)، وقد عبّرت عنه في (بدر) الكتائب المجاهدة بالتعجُّل لإنهاء المعركة قبل أن تبلغ مداها من النصر المؤزر الذي يقضي على قوة العدو قضاء مبرماً لا تقوم له بعده قائمة، كما كان ماثلاً في الإسراع إلى جمع الغنائم وأخذ الأسرى في (بدر)، وفي عدم الوقوف عند أوامر القائد الأعظم، والتسليم المطلق لمتابعة أوامره ووصاياه في (أحد) في سبيل نصر طائر غير مستقر على أرض صلبة لا تسوخ فيها أقدام المجاهدين في مستقبل الحياة وهم يحملون لواء دعوة الحق التي يقوم بناء صرحها على دعائم التوحيد وهدم صروح الشرك والوثنية، وخاصّة إذا كان هذا القائد الأعظم هو رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي، المسدّد بتوفيق الله، العليم بمنادح الغيب الذي تجب متابعته في جميع أوامره ووصاياه، متابعة لا ترتد قطّ إلى شيء من رواسب الجاهلية، تلك الرواسب التي كان من أهداف رسالة الإسلام العمل على تقويضها وتخليص المجتمع المسلم من شوائبها، وتركيبه في عناصره الجديدة تركيباً لا يجعل لتلك الشوائب الماديّة المظلمة الجاهلية أدنى سلطان في توجيه الوقائع والأحداث التي تتعرض لها رسالة الإسلام في مسيرتها الخالدة.

تذكير ببعض المشابه بين أحد والأحزاب.

ولهذا ظهر شيء من التناقض الغريب في مسلك المجتمع المسلم في غزوة (أحد)، وأول ذلك ـ كما قدّمنا ـ كان في عدم متابعة ما رآه رسول الله ﷺ من البقاء في المدينة، ومقاتلة أعدائه في طرقاتها وأسطح منازلها، حتى استكره المتحمسون للخروج رسولَ الله ﷺ ليخرج بهم لملاقاة عدوهم خارجها، فكان لهذه المخالفة التي حملت ذِرْواً من ترسّبات التراث الجاهلي، تَمثَّل في حماسة الشباب الذين فاتهم فضل (بدر) ـ أكبر الأثر في سير الأحداث التي انتهت بأقسى محنة عرفتها غزوات الإسلام.

ثم جاءت مخالفة جمهور الرماة الـذين وضعهم رسول الله ﷺ في أماكنهم ليحموا ظهر الجيش، فإنهم لم يكادوا يلمحون النصر يلوح في ميدان المعركة حتى تركوا أماكنهم وأسرعوا لجمع الغنائم مع المحاربين، ففتحوا بذلك ثغرة للعـدوّ كرّ منها على كتائب الإسلام، فانفرط عقدهم وشاعت بينهم الفوضى، حتى كان بعضهم يقتل بعضاً بغير علم من شدة ما اعتراهم من الدهش والمفاجأة، ثم فرّوا عن رسول الله ﷺ وتركوه في ميدان المعركة وحيداً، وهو يرامي العدو بقوسه، حتى تشظّت ونفدت سهامها وجعل يرميهم بالحجارة، وهو ثابت في مقامه ما يزول عنه قط.

فكانت هذه المخالفة لأوامر رسول الله ﷺ سبباً آخر في وقوع المحنة التي انتهت بالهزيمة، ثم جاءت المخالفة الثانية وكانت ممثلة في التزيد في الحب العاطفي لرسول الله ﷺ الذي غطّى على الحب الإيماني المرتبط أوثق ارتباط بالمتابعة الصادقة والتسليم لأمر القيادة العظمى الفريدة في تاريخ البشرية، حتى انفلقت شغاف قلوبهم عن أقسى الجزع وأشد الهلع المذهل إثر إرجافة الشيطان وصرخته بأن محمداً قُتل، فلم يملك أحد منهم أن يتماسك ويثبت ويتثبّت، ولكنهم أُخذوا عن أنفسهم، وأطلقوا سوقهم مع ريح الهرب لا يلـوون على شيء ورسول الله ﷺ في أُخراهم يدعوهم (إليّ، إليّ) ليردهم إلى مواقفهم من المعركة، ثم تتابعت الحوادث الممحّصة في أزماتها وشدائدها ومحنها بسرعة مذهلة لم تترك نفساً يتردد، ولا سلامة إدراك لعقل يفكر، ولا لبطولة شجاع تظهر، ولا لبأس بئيس يفرّج هذه الضـوائق التي نزلت بكوارثها على كتائب الإسلام.

وقد نزل برسول الله ﷺ من البلاء والجراحات ما لم ينزل بأحد، فكان عبء هذه المعركة القاسية بأحداثها ووقائعها المريرة بآثارها على كـاهله وحده ﷺ، حتى فاءت إليه فئة من ذوي البأس وصدق الإيمان بعد أن فاءت إليهم أنفسهم وذهب عنهم بعض ما عانوه من الهول المفزع، فأقبلوا إليه ﷺ الواحد تلو الواحد، ووقفوا يذودون عنه ﷺ حتى انصرف العدو عن ميدان القتال، ثم انصرف المسلمـون إلى رحالهم ومنـازلهم يكمدون جـراحهم

ويلتقطون أنفاسهم، وعادت إليهم نفحات الإيمان وعادت إليهم قوة عزائمهم، ووقر الدرس التربوي في نفوسهم حتى كان مسيرهم إلى حمراء الأسد وجراحهم تقطر دماً، وكان هذا المسير مجدِّداً لحياتهم وميلاداً جديداً لهم.

محن (أحد) دروس تربوية لم تهزها عواصف الهزيمة.

وهكذا كانت دروس (أحد) في مرارة أزماتها لوناً من التربية البطولية التي لم تهزها أعاصير الهزيمة، فأفاد منها المجتمع المسلم ما كان له قوة جدّدت عزائم أفراده، وزفعت شأو إيمانه برسالته ودعوته إلى الحق والخير، وأخرجته نضيج الشخصية راسخ اليقين من أتون الرواسب الجاهلية التي ورثها فيما ورث من تراث هذه الجاهلية التي لم تكن ترى قوة في الحياة يقع بها التغالب سوى القوة المادية، وعلمته أن كتائب الإيمان لا تحارب أعداءها من فجّار الكفر بالقوة المادية وحدها، وإنما تحاربهم بقوة الإيمان بعقيدتها وحب التضحية بما تملك من نفس ومال في سبيل إقامة صرحها الذي يعتمد على ركائز المبادىء الإنسانية الرفيعة.

وهذا المعنى التربوي في منهج الرسالة هو الذي رسّخه درس (أحد) في نفوس أفراد المجتمع المسلم، وهو الذي كان عدّة هذا المجتمع في غزوة (الأحزاب).

كانت غزوة الأحزاب مدرسة تربية لا تنزل في مستواها التربوي عن مستوى مدرسة (أحد)، لكن دروس غزوة (الأحزاب) كانت دروساً من لون آخر غير ألوان دروس (أحد)؛ لأن دروس (أحد) كانت لتربية روح اليقظة البطولية الصابرة على بأساء الحرب وعض السيوف ومشارفة الموت في سبيل نشر الرسالة والدعوة إلى الله، والركون إلى صدق المتابعة لأوامر القيادة العظمى، والتحذير الزاجر من مخالفة أوامر هذه القيادة، ومحبتها محبة إيمانية لا تتزيد بثوران العواطف البشرية التي مسّها طائف من الإرجاف المتكذِّب فخفَّ ثقلها في ميزان الصبر على لأواء المحن وكوارث البلاء، وانقلبت انتصاراتها هزائم، وباءت بالفشل ناكصة على أعقابها فراراً من الموت، ولم تثبت فيها إلا قدم رسول الله ﷺ.

أما دروس (الأحزاب) فكانت تربية نفسية، تستهدف الصبر المرير على

المحن النفسية من الجوع المقعد، وفقدان الزاد الموئس، والدأب على أشقّ الأعمال في حصار مضروب مستحكم من العدو، يملك على كتائب المجاهدين منافذ الحياة، مع مكايد المنافقين ودسائسهم الخبيثة وتسللهم لِواذاً متعلِّلين بالأكاذيب الفاجرة، إلى جانب حماية النساء والعجزة والأطفال، وهم من وراء المجاهدين في آطام المدينة وحصون المنازل، خوفاً عليهم من غدر اليهود وخياناتهم.

كانت دروس الأحزاب تربية نفسية للمجتمع المسلم في مستقبل حياته.

وقد كان لهذه الدروس القاسية أعظم الأثر في موقف المجتمع المسلم أمام أعدائه في قوتهم المادية الهائلة التي أعدوها لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومدينته.

تحقيق تاريخ غزوة الأحزاب

ترجيح القول بأنَّ (الأحزاب) كانت في السنة الرابعة.

وقد اختلف أهل العلم من المحدّثين وأصحاب المغازي والسِّير في تاريخ غزوة (الأحزاب ـ الخندق) والسنة التي وقعت فيها، فذهب موسى ابن عقبة في مغازيه ـ وهي بشهادة مالك بن أنس، والشافعي ـ أصحُّ المغازي، وبقوله قال مالك رحمه الله: إنها كانت سنة أربع من الهجرة، وإلى هذا جنح البخاري في صحيحه إذ اقتصر عليه ولم يذكر غيره، وأيّده بالحديث المتفق عليه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ عرضه يوم (أحد) وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يُجِزْه للقتال، وعرضه يوم الخندق (في غزوة الأحزاب) وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه للقتال مع كتائب المجاهدين فيكون بين العرضين سنة واحدة، وغزوة (أحد) كانت في السنة الثالثة للهجرة، فتكون (الأحزاب ـ الخندق) في السنة الرابعة.

وأيّد هذا القول ولي الدين العراقي فقال: المشهور أن (الخندق ـ الأحزاب) كانت سنة أربع. قال الزرقاني في تعليل قول العراقي: لمزيد إيقان القائلين بذلك، كيف وهم موسى بن عقبة، ومالك، والبخاري، قال الزرقاني: وقد صحّح هذا القول النووي في الروضة.

ومن ثَمَّ رجحنا هذا القول فقدّمنا (الأحزاب) وحديثها ووقائعها على

غزوة (المريسيع) وهي غزوة بني المصطلق التي كانت في السنة الخامسة.

ضعف قول ابن إسحاق ومناقشة ابن حجر في اعتماده.

وذهب ابن إسحق إلى أن غزوة (الخندق ـ الأحزاب) كانت في شوّال من السنة الخامسة للهجرة، ورجَّح ابن القيم قول ابن إسحق في كتابه (الهدي النبوي) وقال: إنه الأصح، وجزم به الذهبي، واعتمده ابن حجر، وقال: ويؤيده قول أبي سفيان للمسلمين لما رجع من (أحد): موعدكم العام المقبل ببدر، فخرج ﷺ من السنة المقبلة إليها، فلم يأت أبو سفيان من أجل الجدب الذي نزل بهم، فرجعوا بعد أن وصلوا إلى عسفان أو دونها.

وليس فيما ادّعاه ابن حجر تأييد لقول ابن إسحق ومن تبعه في مذهبه، لاحتمال أن النبي ﷺ بادر بالخروج إلى بدر الموعد في مطلع العام ليظهر القوة والسرعة إلى الوفاء بالوعد، لئلا يظن المشركون بالمسلمين الضعف والتهرب من لقاء عدوهم في الموعد، ولما لم يحضر أبو سفيان برجاله المحاربين رجع رسول الله ﷺ، وبلغ أبا سفيان صنيعُ رسول الله ﷺ فأخذته العزّة بالإثم، وجعل يتأهب لملاقاة رسول الله ﷺ، ووافق ذلك منه مواقع الغدر والفجور من اليهود الذين ذهبوا إلى مكة لتحريض قريش على حربه ﷺ، وكان ذلك في وسط سنة أربع أو في آخرها، فأجابهم أبو سفيان إلى ما قصدوه، وصادف من نفسه هوى، وكان على أهبة الخروج، وخرج بحشوده وأحباشه ومن وافقه من الأحزاب وجموعهم إلى غزوة (الخندق ـ الأحزاب)، فلا وجه لما ادّعاه ابن حجر من توجيه لقول ابن إسحاق.

وذكر الزرقاني في سياقه لكلام ابن حجر قوله: وقد بيّن البيهقي سبب هذا الاختلاف وهو أن جماعة من السلف كانوا يعدُّون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي كانت قبل ذلك إلى ربيع الأول، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه، فذكر أن غزوة بدر كانت في السنة الأولى وأحداً في الثانية، والخندق في الرابعة. قال ابن حجر: وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، لكنه بناء واهٍ مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرّم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر في السنة الثانية، و(أحد) في السنة الثالثة، والخندق في السنة الخامسة وهو المعتمد،

وهذا الذي اعتمده ابن حجر من أن الخندق كانت في الخامسة غير معتمد ولا مؤيّد بدليل، وقد بيّنا احتمال وقوع الخندق في السنة الرابعة، وقد ذهب إليه أعلام الأئمة، فلا محيص عن الصيرورة إليه.

أسباب غزوة الأحزاب ـ الخندق ومن تجمع لها من فُلّال المشركين وفجّار الأخابث من اليهود

كان غدر اليهود وفجور زعيمهم حيي بن أخطب وراء حشود الأحزاب.

أما أسباب غزوة (الأحزاب ـ الخندق) فهي معصوبة بغدر اليهود وحسدهم وتحريضهم أعداء المجتمع المسلم على مهاجمته لاستئصاله والقضاء عليه وعلى رسالته ودعوته، فهم الذين أشعلوا نارها، وأوروا زنادها، وحملوا لواءها، وانتهضوا لها ببواعث الحقد الأسود والحسد الذي ملأ صدورهم والغدر الذي كان ديدنهم.

وكان الذي تولّى كِبْر تجميعهم من اليهود لَعِين السماء والأرض، فرعون الفراعين، وأكفر الكافرين، خبيث الأخْبَثِين حييّ بن أخطب النَّضْري، وقد انضم إليه فجّارهم: سلّام بن مِشْكَم، وابن أبي الحُقَيق، وكنانة بن الربيع، وهؤلاء نضريون امتزج الغيظ والحنق بدمائهم، وأذاب الحسد كل ذرّة من ذرات آدميتهم، وملأهم ضغينة، وانضوى تحت راياتهم الأذلّان الأرذلان، هوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان، وكان بعض بني النضير عند إجلائهم قد خلف قومه وذهب إلى خيبر التي خرج منها ركب الشيطان بعد بتدبير أخبث المكر إلى مكة لتحريض بقايا غثاء الإنسانية في قريش ولفائفها على حرب النبي ﷺ ومهاجمته في داره ومدينته، والتقوا بطاغوت قريش وقائدها أبي سفيان بن حرب وغيره من زعماء أشتات الهاربين فراراً من سيوف المسلمين.

وقال اليهود لهم: إنا جئناكم لنعاهدكم على أن نكون معكم على محمد حتى نستأصله، فقال لهم بلهاء قريش وطغامها: إنكم أهل الكتاب الأول

والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ ـ أفٍ للرؤوس النخرة الخاوية والعقول البالية المهلهلة، والبلادة المتحجرة البلهاء ـ فقال لهم اليهود وهم منتشون من جهالاتهم البَلْهاء وبلادتهم الجهلاء، وأحسُّوا منهم بأنهم لا يحملون عقولاً في أدمغتهم تزن الأمور بميزان المعرفة والعلم، ولكنهم قوم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً منها، فقالوا لهم وهم آمنون أن يُرَدّ لهم قول: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

محاورة استفتاء بين أخابث اليهود وبلهاء قريش.

وأف للعقول الحاقدة التي أعماها الحقد حتى ألقاها بين أحضان الكذب الوضيع فهي تكذب في كذبها، وقد أنزل الله تعالى فيهم تعجيباً لكل ذي عقل يحمل ذرّة من سلامة التفكير من هؤلاء الممرورين سائلين ومسؤولين: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعنِ الله فلن تجد له نصيراً﴾[1] فاجتمعوا واتحدوا لذلك.

ثم خرج من خرج من أخابث اليهود إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ كما دعوا قريشاً لذلك، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم، وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة كما في رواية الواقدي، وعند غيره أن الذي خرج إلى غطفان هو كنانة بن الربيع، وأنه جعل لهم نصف ثمر خيبر دون التقيد بزمن مخصوص، فاستجاب لهم الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، وجمع من قومه فزارة ومن تبعهم من أهل نجد ألف مقاتل وخرج بهم معهم.

لفائف من قبائل مختلفة استجابت لفجار اليهود وخرجوا مع موتوري قريش.

وخرج أبو سفيان بن حرب في بقايا قريش من الموتورين ومن انضم إليهم من الأحابيش في أربعة آلاف، ووافاهم طليحة بن خويلد الأسدي فيمن أطاعه من قومه، وتجمَّعوا حتى عسكروا بمرِّ الظهران، ثم جاءتهم سُلَيم مدداً في سبعمائة رجل، يقودهم سفيان بن عبد شمس، وهو أبو أبي الأعور الذي كان مع معاوية في صفِّين، وبعض الروايات يذكر أن قائد سليم كان

---

(١) سورة النساء آيتا (٥١ ـ ٥٢).

أبا الأعور نفسه لا والده سفيان، ثم هوى إليهم الحارث بن عوف المرِّي في أربعمائة مقاتل من قومه بني مرة، قال الزهري: إن الحارث بن عوف رجع ببني مرّة فلم يشهد غزوة الأحزاب مريّ، قال ابن سعد: والقول الأول أثبت، لأن هؤلاء المريّين شهدوا الأحزاب بقيادة الحارث، وقد هجاه حسان ابن ثابت رضي الله عنه بذلك.

ويدل على شهودهم لها أن رسول الله ﷺ أدخل الحارث بن عوف قائد بني مرة في مراوضته مع عيينة بن حصن لكسر شوكة الأحزاب عن المسلمين.

وخرجت مع الأحزاب أشجع في أربعمائة رجل يقودهم مسعود ابن رُخيلة، وقد بلغت عدة تجمعات الأحزاب عشرة آلاف، وكانوا على أتم الأهبة والاستعداد للقتال، تتوافر لهم إلى جانب كثافة أعدادهم البشرية من المقاتلين غزارة المؤن وكثرة السلاح ووفرة المركوب، إذ كان مع قريش وأحابيشها ومن تبعهم من شراذم القبائل من كنانة وتهامة ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير.

وقد عقدت قريش لواءها في دار الندوة، وجعلته في يد عثمان ابن طلحة بن أبي طلحة، وكان عناج أمر الأحزاب وقيادتها العليا إلى أبي سفيان ابن حرب، فهو صاحب أمرها الذي تصدر عن رأيه.

وكان المسلمون ثلاثة آلاف مجاهد في سبيل الله، وهكذا كان التفاوت بين القوى الإسلامية والقوى المعادية لها تفاوتاً عظيماً، بَيْدَ أن كثرة أعداد الأحزاب لا تحزمهم روابط متماسكة، فهم كثرة جوفاء، بينما كانت قلّة عدد المسلمين لها عواصم من روابط محكمة أجلّها رابطة الإيمان ووحدة الهدف، ومن ثَمَّ كان ميزان القوة المؤمنة أثقل وأرجح.

وفاء خزاعة لرسول الله ﷺ وإشارة سلمان بحفر الخندق.

ولما استكمل الأحزاب تجمعهم، وأعدّوا للسير عدّته سبقهم ركب من خزاعة ـ وكانوا عَيْبة رسول الله ﷺ وأصحاب سرِّه، لا يخفون عليه شيئاً يتعلق بموقفه وموقف أعدائه إلا أعلموه به ـ فخرج هذا الركب إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ فيخبره بخبر القوم، وأغذّ الركب الخزاعي السير كأنما يطوي الأرض طيّاً، فوصل إلى المدينة في أربعة أيام، فأخبروه بما علموا من

علم القوم الذين تحزبوا عليه وعلى مجتمعه، فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر: أيبرز من المدينة خارجها أم يبقى فيها يحارب أعداءه في مداخلها وطرقاتها وأسطح منازلها؟ فأشار سلمان رضي الله عنه بحفر الخندق حول المدينة، فأعجب ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وأجابوا مغتبطين، وأحبُّوا الثبات في مدينتهم ليلقوا عدوَّهم في مداخلها، وأمرهم رسول الله ﷺ بالجدِّ في حفر الخندق، والجدِّ في حرب العدو الذين تحزّبوا لقتالهم، وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ووعدهم رسول الله ﷺ بالنصر إن هم صبروا، واستعانوا بالله في جهادهم لإعلاء كلمة الله.

هذا موقف من مواقف المشابهة التي كانت بين (أحد) وأحداثها، وبين (الأحزاب) ووقائعها، وهو موقف يمثِّل أصدق تمثيل ما أفاده الصحابة من أول درس في غزوة (أحد)؛ إذ فريق منهم خالفوا رأي رسول الله ﷺ في بقائه في المدينة ومقاتلة عدوه في مداخلها وطرقاتها، وهم الذين لم يدركوا فضل الجهاد في (بدر)، وكان أكثرهم شباباً تغلب عليه الحماسة، فأبوا البقاء في المدينة، وتهيئوا للخروج لملاقاة العدو خارجها خشية أن يُزَنُّوا بالجبن والخوف من مجابهة عدوهم، فيُعيَّروا بذلك من أعدائهم، واستكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج بهم لملاقاة عدوِّهم خارج المدينة، فكانت هذه المخالفة عنصراً من عناصر أسباب ما أصابهم من المحن والبلاء في غزوة (أحد).

إفادة المجاهدين في غزوة الأحزاب من موقفهم في (أحد).

ولكن هذا الموقف بعينه يتجدّد في غزوة (الأحزاب) فيشاور رسول الله ﷺ أصحابه المجاهدين هل يخرج بهم إلى عدوِّهم لملاقاته خارج المدينة؟ أو يبقى بهم في المدينة ليلقى عدوّه المهاجم له ولمجتمعه المسلم في مداخلها ويقاتله في طرقاتها وأسطح منازلها؟ وبهذا يتيح فرصة لكل مسلم كبير أو صغير، رجل أو امرأة أن يكون له نصيب في جهاد القتال، فالرجال المحاربون يقاتلون المهاجمين من الأعداء في طرقات المدينة وأزقتها ومداخلها، والنساء والأطفال يقذفونهم بالحجارة من فوق أسطح المنازل ومنافذ البيوت.

وهنا يتغيّر الموقف، ويتذكّر الذين كانوا خالفوا رسول الله ﷺ في غزوة (أحد) وصمّموا على الخروج لملاقاة عدوهم خارج مدينتهم، ويتذكروا ـ

أيضاً ـ ما كان من آثارٍ ضارة لحقت بالمجتمع المسلم من جرّاء موقفهم المخالف لرأي رسول الله ﷺ في (أحد)، فيرغبوا في البقاء في المدينة وملاقاة عدوِّهم في مداخلها وطرقاتها، وزادهم غبطة بهذا الموقف وتمسكاً به أن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فأعجبوا بالفكرة وأحبّوا الثبات بالمدينة.

وجدّوا في حفر الخندق، وبذلوا فيه جهداً مضاعفاً حتى أكملوه قبل أن يصل إليهم العدو بحشوده، فلما وصل ورأى الخندق وقف دَهِشاً مذهولاً، ولم يستطع الوصول إلى مجابهتهم والاشتباك معهم في قتال ميداني، واكتفى بالحصار يشتدُّ فيه ويحيك حلقاته، فاحتمله المجاهدون بصبر وقوة عزيمة أرغموا بها العدوّ على الرحيل بعد طول انتظار أجهده دون أن ينال منهم نَيْلاً، بل كانوا هم الذين نالوا منه ما أدمى قلوبهم بقتل بعض صناديدهم وفرسانهم الذين أقحموا خيولهم، وأجالوها في بعض مواضعه، فنزل إليهم أبطال الإسلام عليّ والزبير وغيرهما فجندلوهم وقضوا عليهم، فقتل عليّ عمرو بن عبد ودّ، وقتل الزبير نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي.

هذا درس من دروس (أحد) أفاد منه المجاهدون في (الأحزاب) إذ كان في (أحد) سبباً من أسباب ما نزل بالمجاهدين من البلاء والمحن، وكان في (الأحزاب) عنصراً من عناصر النصر الذي أيّد الله به رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو درس خرج منه المجاهدون أصفى معدناً وأقوى عزيمة وأرسخ إيماناً وأهدى سبيلاً، لأنهم صدقوا في متابعتهم لرسول الله ﷺ، فنصرهم الله نصراً عزيزاً أدال لهم به من أعدائهم.

صبر رسول الله ﷺ على الشدائد ومشاركته لأصحابه في حفر الخندق ألهب عزائمهم.

بدأ رسول الله ﷺ العمل في حفر الخندق بجدٍّ ودأب كان يسابق بهما الزمن ليكمله قبل وصول أعدائه إليه، فقسمه بين المجاهدين من المهاجرين والأنصار ومن معهم من سائر المسلمين، فجعل على كل عشرة منهم جزءاً منه، وكانوا يتنافسون في العمل، وشمّر رسول الله ﷺ عن جهده في العمل مع أصحابه ليتأسّوا به، وينشطوا وهم راغبون في ثواب الله وجزيل إحسانه وعظيم فضله.

روى البخاري عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه، وأخرج البخاري أيضاً عن أنس أن النبي ﷺ خرج إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداةٍ باردةٍ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع قال ﷺ ـ ليهون عليهم شأن الدنيا، ويعظِّم في نفوسهم أمر الآخرة، ويجدِّد صبرهم ويشحذ عزائمهم، ويزيد رغبتهم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، ويحبب إليهم العمل في إعداد وسايل القوة والمنعة:

«اللهم إن العيش عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره

فيجيبه أصحابه رضوان الله عليهم مستهينين بما يلحقهم من النصب والتعب قائلين:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وفي حديث جابر في الصحيح قال: إنا نحفر يوم الخندق فعرضت كُدْية، فجاؤوا إلى النبي ﷺ وقالوا: هذه كُدْية عرضت في الخندق، فقام ﷺ وبطنه معصوب بحجر.

وفي حديث الكُدْية عند أحمد في وصف ما أصاب المجاهدين من شدائد وأزمات وهم يعملون في الخندق: أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع.

وكان أقصى ما يصل إليهم ليتبلَّغوا به ما جاء في حديث أنس عند البخاري قال: يؤتون بملء كفيّ من الشعير، فيُصنع لهم في إهالة ـ أي ودك يتحلّب من دسم اللحم وشحمه ـ سنخة ـ أي متغيرة، فاسدة الطعم ـ توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن.

ثم قال في الحديث: وقد لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، ولا نطعم شيئاً ولا نقدر عليه.

فإذا جاء الله تعالى بشيء من الفرج بعد أن تبلغ الشدة أقصى مداها، ورزقهم الله رزقاً يتزوّدون به جعله النبي ﷺ شركة بين جميع المجاهدين من أصحابه يتواسون فيه، ولا يستأثر به فرد أو طائفة منهم، وهو ﷺ يعلم أن ما جاءهم من رزق لا يقوم بحاجة فرد أو أفراد، ولكنه ﷺ يعلم ما لله عليه وعلى أصحابه من فضل ظاهر وخفي في تفريج كربهم، والتنفيس عنهم بما خصّه الله به من أسرار الغيب، فيلقي بنفسه الكريمة على أعتاب الربوبية ورحماتها، وهو ﷺ مشتمل بجلابيب ذل العبودية وضراعة الرجاء أن يجعل الله من هذا الفرج القليل بلاغاً يسدّ جوعة أصحابه ويغيث الساغبين الذين طووا بطونهم على الخوى والخلاء، وهم دائبون على أشق الجهد في العمل، وفي مثل هذا الموقف يزداد حرص النبي ﷺ على مواساة أصحابه بنفسه، وقد بلغ به الجهد من شدة الجوع ما بلغ.

حديث جابر في الخندق معجزة كونية تدخل في إطار سنن الله الخاصة ولا ينكرها العقل المستقيم.

ففي حديث جابر عند البخاري من طريق خلّاد بن يحيى: حدثنا عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه عن أن جابراً رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، ـ فأذن له ـ فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، وفي رواية لهذا الحديث، فقلت: إني رأيت برسول الله خمصاً شديداً، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «كم هو»؟ فذكرت له، قال: «كثير طيب» قال: «قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي» فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار، وفي رواية أخرى لهذا الحديث، فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق إن جابراً صنع سوراً ـ أي طعاماً ـ فحيّ هلا بكم».

فلما دخل جابر على امرأته قال: ويحك!! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت هل سألك؟ قلت نعم، فقال النبي ﷺ: «ادخلوا ولا تضاغطوا» فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمّر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرّب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز

ويغرف حتى شبعوا، وبقيت بقية، فقال: «كُلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة».

قال جابر وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

النبي ﷺ يعلم أمته أرفع درجات المواساة في أشد مواطن البأساء ويشارك مجتمعه شدائده.

هذا الموقف الإنساني النبيل، وهذا الفعل الكريم من النبي ﷺ وأصحابه المجاهدين يضع هذا المجتمع المسلم في مكان حجر الزاوية من بناء كتائب الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، ويجعل من قيادته العظمى ممثّلة في رسول الله ﷺ أفقها المتسامي الذي تتطلبه حياة مجتمع نيط به نشر رسالة الحق والخير والهدى والنور، وإقامة موازين العدل والتراحم بين عامة الناس وخاصتهم على أساس أقصى ما يتحمل الإنسان من الصبر على البأساء والضرّاء، ويجعله قائماً على أرفع منازل التواسي بالخير بين القيادة وجنودها في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والشدة والرخاء، ليعلم الناس أنّ رسالة الإسلام لا تبيح للقادة والرؤساء والحكام والزعماء المتولّين أمور قيادة الشعوب والأمم أن يستأثروا بالعيش الرغد الرخيّ الهنيّ، والحياة المترفة المتنعمة، وهم يديرون شؤون أممهم من وراء جدران القصور، يتثاءبون من الكظّة، ويتجشؤن من البِطْنة، وهم يعلمون أن شعوبهم المسلمة تعيش على شظف العيش وقفار اللقمة إن وجدوها وقدروا عليها، ويعيشون على عُرْي العورات في حمّارة القيظ وقرقرة الصقيع.

وحسب هؤلاء القادة عند أنفسهم أن يسلطوا على شعوبهم شراذم المرتزقة من المتفيهقين أصحاب اللَّسَن الخادع المنافق الكذوب ليقولوا عن السواد المظلم في حياة هذه الشعوب إنه بياض مضيء، وعن صفرة الجوع إنها نضرة النعيم، وحسب هؤلاء القادة عند أنفسهم وعند المنتفعين بما في أيديهم من لعاعات الدنيا إذا جدّ الجد وطالبتهم الحياة قَسْراً أن يقوموا بأداء واجباتهم إزاء شعوبهم، ويقفوا إلى جانبهم في دفع الظلم أن يتواروا وراء أسجاف من الخداع الكذوب في بيانات إذاعية تكتب لهم بأقلام النفاق، يتحدثون فيها عن الإسلام وهدايته، أو في احتفالات ألصقوها بالدين افتراء

على الله وعلى دينه، وهم يعلمون أن هذه الاحتفالات التي تطنطن بها الإذاعات ودور الإعلام المأجورة ما أنزل الله بها من سلطان، وهم الممكنون في الأرض بما ملكهم الله من سلطان القيادة، وبما وضع في أيديهم من ثروات هائلة، هي في الحقيقة ملك لهذه الشعوب الجائعة العارية أخرجتها لهم أرضهم وسواعدهم، وسقتها دموعهم وعرقهم، وغذّاها دمهم، وهؤلاء القادة الحاكمون مستخلفون فيها لإنفاقها فيما يحفظ على الشعوب حرية دينها وعقيدتها وشرف وطنها، ويتيح لها انطلاق حركاتها في هذا الوطن بما يكفل لها القيام بواجباتها في حماية الحق والعدل، ﴿وما الله بغافل عما يعمل الظالمون﴾.

القائد قدوة لمجتمعه يجوع معه ويشبع معه ويألم لألمه ويفرح لفرحه.

هذا رشح من غيث النبوة في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهو ﷺ أكرم خلق الله على الله، وأعزّهم عنده، وأحبّهم إليه يشارك أصحابه وجند كتائبه في حمل تراب الخندق حتى يواري التراب جلد بطنه، ويجوع معهم، ويبقى على الجوع كما بَقُوا أياماً وليالي لا يذوقون فيها ذواقاً ولا يطعمون شيئاً، ولا يقدرون على شيء يقيم أصلابهم.

ويشتد به ﷺ الجوع حتى تلتصق بطنه بظهره، ويخشى أن يعجزه ذلك عن العمل كما يعمل أصحابه فيشدُّ على بطنه الحجر ليقيم به صلبه، ويرى ما عليه أصحابه من المَسْغبة وشدة الجوع وقسوة البرد، وهم يعملون في حفر الخندق بأنفسهم في غداة باردة، فيعلّلهم بالأناشيد الباعثة على حب العمل واحتمال مشقته والدأب عليه كما تعلل الأم الرؤوم فلذة كبدها وهي تراه يتلوّى من الجوع وقد قلص ثديها وجف عن مَذقة ترضعه إياها، وأصحابه ﷺ ينسون ما بهم من آلام فيجاذبونه النشيد ويجيبونه بقولهم: نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً، ليقروا عينه ويشعروه ﷺ أنهم شروا أنفسهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وأنهم بايعوه ﷺ على الجهاد ما بقُوا على ظهر الأرض تنبض قلوبهم بالحياة.

* * *

وقد اختلفت الروايات في تحديد الزمن الذي استغرقه حفر الخندق،

أغلوطات في المدة التي استغرقها حفر الخندق.

وأصح ذلك وأرجحه ما ذهب إليه محمد بن سعد في الطبقات، وهو أنهم مكثوا في حفر الخندق ستة أيام، قال السمهودي: وهو المعروف.

وذكر موسى بن عُقْبة في مغازيه إنهم أقاموا في عمل الخندق قريباً من عشرين ليلة، وذكر الواقدي أنهم أقاموا في حفره أربعاً وعشرين ليلة، وهذا فرق كبير واختلاف عريض.

والظاهر أنه قد اشتبه على الرواة واختلط على بعضهم أمر حصار الأحزاب للنبي ﷺ وأصحابه بأمر الحفر، فجعلوا مدة الحصار هي مدة الحفر، والصواب ما ذهب إليه ابن سعد من أن مدة الحفر ستة أيام بلياليها كما أيده السمهودي بقوله: وهو المعروف، والخلاف الذي بين رواية ابن عقبة ورواية الواقدي إنما هو في مدة الحصار لا في مدة الحفر، لأنّ النبي ﷺ بدأ العمل في حفر الخندق والأحزاب كانوا قد أتمُّوا أهبتهم وأعدوا للسير عدته، وكان ركب خزاعة قد سبقهم بالخبر إلى النبي ﷺ، وقطع المسافة بين مكة والمدينة في أربعة أيام.

ومن أبعد البعد أن يستغرق سيرهم ما قيل في مدة الحصار بتوّهم أنها مدة الحفر، والخندق كان هو الوسيلة العظمى في مواقفة الأحزاب عند هجومهم، فلا بد أن يكون قد أُعدَّ وفرغ منه قبل أن يصلوا إلى مكان المعركة.

ولعل الذين زعموا أن مدة الحفر طالت فنقلوا لها مدة الحصار، أنهم أدخلوا مدة حراسة الخندق وترميم ما عسى أن يكون قد وهى منه في مدة الحفر فقالوا ما قالوا.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق أقبلت جموع الأحزاب تجر ذيول الصلف وفجور الغرور، وكانوا عشرة آلاف، فنزلت قريش وأحابيشها ومن تبعهم من تهامة وبني كنانة بقيادة أبي سفيان بن حرب وهم أربعة آلاف بمجتمع السيول، ونزل الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري بمن معه من قومه غطفان ومن تبعهم من أهل نجد إلى جانب (أحد) بذنب نُقْمى وكانوا

ألفاً، ونزل بقية الأحزاب في منازلهم من حول المدينة، فكانوا ثلاثة عسكر، وعناج أمرهم وصاحب كلمتهم أبو سفيان بن حرب.

وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المجاهدين فنزلوا إلى جنب سَلْع وجعلوا ظهورهم إليه، وهو جبيل من جبال المدينة، وجعلوا الخندق بينهم وبين أعدائهم والمدينة في مواجهتهم وكانت المدينة مشبكة بالبنيان، فكانت كالحصن.

وكان بروز رسول الله ﷺ في مواقفة أعدائه يوم الاثنين لثماني ليال مضين من ذي القعدة، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة ويحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة، ورفع المسلمون النساء والأطفال والذراري والعجزة من الرجال إلى الآطام لحمايتهم من غدر قريظة.

وكان النبي ﷺ يرسل الحرس إلى المدينة، قال ابن سعد: فيرسل سلمة بن أسلم في مائتي رجل، ويرسل زيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل، يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، ليرهبوا قريظة لئلا يسول لهم الغدر نقض عهد رسول الله ﷺ فيهجموا على المدينة، ويوقعوا بمن فيها من النساء والأطفال والعجزة.

أخبث مكر لأخبث فاجر في العمل على نقض قريظة عهدها مع النبي ﷺ.

وخرج الخبيث حيي بن أخطب ـ لعنه الله ـ إلى بني قريظة ليضيف إلى فجوره في تجميع الأحزاب وتحريضهم على محاربة رسول الله ﷺ فجوراً جديداً، فسار حتى أتى صاحب عقدهم كعب بن أسد القرظي، وكان كعب قد وادع رسول الله ﷺ وصالحه على قومه، حتى إذا أحسَّ بمجيء حيي ابن أخطب أغلق دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال له: ويحك يا حيي؟! إنك امرؤ مشؤوم، وإني عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، فإني لم أر منه إلا وفاء وصدقاً.

ولكن الخبيث حُيي لم يؤيسه صنيع كعب بن أسد وقوله في شهادته للنبي ﷺ بالصدق والوفاء في موادعته: فإني لم أرَ منه إلاّ وفاء وصدقاً، ولكنه لم يزل به يسوسه ويروضه على الغدر ونقض العهد، ويؤنسه ليستنزله عن موقفه، فجعل يفتل له في الذروة والغارب ليفتح له باب الحصن ويسمع منه

ما يريد أن يقوله له في محاورته الخبيثة حتى أحفظه ورماه بالبخل، وقال له: والله إن أغلقت دوني باب حصنك إلّا تخوفاً على جشيشتك أن آكل معك منها، ففتح له كعب وأدخله حصنه، فقال حيي ـ لعنه الله ـ ويلك يا كعب!! لقد جئتك بعزِّ الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجتمع السيول ومن دونهم غطفان، لقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، فقال له كعب بن أسد: جئتني والله بذلِّ الدهر، وبجهام قد اهراق ماءه، يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي!! دعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلّا صدقاً ووفاء. ولكن حيياً ـ لعنه الله ـ لم يزل بكعب يقاوله ويخادعه حتى أعطاه عهداً على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك يصيبني ما أصابك، فأجابه كعب بن أسد ونقض عهده وبرىء ممّا كان بينه وبين رسول الله ﷺ من الموادعة والصلح والعهد.

النبي ﷺ كان يخشى غدر قريظة فبعث الزبير فكشف له عن غدرهم وخيانتهم.

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بطبيعة اليهود الغادرة، لا يطمئن إلى عهودهم ويخشى غدرهم وهو ﷺ مشغول بمواجهة أعدائه المتحزِّبين عليه، وكأنه ﷺ أحس بروح الغدر تمشي في الظلام إلى بني قريظة، فقال لأصحابه من يأتيني بخبر قريظة؟ فقال الزبير بن العوام: أنا يا رسول الله، قال الزبير: فانطلقت إليهم وعرفت خبرهم، ورجعت إليه ﷺ به، فجمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه فقال لي: (فداك أبي وأمي).

ولما انتهى خبر بني قريظة إلى رسول الله ﷺ، وأنهم نقضوا عهده أراد أن يتأكد مما بلغه حتى يأمن على العامة عند بلوغهم ما بلغه وهو ﷺ على يقين مما بلغه، فلا يصل الخبر إلى عامة المجاهدين إلا وهم قد علموا أن رسول الله ﷺ قد أحاط خبراً واتخذ له من الأحداث أقرانه.

السعدان سيدا الأنصار يؤكدان غدر قريظة ونقضها العهد.

فبعث السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ليتعرّفا حال بني قريظة ويؤكدا له خبرهم، حتى إذا أعلنه لأصحابه، وكانوا يعلمون بعهده معهم يكون قد وضعهم أمام أمر واقع لا يشك فيه، ليتخذوا له أهبته فلا يفاجئهم أمره.

وبعث ﷺ مع السَّعْدَين عبدالله بن رواحة، وخوّات بن جبير، وأسيد ابن الحضير، وقال لهم: «انطلقوا لتنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا فاجهروا به للناس»، فذهب بَعْثُ رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، واختبروا حالهم فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم، وتكلّموا في حق رسول الله ﷺ وتبرؤا من عقده وعهده..

ثم أقبل السعدان ومن معهما على رسول الله ﷺ، فلحنوا له كما أمرهم، وقالوا: عضل والقارة، أي إنهم غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خُبيب بن عدي وأصحابه، فكبّر رسول الله ﷺ وقال: «أبشروا يا معشر المسلمين» أي بما يلقاه أهل الغدر جزاء غدرهم، ليقوّي عزائم المسلمين، وأن النصر حليفهم ولواءه معقود بنواصيهم إن هم صبروا، وذلك لصدق إيمانهم بصدق رسول الله ﷺ فيما يخبر به، قال الواقدي: فقال ﷺ: «الله أكبر، أبشروا بنصر الله وعونه، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وآخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر ولتُنْفَقَنَّ أموالهما في سبيل الله».

حكمة بعث السعدين ومن كان معهما بعد كشف الزبير عن غدر قريظة.

وفي بعث السعدين ومن معهما لون من الحكمة السياسية، يمثل مَعْلماً من معالم منهج الرسالة الخالدة التي قصد إليها رسول الله ﷺ في أخذه بني قريظة بغدرهم ونقضهم لعهده ﷺ.

ذلك أنه ﷺ حين بعث حواريّه الزبير بن العوام إلى بني قريظة ليتعرف حالهم ـ فذهب إليهم الزبير ورجع إلى رسول الله ﷺ يخبره أنهم على أخبث حال يضمرون الغدر وينقضون العهد ـ لم يشك لحظة في صدق خبر الزبير عنهم، ولكنه ﷺ كان على أكمل العلم بما بين الأنصار وطوائف اليهود من روابط جاهلية لم تنفصم عراها، وكانت هذه الروابط تبرز عند مناسباتها في أوقات الأزمات والمحن، وكان بين الأنصار من الأوس والخزرج تنافس، وكانت فيهم حمية لهذه الروابط، يكرهون أن تمس من غيرهم، وكثيراً ما كان يقع التقاول والتصاول بين الحيين من جراء هذه الروابط الجاهلية.

فرأى رسول الله ﷺ أن يحتاط ويجعل أمر بني قريظة في أخذهم بغدرهم قائماً على أخبار حلفائهم ومواليهم من الأنصار الذين أصبحوا سادة المجتمع المدني، حتى إذا أخذوا بغدرهم كان أخذهم بأيدي من يرتبطون بهم ويدافعون عنهم.

ولذلك اختار القرظيون تحكيم سعد بن معاذ في نهاية أمرهم، بعد أن حاصرهم النبي ﷺ حصاراً شديداً، ولكن سعد بن معاذ كان رجلاً قوي الإيمان راسخ اليقين، غسل الإيمان قلبه من تلك الروابط الجاهلية، فلم تأخذه فيهم لومة لائم، وحكم فيهم بحكم الله تعالى الذي ارتضاه رسوله ﷺ والمؤمنون، وقد كان الأوس قوم سعد بن معاذ يرجون منه أن يحسن إليهم وينقذهم من أسوأ مصير ينتظرهم، فقالوا له: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

هذه سياسة حكيمة رسمت للمجتمع المسلم جانباً من جوانب منهج الرسالة الخالدة ليكون دعامة الدعائم الاجتماعية في سياسة المجتمع المسلم في مستقبل حياته.

إحاطة حشود الأحزاب بكتائب المجاهدين واشتداد البلاء عليهم.

ونزلت حشود الأحزاب وجموعهم منازلها من ميدان المعركة، محيطين بكتائب المجاهدين، إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، واشتد البلاء، وعظم الخطب، وزاغت الأبصار، وضاقت مجاري الأنفاس وبلغت القلوب الحناجر، وتناوحت الظنون والأوهام، وطفت التخيلات والشكوك، وظن ضَعَفة الإيمان بالله الظنونا، واستولت وساوس الشيطان على العقول والقلوب والأفكار، ونجم النفاق واستشرى الظلام وكثرت الأراجيف الفاجرة، وانتشرت منها الأكاذيب الماكرة حتى أخذت المحنة بالحلاقيم، وتعاظم البلاء واشتدت المحن، وزلزل المجاهدون زلزالاً شديداً أساخ أقدامهم، وأيبس أعصابهم وشلّ حركاتهم، وكانوا كما ذكّرهم الله تعالى بمواقف محن السابقين من المؤمنين في قوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتى يقول الرسول

والذين آمنوا معه متى نصر الله؟!!﴾(١).

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب أصاب النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر.

المنافقون يستولي عليهم الرعب والفزع فيكشف قناع قلوبهم عن الجبن والهلع.

ولم يقوَ المنافقون على مداراة وتغطية ما نزل بهم من الرعب والهلع والجبن والفزع، ممّا جعلهم يتسلَّلون في خفية وتدسس فراراً أن يصيبهم من الكوارث ما يقصم ظهورهم، وكان أمثلهم طريقة في النفاق من يستأذن النبي ﷺ متعلِّلين بالأكاذيب الفاجرة، يقولون إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة للعدو، وقد كذبوا بما قالوا وفجروا فيما زعموا، وقد ردّ الله عليهم كذبهم وفجورهم، فقال: ﴿وما هي بعورة﴾ ولكنهم لجبنهم وتزايل مفاصلهم من هول ما رأوا وما عاينوا من الشدائد والأزمات زعموا ما زعموا من الكذب، وهم في مداخل أنفسهم لا يريدون إلا فراراً، لينجوا بزعمهم من البلاء والمحن القواصم.

أبلغ أسلوب تصويري لمشاهد ووقائع هذه القصة كما هو مبين هنا في تفسيرها.

وفي ذلك كله نزل قدر كبير من صدر سورة الأحزاب بدأه الله تعالى بأشرف وأحب نداء للمؤمنين، ممتناً بنعمه وفضله عليهم، ومذكِّراً لهم بإحسانه في تفريج ضوائقهم فيما سبق لهم من المحن التمحيصية لتطهرهم من شوائب الخوف، وتثبت قلوبهم وتربط على أفئدتهم بروابط الإيمان، فقال جل شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾(٢).

ثم ذكر عزّ شأنه مواقع جنود الأعداء في إحاطتهم بكتائب المجاهدين، فقال: ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم﴾ يعني غطفان ومن تبعها من أهل نجد بقيادة الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، ثم قال تعالى: ﴿ومن أسفل منكم﴾ وهم قريش وأحابيشها ومن ضوى إليهم من كنانة وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب بعد قتل صناديدها في بدر.

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٤).

(٢) سورة الأحزاب آية (٩).

ثم قال تعالى يذكر شدة البلاء وعظيم المحنة، ويصف ما أصاب المجاهدين في موقعهم من ميدان المعركة: ﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾ وزيغ الأبصار تحيّرها وعدم تثبتها ممّا ترى، لأنها مالت عن سننها وأضلّت طريقها إلى ما تريد إبصاره، فلم تُثبت مما ترى شيئاً لشدة الهول الذي نزل بأصحابها فأفسد رؤيتها.

ومعنى بلوغ القلوب الحناجر التي هي مدخل الطعام والشراب: أنها اضطربت واهتزت روابطها وكثر وجيبها، وكأنما تحولت عن مكانها لتضايقه عن حركات اضطرابها لتخرج إلى ما يسعها وهو كناية عن بلوغ الشدة أقصى غايتها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ إخبار عن اختلاف الأحوال أمام النوازل والكوارث التي لا يستطاع دفعها، فأهل التثبت كانت ظنونهم أن هذا الذي نزل بهم إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليميِّز به الخبيث من الطيب، كما قال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[1] حتى يصفِّي المجتمع المسلم من غلث الضعف.

وأما ضعفاء المؤمنين الذين لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فظنهم بالله أنهم حينما رأوا ما نزل من البلاء تحيروا، واهتزت عزائمهم، ووهنت دعائم إيمانهم، وملكهم الخوف والرعب، فجسّم لهم خيالهم الصغير كبيراً، وأراهم ما لم يروا، وأنزلهم الشيطان منازل حيرته ووسوسته وضلالاته.

وأما المنافقون على القول بدخولهم في عموم النداء نظراً لظاهر حالهم من إظهار الإسلام ومداخلتهم لمجتمعه، مع إبطانهم الكفر وتدسسهم مع أهله، فظنُّهم بالله ما حكاه الله عنهم من التكذيب لوعد الله في قوله: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ وقد أخذوا معهم في هذا الظن السيء من الذين استعبد الخوف والرعب والفزع نفوسهم، فكانوا على بعض أخلاق المنافقين في طبائعهم المهزوزة،

---

(١) سورة آل عمران آية (١٧٩).

وقد وسمهم الله بمرض القلوب، وهم الذين مسّ الإيمان قلوبهم ولكنه لم يستقر فيها استقراراً ثابتاً يعصمه عن التأثر ببعض خلال المنافقين.

وقد عقّب الله تعالى ما ذكره من أحوال المجاهدين في موقفهم أمام جموع أعدائهم بتصوير إجمالي لابتلائهم وزلزلة أقدامهم في قوله تعالى: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ ومعناه أن الخوف بلغ منهم مبلغاً عظيماً أزعجهم وأفزعهم، وذهب بأمنهم وثباتهم وذهلوا عن النظر في معمعة الموقف، ولم يكن لهم إلاّ ترقب العواقب التي توحي بها هذه الشدائد والأزمات التي لم يعرفوا لهم مخرجاً منها، لتعمية معالمها عليهم لشدة ما لحقهم من الفزع.

وصف المنافقين بالهلع والجبن والتدسس.

ثم قال الله تعالى يحكي شيئاً من تدسس النفاق والمنافقين في جبنهم وعدم تماسكهم أمام شدائد الأحداث ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً﴾.

وهذا تذكير للنبي ﷺ بحال هؤلاء المنافقين الجبناء، فكأن الله تبارك وتعالى يقول: واذكر يا محمد قول طائفة من المنافقين لغيرها من طوائفهم: (يا أهل يثرب) وهذا النداء يرجع بهم إلى جذور كفرهم، فهم لم يقولوا يا أهل المدينة ـ وهو الاسم الإسلامي الذي سُمِّيت به بعد هجرة النبي ﷺ إليها، واتخذها داراً له ولمجتمعه المسلم، وجعل منها قلعة لكتائبه وحصناً للمجاهدين ـ كراهية في الإسلام وأهله، ولكنهم قالوا: (يا أهل يثرب) فراراً من اسم المدينة الذي يوحي بالاستقرار والتجمع المطمئن الآمن إلى التثريب واللوم والتقريع ولهذا قالوا لإخوانهم المنافقين: (لا مقام لكم) أي مع هذه الشدائد المرعبات المزعجات وتوالي المحن والبلايا، فارجعوا إلى بيوتكم لتأمنوا عواقب هذه المزعجات متعلّلين بالكذب والبهتان في قولهم: ﴿إن بيوتنا عورة﴾، وقد أكذبهم الله في قولهم فقال رداً عليهم: ﴿وما هي بعورة﴾ ولكنهم لجبنهم لا يريدون من هذا الكذب إلا الفرار عن مواقع البأس والشدة.

ثم بيّن تعالى أن الجبن طبيعة النفاق والمنافقين، وأن ما هم عليه من الرعب والانزعاج ليس قاصراً على وجودهم في ميادين المعارك، ولكنه ملازم لهم لا يفارقهم، فقال: ﴿ولودخلت عليهم﴾ أي بيوتهم (من أقطارها) من جميع جوانبها وأكنافها، وانثالت على أهليهم وذراريهم جموع الأعداء ناهبين لأموالهم، سابين لنسائهم وأطفالهم، ثم سئلوا عند ذلك الرجوع إلى صريح الكفر لأسرعوا إلى إجابة ما يطلب منهم فرقاً من هؤلاء المهاجمين لبيوتهم.

قال الزمخشري: والمعنى أنهم يتعلّلون بإعوار بيوتهم ويتمحّلون ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين ومصافّة الأحزاب الذين ملؤهم رعباً وهولاً، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر،وقيل كونوا على المسلمين لسارعوا إليه، وما تعلّلوا بشيء، وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام وشدة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على مصانعة أهله، والارتماء في أحضانهم.

خصائص المنافقين مستمدة من خصائص معلميهم اليهود.

ثم بيّن تعالى أن المنافقين غُدْر لا عهد لهم، بل هم - كمعلّميهم من أخابث اليهود - مجبولون على الخيانة والغدر ونقض العهود لا يستمسكون بعقد ولا يوفون بوعد، كما وصفهم رسول الله ﷺ، وقد بلاهم، وعلم مداخل فجورهم فقال: «إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، وإذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا» فقال تعالى: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار﴾ وقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن، وقد كذبوا وأخلفوا الله ورسوله ما وعدوه.

ثم بين الله تعالى للمنافقين أن الفرار لا ينجي من قدر الله، وأن قدر الله تعالى واقع لا مفر منه عند حلول أجله في مناسباته، ولو نجاكم أيها المنافقون الفرار من الحتف أو القتل لكانت هذه النجاة مسطّرة في علم الله يجري بها قدره، ولا تعدو أن تكون متعة قليلة جرى بها قلم الغيب، تنقضي فينقضي عمر من عاشها.

وممّا ينسب إلى عليّ رضي الله عنه في هذا المعنى قوله:

أي يــوم مــن المــوت أفــر يــوم لم يُقْــدر أو يــوم قُــدِرْ
يــوم لم يُــقــدرُ لا أرهــبــه ومن المقــدور لا ينجــو الحَــذِر

ثم زجر الله تعالى المنافقين مقرّعاً لهم، فأمر نبيّه محمداً ﷺ أن يبلغهم أن سنة الله تعالى في مجريات أقداره ونفاذ إرادته لا تتخلف، فقال له ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: من ذا الذي يعصمكم - أي يمنعكم من الله - إن أراد بكم سوء من ألوان عذابه وأذاقكم بأسه، أو أراد بكم رحمة، في الدنيا يستدرجكم بها لتزدادوا رجساً على رجسكم، فتكونوا أحقَّاء بإنزال أسوأ العقاب بكم وإحلالكم أشدّ العذاب؟! والاستفهام إنكاري مصحوب بالتقريع، ومعنى الكلام: لا أحد يمنعكم من نزول ما أراد الله بكم إنزاله من بأسه ومقته، ولا أحد يمنعكم ويحول بينكم وبين ما أراد الله بكم من رحمة تصيبكم في الدنيا لتزدادوا بها آثاماً إلى آثامكم وقد عدمتم الولي والناصر الذي يجيركم من عذاب الله، فلا تجدونه لو طلبتموه بكل ما في استطاعتكم من سيء المكر وخبيث التدبير، ثم أخبرهم الله تعالى أن علمه المحيط لا يندّ عنه سوء مقصدكم في تثبيطكم عزائم المؤمنين من أقربائكم عن الخروج مع رسول الله ﷺ لمقاتلة أعدائه وأعداء رسالته من طوائف الأحزاب المهاجمين لهم، وتدعون أقرباءكم إلى أن يكونوا معكم لتباعدوهم عن الجهاد لإعلاء كلمة الله مع رسوله ﷺ، وإذا افتضح نفاقكم لم تخرجوا لتقاتلوا إلا قتالاً قليلاً لتدفعوا به قالة السوء عنكم.

خسة المنافقين في الشح والطمع.

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين في مجال البذل والإنفاق في الحرب، ووصمهم بأنهم ضمُّوا إلى الجبن البخل فقال تعالى: ﴿أشحّة عليكم﴾ في وقت الحرب أضنّاء بما في أيديهم يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، فإذا جاءهم طلب البذل والإنفاق ضاقت أنفاسهم، وعراهم ما يعرو الموتى، ونظروا إلى رسول الله ﷺ بأعين حائرة زائغة كنظر الذي تغشّاه الموت ونزلت به أسبابه وهو يعالج سكراته وشدائده فلا يرى أمامه إلا أشباحاً لا يميزها، فإذا ذهبت الشدّة وانتهت المعركة وحيزت الغنائم هبّ المنافقون في حرص البخلاء الأشحة على المال، وانتقل بهم شحهم من الخور والرعب إلى المطالبة بنصيب من الغنائم في فجور وقح، يطلقون عليكم ألسنتهم بالسوء

والبذاء لتوفروا لهم ما يطلبون من الغنائم، ويدعون زوراً وكذباً أنهم قاتلوا معكم وبمكانهم منكم في القتال غلبتم أعداءكم وغنمتم أموالهم.

ثم أكّد ما جبلوا عليه من البخل والشحّ تأكيداً محا وجودهم من سجل الرجاء في أن يصدر منهم فعل من أفعال الخير، فقال تعالى: ﴿أشحّة على الخير﴾ وتعليق (أشحة) بحرف الاستعلاء (على) دون حرف (الباء) التي تفيد الإلصاق بالخير ولزومه لهم لأنه أريد بالكلام تجريدهم من كل رغبة في الخير، ومعناه أنهم بلغوا من البخل على المؤمنين أنهم يكرهون أن يكون الخير ظلّة يستظلون بها، ولكنهم لشدة كراهيتهم لـه يجعلونه تحت أقـدامهم يستعلون عليه، نافرين منه نفرة تباعد بينهم وبينه، فلا هم يعرفونه ولا هو من خلائقهم وسجاياهم، فهم أشحّة بالخير ولو على أنفسهم، فكانوا بذلك مفارقين بطبيعة وجودهم لأهل الإيمان، لأن الإيمان أصل أصول الخير، لم يسامتهم مسامتة تجعل لهم منه أي نصيب، ولو كان لهم منه ذرة لحبط وهلك وباد كما يبيد الظل إذا واجهته أشعة الشمس، بما يقترفونه من تدسس خبيث ونفاق معرق أصيل فيهم يملأ جوانحهم وعقولهم، ويستولي على مشاعرهم.

ما حلَّ بالمنافقين من الفزع والرعب أزاغ مداركهم بما أفسد تصورهم للواقع أمامهم.

ثم ذكر الله تعالى بعض تعلُّلاتهم الباطلة التي يخدعون بها أنفسهم نتيجة للخوف والرعب والجبن من كل ما امتلأت به قلوبهم واستحوذ على إحساساتهم، حتى إنهم يتوهمون الواقع المشهود غير واقع ولا موجود لشدة ذهـولهم وزيغ أبصـارهم وضلال بصـائرهم وفسـاد عقولهم واضـطراب تفكيرهم.

فالهزيمة النكـراء التي نزلت بأوليائهم من طواغيت الشرك وعبيد الوثنية المتحزِّبين على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم، والتي فرّقت جموعهم ومزّقت تحزّبهم وشتّتت شملهم، وأطلقت أسواقهم للفرار مدبرين لا يلْوُون على شيء - يتوهمونها تحفزاً للكرة وتوثباً للرجعة لمهاجمة المجاهدين، فقال تعالى في تصوير هذا الموقف: ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ مدحورين منهزمين، وهذا حسبان باطل أملاه الهلع الذي أصيبوا به من جرّاء تبدّد آمالهم في أحزاب الكفر وحشود الشرك والطغيان، ولكن الواقع صكَّ عقولهم

وأراهم الحقيقة معاينة، وأن الأحزاب قد انهزموا هزيمة كشفت سوءات غرورهم بقواهم المادية التي ذهبت هباء مع أضاليل الشيطان وأباطيله، والمنافقون يرون في دخائل أنفسهم جبنهم وخورهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم.

فإن رجع الأحزاب ـ وما هم بفاعلين لأنهم أصيبوا بما حلَّ عواصم تحزّبهم ـ تمنّى المنافقون لهول ما حلَّ بهم من الخوف والرعب أن لا يشهدوا مرّة أخرى ما شهدوه من قبل، وودُّوا لو أنهم أتيح لهم مهرب إلى بوادي الأعراب، يتسقّطون أخبار المجاهـدين، ويسألـون عن أنبائهم وتعـرف أحوالهم.

ثم فضحهم الله وكشف سرهم مبيِّناً أنّ هذا السـؤال سؤال نفاق خبيث، يودّون من ورائه أن يسمعوا شيئاً يسرهم وقوعه للمجاهدين، وأنهم لو كانوا موجودين بين صفوف المسلمين لم يتخلّوا عن جبنهم، ولو اضطروا أن يباشروا القتال مع المجاهدين لم يقاتلوا إلا قتالاً ضعيفاً يدارون به نفاقهم، فهو قتال تعلّة ورياء ونفاق يراؤون به المسلمين، وهم يبطنون وراء هذا القتال الضعيف أفجر الكفر والخداع، مما لا يخدع أحداً من المسلمين لأن صدق الإيمان وإخلاصه لا يكون بالمظاهر الكاذبة الخادعة والحركات المنافقة، وإنما يكون بالتأسّي برسول الله ﷺ في صدق جهاده وقوة صبره على لأواء الحياة وشظفها وشدة أزماتها، وتحمّل أشد البلاء في سبيل نشر رسالته لإعلاء كلمة الله ومجاهدة شراذم الكفر وفئات النفاق والغلظة عليهم ليعلموا أن ليس في قلوب المؤمنين هوادة لهم ولا مداراة لمخازيهم، ولن يتحقق هذا التأسّي برسول الله ﷺ إلا لمن صفا قلبه، واستنار بنور الهداية فؤاده، واستوى في الإخلاص للإسلام باطنه وظاهره، وهذا الاستواء في الإخلاص لا يكون إلا بمعرفة حقّ رسول الله ﷺ على كل مؤمن برسالته والإيمان بأنه ﷺ المحفوظ بتوفيق الله وتسديده بوحيه، فلا يخدع بنفاق المنافقين.

وهذا معنى تأكيد التأسي برجاء اليوم الآخر، والإيمان بمجيئه لتوفية كل عامل جزاء عمله، وأمارة ذلك أن يذكر العبد الله ذكراً قلبياً، يغسل

درن النفاق، وذكراً لسانياً يتطابق مع الذكر القلبي ليكون ذلك عنواناً على إخلاص الإيمان وصدق اليقين.

الله تعالى يثني على المؤمنين وهم على أهبة القتال.

ثم أثنى الله تعالى على المؤمنين وهم على أهبة خوض المعركة والدخول في معمعانها ثناء جميلاً، وذلك بإعلان ما وعدهم الله ورسوله، وصدق الله ورسوله في وعدهما لهم بالنصر على حشود الأحزاب وكثرة عددهم وتوافر عُددهم الماديّة وتكالبهم على استئصال المجتمع المسلم، فقال تعالى: ﴿ولمّا رأىٰ المؤمنون الأحزاب﴾ على ما وصفهم رسول الله ﷺ لأصحابه في كثرتهم الماثلة، وضخامة حشودهم، ووفرة عدتهم للهجوم على كتائب المجاهدين، وتعطُّشهم لسفك دمائهم، قال المؤمنون في صدق وإخلاص وطمأنينة وتسليم: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ أي هذا الذي نراه مشاهدة بأعين أبصارنا من حشود الأحزاب وكثرتهم هو الذي وعدنا الله ورسوله ﴿وصدق الله ورسوله﴾ في تبشير المؤمنين المجاهدين بالنصر على هذه الجموع الخاوية قلوبها من الإيمان كما نصرنا ربنا تبارك وتعالى في (بدر) على حشود الفجور من المشركين، ولم تزدهم رؤيتهم لحشود الأحزاب، وكثرة عددهم ووفرة عدّتهم إلا إيماناً بالله ورسوله، وتسليماً لأمرهما، وتصديقاً لوعدهما، وتبشيراً بنصر الله.

ثم ذكر الله تعالى ذكراً خاصاً شأن صفوة من المؤمنين الذين كانوا في ثباتهم قد بلغوا مبلغاً عاينوا فيه صدق موعود الله، وكانوا عاهدوا الله تعالى على الصبر والثبات، فقال جل شأنه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ من الثبات في قتال الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، فأوفوا بما عاهدوا، فمنهم من استشهد ومضى إلى ما أعدّه الله للشهداء من جزيل النعيم، ومنهم من بذل طاقته وجهده، فلم يُبْقِ منها شيء ولكن الله تعالى أبقاهم إلى آجالهم ليكونوا غصصاً في حلاقيم فجّار الكفر وعبيد الوثنية، وهم على ثباتهم وقوة إيمانهم وصدق إخلاصهم، لم يبدِّلوا عهودهم مع الله، ولكنهم ظلوا في قوة إيمانهم وصوارم عزائمهم وصادق إخلاصهم.

ثم ذكر تعالى ما هو كالسبب في اتّصاف الفريقين: خلص المؤمنين،

وشراذم المنافقين بما اتصف به كل منهما فقال: ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾.

قال الزمخشري في تفسيرها: وفيه تعريض بمن بدّلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم ـ بما عاهدوا الله عليه ـ لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما.

ختم الآيات بذكر هزيمة الأحزاب وما كان من عاقبة غدر اليهود.

ثم أجملت الآيات في خواتيمها ما كان من هزيمة الأحزاب، وصرف القتال عن المؤمنين بما وقع من معجزة إرسال الريح العاصفة على حشودهم في منازلهم لا تتعدّاها، وما أرسل معها من جند غيب الله تعالى تأييداً لرسوله ﷺ، فصنعت بهم ما أفزعهم بالرعب وملأ قلوبهم بالخوف، وأطلقوا سيقانهم وركائبهم فراراً من هول ما نزل بهم فقال تعالى: ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ أي لم يصيبوا من المعركة إلا أنهم رُدُّوا على أعقابهم، والغيظ يهرىء قلوبهم ويحرق أكبادهم، تسوقهم الهزيمة بسياطها ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ أي صرف الله عن المؤمنين بما أمدّهم به من معجزة الريح القاصفة ومن جند الغيب القتال وأعفاهم من شدائده، ولم يحمِّلهم آصاره وأعباءه رحمة بهم، ثم جاءت فاصلة الآيات بأجل ما يناسبها من نعوت جلاله وقهره فقال: ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾.

ثم ذكر الله تعالى شيئاً من غدر يهود بني قريظة ووخيم عواقبه عليهم في مظاهرتهم لأهل الشرك من الأحزاب الذين قاموا بتحزيبهم وتحريضهم على قتال رسول الله ﷺ وقتال أصحابه حتى يستأصلوهم، فقال: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾ وكان حيي بن أخطب ـ لعنه الله ـ بعد أن فرغ من تحزيب الأحزاب ذهب إلى أخوة القردة والخنازير، وهم معاهدون للنبي ﷺ فلم يزل حيي برئيسهم كعب بن أسد يروضه على نقض العهد فنقضه وانضم إلى جموع الأحزاب.

والصياصي هي الحصون التي يتحصّن بها الخائفون من هجمات

أعدائهم، وزاد الله تعالى هؤلاء الغدرة بلاء فوق إنزالهم صاغرين أذلّاء من حصونهم فألقى في قلوبهم الرعب، فلم تنفعهم صياصيهم وحصونهم، فاستسلموا راغمين، وكانت أموالهم وأرضهم طعمة لرسول الله ﷺ لم يجر عليها تخميس، ولهذا لما قال عمر رضي الله عنه: ما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال رسول الله ﷺ: «لا، إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس» فقال عمر: رضينا بما صنع الله ورسوله.

وقد راش رسول الله ﷺ من هذه الأموال التي جعلها الله له خالصة المهاجرين خاصة ليستقلوا بأنفسهم ومعاشهم عن إخوانهم الأنصار الذين شاركوهم أموالهم وديارهم، بل آثروهم على أنفسهم.

وأريد بقوله تعالى: ﴿وأرضاً لم تطؤها﴾ تبشير المؤمنين بأن الله تعالى سيتحفهم بنفحات عطاياه ويفتح عليهم بلاداً وممالك لم تطأ أرضها أقدامهم، روي عن عكرمة أن المراد بها كل أرض تفتح على المسلمين إلى يوم القيامة، ثم ختم الله تعالى الآية بما يبعث في النفوس طمأنينة الإيمان بأنّ وعد الله حق وأنه آت لا ريب فيه، فقال: ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾ فيدخل في ذلك فتح ما يفتح من البلاد والممالك إعزازاً لدينه وتعظيمًا لنبيه ﷺ ونشراً لدعوته وتيسيراً لتبليغ رسالته، وتحقيقاً لبشرى أمته بظهور دينها على الدين كله، كما قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

وإنما أطلنا رشاء البحث في تفسير هذه الآيات لأنها جمعت امتنان الله على عباده المؤمنين بنعمة الصبر والنصر في قصة الأحزاب، إلى تعقيب ذلك بذكر أعداء الله وأعداء دينه، وأعداء نبيه ﷺ وأعداء مجتمعه الذين تحزّبوا وتجمعوا من فجاج الأرض لمهاجمة المجاهدين في ديارهم ليعوقوا سير رسالة الإسلام.

وهؤلاء الطوائف الذين كانوا في سابق التاريخ يقفون من الإسلام مواقف العداء قد تركوا ميراثهم في ذلك لربائبهم وتلاميذهم من الملاحدة

وجود النفاق الكفري في طوائف وأمم وشعوب موزعون في الأرض يريدون ليطفؤا نور الله بنفاقهم.

والزنادقة والصليبية المتعصبة والشيوعية الفاجرة، واليهود الغادرين، والمنافقين الذين يظهرون في إطار العلم الاستشراقي، ومن أخذ عنهم من شباب الإسلام الجغرافي.

وكل أولئك داخل فيمن ذكرته الآيات التي جاءت في صدر سورة الأحزاب لمناسبة الحديث عن غزوتها التي كانت في الماضي آخر غزوات الهجوم الكفور على المجتمع المسلم، وقد شمّر وارثو ضلالاتهم في أقطار الأرض ليقفوا من الإسلام اليوم مواقف غابريهم من أهل الكفر والضلال في شتى صوره وأشكاله، والكفر كله ملّة واحدة، وشره النفاق.

وقد فسرنا هذه الآيات تفسيراً قبسناه من سياق القرآن في موضوع الآيات الخاصة بالأحزاب ومن ذكر معهم، ولم نحاول التكثير والتطويل بذكر روايات أصحاب السِّيَر والمغازي والمُحَدِّثين، لأننا قصدنا أن نبرز ما في الآيات من معالم منهج الرسالة الخالدة، والمتأمل في هذه الآيات على ضوء تفسيرنا لها يرى أنها أتت على أحداث غزوة الأحزاب التي كانت ثانية الغزوات الإسلامية في شدة الأزمات ونزول البلاء وزلزلة الأقدام بعد غزوة (أحد).

تنبيه الى ما في هذه الغزوة

من معالم منهج الرسالة

نتائج الأحداث من الدروس التربوية في غزوة الأحزاب ـ الخندق.

وقد تجلّت في غزوة الأحزاب قوة الإيمان وثبات العزائم في مواقف أصحاب رسول الله ﷺ، وتحمّلهم قسوة الحوادث، وصبرهم على شدة الجوع والبرد، ودأبهم على العمل الشاق، وتيقظهم لحركات أعدائهم ومواجهة هذه الحركات بما يوائمها من ثبات الإيمان وإخلاص اليقين، متّخذين من مواقف رسول الله ﷺ أسوة يتأسون بها، حتى كان لهم من كل ذلك دروس عملية في تربية المجتمع المسلم ليتخذها نبراساً في كل جيل من أجياله المتعاقبة، ولتعلم هذه الأجيال القادمة أنّ طلائع الإسلام أقامت شوامخ صروح هذا الدين على دعائم المحن والكفاح المناضل وصرامة العزائم ووزن الدنيا في واقعها بميزانها الحقيقي، فلا يركنون إليها ولا إلى أهلها، لأنها سريعة التقضّي والزوال، ووزن الآخرة بميزانها الإلٓهي في خلودها وثوابها وعقابها، وما أعدّ فيها للصابرين على البلايا في سبيل إعلاء كلمة الله، ليجعلوا من هذا الصبر قوة تقف في وجه الباطل والشر والفساد، فتهون عليهم أنفسهم في سبيل إقامة معالم الحق، ونشر رسالته في آفاق الأرض، إنقاذاً للبشرية من أوضار الشرك ورجس الوثنية، وضلال العقول والأفكار التي تنبت على أرض الإلحاد والتزندق والانحراف بالفطرة الأصيلة عن سننها من الصفاء والنقاء، حتى ترتد بهذا الانحراف على أعقابها لتعيش على مواريث الجاهلية وتراثها المرذول المترسب في حنايا تفكيرها التقليدي الذي لا يقيم وزناً للحق والعدل، ولكنه عاش ويعيش محكوماً بالتعبد للمادة المظلمة الظالمة التي لا يعنيها من الحياة إلا تحقيق رغائب الشهوات مدفوعة إليها ببطون كظيظة،

وأبدان مترهِّلة، وأفكار مهلهلة وعقول مستعبدة.

آيات هذه الغزوة في سورتها جمعت لباب مطالب الحياة من جانبيها في الخير والشر.

وقد أجملت الآيات القرآنية التي فسرناها خلاصة لباب الحياة من جميع جوانبها سلباً وإيجاباً في قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾، فذكرت أهل الإيمان الذين يرون في حياة رسول الله ﷺ غذاء روحياً ومادياً، يجريان بقدر متفاوت في تكييف الحياة فيأخذون من هذا ويقبسون من ذاك ما يقيم بنيان مجتمعهم على أسس متوازنة بين حاجة الروح وحاجة الجسد. وذكرت الذين لا يرجون الله واليوم الآخر من فَجَرة الكفار والمشركين وخبثاء أهل الكتاب الذين نبذوا ما أنزل الله من الحق والهدى وراء أظهرهم واتبعوا الباطل ونصروه، وقالوا للذين كفروا هؤلاء في شركهم ووثنيتهم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله ونصروا دينه، وحملوا لواء رسالته، ليضحكوا منهم ويحملوهم على أن يقفوا معهم في حروبهم الظالمة المظلمة لمهاجمة المجتمع المسلم، ليصدُّوا مسيرة الرسالة حتى لا تصل إلى القلوب والعقول، وهي تحمل لواء الهداية والحق والإخاء المتواسي لتعيش الحياة كلها في أمن وسلام وتراحم.

ذكرت الآيات الكريمة هذا كلَّه صراحة وتضميناً ليكون المجتمع المسلم على ذكر منه حتى لا يخدع عن منهجه لتستقيم له الحياة، وليعلم أن حياة الدعاة إلى الله لا تعرف الترف والتنعم، وإنما هي حياة كفاح ونضال وصبر على شدائد المحن وكوارث البلاء، فلا تهزُّهم أعاصير الأحداث، ولا تخيفهم قوى الأرض وما في أيديها من أسلحة الدمار والفناء.

لأن المؤمن في هذه الحياة متحفِّزٌ للقاء الله تعالى، وليعلم ولاة أمور المسلمين أنهم أحق الناس بالتأسِّي برسول الله ﷺ، وقد حذر الله تعالى الحائدين عن التأسي به ﷺ في قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

جاءت الأحزاب بحشودها تجرر أذيال الغرور والعنجهية، فوجدت رسول الله ﷺ قد فرغ هو وأصحابه تحت وطأة الشدة والبلاء من حفر الخندق، وكان حفره من أعظم وسائل (التطوّر) في الدفاع الحربي في قتال

غير متكافىء القوى الماديّة بين الفريقين، فلما نظر إليه فرسان الأحزاب دهشوا وذهلوا، وقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيّمموا مكاناً ضيّقاً من الخندق، وأكرهوا خيولهم على اقتحامه فاقتحمت بهم فأجالوها فيه، فخرج إليهم عليّ بن أبي طالب في نفر من أبطال المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيولهم، وأقبلت الفرسان تُعْنق نحوهم.

الاستهانة بصغائر الأمور يفتح أبواب عظائمها من العواقب الوخيمة.

وهنا ننبه على العواقب الوخيمة التي تخلّفها الغفلة أو الاستهانة بصغائر الأمور فيما يجب فيه الاحتياط، وليس في مواقف الحياة موقف يتأكّد فيه الاحتياط مثل مواقف الحروب ومواقفة الأعداء.

وهذه الثغرة ـ كما يقول ابن سعد في طبقاته ـ أغفلها المسلمون، فلم يحكموا أمرها كما أحكموا سائر مواضع الخندق، فكانت مقحماً لخيول الأعداء، ولو أحكموها وتيقّظوا لها ما كان هناك منفذ للاقتحام، وهذا الإهمال أو الغفلة مما يأباه منهج الرسالة هذا المنهج الذي يوجب على كل مسلم أن يكون حذراً متيقظاً في عمله غير مستهين بصغائر الأمور ولا نؤوم عن كبارها، فإن معظم النار من مستصغر الشرر.

محاورة بين فارس الإسلام علي رضي الله عنه، وبين أفرس فرسان الجاهلية تنتهي بقتل عمرو بن عبدود العامري.

وهنا تنادى عمرو بن عبد ودّ العامري ـ وكان من أفجر جموع الأحزاب وفرسانهم الذين اقتحموا الخندق، وهو أحد شجعان العرب المشهورين الذين ضرّستهم الحروب بتجاربها ـ من يبارز؟ فقام بطل الإسلام وفارس ميادينه عليّ بن أبي طالب، فقال: أنا يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «اجلس إنه عمرو» فقال عمرو: ألا رجل يبرز؟ وجعل يؤنب المسلمين، ويقول أين جَنّتكم التي زعمتم أن من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إلي رجلاً، فقام علي رضي الله عنه، فقال: أنا له يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «اجلس» ثم نادى عمرو الثالثة بشعر يعيِّر به المسلمين، ويرميهم بالجبن، فقام عليّ فقال: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «إنه عمرو» فقال عليّ وإن كان عمْراً! فأذن له النبي ﷺ ودعا له وعمّمه، وأعطاه سيفه، فمشى إليه عليّ وهو مقنّع بالحديد، فقال عمرو: مَنْ أنت؟ قال علي: أنا

عليّ، فقال له عمرو: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال عمرو: يا ابن أخي مِنْ أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك، فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك.

وفي عيون الأثر لليعمري عن ابن إسحق أن علياً رضي الله عنه قال لعمرو: إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلّتين إلا أخذتها منه، فقال له عمرو: أجل، فقال له عليّ: فإني أدعوك إلى الله ورسوله ﷺ وإلى الإسلام، فقال عمرو: لا حاجة لي بذلك، فقال علي: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له عمرو: يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي رضي الله عنه، لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ فتنازلا وتجاولا فقتله علي، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

وفي رواية أن علياً لما دعا عَمْراً إلى الإسلام دعاه إليه أو الرجوع عن الحرب، فأبى عمرو إلا البراز وضحك وقال: ما كنت أظن أحداً يرومني هذه الخصلة، ولمّا أغضبه عليّ بقوله: والله إني لا أكره أن أهريق دمك نزل عن فرسه وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل على عليّ رضي الله عنه مغضباً فاستقبله عليّ بدرقته، وثارت بينهما عجاجة وغبرة، وضرب عمرو علياً فاتقى علي ضربته بدرقته فانقدّت وأثبت فيها السيف، وضربه علي رضي الله عنه فوق عاتقه فقتله، ثم أقبل على النبي ﷺ متهلّلاً، فقال له عمر بن الخطاب هلاّ سلبته درعه فليس في العرب درع خيراً منها؟ فقال عليّ: إني حين ضربته استقبلني بسوأته فاستحييت.

وقصة مبارزة عليّ رضي الله عنه عمرو بن عبد ودّ العامري قصة من روائع البطولة الإسلامية لأنها تمثل الشجاعة البطولية في نموذجيها.

موازنة بين شجاعة متثبتة بعواصم الإيمان وأخرى متهورة فاجرة.

النموذج الأول ـ الشجاعة البطولية المتثبتة بثوابت الإيمان، المستعصمة بعواصمه، وهي شجاعة تعتمد على روح الفدائية المحفوفة بالرجاء في فضل الله، وإمداده بقوة روحية إيمانية تتضاءل أمامها أضخم القوى المادية الجاهلية

التي تتجلى مظاهرها في صراع عضلي وسلاح مشحوذ.

النموذج الثاني ـ شجاعة بطولية متهوِّرة حمقاء، لا تستند إلى مدد داخلي سوى الغرور المسعور والشهرة الطنانة، والسوابق المتوازية مع أقرانها في اندفاع أهوج، لا يقدِّر العواقب قدرها وصراع أحمق معتوه، يتفزز في توثب طائش.

والنموذج الأول كان يمثله في هذه القصة موقف علي رضي الله عنه، فإنه لم يكد يسمع نداء عمرو: هل من مبارز؟ حتى نهض يعرض نفسه على رسول الله ﷺ أن يكون هو المبارز لهذا البطل المغرور بقوته وسوابقه في ميادين المعارك الجاهلية التي لا ترتكز إلا على عضل مفتول وساعد مجدول.

وكان يمثل هذا النموذج عمرو بن عبد ودّ العامري بصلفه وحمقه وجاهليته، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه متحفزاً لمنازلة هذا الطاغية الذي تحدّى كتائب المسلمين أن يخرجوا إليه رجلاً منهم لمبارزته، فكان عليّ كلما سمع صرخته يطلب المبارزة ينهض ليأذن له رسول الله ﷺ في مبارزته، ويقول: أنا له يا رسول الله فيستجلسه رسول الله ﷺ.

حكمة تأني رسول الله ﷺ بالإذن لعليّ في مبارزة عمرو ابن عبد ود.

ولعل الحكمة في ذلك كانت هي التفاوت الكبير بينهما في السن وطرائق الحياة وتجارب الحروب، فقد كان عليّ رضي الله عنه إذ ذاك في مَيْعة الشبوبية الصاعدة التي استحوذ عليها الإسلام بعقيدته وشرائعه وآدابه، فشغلها به منذ إنشائها بين أحضانه في تربية إنسانية جادّة صارمة لاتعرف الفراغ العابث ولا العبث الفارغ الذي تستغرقه الفتوّة المتصعلكة في أسواق الجاهلية ومحافلها وحروبها للسلب والنهب وسفك الدماء والتباهي بالقوة العضلية ومصارعة الفتيان، استجابة لموروث التراث الجاهلي الذي لا يشغله في حياة الناس شيء، ولا يشغل من حياة الناس شيئاً.

ولكن حياة عليّ رضي الله عنه الإسلامية الخالصة المخلصة لم تكن تسمح له في تقاربها من الرجولية المكتملة بجولات المصارعات الجاهلية التي اتخذها الفارغون من أضراب عمرو بن عبد ودّ العامري ديدنهم لترضّي

صلفهم وغرورهم وبطرهم واستكبارهم في الأرض.

وظل بطل الإسلام عليّ رضي الله عنه مستوفزاً متحفزاً وهو يسمع صرخات عمرو الداعية إلى المبارزة وقد خلطها بتأنيب المسلمين وتعييرهم بالجبن، وعندئذ وقف عليّ وهو يقول: أنا له يا رسول الله، فيقول رسول الله ﷺ: «اجلس، إنه عمرو».

ولم يقصد رسول الله ﷺ - فيما يظهر لنا - إخافة علي وإرعابه، وهو ﷺ أعرف الناس به وبشجاعته وبطولته، وقوة بأسه، لأنه ربيبه وراضع ثدي نبوته وبطل أبطال دعوته وحامي حمى رسالته، ومجندل صناديد المشركين في (بدر)، وإنما قصد ﷺ إثارة حمية البطولة ونخوتها في نفس علي رضي الله عنه، لينازل قرنه وهو يرى آمال رسول الله ﷺ متعلقة به فيستحضر أقصى غايات بأسه وشجاعته.

ومن ثَمّ أجاب رسول الله ﷺ بكل ما في نفسه من ثقة وقوة بأس، ليزيد من طمأنة رسول الله ﷺ في تحقيق آماله من هذه المبارزة الفريدة فقال: وإن يكن عَمْراً.

ويأذن له النبي ﷺ، ويدعو له ويعمّمه ويعطيه سيفه، ويمشي بطل الإسلام عليّ رضي الله عنه إلى قرنه بطل الجاهلية مقنّعاً بالحديد، فيحاوره محاورة يُحفظه بها ويستثير غيظه وغضبه استثارة يغلي منها دماغه، وينزل عن فرسه مُحْنقاً ويسل سيفه من غمده كأنه شعلة نار، ويتجاولان، ويضرب عمرو علياً ضربة يتّقيها عليّ بدرقته، فيقدّها سيف عمرو ويثبت فيها، ويضربه عليّ على عاتقه فيصرعه، ويعلن التكبير، ثم يقبل على رسول الله ﷺ متهللاً، ويُشرق وجه رسول الله ﷺ، ويحمد الله تعالى بما يليق بجلاله.

وفي هذه القصة من معالم منهج الرسالة الخالدة ما يجب أن يتعلمه شباب الإسلام، في معاهده ومدارسه ليستخلصوا من وقائعها وأحداثها ما فيها من آيات بطوليّة باهرة، لا تتقيد بما عُرف في الزمن الغابر، ولكنها تتكيف على حسب زمانها وأطوار الحياة.

قتل نوفل بن عبدالله المخزومي بعد أن اقتحم الخندق ورفض النبي ﷺ أخذ مال لتسليم جيفته لقومه.

ثم برز من فرسان الأحزاب نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي، فاقتحم إلى الخندق فضربه الزبير بسيفه ضربة شقّه بها نصفين، وقطع سرجه حتى خلص السيف إلى كاهل الفرس، فقيل للزبير: ما رأينا مثل سيفك، فقال الزبير: ما هو السيف ولكنه الساعد.

وعند ابن جرير الطبري أن نوفلاً لمّا تورط في الخندق رماه الناس بالحجارة فجعل يقول: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب، فنزل إليه عليّ فقتله.

وحكى الزرقاني عن ابن عائذ أن نوفل بن عبدالله وقع في الخندق فاندقت عنقه، وقتله الله، فعظم ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا نعطيكم ديته على أن تتركوه لندفنه، وعن الزهري أعطوا في جسده عشرة آلاف درهم على أن يُدفع إليهم فيدفنوه، فردّ عليهم النبي ﷺ بقوله: «إنه خبيث خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أرب لنا في ديته».

وفي هذه الغزوة رمى حِبّان بن العرقة ـ وهي أمه ـ سعد بن معاذ بسهم أصابه في أكحله، فكانت في هذه الرمية شهادته بعد قضائه في بني قريظة، لأن سعداً دعا الله تعالى بعد أن أصابه حِبَّان بسهمه فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحبّ إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

وقد استجاب الله تعالى لعبده الصالح سعد بن معاذ سيد الأوس، فلم تقم لقريش حرب بعدها، وما مات حتى أقر الله عينه في بني قريظة، ووضع في يده الحكم عليهم، فقضى فيهم بقضاء الله تعالى.

أقام النبي ﷺ وأصحابه مرابطين على الخندق والمشركون في حشودهم المتحزبة يحاصرونهم حصاراً شديداً، ولم يكن بين الفريقين قتال إلا المراماة بالنبل، لكن الأعداء كانوا لا يدعون الطلائع يرسلونها بالليل طمعاً في مفاجأة المسلمين وأخذهم على غرّة.

حادثة سياسية في مقصدها لكسر شوكة الأحزاب وتفريق تجمعاتهم.

بيد أن رسول الله ﷺ رأى ازدياد الحصار على أصحابه إلى جانب ما هم فيه من شدّة البلاء وتعاظم المحنة، فأراد ﷺ أن يصنع شيئاً يكسر به شوكة الأعداء في تكالبهم ليفرق جموعهم، ويشتت تحزبهم، فبعث إلى الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري - وكانا زعيمي أكبر كتائب الأحزاب بعد قريش وأحابيشها - ليطمعهما في غنيمة سهلة يأخذانها ويرجعان بمن معهما من قومهما ومن تبعهما من غيرهم عن الحرب، فراوضهما ﷺ مراوضة مطمعة على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، فانتفخت أوداجهما، وربما سحرهما فرحاً بهذا العرض الذي أطفأ حرارة عزيمتيهما على الحرب، وأصابهما بالتخاذل عن تحزّبهما للحرب وخوض نيرانها، وأظهرا الرضا والفرح بذلك، وكتب بذلك الكتاب ولم يشهد عليه ولم يوقع عليه، وبعث ﷺ إلى السعدين: سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فذكر لهما ذلك يستشيرهما فيه، فقالا: يا رسول الله أهذا أمر تحبه فنصنعه لك، أم هو شيء أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به؟ أم هو شيء تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: «بل هو شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما».

نفحات الإيمان تشحذ العزائم.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلّا قرىً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنت وذاك» فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.

هذه قصة تمثل واقعة من وقائع أحداث غزوة الخندق، وهي نموذج من نماذج السياسة الحكيمة المحكمة التي أدار رسول الله ﷺ بها الموقف، وقد بلغ ذروة المحنة، وقد أراد ﷺ بهذه السياسة أن يبرز جانباً من جوانب منهج رسالته في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزماتها لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربوياً من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء.

حكمة هذه السياسة الحكيمة التي أنقذ بها رسول الله ﷺ موقف المجاهدين. وآراء العلماء في معنى (الحرب خدعة).

لم يكن يخفى على رسول الله ﷺ أن هؤلاء الأحـزاب الذين جمعتهم المطامع المادية، والحرص المسعور، والحقد الأسود الذي أحرق أكباد من جمعوهم من أشرار اليهود وأخبث خبثائهم، والذي ملأ قلوب بقايا الغثاء من فلّال قريش غيظاً محنقاً على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة والمؤاخاة الإيمانية والتكافلية بين المهاجرين والأنصار، مما جعل هذا المجتمع قوة يخشى بأسها ـ أن هذه الجموع التي لم يكن لها هدف موحد في تجمعها وتحزّبها، ولم يكن بينها وصائل تربطها في مواقفتها لكتائب المجتمع المسلم في حرب ضارية شرسة إذا أعطت أخذت، وإذا أخذت فلا عوض لما تأخذ ـ سبيلها في كسر شوكتها وتفريق تجمعها هو سبيلها في تحزبها، وهي قد تحزبت لتغنم وتنهب وتسلب، فإذا جاءت الغنيمة ربحاً بغير تجارة، وكسباً بغير عمل، وأخذاً بغير بذل، كان ذلك هو مطلبها الأقصى في مقاصد زعماء من تحزّبوا ومجيئهم ليشترك أقوامهم في حرب ضروس تطحن قلوب المجازفين بأنفسهم تحت رحاها ليغنم غيرهم ويبوؤا هم بالخسران المبين.

فإذا جاءت الغنيمة سهلة لبعض هؤلاء المتحزّبين وأهمل الآخرون، فلم يحصلوا على شيء، بل لم يعرض شيء إظهاراً للاستهانة بهم وتحقيرهم وإذلالهم وإضعاف قوتهم مشى الحقد والحسد والشكوك إلى قلوب المحرومين المنبوذين الذين أهملوا فلم يُعَّدوا في العير ولا في النفير، وتنابز الحاقدون مع الذين دُعوا إلى لا شيء، ولكن عبث بهم في خداع حربي، والحرب خدعة، يجب على سُوّاسها أن يكونوا في يقظتهم على أكمل العلم بما يضعف قوة العدو من مسالك السياسة الحكيمة.

قال الزرقاني: وأصل الخـداع إبطان أمـر وإظهار خـلافه، وفيـه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وإن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه.

وقال النووي: اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلاّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ويقع الخداع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك، وفي الحديث الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة ولذا اقتصر على ما يشير إليه بهذا الحديث.

وقال ابن المنير: معنى الحرب خدعة أن الحرب الجيّدة لصاحبها الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة، لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر.

وإذا استولى الحقد والحسد والشكوك على النفوس أذابتها، ومزّقت أوصالها فلم تعد تصلح لتجمّع يستهدف شيئاً من توافه الأمور في الحياة، بَلْه حرب ضارية اتخذت لها كل أهبة إلا أهبة الصدق في الولاء والإخلاص بين المتحزّبين، إخلاصاً يوحد بينهم وحدة لا تعرفها خدع الحروب.

وفي اتخاذ الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري وصاحبه الحارث ابن عوف المُريّ حجر الزاوية لهذه السياسة الحكيمة نموذج لما خُص به رسول الله ﷺ من العلم بأسرار النفوس الإنسانية وتطلُّعاتها المختلفة التي تستهويها الخدع الحربية والوعود المادية، فتخلع عليها جلابيب زعامة المتحزبين، وتريهم أنهم هم المقدّمون في مصائر الأمور.

وعيينة وصاحبه الحارث لم يكونا في واقعهما من ذيّاك الطراز الذي تُعصب به الأمور وتعقد عليه العقد والعهود، ولكنهما كانا طعمة لصيد حذر إن جرى الحديث مع غيرهما كأبي سفيان بن حرب، فإنه كان في دهيه ومعرفته لمواقع المكايد أثقل من أن يستخف فيخدع، وكانت له في المجتمع المسلم تِرات وأحداث أدمت قلوب قريش وهو زعيمها وصاحب كلمتها وقائدها في حروبها بعد (بدر)، فليس من السهل بيعها في سوق النسيان أو التناسي بشيء من متاع زائل لا يغسل بمائه دماء قريش في (بدر).

بيد أنّ الأحمق المطاع وصاحبه لم يكن لهما في سوابق الأحداث وجود، فهما أسرع إلى الاستجابة إلى حل عقدة التحزب لينفرط عقد التحزب بين الأحزاب، ولم يكونا يستهدفان من انتظامهما في سلك الأحزاب إلّا الحصول على كسب رخيص، فاتُخذا مطية ذلولاً لطبيعتهما وطبيعة موقفهما.

اختيار عيينة وصاحبه الحارث المري كان لوناً من السياسة القيادية لفصم عرى الروابط بين جموع الأحزاب.

وقد كان المقصود الحقيقي من الحديث معهما في هذا الإطار، واختيارهما له هو إحداث تخلخل في عواصم التحزب وتمزق في روابط التجمع، وإحلال الشك في هذه العواصم والروابط لتنفصم عراها وتتبدد وصائلها وتتبعثر حشودها الظالمة.

ولم يقصد النبي ﷺ أن يجعل من هذا الحديث والمراوضة مع عيينة والحارث حقيقة مصالحة تجري بينه ﷺ وبينهما، وإنما أراد ﷺ - فيما يظهر لنا - هذا المعنى الذي أبرزناه ليكون مبعث شك في روابط التحزب التي تربط هذه الحشود المتكالبة على حرب المجتمع المسلم.

وأما بالنسبة لكتائب الجهاد من المجتمع المسلم فقد أراد ﷺ - فيما يظهر لنا أيضاً - إثارة النخوة الإيمانية فيهم، وشحذ وتجديد قواهم، وتمحيص يقينهم وتثبيتهم على الجادة أمام نوازل البلاء والمحن، وكشف حقيقة أعدائهم، وأنهم لم يكونوا في تجمعهم وتحزّبهم يستهدفون غاية يقاتلون لتحقيقها، وإنما جاؤوا ليشتروا الدنيا بالآخرة والكفر بالإيمان.

وقد يكون في قول النبي ﷺ وهو يرّد على سعد بن معاذ في مشاورته «بل هو شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلاّ أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» ما يشير إلى أنه ﷺ أراد أن يتخذ في الموقف بعد أن تعقّدت فواصله نوعاً من السياسة التي تمزِّق شمل المتحزبين، وتفرِّق جموعهم، وتشتِّت كلمتهم، فيخفف تكالبهم على المجتمع المسلم، وتضعف قوة تجمعهم دون أن يجعل لهم سبيلاً إلى مدينته وثمارها أو التحكم في أمر من أمورها.

وفي موقف الصحابة رضي الله عنهم في مشاورتهم وإفصاحهم لرسول الله ﷺ عن قوة عزيمتهم يظهر صدق إيمانهم ورسوخ يقينهم، وثبات أقدامهم، لأنهم سألوا رسول الله ﷺ إن كان ما يعرضه عليهم للمشاورة أمراً من عند الله، فهم مسلمون لأمر الله، لا يخالفونه، وإن كان ما يعرضه عليهم أمراً يحبه ﷺ فيصنعونه محبة فيما يحبه ويرضيه، وإن كان ما يعرضه

عليهم أمراً يريد به ﷺ الرحمة بهم والشفقة عليهم لما يراه قد حل بهم من شديد البلاء وعظيم المحن، فإننا لا نرضى لأنفسنا بتقبله والرضا به، وثارت نخوتهم الإيمانية، ورأى ﷺ قوة عزائمهم، وقال لسعد بن معاذ وهو متكلم القوم: «فأنت وذاك»، وأسرع سعد إذ رأى الرضا في وجه رسول الله ﷺ إلى الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، وقال كلمته المعبرة عن صادق إيمانهم وصوارم عزائمهم: (فليجهدوا علينا، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم) وأقر الله عين رسول الله ﷺ بصدق إيمان أصحابه وقوة عزائمهم.

قِصَّة نُعَيم بن مَسْعُود

وتخذيله الأحزاب عن موافقة المسلمين

أقام رسول الله ﷺ والمسلمون محاصرون يظلِّلهم الصبر على شدائد الموقف ولأواء المحنة وأزماتها دون اشتباك في قتال بين الفريقين، كما طال الحصار على جموع الأحزاب، واستولى عليهم الملل وأضجرهم الموقف، ولم يكن لديهم من الصبر ما يعينهم على تحمل شدائد الموقف، فتهيأ بعض فرسانهم وتلبّسوا للقتال، واستحكم بالناس الخوف، واستشرى بهم الرعب واشتدت الأزمات، وبقي الحصار بضع عشرة ليلة في قول الأكثر، وذكر صاحب العيون أن الحصار بقي بضعاً وعشرين ليلة، قريباً من شهر، وجزم ابن القيم بأنه بقي شهراً.

رأي ونظر في رواية لتأويلها ـ إذا صحَّت ـ تأويلاً يضعها في إطار السياسة المحكمة.

في غمرة هذه الشدائد التي أخذت بخناق المحاصَرين والمحاصِرين جاء نُعَيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، وكان نعيم رجلاً نموماً ـ كما ذكره ابن حجر عن ابن إسحق من حديث عائشة ـ قال ابن إسحق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، عن عائشة أن نعيماً كان رجلاً نموماً ـ أي ينمُّ الحديث وينقله ـ قال الزرقاني: وكان نعيم رجلاً نموماً ـ وأن النبي ﷺ قال له: «إن اليهود بعثت إليّ: إن كان يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رُهُناً ندفعهم إليك فتقتلهم فعلنا» فرجع نعيم مسرعاً إلى قومه فأخبرهم، فقالوا: والله ما كذب محمد عليهم، وإنهم لأهل غدر، وكذلك قال نعيم لقريش فكان ذلك سبباً في خذلانهم ورحيلهم.

هذه الرواية ـ إن صحت ـ فهي من قبيل السياسة الحربية التي يكون

فيها الرأي أنفع من الشجاعة والمواجهة، وتدخل تحت معنى حديث (الحرب خدعة).

وكان النبي ﷺ يتطلّع إلى كشف الكرب عن أصحابه، فلما جاءه نعيم وكان يعلم من حاله قبل الإسلام أن صدره يضيق بحديث سمعه دون أن يفشيه ويتحدث به، فذكر له النبي ﷺ ما ذُكر عن اليهود بأسلوب التعريض والتورية، فأخذ نعيم ما ألقى إليه رسول الله ﷺ من الحديث، فنقله إلى بعض زعماء غطفان وقريش، وبدأ الفشل يسري بين حشود الأحزاب فافترقت كلمتهم وانفرط عقدهم.

ولابن إسحاق رواية أخرى في قصة نعيم بن مسعود أجمع لتفصيل الوقائع، وهي أشهر من الرواية المتقدمة، وأقعد أسلوباً ومسلكاً، قال ابن إسحق: إن نعيماً أتى النبي ﷺ فقال له: إني أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال النبي ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة».

خطة ماكرة يضعها عقل دهيّ مجرب فتصيب من الأحزاب مقاتلهم.

فخرج نُعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً فقال: قد عرفتم ودّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتّهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تحوّلوا منه إلى غيره، وإنهم قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبينه ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوه معهم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم أتى نُعيم قريشاً، فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر رأيت حقاً عليّ أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموه عني، قالوا: نفعل، فقال لهم: إن يهود ندموا على ما صنعوا وأرسلوا إلى محمد: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، أيرضيك أن تأخذ من أشراف قريش

وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: (نعم).

قال نُعيم يتابع حديثه مع قريش وغطفان: فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُناً فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، ثم أتى نعيم غطفان، فقال. إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليّ ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فقال لهم مثل ما قال لقريش.

قال ابن إسحاق: وكان من صنع الله لرسوله أن أبا سفيان ورؤوس غطفان أرسلوا إلى بني قريظة عكرمة في نفر من القبيلين، فقالوا: لسنا بدار مقام، وقد هلك الخفُّ والحافر، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت لا نعمل فيه شيئاً، وكان قد أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بمقاتلين معكم حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا به، فقالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدّثكم نُعيم به لحق، فأرسلوا إليهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت قريظة، إن الذي ذكر لكم نعيم لحق فأرسلوا إليهم: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً، فأبوا عليهم، وخذّل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليال شديدة البرد، فأكفأت قدورهم، وطرحت أبنيتهم.

بحث وتحقيق
في روايات قصة نعيم بن مسعود

قصة نعيم بن مسعود الأشجعي في غزوة الأحزاب، وتخذيله لهم عن مواقفة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ قصة مستفيضة، مشهورة متعالمة، وقع على روايتها إجماع أهل المغازي والسّير وذكرها كثير من المحدِّثين.

قال ابن حجر في الفتح: وذكر أهل المغازي أن نُعيم بن مسعود

اختلاف الروايات في قصة نعيم ابن مسعود.

الأشجعي ألقى بين الأحزاب الفتنة فاختلفوا، وذلك بأمر النبي ﷺ له بذلك.

وقد قدمنا أن ابن إسحق ذكر فيها روايتين، أولاهما من طريق يزيد ابن رومان عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، جاء فيها أن النبي ﷺ قال لنعيم - وهو رجل نموم: «إن يهود بعثوا إليّ: إن كان يرضيك أن نأخذ لك رُهُناً من أشراف القوم تقتلهم فعلنا» فذهب نعيم بهذا إلى قومه غطفان، وإلى قريش، فحدّثهم بما عنده، فكان ذلك سبب فرقتهم وخذلانهم ورحيلهم.

نقد رواية ذكرها ابن حجر في الفتح ووجوب تأويلها إذا صحّت.

وهذه الرواية ذكرها ابن حجر في الفتح، وهي بأسلوبها التي رُويت به لا يمكن أن تقبل لتدخل تحت معنى حديث (الحرب خدعة) لأن العلماء كما قدمنا استثنوا من عموم ذلك أموراً لا يجوز أن يشملها المقصود من الحديث، وذلك بأن يكون الخداع فيه نقض عهد أو أمان، وهذا من قبيل التمثيل والشاهد.

وصريح الكذب أوجب أن يُستثنى من الجواز، لأنه مما اتفق عليه العلماء سلفاً وخلفاً أن الأنبياء معصومون عن الكذب لا يقع منهم قط.

ولهذا قلنا بأن هذه الرواية - إن صحّت - وجب أن تكون إنما جاءت بأسلوب المعاريض والتورية، فتصرّف فيها الرواة بما يفهم منه أن رسول الله ﷺ قال ذلك بالأسلوب الذي أبعده عن التعريض توهماً منهم أنه داخل في معنى (الحرب خدعة).

ويدل على تصرُّف الرواة - إن صحّت الرواية، وأن النبي ﷺ لم يقل ذلك مبتدأ به نعيم - مجيء هذا الكلام نفسه في الرواية الثانية من روايتي ابن إسحق، وهي الرواية المشهورة المستفيضة بين أهل العلم، على لسان نعيم في حديثه مع أبي سفيان بن حرب إذ قال له: إن يهود ندموا على ما صنعوا وأرسلوا إلى محمد: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، أيرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ: «نعم».

وقد نقد ابن كثير هذه الرواية، فقال: وهذا الذي ذكره ابن إسحق ـ أي في الرواية الثانية الآتية ـ أحسن مما ذكره موسى بن عقبة ـ أي وهو رواية عن ابن إسحق أيضاً ـ وقد أورده عنه البيهقي في الدلائل، فإنه ذكر ما حاصله أن نعيم بن مسعود كان يذيع ما يسمعه من الحديث، فاتفق أنه مرّ برسول الله ﷺ ذات يوم عشاء، فأشار إليه أن تعال، فجاء، فقال: «ما وراءك» فقال: إنه قد بعثت قريش وغطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم أن يخرجوا إليهم فيناجزوك، فقالت قريظة: نعم فأرسلوا إلينا بالرهن.

قال ابن كثير: وقد ذكرنا فيما تقدم: أنهم إنما نقضوا العهد على يدي حيي بن أخطب بشرط أن يأتيهم برهائن تكون عندهم توثقة.

قال ابن كثير: قال البيهقي: فقال له رسول الله ﷺ: «إني مُسِرٌّ إليك شيئاً فلا تذكره»، قال البيهقي ـ فقال له أي النبي ﷺ في زعم هذه الرواية ـ «إنهم قد أرسلوا إليّ يدعونني إلى الصلح، وأردّ بني النضير إلى دورهم وأموالهم»، فخرج نعيم بن مسعود عامداً إلى غطفان، وقال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة وعسى أن يُصنع لنا» فأتى نعيم غطفان وقريشاً فأعلمهم، فبادر القوم وأرسلوا إلى بني قريظة عكرمة وجماعة معه، واتفق ذلك ليلة السبت، يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال معهم، فاعتلّت إليهم بالسبت، ثم أيضاً طلبوا الرهن توثقة، فأوقع الله بينهم، واختلفوا.

جمجمة ابن كثير في نقده لهذه الرواية وهي من مغازي موسى ابن عقبة وهو أوثق من ابن إسحاق.

قال ابن كثير: قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة.

ولم يكن ابن كثير في نقده لرواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي عنه في دلائله صريحاً، ولم يبيِّن الجهة التي كانت بها رواية ابن إسحق المطولّة المفصّلة أحسن من رواية موسى بن عقبة، وهي أيضاً رواية ذكرها ابن إسحاق.

ومغازي موسى بن عقبة أوثق عند أئمة هذا الشأن من سيرة ابن إسحاق ومغازيه فيها.

واكتفى ابن كثير بسوقه الرواية على ما فيها مما لا ينبغي أن يسند إلى رسول الله ﷺ من صريح الكذب إدخالاً له تحت قوله ﷺ: «الحرب خدعة»، وأنه قال لنعيم بن مسعود: «إني مُسِرٌّ إليك شيئاً فلا تذكره، إنهم - أي بني قريظة - أرسلوا إليّ يدعونني إلى الصلح وأرد بني النضير إلى دورهم وأموالهم».

وقد عقّب ابن كثير على رواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي بما يشعر بعدم اطمئنانه إلى قبول هذه الرواية بما جاء فيها من نسبة الكذب إلى رسول الله ﷺ، وهو معصوم عنه بإجماع العلماء من السلف والخلف إلا شراذم لا يعتدُّ بخلافهم.

فقال في تعقيبه: قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة.

وهذا الاحتمال واضح جداً في إرادة ابن كثير صرف الرواية عن ظاهرها لتبرأ مما نسبته إلى النبي ﷺ مما لا يليق بعصمته في نبوته.

أما الرواية الثانية من روايتي ابن إسحق وهي المشهورة بين أهل العلم وأصحاب السير والمغازي والمعتمدة عندهم، وقد ساقها ابن سعد في طبقاته مختصرة بتصرف غير مُخلٍ، وليس فيها عنده ذكر أن اليهود بعثوا للنبي ﷺ بأنهم ندموا على نقض عهده، ولا أن ذلك كان من نعيم في حديثه مع أبي سفيان بن حرب، وعدم ذكر ذلك أقرب إلى سياق القصة وجوِّها، وأنسب بترك حرية التصرف في الموقف إلى نعيم بن مسعود يزنه بميزان ما يحتف به من أحوال، وهو صاحبه الذي عرض على النبي ﷺ أن يقوم فيه بما يستطيع تحقيقاً لقول النبي ﷺ حينما عرض عليه نفسه: «إنما أنت رجل واحد فينا، فخذّل عنا ما استطعت».

ومن ثَمّ رأينا أن سياق ابن سعد للقصة موجزة خالية من التفاصيل التي تختلف فيها الروايات أقعد وأحكم.

رواية ابن سعد أقرب إلى القبول لخلوها مما يوقع في الشبهات.

قال ابن سعد: وكان نعيم بن مسعود الأشجعي قد أسلم فحسن إسلامه، فمشى بين قريش وقريظة وغطفان، وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء كلاماً، وهؤلاء عن هؤلاء كلاماً، يرى كل حزب منهم أنه ينصح له، فقبلوا قوله، وخذّلهم عن رسول الله ﷺ، واستوحش كل حزب من صاحبه وطلبت قريظة من قريش الرهن حتى يخرجوا فيقاتلوا معهم، فأبت ذلك قريش واتهموهم، واعتلّت قريظة بالسبت، وقالوا لا نقاتل فيه، لأن قوماً منّا عدَوا في السبت فمُسخوا قردة وخنازير، فقال أبو سفيان: ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير؟ وبعث الله الريح ليلة السبت ففعلت بالمشركين وتركت، لا تقر لهم بناء ولا قدراً.

مثل وشواهد من منهج الرسالة في قصة نعيم بن مسعود

وفي قصة نعيم يوم الأحزاب مُثُلٌ وشواهد من منهج الرسالة الخالدة جعلت منها إطاراً لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم إذا تفاقمت به الأزمات، واستحكمت الشدائد، وأحاطت به الكوارث، وقاسيات البلايا والمحن، واكتنفته المآزق، وتملكه الرعب والجزع، واستولى عليه الخوف والهلع، واستحوذ عليه الاضطراب والفزع، وسُدَّت في وجهه أبواب المخارج من المضايق.

وجعلت منه إطاراً لما كشفت عنه الأحداث من محكم السياسة التي تصرفت في دائرتها قيادة هذا المجتمع من حسن التدبير، وأحكام الرأي في كيد الأعداء الذي أُخرج في إبّانه بعد أن توافرت دواعيه.

وأول ذلك أن تلجأ القيادة الحكيمة إلى الرأي الرصين الحكيم تستثيره وتوقظه ليتحرك في اتجاه النظر في بؤره المجمعة لقوة الأعداء، ومصادرها وعناصر تركيبها حتى تتعرف إلى ما فيها من شروخ يسترها النفاق والدعاوي الكاذبة، فتعمد إلى كشفها وتسليط سياسة تمزيق الروابط بين عناصر تلك القوة التركيبية حتى تتفكك وسائل الترابط الزائف بين تلك القوة المتورمة في حشود العدو.

وجوب إعداد قوّة مخابرات تعمل بمهارة جريئة متثبتة.

ويسبق ذلك إعداد العناصر القوّامة بما يطلب منها في شأن تفريق كلمة العدو لتؤدي واجبها دون أن يتنبه لها العدو، مما يوجب أن يؤخذ وهو مستغرق في غفلة الغرور عن تدبير ما يدبر له.

وإذا دلف إلى القيادة عنصر من عناصر الكيد والمكر بالعدو وجب على القيادة أن تضع هذا العنصر دون شعور منه تحت مخبار التجربة بعيداً عن جو ما يُكلَّفه من عظائم الأحداث.

وإذا أظهرت التجربة صحة الوضع في هذا العنصر الطارىء وجب على القيادة أن تسرع إلى انتهاز الفرصة المتاحة لاستغلالها في سرعة وإتقان، ومباعدة للشك والاسترابة مع اليقظة المتوثبة بالمشاعر المرهفة.

وهذا هو الجانب المنهجي في هذه القصة الذي أقامه رسول الله ﷺ على دعائم السياسة الحكيمة المحكمة التي يجب أن تكون سطراً في دروس التربية للقادة والدعاة في رسالة الإسلام.

فقد جاءه نعيم بن مسعود مسلماً يكتم إيمانه، وقال للنبي ﷺ: يا رسول الله إني أسلمت ولم يعرف قومي بإسلامي فمرني بما شئت، وكانت الأمور قد بلغت بالمسلمين المدى من الشدائد والمحن والتأزمات، وكان رسول الله ﷺ يترقب الفرج ويستشرفه من آفاق العزّة الإلّهية، فأسرع إلى توجيه نعيم مثيراً في نفسه مشاعر الصدق والإخلاص في أن يعمل عملاً يسجله له تاريخ الجهاد الإسلامي، ويرفع به عن المجتمع المسلم آصار الحصار والشدائد، ويدخل على قلب رسول الله ﷺ السرور بتفريج ضائقة أصحابه، وقال له رسول الله ﷺ في توجيهه: «إنما أنت رجل واحد فينا» أي فماذا تستطيع أن تفعل وحدك في تراكم المعضلات والبلايا التي أحاطت بكتائب الجهاد.

وهذا في الحقيقة إغراء يحرك الحميّة في نفس نُعيم، وقد أشار إليه رسول الله ﷺ إلى ما يستطيع أن يعمله من عمل قد يكون انفراده به مساعداً على نجاحه فيه فقال له: «خذّل عنا ما استطعت».

حمل نُعيم هذا التوجيه القيادي من القائد الأعظم رسول الله ﷺ،

ومضى به إلى الأحزاب يكيدهم ويمكر بهم ويخادعهم حتى أنجز فيهم ما أراده رسول الله ﷺ، فألقى بينهم بذور الشك، وجعل بأسهم بينهم، مع ما أنزل الله تعالى من آيات غيبية معجزة لنبيه ﷺ، من الريح التي أكفأت قدورهم وهدمت بنيانهم، مع شدة البرد التي أهرأت أجسامهم بصقيعها، فترحّلوا مدحورين.

قصّة حُذَيفَة بن اليَمان

ودخوله بين الأحزاب ليأتي بأخبارهم

قصة دخول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما بين حشود الأحزاب، وتخلّله جموعهم وتولجه بين صفوفهم بأمر النبي ﷺ ليتعرف له أخبارهم، ويسبر أحوالهم ويكتشف عن أسرارهم، وما نزل بهم من كوارث البلاء، وفوادح المحن، وما تفعله بهم الريح التي أرسلها الله تعالى عليهم مع جنود غيبه من التدبير، وجوائح الخطوب، وقاصفات العواصف ومزلزلات الكروب ممّا جعل مقامهم في منازلهم من ميدان المعركة محالاً، مع ما أصابهم من تفكك عرى روابطهم الزائفة التي شتتت شملهم، ومزقت كلمتهم حتى شغل كل فريق منهم بنفسه عن نفسه لما واقعهم من مفاجآت النوازل وصاخّات المصائب حتى رحلوا وهم على أبشع حال من البلاء ـ من أشهر قصص المغازي، وأكثرها استفاضة، وأوسعها تداولاً، وأثبتها رواية.

قصة حذيفة يوم الأحزاب من أثبت أحداث المخابرات في منهج رسالة الإسلام

فقد ذكرها مسلم في صحيحه، ورواها من المتقدمين موسى بن عقبة وابن عائذ، وابن إسحق والواقدي، وابن سعد، والحاكم، والبيهقي وأبو نُعيم، ونقلها عن هؤلاء من جاء بعدهم كاليعمري في العيون، وابن حجر في الفتح، وابن كثير، في تاريخه (البداية والنهاية) وابن القيِّم في الهدي والقسطلاني مع شارحه الزرقاني في المواهب.

وقد اختلفت رواياتهم بالإجمال والتفصيل، والزيادة والنقص، والاسهاب والإيجاز؛ بَيْدَ أنه ليس فيها رواية خارجة عن هدف القصة المقصود بها، بل إنها كلها تبين الاتجاه المنهجي في السياسة القيادية المحكمة

التي جعلها النبي ﷺ أساساً لتربية أمته، ونموذجاً للتأسِّي به عند استحكام الأزمات والشدائد، ودرساً لتربية المجتمع المسلم على ثباته أمام عاصفات الأحداث، والتحرك الإيجابي لحلِّ معضلاتها بعيداً عن الاستسلام المضعف للنخوة الإيمانية، هذا الاستسلام الذي يجعل من الصبر على البلاء يأساً مقعداً، يصيب مداخل النفس بالشكوك والحَيْرة التي تبدِّد التفكير، وتشل مدارك العقل وتفسد التدبير.

ونحن نسوق ما يحضرنا من هذه الروايات ليكمل بعضها بعضاً ليبرز ما فيها من معالم المنهج.

الفدائية الصامتة في هدوء لا يفقدها الشجاعة هي السمة العليا للمخابرات في منهج الإسلام.

قال ابن سعد: وبعث رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان إليهم ليأتيه بخبرهم، وقام رسول الله ﷺ يصلِّي تلك الليلة، فقال أبو سفيان بن حرب: يا معشر قريش، إنكم لستم بدار مُقام، لقد هلك الخفُّ والحافر، وأجدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة، ولقد لقينا من الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، وجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام، وجعل الناس يرحلون وأبو سفيان قائم حتى خف العسكر، فأقام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد في مائتي فارس ساقة للعسكر، وردءاً لهم مخافة الطلب.

فرجع حذيفة إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك كله، وأصبح رسول الله ﷺ وليس بحضرته أحد من العساكر، وقد انقشعوا إلى بلادهم، فأذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الانصراف إلى منازلهم، فخرجوا مبَّادرين مسرورين بذلك.

وقد ذكر الزرقاني في شرح المواهب رواية أخرى لابن إسحق قال فيها أنه لما طال المقام على قريش وقتل عمرو بن عبد ودّ، وانهزم من معه اتّعدوا أن يغدوا جميعاً ولا يتخلف منهم أحد، فباتوا يعبئون أصحابهم ثم وافوا الخندق قبل طلوع الشمس، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه، وجمعهم على القتال ووعدهم النصر إن صبروا، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم، فأحدقوا بكل وجه من الخندق، ووجهوا على خيمته ﷺ كتيبة

عظيمة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هويٍّ من الليل، ما يقدر ﷺ ولا أحد من المسلمين أن ينزلوا عن مواضعهم ولا إلى صلاة ظهر ولا عصر، ولا مغرب، ولا عشاء، فجعل الصحابة يقولون: ما صلينا، فيقول ﷺ: «ما صليت» حتى كشفهم الله، فرجعوا متفرقين، ورجع كل فريق منهم إلى منزله.

وأقام أسيد بن حضير في مائتين على شفير الخندق، فكرَّت خيل المشركين، وعليها خالد يطلبون غِرّة، فناوشوهم ساعة، فزرق وحشي ابن حرب الطفيل بن النعمان أحد بني سلمة بمزراقه فقتله وانكشفوا، وسار رسول الله ﷺ إلى قبته، فأمر بلالاً فأذّن وأقام، وصلّى الظهر ثم أقام لكل صلاة إقامة، فصلُّوا ما فاتهم، وقال ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً».

ولم يكن بَعْدُ قتال حتى انصرفوا، لكنهم لا يدعون الطلائع بالليل يطمعون في الغارة، وما أتت علينا ليلة أشد ظلمة ولا ريحاً منها، وجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون إن بيوتنا عورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسلّلون.

وفي رواية عند الحاكم أن رجلاً قال لحذيفة: أدركتم رسول الله ﷺ ولم ندركه؟ فقال حذيفة: والله يا ابن أخي لا تدري لو أدركته كيف تكون؟

رواية الحاكم في قصة حذيفة يوم الخندق.

لقد رأيتنا ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة، فقال ﷺ: «من يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة؟» فوالله ما قام أحد، فقال الثانية: «جعله الله رفيقي» فلم يقم أحد، فقال أبو بكر: ابعث حذيفة، فمرّ بي النبي ﷺ وأنا جاثٍ على ركبتي من شدّة البرد والجوع والخوف، فدعاني، فلم يكن لي بدٌّ من القيام، فقال: «اذهب فأتني بخبر القوم» ودعا لي، فقال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته» فأذهب الله عني القر والفزع، فمضيت كأنما أمشي في حمّام، فلما وليت ناداني، وقال: «يا حذيفة لا تُحدِثْ في القوم شيئاً حتى تأتيني».

فدخلتُ عسكرهم فإذا الريح فيها لا تجاوز شبراً، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه القوم.

رواية لابن إسحاق من طريق محمد بن كعب القرظي من أوفى الروايات وأحسنها سياقاً.

وعند ابن إسحاق من طريق يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة: أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا.

قال حذيفة: والله لقد رأيتني بالخندق، وصلّى النبي ﷺ هوياً من الليل، ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع» يشرط له الرجعة «أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة» فما قام رجل من شدة الخوف، وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني فلم يكن لي بدٌّ من القيام، فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثّن شيئاً حتى تأتينا» فذهبت فدخلت فيهم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرُّ لهم قِدْراً، ولا ناراً، ولا بناء.

فقال أبو سفيان: لينظر امرؤٌ مَنْ جليسه، فأخذت بيد الرجل الذي كان جنبي فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، ولقد هلك الخفُّ والكُراع، واختلفنا وبنو قريظة، ولقينا من هذا الريح ما ترون، ما يطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل، ووثب على جمله، فما حلّ عقال يده إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني، ثم شئت لقتلته بسهم.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلِّي في مرط لبعض نسائه، فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليّ طرف المرط، ثم ركع وسجد، وإني لفيه فلما سلم أخبرته الخبر.

وروى البيهقي وأبو نعيم في دلائلهما عن حذيفة أنه قال: لما دخلت

رواية البيهقي وأبي نعيم لا تختلف كثيراً عن رواية ابن إسحاق

بينهم نظرت على ضوء نار توقَّد، وإذا رجل أدهم ضخم، يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته وحوله عصبة، قد تفرق عنه الأحزاب، وهو يقول الرحيل، الرحيل، ولم أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فوضعته في كبد القوس لأرميه في ضوء النار، فذكرت قوله ﷺ: «لا تُحدث في القوم شيئاً حتى تأتيني» فأمسكت ووضعت سهمي، فلما جلست فيهم أحسّ أبو سفيان أنه قد دخل فيهم من غيرهم، فقال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

فعلت ذلك خشية أن يفُطن بي، فبدرتهم بالمسألة، ثم تلبثت فيهم هنيهة، فأتيت قريشاً وبني كنانة، وقيساً، وقلت ما أمرني به رسول الله ﷺ بقوله: «ادخل حتى تدخل بين ظهراني القوم» فأتيت قريشاً، فقلت: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إذا كان غد أن يقال، أين قريش؟ أين قادة قريش؟ أين رؤوس الناس؟ فيقدّموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم، ثم ائت بنى كنانة، فقل: إنما يريد الناس إذا كان غد، فيقال: أين رماة الحَدَق، فيقدّموكم فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم، ثم ائت قيساً، فقل يا معشر قيس، إنما يريد الناس إذا كان غد أن يقولوا أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟ أين الفرسان؟ فيقدّموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم.

ثم عاد حذيفة إلى النبي ﷺ فوجده يصلّي، فأومأ إليه بيده، فدنا فسدل عليه من فضل شملته، وأخبره خبر القوم، وأنه تركهم يرتحلون، والريح تقلع أوتادهم، وتطفىء نيرانهم، وتلقي أبنيتهم، وتكفىء قدورهم، وتسفي عليهم التراب، وترميهم بالحصى، وهم يسمعون في أرجاء معسكرهم التكبير وقعقعة السلاح، فارتحلوا هراباً في ليلتهم وتركوا ما استثقلوه من متاعهم، فغنمه المسلمون مع عشرين بعيراً أرسلها أبو سفيان إلى حيي بن أخطب ـ لعنه الله ـ فحمّلها له شعيراً وتمراً وتبناً، فلقيها جماعة من المسلمين، فأخذوها وانصرفوا بها إلى رسول الله ﷺ، فتوسّعوا بها وأكلوه

حتى نفد، ونحروا منها أبعرة، وبقي منها ما بقي حتى دخلوا به المدينة، فلما رجع ضرار بن الخطاب وكان في رسالة أبي سفيان إلى حيي أخبر أبا سفيان الخبر، فقال أبو سفيان: إن حيياً لمشؤوم قطع بنا، ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا.

رواية الإمام مسلم في قصة حذيفة.

وقد أورد هذا الحديث ـ أي قصة حذيفة ـ مسلم بن الحجاج في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة، فقال له رجل: لو أدركتُ رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقرّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة»، فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال: «يا حذيفة، قم فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بدّاً إذْ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «ائتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ»، فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول النبي ﷺ: «لا تذعرهم عليّ» ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمّام، فأتيت رسول الله ﷺ فأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلّي فيها، فلم أبرح نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان».

ذكر ابن كثير لرواية الحاكم والبيهقي من دلائله قصة حذيفة.

قال ابن كثير: وقد روى الحاكم والحافظ البيهقي في الدلائل هذا الحديث ـ أي قصة حذيفة ـ مبسوطاً من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد ابن عبدالله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، قال: ذكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: لا تمنّوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافّون قعود، وأبو سفيان ومن معه فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا، نخافهم على ذراريناء، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ، يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما

يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم، ويتسلّلون، ونحن ثلاثمئة، ونحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً، رجلاً، حتى أتى عليّ، وما عليّ جُنّة من العدو، ولا من البرد إلا مِرْط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني وأنا جاثٍ على ركبتيّ فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة، فقال: «حذيفة؟؟» فتقاصرت للأرض، فقلت: بلى يا رسول الله، كراهية أن أقوم، فقمت، فقال: «إنه كائن في القوم خبر، فائتني بخبر القوم» وأنا من أشد الناس فزعاً، وأشدهم قراً، فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته» فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قَرّاً في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئاً، فلما وليت قال: «يا حذيفة لا تحدثّن في القوم شيئاً حتى تأتيني» فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقّد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيديه على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل، الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوسي لأرميَه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثّن فيهم شيئاً حتى تأتيني» فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي.

ثم إني شجّعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر، يقولون يا آل عامر، الرحيل، الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم لا تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضرب بها.

ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ، فلما انتصفت بي الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك مُعْتَمِّين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلّي، فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القرّ وجعلت أقرقف، فأومأ إليّ رسول الله ﷺ بيده فدنوت منه، فأسبل عليّ شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى، فأخبرته خبر القوم، أخبرته أني تركتهم يرحلون.

* * *

حكمة ما يرى من التكرار وتعدد الروايات.

نبهنا فيما تقدّم أن المقام قد يدعو إلى إيراد روايات يكمِّل بعضها بعضاً لما بينها من الاختلاف بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، والإجمال والتفصيل، والإيجاز والإطناب، والتطويل المحكم والإسهاب الجامع، بشرط أن تكون الحاجة إلى استيفاء المعنى المقصود داعية إلى ذلك، وعلى هذا الأساس جاء البحث في قصة حذيفة بن اليمان، وبعثه إلى جموع الأحزاب ليدخل بينهم، ويعلم علمهم، ويتعرف أخبارهم.

وكان اختيار حذيفة لهذه المهمة الشاقة الخطيرة محل اختلاف بين الروايات، وكان جوّ اختياره متأزماً شديد البلاء، عظيم المحن، كادت تميل فيه نفوس الصحابة إلى ما لم يكن من خلائقها؛ لولا مسارعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى اختيار حذيفة والإشارة به على النبي ﷺ، ليرفع عن النبي ﷺ ثقل الانتظار بعد ترغيبه ﷺ لمن يندب نفسه لهذه المهمة ترغيباً يقطع حجة من لم يستجب لهذا الترغيب، وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ هو الذي اختاره، وسمّاه باسمه، وأمره بالذهاب إلى جموع الأعداء وهم يتحرقون غيظاً لما نزل بهم من شدة البلاء، فلم يجد حذيفة بدّاً إذ سمّاه رسول الله ﷺ باسمه من القيام، وهو في أشدّ حالات البلاء: جوع شديد، وبرد شديد، ورعب شديد.

كان حذيفة أجمع لصفات الفدائي المغامر العليم بهمته.

وذهب حذيفة إلى جموع الأحزاب ودخل بينهم - والظلام الشديد يستره - دخول الفدائي الذي يكتنفه الموت من جميع أكنافه ويحتويه من سائر جوانبه وهو لا يبالي، ولكن حذيفة كان حاذق الرأي، خبيراً بتصرف الأمور إذا تأزّمت، سريع البادرة، ثابت اليقين، راسخ الإيمان، فَطِن الفطرة، زكي الفؤاد، متماسك الشخصية.

وهذه هي الصفات التي يجب أن تتوافر في الأفراد والجماعات الذين يكونون موضع الثقة الخاصة للقيادة عند اشتداد الأزمات واستحكام الأخطار.

وقد عرف حذيفة عن جموع الأحزاب كل أمرهم، ظاهره وخفيه، لأنه داخلهم مداخلة لم تترك لهم سراً إلّا كشفته ولا خبيئاً إلا أعلنته.

وقد وقعت له فيهم عجائب دلّت على أن اختياره لهذه المهمة الخطيرة كان من متنزل التوفيق، فقد عرف ما هم فيه من الاضطراب والضياع، والرعب والفزع واستغلاق الأمور أمامهم استغلاقاً شلّ تفكيرهم، ولم يجدوا للخلاص من حالهم إلا الاستعداد للهرب.

ورجع حذيفة للنبي ﷺ فأخبره خبر القوم، فكان ذلك مما أنعش نفوس المؤمنين ورفع ثقل ما نزل بهم من البلاء والمحن، ولو لم يكن لحذيفة إلّا موقفه من أبي سفيان وهو يُصْلي خاصرته بالنار من شدّة البرد وتمكنه من قتله لولا تذكره قول النبي ﷺ: «لا تحدثّن في القوم شيئاً حتى تأتيني» وفي رواية: «لا تذعر القوم عليّ» لكفاه في مفاخر الإيمان واليقين، وليس موقفه وهو يسمع أبا سفيان وقد أحس بعنصر غريب بين جموع الأحزاب: ليعرف كل امرىء مَنْ جليسه، وإذا بحذيفة مبادراً إلى من إلى جانبه الأيمن، فيقول له: من أنت؟ فيقول: معاوية بن أبي سفيان، ويضرب بيده على من على شماله ويقول له: من أنت؟ فيقول: عمرو بن العاص، وهما أدهى العرب وأحضرهم بديهة، فيسبقهما حذيفة ببادرته ويسكتهما عنه، ويخرج عنهما دون أن يعرفا عنه شيئاً ـ بأقل منزلة في منازل الرسوخ واليقين من موقفه مع أبي سفيان.

معالم منهج التربية في الرسالة من أحداث هذه الغزوة.

وقد جرت أحداث هذه الغزوة الممحّصة للإيمان في طريق منهج الرسالة الخالدة رسالة الإسلام واضعة الخطوط القيادية التي أدار بها رسول الله ﷺ الموقف في إطار السياسة الحكيمة التي كتبت دروسها التربوية أقلام الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على ما لا يطاق من الشدائد والأزمات، واحتمال نوازل البلاء بجلدٍ لا يعرف الاستسلام، مع العمل الدؤوب البالغ في مشقته مبلغ الاستحالة البشرية، ولكن رعاية الله وعنايته هما اللتان ألقتا في قلوبهم مغالبة الحياة وأزماتها وشدائدها، وهما اللتان أمدّتاهم بالمدد الروحي الذي أذاب في بؤرة إيمانهم كل محنة، وقهر كل بلاء وكارثة، فصبروا وصابروا واحتملوا، ورأوا في رسول الله ﷺ أعظم الأسوة، وهو معهم يشاركهم مشاركة فعلية مشقة العمل وشدائد المحن، وكان ﷺ يواسيهم بنفسه، فهو يجوع أشدّ مما جاعوا، ويعمل أكثر مما عملوا، ينقل

التراب حتى يغمر جلدة بطنه، إذا اشتدت عليهم في حفر الخندق صخرة نزل إليها، وما يزال بها يضربها بالمعول حتى تتزايل فتصبح كثيباً أهْيَل، وهو عاصب بطنه بحجر من شدة الجوع.

نظر وبحث في آية التأسي به ﷺ.

ولهذا وغيره كانت هذه الغزوة المليئة بالآيات والمعجزات متنزلاً لآية التأسِّي به ﷺ، فقال تبارك وتعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

فهذا تحريض للمجتمع المسلم في جميع أجياله، وأزمانه وأوطانه، على التسامي بأنفسهم وأخلاقهم وقوة إيمانهم ورسوخ يقينهم إلى آفاق البطولة الروحية والمادية التي تتطلبها المكانة القيادية الإنسانية التي نيطت بهذا المجتمع المسلم.

وهو تحريض لهذا المجتمع على الاعتصام بعظائم الأمور، وإعداد أقرانها لها، مهما تكن محفوفة بمخاطر المحن وشدائد البلاء.

وهو تحريض للمجتمع المسلم أينما كان وجوده من أرض الله على أن يتخذ من الصبر وقاية يتقي بها مزالق الهزاهز أمام أحداث الحياة كيفما كانت شكولها ومضائقها.

وحظ الصحابة رضوان الله عليهم من هذه الأسوة أن الله أشهدهم بذواتهم أعمال رسول الله ﷺ، وهي تجري على يديه حركات دائبة في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى الإنسانية في أرجاء الحياة.

أما حظ من جاء بعدهم من أجيال المجتمع المسلم فهو حظ الحارس الأمين في الحفاظ على ما أسندت إليه أمانة حفظه، وحراسته بمثل ما كان عليه مَنْ سلموا له الأمانة من العمل في الدفاع عن هذه الأمانة، وتبليغها ونشرها في الآفاق.

ولا يكون المؤمن أميناً على القيام بحفظ أمانته إلاّ إذا علم قدرها، وعرف كيف يؤديها كما أدّيت إليه.

وأسلوب الآية الكريمة يجعل من ذات رسول الله ﷺ بوصفه رسولاً من

الله نفس الأسوة لمجتمعه المسلم، فهو ﷺ بوصف أنه رسول الله هو نفس الأسوة، فكل عمل من أعمال رسالته هو موضع للتأسِّي به، يجب على كل فرد من أفراد مجتمعه وأمته أن يتخذ هذا العمل أسوة له بقدر استعداده الفطري واستطاعته المكتسبة.

وهذه مبالغة قصد بها إفادة أن جميع ما يصدر عنه ﷺ إنما يصدر عنه بوصفه رسول الله، وهذا الوصف موجب لمتابعته في جميع ما يثبت عنه من الأقوال والأفعال على محاملها.

فرسالته ﷺ هي منبع التأسِّي به، وهذا المنبع موحّد الإمداد بكل ما يكون فيه التأسِّي والاقتداء، وفي هذا غُنْية عن الحديث عن الخصائص البشرية التي مُنحها ﷺ فاختص بها واختصت به، لأن أمر هذه الخصائص خارج عن التقيُّد بوصف الرسالة إلا باعتبارها مخبرة عنه، لأن الأصل عموم التأسِّي، وهذا كالاستثناء المخصِّص للعموم.

نكتة بيانية في آية التأسِّي من متعلقات الإعجاز الأسلوبي.

وفي الآية نكتة بيانية من متعلِّقات الإعجاز القرآني في هدايته وروعة أسلوبه، وهذه النكتة تعطي معنى التأسِّي به ﷺ صورة من قوة الإيمان ورسوخ اليقين في متابعته ﷺ متابعة تجعلها لباب الإيمان وزبدة الإخلاص.

وتلمح هذه النكتة في قوله تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ بعد قوله: ﴿لقد كان لكم﴾ الذي هو في مطلق معناه عين ما جاء بعده في إجمال هذا المعنى.

بَيْدَ أن قوله تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ ربط تأسِّيهم بزبدة الإخلاص الذي هو مرتبة فوق مرتبة قوة الإيمان.

فإذا كان التأسِّي بالنسبة لصادقي الإيمان الذين صعد بهم إيمانهم إلى ذروة الإخاء كافياً أن يقال فيه: ﴿لقد كان لكم﴾ باعتبار عودة ضمير الخطاب إلى صادقي الإيمان، فإنه بالنسبة لعامة الأمة ممّن لم يصل إيمانهم إلى درجة الإخلاص علماً وعملاً غير كافٍ أن يقال فيه: ﴿لقد كان لكم﴾ بل هو في حاجة إلى حياطته بشيء من التوثيق في داخل نفوسهم بشيء من الربط بما

هو غيب لا يعرف مكان الإيمان منه، وليس ذلك إلا رجاء فضل الله ورحمته، ورجاء تفضله وإحسانه على كل مؤمن لقيه بعقيدة الإيمان، والرجاء مرتبة بين الإخلاص والإيمان.

ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿وذكر الله كثيراً﴾ لأن كثرة ذكر الله هي العروة الوثقى في الربط بين الإيمان، ورجاء فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر.

* * *

كانت الأحزاب آخر غزوة هجومية على المجتمع المسلم تحقيقاً لإخبار النبي ﷺ بذلك.

ولنختم الحديث في هذه الغزوة التي كانت أحداثها كلّها دروساً تربوية لحياة المجتمع المسلم التي أقام النبي ﷺ دعائمها على الكفاح والنضال، والاستنصار بالله وآياته، وجنود غيبه التي أمدّ الله بها نبيه ﷺ في جهاده لنشر دعوته وتبليغ رسالته.

انصرف رسول الله ﷺ بأصحابه بعد رحيل الأحزاب بحشودهم وجموعهم منهزمين أذلّة مدحورين، وبشّر النبي ﷺ أصحابه بأن هذه الغزوة هي آخر غزوات أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ وأعداء رسالته المهاجمة التي يغزون فيها المجتمع المسلم.

روى البخاري عن سليمان بن صرد من طريق أبي نُعيم، قال: حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن سليمان قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «نغزوهم ولا يغزوننا».

وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً بسند آخر قال: حدثني عبدالله ابن محمد، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، سمعت أبا إسحق يقول: سمعت سليمان بن صرد يقول سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلي الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

وقد صدق الله رسوله ﷺ، فكان هذا الإخبار الصادق عَلَمًا من أعلام نبوته ﷺ إذ أخبر عن أمر مستقبل وقع كما أخبر به ﷺ، قال ابن حجر: فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة، فصدته قريش عن البيت ووقعت

الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ.

وأخرج البزار من حديث جابر أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعاً كثيرة: «لا يغزونكم بعد هذا أبداً، ولكنكم أنتم تغزونهم».

لمحات من آيات الله التي أيّد بها رسوله ﷺ في غزوة الأحزاب.

وقد كان في هذه الغزوة من آيات الله ومعجزاته الكونية أمور كثيرة، أكرم الله بها نبيه ﷺ، ولو لم يكن فيها إلا ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم ممّا لا يمكن أن يحوم حول حماه شيء من الشك من إرسال الريح والجنود، وما صنعت بجموع الشرك والوثنية من جموع الأحزاب، وإلّا ما روي في أصحِّ الصحيح من أحاديث تكثير الطعام القليل وكفايته العدد الكثير حتى أشبعهم وانحرفوا عنه وهو كما وُضع، وإلا ما في الصحيح من أحاديث الكُدْية التي عرضت في حفر الخندق، فنزل إليها النبي ﷺ بالمِعْول وهو معصوب البطن بحجر من شدّة الجوع، فضربها فصارت رمالاً سيّالة، وإلّا ما في حديث سلمان والبرقات التي برقت حين ضرب ﷺ الصخرة فرأى على ضوئها ﷺ ما يفتح على أمته، فصدّقه الله وفتح ما فتح من البلاد التي وطّد الله فيها ملك الأمة الإسلامية، وصارت بعد الوثنية أوطاناً للإسلام وهدايته، ولهذا كانت هذه الغزوة جديرة باسم غزوة الإعجاز الكوني والمعجزات الحسية والعقلية.

كما كان فيها من معالم منهج الرسالة ما سجّلناه في أحداثها ووقائعها، ونبهنا عليه في آياتها حتى كانت غزوة جامعة لدروس الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على لأواء الحياة ومحنها، إلى جانب ما اشتملت عليه من فضل الله بإمداده نبيه ﷺ بنفحات المنن الكونية التي أنزلها حين استحكمت الخطوب، واكفهرت الكروب، ففرج بها مضائق البلاء والمحن، وقشع بريحها سحائب الكوارث، وختمها بتلطفه الذي مسح به عن صدور المؤمنين ما ألمّ بها من الهواجس والظنون، فعادوا أصفى بصائر وأصلب عزائم، وأرسخ إيماناً وأعمق يقيناً، وأخلص نيّات، وهم ينظرون إلى المستقبل بقلوب مشرقة وأفئدة منيرة، يرجون من الله تعالى تحقيق ما وعدهم على لسان رسوله ﷺ في بشراه لهم بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».

غَـزوَة بني المُصطَلق

وَهيَ المريسيْع

أسبابها وأحداثها وأحاديثها وآثارها

غزوة بني المُصطلق

اختلاف الروايات في سنة غزوة بني المصطلق.

بنو المصطلق بطن من خزاعة ويرجعون في أصلهم إلى الأزد، والمريسيع تصغير مرسوع وهو من قولهم رسعت العين إذا دمعت من فساد، وهو ماء لبني المصطلق، وفي حديث سفيان بن وبرة، عند الطبراني قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة المريسيع غزوة بني المصطلق.

وقد عنون لها البخاري في صحيحه بما قبسناه منه في عنونتنا لها، وقد اختلف الرواة اختلافاً واسع المدى في زمنها، فعند ابن سعد أنها كانت في السنة الخامسة للهجرة في أول شعبان لليلتين خلتا منه، وهذا من قول قتادة وعروة وغيرهما من قدامى السلف كما رواه البيهقي، ويتفرع على ذلك سبقها للخندق أو تأخرها عنها على أساس وقوعهما في سنة واحدة هي السنة الخامسة للهجرة، وكلٌّ قيل به، وسَبْق الخندق على بني المصطلق ذهب إليه الحاكم أبو عبد الله صاحب المستدرك.

وحكى البخاري عن ابن إسحق أن غزوة بني المصطلق كانت في شعبان سنة ست، وجزم بهذا الطبري وخليفة بن خياط.

تعقب ابن حجر رواية البخاري بما لا ينبغي ومناقشته في ذلك.

وذكر البخاري عن موسى بن عقبة أن غزوة بني المصطلق كانت سنة أربع من الهجرة، وتعقّبه ابن حجر بما لا ينبغي فقال: وكأنه سبق قلم، أراد ـ أي البخاري ـ أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع.

ثم بيّن ابن حجر أن هذا القول خلاف ما روي في مغازي ابن عقبة فقال: والذي في مغازي ابن عقبة من عدة طرق رواها الحاكم، وأبو سعيد

النيسابوري في (شرف المصطفى) والبيهقي في الدلائل أنها كانت سنة خمس، ويؤيده ما أخرجه البخاري في الجهاد عن ابن عمر: أنه غزا مع النبي ﷺ بني المصطلق في شعبان سنة أربع ولم يؤذن له في القتال، لأنه إنما أذن له فيه يوم الخندق، وهي بعد شعبان سواء قلنا أنها كانت في سنة خمس أو في سنة أربع.

ويعارض قول ابن حجر: أن الذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق.... أنها كانت سنة خمس، أن هذه الروايات التي أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري، والبيهقي لو كانت ثابتة عند البخاري فلماذا تركها واقتصر على سنة أربع عند موسى بن عقبة؟ وروايات الحاكم وأبو سعيد النيسابوري، والبيهقي لا ترد بها رواية البخاري الثابتة في صحيحه، بل لا تساويها فضلاً عن أن تتقدم عليها.

ودعوى ابن حجر أن رواية سنة أربع التي حكاها البخاري عن موسى ابن عقبة سَبْق قلم من البخاري دعوى لا دليل لها، وردّ روايات الصحيح بهذه الأوهام لا يصح الاعتماد عليه والاعتداد به، وكيف يمضي البخاري في صحيحه على هذا الغلط دون أن يصححه هو أو ينبّه عليه أحد من تلاميذه وقارئي صحيحه وشارحيه قبل وجود ابن حجر وهم عشرات الألوف؟ هذا من أبعد البعد.

إشارة صاحب المواهب وشارحه إلى ضعف كلام ابن حجر.

وقد أشار القسطلاني وشارح مواهبه الزرقاني إلى نقد كلام ابن حجر، فقالا: قالوا وكأنه سبق قلم من البخاري أراد أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع سهواً وهو عجيب، وأعجب منه أن يسير هذا الغلط مع قافلة الزمن قروناً كثيرة، فلا يتنبه إلى تصحيحه أحد من شارحي هذا الكتاب قبل مجيء ابن حجر؟ ولا ندري كيف تشتبه على الإمام البخاري الخمس بالأربع وحروفهما متغايرة تغايراً كلياً، ومعناهما في موضعهما من الروايات يبعد الاشتباه بينهما؟ وإذا كان السهو هو الذي جمح بقلم البخاري فكيف فات على قارئي الصحيح وهم ألوف أن يصححوا ما سبق إليه قلمه؟

وترك تصحيح غلط سَبْقِ الأقلام إلى ما لم يقصده حاملوها دون تنبيه

عليه ولا سيما في أمهات الكتب وأصول مراجع التراث الإسلامي وشريعته يفتح الباب أمام شكوك وأوهام ترفع الثقة بهذه الكتب، وتهز الإيمان بصحة روايات السنة المطهَّرة وأحداثها، ويجعل للمتقوّلين عليها سلطاناً ينزلها عن الذروة في الاحتجاج بها مع آيات القرآن الكريم.

ودعوى تأييد قول من ردّ القول بأنها كانت سنة أربع بحديث ابن عمر الذي أخرجه البخاري في الجهاد، وأنه غزا مع رسول الله ﷺ بني المصطلق في شعبان وابن عمر سنة أربع لم يؤذن له في القتال، وإنما أُذن له فيه في الخندق وهي بعد شعبان، سواء قلنا أنها سنة خمس أو سنة أربع ـ لا تأييد فيها لأن ابن عمر لم يقل في حديثه المذكور: قاتلتُ مع النبي ﷺ بني المصطلق في شعبان، وإنما قال: إنه غزا مع النبي ﷺ بني المصطلق والغزو يصدق بشهود الغزوة، وحضوره مع المقاتلين، ولا يلزم ذلك أن يكون قد باشر القتال، والإذن لابن عمر في الخندق إنما كان بمباشرة القتال الذي رُدّ عنه في أحد مع غيره من أقرانه.

فما حكاه البخاري عن موسى بن عقبة من كون غزوة بني المصطلق كانت سنة أربع للهجرة أقرب إلى الاحتمال من قول ابن إسحق أنها كانت سنة ست الذي يرده ذكر سعد بن معاذ في حديث (الإفك)، و(الإفك) إنما كان في غزوة بني المصطلق قولاً واحداً، وسعد بن معاذ استشهد بعد قريظة، وهي في سنة خمس باتفاق.

تحقيق سبب غزوة بني المصطلق

كانت غزوة بني المصطلق بدء نهاية تطهير الجو أمام مسيرة المجتمع المسلم بدعوته ورسالته.

كانت هذه الغزوة بدءاً لكسح الجيوب المنتشرة هنا وهناك بعد كسر شوكة قريش، ومن كان قد انضوى تحت لوائها من شراذم القبائل التي ساقها الغرور الأحمق إلى منازلة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ، والتي كانت نهاية غزوة الخندق نهاية لفشّ تورماتها المتجمعة في تكتّلات قد نخر السوس جذوعها، فتفرّقت إلى أشتات لم تجتمع بعدها أبداً للهجوم على هذا المجتمع المسلم، وذلك لتحول ميزان قوة هذا المجتمع من رواسب الجاهلية وتراثها

المادي المظلم إلى حرب منهجية تقصد إلى نشر الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى العالمين، مستهدفة إقامة منائر العدل والإخاء الإنساني والترابط المتلاحم المتراحم بين أفراد وجماعات الإنسانية في أرجاء الأرض.

كانت بنو المصطلق لا تزال تغط في نوم الرواسب الجاهلية بزعامة رئيسها الحارث بن أبي ضرار، وكانت تصكّ آذانها أخبار الحروب التي نشبت بين المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة وبين أعدائه الذين أقضّ مضاجعهم صدى انتصاراته المدوية، فتثير في أنفسهم نعرة الطيش المتهور.

وكان بنو المصطلق من بقايا هذا الغثاء المتخلف في سفح جسور الحياة العربية، وقد ملكهم الرعب وخافوا إن هم ظلّوا في موقفهم الاعتزالي المتحيِّر المتردد أن تدور عليهم الدائرة وتقضي عليهم كتائب المجاهدين وهم نائمون، فتحركوا ليهاجموا المجتمع المسلم بقيادة قائده الأعظم رسول الله ﷺ، وأخذوا يعدّون العدة، ويتأهبون بكل ما قدروا عليه من الرجال والسلاح والمؤن لمهاجمة قوة هذا المجتمع المنتصر، ومشى زعيمهم ورجالهم في إحياء بقايا غسالات القبائل يجمّعونها معهم لتجربة حظّهم في رد السيل الجارف الذي اكتسح أمامه كل قوى الجاهلية الوثنية المعتمدة على المظاهر المادية المتهاوية تحت ضربات الجهاد القتالي الذي يخوضه المجتمع المسلم دفاعاً عن وجوده، وإزالة العقبات من طريق دعوته وتبليغ رسالته، رسالة الحق والعدل والنور والهدى.

تعرف حال وأخبار بني المصطلق للوقوف على جلية أمرهم قبل مهاجمتهم.

وبلغ خبر تجمعاتهم وتحفزهم رسول الله ﷺ، فأراد جرياً على منهجه أن يتحرّى ويتأكد مما بلغه عنهم، فبعث رسول الله ﷺ بُريدة بن الحُصَيب الأسلمي ليعلم له علم أولئك القوم فاستأذنه بريدة في أن يقول ما لا بدّ منه ليدخل به عليهم، ويملك الطمأنينة منهم إليه، ويفضوا إليه بذات أنفسهم، وينشروا على مسامعه خبيئهم ليعلم ما عندم، فأذن له النبي ﷺ في القول بالمعاريض والتورية.

فأتاهم بريدة ودخل في صفوفهم، واجتمع برئيسهم الحارث بن أبي

ضرار، وتحدث إليه واختبر أمره وسرَّه، فوجدهم على عزيمة مهاجمة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم ليستأصلوهم من أرضهم ومنازلهم.

وكانوا قد استخبروا بريدة عن نفسه، فقالوا له: من الرجل؟ فقال: منكم قدمت لما بلغنا من جمعكم لهذا الرجل، وأسير في قومي ومن أطاعني، فنكون يداً واحدة حتى نستأصله، فقال رئيسهم الحارث فنحن على ذلك، فعجِّلْ علينا، فقال لهم بريدة: أركب الآن وآتيكم بجمع كثير من قومي، فسروا بذلك منه.

ورجع بريدة بن الحصيب بما معه من علم أخبارهم إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرهم وبثّ إليه حديثهم، وألقى بين يديه سرّهم وجهرهم، فندب رسول الله ﷺ كتائب المجاهدين، وخرج بهم مسرعاً وكانوا سبعمائة مقاتل، وقادوا معهم ثلاثين فرساً، أكثرها للأنصار، وكان في هذه الخيل فرسان للنبي ﷺ لزاز والظرب وخرجت معه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قيل: وخرجت معها أم سلمة رضي الله عنها.

وفي طريق رسول الله ﷺ إلى منازل بني المصطلق أُتي برجل من عبد قيس، فسلّم على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أين أهلك» قال: بالروحاء، قال: «أين تريد» قال: إياك جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق، وأقاتل معك عدوك، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي هداك إلى الإسلام» فقال الرجل أي الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال ﷺ «الصلاة لأول وقتها».

وسؤال النبي ﷺ للرجل عن أهله، وأين يريد من التحرز الذي ينبغي أن يكون عليه القائد الأعظم وهو منهج من مناهج الرسالة الخالدة، وهذا التحرز إنما كان خشية أن يكون هذا الرجل عيناً للأعداء، أو كانت طريقه تمر عليهم فيسألونه فيخبرهم عن تجمعات المجتمع المسلم وقائده ﷺ وسيره، ولعل سيره إليهم يكون في طريق سير الرجل، فيخبر القوم وهو لا يشعر.

وفي طريقه ﷺ إلى بني المصطلق أصاب عيناً لهم يتجسس لهم أخبار

رسول الله ﷺ وأخبار أصحابه، فأخذوه وسألوه عن المشركين وتجمعاتهم فأبى أن يذكر شيئاً عنهم أو يتحدَّث عن شأن من شؤونهم، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأبى أن يسلم، فأمر النبي ﷺ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضرب عنقه.

وبلغ الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، ومن معه من الجموع التي جمّعها لحرب رسول الله ﷺ مسيره إليه وإلى جموعه، وأنه قتل عينه الذي بعثه ليتجسس الأخبار، فتملكه الخوف، ورُعب رعباً شديداً، واستولى عليه الهلع والذعر، واستحوذ على جموعه الفزع، فتفرقوا عنه وتركوه مع لفائف قومه.

وبلغ رسول الله ﷺ بأصحابه إلى (المُرَيسيع) فضرب عليه قبة، وتهيأ الجمعان للقتال، وصفَّ ﷺ أصحابه، وأعطى راية المهاجرين لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وفي رواية: أنها كانت مع عمار بن ياسر، وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة سيد الخزرج.

وأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينادي بني المصطلق أن يقولوا: لا إله إلا الله، ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم، فأبوا أن يستجيبوا لدعوة الإسلام وبدأوا الحرب، فرمى رجل منهم كتائب المجاهدين بنبله وسهامه، وعندئذ أمر رسول الله ﷺ كتائبه المجاهدة أن يحملوا على أعدائهم حملة رجل واحد، فاستجابوا وصدقوا الله في حملتهم حتى أخذوا أعداءهم، فلم يفلت منهم أحد، وقتلوا منهم عشرة، وأسروا سائرهم، وكانوا سبعمائة رجل، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، واستاقوا نعمهم وشاءهم.

غدر مقيس بن صبابة وإهدار دمه وقتله يوم فتح مكة.

قال ابن سعد وكانت الإبل ألفي بعير، والشاء خمسة آلاف شاة، وكان سبيهم مائة بيت، وقتل من المسلمين رجل واحد هو هشام بن صبابة، أصابه أنصاري من رهط عبادة بن الصامت، يقال له: أوس وهو لا يعرفه، وكان يرى أنه من المشركين، فقتله خطأ، فقدم أخوه مقيس بن صبابة ـ لعنه الله ـ على رسول الله ﷺ وهو يظهر الإسلام ويبطن أفجر الكفر والغدر،

فقال: يا رسول الله جئتك مسلماً، وأطلب دية أخي، قتل خطأ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه، وأقام بين المسلمين غير كثير حتى واتته الفرصة فعدا على قاتل أخيه فقتله، ثم فر إلى مكة هارباً بجرمه كافراً غادراً لم يزدد إلا كفراً وفجوراً، فأهدر النبي ﷺ دمه مع من أهدر دماءهم من فجرة المشركين أمثال ابن خطل، والحويرث، ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة.

ولما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة عفا عن جميع أهلها إلا الذين فجروا من مشركيها، فإنه ﷺ قد أمر بقتلهم، وفيهم هذا الغادر الفاجر مقيس بن صبابة.

هذه الروايات في سبب هذه الغزوة مما اتفق عليه أهل السِّيَرَ والمغازي، وهي متفقة مع منهج الرسالة الذي فصّلنا القول فيه تفصيلاً في صدر الكلام على غزوات النبي ﷺ لا يترك فيه مجالاً للشك، وقد سجلنا هذا المنهج في كتابنا (سماحة الإسلام) بأسانيده من السنة وأعمال الراشدين في صدر الكلام على مشروعية جهاد القتال في الإسلام، وفي هذا التفصيل هنا وهناك أوضحنا أن النبي ﷺ لم يهاجم قوماً بالحرب قبل أن يعرض عليهم الإسلام عرضاً بيّناً، فإن أبَوْه طلبت منهم الجزية عَرَباً أو غير عرب على القول الصحيح، فإن لم يستجيبوا لها قوتلوا وهم يعلمون، فلا يغدر بهم ولا يؤخذون على غرّة، لأن مشروعية جهاد القتال في الإسلام إنما كانت لدفع الذين يقفون في طريق الدعوة إلى الله، والذين يعوقون سير الرسالة في التبليغ بالقوة والحرب.

في غزوة بني المصطلق ما يثبت أنّ منهج رسالة الإسلام أن لا يهاجم أحد قبل دعوته إلى الإسلام.

وقد ذكرنا ما روي في الصحيح من وصية النبي ﷺ لقواد بعوثه وسراياه ووصايا الصدِّيق، والفاروق من بعده ﷺ، وقد ذكرنا أن النبي ﷺ جيء إليه بقوم أسارى أُخذوا قبل أن يعرض عليهم الإسلام فأطلقهم وردّهم إلى مأمنهم.

وقد اتخذ ولاة الأمر الصالحون هذا المنهج ديدنهم ودأبهم، فلم يهاجموا أحداً إلا بعد إعذار يقطع حجته بعرض الإسلام عليه وإعطائه فرصة الاختيار ليسلم أو يستسلم.

بيد أن البخاري ومسلماً ذكرا في صحيحيهما من حديث عبدالله ابن عون ما يدل على خلاف ما بيّناه هنا في أصل مشروعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الإسلام من أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارّون ـ أي غافلون ـ فأوقع بهم وقتل من رجالهم من قتل، وأسر سائرهم، وسبى نساءهم وذراريهم وغنم أموالهم من النعم والشاء ومتاع المنازل.

قال اليعمري في (العيون) وقد روينا من طريق مسلم أنه قال: حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا سليمان بن خضر عن ابن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، فكتب إليّ: إنما كان ذلك في أول الإسلام، قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق، وهم غارّون وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث، قال نافع: وحدثني بهذا الحديث عبدالله بن عمر، وكان في ذلك الجيش.

ترجيح ابن سعد رواية أهل المغازي على الرواية التي جاءت في الصحيح.

ثم قال اليعمري: وقد أشار ابن سعد إلى هذه الرواية، وقال: الأول أثبت، وابن سعد بعد أن ساق كلام أهل المغازي قال: وكان ابن عمر يحدِّث أن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارُّون، ونعمهم تستقي الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، والأول أثبت ـ أي قول أهل المغازي ـ إن بني المصطلق تهيؤا لحرب رسول الله ﷺ، وأعدوا له بزعامة رئيسهم الحارث ابن أبي ضرار، وأن النبي ﷺ أرسل إليهم بُريدة بن الحصيب ليعلم له علمهم، فأتاهم بريدة وكلّم رئيسهم الحارث، وعاد إلى رسول الله ﷺ بخبرهم، فندب رسول الله ﷺ الناس إليهم وسار بهم حتى بلغ (المريسيع)، فضرب عليه قبته، وتهيأ الفريقان للقتال، وتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه فحملوا عليهم حملة رجل واحد وهزموهم فما أفلت منهم إنسان.

وعبارة ابن إسحاق: فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزمهم الله، وقتل منهم، ونفل رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم.

ويقول ابن حجر: والذي في الصحيح يدل على أنه ﷺ أغار عليهم على حين غفلة منهم، ولفظه أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم

غارّون، وأنعامهم تستقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم.

محاولة ابن حجر التوفيق بين رواية أهل السِّيَر والمغازي ورواة الصحيح، وهم أثبت وأوثق.

ثم أخذ ابن حجر في محاولة التوفيق بين رواية أهل المغازي، ورواية الصحيحين فقال: يحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلاً، فلما كثر فيهم القتل انهزموا، بأن يكون لمّا دهمهم وهم على الماء ثبتوا وتصافُّوا ووقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

ثم أشار ابن حجر إلى كلام اليعمري في (العيون) وذكره لحديث عبدالله بن عمر من صحيح مسلم فقال: والحكم بكون الذي في السِّير أثبت مما في الصحيح مردود ولا سيما مع إمكان الجمع، وفي طريقة ابن حجر للجمع تعسف في التأويل.

وأحسن طريق للجمع بين ما ذكره أصحاب السِّير والمغازي، وما جـاء في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر من أن النبي ﷺ أوقع ببني المصطلق وهم غارّون، وأنعامهم تستقي على الماء: أن معنى غارّون غافلون، أي مشغولون بسقي نعمهم حين وصول النبي ﷺ بكتائب المجاهـدين إليهم، وهذا لا ينافي أنهم كانوا متأهِّبين لحربه ﷺ بجموعهم التي جمعوها واستعدوا بها لمهاجمته ﷺ، ولكنهم لم يبدؤا السير لهذا الهجوم، ومن كان على مثل حالهم لا تجدد له الدعوة، وإنما يؤخذ بالحرب والقتال على أي صورة يوجد عليها وتُمكِّن من هزيمته.

أما الدعوة التي زعم نافع رحمه الله أنها كانت في أول الإسلام ثم نسخت، فلم يثبت قط في رواية صحيحة أو عمل من جهاد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وصالحي ولاة الأمر في أمته نسخها، بل ظلّت باقية في كل جهاد قتالي قامت به جيوش المسلمين في عصور الاستقامة والعدل وقصد إعلاء كلمة الله.

والذي قاله نافع رحمه الله في ردِّه على ابن عون من أن الدعوة قبل القتال كانت في أول الإسلام إنما هو اجتهاد لم يذكر له نصاً يدلُّ عليه، فلا يقاوم النصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ وعن خليفتيه أبي بكر الصدِّيق،

وعمر الفاروق رضي الله عنهما، وقد جرى الأمر من بعدهما على ما جريا عليه.

وقول نافع رحمه الله: إن الدعاء قبل القتال كان في أول الإسلام يقتضي أن الدعاء قبل القتال كان منصوصاً ثم نسخ، ولم يثبت له نص ناسخ، فادّعاء النسخ غير صحيح إلا إذا ثبت الناسخ، وليس ثـمّة ناسخ، فالدعاء قبل القتال ثابت باق في الإسلام لكل من لم تبلغه دعوة هذا الدين بلاغاً بيّناً.

وقد قدمنا أنه ثبت في بعض روايات القصة أن النبي ﷺ أمر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن ينادي في بني المصطلق بقوله: «قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم»، وهذا توكيد لشرعة الدعاء قبل القتال، وليس دعاء مبتدأ، لأن بني المصطلق كانوا ممن بلغتهم دعوة الإسلام، فتأهبوا لمهاجمته بما جمعوه من شراذم القبائل التي انضوت إليهم، ثم لم يلبثوا لأول ما ذاقوا طعم الموت في حد السيوف وطعنات السنان أن فرُّوا منهزمين، فأخذوا فلم يفلت منهم أحد.

صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر ووجوب تأويل كلامه.

وقول نافع: وحدثني بهذا الحديث ابن عمر ـ وكان في ذلك الجيش ـ قول صدق لا يردّ على نافع لأنه في روايته ثقة صدوق، ولا سيما عن مولاه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، ولكن الكلام له احتمال لا ينافي صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر، ولا ينافي أن الدعاء قبل القتال باقٍ لم ينسخ، وأن بني المصطلق بلغتهم دعوة الإسلام وعرفوه معرفة ترفع وجوب دعائهم إليه إلا من باب التوكيد، ولكنهم كذّبوا به واستكبروا في الأرض بغير الحق عناداً وكفراً، وأعدُّوا لحرب رسول الله ﷺ الجموع التي جمعوها وتأهبوا للهجوم، فسار إليهم رسول الله ﷺ بكتائب المجاهدين قبل أن يسيروا إليه، ففاجأهم على ماء (المريسيع)، فلما وصل إليهم زاحفوا أصحابه ورموه بالنبال، وقاتلوهم، فأمر رسول الله ﷺ كتائب الجهاد أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فهزموهم، وقتلوا منهم بعضهم، وأسروا سائرهم.

وقد ذكرنا الاحتمال الذي يتم به التوفيق بين روايات أصحاب السِّير

والمغازي، وظاهر حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو أن المعنى: غارّون، أي غافلون مشغولون في سقي أنعامهم على الماء، ولم يتوهّموا قط أن أخبار تجمعاتهم بلغت النبي ﷺ، وأنه ﷺ تحرّك بكتائب المجاهدين في وجههم، فلقي جموعهم على ماء (المريسيع) فزاحفوهم وتراموا بالنبال، وحمل عليهم أصحاب رسول الله ﷺ فصدقوا الحملة وأصابوهم فلم يفلت منهم إنسان.

والغفلة التي هي معنى الغـرّة كانت حـين شُغلهم بسقي نعمهم وشائهم، ولم تكن غفلة عن الإسلام ودعوته، لأنهم كانوا على علم به، وبرسالته، ولكنهم أخذوا في تجميع الجموع لحرب رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم ليستأصلوهم، فبادرهم ﷺ بعـد أن تأكـد من أخبارهم وأخبـار تجمعاتهم والتقى بهم بجيشه، وقاتلهم وقاتلوه، بيد أنهم لم يصبروا على عضِّ السيوف وطعن الرماح، فانهزموا أمام حملة المجاهدين، وقتل منهم عشرة رجال، وأخذ سائرهم أسرى، فالغرّة التي في حديث ابن عمر كانت غفلة طارئة شغلوا بها في سقي أنعامهم، وفي فترة هذه الغفلة كانت الإغارة عليهم.

يُمْن عائشة رضي الله عنها وبركتها في نزول تشريع التيمم

وفي هذه الغزوة المباركة نزلت آية التيمم، وهي من تشريع الرحمة ورفع الإصر عن هذه الأمة الإسلامية.

اختلاف العلماء في تعيين آية التيمم التي نزلت بسبب قلادة عائشة.

وللتيمم آيتان في القرآن، إحداهما في سورة النساء، والأخرى في سورة المائدة وقد اختلف العلماء من السلف في أي آيتيه هي التي نزلت في غزوة بني المصطلق، فقال ابن بطّال: هي آية النساء أو المائدة، ولم يرجِّح آية على آية في سبق النزول.

وقال القرطبي: هي آية النساء، ووجّه قوله بأن آية المائدة تسمّى آية الوضوء، أي أنّ ذكر التيمم فيها جاء بعد ذكر الوضوء، وعدم إمكانه حقيقة أو حكمًا، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جُنُباً فاطّهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمّموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهِّركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾[1].

قال القرطبي: وآية النساء:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا جنباً إلّا عابري سبيل حتى تغتسلوا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم

(١) سورة المائدة آية (٦).

النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم، إن الله كان عفواً غفوراً﴾[٢] - لا ذكر فيها للوضوء.

وذهب هذا المذهب الواحدي حيث ذكر الحديث في آية النساء في كتابه أسباب النزول، وقال ابن حجر: وخفي على الجميع ما ظهر للبخاري من أنها آية المائدة بلا تردد لرواية عمرو بن الحارث إذ صرح فيها بقوله: فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾.

عتاب أبي بكر عائشة وشدته عليها في هذا العتاب كما بيّنه البخاري.

وقصة نزول آية التيمم وردت في الصحيحين، ذكرها البخاري في عدة مواضع، وذكرها مسلم في الطهارة، وهي من حديث عائشة رضي الله عنها في غزوة (المريسيع) قالت: خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر، فقالوا له: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ الناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء؟ فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول.

وقد بينت رواية البخاري هذا الإبهام الذي جاء في عتاب أبي بكر عائشة رضي الله عنها، فقالت عائشة: فقال أبو بكر: يابنية، في كل سفرة تكونين عناء وبلاء على الناس؟ فأنزل الله تعالى الرخصة في التيمم.

فرح المسلمين بنزول رخصة التيمم وثناؤهم على حفاوة الله تعالى بها.

وقد اغتبط المسلمون وفرحوا فرحاً شديداً بفضل الله عليهم إذ فرّج عنهم ضائقتهم ببركة عائشة رضي الله عنها، وجاءها أبوها الصدّيق بعد هذا العتاب الشديد، وقد رأى غبطة المسلمين بحفاوة الله تعالى بهم حفاوة عامة في كل زمان ومكان ببركتها وإكراماً لها، وإظهاراً لفضلها وتشريفاً لمقامها، فقال لها ووجهه يتبلج بنور المحبة الأبوية: إنك لمباركة.

---

(٢) سورة النساء آية (٤٣).

وفي رواية للطبراني ذكرها اليعمري في (العيون) أن أبا بكر قال لعائشة: والله يابنية، إنك كما علمت لمباركة، وذكر الزرقاني عن القتبي في تفسيره أن النبي ﷺ قال لها: «ما كان أعظم بركة قلادتك».

وقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركاتكم يا آل أبي بكر. وفي رواية أنه قال لعائشة: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك منه مخرجاً، وجعل للمسلمين فيه بركة.

كشف مقابح النفاق وفجور المنافقين وخبيث مكرهم وكيدهم للمسلمين.

وفي بعض أحداث هذه الغزوة المباركة نزلت سورة المنافقون، كاشفة عن أقبح سوءات النفاق وفجور المنافقين، وسوء مكرهم وكيدهم وإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، لتفريق كلمتهم، وتمزيق وحدتهم كما أراد رأس النفاق وخبيث المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول أن يُحْدثه في أوهى الأسباب التي لا يخلو منها مجتمع عربي في تزاحم الجموع على الماء للسقيا والطهور، حيث ازدحم جهجاه الغفاري ـ وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، يقود فرسه، وسنان ابن وبر الجهني ـ حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، وتناديا بدعوى الجاهلية، فصرخ سنان: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فلما سمع ابن أبي المنافق تناديهما بتلك الدعوى الجاهلية المنتنة كما سمّاها رسول الله ﷺ غضب ابن أبي، وصاح بلسان الشيطان: أوقَدْ فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش إلّا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ في قصة طويلة، عرضنا لذكرها في مناسبة سابقة اقتضت ذكرها مفصّلة، وبينّا هناك ما في القصة من معالم منهج الرسالة، وأوضحنا ما كان من قوة إيمان الرجل الصالح عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول في رسوخ إيمانه ويقينه وصفاء سريرته، ونقاء إخلاصه لعقيدته ودينه إلى درجة أنه أراد أن يقتل أباه ويحمل رأسه إلى رسول الله ﷺ، فأمره ﷺ ببره والإحسان إليه كما أوضحنا السياسة الحكيمة المحكمة التي انتهجها رسول الله ﷺ لإطفاء نيران هذه الفتنة المدمرة ـ التي يكيد بها أعداء الله وأعداء دينه، وأعداء رسوله ﷺ، وأعداء المجتمع المسلم من المنافقين الذين ينسجون خيوط الفجور والتآمر بالمجتمع المسلم في ظلمات التدسس والنفاق

وفجور الكفر ـ إذا خيف استشراؤها وضراوتها وتفاقمها، ومغبة نتائجها، وخشي على المجتمع المسلم المتماسك في بنائه الجديد بعناصر الإخاء الإيماني أن تفرقه تلك الفتن الجائحة الجامحة، وأن تمزق أديمه تلك المكايد الخبيثة التي يكيده بها المنافقون لتفصم عرى الوحدة بين صفوفه.

وسنعرض لذكر ما فاتنا وتأكيد ما ذكرنا عند الكلام إن شاء الله على مواقف المنافقين وخذلان الله تعالى لهم في تدسسهم وسيء مكرهم وفجور كيدهم، وهم يخالطون المجتمع المسلم اعتماداً على إظهارهم بعض شعائر الإسلام، وإخفائهم الكفر والفجور.

محنة الإفك والبهتان

أخبث وأخطر مكايد النفاق ولؤم المنافقين

دسيسة الإفك خسّة وفجور نفاقي لئيم كفور وخبث يهودي حقود.

وفي هذه الغزوة الممحِّصة للإيمان وقعت أخطر حادثة أدخلت على كل مسلم ومسلمة من البلاء ما لم يدخل عليه مثله في محن الشدائد والأزمات التي ابتُلي بها المسلمون، فقابلوها بصبر لم يتجرعوا مرارته في كارثة من كوارث الحياة، ولكنهم تجلّدوا لها، واحتملوا لهيب نيرانها وهي تشوي قلوبهم وأكبادهم، وتحرق أفئدتهم، لأنهم فوجئوا بها، فلم يعرفوا لها مدخلاً ولا مخرجاً، لأن المقادير الإلٰهية أرادتها لتكون أبلغ درس في التربية الاجتماعية للمجتمع المسلم، تلك هي حادثة أسوأ مكر، وأخبث فجور كاد به المنافقون هذا المجتمع القائم في تركيبه الإيماني والاجتماعي على الطهارة والتطهر من دنس الأرجاس الحسية والمعنوية.

كان المجتمع المسلم قد أنهى معركة بني المصطلق بنصره المؤزر على جموعهم، ونادى منادي رسول الله ﷺ بالرحيل من ديار العدو، وأخذ المجاهدون في الترحيل بعد أن صفّوا هذا الجيب المتواري من جيوب التربص بالمجتمع المسلم ممثلاً في قبيلة بني المصطلق وهي واقفة تؤرجحها الحيرة فلا تتقدم ولا تتأخر، يملكها الرعب فتنزوي في جحورها، ويعبث بها الفزع والهلع يقيمانها بين الحرب والسلم.

وكانت انتصارات رسول الله ﷺ تفعم قلوب المنافقين غيظاً وحنقاً، تعترض في حلاقيمهم غصّة تكتم أنفاسهم، فلا يتنفسون إلا من وراء أستار الظلام لأنهم جبناء رعاديد، ليس لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يظهرون ما يبطنون، ولا يستطيعون أن يقفوا في ميادين القتال هنا أو هناك، فهم كفّار

فجرة إذا خلوا إلى شياطينهم من خبثاء اليهود، وهم مسلمون إذا رأوا راية الإسلام تخفق بالنصر، ولكنهم كما وصفهم الله تعالى في قوله عز شأنه: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون﴾[1].

تلك هي حادثة التقوّل بالكذب والباطل، والافتراء المختلق في مصانع النفاق والفجور على أطهر الطاهرات المطهَّرات، الصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما، حبيبة سيد الخلق محمد ﷺ أم المؤمنين السيدة العظيمة عائشة رضوان الله عليها.

الإفك أرذل الافتراء وأحطه لؤماً أن يكون في حق أطهر الطاهرات.

وقد سمَّى الله تعالى في كتابه الحكيم هذا الافتراء (الإفك) فقال تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ والإفك أبلغ الكذب، وأرذل الافتراء، وألأم الاختلاق، كما سمّاه جلّ شأنه بهتاناً وهو يعاتب المؤمنين في سكوتهم لحظة سماعهم بدافع إيمانهم بطهارة ساحة النبي ﷺ أن تكون في عصمته من تحوم حولها أدنى الشبهات، وبدافع إيمانهم بطهارة ذيل من اصطفاها الله تعالى زوجاً لخير الخلق خاتم النبيين وسيد المرسلين، فكانت بهذا الاصطفاء أمّاً للمؤمنين وسيدة نساء العالمين فضلاً وشرفاً وطهراً وعلماً وأدباً وخلقاً ـ بقوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ وبقوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم﴾،والبهتان هو البلاء لا يشعر به الإنسان حتى يفجأه بوقوعه.

وفي أسلوب هذه الآية الكريمة ضرب من البلاغة والمبالغة في تنفير المؤمنين عن سكوتهم عند سماع ما يسيء ويشين سمعة أي مؤمن ومؤمنة، حيث جعل الله المؤمنين والمؤمنات شيئاً واحداً بإيمانهم، وجعلهم كلهم نفساً واحدة، يتوحد بها النفع والضرر، والخير والشر والإحسان والإساءة.

قال العلامة ابن المنير في انتصافه تعليقاً على قول الزمخشري: معناه

---

(١) سورة التوبة آية (٥٦ ـ ٥٧).

من أحسن ما قيل في بيان بلاغة الآية قول ابن المنير والزمخشري.

ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله: لا تلمزوا أنفسكم. والسر في هذا التعبير تعطيف المؤمن على أخيه المؤمن وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة ولا شيء أشنع من ذلك.

قال الزمخشري: فإن قلت: هلّا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم، ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرِّح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضٍ أن لا يصدِّق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن.

وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر على الظن لا على الشك، وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير: (هذا إفك مبين) هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال.

القرطبي يعمم العتاب فيجعله شاملاً لجميع المؤمنين والمؤمنات حاشا أبا أيوب الأنصاري وزوجه.

قال القرطبي أبو عبدالله: هذا عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزّهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوجة نبيه عليه الصلاة والسلام، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان.

وقد وقع هذا التنزيه لله تعالى فخرج به من العتاب أبو أيوب الأنصاري وزوجته، إذ دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذب! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال أبو أيوب: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم، وهذا فضل انفرد به أبو أيوب وزوجته، فتفضَّل الله عليهما فأخرجهما من عتاب شمل جميع المؤمنين.

وقد أنزل الله تعالى في شأن قصة الإفك، وشأن المتكلمين فيه بالباطل والكذب وتبرئة الصدِّيقة رضي الله عنها والثناء عليها، وذكر ما أعدّه الله لها من عظيم الثواب في الآخرة، ونقاء السيرة في الدنيا، وعلو الدرجة في

المجتمع المسلم أينما كانت أجياله وأوطانه ـ قرآناً يتلى، ويتعبد بتلاوته وتشريعاته، ويصلّى به، آيات محكمات، ملزماً لكل مؤمن ومؤمنة بما جاء به من هداية وأحكام إلى يوم القيامة.

وذلك في نحو ست عشرة آية من صدر سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ وتختم بقوله جل شأنه: ﴿أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم﴾ كل آية منها مستقلة ـ كما يقول الزمخشري ـ بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضي الله عنها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجّه أذناه.

الذي تولّى كبر الإفك هو ابن أبي بن سلول رأس المنافقين ومشى خلفه مرضى القلوب.

وكان الذي تولّى كِبْر هذا الإفك والبهتان وأشاعه واستوشاه هو الخبيث الفاجر رأس النفاق وزعيم المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول ـ لعنه الله ـ وجاراه في ذلك بعض من استزلّهم الشيطان فاستحوذ على مكامن الإيمان من أنفسهم فغطّاها بظلام وسوسته وضلالاته، وكانت فتنة عمياء، أصابت المجتمع المسلم بزلزلة هزّت كيانه، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين، فأفصح بعضهم بعظيمة العظائم وقبيحة القبائح، وجمجم آخرون، وسكتت طائفة فلم تدر من شدّة الدَّهش والذهول ما تقول، وكعَّ بعض عن الإفصاح بالحق في تنزيه حليلة خير المرسلين الطاهرة المطهرة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأنزل الله تعالى عقابه على من جبن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، وادّخر للذين صرحوا واستوشوا الافتراء والكذب يثيرونه كلما خبت ناره زادوها تسعيراً.

أولئك هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض ممن لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وهم الذين كانوا يسمعون ولا ينكرون لضعف ثقتهم في أنفسهم لضعف إيمانهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾.

وكان في هذا الحدث الخطير من شدّة البلاء لرسول الله ﷺ ما لم يعلم مبلغ إيجاعه وإيلامه إلا الله تعالى، ولكنّ رسول الله ﷺ كان في صبره فوق

شدة بلاء هذا الحادث على رسول الله ﷺ وعلى زوجه أم المؤمنين وعلى أبويها وآلها وسائر المسلمين.

مستوى الأحداث وآلامها، فصبر أجمل الصبر، واحتمل أعظم الاحتمال، وعالج الأمر بحكمة هادئة، وكان همه الأكبر أن يقي المجتمع المسلم عواصف الفتن، وقواصم المكايد النفاقية التي كانت تثيرها العصبيات القومية التي كانت من بقايا الرواسب الجاهلية في أنفس بعض المؤمنين.

كما كان في هذا الحدث الخطير لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، زوجة سيد الخلق وأحبِّ الناس إليه، ولأبويها وآلها، وخاصّة المسلمين وعامتهم ما أقضّ مضاجعهم ونشّف الدمع في مآقيهم، حتى كشف الله تعالى الغمّة، وفرّج الكربة، وأنزل وحيه بالقرآن الكريم على رسوله الأمين بما لم يكن لأحد في الحسبان، ولا وقع مثله قط في حادثة من الحوادث التي تراها النظرة العابرة على أنها حادثة فردية كان يكفي في إبطالها أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا منامية في تبرئة أطهر الطاهرات أم المؤمنين الصدِّيقة بنت الصدِّيق.

ما غيبته الأقدار في هذا البلاء من حكم ربانية تمثل جوانب من منهج الرسالة.

ولكن الله تعالى أراد أن يجعل هذه الحادثة درساً تربوياً بليغاً للمجتمع المسلم تبقى معه آثاره ما بقي في الحياة من يتلو آيات الله من الهدى والنور.

وأن يجعل منها درساً تأديبياً للذين ساقتهم العصبيات القومية سياقاً لا يرضاه إيمانهم برسالة الإسلام وآدابها وشرائعها وأحكامها وأخلاقها.

وأن يجعل منها نكالاً للنفاق والمنافقين، وللذين في قلوبهم مرض لا يشفيه إلا الإرجاف بالسوء وإشاعة الأكاذيب والبهتان في مجتمع المؤمنين.

وأن يجعل منها مناراً على طريق الذين ملأ الإيمان قلوبهم ليزيدهم علماً بمقام رسول الله ﷺ ومعرفة بحرماته، وتقديراً لمنزلته عند ربه الذي أرسله هدى ورحمة للعالمين.

وأن يجعل منها منهجاً لمعالم الاصطفاء لخواصِّ المقرّبين لرسول الله ﷺ لتعرفهم الأمة بنعوت فضلهم وفواضلهم، وتعرف لهم أقدارهم في ذروة دوحة الإيمان والمؤمنين.

وأن يجعل منها خصِّيصة ليرفع من شأن أطهر الطاهرات، الصدِّيقة

بنت الصديق زوج أحب خلق الله إلى الله، إظهاراً لشرفها الذاتي والاجتماعي، وإنافة لمكانتها في أهل البيت طهراً وفضلاً وشرفاً، وثقلاً في ميزان الفضائل الإنسانية والإيمانية لمكانها من قلب رسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها من حديثها الطويل عند البخاري: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وكان الذي يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي.

إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ، ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر.

تصوير عائشة للموقف بدءاً ونهاية.

قالت عائشة رضي الله عنها: فأخبرتني أم مسطح بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي.. فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي.

فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي دخل رسول الله ﷺ علينا فسلَّم، ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء.

فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا، وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه».

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال: فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمي: فوالله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيراً: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر

في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلت إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم إني منه بريئة ـ لتصدِّقُني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزِّل في شأني وَحْياً يُتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدَّر منه العرق مثل الجمان ـ وهو في يوم شاتٍ ـ من ثقل القول الذي أُنزل عليه، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشة إن الله قد برّأك» فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، وأنزل الله تعالى عليه: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾.

تصوير القرآن للموقف بأسلوب إعجازه وروعته.

والمتأمل في هذه الآيات الكريمات على ضوء ما قالت عائشة رضي الله عنها في رواية الصحيح يرى أنها جاءت بأكفأ وأربى في التشريف والحفاوة والمنافحة عن حرم رسول الله ﷺ وتنزيه ساحتها، وتعزية المجتمع المسلم وتسلية رسول الله ﷺ فيما أصابه من البلاء وشدّة المحنة، وفيما جاء به أعداء الله، وأعداء رسوله وأعداء أهله، وأعداء دينه، ورسالته من المنافقين ومرضى القلوب، الحاسدين المحنقين والمتلقفين الأباطيل والأكاذيب من ألسنة الفجرة المتقوِّلين، وأفواه المرجفين، تعظيماً لقدره ﷺ، وصوناً لساحته أن يكون متنزلاً للبهتان المفترى، وإعزازاً لأحب الناس إليه أن يحوم حول حمى شرفها وطهرها رشح من نزيز الحاقدين.

خصائص عائشة المميزة في حياتها مع رسول الله ﷺ.

وقد أبانت عائشة رضي الله عنها أبلغ بيان بأروع أسلوب إذ تحدثت عن نفسها بعد أن برّأها الله تعالى فقالت: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة: لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول

الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً ما تزوج بكراً غيري، ولقد توفي رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حِجْري، ولقد قبر في بيتي، ولقد حفّت الملائكة ببيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وأنا معه في لحافه، فما يبينني عن جسده، وإني لابنة خليفته وصدِّيقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

ولقد صدقت في كلِّ ما حدثَتْ به عن نفسها من الفضل والشرف والخصائص النبيلة والصفات الكمالية التي لم تجتمع في امرأة قبلها ولا بعدها.

آية من البلاغة الزمخشرية في تفسير آيات الإفك والبراءة.

وفي تصوير ما اشتملت عليه الآيات التي بُرّئت بها عائشة رضي الله عنها أفرغ الزمخشري سواد عيون براعته البيانية مداداً لقلمه، فأحسن وأبدع، وسما إلى ذروة الإعجاز في الكلام البشري إنصافاً وانتصافاً ومعرفة لمنازل البلاغة من الكلام، فقال: ولو فلّيت القرآن كلّه وفتّشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما رُكب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه؛ ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه.

ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً وتوعّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك (أن الله هو الحق المبين).

فأوجز في ذلك وأشبع، وفصّل وأجمل، وأكد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر....

ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ وبرّأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب

بثوبه، وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إني عبدالله، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر.

مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول الله ﷺ والتنبيه على إنافة محلّ سيد ولد آدم وخير الأولين والآخرين وحجّة الله على العالمين.

ومن أراد أن يتحقّق عظمة شأنه ﷺ وتقدّم قدمه، وإحرازه قصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه.

صبر النبي ﷺ وآل أبي بكر تحت وطأة بلاء الإفك.

وقد لبث ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابراً صبراً لم يعرف في تاريخ النوازل والبلايا لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد قدومهم المدينة بسبع وثلاثين ليلة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، تحدث به أهل النفاق ومَرْضَى القلوب، ولاكته ألسنتهم بين أشداقهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم.

وكذلك كان حال آل أبي بكر، فإنهم منذ بلغهم (الإفك) وما تحدّث به المنافقون ومرضى القلوب وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، ولكنهم استسلموا لقضاء الله منتظرين حكمه ـ وهم يتجرّعون مرارة الصبر في حَيْرة وذهول ـ بكشف هذه الغمة التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر رسول الله ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصف عائشة لحالها وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء.

تقول عائشة رضي الله عنها تصف حال أبويها وحال أهل بيتها، وما بلغت منهم المحنة من شدة عصفت بكيانهم، وزلزلت أقدامهم، وأذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية، فسكتوا سكوت المطّلع إلى الغيب، يتسمّع حكمه على حياته ـ : ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

ثم تقول عائشة رضوان الله عليها تصف حالها من الثقة واليقين الإيماني ببراءتها، وتصف حال أبويها وشدة ما نزل بهما حين نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وتغشّاه ما كان يتغشّاه: فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة وأن الله عزّ وجل غير ظالمي.

وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سُرّي عن رسول الله ﷺ حتى رأيت لتخرجنّ أنفسهما فَرَقاً من أن يأتي تحقيق ما قال الناس.

* * *

اختلاف الروايات في أسماء من صرح بالإفك ومن سمعه فلم يدفعه.

وقد اختلفت الروايات اختلافاً واسعاً في أسماء من أفصح بالإفك، ومن سمعه فلم يدفعه ومن تضاحكوا لسماعه ولم يخوضوا فيه.

والذين دار ذكرهم في الروايات بأنهم شركوا فيه: هم عبدالله بن أبي ابن سلول رأس النفاق وزعيم المنافقين، وهو الذي تولّى كِبْره، فأفصح به وصرّح، وشقي وهلك بالافتراء والبهتان وقول الزور، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري من حديث الزهري، عن عروة.

قال القرطبي: وأخرجه الاسماعيلي في كتابه (المخرّج) على الصحيح من حديث مَعْمَر عن الزهري، وفيه: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولّى كِبْره منهم علي بن أبي طالب؟ قال الزهري: فقلت لا، حدثني سعيد بن المسيِّب وعروة، وعلقمة، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة، كلهم يقول: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: والذي تولّى كبره عبدالله ابن أبي بن سلول، وكان هذا اللعين ابن سلول هو الذي يجتمع إليه فيه، ويستوشيه، ويشعل ناره.

وذكر القرطبي أن حسان بن ثابت كان من قالته، وشرك مع القائلين مسطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش، وقد سأل عبد الملك بن مروان عروة، فقال عروة: لم يسمّ من أهل الإفك إلا حسّان، ومسطح، وحَمْنَة، وعبدالله ابن أبي بن سلول رأس المنافقين، وجُهل غيرهم إلا أنهم كانوا عصبة، وقد

ذُكر عن عائشة في بعض الروايات أن الذي تولّى كِبْره حسان بن ثابت، وهذا قول معارض بقول عروة: كانت عائشة تكره أن يُسبّ حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فـإن أبي ووالـده وعـرضـي لـعـرض محمـد مـنكـم وقـاء

براءة حسان من الخوض في الإفك والإفصاح به وشعره في ذلك.

قال أبو عمر بن عبد البر: إن عائشة برأت حسّان من الفرية، وقالت أنه لم يقل شيئاً، وأنكر حسّان أن يكون قال شيئاً من ذلك في قوله من قصيدة يمدح بها عائشة رضي الله عنها:

حصـان رزان مـا تُـزن بـريبـة وتصبح غرثى من لحوم الغوافـل
حليلة خـير الناس ديناً ومنصباً نبي الهدى والمكرمات الفواضـل
عقيلة حي من لؤي بن غـالب كرام المساعي مجدها غـير زائل
مهـذبـة قـد طيّب الله خيمهـا وطهّرها من كـل شَيْن وبـاطل
فـإن كـان مـا بُلِّغتُ أني قلتـه فـلا رفعت سـوطي إليّ أنـامـلي
فكيف وودّي ما حييتُ ونصرتي لآل رسـول الله زين المحافـل

وقد تعارض النقل في روايات صحيحة الأسانيد عن عائشة رضي الله عنها في حسان بالنفي والإثبات، ويُجمع بين قوليها فيه، أنه لم يقل إفصاحاً أو تصريحاً، وإنما لعله عرّض بذلك وأومأ إليه في مجلس شاعري لا يتحفظ عند المسامرة، فنسب إليه أنه تكلم فيه وشارك.

تأويل ما أُبن به حسان في الإفك ومواقفه في الإسلام.

والذي تميل إليه النفس لتعارض الروايات أن حسانَ رضي الله عنه جرى في مجالس الهالكين بالإفك على طريقة سمَر الشعراء وأهل الأدب القولي، يتضاحكون بالكلمات والفكاهة والخبر الساخر، دون أن يقصدوا ما يتعلق بها، وهذا فيهم كما قال الله تعالى: ﴿والشعراء يتّبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ ومن ثَمّ جرى الخلاف فيه بين العلماء: هل خاض في الإفك وأفصح بالافتراء والبهتان أو كان يسمع ولا يدفع؟

وحسان رضي الله عنه له مواقف في الإسلام من أكرم وأشرف مواقف

المجاهدين بلسانه في نصرة الدعوة الإسلامية منذ دخل في ساحة الإسلام مسلماً مؤمناً، محباً للإسلام ونبيه ﷺ وأهله وآل بيته.

وكان في حياته المسلمة سيفاً مصلتاً على أعناق أعداء الإسلام من المشركين وشعرائهم ينافح عن رسول الله ﷺ، ويدافع عن أصحابه ودعوته. وقصائده الإسلامية في ديوانه تحتل مكاناً رَحْباً وهي من غرر شعره.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقول له: «اهجهم وروح القدس معك» وكان ﷺ يسمع شعره ويسرّ به، ويقول عن شعره في منافراته لشعراء المشركين: إنه أشد عليهم من رَشْق النبل.

ولو لم يكن له إلاّ همزيته التي يقول فيها ردّاً على أبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطّلب وكان من أشد أعداء النبي ﷺ قبل إسلامه لكفاه فخراً في إسلامه.

أتهجوه ولست له بكفء   فشرُّكما لخيركما الفداء

قال نَقَدة الشعر في هذا البيت: إنه أهجى بيت في شعر العرب، وأنصف بيت، وأنظف بيت، مع ما فيه من قارس الهجاء الوجيع.

رد ابن كثير التهمة عن حسان رضي الله عنه.

وقد ردّ ابن كثير قول من قال: الذي تولّى كِبْر الإفك حسّان، فقال وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدلّ على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذبُّ عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجِهم وجبريل معك».

وحسب حسان من المآثر والمفاخر أنه انفرد في حياته الإسلامية بلقب شاعر الإسلام، وفي قصيدته التي زعم ابن إسحاق أنه هجا فيها صفوان ابن المعطّل يقول:

أما قريش فإني لا أسالمها   حتى ينيبوا من الغيّات للرشد
ويتركوا اللاّت والعزىّ بمعزلة   ويسجدوا كلُّهم للواحد الصمد
ويشهدوا أن ما قال الرسول لهم   حقٌّ فيوفوا بحق الله والوكد

ولا يرى فيها هجاء لمسلم لا تعريضاً ولا تصريحاً، ويروى أن صفوان رضي الله عنه بلغه أن حسان يتكلم في الإفك، وأنه هجاه بشعره، فأخذته الحميّة قبل أن يتثبت، واعترض حسانَ فضربه بسيفه ضربة إرعاب وتخويف، وقال له:

تلقَّ ذُباب السيف عنيِّ فإنني غلام إذا هوجيت لست بشاعر

عتب النبي ﷺ على حسان تعريضه بقومه في شعره وإكرامه له بفيض عطائه.

وقد لقيهما ثابت بن قيس بن شمّاس وكعب بن رواحة فأخذاهما وأتوا كلهم رسول الله ﷺ، فقال صفوان: يا رسول الله، آذاني وهجاني، فاحتملني الغضب فضربته، فقال رسول الله ﷺ: «يا حسان، أتشوّهت على قومي إذ هداهم الله؟ أحسن يا حسان» فقال حسان: هي لك يا رسول الله، فعوضه رسول الله ﷺ من ضربته بيرحاء، وجارية قبطية يقال لها سيرين، قيل: وهي أخت مارية أم ولد رسول الله ﷺ إبراهيم عليه السلام جاء لحسان منها ولده عبد الرحمن بن حسان، وكان يفتخر بأنه ابن خالة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ.

هذا الموقف الكريم من النبي ﷺ، وفيه هذا التصرف الرحيم مع حسّان رضي الله عنه يتنافى كل المنافاة مع رواية من زعم أن عائشة رضي الله عنها قالت: الذي تولَّى كِبْر الإفك حسان، لأنه لا يعقل أن يكون حسّان هو الذي تولّى كِبْر الإفك والافتراء على الطاهرة المطهّرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، ثم يلقى من رسول الله ﷺ هذا العتاب المتلطف مع الإكرام المشرّف بإهدائه أخت أم ولده إبراهيم عليه السلام، وبستاناً خرير الماء، كثير الثمر، هذا بعيد جداً.

تأويل موقف مسطح وتبرئته من الإفصاح بالإفك.

وأما مسطح بن أثاثة فإنه وإن ذكر مع من سُمِّي من أهل الإفك في قول عروة مجيباً لسؤال عبد الملك بن مروان، لكنه لم يثبت عنه الإفصاح والتصريح الموجبان لحدِّ الفرية والقذف، وأقصى ما يتصور في موقفه أنه كان يسمع، ويشارك بالكلمة الموئة من غير تصريح، ويدل لذلك أنه نفى عن نفسه أن يكون قال شيئاً ـ أي تصريحاً ـ كما يدل عليه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ردِّه على اعتذار مسطح بأنه لم يقل شيئاً: لقد ضحكت

وشاركت فيها قيل، فقال مسطح: إنما كنت أغشى مجالس حسّان، فأسمع ولا أقول شيئاً.

قال القشيري ـ كما حكاه عنه القرطبي ـ : فأما مسطح فلم يثبت عنه قذف صريح، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح.

وقد قدّمنا أن الذي كان يقال في مجالس حسان إنما هو نوع من السَّمر والتضاحك والتغامز بالأحداث التي تشغل المجتمع، ويشهد لذلك شعر حسان أن يكون قد قال شيئاً، وقد برّأته عائشة رضي الله عنها عن الإفصاح والتصريح.

لم يثبت عندنا شيء عن إفصاح حمنة بالإفك.

وأما حَمْنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها فهي امرأة كغيرها من عامة النساء، تغلب عليها العاطفة والحميّة، وكانت ترى من فضل عائشة رضي الله عنها ومنزلتها عند رسول الله ﷺ، وعنده أختها السيدة النبيلة زينب بنت جحش رضي الله عنها، وهي التي كانت تسامي عائشة من بين نساء النبي ﷺ، ولكنها لم تكن تلحقها، فلما أرجف المنافقون بحديث الإفك، واستوشوه في مجالسهم، وأذاعوه على الأسماع، وأفصحوا به وصرّحوا، وكانت مجالس مآنس لمرضى القلوب من ضعفة المسلمين الذين لم تشرب قلوبهم حبّ الإيمان، وهؤلاء كانوا مغمورين في المجتمعات لا يعرفون إلا لماماً، فلم يقم لهم وزن في حضورهم ولا في غيابهم.

ولعل حمنة كانت من اللاّئي يسترقن السمع من النساء المنافقات وبيوتهن، فتسمع حديث الإفك، وتستطعمه وتستعيده حميّة لأختها السيدة التقية أم المؤمنين زينب رضي الله عنها.

وشهر ذلك من أمر حمنة، وذاع في الناس أنها قالت في الإفك، ولم يثبت عندنا في رواية ثابتة أنها أفصحت وصرّحت بما يوجب إقامة الحد على المفتري الكذاب.

وكل ما ثبت هو ذكر اسمها مع من زُعم عليهم من المؤمنين أنهم قالوا

ما قيل في الإفك، دون تعيين لقولٍ على نحو ما ثبت عن الخبيث اللعين رأس النفاق وزعيم المنافقين، عبدالله بن أبي بن سلول الذي صرّح بأخبث ما افتري من البهتان والإفك.

لم يثبت عندنا أنَّ أحداً من خُلَّص المؤمنين صرح بالإفك.

وبهذا التحقيق يتضح أننا نرى أنه لم يثبت عندنا اشتراك أحد من خُلَّص المسلمين المؤمنين في حديث الإفك تصريحاً يوجب حد القذف، وإنما الذي كان إنما هو إرجاف من المنافقين، ومرضى القلوب، أفصحوا في إرجافهم عن الافتراء والبهتان والإفك، وهم الذين كانوا يجتمعون له، يستوشونه ويشعلون لهيبه ليحزنوا الذين آمنوا، ويدخلوا عليهم من الفتنة والشك ما يشغلهم عن نشر دعوتهم، وتبليغ رسالتهم، وليسيئوا إلى رسول الله ﷺ في أحب الناس إليه، بألأم ما عُرف من لؤم الطبائع البشرية وأخبث ما تُلوث به سيرة أطهر الطاهرات، وأفضل الفضليات.

وقد أخبرنا الله تعالى أنه كان في المجتمع المسلم سمّاعون للمنافقين، نمّامون، يسمعون أكاذيبهم فينشرونها بين الناس، ليثيروا الفتن، ويسمعون من المؤمنين أحاديثهم فينقلونها إليهم.

وهؤلاء السمّاعون النمّامون هم الوصائل الخبيثة لنقل الحديث وإشاعة السوء في المجتمعات، فلا يبعد أن يكون المنافقون قد أوحوا إلى هؤلاء السمّاعين كما توحي الشياطين إلى أوليائهم أن يبثّوا أكاذيب الإفك في مجالس المؤمنين، ليتلقّفها منهم ضعفاء الإيمان، ويتلقّوها بألسنتهم، متضاحكين، يسترضون بها عواطف الحمية العصبية بسماعها وإذاعتها، وبهذا الطريق الخبيث من كيد المنافقين تنوقل حديث الإفك من بيوت ومجالس المنافقين إلى مسامع المؤمنين في مجالسهم، فجمجم به الهزأة الساخرون الذين يلقون الحديث فلا يبالون بما فيه، واستطعمه بعض الضحكة الهازلين، يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم.

وأما قوله تعالى: ﴿عصبة منكم﴾ في قوله: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ فالخطاب فيه للمجتمع المسلم كلّه بما فيه من صادقي الإيمان،

وبما فيه من المنافقين ومرضى القلوب والسمّاعين للمنافقين النمّامين الناشرين للإفك والبهتان.

وقد ذكر الزمخشري مع عبدالله بن أبيّ من المنافقين زيد بن رفاعة، وفي رواية عن عروة بـن الزبير أن المشتركين في حديث الإفك كثيرون، وقد سمّاهم الله عصبة، ولم يسمِّ منهم إلا ما علم، وجُهل الباقون فلم يذكروا، ولو أن أحداً من الرواة عني بالبحث عن أهل الإفك لوصل إلى أن حديث الإفك حبكة من نسج النفاق وخبث المنافقين، الذين لم يقع في حبائلهم إلا مرضى القلوب والسماعون النمامون.

ويرشح ما ذهبنا إليه أن العلماء اختلفوا: هل حُدّ أحدٌ من أهل الإفك؟ حكى الماوردي في ذلك قولين بالنفي والإثبات.

والمسألة لم يثبت فيها حديث صحيح يرفع الشك ويوجب اليقين، فالله تعالى أعلم بما كان.

عبر الغيب في تصريف الأقدار
كيف بدأت هذه الغزوة؟ وكيف ختمت؟
إعراسه ﷺ بجويرية وإسلام قومها

كانت غزوة بني المصطلق كنانة سهام مسمومة أفرغها المنافقون ليكيدوا المجتمع المسلم.

كانت غزوة (المريسيع) كنانة سهام مسمومة لأحداث جسام، ووقائع خطيرة، دبّرها أهل النفاق وفجّارهم، لم يقع مثلها في غزوة من الغزوات المسعورة في القتال.

وقد جعل الله ترياق سموم أحداثهم في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم، كلما أُبطل منها مفعول حادثة من حوادثها بسياسته الحكيمة المحكمة التي أمدّه الله بها في مقابلة الأخطار لوأدها في مهدها كشّرت عن أنيابها حادثة أعتى منها، وأشرس وأضرى.

وكل حادثة من تلك الحوادث العاتية العاصفة كانت كافية لتذرية رياح تسعّرها بلهيب الفتن القواصم وحدة المجتمع المسلم التي كانت تكمن فيها قوته وصوارم عزائمه، والتي يستمد منها انتصاراته الساحقة لقوى أعدائه وأعداء نبِّيه ﷺ، وأعداء دعوته ورسالته.

ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، كلما جاؤوا من سوء مكرهم بواُحدة أتاهم الله بحكمة تدبيره على يدي نبيه ﷺ بما يبطل كيدهم، ويرغم أنوفهم، ويذلُّ غرورهم، ويفسد عليهم تدبيرهم المتدسس وراء جُدُر النفاق والفجور.

وهذه الغزوة كانت بأحداثها التي دبّرها المنافقون امتحاناً قاسياً متتابع الحلقات لصلابة قناة المجتمع المسلم، واختباراً لقوة شكيمته وتماسك عرى وحدته الإيمانية، وابتلاء لصبره في وجه النوازل، ومقابلة الكوارث، واستبانة

لحكمة قيادة القائد الأعظم ممثلة في النبي ﷺ في مواجهة الأحداث مهما كان خطرها بأعداد أمثالها لمقاومتها وإطفاء تسعّرها وإفشال تدبير من دبّروها من أعداء هذا المجتمع المسلم، وإبطال سيء كيدهم ولئيم مكرهم لتدمير هذا المجتمع واستئصاله لوقف تيار دعوته ونشر رسالته.

أول سهام الفتنة في هذه الغزوة سهم كاد يقضي على وحدة المجتمع المسلم.

بدأت هذه الغزوة بُعيد وصول كتائب المجاهدين بقيادة النبي ﷺ إلى (المريسيع) ـ ماء بني المصطلق ـ وقد تزاحمت حوله جموعهم ومن انضوى إليهم من شراذم المتربّصين الذين كان صغوهم معهم في عداوة الإسلام، وعداوة حامل أمانة رسالته ﷺ، وعداوة المجتمع المسلم في تركيبه الجديد من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم ـ بحادثة جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسنان بن وبر الأنصاري اللذين ازدحما على الماء، فاشتبكا وتقاتلا، فتناديا بدعوى الجاهلية، فقال جهجاه: يا للمهاجرين، وصرخ سنان: يا للأنصار، فاستجاب لهما سراع الناس، وكادت تقع بين دعامتي المجتمع المسلم فتنة عمياء جائحة مدمِّرة، أشعل نارها خبيث النفاق، ورأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول ـ لعنه الله ـ لولا حكمة رسول الله ﷺ وسياسته في إطفاء لهيبها، حيث اجتمع من المهاجرين جموع، ومن الأنصار آخرون، وهمّوا بالاقتتال، فلم يزل بهم رسول الله ﷺ يخفِّضهم حتى فاؤوا إلى رحمة الله، وانكمد ابن أبي غيظاً بحقده، وهدأ الناس.

ثم ما لبث الناس فُواق شاة حتى أقبلت الفتنة الصمّاء بجحافل ظلماتها، فاغرة فاهها لتلتهم حياة المجتمع المسلم بين طواحين أضراسها، وضراوتها الشرسة.

السهم الثاني في فتن هذه الغزوة هو سهم (الإفك) الذي كاد يقوض دعائم تبليغ الرسالة.

تلك هي فتنة (الإفك) التي أشعل ثقابها وأورى نارها زعيم المنافقين ورأس النفاق عبدالله بن أبي بعد أن خاب سعيه في إشعال نيران الفتنة الجاهلية، فخبَّ فيها وأوضع خلال صفوف المجتمع المسلم يبغيه الفتنة، وفي المجتمع المسلم سمّاعون له ولأضرابه من أحلاس النفاق وغثاء المنافقين، ومرضى القلوب الذين كانت رواسب الوثنية الجاهلية والعصبية القومية تحتل من أنفسهم مكاناً فسيحاً.

وفي هذه الفتنة الخرساء قاء ابن أبيّ كلّ ما في قلبه من عصارة النفاق الكفور، وتبذلت جراح حقده عن صديد الكفر المنافق والفجور الخبيث.

وبهذه الروح الفاجرة الخبيثة تولّى ابن أبيّ كِبْر هذه الفتنة المرذولة السمجة، والبهتان المفترى، والإفك المختلق، وانضوى تحت جناحه من كان على شاكلته في النفاق من الذين أحرقت عصبية الجاهلية أفئدتهم في صدورهم، وأذابت أكبادهم بين ضلوعهم، فنفثوا دخان الغيظ الخانق والحنق المغيظ، وتقوّلوا بالباطل على أطهر الطاهرات، الصدِّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما، حتى أبطله الله تعالى بما لم يبطل به فرية وبهتاناً قط، وحتى غدا شر هذا الإفك الكذوب خيراً لكل من ناله منه رشاش، وباء المبطلون الأفاكون بالعار والشنار، ولُطِّخت وجوههم بالخزي والخذلان، وطحنهم كلكل الخطاب الإلهي المحفوف بكل سمات التبجيل والتعظيم للسيدة الطاهرة ﴿أولئك مبرؤن مما يقولون، لهم مغفرة ورزق كريم﴾ تنويهاً بعظمة سيد المرسلين، وبياناً لعلو مكانته عند ربه، وإعلاء لمقام حرماته، وتطهيراً لساحته ـ طحناً أذاب منهم كل ذرة من ذرات الإنسانية في هذه الحياة، ولعذاب الآخرة أخزى وأعظم.

وكان هذا النصر المؤزر في هذه الحروب النفسية أجل وأعظم أثراً من النصر المؤيد في جولات القتال في ميادين الحروب.

حفظ الله تعالى أمهات المؤمنين عن التكلم في هذه المحنة وهنّ ضرائر عائشة رضي الله عنها.

وكان من أجلِّ النعم الإلٓهية على المجتمع المسلم في قصة (الإفك) أن الله تعالى حمى أمهات المؤمنين كلهن عن التكلم في محنة هذا البهتان الخبيث، فلم يؤثر عن واحدة منهنَّ فيها كلمة واحدة، وهنّ ضرائر عائشة رضي الله عنها وشريكاتها في القرب الداني من رسول الله ﷺ، وهنّ اللائي كان يخشى عليهنّ من تحريش الغَيْرة أن تدفعهن أو بعضهن إلى التحدث فيما يحوم حول ذلك.

ولكن الله تعالى حفظهن جميعاً حفظاً لمقام حرم رسوله ﷺ أن تظل عروش بيوتهن في خلوتهن أو جلوتهن معه ﷺ من لم تكن في أدبها النفسي، وتديّنها ومراقبة ربها في ذروة السمو والفضل والشرف، ومعالي مكارم

الأخلاق تأدباً بأدب رسول الله ﷺ ونشأة على تنشئته لهن وتربيتهن بما يعصمهن عن الانزلاق إلى مزالق الباطل، وتقوّله على من يعرفن أنها أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأعزّهن عنده، وأعـرفهن بمطارح أنـظاره، وأسرعهن إلى التعلق بأسباب رضاه في كل ما تقرّبه عينه ﷺ.

ومن ألطف ذلك وأحمد محامده أن القسطلاني ذكر في المواهب أن أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها كانت رفيقة عائشة في الخروج إلى هذه الغزوة، فقال: وخرجت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، ومـرّ الزرقاني على قول القسطلاني في شرحه للمواهب ولم يعلق عليه بشيء.

وهذا قول يظهر أنه مما انفرد به القسطلاني، أو وقع فيه وَهَم، فنقل من رواية وقصة أخرى إلى قصة غزوة بني المصطلق ورواية البخاري في قصة (الإفك) من حديث عائشة عن الزهري عن عدد من شيوخه عيون السلف وأكابره، تخالف ذلك تمام المخالفة، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها - هي غزوة بني المصطلق - **فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزل الحجاب**، وسند هذا الحديث عند البخاري من أقوى وأوثق الأسانيد، لعلو درجة رجاله من شيوخ الزهري، ورواية القسطلاني لم نوفق إلى معرفة سندها، وهي مخالفة لما هو متعارف من عادته وسنته ﷺ في السفر ببعض زوجاته بعد الإقراع بينهن تحقيقاً للعدل والمساواة في الحقوق، كما يقتضيه أسلوب عائشة رضي الله عنها في حديث الزهري الذي أخرجه البخاري عنه، من قولها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فهذا التعبير يفيد أن هذا كان من عادته وسنته في السفر مع بعض زوجاته، فرواية البخاري أرجح، بل أصوب إلى أن يظهر غير ذلك.

وكيفما كان الأمر فإن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها داخلة في عموم ما كان من أزواج النبي ﷺ في حفظهن عن التكلم في قصة الإفك

بشيء، وهي معروفة في سيرتها بأنها كانت من أوزن بنات حواء عقلاً، ولو لم يكن لها من ذلك إلا مشورتها في الحديبية لكفاها فضلاً وشرفاً.

موقف نبيل للسيدة أم المؤمنين زينب بنت جحش في قصة (الإفك).

وقد خص الله تعالى أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش بموقف نبيل من عائشة رضي الله عنهما في قصة الإفك وهي التي كانت تناصيها عند رسول الله ﷺ ممّا كان يخاف منه العثرة، ذلك أن رسول الله ﷺ خصّها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها وطهارة ذيلها من رجس (الإفك) وافتراء البهتان، فقال لها: «ماذا علمت أو رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيراً.

قالت عائشة رضي الله عنها تثني عليها وتعرف لها فضلها في دينها وأدبها: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك.

ونحن نرى أمر حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش مشتبهاً علينا، لا نستطيع أن نبت فيه بحكم، لأن الحكم عليها بدون دليل قاطع بأنها خاضت في (الإفك) والبهتان وهي لم تفصح ولا صرّحت بالقذف الموجب كالحكم على من زعم عليها بأنها خاضت في (الإفك) وصرحت وأفصحت بالقذف الموجب، وليس في يده حجة على إثبات ما يزعم أنه قد كان منها سوى ما جاء في الروايات المتعارضة في إيجاب العقوبة عليه حداً أو تعزيراً زاجراً.

تناول سيرة الصحابة ينبغي أن يكون قائمًا على تحري الحق الصريح.

ونحن ندين بأن سيرة أصحاب رسول الله ﷺ لها قبس من نور سيرته ﷺ، فكما يجب في تناول سيرته ﷺ أن يكون هذا التناول قائماً على البحث المتعمق والتحقيق الممحّص ـ فلا يقبل فيه إلا ما ثبت ثبوتاً بيناً بالدليل والحجة سنداً وتفقهاً، ولفظاً ومعنى ـ يجب في تناول سيرة أصحابه رضوان الله عليهم أن يكون هذا التناول مستهدفاً للحق الذي لا افتراء فيه، ولا يكفي في القول به وجوده في روايات متعارضة، قد يصح سند بعضها، ولكن متونها وحقائقها ومعانيها قد تتعارض مع ما عُرف عن المجتمع المسلم

إذ ذاك من التوقف في قبول المظنونات في غير الأحكام الجزئية التعبدية فضلاً عن مطارح المشكوكات المريبة.

وليس هذا منا ميلاً إلى عصمة الصحابة رضوان الله عليهم عن الخطأ والمخالفة، ولكنه جنوح منا إلى القول بوجوب التثبت فيما ينقل من سيرتهم وأحداث حياتهم، وليس أحد من البشر معصوماً سوى أنبياء الله ورسله، حفظاً لشرائع الله وأحكامه، حتى لا يتعبد الناس إلا بما شرعه الله.

والذي أدخل علينا الاشتباه في أمر حمنة موقفُ أختها أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ذلك الموقف النبيل من قصة (الإفك) وقد سألها رسول الله ﷺ: «ماذا علمت؟ وماذا رأيت؟» فأجابت بما أملاه عليها ورعها في دينها وتقواها في إيمانها، وأخبرت عن الطاهرة المطهّرة أم المؤمنين عائشة رضوان الله عنها، فقالت: والله ما علمتُ إلا خيراً. إذ كيف يكون هذا الموقف النبيل من أم المؤمنين زينب بنت جحش أخت حمنة، ثم تسمع زينب أن أختها حمنة تطلق لسانها في البهتان المفتري، تحارب لها في هذا الموقف الآثم ـ كما تقول الرواية ـ ولا يعرف عن زينب ولو في رواية واحدة أنها زجرت أختها حمنة عن الخوض في هذا الباطل والإثم المفترى لتردها عنه، قياماً بما تعلم من براءة عائشة رضي الله عنها، وحماية لحرمة رسول الله ﷺ، والروايات عرضة للزيادة والنقص في عباراتها، وعرضة للوهم في ألفاظها وأسلوبها، وعرضة للسكوت حيث لا يحسن السكوت، ولم نرَ رواية أخرجت حمنة عن الخوص في (الإفك) أو رواية نفت عنها الحد فيمن حدّ على قول من قال بإقامته عن الخائضين فيه.

* * *

جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق تؤخذ في سبي قومها.

ولما انتهى أمر الغزوة بهذا النصر الخاطف عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنوّرة منصوراً مظفّراً تساق الأسرى والغنائم والسبي من النساء والذراري بين يديه، وكان ذلك شيئاً كثيراً، أنعش المجتمع المسلم، وأغناه، والروايات متفقة على أن عدد الأسرى كان أكثر من سبعمائة، وكانت غنائم

الإبل ألفي بعير، وغنائم الشاء خمسة آلاف شاة، والسبي من النساء والذراري أهل مائتي بيت.

وقسمت هذه الغنائم ووزعت الأسرى والسبايا والذراري بين المجاهدين وكانت من بين السبايا السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شمّاس، أو في سهم ابن عم له، وعند الواقدي أنها وقعت في سهميهما شركة بينهما، فخلّصها ثابت من ابن عمه بنخلات، ثم كاتبها ثابت على تسع أواق من ذهب.

* * *

شخصية جويرية وتعززها بسيادة أبيها على قومه.

كانت السيدة جويرية بنت الحارث سيد قومه قد نشأت في ظل سيادة أبيها لقومه في عزٍّ وسؤدد وتمجّد، وللبيوت أعظم الأثر في تنشئة ناشئيها، وتربية بناتها وبنيها، وقد تزوجت جويرية في حداثة سنها قبل أن يغزو النبي ﷺ قومها، وكان زوجها مسافع بن صفوان أحد فتيان خزاعة، جِذْم بني المصطلق، وأصل دوحتهم، اقترنت به في حداثة سنها قبل أن تتم العقد الثاني من عمرها، وقد قتل عنها زوجها مسافع مشركاً فيمن قتل من بني المصطلق الذين أسرعوا إلى القتال، فجندلتهم السيوف المسلمة.

والسيدة جويرية رضي الله عنها كانت على حداثة سنها حين سبيت قد زيّنها الله تعالى بعقل رصين، وتفكير حصيف، وخلق كريم، وحسن تأتٍ للأمور، وفصاحة تعرف مواقع الكلام وتأثيره في النفوس الكريمة، وتعزّز لا يصبر على الضيم، وسؤدد سما بها عن الرضا بمذلّة الرق والتطلع إلى الحرية الكريمة، فرضيت بما كاتبت عليه ثابت بن قيس الأنصاري على بَهْظه، لأنها كانت نظّارة إلى معالي الأمور، تخوض لها لجج المكارم لتجلس على ذروتها.

تصفها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: وكانت امرأة حلوة ملاّحة، أي ذات بهجة وحسن منظر.

وكان من سمو نفسها وطموح آمالها ورفعة تصوراتها؛ أنها بعد أن كاتبت على نفسها بهذا القدر الباهظ من المال أن جاءت إلى سيِّد المكرمات

أقلام الأقدار تحول حياة جويرية إلى أعز سؤدد تطمح إليه امرأة في الحياة.

والمكارم، وأكرم البشر، وأعلمهم بمنازل الناس، وأحقهم أن تمد إليه يد العرفان لانتشاله من وهدة ألقته فيها أعاصير الدبور الجاهلية، فباعدت بينه وبين حياته التي كانت كلها نسائم من الصبا، ورشحات من ندى رغد العيش الرفيف ـ محمد ﷺ ـ وهو الذي هزم قومها، وأسر رجالهم، وسبى نساءهم وذراريهم بالأمس القريب، فكانت إحدى سبايا قومها، وهي بنت سيدهم، ووقعت في سهم رجل من كواهل المسلمين وفصحاء الأنصار، ثابت بن قيس بن شمّاس، خطيب رسول الله ﷺ في محافل المنافرات، فلم تصبر على بلاء الرق ـ تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة وتستشعر العزّة التي كانت تتقلب بين أزاهرها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وأخبرته بخبرها فقالت: يا رسول الله إني امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وكان من أمري ما لا يخفى عليك، وفي رواية أنها قالت: قد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شمّاس، فكاتبني على ما لا طاقة لي به ولا يدان لي ولا قدرة عليه، وهو تسع أواق من الذهب، وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتك صلى الله عليك، وجئتك أسألك في كتابتي.

هيه يا أقدار الغيب!! ماذا كتبت ألواحُك الأزلية لجويرية بنت الحارث المصطلقية؟ هل ستعود إلى حظائر بني المصطلق وتحقق لها آمالها في الحرية، وفي زواجها من أحد فتيانهم؟ هذا أقصى ما كانت تتمنّاه، أن يخف عنها ثقل كتابتها، وأن تتحرر، وأن تعود إلى خدرها في بني المصطلق، ولكن أقدار الغيب قالت للحياة: لا، ليس هذا مكان هذا النبل المتسامي بمشاعره إلى ذرى الشموخ، بل مكانها أن ترتفع فوق ما تخيلته من عظائم آمالها؛ فاكتبوها على قدر مكانها من عظمة من جاءته لتسأله أن يعينها في كتابتها لتُحرر من العبودية وتعود حرة كريمة على نفسها وعلى قومها، لا إلى خدور حرائر بني المصطلق لتكون كما كانت قبل سبيها سيدتهن، لأنها بنت سيدهن، ولم يحملها على الرضا بهذه الكتابة الباهظة التي لا تطيقها، ولا يدان لها بها، ولا تقدر عليها إلا رجاوتها في مكارمه ﷺ، لتحقيق هذه العظيمة في نظرها،

ولهذا جاءته تسأله في كتابتها، ولكن تساوموا بها فوق هامات آمالها إلى ميزان مكارم من وضعت رحال رجاوتها بين يديه لتكون معه في أعلا عليين، أُمّاً للمؤمنين، وحليلة سيد الأولين والآخرين.

ذاك أمر أبرم قبل أن تخلق دنيا الناس، وقبل أن تأتي جويرية إلى الحياة، بل قبل أن تكون على الأرض حياة، فليأخذ محمد ﷺ بيدها وليطيّرها معه إلى ربض الفراديس، وإلى أرفع منزلة في الجنان ليخرجها وهي تضع رجاوتها وآمالها بين يديه من سجن الرق والعبودية لغير الله تعالى إلى آفاق السؤدد والعزّة ولتكن زوجاً لأكرم البشر، ولتكن أماً للمؤمنين، ثابت ابن قيس، ومن فوقه، ومن دونه من سائر أبناء هذه الحياة من المؤمنين والمؤمنات، وسيدة من سيدات نساء العالمين.

أي قلم يستطيع أن يصور مشاعر السيدة الجليلة جويرية وقد صارت بكلمة واحدة أمّاً للمؤمنين وزوجة لسيد المرسلين.

ليت للقلم قدرة على تصوير المعالم النفسية التي أفعمت كل ذرة في إحساس السيدة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، واستأثرت بمشاعرها لحظة أن قال لها سيد الأولين والآخرين وهي تسأله في كتابتها: «هل لك في خير من ذلك؟» فقالت: وما هو يا رسول الله؟ وهذا سؤال من طوّفت به أنوار الغيب فأضاءت له آفاق الحياة ليرى بخياله وأحلامه مكانه الجديد منها، فقال لها ﷺ: «أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك».

وافرحة الأبد!! أي غيث رويٍّ هذا الذي جادت به سماء الغيب لتسقي بنميره قلباً كان قبل لحظة يتحرق تطلّباً لأدنى درجات الحرية البشرية، فماذا جرى في صحف المقادير.

أهذا حُلُمُ نائمٍ؟ أم حقيقة يقظان بدّلته المقادير حياة بحياة، فرفعته من حضيض العبودية الإنسانية إلى قمّة العز والسؤدد، وبوأته ذروة السمو الإنساني؟ وأي سمو أسمى وأجل وأعظم من هذا الذي تسمعه جويرية بنت الحارث المصطلقية من سيد الخلق محمد ﷺ، وقد جاءت إليه تسأله أن يعينها على أداء كتابتها التي لا طاقة لها على أدائها، ولا قدرة لها عليها، وقد رجته لها، وهو الذي يُرْجَى للعظائم «أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك».

وكانت جويرية حين تكلم رسول الله ﷺ، وتسمع كلامه مليئة الفؤاد بالأمل المرجّى، تتكلم وتسمع وهي ثابتة الجأش، رابضة القلب، ساكنة الفؤاد، مضيئة الروح، كأنما تقرأ آيات مستقبلها في صحف الغيب بعيني بصيرتها، فأجابت رسول الله ﷺ، فلم تتلعثم، ولم تتردد، ولم تتأن، ولم تتريث، ولكنها أسرعت بروحها وقلبها وعقلها ووجدانها ومشاعرها وهي تملي على لسانها: نعم، يا رسول الله، قد فعلت.

بركة جويرية على قومها بصهرهم لسيد البشر.

أجل، أبرم في الأرض ما كان مبرماً في السماء، وجفّت الصحف ورفعت الأقلام، ودخلت السيدة جويرية إلى خدرها أماً للمؤمنين، وزوجاً لمحمد ﷺ، وخرج النبأ العظيم همساً إلى الناس، فتسامعوه بينهم، وتعالموه في محافلهم، وأضاء حديثه الآفاق، كما يضيء لمع البرق في السماء، وقال المسلمون: إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنها، فأرسلوا كلّهم ما في أيديهم من السبي وقالوا متعاظمين: هم أصهار رسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها تصوّر هذا الموقف النبيل في جميع جوانبه بأوجز وأبرع أسلوب: فما رأينا امرأة أعظم بركة على قومها منها، فلقد أعتق الله تعالى بها مائة أهل بيت من بني المصطلق.

هذه هي أشهر الروايات في قصة جويرية وزواج رسول الله ﷺ بها، وما كان في هذا الزواج من خير وفضل على قومها في عتقهم من رق العبودية بسببه، وانطلاقهم أحراراً في حياتهم، لأنهم صاروا أصهار رسول الله ﷺ.

روايات أخرى في قصة زواج رسول الله جويرية.

وفي رواية عند الواقدي أن رسول الله ﷺ أرسل إلى ثابت بن قيس عندما أخبرته خبر كتابتها، فقال ثابت يجيب رسول الله ﷺ: هي لك يا رسول الله بأبي وأمي، فأدّى ﷺ ما كان من كتابتها، وأعتقها وتزوجها.

وروى البيهقي عن جويرية، قالت: رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليالٍ كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبر أحداً، فلما سبينا رجوت الرؤيا، فأعتقني وتزوجني.

وذكر ابن هشام أن النبي ﷺ اشتراها من ثابت بن قيس، وأعتقها وتزوجها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وفي رواية ذكرها شارح المواهب أن أباها جاء بفدائها، وكان الفداء قطيعاً من الإبل، ولكنه لما دنا من المدينة غيّب عنها بعيرين في شعاب العقيق، كانا قد أعجباه، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال له: يا محمد، هذا فداء ابنتي، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين البعيران اللذان غيبتهما في العقيق في شِعْب كذا، وكذا» فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فوالله ما اطّلع على ذلك إلا الله، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، ودفع الإبل إلى رسول الله ﷺ، ودفع رسول الله ﷺ إليه ابنته جويرية فأسلمت معهم وحسن إسلامهم، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وعند ابن سعد من مرسل أبي قلابة: سبى رسول الله ﷺ جويرية وتزوجها، فجاء أبوها فقال لرسول الله ﷺ: إن ابنتي لا يُسبى مثلها فخلّ سبيلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت إن خيّرتها أليس قد أحسنت؟» قال أبوها: بلى، فأتاها أبوها فقال: إن هذا الرجل قد خيّرك فلا تفضحينا فقالت: فإني أختار الله ورسوله.

نفحات السماء كانت هي المختارة للسيدة جويرية طريقها إلى أعز وأشرف حياة.

وهذه نفحة من نفحات الإنعام الإلٓهي الذي جرت به أقلام المقادير على صحف الغيب، أملى آياتها العقل الحصيف، والرأي الموفّق الرصين، وخط حروفها الإيمان الراسخ الرزين، وأوحى بها الفكر المتسامي عن رغائب الأرض في ترف البيت المتسيدة فيه بمواريث الجاهلية التي لا تعرف إلا فرشاً وثيراً، وطعاماً شهياً، وشراباً هنياً، وذواقاً مرياً بين أتراب ضواحك، يُنعّمن لكل رغيبة لسيدة النديّ، والحياة المعطّلة بالترف عن الحركة النفسية أو الفكرية، أو البدنية تتصنع بالفراغ الملول لتملأ به جوّ النديّ سموماً قواتل، تستحليها الضواحك لتقتل بها شبح الفراغ استحلاء النسيم في وجه الصباح النديّ بِطَلّ الربيع.

وإلا فما الذي يحمل امرأة مثل جويرية بنت سيد قومها بني المصطلق على سرعة رضاها وهي في عمر الزهرة التي تطل من برعمها متنفسة أنفاس الحياة مع ندى الصباح في الربيع.

أجل، لقد وضعتها مقادير الغيب وضعاً ضاقت به نفسها فلم تحتمل إحكام حلقاتها حول عنق حريتها إذ أخذت سبية بين سبايا قومها، وهي بنت سيدهم، فكوتبت لتفتدي حريتها كتابة تعجز عن أدائها، ولم يحملها على قبول مالا طاقة لها به إلا أنها ألقت بآمالها ورجاواتها بين يدي أكمل البشر وأكرم الخلق محمد ﷺ، وجاءته تسأله في كتابتها، وهو ﷺ في بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

غيرة عائشة على رسول الله ﷺ هي قمة الحب ورسوخ الإخلاص.

قالت عائشة رضي الله عنها تصف جويرية فأنصفتها: (وكانت امرأة حلوة مُلّاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه). والمُلّاحة وصف مبالغة في الملاحة، وهي استواء مواطن الحسن والحلاوة. وهي من قولهم طعام مليح إذا كان فيه من الملح بقدر ما يصلحه، فيطيب طعمه، قال السهيلي في الروض: ولذلك إذا بالغوا في المدح قالوا: مليح قزيح، فمليح من ملحت القدر، وقزيح من قزحتها أي طيّبت نكهتها بالأفاوية، وهي الأقزاح.

ثم قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت. وهذا القول من السيدة عائشة رضي الله عنها إنما هو نفثة من نفثات الغَيْرة على رسول الله ﷺ لشدِّة حبِّها له ﷺ وغيرتها عليه، وكان لهذه الغيْرة عند عائشة رضي الله عنها في حياتها معه ﷺ مظاهر أكثر مما كان عند غيرها من الزوجات الطاهرات، وفي حياتهن معه ﷺ أكثر من دليل على أن عائشة رضي الله عنها كانت تعيش معه ﷺ ذروة هذه الغَيْرة التي استحوذت على مشاعرها.

ورسول الله ﷺ قد أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من الخلق، فكان ﷺ سوي المزاج، علياً بمواقع الذوق الكمالي في خصائص الإنسان.

وقد أضفى الله تعالى على رسوله ﷺ من الكمال الإنساني في جميع

رسول الله أكمل البشر حساً إنسانياً وأصفاهم طبيعة وأذوقهم لحلاوة الكمال الإنساني حساً ومعنى.

مواقعه من الطبيعة البشرية ومنحه من الاعتدال الحسي والمعنوي ما ميزه به وفضله على سائر أفراد البشر، وجمع له به مظاهر الاستواء في تذوق كل كمال أوتيه الإنسان في تقويمه الحسي، ومداخل نفسه، فلا تتفاوت جوانب طبيعته ﷺ في تذوق طعم هذا الكمال.

ومن ثَمّ كان تذوقه للكمال الإنساني، وإحساسه به مستوى جوانب الإدراك لمواقع الاسترواح الجمالي في كل ما تستحليه النفوس الكريمة حساً ومعنىً، وفي كل ما تستطيبه الأمزجة المتوازية في عناصرها وميولها.

وفي هذا الإطار من الطبيعة الكمالية التي جبل عليها رسول الله ﷺ ينبغي أن توضع الخطوط الراسمة لتذوقه ﷺ طعم الكمال في مستويات البشرية، وفي مستويات الجمال الكوني الممثلة في عناصر الكون الطبيعية التي هي منابع الجمال فيه.

لأنه ﷺ أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من العالمين، وهذا الكمال المتوازن في صفاء الطبيعة البشرية هو المقصود بكمال الرجولية المطلق في كملة البشر، فلا حرج قط في أن يوصف محمد ﷺ بكل ما يندرج تحت هذا الكمال الرجولي، لأن هذا الكمال الرجولي هو جماع صفات الكمال البشري في الرجل.

ومحمد رسول الله ﷺ أكمل البشر في إنسانيته، وأعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي من أوصاف الرجولية.

في قوله تعالى: ﴿ولو أعجبك حسنهنّ﴾ إشارة إلى ما جبل عليه ﷺ من تذوق حلاوة الكمال الإنساني حساً ومعنى.

ولأمر (مّا) قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بعد تخيير أمهات المؤمنين اللائي كنّ في عصمته ﷺ ومات عنهن: ﴿لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾[1] إعزازاً لأمهات المؤمنين اللائي اخترن الله ورسوله على (من) و(ما) سواهما، فقصره ﷺ عليهن إكراماً لهنّ، جزاء اختيارهن، ورضائهن كلهن.

ولعله للإشارة إلى ما قلناه من أنه ﷺ أرق الناس حساً، وأرهفهم

(١)سورة الأحزاب آية (٥٢).

ذوقاً، وأعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي، ولكن الله تعالى مع الإشادة بصفاء طبيعة رسول الله ﷺ نوّه بهذا الموقف النبيل، موقف أمهات المؤمنين هذا الموقف الإيماني البالغ ذروة الإخلاص عندهن ليرشد عباده أن هذا الموقف أجل عند الله وأعظم من تحقيق رغبة كمال حسي عند رسوله ﷺ، والله وحده هو المحيط بأسرار كلامه العزيز، وأسرار مداخل نفوس خواصه من البشر.

بدأت غزوة بني المصطلق بأعتى نوازل البلاء والمحن ثم ختمت بأسعد ما يسعد كرائم النفوس.

وبعد: فهكذا بدأت غزوة بني المصطلق بما بدأت به من أحداث الفتن الجسام التي دبّرها النفاق تحت أستار الظلام، وكوارث النوازل العظام، التي أذاقت المسلمين جُرعاً من مرارة أحداث (أحد) ولكن الله تعالى بمنّه وفضله أخرج منها نبيه محمداً ﷺ ومجتمعه المسلم، وأهل بيته الأكرمين، وصاحبه وصدّيقه الأمين كما يخرج الذهب المصفّى، والجوهر المخلّص من مخلّطات المعادن، وألويةُ النصر تخفق فوق رؤوسهم، وحفاوة الله تعالى تكنفهم من جميع جوانبهم ونعمه السوابغ تحيط بهم من أقطارهم.

وهكذا ختمت بإعراس النبي ﷺ بالسيدة الجليلة جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار سيد بني المصطلق التي خلع الله عليها جلابيب السيادة الحقيقية بإعراس النبي ﷺ بها، فكانت أماً للمؤمنين تعظيماً وتوقيراً، وإسعاداً لها بكنف رسول الله ﷺ، وإدخالاً للبهجة على رسول الله ﷺ بما وهبها الله من كمال إنساني كانت به من صفوة نساء العالمين.

وقد زاد الله عز شأنه أم المؤمنين السيدة جويرية زوج النبي ﷺ رضي الله عنها كمالاً فوق كمالها، فجعلت حصافة عقلها، وزكانة تفكيرها، وصفاء قلبها وإشراق روحها بين يدي رسول الله ﷺ، وهي تلحظه في عبادته الخاصة إذا كان عندها، وتشهده في تقديسه وتسبيحه لخالقه، وتصغي إليه وهي تسمع أحاديثه في أدب الإسلام الاجتماعي، وأحكامه العبادية، وشرائعه النظامية، وتلطفه في عشرته الزوجية، وحكمته في معاملته الداخلية والخارجية، فتعي ذلك كله وعياً ضابطاً يرويه عنها من أصحابه الذين أخلصوا حياتهم للعلم، يأخذونه عن رسول الله ﷺ مشافهة أو رواية أقرب

ما تكون للمشافهة، لأنه إما سماع عن أقرانهم أو شهود لمجالس سماعه، أو تلقياً لأسراره من أمهات المؤمنين زوجاته، وأخذاً لحقائقه العملية ممن كان أهلاً لحمل هذه الحقائق والأسرار التشريعية والآداب السلوكية في تربية البيت ومن يضمّه بين جنباته.

السيدة أم المؤمنين جويرية كانت من الله بمنزلة في علمها وعملها وورعها وإشراق روحها.

وهؤلاء يلقونه إلى من يرويه عنهم صادقاً أفضل ما يكون الصدق مطلوباً، وضابطاً أصدق ما يكون الضبط منشوداً، ومن ثَمَّ كانت السيدة جويرية أم المؤمنين وزوج سيد العالمين رضي الله عنها عالمة بما تسمع، عاملة بما تعلم، فقيهة عابدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله ﷺ، وتحب الخير للناس أجمعين.

وكانت رضي الله عنها تروي من حديث رسول الله ﷺ، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه ﷺ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة رضي الله عنهم، لينشروه في المجتمع المسلم علماً وعملاً، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية.

روى عنها حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وجابرابن عبدالله وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن السباق، والطفيل ابن أخيها وغيرهم من الأجلاّء.

وكانت أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات القانتات، الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه، أخرج الترمذي بسند صحيحٍ عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن جويرية رضي الله عنها: أن النبي ﷺ مرّ عليها وهي في مسجدها أول النهار، ثم مرّ عليها قريباً من نصف النهار، فقال لها: «ما زلت على حالك؟» قالت: نعم، قال ﷺ: «ألا أعلمك كلماتٍ تقوليهن؟ سبحان الله عدد خلقه، ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات، سبحان الله زِنَة عرشه، ثلاث مرات، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات».

وروى مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه عن جويرية رضي الله عنها، قالت: أتى علي رسول ﷺ، فقال: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات

ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه، ومداد كلماته».

أي فضل أفضل وأرفع، وأي شرف أشرف وأعلى من فضل وشرف جمعا بين فضائل الدنيا وشرف الآخرة ختمت به غزوة من غزوات رسول الله ﷺ - أو واقعة من وقائع تاريخ السيرة النبوية الشريفة في أحداثها ومسيرتها وهي تحمل لواء الدعوة إلى الله ناشرة رسالة الحق والهدى والنور - مما ختمت به هذه الغزوة المفعمة بكبريات الأحداث غزوة (بني المصطلق - المريسيع) وهي التي بدأت ناراً تلظّى وفتناً مدمرات تتسعّر وكوارث قواصم تتوالى على المجتمع المسلم، وفيه رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله، ويعلمهم دين الله وشرائعه، ويقودهم في جهادهم، ويملي عليهم دروس التربية السلوكية القائمة على دعائم مكارم الأخلاق، والفضائل الإنسانية، وانتهت بما انتهت به من النور والهدى والرحمة والسعادة التي أقر الله بها عين رسوله ﷺ في إعراسه بسيدة بني المصطلق السيدة جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار سيد بني المصطلق، الذين أسلموا جميعاً بعد أن علموا أن النبي ﷺ شرّفهم بمصاهرته، واتخذ من سيدة بيوتهم زوجاً وأماً للمؤمنين، فكانت أبرك امرأة على قومها إذ أعتقهم الله تعالى بها من رق العبودية، وأقبل بهم يقدمهم سيدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية على الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وكانوا من كتائب المجاهدين لنصرة دين الله ونشر رسالته.

ملامح من معالم منهج رسالة الخلود في هذه الغزوة.

لقد جمعت غزوة بني المصطلق من معالم منهج الرسالة الخالدة الخاتمة أحداثاً تشريعية ووقائع حربية، وحوادث اجتماعية، وأحكاماً فقهية، وآداباً سياسية، وسياسة قيادية كتمت أنفاس النفاق، وفضحت كيد المنافقين، وكشفت عن دسائسهم، وملأت قلوبهم غيظاً وحقداً على المجتمع المسلم، وشدّدت من قوة تماسك هذا المجتمع الذي أشجاهم حتى ماتوا بغيظهم لم ينالوا منه ما أقامته لهم شياطينهم من سيء الطبع والمكر، وأخبث الغدر، وأكذب الفِرى والبهتان.

وحسب هذه الغزوة فضلاً، وحسب الناظرين في أحداثها أن ينظروا فيها تفقهاً وتعمقاً يغنيانها عن التعليقات والتحليلات التي تنبه على ما في طواياها من دروس تربوية ومناهج سلوكية لأنها آيات بينات من الهدى والنور، ولأن خصائصها في أحداثها كانت سطوراً من الحكمة، كتبها الله تعالى بقلم الغيب، وجرت بها تصاريف الأقدار بما شاء الله من تمحيص للمجتمع المسلم وإظهار لفضله في تربية رسول الله ﷺ له تربية عملية تكمن عناصرها في الأحداث والوقائع، ليكون في تطبيقها رفعاً لذكره ﷺ ونشراً لهدايته في آفاق الحياة.

مُعَاهَــدَة الحُدَيبيَــة
أسبَابُهَا، وَأحدَاثها، وَأحَاديثها
وآثارهَا في سرعَة نشر الدّعوة

ما تضمنته من سياسة قيادية حكيمة ـ معالم منهج الفتوحات

معاهدة الحديبية كانت أجل حادث في جمعها لمعالم منهج الرسالة.

من أجل وأنبل جوانب منهج الرسالة الخالدة معاهدة الحديبية التي عقدها رسول الله ﷺ بينه وبين أعدائه المشركين، مع ما كان في ظاهر هذه المعاهدة من شروط تُعطي عدو المسلمين كل شيء يتصور في مصلحتهم، وتحمل ثقل هذه المعاهدة على كاهل المسلمين وحدهم، حتى مرج أمرهم، وزلزلت أقدام أكابرهم.

ولم يثبت لشدة هذه الشروط ويتقبلها كما رضيها نبي الله ﷺ إلا أرسخ المؤمنين قدماً في ساحة الإيمان؛ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وحتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصف ما داخل نفسه من الشدة: لقد صالح رسول الله ﷺ أهل مكة على صلح وأعطاهم شيئاً لو أن نبي الله أمرّ عليّ أميراً فصنع الذي صنع نبي الله فوالله ما سمعت له ولا أطعت، وكان الذي جعل لهم: أن مَنْ لحق من الكفار بالمسلمين يردونه عليهم، ومن لحق بالكفار لم يردوه.

شدّة هذه المعاهدة على جمهور الصحابة بما ادخلت عليهم من المحنة في ظاهر شروطها.

وقصة الحديبية مروية في الصحاح، وتفصيلها في كتب السيرة، ونحن نذكرها برواية البخاري رحمه الله، منبِّهين على أبرز ما فيها من أحداث تتصل بوفاء النبي ﷺ بما عاهد عليه ولو كان فيه من الشرائط ما يبدو في ظاهر الأمر ومعارف العقول ومألوف الحياة أنه أشد ألوان الضيم على المسلمين، ليتجلّى فضل الله تعالى على نبيه محمدٍ ﷺ وعلى أصحابه ومجتمعه المسلم فيما ادّخره الله لهم ولدينه من فتح كان هو الطريق إلى نشر راية الحق

في أرجاء الأرض، وليظهر أثر الإيمان في تسليم أصحابه له وطاعتهم أمره ومتابعته في جميع ما يبلِّغه عن ربه عز وجل والتأسِّي به في أعمالهم والوفاء بعهودهم، ولو لم تسعفهم بوادر الأمور، وبواكيرها بإدراك حكمة تصرفه ﷺ بإذن ربه حتى يغبّ الرأي وتنجلي سحائبه عن شمس الهداية في حقيقتها العليا من آفاق الوحي وإشراق أنوار النبوة في سجل الرعاية الربانية.

فقد لحق الصحابة رضوان الله عليهم في هذا الموقف من البلاء، وداخلهم من الشدة ما لم يكن لهم به طاقة لولا رسوخ الإيمان بالله ورسوله في قلوبهم، ولو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بهم لهاضها، ولكن الله تعالى ثبَّتهم للمحنة فثبتوا وتجلَّت بروقها عن بشائر الفتح المبين.

رواية البخاري لحديث الحديبية هي أوثق الروايات.

روى البخاري في صحيحه من طريق الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية - في ذي القعدة سنة ست من مهاجره ﷺ - حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هُمْ بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته العضباء - أو القصواء - أو الاسمان اسم لناقة واحدة كما يدل عليه ظاهر هذا الحديث. فقال الناس: حَلْ، حَلْ يزجرونها لتنهض، فألحت فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألوني خطّة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبّرضه الناس تبرّضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال بديل: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ

بدء المفاوضات مع بديل بن ورقاء الخزاعي وحب رسول الله ﷺ السلام والمسالمة في كلمات حكيمة محكمة.

المطافيل وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدّة ويخلّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذنّ الله أمره».

فقال بُديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال لهم: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدّثهم بما قال النبي ﷺ.

مجيء عروة بن مسعود الثقفي خلفاً لبديل وموقف الصحابة منه.

فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالولد؟ قالوا بلى، قال: أو لسنا بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلّحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلّم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفرُّوا ويَدَعوك.

فقال أبو بكر ـ وكان قاعداً خلف رسول الله ﷺ ـ: امصص بظْرَ اللّات، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟.

فقال عروة: من هذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

موقف المغيرة بن شعبة الثقفي من عروة ابن مسعود وما فيه من تعظيم النبي ﷺ.

وجعل عروة يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة ابن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألّا تصل إليك، فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسّه.

فقال عروة: ما أفظّك وأغلظك، من هذا؟ قالوا: ابن أخيك المغيرة ابن شعبة: قال عروة: أي غُدَر ألستُ أسعى في غدرتك.

وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له.

رجوع عروة إلى أصحابه ونعته لتعظيم أصحاب النبي له ﷺ.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال لهم: أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، فإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظر تعظيماً له.

وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة ـ هو الحُليس بن علقمة سيد الأحابيش ـ دعوني أئته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظِّمون البُدْن فابعثوها له»، فبعثت له واستقبله الناس يلبُّون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله: ما ينبغي لهؤلاء أن يصدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأُشعرت، فما أرى أن يصدّوا عن البيت.

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني أئته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مِكْرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلِّم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي ﷺ قال: «لقد سهل لكم من أمركم».

رجل فاجر يخلف عروة بن مسعود في المفاوضة.

ومن رواية محمد بن إسحاق أن قريشاً قالت لسهيل بن عمرو: ائت هذا الرجل فصالحه، فقال النبي ﷺ: «قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا». فلما انتهى إلى النبي ﷺ جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح، فقال سهيل: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم».

تفاؤل النبي ﷺ بقدوم سهيل بن عمرو الذي تمت على يده المفاوضة.

قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللّهم كما كنت تكتب.

محاورة سهيل في كتابة المعاهدة وتسليم النبي ﷺ له ما أراد للوصول إلى السلام.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللّهم».

ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله».

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدَدْناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله.

فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد ابن عبدالله».

فقال النبي ﷺ: «على أن تخلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به».

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام القابل، فكتب.

فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلاّ رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله؟ كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً،

شروط المعاهدة وما دخل على المسلمين بسببها من شدَّة البلاء

كان قدوم أبي جندل بن سهيل من أعظم مظاهر المحنة.

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سهيل والد أبي جندل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ.

فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقضِ الكتاب بعد». قال سهيل: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً.

قال النبي ﷺ: «فأجزه لي».

قال: ما أنا بمجيزه لك.

قال رسول الله ﷺ: «بلى فافعل».

قال سهيل: ما أنا بفاعل.

قال مكرز: بل قد أجزناه لك، فلم يلتفت أحد إلى كلامه، وشعر بذلك أبو جندل، فقال يستثير المسلمين: يا معشر المسلمين، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت، وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله.

موقف عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من شروط هذه المعاهدة ومساءلته رسول الله ﷺ بصورة مغضبة.

فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: «بلى».

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟.

قال: «إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري».

قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوّف به؟.

قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟».

قلت: لا.

قال «فإنك آتيه ومطوّف به».

قال عمر: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟.

رسوخ يقين أبي بكر أنقذ عمر من غضبته.

قال: بلى.

قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟.

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟.

قال: أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوّف به؟.

قال: بلى.

أفأخبرك أنك تأتيه العام؟.

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوّف به.

توقف أصحاب النبي ﷺ عن الإسراع إلى تنفيذ أمره ومشورة أم المؤمنين أم سلمة.

فلما فُرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة زوجه رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس.

فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً.

قصة أبي بصير وما فيها من فدائية وعزيمة إيمانية صارمة تمثل أروع معالم المنهج في رسالة الإسلام.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا؟ فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه أبو بصير به حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً».

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتل صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: «ويل أمه مِسْعَر حرب لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر.

عصابة أبي بصير تحمل قريشاً على مناشدة النبي ﷺ على إلغاء أول شرط في المعاهدة.

وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، ويلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلّا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لمّا أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً. هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهَدْي معكوفاً أن يبلغ مَحِلَّه، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً * إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها، وكان الله بكل شيء عليماً﴾[1].

(١) سورة الفتح آيات (٢٤ - ٢٥ - ٢٦).

بيان وتحقيق
يكشف عن أحكم سياسة في عقد هذه المعاهدة
ويبين ما تضمنته من معالم منهجية
في حياة المجتمع المسلم

في قصة هذه المعاهدة أمور تصور ـ في جملتها ـ جوانب من أهم جوانب منهج الرسالة الخالدة، وهي جوانب تربوية اجتماعية جعلها الإسلام خصائص مميزة لمجتمعه من بين سائر المجتمعات البشرية في الأرض.

الأمر الأول:

كانت هذه المعاهدة أساساً لسياسة علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات البشرية حرباً وسلمًا.

هذه المعاهدة تعدّ أساساً عملياً لتطبيق التشريع الإسلامي المتعلق بتحديد العلاقة فيما بين المسلمين وغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وأساساً لكل ما يتصل بفضيلة الوفاء بالعهد، مهما كانت مرارته وشدته، ومهما تكن آثاره وقسوته.

ذلك لأن النبي ﷺ، وهو رسول الله الذي بعثه لدعوة الناس كافة إلى الهدى ودين الحق ليخرجهم به من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والعلم، هو الذي تولّى بنفسه عقد هذه المعاهدة ورضي شروطها، وكان على علم بما فيها من تفاوت في موازين عدالة المعاهدات، لم يُخدع فيها عن صواب الرأي، ولكنه أراد بتوفيق الله وتسديده أن يفتح للدعوة باباً سلمياً تقف من ورائه خصومة تشتعل بين طرفيها حرب عصبية لا هوادة فيها.

وهي حرب يتمثل فيها الإيمان بالحق في أصدق صوره وأرسخها يحمل رايتها الإسلام والمسلمون بقيادة رسول الله ﷺ.

وهي حرب يتمثل فيها الظلم والطغيان والجهالة في أبشع صورها،

يحمل رايتها الشرك والمشركون بقيادة جبابرة الطغاة من فجرة الوثنيين، وطواغيت قريش.

والنبي ﷺ إذ يتولّى بنفسه تطبيق مبدأ من أهم مبادىء السياسة التشريعية لأمته إنما يرسم بعمله طريق التأسّي به لمن يتولّى بعده أمراً من أمور الحياة في مستقبل هذه الأمة.

وعمله ﷺ في تطبيق المبادىء التشريعية هو الأصل الأول في البناء التربوي للمجتمع الإسلامي، ومن ثَمّ كان عقد هذه المعاهدة والوفاء بشروطها له الأهمية الكبرى في تأسيس التشريع الإسلامي المحدّد للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم والجماعات.

الأمر الثاني:

كان لهذه المعاهدة مقدّمات كانت الطريق إلى الوصول إليها، وكان لها آثار بعيدة المدى عميقة الجذور في تاريخ المدِّ الإسلامي وانتشار الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.

فأما آثارها فتتمثل في أحداث التاريخ، وفي سياسة الفتوحات التي جاءت متتابعة بعد توقيعها.

مقدمات المعاهدة لم تكن تؤذن بشيء مما كان فيها وما كان بعدها.

وأما مقدماتها فلم تكن تؤذن بوقوعها على صورتها التي وقعت بها، ولذلك كان وقع المفاجأة بها قاسياً شديداً على نفوس المسلمين، وهذه المقدمات بعضها بعيد، وبعضها قريبٌ، ولكنها متصلة الحلقات متسلسلة الوقائع.

فالنبي ﷺ رسول من عند الله، ختم الله برسالته الرسالات الإلٓهية، ورسالته هي رسالة الإسلام، والإسلام ثورة إصلاحية نيط بها تغيير جذري في بناء المجتمع البشري، وإصلاح ما فسد في أممه وشعوبه فكرياً، وسياسياً واجتماعياً، وروحياً، وكان المجتمع الذي نبتت فيه هذه الأمة الإسلامية مجتمعاً مريضاً، أسقمه المرض إلى حدٍّ جعل كيانه الاجتماعي والروحي كياناً متهاوياً لا يتماسك في عقيدة يسندها عقل أو منطق، ولا يتماسك في نظام

اجتماعي يسنده علم يهدي إلى حقٍّ وخيرٍ.

كانت مجتمعات البشرية يوم عقد هذه المعاهدة بقايا بناء إنساني ينخر فيه سوس الفناء.

ويحيط بهذا المجتمع المتهافت في بنائه الاجتماعي مجتمعات بشرية ممزقة الأوصال، تعيش على أصداء باهتة لتاريخ ظلوم قاتم الآفاق، يحمل رايته السوداء دولتان أو أمتان كانتا في عهد إشراق شمس الدعوة الإسلامية شبحاً لبناء إنساني متهدّم، ينخر فيه سوس الفناء، وتنسج له الحياة أكفان الزوال.

ففي الشرق كانت بقايا دولة الفرس تتنفس لاهثة من طول ما عانت من أمراض الاضطرابات الداخلية والخلافات المذهبية وآثار الحروب الخارجية مع منافسيهم الرومان.

وفي الغرب كانت دولة الرومان تطفو على سطح الحياة جسداً عريض الأكناف لا روح فيه، أنهكته المظالم الإقطاعية والمجادلات المذهبية والحروب الخارجية مع الفرس.

وبين هاتين الدولتين أو الأمتين شراذم إنسانية المظهر متناثرة هنا وهناك تناثر الدَّقل أو الحصى على الأرض، تعيش كما تعيش الأنعام في غياهب البراري وغياض الغابات، إن أدركتها يد إحدى الدولتين اعتصرتها إن توهمت فيها شيئاً من عصارة، حتى تتركها عوداً ناشفاً لا تطعمه إلا نيران الجهالة والهمل.

هجرة الدعوة إلى الله من مكة إلى يثرب كانت هي طريق المواجهة لنشر الرسالة.

وفي هذا الجو القاتم أشرقت شمس الهداية من أفق الجزيرة العربية ببَعْثة محمد بن عبدالله ﷺ رسولاً إلى الناس كافة بشريعة هي خاتمة الشرائع الإلٰهية، فدعا أول ما دعا قومه، استجابة لأمر الله له في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، فدعاهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأوثان، وحذّرهم من عقابه، وأنذرهم بطشه، فتولّوا عنه مدبرين، وما آمن به منهم إلا قليل، فصبر عليهم وصابرهم، وتحمّل منهم أشدّ الأذى، ولم ينتهوا حتى تآمروا على قتله، ولمّا لم يجد سبيلاً إلى قلوبهم عرض نفسه ودعوته على غيرهم من القبائل والبطون، يذهب إليهم في مواطنهم ومحافلهم أو يستقبل الوافدين من قبائل العرب وبطونها إلى بلده ليعظّموا بيت ربهم بما تعوّدوه في جاهليتهم من

مناسك وشعائر، وأقبل عليه أبناء يثرب أوسهم وخزرجهم، وجمع الله به كلمتهم بعد فرقة وقتال بينهم، وبايعوه على أن ينصروه نصرهم لأنفسهم، ويحموا دعوته حمايتهم لأولادهم وأعراضهم إن أوى إليهم وهاجر إلى بلدهم، فبايعهم وأشار على أصحابه الذين أوذوا في سبيله وسبيل دعوته بالهجرة إلى إخوانهم أنصار الله وأنصار رسوله ودينه، فهاجر منهم من استطاع أن يهاجر، واتخذوا من يثرب مدينتهم، وفيها دوّى صوت الدعوة حتى عمّ أرجاءها، فلم يبق بيت من بيوتها إلا دخله الإسلام، وذُعرت مكة، بل رُعبت وركبت ظهر الشيطان، فجرى بها إلى أسوأ تدبير، وأعلم الله نبيه ﷺ بما بيتت من كيد ومكر، فخرج إلى المدينة مهاجراً يصاحبه صدِّيقه أول المؤمنين وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأقبل عليه أهلها يؤمنون بدعوته إقبال الفصائل على حُفَّل أمهاتها للرضاع.

القرآن الحكيم يجعل اليهود والمنافقين في قرن واحد.

وكانت المدينة مستوطناً لجاليات من اليهود والعرب المتهوِّدين يملكون الثروة فيها، فتحرك فيهم عرق الحسد، فنافقوا، واستنفقوا قوماً ممن شاركهم في رذيلة الحسد، وتعاونوا وإياهم على الإثم والعدوان، وهمّوا بما لم ينالوا، واليهود والمنافقون جبناء لا يجرؤون على الوقوف نهاراً جهاراً أمام الدعوة الجديدة وجندها وأنصارها، فهم كما وصفهم الله تعالى بوصف إخوانهم في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أُخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، وإن قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولُنَّ الأدبار ثم لا ينصرون * لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله؛ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصنة أو من وراء جُدُر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى؛ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[1].

---

(١) سورة الحشر آيات (١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمعْ لقولهم، كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة، يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾[1] وفي قوله: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم﴾ هذه الآية على خلاف ما قيل في سبب نزولها ظاهرة الورود في المنافقين واليهود.

رأى النبي ﷺ بتسديد الله أن يهادن اليهود ويفك عرى قوتهم، ويذلّ غرورهم، ويكبت حسدهم، فكتب كتاب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وفيه أدخل اليهود تابعين لبيوت الأنصار، يجعل كل فريق من اليهود تابعاً لفريق من الأنصار، وأمّن في هذا الكتاب اليهود على دينهم وأموالهم وأعراضهم ما داموا قائمين على حفظ العهد ليتفرغ ﷺ لتبليغ دعوته ونشر رسالته ويؤمّن طهر مجتمعه.

أول حركة إيجابية ينهض إليها المجتمع المسلم لدفع الظلم.

وكانت المدينة طريق مكة إلى الشام في تجارتها، وفي زعماء أهل مكة عنجهية حاسدة، ولهم قلوب من الصخر منحوتة حاسدة حاقدة، ونفوس للحق والهدى مبغضة، وعقول بالله كافرة، أرمضها أن يفلت المسلمون بدعوتهم إلى قلعة منيعة تقف في طريق تجارتهم، وتهدم طغيانهم، يحميها أنصارها من الأوس والخزرج وهم ـ على ما تعلم قريش ولفُّها ـ أبناء السيف والقنا وأحلاس الحرب والوغى.

وقريش في مكة تعلم أنها استولت على أموال المهاجرين إلى المدينة ظلماً وعدواناً وبغياً وعتواً، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق، فهل تنام قريرة العين، وتمر بتجارتها على هؤلاء الذين وترتهم بالأمس آمنة مطمئنة؟.

فلتجربْ، وليمض عاهلها أبو سفيان بن حرب قائداً لقافلتهم،

(١) سورة المنافقون آية (٤).

ومضى يسوق قافلته إلى الشام، وفيها باع واشترى، وربح واستربح، وعاد إلى قومه يحمل إليهم غرائر المال ومكاسب التجارة.

ولعل في هذا المال الذي اتجرت به قافلة قريش مالاً من أموال المسلمين المهاجرين، وإلا يكن عينه فهو عوضه، وللمظلوم أخذ حقه من ظالمه، وقد أذن الله جل ذكره لهم بالقتال لدفع الظلم وإقامة دعائم الحق، فقال: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير *الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[1].

وقربت القافلة من المدينة، وتسامع أهلها من الأنصار والمهاجرين بقدومها، فحركتهم حمية الحق، وحمية الدفاع عن كرامتهم، فهؤلاء أعداؤهم وهم أعداء الحق لم يكتفوا ببغيهم عليهم حيث كانوا بين أظهرهم، بل أخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وتجاوزوا كل بغي وعتوٍّ، فداسوا بقافلتهم الباغية طريق مهاجرهم علانية. لا، لا، لن يكون لأهل البغي والعدوان الظالمين مرور بقافلتهم، وفي أنصار الله عين تطرف.

وخرج بعض المسلمين من المهاجرين وإخوانهم الأنصار يعترضون طريق القافلة إلى مكة، فعلم بهم غطريفها أبو سفيان بن حرب، فعدل عن الطريق وساحل بقافلته، وكان قد أنذر أهل مكة فخرجوا يجرون أذيال الغرور والكبرياء، يسوقهم البأو والغطرسة إلى حتوفهم، وأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد نجا ونجت معه القافلة، فلم ينههم ذلك عن المضي في طريق البغي.

شاور النبي ﷺ أصحابه، فأشار جمهورهم بملاقاة أعداء الله على كثرتهم وعظيم استعدادهم، وقلّة المسلمين وضعف ظهرهم وعدتهم، وكانت وقعة بدر الكبرى كما تحدثنا عنها، وفيها انتصر الحق على الباطل، وظفر الإيمان بالشرك، وهُزم الظلم والبغي هزيمة ساحقة، وكانت هذه الواقعة أول وقعة واجه فيها المسلمون ـ وهم قلة في العدد، وضعف في العدّة ـ المشركين

---

(١) سورة الحج آيتا (٣٩ ـ ٤٠).

بقوتهم الباغية، وكان سلاح الإيمان بالحق هو الفيصل في هذه المواجهة.

عادت فلول مكة خائبة خاسرة بعد عنجهية الكبرياء وحمية الجاهلية، مقصوصة الأجنحة، ثم توالت الوقائع وظهـر نجيث اليهود وخبث النفاق، واشرأبت أعناقهم خشية أن تعلو كلمة الإسلام، فنقضوا العهود والموادعات التي عقدها رسول الله ﷺ بينهم وبين المؤمنين، وتجمع أحـزاب الكفر والضلال من اليهود والمشركين على شراذم المنافقين، وتعاهدوا على الغدر والفجور، وكانت وقائع وأحداث، من أهمها غزوة الأحزاب التي تألّب فيها المشركون من ألفاف القبائل التي لم يدخل الإسلام قلوبها، وظاهرهم اليهود والمنافقون، فهزمهم الله، ونصر جنده. وأعلى كلمته.

الأمر الثالث:

رسول الله ﷺ يمدّ يد المسالمة لأهل مكة ويخرج معتمراً ولكن البغي أبى على قريش أن تفتح لنفسها باب السلام.

رأى رسول الله ﷺ بعد انتصاراته المتوالية أن يمد يد المسالمة والرفق إلى مكة، وأن يوادع أهلها موادعة من لا يرغب في الحرب ولا يستهدف العداوة والقتال، بل يدعو إلى الأمن والسلام، وخرج إلى العمرة بمن معه من المهاجرين والأنصار، عامداً إلى البيت الحرام زائراً وساق معه الهديَ ليأمن الناس، ويعلموا أنه خرج معظّماً للبيت متعبّداً لربه، ولكن غطرسة المشركين الباغية وعجرفتهم الطاغية أبيا إلا عناداً فاجراً، وعقدوا الخناصر على أن يصدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن تعظيمهم بيت ربهم في رحلتهم المسالمة.

تواردت الأخبار على رسول الله ﷺ أن أهل مكة تجمعوا وتعاهدوا على أن يمنعوه من دخول مكة، فقال كلمته الوادعة الموادعة الحكيمة المحكمة: «يا ويح قريش أكلتهم الحرب؛ ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره أو تنفرد هذه السالفة».

فهل رأى الناس إنصافاً ومعدلة مثل ما في هذه الكلمة الجامعة؟.

وهل سمع الناس بموادعة ومسالمة مثل هذه المسالمة الوادعة؟.

وهل عرف الناس طريقاً لفتح باب الحرية للعدو يملكه أمر خصمه مثل ما عرضت له هذه الكلمة الواثقة الموثقة؟.

وهل ذكر التاريخ عزيمة مصممة على المضي قدماً في أمر بدأ متوارياً ثم استعلن شامخاً كما بدأ أمر الإسلام مثل ما في هذه الكلمة الحازمة الصارمة؟.

بلى، كانت مرّة في التاريخ، نفس تاريخ هذه الدعوة فقط، يوم أن انفرد رسول الله ﷺ في جانب والأرض كلها ومن عليها في جانب آخر، حتى عمّه الذي كان يحنو عليه ويحوطه بدا أنه خضع لبعض الأمر مع قومه، فقال له النبي ﷺ أخت هذه الكلمة: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

ثم عدل رسول الله ﷺ إمعاناً في إظهار رغبته في السلام عن طريق مواجهة قريش ليعلم الناس حقيقة مقصده من الموادعة وتأمين الناس، حتى إذا بلغ مكاناً قريباً من قرية الحديبية بركت راحلته، فجعل الناس ينهضونها فألحت ولم تنهض، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء، أي حرنت، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها ـ أي عن مكة ـ حابس الفيل، والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت به حتى نزل بأقصى قرية الحديبية، انتظاراً لما تنفرج عنه أسرار الغيب، وما عسى أن يكون من قريش وقد ظهر لها ظهوراً بيّناً أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يقدموا إلى مكة إلا من بعد أن مدّوا حبل السلام والموادعة، وأنهم لم يأتوا إلا لزيارة البيت الحرام وتعظيمه.

الأمر الرابع:

أثر هذه السياسة الحكيمة المحكمة على الموقف المتأزّم بين المجتمع المسلم وبين قريش.

كان لهذه السياسة الحكيمة الحازمة المسالمة التي ساس بها رسول الله ﷺ الموقف أثرها في توجيه الأمور إلى نهايتها التي قصد إليها رسول الله ﷺ من هذه السياسة التي تحمّل فيها على نفسه ومجتمعه المسلم، وامتحن فيها أصحابه رضي الله عنهم أشد الامتحان، فصبروا للمحنة بعد أن محّصوا

تمحيصاً أخلص أنفسهم للتأسِّي والتسليم لما يراه رسول الله ﷺ ولو خفيت عليهم حكمته وأسراره.

ولما اطمأنَّ رسول الله ﷺ في منزله الذي نزله من الحديبية أتاه بُديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من قومه، وخزاعة - مسلمها ومشركها - كانت موضع نصح رسول الله ﷺ، مأمونة على سره لا تخفي عليه شيئاً تراه بمكة، فسأل بديل ورفاقه النبي ﷺ ما الذي جاء به؟ فقال: «إنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظِّمًا لحرمته» فرجع بُدَيل ومن معه من قومه إلى قريش وأبلغوها مقالة رسول الله ﷺ، وتتابعت الرسل منهم إلى رسول الله ﷺ، فكان يجيب كل رسول بما أجاب به بُديلاً، وكان من أمتع هذه المقاولات مساءلة عروة بن مسعود الثقفي وما احتفَّ بها من أمور لها مكانها الخاص في تصوير إجلال أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم وحبِّهم له، ومتابعتهم له ﷺ في كل ما يأمر به.

ولكن الشرك كان لا يزال يفكر بعقلية الوثنية التي لم تستطع أن ترتفع عن حمأة الكيد الأحمق، ففكرت قريش بهذه العقلية وقدّرت، فكّرت في الغدر فبعثت خمسين رجلاً ليتحينوا غِرّة من المؤمنين فيفتكوا بمن ينالونه منهم، وكان هؤلاء الخمسون بُلْه التفكير والتقدير، فرموا في جموع الصحابة بالحجارة والنبل، وما هي إلا هَبة من بهاليل الإيمان حتى أخذوهم سوقاً إلى رسول الله ﷺ، فمنّ عليهم وعفا عنهم، وخلَّى سبيلهم تأكيداً لمقاصده النبيلة ﷺ في السلام والمسالمة.

الأمر الخامس:

لم يكتف رسول الله ﷺ بما كان بينه وبين رسل قريش من مقاولات كانت واضحة أشد الوضوح في أنه ﷺ لم يكن من قصده في قدومه إلا التعبد لربه وزيارة بيته المحرم وتعظيم حرمته، بل تقدّم إلى صادِّيه أعداء الحق فأرسل إليهم من يبلِّغهم عنه ما أجاب به رسلهم من المسالمة والموادعة وترك الفرصة لهم، إزالة لكل شك، وتبديداً لكل ارتياب، فعسى ألا يكون رسلهم قد أدّوا ما حُمِّلوا من أمانة الرسالة إليهم بتفصيلها ووضوحها، فقد كانوا

يجبهون الرسل، ويلقون منهم عنتاً وتسفيهاً مما قد يمنع من كمال الإبلاغ، فأراد رسول الله ﷺ أن يقطع دابر الشك ويعذر إليهم حتى لا تبقى لهم حجة عليه وعلى أصحابه.

غدر قريش برسول رسول الله ﷺ فنجّاه الله منهم.

فقد رُوي أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش، وحمّله على بعير له ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فسفهت قريش على رسول رسول الله ﷺ، وعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعه قومه وحلفاؤهم الأحابيش وخلّوا سبيله، وعدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت قريش معه.

بيعة الرضوان وسببها وقوّة عزائم الصحابة فيها.

لم يعجّل رسول الله ﷺ على قريش فيجازيها بما فعلت من الغدر برسوله إليها، ولكنه طاولها وصابرها رجاء أن تثوب إلى مراشدها فدعا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، فيبلّغ عنه أشرافها ما جاء له، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي بمكة، وما بمكة من بني عدي بن كعب ـ قوم عمر ـ أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني عثمان ابن عفان، وكان هذا الرأي من عمر سديداً موفقاً لما يقصد إليه رسول الله ﷺ من المسالمة والموادعة، لأن عمر لو ذهب إلى قريش وهو معها كما وصف نفسه، لأسرعت إليه، تمدّ يدها بالسوء، ويكون ذلك سبباً في اشتعال نار الحرب، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يحاول تجنبه والابتعاد عنه، فكان عدم بعث عمر من حسن السياسة الموفقة الموافقة لمقاصد رسول الله ﷺ.

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظّماً لحرمته.

بعث عثمان بن عفان إلى قريش لمكانته عندها برسالة السلام والمسالمة.

خرج عثمان في سفارته إلى مكة، وحقّق الله ظن عمر فيه، فلم يكد عثمان يقرب من مكة حتى لقيه قبل أن يدخلها أبان بن سعيد بن العاص، فجعله بين يديه، وعرف منه ما جاء به سفيراً فأجاره وأعلن هذا الجوار على ملأ قريش، فلم تُرفع بالإنكار عليه رأس لعزته في قومه وعزّة قومه في قريش.

بلّغ عثمان رضي الله عنه رسالة رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف مكة كما أمره رسول الله ﷺ، فأرادوا أن يتملّقوا عثمان ويصرفوه عن مقصده، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، ولكن عثمان أحد السابقين الأولّين، وأحد أصحاب الهجرتين، الأثير بالصهر في مطلع البعثة قبل أن يشرف أحد قبله بهذا الصهر العلي المستعلي، عثمان صاحب الفضائل والفواضل على الإسلام والمسلمين، أبى لصدق إيمانه على قريش هذا الملق الوضيع، وردّ عليهم بالكلمة الراسخة في صدق الإيمان وقال لهم: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

بيعة الرضوان تهزّ كيان قريش وتفزعها.

وعادت قريش إلى عنجهيتها فاحتبست عثمان عندها ولم تطلق له حرية الرجوع إلى رسول الله ﷺ ليبلّغه عنها جواب رسالته، ولما طال احتباس عثمان تطايرت الإشاعات بأن عثمان قد قتلته قريش، فثارت لهذه الشائعات عزائم الإيمان، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة، وضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال: «هذه عن عثمان» وتسامعت قريش بعزيمة رسول الله ﷺ على مناجزتهم، وبيعة أصحابه له على ذلك، فرعبت رعباً شديداً ودارت بها أرضها تحت أقدامها فرقاً وفزعاً، فأطلقت عثمان رضي الله عنه، وأرسلت سهيلاً تطلب إليه مصالحة رسول الله ﷺ.

وفي بيعة الرضوان يقول الله تعالى تنويهاً بمقام رسول الله ﷺ ومكانته من الله تعالى، وتشريفاً لأصحابه الذين بايعوه: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما** يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾[١].

ويقول جل ثناؤه في إظهار فضل الذين بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة المباركة وحفاوته بهم ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت

(١) سورة الفتح آية (١٠).

الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾[1].

الأمر السادس:

ثقل شروط المعاهدة على الصحابة وتحرك عمر بن الخطاب حركة مغضبة.

انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ فتكلم فأطال الكلام وتراجعا في الحديث، ثم جرى بين رسول الله ﷺ وبينه الصلح على شروط تحمّل فيها رسول الله ﷺ على نفسه أمراً عظيماً، وناءت بثقلها نفوس أصحابه حتى وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجاء إلى رسول الله ﷺ يسائله في شأن هذه الشروط القاسية وكيف يقبلها المسلمون وهم على الحق وأعداؤهم على الباطل، فقال له رسول الله ﷺ: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه» قال عمر: أو لست كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوّف به؟ فقال له رسول الله ﷺ: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قال عمر: لا، فقال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوّف به».

هذا الموقف الشديد الذي عبر فيه عمر عن جوّه النفسي بقوله:

ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، يصوّر أصدق تصوير ما دخل على المسلمين من الغم والحَيْرة، بَيْدَ أن الموقف كان أقسى ممّا تصوره الكلمات، فقد كان فوق طاقة الاحتمال البشري، لم يثبت له بعد رسول الله ﷺ الذي كان على علم من ربِّه وكشفت له حجب الأسرار عن عواقبه غير الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه.

وثبات أبي بكر الذي انفرد به في مضايق هذا الموقف إنما كان بقدر رسوخه في الإيمان رسوخاً كان يستمده من آفاق شمس النبوة الذي جعله الله على نور قلبها، وله منها الكثير من خصائص آثارها الفطرية، ومن يقينه الذي وقر في قلبه بصورة لا يلحقه فيها نقص الشبهات، ولا يزيدها كشف الحجاب.

ولهذا ذهب إليه عمر يتلمس من يقينه وإيمانه ثلج التثبيت، لأنه سيد الراسخين بعد النبي ﷺ.

---

(1) سورة الفتح آية (١٨).

قال عمر: فأتيت أبا بكرٍ فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، فرد عليه أبو بكر بما رد به عليه رسول الله ﷺ سواء، لم يخرم منه حرفاً، ولا غيّر كلمة، غير أنه زاده في التثبيت فقال له: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

شروط المعاهدة وبنودها

الأمر السابع:

هذه المعاهدة تتألف من سبعة شروط:

الشرط الأول: وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

الشرط الثاني: من أتى رسول الله ﷺ من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم.

الشرط الثالث: من أتى قريشاً ممّن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه.

الشرط الرابع: أن بيننا ـ أي المؤمنين والمشركين ـ عيبة مكفوفة ـ أي صدراً نقياً من الغل والخداع والغش مطوياً على الوفاء والأمانة.

الشرط الخامس: أنه لا إسلال ولا إغلال ـ أي لا سل للسيوف للقتال، ولا خيانة وسوء تدبير بالمكر والكيد.

الشرط السادس: من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

الشرط السابع: أن يرجع محمد عن قريش عامه هذا فلا يدخل مكة ولا يطوف بالبيت، وإذا كان عام قابل خرجت قريش عن مكة وأخلتها فدخلها محمد ﷺ بأصحابه، فأقام بها ثلاثاً ليس معه إلا سلاح الراكب، السيوف في قربها.

قال ابن القيم في زاد المعاد: من الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة أنها

لمحات من زاد المعاد في أسرار هذه المعاهدة.

كانت مقدّمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً.

ومنها أن هذه الهدنة كانت أعظم الفتوح، فإن الناس أمن بعضهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدّة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سمّاه الله فتحاً مبيناً.

وهذا يدل على أن خير شروط هذه المعاهدة وأبركها هو الشرط الأول شرط وضع الحرب بين المسلمين والمشركين، لأنه أمّن الناس، وفتح أمام دعوة الإسلام الطريق إلى القلوب والآفاق، فأسمعها المسلمون لمن لم يكن قد سمعها. وبيّنت حججها بياناً ساطعاً لمن لم يكن قد تبينها، وقرىء القرآن على من لم يكن قد سمعه، وهم قوم لمّاحون لمواقع نجوم الفصاحة ومنازل البلاغة من آياته، درّاكون لحكمه وأسراره.

وبذلك كانت هذه الهدنة هي الفتح المبين الذي بشّر الله به عباده المؤمنين، وامتن به على رسوله الأمين ﷺ، وهنأه به أمين الوحي جبريل والملائكة وصالحو المؤمنين.

وكان أشد شروطها وأقساها فيما بدا للناس، واشتد الأمر فيه على جمهور الصحابة رضوان الله عليهم شرطيها الثاني والثالث اللذين قضيا بردّ من أتى رسول الله ﷺ من قريش إليهم ولو كان على دينه، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردُّوه عليه.

هذان الشرطان هما اللذان أدخلا على المسلمين من الهم والغم ما أذهل الألباب، وأظهر أكابرهم منهما الامتعاض، وعجب متحيّراً كثير منهم من قبول هذين الشرطين، فقالوا: سبحان الله كيف يردُّ على المشركين من جاءنا مسلماً، ولا يردون علينا من ذهب إليهم مسلماً؟ وكان أشد المتعضين: عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، وسهل بن حنيف، ولكن رسول الله ﷺ قبل ذلك وعاهد القوم عليه لما كان ينظر إليه من وراء ستر الغيب، وقال لأصحابه: «من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء

منهم إلينا فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً».

وقد عجَّل الله امتحان المسلمين وابتلاءهم في تحقيق الوفاء بهذين الشرطين الصارمين ليمحِّصهم، ويعدّهم إعداداً كاملاً لحمل أمانة الإسلام، ويظهر لأعدائهم فضل الإسلام في احترام الوفاء بالعهد في خلائقهم التي خلّقتهم بها دعوته الهادية الراشدة، ويبيّن للناس ما حبا به نبيه محمداً ﷺ من الصبر على البلاء، وتعظيمه أمر الوفاء بما عاهد عليه مهما عظمت شدته واشتدت قسوته.

موقف سهيل من ابنه أبي جندل الذي عجل به ابتلاء المسلمين.

فبينما هم كذلك ـ ولما يكتبوا العهد وشروطه، وإنما كان الأمر لا يزال مفاوضة كلامية انتهى أمرها إلى الاتفاق على شروط العهد ـ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، ولم يكد يراه أبوه سهيل وكان هو صاحب سفارة قريش ومتكلمها في العهد وشروطه، ونائبها في عقد المصالحة حتى ضرب بوجهه وأخذ بتلابيبه وقال: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنّا لم نقضِ الكتاب بَعْدُ» فأبى سهيل إلاّ شرطه، وقال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً، فوافق النبي ﷺ على أن الشرط لازم واجب الوفاء وإن لم يقض الكتاب، ولكنه طلب من سهيل أن يترك له ابنه أبا جندل استثناء من الشرط، فأبى سهيل أشد الإباء، فصرخ أبو جندل لما علم أنه متروك لأبيه يردّه إلى المشركين، ونادى في المسلمين يثير فيهم حمية الإسلام وأريحية الإيمان: أي معشر المسلمين، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله.

آية من آيات السياسة النبوية في تصبير أبي جندل على المحنة وتبشيره.

فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإنا لا نغدر، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم».

وفي هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس.

فهو ﷺ يرى أحد المسلمين الذين عذبوا عذاباً شديداً ليفتن عن دينه يرمي بنفسه بين أظهر المسلمين وهو في قيوده وأغلاله، وأبو هذا المسلم المضطهد هو الذي يعقد الصلح مع النبي ﷺ فيستجيزه رسول الله منه فيأبى ويهدّد بالتحلّل من المعاهدة، فلم يزد رسول الله ﷺ على أن أوصى المسلم المعذّب بالصبر والاحتساب، فيصرخ هذا المسلم في إخوانه المسلمين يستدر عطفهم ويثير حماستهم بعرض حاله عليهم وهم يرونه ويرون ما فيه وما لقيه من المشركين، وما ينتظر أن يلقاه منهم بعد ردِّه إليهم، ويخشى رسول الله ﷺ أن يحرِّك هذا الموقف كوامن النفوس في المسلمين وتأخذهم الحمية الإيمانية فيصنعون ما يعوق عقد المعاهدة ويحسم الأمر بقوله: «فإنا لا نغدر» ويبشر أبا جندل ليثبته على الإيمان بأن الله جاعل له فرجاً ومخرجاً، ثم يقول ﷺ كلمة جامعة لتقر في أسماع كافة المسلمين وتعيها قلوبهم: «إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم» حتى يكون كل مسلم شهد أو غاب على بيِّنة من أمر منهج رسالة النور والخلود وتمسك الإسلام به، فلا تثيره عاطفة ولا تميل به حمية.

بركة الشرط السادس من شروط المعاهدة. ونقض قريش لهذا الشرط غدراً وخيانة.

وكان شرط هذه المعاهدة السادس الذي تضمن حرية الاختيار للقبائل في الانضمام إلى أحد الفريقين المتصالحين ـ فاتحة خير، وهو الذي عجّل الفتح المبين، فقد تواثبت خزاعة ـ وكانت قديماً مع بني هاشم في حلفهم وكانت موضع ثقة ونصح لرسول الله ﷺ ـ وقالوا: نحن في عقد محمد ﷺ، وتواثبت بنو بكر، وقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وكان بين الحيين، خزاعة وبكر إحن وضغائن جاهلية خلّفت بينهم تِراتٍ ودماءً يتحيَّنون لإثارتها الفرص، فلما جاء الإسلام حجز بينهم، وظلوا على ما بينهم من الإحن حتى تم عقد صلح الهدنة، فانتهزها البكريون غدراً وخيانة، وعدوا على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ وبيّتوهم في ديارهم وعلى مياههم وهم غارّون آمنون، ورفدت قريش بني بكر حلفاءها بالسلاح والرجال مستخفين، وظاهروهم على حلفاء رسول الله ﷺ الداخلين في عقده وعهده، فنقضت قريش بذلك عهدها مع رسول الله ﷺ الذي واثقته به على أن بينهم وبين المسلمين عيبة مكفوفة وصدوراً سليمة من الغش والخداع، نقية من الغدر والخيانة، وأنه

لا إسلال ولا إغلال، وهم قد سلُّوا السيوف وقاتلوا وخانوا وغدروا.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين من قومه إلى المدينة، يستنصر رسول الله ﷺ ويستنجزه الوفاء بعهده لحلفائه الذين آثروه ودخلوا في عقده وعهده، وقد عدت عليهم بنو بكر حلفاء قريش، ورفدتهم قريش وأعانتهم بالسلاح والرجال.

ولما انتهى عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في مسجده بين أظهر أصحابه أنشده أبياتاً من الشعر يستصرخه بها، وقد قدمناها منسوبة إلى بديل بن ورقاء، وتقول الرواية السابقة إن الذي قدم على رسول الله ﷺ في أربعين من قومه يستنصره على قريش وبني بكر هو بديل ابن ورقاء، وهو الذي أنشد هذا الشعر.

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، وتسامعت قريش برحلة الخزاعيين إلى المدينة يستصرخون رسول الله ﷺ، فرعبت رعباً شديداً وأخذها المقيم المقعد، وندمت على ما فعلت، وسقط في يدها فأرسلت زعيمها أبا سفيان ليشد عقد الهدنة ويستزيد في مدتها.

موقف ذليل مخذول لأبي سفيان ابن حرب.

فلما قدم أبو سفيان المدينة دخل على ابنته أم المؤمنين ال سيدة أم حبيبة رضي الله عنها، فذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه، فقال لها: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر.

موقف من مواقف الإيمان وإخلاص اليقين من أم المؤمنين السيدة أم حبيبة مع أبيها أبي سفيان سيد البطحاء.

وهنا إشراقة لامعة بالمنهج الإسلامي ولكنها من لون عجيب جداً، فالسيدة الجليلة أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم قريش وسيد بطحاء مكة، يدخل عليها أبوها بعد طول عهد بفراقها، ويجيء ليجلس على فراش في بيتها فتطويه عنه، فيتساءل في عنجهية الكبرياء المتغطرس، هل طوي عنه هذا الفراش لأنه لا يليق بكبرياء سيد البطحاء وزعيم قريش؟ أو طوي هذا الفراش تعظّماً به أن يدنسه رجس الشرك في زعامة البطحاء؟ فتجيبه ابنته الوفية لدينها ولنبيها ورسالته، ولزوجها وعظمته، مبينة له: أنه

فراش رسول الله ﷺ الطاهر المطهر، وأنت رجل مشرك نجس لا تصلح للجلوس عليه خشية أن تدنسه، إنه الإيمان، الإيمان إذا خالطت بشاشته شغاف القلوب، وامتزجت حلاوته بالأرواح والعقول والجوارح.

السبل كلها تعمى على سفير قريش وزعيمها أبي سفيان وتنتهي به إلى سخرية الحياة..

لم يقنع أبو سفيان بهذا الدرس الذي تلقّاه من أقرب الناس إليه لحمًا ودماً، من ابنته في بيت رسول الله ﷺ، ولكنه ذهب إلى رسول الله ﷺ فكلّمه فيما هو قادم من أجله، فلم يردّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه ليكلم له رسول الله ﷺ، فأبى عليه الصدّيق، ثم أتى عمر ابن الخطاب وكلّمه ليشفع لهم عند رسول الله ﷺ، فكان عمر أشد الناس وطأة على صلعة كبرياء زعيم البطحاء. ثم أتى عليّ بن أبي طالب وعنده زوجه فاطمة بنت سيد الخلق ﷺ، وابنها الحسن غلام يدبُّ على الأرض بين يديها، فاستعطف علياً وسأله بالرحم أن يشفع له إلى رسول الله ﷺ فأبى عليه، ولكنه لاينه ورفق به، فالتفت زعيم البطحاء في ذلّة إلى السيدة النبيلة فاطمة البتول وقال لها: يا بنت محمد؟ هل لك أن تأمري بنيّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، فقالت أم الحسنين سيدة نساء العالمين: والله ما يبلغ بنيّ هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

أفٍ للكبرياء الجوفاء والغرور التافه، أليست لكم عقول؟ حاربتم محمداً ﷺ وآذيتموه وأصحابه حتى أخرجتموهم من ديارهم وأموالهم، وألّبتم عليه من استطعتم من أخلاط الحقد والبغضاء من اليهود والمنافقين، فهزمكم وانتصر عليكم، وعفا عنكم. وجاءكم مسالماً موادعاً يزور بيت ربه ويعظّم حرمته فصددتموه ومنعتموه، كان في استطاعته أن يستأصل شأفتكم، ولكنه أبقى عليكم تفضّلاً منه فشارطتموه فأفرطتم في شروطكم فقبلها، وأعطاكم الفرصة التي لا تعوض.

فهل كان من مروءة الوفاء أن تقابلوا كل ذلك بهذا الغدر الوضيع؟ وهل كان من مكارم العروبة أن تستذلوا أنفسكم هذا الذل الذي يذهب بكم إلى أن زعيمكم سيد البطحاء يتهانف أمام غلام يدبُّ بين يدي أمه

ليجير بينكم وبين جدّه سيد العالمين ﷺ، ولكنه الكفر الأبله والشرك الجهول، لا طريق له إلى العزّة والكرامة، ولا طريق له إلى السمو النفسي، إنك إن تسمو به يخلد إلى الأرض يلهث لأنه خبيث ظلوم.

أبو سفيان يعود إلى قريش مثقلاً بالخيبة في سفارته.

عاد أبو سفيان زعيم قريش إليها خائباً، وأمر رسول الله ﷺ بجهازه وأمر المسلمين أن يتجهزوا، وسار إلى مكة في حشود جند الله وكتائب الإيمان وأنصار الإسلام، وفي الطريق التقطت عناية الله أبا سفيان رحمه الله تعالى فدخل في الإسلام بعد أن رأى عظمته وعظمة نبيه ﷺ، وفتح الله على رسوله ﷺ مكة المشرفة، ودخلت قريش كلها في الإسلام، وأطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، فكانوا بفضل الوفاء بالعهد من رسول الله ﷺ وأصحابه وببركة هدنة الحديبية هم كتائب الجولة الأولى لفتوح الإسلام كلها، وكانت مكة قلعة وحصناً من قلاع وحصون الدعوة إلى الله بالعلم والحجة النيرِّة ثم بالجهاد في سبيل الله.

فدائية أبي بصير أرعبت قريشاً فاستغاثت بالنبي ﷺ متنازلة عن شرط من أقسى شروط المعاهدة.

ومن أروع مظاهر المنهج الإسلامي في معاهدة الحديبية إلى جانب مظاهره في قصة أبي جندل ـ ما أجمع على روايته الأئمة في السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية إلى المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي، وكان ممن حبس بمكة فلم يستطع الهجرة مع المهاجرين، فتخلّص والناس مشغولون بالهدنة وأحاديثها، وفرّ بدينه، ولم يكن قد علم بشروط المعاهدة، فكتب فيه المشركون إلى رسول الله ﷺ أن يردّه عليهم وفاء بعهدهم، وبعثوا بالكتاب رجلاً من بني عامر بن لؤي ومولى لهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك» قال أبو بصير: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ قال النبي ﷺ: «يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

نعم يا رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليك لا يصلح لنا في ديننا الغدر، هذا درس من دروس تربيتك لأمتك تربية ترتفع بها إلى آفاق

العظمة الأخلاقية النبيلة، لأن الغدر لؤم واللؤم شيمة الأدنياء الذين لا يرتفعون عن مواطىء أقدام الحياة.

كان موقف أبي بصير في أزمة الحديبية من أشجع وأنبل مواقف البطولة.

صدع أبو بصير بأمر النبي ﷺ وانطلق مع رسولي المشركين وفاء بعهدهم، وليلقَ في سبيل هذا الوفاء ما يلقى عظماء النفوس في سبيل توطيد مبادىء القيم العليا لبناء الحياة.

ولكن هل ترضى نفوس الأعلياء أن تذل وتخضع لزمجرة الباطل؟ لا، لن ترضى؟ وأين المخرج؟ إن رسول الله ﷺ - وهو الذروة في قمة الفضائل الإنسانية - قد وفى لأعدائه أصدق الوفاء وأعظمه، فرد إليهم أبا بصير، وليس في عنق أبي بصير عقد لأحد، فليتصرف لينجو بإيمانه ودينه.

ففي الطريق وهو مع رسوليَ قومه نزل ثلاثتهم منزلاً يستريحون ويطعمون من ثمرات معهم، والحديث شجون، فقال أبو بصير للعامري: والله إني لأرى سيفك هذا جيداً، فانتفخت أوداج العامري بَلَهاً واستكباراً، وسلَّ سيفه من غمده، وقال: أجل إنه والله لجيِّد، لقد جرَّبت به ثم جربت، وسأضرب به في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل.

وكأنه بهذا الغرور الأحمق قد أثار حمية أسيره أبي بصير لدينه وأصحابه وأنصار نبيه ﷺ، فقال له: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه به حتى برد، وفرّ رفيق العامري مذعوراً يهوي هوياً حتى أتى المدينة، فدخل المسجد وهو يعدو كاشفاً عن سوأته ذهولاً وذعراً، فقال رسول الله ﷺ.. حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: لقد قُتِل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير يحمل معه سلب العامري وقال للنبي ﷺ مبيناً موقفه: يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، وقدَّم إلى النبي ﷺ سلب قتيله ليخمسه كما يخمس الغنائم، فقال النبي ﷺ متعجّباً من شجاعته: «ويل أمه مِسْعَر حرب لو كان له أحد» ثم قال «يا أبا بصير إني إن خمّست السَّلب لم أف بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك، واذهب حيث شئت» فلما سمع ذلك أبو بصير عرف أنه سيرده إليهم وفاء بالعهد، فخرج حتى أتى سيف البحر.

أبو بصير وأبو جندل يؤلفون كتيبة في طريق المدينة ترعب قريشاً فتذل وتستغيث.

وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، ويلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ثلاثمائة رجل أو يزيدون، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتّجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتخلّوا في ذلّة عن أقسى شروطهم التي صبوا فيها كؤوس كبريائهم، وقد غدروا وخانوا ووفى رسول الله وأصحابه، فذلّت قريش من حيث طلبت العز، وعزّ رسول الله ﷺ وأصحابه من حيث عُدي عليهم، ونصرهم الله نصراً مؤزراً وأثابهم على وفائهم الفتح المبين.

سياسة الحكمة المسالمة أمام عنجهية الغرور المستكبر.

ومن مظاهر الوفاء بهذه المعاهدة أن رسول الله ﷺ لما اعتمر عمرة القضية ودخل مكة في سلاح الراكب وفاء لقريش بعهدها أقام بها ثلاث ليال، فما أتى الصبح من اليوم الرابع حتى أتاه سهيل بن عمرو، وحويطب ابن عبد العزّى، ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد ابن عبادة، فصاح حويطب نناشدك الله والعقد لمّا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فقال سعد بن عبادة: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا بأرض آبائك، والله لا يخرج، ثم نادى رسول الله ﷺ سهيلاً وحويطباً فقال: «إني قد نكحت فيكم امرأة ـ يعني ميمونة بنت الحارث ـ فما يضركم أن أمكث حتى أدخل ونصنع الطعام، فنأكل وتأكلون معنا؟» فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا، فأمر رسول الله ﷺ فأذن بالرحيل.

في كل مظهر من مظاهر الوفاء بهذه المعاهدة نجد صوراً من النبل النبوي والتسامي في الرفق بالأعداء والمسالمة معهم، وفتح باب التقارب، تعبّر أصدق تعبير عن مدى الحرص على مبادىء الوفاء بالعهد في هذا الدين القيّم.

لم يُنْظِر المشركون المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ لحظات من الزمن بعيد انقضاء الأجل المضروب للإقامة في مكة حتى جاؤوا النبي ﷺ يلحون عليه في الخروج منها وفاء بالعقد الذي تمّ بينهم في شروط المعاهدة.

تلطف ومبالغة في المسالمة أمام جفوة الشرك وحقد الوثنية.

وقد أراد النبي ﷺ أن يبالغ في التلطف بهم ليستل من صدورهم الحفيظة على الإسلام والمسلمين، ويستميلهم إلى الوفاق والمسالمة، فأخبرهم حين ناشدوه أنه تزوج فيهم امرأة ولمّا يدخل بها، ولا يضرهم شيئاً أن يمكث بمكة ريثما يدخل بأهله، وزادهم في التلطف معهم أنه يريد أن يشاركوه وأصحابه طعام وليمة زواجه فيهم، ولكنهم أبوا إلا جفوة وتنائياً، وعادوا يلحّون في خروجه عنهم مناشدينه الله والعقد، فلم يسعه ﷺ أمام جفائهم وتأبّيهم إلا أن أمر فأذّن في أصحابه بالرحيل وفاء بما عاهدهم عليه.

ولما كانت معاهدة الحديبية هي أجلّ معاهدات الإسلام وأخطرها لما احتف بها من أحوال وشؤون، ولما اشتملت عليه من شروط، ولما برز فيها من السياسة الحكيمة الحازمة التي عالج بها رسول الله ﷺ الموقف من جانبيه، جانب عتو المشركين طغياناً وكفراً، وجانب ما أصاب المسلمين من الشدة والحيرة، ولما تجلّى فيها من مواقف الحرص البالغ على الوفاء بعقدها على ما كان فيه من القسوة على المسلمين، ولما أعقب ذلك كله من الخير والبركة للإسلام والمسلمين، بما كشف ستر الغيب عنه في تتابع الأحداث.

وكان أعظم ذلك وأجله الفتح المبين، فتح مكة الذي مهد للمد الإسلامي وفتوحاته التي نشرت العدالة والرحمة في أرجاء الأرض.

واقتضت الحكمة الإلّهية أن يعقب هذا الفتح فترة الحديبية التي انتهت بغدر أهل مكة وخيانتهم لله ورسوله في نقض هذه المعاهدة والعبث بشروطها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

آثار معاهدة الحديبية
في إبراز معالم منهج الرسالة

لذلك كله جعل علماء الإسلام وأئمته معاهدة الحديبية منذ عقدها والتزام المسلمين الوفاء بعهدها ـ نصب أعينهم في مواقفهم الصارمة لحماية أهل الذمة والمعاهدين أن يظلموا، أو يضاموا، وهم في ظل الإسلام يرعون ذمامه وعهده.

وجعلها الخلفاء والأمراء والولاة وصالحو ملوك الإسلام أصلاً يئلون إليه في بناء علاقة المسلمين بغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وظلاً ظليلاً يفيء إليه المعاهدون إذا أصابهم في ظل الإسلام ضيم، أو هضم لهم حق، أو وقع عليهم ظلم.

ولذلك جاءت السنة النبوية بما تضمنته هذه المعاهدة المباركة من أصول وقواعد وجاءت الوقائع والحوادث التطبيقية في تاريخ العدالة الإسلامية قائمة على دعائم من مبادىء هذه المعاهدة التي نبعت من الهداية القرآنية، ومن إشراق أنوار النبوة المحمدية الخاتمة.

روى أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً، أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»، وفي حديث عبدالله بن أرقم أن النبي ﷺ ولّاه على جزية أهل الذمة، فلما ولّى من عنده ناداه فقال: «ألا من ظلم معاهداً، أو كلّفه فوق طاقته أو انتقصه من حقه، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». وفي حديث عمرو بن عبسة الذي ردّ به معاوية رضي الله عنهما عن

قصده مع الروم أن النبي ﷺ قال: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء».

وقد حذر النبي ﷺ من الغدر تحذيراً شديداً فقال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته، يقال هذه غدرة فلان». وقال ﷺ : «من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله فأنا بريء من القاتل». وقال صلوات الله وسلامه عليه: «ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو».

وقد جعل النبي ﷺ المسلمين في الوفاء بالعهد والذمة سواسية: كبيرهم وصغيرهم، وعظيمهم، وأدناهم، فقال: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»، وفي رواية أخرى: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

غَزوَة الفتح الأعظم

فتح مكّة المكرّمة

أسبابها وأحداثها وآثارها

غزوة الفتح الأعظم

لم تكن غزوة فتح مكة غزوة قتال، بل كانت غزوة سلام ومسالمة ووفاء للصديق وتأديباً للعدو.

لم تكن غزوة مكة المشرفة غزوة قتال كما كانت غزوة (بدر) و (أحد)، ولكنها كانت غزوة مسالمة ووفاء بالعهود والمواثيق، وروابط الحياة الاجتماعية التي يعظِّمها المجتمع العربي قبل الإسلام، ولا ينكرها الإسلام ديناً وشريعة ونظاماً اجتماعياً في علاقات الأفراد والجماعات، بعيدة عن العصبيات القومية الظالمة، والأعراف الجاهلية الطاغية.

وكان مظهر السلم والمسالمة والوفاء بالنسبة لتأديب العدو هو إثارة الرعب بإظهار قوة الكتائب المسلمة في قلوب بقايا طواغيت الوثنية الفاجرة، ليرتدعوا عن عنجهيتهم المغرورة بما تملك من مآثر الجاهلية الجاهلة واستكبارهم في الأرض بغير الحق، وأما بالنسبة لمن لم تنغلق قلوبهم دون الإيمان بأبواب الفجور الوثني، فتتجلى مظاهر الوفاء والمسالمة في مكارم العفو والإحسان الذي غمر به النبي ﷺ هؤلاء المتأرجحين بين الصدّ والقبول حتى فاؤوا إلى الإيمان.

ولهذا كانت هذه الغزوة على غير أوضاع الغزوات التي سبقتها في القوة المادية والتأهب بعناصرها وأسبابها من الرجال والسلاح، والبدء بالهجوم، وغزو الأعداء في عقر دارهم، وأخذهم ضغطة لكسر شوكتهم، ورعبلة ما بقي لهم من مظاهر القوة المادية التي كانت عمادهم في حروبهم الجاهلية وتراثهم القتالي الظلوم المغلّف بالبغي والعدوان.

كثافة جيش الفتح واكتمال عدته.

وقد كان الجيش الذي زحف به رسول الله ﷺ عليهم ـ لتأديبهم على ما أقدموا عليه واقترفوا إثمه من فجور الغدر ونقض العهد والعبث بالمواثيق،

وهم في ديارهم غافلون، يسترقون الخيانة، ويتخونون الغدر لمساعدة حلفائهم البكريين على حلفاء النبي ﷺ الخزاعيين - جيشاً عرمرماً، وحشداً كثيفاً من كتائب الأبطال المجاهدين، لم يعرف أنه اجتمع للمجتمع المسلم مثله عدداً وعدّة قبل هذه الغزوة المباركة.

وقد قدّرت الروايات عدد هذا الجيش الزاحف بقيادة رسول الله ﷺ على مكة - شرّفها الله - لفتحها وإقرار الإسلام بها، وتنقيتها من بثور الوثنيات وتطهيرها من أوضار الشرك وأرجاسه، وردّها حرماً آمناً كما خلقها الله يوم خلق السموات والأرض طاهرة مطهّرة لا يعبد فيها إلا الله تعالى - بعشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، ومن انضم إليهم من القبائل التي ضربت أطناب منازلها حول المدينة المنورة مثل بني سُليم، وغفار، وأسلم، وأشجع، ومزينة وجهينة، وهذه رواية الجمهور.

وفي مرسل عروة عند ابن عائذ أن عدد من كان مع رسول الله ﷺ بلغ اثني عشر ألفاً، وهو مذكور في إكليل الحاكم، وشرف المصطفى للنيسابوري.

وقد جمع بين الروايتين ابن حجر فقال: إن العشرة آلاف خرج بها ﷺ معه من المدينة، ثم تلاحق به ألفان من القبائل التي كانت منازلها حول المدينة. ومع توافر هذه القوة المادية البالغة في عددها وعدتها الحربية قدراً لم يكن متوافراً مثله أو قريب منه للمجتمع المسلم في غزواته قبل هذه الغزوة المباركة - كما لم يجتمع مثله أو قريب منه لأعداء الإسلام سوى ما كان في غزوة الخندق حين جمعهم خبثاء اليهود من أشتات القبائل الحائرة المتربِّصة الذين لا تحزمهم عروة، ولا يربطهم هدف - لم يكن يظهر على مشاعر النبي ﷺ شيء من سمات الانتقام من أعدائه الذين كذّبوه وأخرجوه من بلده، وهاجموه في مهجره بروح انتقامية وحقد يشوي أكبادهم، بل كانت تغلب عليه في حركاته وتصرفاته عواطف الرحمة والعفو، والصفح الجميل، فقد أمر ﷺ أمراء كتائبه المجاهدة بعدم القتال، وهو على مشارف مكة، بعد أن وضعهم في مواضعهم، وبيّن لهم مسالك دخولهم مكة، اتقاءً لما يحدث من شدة التزاحم بين الكتائب.

ومن أجلّ وأعظم مظاهر العطف والرحمة ـ التي تجلَّت في تصرفاته الكريمة وهو داخل مكة مظفراً ـ موقفه مع سعد بن عبادة، وهو حامل لواء الأنصار، فقد مرّ سعد بأبي سفيان بـن حرب، فقال له: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلُّ الحرمة، فشكى ذلك أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، فأشكاه النبي ﷺ وقال له ليستل سخائم صدره ويذيب كفره وعناده: «بل هذا يوم تعظَّم فيه الكعبة» وأمر براية الأنصار أن تؤخذ من سعد بن عبادة، وتدفع إلى ابنه قيس بن سعد، وهذا من أحكم التصرفات للقيادة الحازمة.

موقف حكمة ورحمة وتلطف بأبي سفيان يحد من حدَّة سعد ابن عبادة ويثلج صدره.

وفي رواية أن امرأة من قريش عارضت رسول الله ﷺ، وأنشدته أبياتاً من الشعر تستعطفه، وتشكو إليه ما قال سعد، قالت:

يـا نبي الهدى إليـك لجـا حيّ	قـريش ولات حـين لجـاء
حـين ضاقت عليهم سعـة الأر	ض وعـاداهـم إلـه السـماء
والتقت حلقتا البطان عـلى القو	م ونـودوا بـالصَّيْلم الصلعـاء
أن سعـداً يريـد قاصمـة الظهـ	ر بـأهـل الحجـون والبطحـاء
خـزرجي لو يستـطيـع من الغيـ	ظ رمـانـا بـالنسـر والعـواء
فـانْهَيَنْـه فـإنـه الأسـد الأسـ	ود والليث والـغ في الـدمـاء
فـلئـن أقـحـم الـلواء ونـادى	يـا حمـاة الـلواء أهـل الـلواء
لـتكـونـنَّ بـالـبـطاح قـريش	بقعـة الـقـاع في أكـف الإمـاء
إنـه مصلت يـريـد لهـا الـرأ	ي صمـوتٌ كـالحيَّـة الصـمّاء

قال ابن كثير: فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر دخله رحمة بهم، ورأفة لهم، وأمر بالراية فأخذت من سعد بن عبادة، ودفعت إلى ابنه قيس ابن سعد، فكأنها لم تخرج عن يد سعد.

ويقول السهيلي في الروض: وزاد غير ابن إسحاق في الخبر أن ضرار ابن الخطاب الفِهْري قال يومئذ شعراً ـ حين سمع قول سعد ـ استعطف فيه النبي ﷺ على قريش وهو من أجود شعره، ثم ذكر السهيلي سبعة أبيات من هذا الشعر وأسقط منه بيتين.

رأي السهيلي في نسبة هذا الشعر.

والذي يظهر لنا صحة رواية السهيلي في نسبة هذه الأبيات لضرار ابن الخطاب، فهو صاحبها وقائلها، ولكنه أعطاها امرأة تنشدها على مسمع من رسول الله ﷺ، إما لأنها أدخل في الاستعطاف ـ قال ابن حجر في الفتح: وكأنه أرسل به المرأة لأنه أبلغ في المعاطفة عليهم. . أو لأن ضراراً استحيا أن يقف بين يدي رسول الله ﷺ بأبياته على ما كان منه في جاهليته، أو لأنه تعزّز بجاهليته أن يقف موقفاً استعطافياً، يشعره بمرارة موقفه في ذلّة الاستعطاف.

وأجل من ذلك وأعظمه وأنبله ما كان منه ﷺ في مظاهر العفو عند القدرة في موقفه الكريم مع سائر أهل مكة، وقد صاروا جميعاً في قبضته بعد دخوله مكة، والرعب يتملكهم، والحَيْرة والدّهش والذهول، وصغار الذلّة تستولي على أفئدتهم، فأطلقهم ﷺ جميعاً، ولم يستثنِ إلاّ نفراً قليلاً لم يكن في قلوبهم مكان للإيمان والهداية للإسلام، فأمر ﷺ بقتلهم ولو وجدوا في آمن مأمن، متعلِّقين بأستار الكعبة كابن خطل، والحارث بن نقيذ، ومقيس ابن صبابة، وفرتنا التي كانت تغنِّي طواغيت الكفر بهجاء رسول الله ﷺ.

حملة زاجرة، ووفاء بعهد قديم كريم.

وقد كان المظهر الغالب للوفاء في هذه الغزوة المباركة ـ كما قلنا ـ هو إثارة الرعب والرهبة وترسيخ الفزع والدهش في قلوب بقايا الطغاة من طواغيت الكفر الكفور والوثنية الطائحة المتهاوية، ليزدجروا عن شراستهم في عداوة الإسلام، وحامل رسالته ﷺ والمؤمنين بهذه الرسالة الهادية الخالدة، ويرتدعوا عن عنجهيتهم المخدوعة بمواريث جاهليتهم التي درجوا في أوحال شرورها ومفاسدها، وشبُّوا وشابوا في حمأة رذائلها وفجورها.

ولم يكن الهدف الأصيل للنبي ﷺ من هذه الغزوة المباركة القتل والقتال لشفاء حزازات الصدور، وغسل أحقادها بالدماء تسفك في حرم الله الذي مكّنه لمتوطّنيه حرماً آمناً، تهوي إليه الأفئدة من كل صوب وحدب، حباً وإخاء وتراحماً.

وكانت جذور هذا الوفاء الكريم الذي حرّك النفوس الكريمة لهذه الغزوة تمتد في عروقها إلى أصل كريم عرفت به نبعة رسول الله ﷺ التي

انفرجت عن غصنه الروّي بما فيه من الفضائل، وكرائم عروقها، وشهرت به دوحة هذا البيت الهاشمي الكريم الذي تسامى به شرفه القديم والحديث مرتبطاً بشرف الكعبة المعظمة التي كانت لهذا البيت الهاشمي دون سائر بيوتات وقبائل العرب سدانتها وخدمة زُوّارها، وبذل ما يلزمهم من الخدمات، ونصرة المظلوم، وإراشة الضعفاء، وحماية المستضعفين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وإطعام الطعام، وسقي الماء من كل شيء تحتاج إليه الوفود الوافدة إلى بلدهم، ولا سيما في المواسم والأسواق والمحافل.

وقد بلغت تلك المكارم ذروة الفضل والشرف، واحتلت منها قمة النجدة والمروءة في حياة رجلها عبد المطلب بن هاشم جدّ محمد ﷺ الذي ارتفع بمكارمه إلى أرفع مكان يشْرُف به إنسان في جاهلية العرب، وسار باسمه وشرفه في أكناف الجزيرة العربية وأرجائها، فشرّق وغرّب، وأتهم وأنجد حتى ضرب به المثل، وصار القرب منه منقبة من مناقب القبائل العربية، وحسبها عندهم أنها حليفة عبد المطلب بن هاشم سيد الحجاز، وسادن الكعبة المشرفة، ومن ثم كانت خزاعة إحدى كبريات القبائل العربية تعرف في جاهليتها بأنها حليفة عبد المطلب بن هاشم.

فزع خزاعة إلى النبي تستنصره على الغادرين من قريش ومبادرته ﷺ بنصرتهم.

ولما غدرت قريش بعهد الحديبية ونقضته بالغدر والخيانة، وقاتلت خزاعة وقتلت منهم لتعين تحت جنح الظلام حلفاءها البكريين على حلفاء رسول الله ﷺ الخزاعيين؛ فزعت خزاعة إلى رسول الله ﷺ تطلب منه نصرته لها ووفاءه بعهده وعهد جدّه عبد المطلب، وقدّمت إليه كتاب عهد جده عبد المطلب، فقرأه عليه أبيّ بن كعب الأنصاري.

ونص هذا الكتاب - كما ذكره الزرقاني - باسمك اللهم، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة إذ قدم عليه سرواتهم وأهل الرأي، غائبهم يقرّ بما قاضى عليه شاهدهم، أن بيننا وبينكم عهود الله وعقوده ما لا ينسى أبداً، اليد واحدة، والنصر واحد، ما أشرف ثبير، وثبت حراء، وما بلّ بحر صوفة، ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبد الدهر سرمداً.

فأجابهم النبي ﷺ فقال: «ما أعرفني بحلفكم، وأنتم على ما أسلمتم

عليه من الحلف، وكل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلّا شدّة، ولا حلف في الإسلام».

قال الزرقاني: والحلف المنهي عنه ـ أي في الإسلام ـ ما كان على الفتن والقتال والغارات، والذي قوّاه الإسلام ما كان على نصرة المظلوم، وصلة الأرحام والخير ونصرة الحق.

وقد حقّقنا فيما سبق مسألة الحلف في الجاهلية، والنهي عن إحداثه في الإسلام، لأن الشريعة مغنية عنه، لا يحتاج إليه المسلمون وهم في ظلها، وذكرنا آراء العلماء وروايات الأحاديث في ذلك.

تنويه النبي ﷺ بحلف الفضول وشهوده مجلس تأليفه.

وقد تأثّلت هذه المكرمة في البيت الهاشمي، وعلى دعائمها قام حلف الفضول، وهو حلف أسّسه أو شارك في تأسيسه بعض عمومة النبي ﷺ، وكان من أشهرهم ذكراً في القيام بتأسيس مبادئه الزبير بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ.

وقد أدرك النبي ﷺ هذا الحلف قبل بعثته، وكان هذا الحلف يتخذ من دار عبدالله بن جدعان مقراً له، وكان النبي ﷺ يحضره مع أعمامه، وتحدّث عنه بعد بعثته فقال: «لقد أدركت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما يسرني أن لي به حُمُر النَّعَم، ولو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت»، والمراد: ولودُعيت إلى القيام بتنفيذ مبادئه وتحقيق أهدافه لأجبت إلى ذلك، لأن مبادىء هذا الحلف وأهدافه منطوية تحت أصول وقواعد الشريعة التي جاء بها الإسلام في رسالته لإخراج الناس من ظلمات الجَوْر والظلم إلى نور المساواة والعدل.

حزازات جاهلية يستغلها الغدر في سفك الدماء.

وقد كانت بين خزاعة وبني بكر حزازات جاهلية وأثؤر قديمة، وحروب ناشبة قبل الإسلام، فلمّا جاء الله بالإسلام هداية للناس، وبعث به خاتم أنبيائه محمداً ﷺ رحمة للعالمين تشاغلت القبائل العربية، وفيهم خزاعة وبنو بكر بأحاديثه وحوادثه وأحداثه وقصصه عما كان بينهم من خصومات وحروب، ودام ذلك زمن الدعوة إلى توحيد الله بمكة، وأعوام من زمن الاستقرار بالمدينة المنورة، حتى كانت معاهدة الحديبية وهدنتها سنة ست من الهجرة بين رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، وبين قريش في عتوها وكفرها،

وكان من شروط تلك المعاهدة: أن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، فوثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ثم وثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل مع قريش في عهدها وعقدها.

ولما وُقّعت الهدنة وهدأ الناس - ومشى بعضهم إلى بعض مسلمهم وكافرهم، وأمن بعضهم بعضاً، وتبادلوا فيما بينهم المصالح والأحاديث والقصص، ووصلوا ما كان مقطوعاً، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً - تحرك الثأر الجاهلي فيما بين خزاعة وبني بكر، واستثيرت الكوامن التي كانت تملأ صدور بني بكر حفيظة وغيظاً على خزاعة، وخرج نوفل بن معاوية الديلي في جمع من قومه بني نفاثة، وهم بطن من الديل، والديل بطن من بني بكر، وبيّت نوفل ومن معه من قومه خزاعة على ماء لهم يقال له (الوتير)، واستفاقت خزاعة من غفلتها ونشب بين الفريقين القتال حتى دخلوا الحرم وهم يقتتلون، فقالت بنو بكر لقائدهم نوفل بن معاوية الديلي بلسان الشيطان: يا نوفل، إنا قد أدخلناهم الحرم إلهك إلهك، يحذّرونه بطش آلهتهم بهم إذا انتهك حرماتهم، فقال نوفل ساخراً من قومه وجهالتهم وكفرهم وانحطاط وثنيتهم وتفاهة عقولهم: كلمةٌ عظيمة، لا إله له.

سخرية نوفل ابن معاوية الديلي بوثنية قومه قبل أن يسلم.

ومعنى هذا الكلام الساخر الكفور المستهزىء بهم أن نوفلاً يعلم كغيره من أساطين الوثنية أن الأصنام التي اتخذها قومه من أحلاس الوثنية آلهة هي في الحقيقة حطٌّ من قدر العقل الإنساني، ولو كان هذا العقل مغرقاً في انحطاط جاهليته.

ثم وجّه نوفل إلى قومه تهكمًا لاذعاً شديد الاستهزاء والسخرية بهم، فوصفهم ببلاهة التفكير، وعدم نظافة الأخلاق مما يلطّخ المروءة الإنسانية، ويسوّد وجه الفضيلة الاجتماعية فقال لهم: يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ وهذا كلام لا يخرج إلا من عقل ماكر، يعلم أن قومه ليسوا على دين، ولا عقيدة لهم ولا مروءة عندهم، ولا يعرفون لمكارم الأخلاق مكاناً في مجتمعهم الوثني

المتهافت، وأن هذه الآلهة التي يعظمونها لا تساوي ما يخرج من أحدهم، ولذلك وجّه إليهم احتقاره وسخريته بعقولهم في قوله: إنكم لتسرقون في الحرم دون أن يكون لهذه الآلهة الباطلة أي وزن من الاحترام في نفوسكم، فأيّ قدر لها ليترك من أجله الأخذ بالثأر وأنتم الذين تقترفون في الحرم كل فاحشة موبقة بين يدي هذه الآلهة ولا تخافونها، ولا تخشون بطشها بكم، فقولكم: إلهك إلهك، تحذير مما لا يحذر منه، وهي كلمة عظيمة يرعب بها مَنْ جهل حقيقتها من دهماء المفزّعين برؤوس الشياطين، وغوغاء البُلْه المغفّلين، أما ذوو الدهاء المتخابث الذين يعلمون ما آلهتهم فهم ملاحدة في كفرهم لا يدينون بدين، ولا يعتقدون أنَّ لهم آلهة تمنعهم من الفجور والإفساد في الأرض في الحرم وفي غير الحرم، فلا أثر لتخويفه منها وتحذيره من ضررها، لأنها شيء لا يضر ولا ينفع فلا إله له منها، وإنما هي أنصاب منحوتة من رضف صخور الجبال أقامها الذين يخدعون بها أنفسهم للعبث بالعقول.

غدر قريش ونقضها عهد الحديبية بمساعدة بني بكر حلفائهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ تحت أستار الظلام.

وفي فحمة أستار الظلام تسلّلت قريش يقدمها الموتورون إلى هذه المعركة الخائنة الغادرة، فأمدّت حلفاءها البكريين بالسلاح والرجال، واشترك معهم في خفية من دامس الظلام بعض رجالاتها ناقضة لعهد رسول الله ﷺ باقتحامهم أحد شروط هدنة الحديبية، متوهِّمين أنهم ينجون من أخذهم بجريمتهم التي استَخْفُوا بها من الله الذي لا يعرفونه، وقال بعضهم لبعض في جهالة كافرة وكفر جهول: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا من أحد، فأعانوا بني بكر على خزاعة بالكُراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ.

وقد ذكر الرواة بعض أسماء رجال قريش الذين شاركوا بني بكر في قتال خزاعة، فذكروا منهم صفوان بن أمية بن خلف، وشيبة بن عثمان الطلحي، وسهيل بن عمرو، وهو الذي تولى عقد الهدنة عن قريش، وحويطب بن عبد العزّى، ومِكْرز بن حفص الذي وصفه رسول الله ﷺ بالغدر والفجور عندما جاء لمفاوضة رسول الله ﷺ على شروط المعاهدة، وغدرُه وفجورُه من أوصافه منذ كان في جاهليته، فقد روي أنه جمع حوله

يوم الحديبية خمسين رجلاً من شرّاد القوم وشرارهم وأراد أن يبيت بهم المسلمين ـ كما رواه الواقدي ـ فتنبه له حرس المسلمين، وكان على رأسهم محمد بن مسلمة، فأخذوهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وسرّحهم طلقاء، وانفلت مكرز هارباً فلم يؤخذ فيمن أخذ، ولا شك أن هذا الصنيع من أشنع الفجور والغدر، ولم يثبت إسلام مكرز، ولم يعرف أن أحداً من الرواة عدّه في الصحابة، والظاهر أنه مات مشركاً.

تعجب ابن حجر من وصف مكرز بالفجور مما يُتعجب منه إذ لا وجه له.

فقول ابن حجر: وما زلت متعجِّباً من وصفه بالفجور، مع أنه لم يقع منه في قصة الحديبية فجور هو مما يتعجب منه لوجهين:

أولاً ـ أنّ وصف النبي ﷺ له بالفجور ورد مطلقاً، لم يقيد بالحديبية ولا بغيرها، وتعجّب ابن حجر إنما انصب على أنه لم يقع من مِكْرز فجور في قصة الحديبية، ولا يردُّ العام بالخاص.

ثانياً ـ أن حادثة تبييته المسلمين بخمسين رجلاً جمعهم حوله كانت في الحديبية، وقد ذكرها الواقدي ولم ينفها غيره، ولو نفيت في رواية غيره صراحة لكانت حجّة على إبطال تعجّب ابن حجر، لأن المثبت مقدّم على النافي.

وقد ذكر ابن حجر قصة نقلها من مغازي الواقدي في غزوة (بدر) تثبت فجور مكرز وغدره منذ جاهليته، ثم قال ابن حجر: فكان مكرز معروفاً بالغدر.

ولما دخلت خزاعة الحرم، وتبعهم نوفل بن معاوية في قومه بني بكر يقتلون من أدركوا من خزاعة لجأت خزاعة إلى دار بُدَيل بن ورقاء الخزاعي بمكة يحتمون فيها، حتى إذا أدركهم الصبح تسلّلت رجالات قريش في عماية الصبح إلى منازلهم، وهم يظنون أنهم لا يعرفون بغَدْرتهم، وأنها لا تبلغ لرسول الله ﷺ، بيد أنهم رعبوا رعباً شديداً، فقال سهيل بن عمرو لنوفل ابن معاوية يريد صده عن تتبع خزاعة بالقتل وهم محصورون ليستأصل من بقي منهم: (قد رأيت الذي صنعنا بك وبأصحابك، وبمن قتلت من القوم، وأنت قد حصرتهم، تريد قتل من بقي منهم، وهذا ما لا نطاوعك عليه،

فاتركهم، فتركهم نوفل خشية خذلان قريش له ووقوعه في شر ما صنع من الغدر.

ندم قريش كان جبناً وهلعاً من انتصار رسول الله ﷺ لحلفائه بني خزاعة.

وقد ندمت قريش على ما صنعوا وعرفوا أنه نقض للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وتلاوموا على ما كان من بعضهم، فجاء الحارث ابن هشام وعبدالله بن أبي ربيعة، وهما ممّن لم يشهد الواقعة إلى صفوان بن أمية ابن خلف، وحويطب بن عبد العزّى وسهيل بن عمرو، وكانوا ممن أشعل نارها وتبعهم من تبعهم من قريش، فلاماهم على ما صنعوا وقالا لهم: إن بينكم وبين محمد مدّة، وهذا نقض لها، واجتمعت قريش للتشاور فيما يخرجهم من هذا المأزق الغادر الذي أدخلوا أنفسهم فيه.

قال الزرقاني: أخرج مسدّد في مسنده والواقدي في مغازيه: أن قريشاً ندمت وقالت: محمد غازينا، فقال ابن أبي سَرْح: لا يغزونَّكم حتى يخيركم في خصال كلّها أهون من غزوه، يرسل إليكم أن دُوا قتلى خزاعة، وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً، أو تبرؤا من حلف بني نفاثة، أو ننبذ إليكم على سواء، فقال سهيل بن عمرو: نبرأ من حلفهم أسهل، وقال شيبة بن عثمان الطلحي: ندي القتلى أهون، وقال قرظة بن عبد عمرو: لا ندي ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء.

وقال أبو سفيان بن حرب: ليس هذا بشيء، وما الرأي الأصوب إلا جحد هذا الأمر، أن تكون قريش دخلت في نقض عهد، أو قطع مدة، وأنه قُطع قوم بغير رضاً منا ولا مشورة فما علينا؟ قالوا: هذا الرأي، ولا رأي غيره، وقبلوا جميعاً رأيه لزعامته في قريش وشهرته بالمكر والدهاء، وكان هو البقية الباقية في قريش من ذوي رأيها، وأصحاب لدد العداوة للإسلام وأهله ودعوته وحامل أمانة رسالته محمد ﷺ.

وانتهت المعركة بين خزاعة وبني بكر ومن ساندهم وأمدّهم بالسلاح وشاركهم من قريش في قتال خزاعة، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين رجلاً من خزاعة فقدموا على رسول الله ﷺ المدينة، يطلبون منه الوفاء بعهده معهم الذي دخلت فيه خزاعة معه في شروط الهدنة وعقدها

ليستنصروه على قريش وحلفائها بني بكر، فوجدوه ﷺ في مسجده الشريف، فأخبروه بقصة غدر قريش وبني بكر، وتبييتهم على (الوتير)، وتتبُّعهم لهم في الحرم حتى أدخلوهم دار بُديل بن ورقاء بعد مقتلة منهم، فقام ﷺ يجر رداءه وهو يقول: «لا نُصرت إن لم أنصركم مما أنصر منه نفسي».

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي يعلى بسند جيد، قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بني كعب غضباً لم أره غضبه منذ زمان، وقال: «لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب».

وروى الواقدي أنه ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها صبيحة وقعة خزاعة: «لقد حدث يا عائشة في خزاعة أمر» فقالت عائشة رضي الله عنها: أترى قريشاً تجترىء على نقض العهد الذي بينك وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال ﷺ: «ينقضون العهد لأمر أراده الله» قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، خير، قال ﷺ: «خير».

نهوض رسول الله لمناصرة خزاعة وفاء بعهدها.

وفي حديث أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها عند الطبراني في صغيره أنها قالت: بات عندي رسول الله ﷺ ليلة، فقام ليتوضأ إلى الصلاة فسمعته يقول في متوضئه: «لبيك، لبيك، لبيك» ثلاثاً «نصرت، نصرت، نصرت» ثلاثاً، فلما خرج قلت: سمعتك تقول في متوضئك: «لبيك، لبيك، لبيك» ثلاثاً: «نصرت، نصرت، نصرت» ثلاثاً، كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟ فقال ﷺ: «هذا راجز بني كعب يستصرخني، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر».

وهذا من قبيل الإخبار بالغيب، فهو عَلَم عظيم من أعلام النبوة، ومعجزة كونية شرّف الله تعالى بها نبيه، وأكرمه في رسالته إنافة بقدره العظيم، وهذا مما لا يكون إلّا بوحي من الله تعالى.

حرص رسول الله ﷺ وتحرزه لإخفاء قيامه في نصرة خزاعة.

ثم أمر ﷺ عائشة رضي الله عنها أن تجهِّزه للاستعداد لغزو قريش وفاء بعهده مع حلفائه الخزاعيين، وأمرها ﷺ أن تخفي الأمر فلا تُعلم به أحداً. وعند ابن إسحاق والواقدي: أنه ﷺ قال لها: «جهزينا وأخفي أمرك»

ثم قال ﷺ: «اللهم خُذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلّا بغتة، ولا يسمعون بنا إلّا فلتة».

وأمر ﷺ أن تقام الأنقاب، وأماكن التفتيش، وجعل عليها عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وأمر أصحاب الأنقاب أن لا يدعوا أحداً يمرُّ بهم ينكرونه إلا ردُّوه.

وكانت الأنقاب مفتوحة الأعلى، مَنْ سلك إلى مكة فإنه يتحفظ منه ويسأل عنه خشية أن يكون جاسوساً لقريش، أو يكون ممن يخاف منه أن يتحدَّث بما رأى ولو لم يكن ذلك مقصوداً له.

وهذا التدبير من أحكم ما تقوم عليه سياسة مباغتة العدو الغادر، وهو من التدبير المحكم الذي ينبغي أن تأخذ به قيادات الأمة الإسلامية في تيقظها لحركات عدوها، والتحفظ الشديد في أخبارها لئلا تتسرب إلى أعدائها، وفيه تأكيد لأسلوب المفاجأة الذي أراده النبي ﷺ في تأهبه واستعداده وتجهيزه لأخذ قريش بغتة، كما قال ﷺ في دعائه: «اللّهم خُذ على أبصارهم وأسماعهم فلا يرونا إلّا بغتة، ولا يسمعون بنا إلّا فلتة».

وكان أخصّاء أصحابه وأهل بيته الذين يعلمون بعض ما يقتضيه الموقف من العلم بشيء من أسراره وطوارىء الحوادث حِراصاً أشد الحرص على حفظ سرِّه ﷺ، لا يتحدّثون بما يعلمون إلى أحد ولو كانوا آباءهم، بل لو كانوا مع هذه القرابة القريبة أخصّ الناس برسول الله ﷺ كما يدل على ذلك موقف عائشة رضي الله عنها من أبيها أبي بكر الصديق، وهي تعلم أنه رضي الله عنه أخصُّ الأصفياء برسول الله ﷺ وأحفظ الناس لسره.

كتمان عائشة رضي الله عنها أمر مسيره ﷺ إلى مكة على أبيها.

قالت السيدة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ في حديثها الطويل عند الطبراني: فدخل أبو بكر على عائشة وهي تتحرك في تجهيز رسول الله ﷺ، فقال: يا بنية، ما هذا الجهاز، فقالت: والله ما أدري، فقال أبو بكر: والله، ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فقالت عائشة: والله لاعلم لي.

وفي مرسل أبي سلمة عند ابن أبي شيبة أنها أعلمته، فقال: والله ما انقضت الهدنة بيننا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فذكر له النبي ﷺ أن قريشاً أول من غدر، ونقض عهد الهدنة وحلّ عقدتها.

والتوفيق بين هذين الخبرين أن عائشة رضي الله عنها كتمت سرّ رسول الله ﷺ على أبيها أول الأمر، وهي تعلم منزلته عند رسول الله ﷺ، وأنه أكتم الناس لسره، ثم حدثت رسول الله ﷺ بما كان منها مع أبيها، فرأت من النبي ﷺ أنه لا ينكر عليها إعلام أبيها بالخبر لو أعلمته.

أبو بكر يذهب إلى النبي ﷺ ليؤكد خبر نقض قريش للعهد.

ثم ذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بعد إعلامها له، وأراد معرفة غَوْر هذا الحدث الذي يتجهّز له رسول الله ﷺ، ويكتمه ويوصي بكتمانه، وتحدّث معه في شأن قريش ونقضها عهد الهدنة، فأخبره النبي ﷺ بأن قريشاً كانت أول من غدر بالهدنة وعهدها فهو يتجهز لغزوها، وهذا معنى ما ذهب إليه الزرقاني في توفيقه بين الحديثين إذ قال: ويحتمل الجمع بأن أباها دخل عليها مرّتين، الأولى قالت له: لا علم لي، حتى أخبرته ﷺ - أي بما كان منها لأبيها من الإنكار وقولها له: لا علم لي - ولكن النبي ﷺ أذن لها في إخبار أبيها، لكونه عيبة سرّ رسول الله ﷺ، فدخل عليها أبوها ثانياً فأخبرته، وكأنه لم يبلغه نقض قريش العهد.

قالت السيدة ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ في حديثها: فأقمنا ثلاثاً، ثم صلّى الصبح ﷺ بالناس، فسمعت الراجز ينشده:

يا ربِّ إني ناشد محمداً ... حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا

إلى آخر الأبيات المتقدمة.

حرص رسول الله ﷺ على معرفة من الذي تولى كبر نقض العهد تحقيقاً للعدل في أرفع مراتبه.

وفي حديث ابن عمر عند ابن عائذ أن رَكْب خزاعة لما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه بقصتهم قال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «فمن تهمتكم وظنتكم؟» قالوا: بني بكر، قال ﷺ: «أكلُّها؟» قالوا: لا، ولكن بنو نفاثة ورأسهم نوفل، قال ﷺ: «هذا بطن من بني بكر، وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر، ومخيرِّهم في خصال ثلاث» فبعث إليهم يخيرِّهم

بين أن يَدُوا قتلى خزاعة، أويبرأوا من حلف بني نفاثة، أو ينبذ إليهم على سواء، فجاءهم مبعوث رسول الله ﷺ بما بعثه إليهم من التخيير بين الخصال الثلاث، فاجتمعت رؤوس قريش للتشاور فيما عرضه عليهم رسول الله ﷺ، فعجَّل قرظة بن عمرو من بين القوم فقال: لا نَدِي ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء، ورجع المبعوث بما سمع منهم فأخبر به رسول الله ﷺ.

ندم قريش وارتياعها وإرسالها أبي سفيان ليجدد العهد ويزيد في مُدة الهدنة.

بَيْدَ أن قريشاً ندموا على ما ردُّوا به على رسول الله ﷺ، وبعثوا أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ ليجدِّد العهد، ويزيد المدّة.

وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدِّد العهد وزد في المدة، وهو راجع بسخطة».

واستولى على قريش الخوف أن يغزوهم رسول الله ﷺ، فأخذهم المقيم المقعد من الفزع والرعب، والذهول والدهش والحَيْرة، فمشى الحارث ابن هشام وعبدالله ابن أبي ربيعة إلى أبي سفيان بن حرب، فقالا له: لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلّا محمداً في أصحابه. فقال لهما أبو سفيان: هذا أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، لا يحمل إلا عليّ، والله ما شوورت فيه ولا هويته حين بلغني، ليغزونا محمداً إن صدقني ظني وهو صادقي، وما بُدٌ في أن آتي محمداً فأكلمه، فقالت جموع قريش: أصبت، فخرج أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ودخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ ووقعت بينهما القصة التي سبق ذكرها.

وفي هذه الرواية زيادة مفيدة، إذ قالت أم حبيبة في أدب النبوة الأسيفة على ضلال أبيها التي كانت ترجو له في عقله أن لا يفوته ما في الإسلام من خير وهدى: فأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام؟ وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر.

مساعي أبي سفيان تبوء بالخذلان وفضيحة المكر الدهيّ

فقام من عندها ثم أتى رسول الله ﷺ في المسجد، يسأله أن يجدِّد العهد ويزيد في المدة فأبى عليه، فكلّمه فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً.

وعند الواقدي فقال أبو سفيان: يا محمد، إني كنت غائباً في صلح

الحديبية فجدد العهد وزدنا في المدّة، فقال ﷺ: «فلذلك جئت» قال أبو سفيان في بَلَه الدهاة: نعم، فقال له رسول الله ﷺ ليوقظه من سكرة دهائه الكذوب: «هل كان من حدث؟» فقال الداهية المستطار عقله المسلوب عنه دهاؤه: معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحنا، لا نغيّر ولا نبدّل، فقال ﷺ: «فنحن على ذلك» فأعاد داهية قريش القول متغابياً للذي قاله لرسول الله ﷺ في تجديد العهد وزيادة المدة، فلم يردّ عليه صلوات الله عليه شيئاً.

أفٍ للغباء إذا اعترى عقول الأدهياء.

فذهب أبو سفيان وهو يحمل عكّازة الخيبة يتوكأ عليها لتعين رجليه على حمله إلى أبي بكر، فكلّمه أن يكلّم له رسول الله ﷺ، فقال له أبو بكر: ما أنا بفاعل.

وفي رواية الواقدي أنه قال لأبي بكر: تكلّم محمداً، وتجير أنت بين الناس، فقال الوديع الهادىء في رسوخ اليقين وهدوء الإيمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ.

وطأ عمر بن الخطاب على يأفوخ أبي سفيان وعبث الإيمان ببله الدهاة.

فأتى أبو سفيان عمر بن الخطاب فكلّمه أن يشفع له عند رسول الله ﷺ، فقال له القوي الأمين عمر رضي الله عنه: أنا أشفع لكم؟ فوالله لو لم أجد إلّا الذرّ لجاهدتكم به، ما كان من حلفنا جديداً فأخلقه الله، وما كان منه متيناً فقطعه الله، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله. فقال أبو سفيان لعمر: جُوزيت من ذي رَحِم شراً.

وفي بعض الروايات أن أبا سفيان أتى عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد يأسه من عمر وسماعه شدة كلامه، فقال لعثمان: أجِرْ بين الناس، فقال عثمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ثم أتى علياً فدخل عليه، فقال: يا عليّ إنك أمسُّ القوم رَحِماً بي، وإني جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، فاشفع لي، فقال علي رضي الله عنه: ويحك يا أبا سفيان!! والله لقد عزم ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

ولما سمع أبو سفيان من علي رضي الله عنه ما قطع رجاءه عنده في

الوصول إلى شيء يحفظ به ماء وجهه ويرجع به إلى قريش، متَّقياً غضبها عليه، تهانف بين يدي فاطمة عليها السلام، وتهافت تفكيره فلم يعد يدري بمن يستشفع إلى رسول الله ﷺ لينقـذه من ورطته، فردته في أدب التربية النبوية.

تصاغر أبي سفيان أمام مدلهمات الخطوب.

أفٍ، ثم أفٍ للعنجهية إذا ذلّت بعد عز، وتصاغرت بعد استكبار، وتهاوت بعد بأو الغرور.

سيد البطحاء وقائد كنانة وداهية قريش وقائد جحافلها المهزومة لمهاجمة النبي ﷺ وأصحابه في حروب ظالمة مظلمة، أبو سفيان صخر بن حرب ينزل من علياء بأوه وغروره الوثني إلى ملعب حسن بن علي يتهاوى بين يديه وهو يدبُّ في ملعبه بين أبويه بطل الإسلام وسيدة نساء العالمين، يناغي لعبه وتسلياته، بعيداً بخياله ومضاحكاته عن نزيز تفكير طاغية قريش الذي جاء إلى المدينة مملوءاً بالغطرسة والاستكبار، ليعود إلى قريش بمضاحك غدرتها بخزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، ويخدع لها محمداً ﷺ وأصحابه، وينتزع منهم تجديداً لعهد الحديبية وزيادة في مدة هدنتها، حاملاً معه أكاذيب يتوهم أنها تجوز على محمد ﷺ وعلى أصحابه، وطاف في رفقة الشيطان في أزقة المدينة المنورة وبيوتها، يسأل ويرجو ويتملّق فلا يجد سميعاً لما يقول ولا مجيباً لما يريد.

صورة من الهوان يبدو فيها أبو سفيان بين ذل الخذلان وتفاهة الدهاء الجاهلي.

لقد بدأ أول ما بدأ حين وصوله إلى المدينة المنورة بنزوله عند ابنته أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ، فأسرعت إذْ رأته داخلاً عليها بيتها إلى فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه خشية أن يجلس عليه وهو مشرك نجس فينجسه، وهو الفراش الطاهر المطهَّر، فعجب أبوها أبو سفيان من فعلها، ودارت به الظنون والأوهام، وأسكره الغرور بخمـرة العنجهية والاستكبار وقال لها ما قال، وهو يعلم أنها زوجة الهادي سيد الخلق محمد رسول الله ﷺ، التي ملأ الإيمان قلبها ومشاعرها، ولكنه تغابى وتجاهل وسأل وأجيب بما أغصّه بريقه: هذا فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس لا تصلح للجلوس على هذا الفراش الطاهر المطهّر.

وخرج أبو سفيان من عند ابنته أم حبيبة رضي الله عنها يثقله الخزي ويقلقه الخذلان إلى لقاء رسول الله ﷺ وفي جعبته حصيلة من الخداع والكذب، فكلّم رسول الله ﷺ فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، ثم قام يجر رجليه جرّاً، فذهب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ وهم أكبر أهل شورى رسول الله ﷺ ـ فلقي منهم ما لقي من الردِّ الذي أظلمت به الدنيا عليه، فلم يدرِ أيشرِّق أم يغرِّب، حتى ألقته الحيرة إلى أشراف الأنصار، فأتى سعد ابن عبادة سيد الخزرج، فقال له: يا أبا ثابت، إنك سيد هذه البحيرة، فأجر بين الناس، وزد في المدة، فقال له سعد رضي الله عنه: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه ﷺ.

ثم عاد يجره الشيطان من خياشيم اليأس والطغيان إلى أشراف قريش من المسلمين والأنصار، يتهانف ويتهافت، ويستجير ويستصرخ، ويتملّق، فكلّهم يقول له: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه.

قال الواقدي: فلما أيس منهم دخل على فاطمة عليها السلام، فقال لها: هل لك أن تجيري بين الناس، فقالت فاطمة عليها السلام: إنما أنا امرأة، وأبت عليه، فقال لها: مُري ابنك، فقالت: ما بلغ أن يجير.

لعب علي بعقل داهية البطحاء وزعيم قريش.

ثم اتجه أبو سفيان بعد أن أفرغ كل ما في نفسه من استكبار وغرور إلى علي رضي الله عنه، فقال مستغيثاً به، وكأنما يرمي بآخر سهم في كنانته ليستسلم إلى الموت على أيِّ صورة يأخذه عليها، فقال لعلي: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور وقد اشتدت عليّ فانصحني، قال علي رضي الله عنه: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة!! ـ أفٍ لهذه السيادة المتهاوية ـ قم فأجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك، قال أبو سفيان في لهفة الغريق المتشبث بقشة فوق أمواج المحيط: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال علي رضي الله عنه: لا، والله ما أظنه، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد مستجمعاً ماضيه ليبله بدمع حاضره، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ولا والله، ما أظن أن يخفرني أحد ـ رأفة للدهاء إذا عاد خواء؟! ـ يقول ذلك أبو سفيان وكأنما يكلِّم نفسه، لأن الناس كانوا في

شغل، لم يسمعوه إذ قال ما قال، فلم يردّوا عليه شيئاً.

ثم دخل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إني قد أجرتُ بين الناس، فقال ﷺ: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة؟» ثم خرج أبو سفيان، وحطّ نفسه على بعيره فانحط عليه، ثم انصرف إلى مكة خاوياً مسلوباً مهزوماً، وكان أبو سفيان يزن فشله وخذلانه ويقدِّره ويقدّر نتائجه الخطيرة عند قومه عليه وعلى سمعته ومكانته بينهم.

قال الواقدي: وطالت غيبة أبي سفيان، واتهمته قريش أشد التهمة، وقالوا: قد صبأ واتّبع محمداً سراً وكتم إسلامه، فلما دخل على هند امرأته ليلاً، قالت: لقد غبت حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل، ثم جلس منها مجلس الرجل من امرأته، فقالت: ماذا صنعت؟ فأخبرها الخبر، وقال: لم أجد إلا ما قال لي عليّ، فضربت برجلها صدره، وقالت: قبّحك الله من رسول قوم فما جئت بخير، واخزياه؟! حتى هند؟! وحتى في مجلسي منها هذا المجلس؟ أنال منها ما نالني؟ واخزياه مرة أخرى، هذه هند وقد لقيتُ منها ما لقيتُ، فماذا عن قومي الذين أرسلوني لآتيهم بكل ما أوتيت من دهاء بما يرفع عنهم الفزع والرعب؟ من غزو محمد فلم آتهم بشيء إلا شيء يزيدهم رجساً على رجسهم، وفزعاً إلى فزعهم، ورعباً إلى رعبهم، وهلعاً إلى هلعهم، إنهم اتّهموني في وثنيتي وشركي واتهموني بأني أسلمت مع محمد، وآمنت بدعوته، وتركت اللّات والعزّى وإساف ونائلة، فكيف أرضهم وأكفِّر عن جريمتي معهم؟ فـلأرينَّهم أني على عهدهم بي في وثنيتي وشركي، أما هند فعندي وسائل إرضائها وإضحاكها، فحسبها مني مجلس كمجلسي معها بالأمس الذي أهانت فيه عنجهيتي واستكباري في أرض الغرور والتكذب.

تكفير أبي سفيان عن بلاهة دهائه بكفر زاده رجساً.

وانتظر حتى أصبح ليراه قومه في كفره ووثنيته، وذهب إلى آلهته، فحلق عند إساف ونائلة ومسح بالدم رؤوسهما، وقال لهما: لا أفارق عبادتكما حتى أموت إبراء لقريش مما اتهموه به، وقبلت قريش في بلاهة وجهالة اعتذاره، ثم كلّموه في وفادته إلى محمد ﷺ، فقالوا له: ما وراءك؟ هل جئت

بكتاب من محمد أو زيادة في مدّة ما نأمن به أن يغزونا، فقال الخزْيان أبو سفيان وهو يداري سوأة الخجل عن قومه إن كان الدهاة البلهاء يخجلون: كلَّمتُه فوالله ما ردّ عليَّ بشيء، ثم جئت أبا بكر فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو، وكلمت عِلْية أصحاب محمد فما قدرت على شيء منهم إلا أنهم يرمونني بكلمة واحدة، وما رأيت قوماً يوماً أطوع لملك عليهم منهم له، إلا أن علياً لما ضاقت بي الأمور قال لي: أنت سيد بني كنانة فأجِرْ بين الناس، فناديت بالجوار، فقال له قومه: هل أجاز ذلك محمد؟ قال أبو سفيان: لا، فقال له قومه: لقد رضيت بغير رضا، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخفارُك عليهم لهيِّن، والله إن زاد عليّ على أن لعب بك تلعباً، فقال أبو سفيان: والله ما وجدت غير ذلك.

وفي مرسل عكرمة عند ابن أبي شيبة أنهم قالوا له: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا بصلح فنأمن، وبهذا ينتهي فصل من مضحكات داهية قريش وسيد بني كنانة وسيد البطحاء أبي سفيان بن حرب.

* * *

وتجهّز رسول الله ﷺ، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والاجتهاد والتهيؤ.

مشاورة النبي ﷺ أبا بكر وعمر في غزوِهِ قريش.

وفي حديث أبي مالك الأشجعي عند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ خرج من بعض حُجَره، فجلس عند بابها ـ وكان إذا جلس وحده لم يأته أحد حتى يدعوه ـ فقال ﷺ: «ادع لي أبا بكر»، فجاء فجلس بين يديه فناجاه طويلاً، ثم أمره فجلس عن يمينه، ثم قال ﷺ: «ادع لي عمر» فجلس فناجاه طويلاً، فرفع عمر صوته، فقال: يا رسول الله، هم رأس الكفر، هم الذين زعموا أنك ساحر، وأنك كاهن، وأنك كذاب، وأنك مفتر، ولم يَدَعْ شيئاً مما كانوا يقولونه إلا ذكره، فأمره فجلس عن شماله، ثم دعا الناس فقال لهم: «ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين» قالوا: نعم يا رسول الله، فأقبل بوجهه الكريم على أبي بكر فقال: «إن إبراهيم كان ألين في الله تعالى من الدهن

للميل»، ثم أقبل على عمر فقال: «إن نوحاً كان أشدّ في الله تعالى من الحَجَر، وإن الأمر أمر عمر، فتجهزوا وتعاونـوا، فتبع الناس أبا بكر، فقالوا: إنا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسول الله ﷺ، قال أبو بكر: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف تأمرني في غزو مكة» قلت: يا رسول الله، هم قومك، حتى رأيت أنه سيطيعني، ثم دعا عمر فقال عمر: هم رأس الكفر، حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه، وايْم الله لا تذل العرب حتى يذلَّ أهل مكة، وقد أمركم بالجهاز لتغزو مكة.

قصَّة حَاطِب بن أبي بَلْتَعَة
وكتابه إلى قريش

قال ابن إسحاق ـ كما حكاه عنه ابن كثير ـ لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعْلاً على أن تبلغه إلى قريش، فأخفته وخرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليّ بن أبي طالب، والزبيرابن العوام والمقداد بن عمرو.

وفي رواية للبخاري عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، قال عليّ: بعثني وأبا مرثد الغنوي والزبير، وكلُّنا فارس، وفي رواية أخرى للشيخين عن عليّ: بعثني ﷺ أنا والزبير والمقداد، وزاد البيضاوي عماراً وطلحة.

ويظهر أن هذا ليس اختلافاً في المبعوثين وعددهم وأسمائهم، ولكنه بيان بأن المبعوثين كانوا جماعة، فذكر بعض الرواة بعضهم، وذكر آخرون بعضاً آخر منهم، وكون المبعوثين جماعة أوفق للمقام والحال، لأنه من باب الحذر والاحتياط لما عسى أن يكون في الطريق ممن يعرف خبر الكتاب والمرأة، فيقاتلون دونها لتنفذ بالكتاب إلى مكة، ويحتمل أن من زاد على الزبير والمقداد كانوا كميناً للحذر.

وذكر ابن حجر في التوفيق بين الروايات رأياً آخر، وقف به عند رواية الشيخين أو رواية البخاري وحده، فقال: ويحتمل أن الثلاثة كانوا مع عليّ

رضي الله عنه، فذكر أحد الراويين عنه ما لم يذكره الآخر.

قصّة كتاب حاطب واستحضاره والاختلاف في نصه.

ثم قال رسول الله ﷺ لمبعوثيه: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها».

قال عليّ رضي الله عنه: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ـ وهي مكان على بعد بريد من المدينة ـ فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخْرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، فقلنا لها: لتخرجنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب، فلما رأت الجدّ قالت أعرض، فأعرض فأخرجته من عقاصها ـ أي لفائف شعرها ـ فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة وسمّي منهم سهيلاً، وصفوان، وعكرمة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، وما أجمع عليه من الأمر في السير إليهم.

وقد ذكر أهل المغازي نص كتاب حاطب إلى المشركين، وهو ـ كما ذكره السهيلي في روضه ـ : أما بعد، يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده.

ثم قال السهيلي: وفي تفسير يحيى بن سلام أن حاطباً كتب: إن محمداً قد نفر، فإما إليكم وإما إلى غيركم، فعليكم بالحذر.

مساءلة حاطب عن الدافع له على كتابة هذا الكتاب لمشركي مكة وصدقه فيما أجاب به عن نفسه.

وفي حديث عليّ رضي الله عنه عند البخاري، قال: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، أخبرني الحسن بن محمد: أنه سمع عبيد الله ابن أبي رافع، سمعت علياً يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر

رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟» فقال حاطب: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت امرءاً مُلْصقاً في قريش ـ يقول: كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها ـ وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً، يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعلَّ الله قد اطَّلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله سورة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء﴾ إلى قوله: ﴿فقد ضلَّ سواء السبيل﴾.

قال ابن كثير: وقد رواه الجماعة إلّا ابن ماجه من حديث سفيان ابن عيينة، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الإمام أحمد: حدثنا حجين ويونس، قالا: حدثنا ليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبدالله أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة، يذكر أن رسول الله ﷺ أراد غزوهم، فَدُلَّ رسول الله على المرأة التي معها الكتاب، فأرسل إليها، فأخذ كتابها من رأسها، وقال: «يا حاطب أفعلت» قال: نعم، أما إني لم أفعله غشاً لرسول الله ﷺ، ولا نفاقاً، قد علمت أنَّ الله مظهر رسوله، ومتم له أمره، غير أني كنت غريباً بين ظهرانيهم، وكانت والدتي معهم، فأردت أن أتخذ يداً عندهم، فقال له عمر: ألا أضرب رأس هذا؟ فقال ﷺ: «أتقتل رجلاً من أهل بدر! وما يدريك لعل الله قد اطَّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم».

قال ابن كثير: تفرد بهذا الحديث من هذا الوجه الإمام أحمد، وإسناده على شرط مسلم.

* * *

تحقيق موقف عمر في قصة حاطب.

وموقف عمر رضي الله عنه في حادث حاطب بن أبي بلتعة، وكَتْبه إلى قريش، وذكره لهم في كتابه ما أجمع عليه رسول الله ﷺ من المسير إليهم

بجيش كثيف وأهبة لحربهم لا طاقة لهم بها ـ مشكل عسير الدفع ـ إذا صحّت الرواية به ـ إذ كيف يقول عمر رضي الله عنه عقب سماع النبي ﷺ إقرار حاطب بذنبه، واعترافه به، واعتذاره عنه بين يدي النبي ﷺ على مشهد ومرأى ومسمع من الصحابة رضي الله عنهم، وتصديق النبي ﷺ له فيما قال في اعتذاره ووصيته ﷺ الصحابة به وأن لا يقولوا له إلّا خيراً ـ : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق.

ورسول الله ﷺ لم يألُ في التحقيق مع حاطب، فقد سأله ﷺ عن صنيعه فلم ينكره، ولكن بيّن لرسول الله ﷺ ما حمله على ذلك، وأنه لم يفعله نفاقاً ولا كفراً، وأقسم أنه ما ارتاب في الله منذ أسلم، وأنه لم يفعل ما فعل ارتداداً عن دينه ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال ﷺ ـ وهو المؤيد بالوحي من عند الله ـ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيراً» وهذا قول حاسم في إثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه وعدم نفاقه.

ثم تذكر رواية الحديث أن النبي ﷺ ردّ على عمر قوله مرة ثانية بقوله ﷺ: «أتقتل رجلاً من أهل بدر، وما يدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟» وهنا فقط تدمع عين عمر ويقول: الله ورسوله أعلم، فكيف يترك النبي ﷺ قوله الحاسم في قبول قول حاطب واعتذاره عما بدر منه، وقوله لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم» وهو قاطع لا يحتمل التأويل في إثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه، ويعدل ﷺ عن هذا القول الصريح إلى ذكر ميزة لأهل بدر تفضّل الله بها عليهم رفعاً لشأنهم، وهي غفران ذنوبهم، وهذا لا يعدو أن يكون خصّيصة لأهل بدر، وحاطب كان أحدهم، بل كان من مقدّميهم بمواقفه فلم يذكرها ﷺ احتجاجاً لإثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه، لأن الاحتجاج لذلك حسم بقول النبي ﷺ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلّا خيراً» وهذا هو موقف سفح الدمع، ورد العلم لله ورسوله، فهلّا دمعت عين عمر رضي الله عنه، وردّ العلم لله ورسوله آنئذ؟.

وقد حاول ابن حجر أن يدفع الإشكال المشكل بتأويل موقف عمر

وكلامه بما لا يدخل في صميم الموضوع فقال: وإنما قال عمر: (دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق) الذي أوردته الرواية بحرف (الفاء) التعقيبية عقب قول رسول الله ﷺ في قبول اعتذار حاطب عن صنيعه الذي صنعه، وتصديقاً له فيما قال في اعتذاره مخاطباً أصحابه بتبرئة حاطب عما يغمز إيمانه، بَلْه يدخله في مضايق النفاق، إذ قال لهم: «أما إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيراً»- لما كان عند عمر من القوة في الدين وبغض المنافقين، فظنّ أن من خالف ما أمر به النبي ﷺ من إخفاء مسيره عن قريش، وحرصه على عدم وصول خبره إليهم، وبعثه جماعة على الطريق حتى لا يبلغهم الخبر، وظهور هذا بين الصحابة مما لا يخفى على حاطب رضي الله عنهم أجمعين.

فلذا ظن عمر أنه استحق القتل، لكنه لم يجزم بذلك، فلذلك استأذن في قتله، فلو جزم لما استأذن وأطلق عليه منافقاً لكونه أبطن خلاف ما أظهر.

ضعف كلام ابن حجر في الدفاع عن موقف عمر.

وهذا كلام ضعيف جداً، لا يدفع الإشكال، لأن عمر رضي الله عنه كغيره من أعلياء الصحابة وكبرائهم يجب أن يكون بين يدي رسول الله ﷺ سامعاً مطيعاً بعد أن يسمع من النبي ﷺ القول القاطع في تصديق حاطب وقبول اعتذاره، إذ ليس له من الأمر شيء بعد أمر رسول الله ﷺ لأنه ليس لأحد قول مع قول رسول الله ﷺ، والمؤمنون جميعهم منهيون عن التقدّم بين يدي رسول الله ﷺ بالقول والفعل، كما هو صريح قول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله، واتّقوا الله إن الله سميع عليم﴾.

قال ابن المنير في انتصافه: ابتدأ السورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهي إلى الله ورسوله متقدِّماً على الأمور كلِّها من غير تقييد ولا تخصيص.

أما قوة الدين عند عمر، وبغضه المنافقين فلا مدخل له في موضوع الإشكال، لأن وجود النبي ﷺ يأبى أن يكون لأحد قط قول مع قوله مهما كانت قوة دينه، وأما بغضه للمنافقين فهذا شأن جميع المؤمنين إذا وقفوا على نفاق منافق، وهو لا يجيز قتلهم بنفاقهم، ولم يثبت أن النبي ﷺ قتل منافقاً

لنفاقه، وكان ﷺ أشد بغضاً للمنافقين من عمر وغيره، ولكن الله لم يأذن له ﷺ في قتلهم مع فظاعة فجورهم وبشاعة جرائمهم، فلا وجه لإدخال قوة دين عمر وبغضه للمنافقين في دفع الإشكال.

رأينا في تأويل موقف عمر والرد على ابن حجر.

وعندنا أن هذا الموقف من عمر رضي الله عنه ـ إذا استقامت الرواية على أسلوبها في تعقيب قول عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، لقول النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» بحرف الفاء المفيدة للترتيب والتعقيب، مما يدلُّ على أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق كما هو صريح رواية البخاري في باب غزوة الفتح، وما بَعَثَ حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ من حديث علي، قال في حكاية دفاع حاطب عن نفسه، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فتعقيب عمر على قول الرسول ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» بهذا القول فيه ما فيه، لأنه قد يحمله من لم يكن مطمئن الإيمان على أنه ردٌّ لقول رسول الله ﷺ.

فموقف عمر على ظاهر الرواية في أسلوبها الذي جعل قول عمر تعقيباً على قول رسول الله ﷺ عسر التأويل جداً، والطريقة التي حاولها ابن حجر في الإجابة عن قول عمر لا تدخل في صميم الموضوع.

ولو أن ابن حجر قال: إن هذا الموقف يمثل طرفاً من موقف عمر في الحديبية لكان في قوله اعتذار عن عمر وموقفه، لا دفع لإشكاله وإجابة عنه، لأن عمر رضي الله عنه اشتد عليه أمر هدنة الحديبية وشروط معاهدتها وتحيّر في الأمر، بل قد اعترف بعظم خطئه بعد أن انكشف الغطاء عنه ببركة النبي ﷺ وبركة الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه، وقال: لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي ﷺ مراجعة ما راجعته مثلها قط.

وروى عنه البزار أنه قال: اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردّ أمر رسول الله ﷺ وما ألوت عن الحق، فرضي رسول الله ﷺ، وأبيت حتى قال: «يا عمر تراني رضيت وتأبى؟».

وفي حديث ابن عباس عند الواحدي أن عمر قال يومئذ: لقد أعتقت بسبب ذلك رقاباً، وصمت دهراً، حتى قال: ما شككت منذ أسلمت إلّا هذه الساعة.

لم يشك عمر قط في أصل العقيدة ولكنه تعجّل قبل أن يتثبت.

وهذا الشك - إذا صحت الرواية - ليس شكاً في أصل العقيدة الإيمانية، ولكنه ظنّ أن رسول الله ﷺ صنع ما صنع في معاهدة الحديبية باجتهاد منه ﷺ، لا بوحي من الله، والشك في الاجتهاد لا يسلّم إلى الشك في العقيدة الإيمانية، وصاحبه مجتهد مأجور.

وأقصى ما يؤخذ على عمر رضي الله عنه أنه لم يبادر بالقبول والاطمئنان والتسليم، كما بادر أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنهما، والصدِّيق منذ كان الإيمان بالله ورسوله كان أرسخ إيماناً، وأعمق يقيناً، وكان عمر يعرف له ذلك، ولهذا ذهب إليه وهو في قمة حيرته واشتداد الأمر عليه يسأله بعد أن سأل رسول الله ﷺ، فكان ردّ الصدِّيق عليه موافقاً لفظاً ومعنى لما أجابه به رسول الله ﷺ، وزاده فقال له: فاستمسك بغرزه فإن الله لا يضيِّعه، فدخل اليقين إلى قلب عمر فملأه، ورضي وأناب وحدّث عن نفسه فقال: ما زلت أتصدّق وأصوم، وأصلّي، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي حتى رجوت خيراً.

ومعلوم أن موقف الحديبية كان أثقل في محنته وأشد في بلائه على جمهور الصحابة رضي الله عنهم من موقف حاطب بن أبي بلتعة وكَتْبه إلى قريش، وتوبته واعتذاره، وتصديق النبي ﷺ له، فإن قوة دين عمر وبغضه المنافقين ممّا يُقبل في عذره لموقفه هناك، فإن ذلك هنا بعيد عن القبول إلا بتأويل متعسف.

ولعمر رضي الله عنه مواقف في شدته وقوة دينه لا يسوغ الاعتذار بها عنه إلا مع الاعتراف بأنه رضي الله عنه كغيره من الثوابت في منابت الإيمان عرضة للخطأ الذي قد تدفع إليه هذه الطبيعة وقوة الدين، وكراهية الحَيْدة عن جادة الحق، فلا يضره ذلك ولا ينقص من قوة دينه أن يقع منه خطأ يلاحقه بالندم وصالح العمل.

هذا يمكن أن يكون اعتذاراً عن موقف عمر رضي الله عنه إذا ثبت أن الرواية وقعت أحداثها كما يدل عليه أسلوبها من تعقيب قول عمر لقول رسول الله ﷺ، لكنه اعتذار لا يدفع الإشكال كما زعم ابن حجر، ولا يصلح جواباً عن موقف عمر وقوله: يا رسول الله دَعْني أضرب عنق هذا المنافق.

وقول ابن حجر: وأطلق ـ أي عمر عليه ـ أي على حاطب ـ منافقاً لكونه أبطن خلاف ما أظهر، لا يخلو عن ضعف، لأن النفاق الشرعي وهو المعروف عند الإطلاق بين المجتمع المسلم في صدر الإسلام إنما هو إبطان الكفر وإظهار الإسلام، ولم يعرف العموم في المبطن والمظهر إلا بعد عهد السلف، والمعنى الخاص بالنفاق الشرعي هو الذي أراده عمر، لأنه جعله سبباً لقتله، لظنه ارتداده عن الإسلام، وأما المعنى العام في إبطان خلاف ما أظهر فلا يقتل به، إلا إذا قارنه سبب يوجب القتل، وهذا عرف بعد السلف بالزندقة.

احتمال في فهم الرواية يدفع الإشكال عن عمر.

ومما يحتمل في الرواية، ويندفع به الإشكال، ولا يحتاج معه إلى اعتذار عن موقف عمر رضي الله عنه بقوة دينه، وبغضه للمنافقين، لأن تصرفه إذا صحّ هذا الاحتمال يكون تصرفاً إيمانياً، يوجب عليه أن يقول للرسول ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق الذي كشف عن باطنه بسوء فعله.

ذلك أن الاحتمال قائم بأن قول عمر رضي الله عنه لرسول الله: دَعْني أضرب عنق هذا المنافق لم يكن ـ كما هو ظاهر في الرواية ـ تعقيباً على قول رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» وإنما كان قبل أن يعلم أن رسول الله ﷺ قال هذا القول ليحسم به قصة حاطب في مشهد من أصحابه حتى لا يغمزوه في إيمانه، وليس في الرواية ما يثبت أن عمر رضي الله عنه كان حاضراً في وقت سؤال النبي ﷺ حاطباً عن صنيعه، وعن الحامل له على ذلك، وليس فيها ما يثبت أنه سمع دفاع حاطب عن نفسه، وسمع قول النبي ﷺ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم» ويوصيهم بأن لا يقولوا له إلا خيراً.

ولما حضر عمر رضي الله عنه وسمع ممّن كان شاهداً للقصة ما كان من حاطب، ولم يسمع ما كان من رسول الله ﷺ قال ما قال لرسول الله ﷺ مندفعاً بقوة دينه وبغضه المنافقين، ولم يقله لتصديق النبي ﷺ حاطباً فيما أخبره به في اعتذاره، وحاشا عمر رضي الله عنه أن يردّ قولاً لرسول الله ﷺ يسمعه منه ثم لا يبالي باطّراح هذا القول، ويستأذن في فعل ينقضه ويرده.

ويبقى بعد ذلك إيراد الرواية قول عمر رضي الله عنه بصيغة التعقيب على تصديق النبي ﷺ حاطباً في اعتذاره، وهذا سهل الدفع عند من يعرف أن روايات الحديث وصل إلينا أكثرها مروية بالمعنى، والرواية بالمعنى قد يدخلها كثيراً تصرف الرواة في التعبير عن المعنى المقصود، وقد قبل العلماء هذا النحو من التصرف في ألفاظ الحديث ما دام لم يخرج عن المقصود.

في القرآن الحكيم القول الفصل في قضية حاطب.

والقول الفصل في هذا ما جاء في القرآن الحكيم، ففي حديث البخاري المروي في المغازي، والتفسير، والجهاد أنه قال بعد قوله: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله السورة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾.

وهذا نص قاطع في إثبات صحة إيمان حاطب ويقينه، وأنه لم ينافق بما صنع لأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء﴾ صريح في أن المخاطبين مؤمنون إيماناً لم يَشُبْه نفاق، وحاطب داخل في هؤلاء المخاطبين دخولاً أولوياً، إذ كانت قصته سبب نزول الآيات، وإذا كان لا قول لأحد قط مع قول رسول الله ﷺ، فمن البداهة أن لا يكون لأحد من المخلوقين قول مع قول الله تعالى.

وقد كانت هذه الآيات الأولى من هذه السورة دروساً تربوية للمجتمع المسلم، ومنهجاً عملياً في حياته، يبقى معهم حياً ما بقي القرآن الكريم هادياً لهم، ومرجعاً لأمور حياتهم.

سياق الزمخشري للقصة كان سياقاً متسقاً.

وقد ساق الزمخشري قصة حاطب في أول تفسيره للسورة مساقاً متسقاً موجزاً جامعاً فقال: روي أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح، فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت لا، قال «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا، قال: «فما جاء بك؟» قالت: كنتم الأهل والموالي والعشيرة، وقد ذهبت الموالي - تعني قُتلوا يوم بدر - فاحتجت حاجة شديدة، فحثّ عليها بني عبد المطلب، فكسوها وحملوها وزوّدوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً، واستحملها كتاباً إلى أهل مكة نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: (اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم) فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، وعمر، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد، وكانوا فرساناً، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلّوها، فإن أبت فاضربوا عنقها».

وأدركوها، فجحدت، وحلفت، فهمُّوا بالرجوع، فقال عليّ رضي الله عنه، والله ما كُذبنا ولا كُذب رسول الله، وسل سيفه وقال: أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك، فأخرجته من عقاص شعرها.

فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال له: «ما حملك عليه؟» فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرءاً مُلْصقاً في قريش، وفي رواية، كنت عزيزاً فيهم، أي غريباً، ولم أكن من أنفسهم، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم ومواليهم غيري. فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدّقه رسول الله ﷺ، وقبل عذره فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم، فنزلت.

وذكرُ الزمخشري عمر في الذين أرسلوا إلى الظعينة لأخذ الكتاب لم نره

لغيره، فإذا صحّ وجوده معهم أمكن حمل قوله: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق أنه قاله بمجرد عودة المبعوثين إلى رسول الله ﷺ وقبل أن يسمع اعتذار حاطب.

* * *

بدء مسير رسول الله ﷺ إلى مكة

بدء مسير رسول الله ﷺ إلى مكة في جيش كثير العدد قوي العدّة.

كان رسول الله ﷺ قد جعل من مسيره إلى مكة في جيش كثيف العدد، مجهز بأقوى عدّة من السلاح والرجال والمؤن، وسائر أدوات الحرب، ـ مسير وفاء لحلفائه الخزاعيين، وإرعاب مرهب لقريش، ليتّقي بذلك إشعار حرب مدمّرة تفنى فيها بقية قريش.

فهو ﷺ لم يكد يعلن الخبر ويتعرفه الناس بعد أن أتم جهازه، وتجهز الناس حتى تجمّع حوله من المهاجرين والأنصار المقيمين في المدينة المنورة عشرة آلاف مقاتل بأدواتهم الحربية ومؤنهم ومراكبهم من الخيل والإبل، كما جاء في حديث ابن عباس عند البخاري، ثم أرسل ﷺ إلى من كان من القبائل المسلمة حول المدينة فتلاحق منهم بالجيش ألفان، كان مجموع من سار بهم رسول الله ﷺ إلى مكة اثني عشر ألفاً من المجاهدين كما رواه الحاكم في الإكليل، والنيسابوري في كتابه شرف المصطفى، وفي مرسل عروة عند ابن إسحق وابن عائذ: ثم خرج ﷺ في اثني عشر ألفاً من المهاجرين والأنصار، وأسلم، ومزينة، وجهينة، وغفار، وسليم.

كان خروج النبي إلى مكة في رمضان فأفطر ورغب في الفطر.

وكان خروجه ﷺ من المدينة المنوّرة في رمضان، واختلفت الروايات اختلافاً متباعد الجوانب في تحديد يوم خروجه، ولكن الاتفاق قائم على أن خروجه ﷺ كان وهو صائم، والناس معه صائمون حتى بلغ الكديد، وهو مكان بين قُدَيد وعُسْفان، أفطر ﷺ لأنه بلغه أن الناس قد شقّ عليهم الصيام وقيل له: إن الناس ينظرون فيما فعلت، فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من ماء، فوضعه على راحته ليراه الناس فشرب فأفطر، ثم ناوله رجلاً إلى جنبه فشرب، كما رواه مسلم والترمذي من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس من طريق عكرمة عند البخاري أنه ﷺ
بإناء من لبن أو ماء، فوضعه على راحته فأفطر، وأفطروا، ولم يزل ﷺ
حتى انسلخ الشهر.

وفي حديث جابر المتقدِّم من رواية مسلم والترمذي أنه ﷺ لـ
قيل له بعد ذلك: إن بعض الناس صام فقال ﷺ: «أولئك العصاة».

وروى الشيخان أن النبي ﷺ رأى في سفره زحاماً ورجلاً قد
عليه فقال: «ما هذا»؟ قالوا: صائم، فقال ﷺ: «ليس من البر الصـ
السفر».

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سافر
رسول الله ﷺ ونحن صيام، فقال: «إنكم دنوتم من عدوكم، والفطر
لكم» فكانت رخصة، فمنّا من صام، ومنّا من أفطر، ثم نزلنا منزلاً
فقال ﷺ: «إنكم مصبِّحون عدوّكم، فالفطر أقوى لكم فافطروا» فـ
عزيمة.

عقد الألوية والرايات ودفعها إلى أمراء الكتائب وزعماء القبائل.

ولما أخذ ﷺ في المسير بجيشه وهو على أتم أهبة عقد الألوية والـ
ودفعها إلى قادة القبائل وزعماء أبطال الجهاد، ولم يزل ﷺ يسير بكتائبـ
بلغ مرّ الظهران ـ وهو مكان قريب من مكة ـ أمر الناس أن يوقدوا
آلاف نار، ليزيد من إرعاب قريش وإرهابها، وهي حائرة لا تعرف
حركاته ﷺ شيئاً، تعيش مغتمة خائفة، يكاد يوبقها الوجل والفرق خشـ
يغزوهم والسيف قد أفناهم، ورعبلت المعارك في الغزوات قواهم، فلـ
لهم منها إلا ما لا قوام له أمام أنفاس جند الله وعزائمهم.

ولم يجدوا لهم ملجأً إلا أن يعودوا يستنجدون بداهيتهم،
البطحاء، أبي سفيان بن حرب وهو يتهاوى من الفزع والهلع، ولم يكفـ
باء به من السخطة والفشل والخزي والخذلان حين بعثوه قبل ذلك ليجـ
عهد الحديبية ويزيد في مدّة الهدنة، فقد لقي في ذلك البَعْث من
والمهانة ما لاحقه في مجاهره ومكامنه، ولم يترك له مكاناً يتنفس فيه، حتـ
به مخدع زوجته هند بنت عتبة، ومخادع الزوجات مراتع للأنس الهاـ

والأسرار الصامتة التي تذيب التغاضب للعصبيات القومية والتِرات الجاهلية، ولا يبقى فيها إلا ما يبقى مِنْ، ومِنْ، ولكن داهية قريش الأشمط، فقد كلَّ ذلك ولقي عوضاً عنه ما لقي من هند في ساعة يتكاذب فيها المتغاضبون، وقريش في مجالسها وبيوتها تمسك بأنفاسها، وهي لا تدري إلا ما ظهر لها من انتفاخ العنجهية وتورم البأو الأجوف، والغرور المستكبر، فبعثتْ داهيتها أبا سفيان مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ ليأخذ لها منه الأمان على أنفسها وأموالها وأعراضها متعزّزة بتراث جاهليتها المسلوب.

ذلّة وهوان بعد العزة والطغيان.

واخزياه؟! قريش بهيلها وهيلمانها، وعنجهيتها وغرورها، وبأوها واستكبارها في الأرض، قريش التي أبت وقت شموخها وقوتها الظالمة أن تقبل هدى الله الذي جاءها به رجل من أنْفُسها وأنْفَسِها، تعلم صدقه وأمانته، ومدخله ومخرجه، وما كان عليه من مكارم الأخلاق، وسواء السريرة منذ نشأته بينها، وأبت أن تترك مَنْ قبل هذا الهدى المنير آمناً في سربه، أميناً على دينه وعقيدته، فآذت طلائع الإيمان وصبَّت عليهم البلاء صبّاً وهم صابرون محتسبون، يتأسّون برسول الله ﷺ فيما يلقى من صور الأذى وفجور المحن والكوارث، حتى أخرجته وأخرجت الذين آمنوا برسالته وهداه من ديارهم وأموالهم وعشائرهم مهاجرين إلى دار الأمن والإيمان، ومتبوأ اليقين والإسلام.

قريش هذه تأتي اليوم ذليلة مفزعة مرعوبة، خائفة منتفضة تطلب من مخذولها سيد البطحاء أبي سفيان بن حرب - الذي عرفته في دهيه ومداهناته، ولفِّه ودورانه في قيادة عيرها والفرار بها، ولم تعرفه قط في بطولة معركة إلا مخدوعاً بسحر أخبث لعين الشياطين حيي بن أخطب فرعون فراعنة اليهود في تجمعات الخندق والفرار بها مهزوماً مدحوراً - أن يستأمن محمداً ﷺ، وهي لا تنسى مواقف طغاتها معه ومع أصحابه، حتى أخرجوهم من ديارهم إلى غربة لا يؤنسهم فيها إلا إيمانهم وما وجدوه في مهجرهم من إخاء وإيثار، ومحبة وبذل للمكارم.

وخرج مخذول قريش، سيد بطحائها ومعه حكيم بن حزام، وبُديل

ابن ورقاء الخزاعي ليأخذ لقريشه أماناً من محمد ﷺ، فوجد الطريق مقفلة في وجهه محبوسة لا يمر فيها إلا من كان حاملاً جواز مرور مختوم بخاتم أمير الأنقاب.

ووقف المسير بداهية قريش وصاحبيه عند مرّ الظهران، فلما رأوا عسكر رسول الله ﷺ في أهبته الحربية الكاملة، وكثافة جنده أفزعهم ما رأوا، وأرعبهم كثرة النيران التي أوقدها عسكر المسلمين بأمر رسول الله ﷺ التي كانت كأنها نيران عرفة، وهي أعظم نيران عرفتها الجاهلية الجاهلة، فقال داهية قريش أبو سفيان مرعوباً مفزّعاً لصاحبيه حكيم وبُدَيل: ما هذه النيران، والله لكأنها نيران عرفة!! فقال بديل بن ورقاء: هذه نيران بني عمرو، يعني نيران خزاعة، وبينا أبو سفيان وحكيم وبديل يتقاولون رآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأخذوهم.

وعند ابن أبي شيبة من مرسل أبي سلمة: وكان حرس رسول الله ﷺ نفراً من الأنصار وكان عمر بن الخطاب عليهم تلك الليلة، فجاؤوا بهم، فقالوا: جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة، فقال عمر وهو يضحك إليهم: والله لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم، قالوا: والله قد أتيناك بأبي سفيان، فقال: احبسوه، فحبسوه حتى أصبح فغدا به عمر على رسول الله ﷺ، واستسلم أبو سفيان ذليلاً بين يدي رسول الله ﷺ.

وفي رواية أن العباس بن عبد المطلب ـ وكان قد أسلم قديماً ـ فيما تقول بعض الروايات ـ وكان يكتم إسلامه لمصلحة المسلمين الذين بقوا في مكة ـ لقيهم فأجارهم وأدخلهم على رسول الله ﷺ، فأسلم بُديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، وتأخر إسلام أبي سفيان، فتركوه يرجع إلى قريش ليخبرهم بما رأى وسمع، فلا ترتفع رؤوسهم أمام كتائب الإسلام، ويتحقق المقصد الأسنى لرسول الله ﷺ في عدم نشوب حرب بينه وبين قريش.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ كما في مرسل أبي سلمة، ويحيى ابن عبد الرحمن عند ابن أبي شيبة لما ولّى أبو سفيان ـ: يا رسول الله لو أمرت بأبي سفيان فحبس على الطريق؟ وفي مغازي موسى بن عقبة أن العباس قال

للنبي ﷺ: لا آمن أن يرجع أبو سفيان فيكفر، فاحبسه حتى يرى جنود الله، ففعل، فقال أبو سفيان: أغدراً يا بني هاشم؟ قال العباس؛ لا، ولكن لي إليك حاجة، فتصبح فتنظر إلى جنود الله وما أعد الله للمشركين، وذكر الواقدي أن العباس قال لأبي سفيان: إن أهل النبوّة لا يغدرون.

حبس أبي سفيان عند مضيق الجبل بإشارة الصديق ليرى قوة المسلمين.

وقال النبي ﷺ للعباس: «احبسه عند خَطْم الجبل، أي مضيقه ليرى كتائب المجاهدين، ويرى أهبتهم، فلا يفوته رؤية أحد من جنود الله، ولا يفوته شيء من أهبتهم، ليزداد رعبه ويخبر قومه بما رأى، فلا ترفع لهم رأس بمواقفة القتال.

فحبسه العباس حيث قال له رسول الله ﷺ حتى أصبح الناس، وقام قائم الحق ينادي بالأذان لصلاة الصبح، فأجابه العسكر بأصوات مدوِّية، ففزع داهية قريش أبو سفيان فزعاً شديداً، تزايلت منه مفاصله، وتفككت روابط أعضائه، وأخذه الدهش والذهول فلم يدر ماذا يقول، وماذا يفعل، ثم قال للعباس: ما يصنع هؤلاء؟ قال العباس: الصلاة.

وعند ابن أبي شيبة: ثار المسلمون إلى طهورهم، فقال أبو سفيان للعباس: ما للناس؟ أُمِروا بشيء؟ قال العباس: لا، ولكنهم قاموا للصلاة، فذهب العباس به إلى مصلّى النبي ﷺ بالناس، فلما رأى أبو سفيان اقتداء جموع المسلمين به ﷺ في الصلاة قال: ما رأيت كاليوم طاعة قوم، جمعهم من هنا وها هنا ولا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له، يا أبا الفضل أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك، فقال العباس: إنه ليس بملك، ولكنها النبوّة قال أبو سفيان ـ والرعب قد اقتلع قلبه من بين أضالعه ـ أو ذاك، وهكذا كان إيمان داهية قريش.

محاورة نبوية لإنقاذ أبي سفيان من محنة الكفر.

ولما فرغ ﷺ من صلاته بأصحابه رأى أبا سفيان، فقال له: «ويحك يا أبا سفيان؟ ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً، وزاد الواقدي أن أبا سفيان قال: لقد استنصرتُ إلهي، واستنصرتَ إلهك، فوالله ما لقيتُك من مرة إلا نُصِرت

عليّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً لقد غلبتك.

ثم قال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك أمّا هذه ففي النفس منها شيء، فقال العباس رضي الله عنه لمخذول قريش وسيد بطحائها وهو يرى تأبّيه عن الإقرار برسالة محمد ﷺ: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، وهنا فقط يستخزي أبو سفيان، فأسلم إسلاماً يحمي به رأسه أن تتدأدأ تحت قدميه، وهذا إسلام أصح منه إسلام من يحشرج وقد بلغت روحه الحلقوم، أو هو إسلام أشبه بإسلام فرعون إذ أدركه الغرق، فقال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وعزّ عليه وهو يعلم أنه بين مخالب الموت أن يقول: آمنت أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، رب السموات والأرض ومن فيهن، وما فيهن، فَرُدّ عليه هذا الإيمان الفاسد المفسد، وقيل له: ﴿آلآن وقد عصيت قَبْلُ وكنت من المفسدين﴾.

وعند الواقدي: أن أبا سفيان وحكيم بن حزام قالا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، جئت بأوباش الناس، من يُعرف، ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك؟! فقال ﷺ: «أنتم أظلم وأفجر، فقد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه» فقالا: صدقت يا رسول الله، ثم قال أبو سفيان، وحكيم: لو جعلت حدّك ومكيدتك لهوازن فهم أبعد رحماً، وأشد عداوة لك؟ فقال ﷺ: «إني لأرجو من ربي أن يجمع ذلك كله، فتح مكة وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن، وغنيمة أموالهم، وذراريهم، فإني أرغب إلى الله في ذلك».

سياسة العباس لإنقاذ رأس أبي سفيان.

وقد استكشف العباس رضي الله عنه ما في دخيلة سيد بطحاء قريش أبي سفيان بن حرب من عناد وتأبٍّ متغطرس عن الإذعان بالإسلام وقبول هدايته، وخلع مواريث الجاهلية، وتعاصٍ عن الإيمان برسالة رسول الله ﷺ، فسلك به منعرجات مواريثه الجاهلية ليستنزله من علياء عنجهيته لينقذه من براثن الدّهْي والمداهنة، ويجعله على مشارف الجادة ليدخله في رياض

الإسلام، والعباس رضي الله عنه أعرف بقريش ومن بقي فيها من ذوي الزعامات، وكان يخشى على أبي سفيان - إذ لمح نهزة - أن يرتد عن هذا الإسلام الذي أسلمه تحت رهبة السيف خوفاً على رأسه أن يفارق عنقه.

غرور أجوف وتيه كسيح يعرفهما في أبي سفيان أبو بكر الصديق والعباس رضي الله عنهما.

فقال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له، فقال ﷺ - وهو يعلم طبيعة قريش وطبيعة زعاماتها - : (نعم).

وعند ابن أبي شيبة أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب السماع والشرف، فقال ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقال أبو سفيان: وما تسع داري؟ فقال ﷺ: «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال أبو سفيان: وما يسع المسجد؟ فقال ﷺ: «ومن أغلق بابه عليه فهو آمن»، فقال أبو سفيان: هذه واسعة.

ولما أراد أبو سفيان الانصراف إلى قومه بعد أن رأى بعين بصره كثافة جند الله وحَرَد كتائب المجاهدين قال له العباس: النَّجاء إلى قومك، فأسرع إلى مكة حتى إذا جاءها صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبل لكم به، أسلموا تسلموا، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا له: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ فقال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

هند زوجة أبي سفيان تسخر منه وتحرض عليه.

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، وقالت: اقتلوا الحميت الدَّسِم الأحمس، قُبِّح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان لقومه: ويلكم لا تغرنَّكم هذه من أنفسكم، فقد جاء محمد بما لا قبل لكم به، فتفرقوا إلى دوركم وإلى المسجد.

وإنما حذّر أبو سفيان قومه هذا التحذير الشديد المرعب خوفاً عليهم أن تطأهم كتائب الفتح، فينالهم من القتل والدمار ما لا قبل لهم بردِّه، والوقوف أمامه، لأنه رأى من كثافة جيش الجهاد وعدّته وهو محبوس عند مضيق الجبل شيئاً أذهله وأفزعه على قومه.

وكان رسول الله ﷺ ـ بعد أن أمر العباس رضي الله عنه بحبس أبي سفيان عند خطم الجبل ليرى جند الله وأهبتهم للفتح ـ أمر منادياً ينادي: «لتصبح كل قبيلة عند راية صاحبها، وتظهر ما معها من الأداة والعدة».

إظهار قوة جيش الإسلام لتحقيق إرعاب قريش دون حرب.

وأصبح الناس على ظهر، وقُدِّم بين يدي رسول الله ﷺ، ومرّت الكتائب بألويتها وقادتها، والكتائب على راياتها، كتيبة كتيبة على أبي سفيان ـ وهو يراها منتفضاً مرعوداً مرعوباً ـ بألويتها وقادتها وراياتها وعدَّتها وأداتها تحقيقاً لأمر رسول الله ﷺ، فجعل أبو سفيان يسأل العباس رضي الله عنه عن كل كتيبة، كتيبة، فإذا قيل له هم بنو فلان، قال: ما لي ولبني فلان، حتى مرّت عليه أشجع برجالها وأهبتها فسأل عنهم وأخبر بهم، فقال هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد، فقال له العباس رضي الله عنه: أدخل الله تعالى الإسلام في قلوبهم، فهذا فضل الله. ثم سأل أبو سفيان العباس عن مرور كتيبة رسول الله ﷺ، فقال العباس رضي الله عنه: لو أتت الكتيبة التي هو فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال، وما ليس لأحد به طاقة، فقال أبو سفيان ومن له بهؤلاء طاقة؟ وجعلت الكتائب تمرّ، كل ذلك يقول أبو سفيان: ما مرّ محمد؟ فيقول العباس رضي الله عنه: لا، حتى أقبلت كتيبة لم يُرَ مثلها، وهم في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق ـ أي سواد العين ـ قال أبو سفيان: من هذه؟ قال العباس: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة، معه رايتهم، فقال سعد بن عبادة لما رأى أبا سفيان وهو يمر بالراية النبوية: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار، ومعنى هذه الكلمة من أبي سفيان التي ارتمى بها في أحضـان التزلّف إلى العباس رضي الله عنه أنه لشدة ما داخله من الرعب والخوف على نفسه وقومه فهم من كلمة سعد بن عبادة أنه يتوعده، ويتوعد قومه ليوقع بهم جزاء ما قدمت أيديهم وألسنتهم من فجور في إيذاء رسول الله ﷺ، وإيذاء أصحابه الذين استضعفوا في مكة قبل الهجرة.

كتيبة الأنصار ترعب أبا سفيان وتكتم أنفاسه فيرتمي بين أحضان العباس مستغيثاً.

فقد كذّبوه ﷺ، وسخروا منه، واستهزؤا به، وتقوّلوا عليه، وقاتلوه ووقفوا سداً أمام رسالته، حتى أخرجوه من بلده حرم الله ومأمنـه، وهي أحبّ بلاد الله إليه.

وآذوا أصحابه بالقول والفعل، وأنزلوا بهم من المحن والبلاء ما لو نزل بالشوامخ الرواسي لدكّها، فلجأ إلى العباس رضي الله عنه يستنهض همته، ويحرك في نفسه عوامل مروءته ومكارم أخلاقه، ويحتمي به وبمكانته عند رسول الله ﷺ، ومحبته له، وإعظامه له، وقبول شفاعته.

وكأن أبا سفيان يقول للعباس: هذا يومك الذي يلزمك فيه حفظي وحمايتي وحفظ قومك وبيضتك لمكانك من رسول الله ﷺ، ومنزلتك عنده، ومحبته لك وإقباله عليك، وقبول مشورتك من أن ينالني وأنا معك مكروه، أو ينال قومك تسلُّط الغزاة عليهم، ليستبيحوا حرماتهم، ويستأصلوا شأفتهم.

وعند ابن إسحاق أن كلمة سعد بن عبادة المتوعدة سمعها عثمان ابن عفان، أو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، فقال من سمعها منهما: يا رسول الله، ما نأمن أن تكون لسعد في قريش صولة، وقيل: إن الذي سمعها وقال لرسول الله ﷺ هذه المقالة المستعطفة لرسول الله ﷺ هو عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، واستبعد ذلك ابن حجر بأن عمر كان ظاهر العداوة لهم، وهذا لا يبعد عن الصواب.

وفي رواية أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه وهو يمر في كتيبته الخضراء: أمرت بقتل قومك؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، فذكر أبو سفيان ما قاله سعد بن عبادة، وناشده الله والرحم في قومه، وقال له في مناشدته: إنك أبرّ الناس، وأرحمهم وأوصلهم، فقال ﷺ: «يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يعزُّ الله تعالى قريشاً» وأرسل ﷺ إلى سعد بن عبادة، فأخذ الراية منه، فدفعها إلى ابنه قيس، وهذا أصح ما قيل في الروايات، إذ رأى ﷺ بهذا التصرف السياسي الحكيم أن الراية لم تخرج عن سعد إذ صارت لابنه، وهناك روايات تقول: إن النبي ﷺ بعث إلى سعد علياً ليأخذ الراية منه، وقال لعلي: «كن أنت الذي تدخل بها» وفي رواية أنه ﷺ أعطاها للزبير رضي الله عنه ليدخل بها ويركزها عند الحجون.

ودخلت كتائب الجهاد بثقلها مكة آمنة مطمئنة إلى فضل الله وقوة

تأهبها القتالي، وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من كُدَي بأسفل مكة، ودخل ﷺ بكتيبته الخضراء من كَدَاء بأعلى مكة كما هو الصحيح الذي يدل عليه صراحة حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري، عن هشام ابن عروة، عن أبيه، أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كَدَاء التي بأعلى مكة، وما جاء في الروايات غير ذلك يظهر أنه من قبيل الاشتباه على بعض الرواة.

أمر رسول الله ﷺ بالكف عن القتال إلا دفاعاً.

وأمر رسول الله ﷺ المجاهدين أن يكفُّوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال، ولما دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من حيث أمره رسول الله ﷺ لقي جماعة من فلّال قريش الذين استبقاهم الهرب والفرار من السيف، فيهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو متجمعين ليقاتلوا كتائب الفتح، فناوشوا خالداً وجنده الذين كانت رايتهم في يده، وهم بنو سليم فقتلوا من جند خالد مسلمة بن الميلاء الجهني، فاضطر خالد رضي الله عنه لمدافعتهم بالقتال، فقتل منهم رجالاً، فانهزموا فراراً مولّين الأدبار، حتى دخلوا البيوت، وأغلقوا دونهم أبوابها، وفرّت منهم طوائف إلى أعالي التلال ورؤوس الجبال، وتبعهم المسلمون، وأكثروا من القتل فيهم، ورأى ذلك حكيم بن حزام وأبو سفيان بن حرب - ولم يكونا مع المقاتلين - فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان في قومهم وهم يفرّون: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، ومن وضع سلاحه فهو آمن. فجعل المهزومون يسرعون ويقتحمون الدور، ويغلقون أبوابها، ويطرحون السلاح في الطرقات، فيأخذه المسلمون، ولم يرفع بعد ذلك أحد من قريش رأسه.

ونظر النبي ﷺ فرأى بارقة السيوف فقال: «ما هذا وقد نهيت عن القتال» فقال له أصحابه: نظن أن خالداً بُدِىء بالقتال وقوتل فقاتل دفاعاً عن نفسه وجنده، فقال ﷺ لخالد: «لِمَ قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدؤونا بالقتال وقد كففتُ يدي ما استطعت، فقال ﷺ: «قضاء الله خير».

وفي رواية عند الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، خطب رسول الله ﷺ فذكر حرمة مكة، وأن الله أحلّها لرسوله ﷺ ساعة من النهار، ثم عادت حرمتها، فقيل له ﷺ: هذا خالد بن الوليد يقتل، فقال ﷺ: «قم يا فلان فقل لخالد يرفع يده عن القتل» فأتى الرجل خالداً فقال له إن نبي الله يقول لك: (اقتل من قدرت عليه) فقتل منهم سبعين، وجاء الخبر إلى رسول ﷺ، فأرسل إلى خالد: «ألم أنهك عن القتل؟» فقال خالد: جاءني فلان، فأمرني أن أقتل من قدرت عليه، فأرسل النبي ﷺ إلى الرجل الذي كان قد بعثه لخالد يأمره برفع يده عن القتل، فقال له: «ألم آمرك أن تنذر خالداً» فقال الرجل لرسول الله ﷺ: أردت أمراً، فأراد الله أمراً، وكان أمر الله فوق أمرك، وما استطعت إلا الذي كان، فسكت النبي ﷺ وما ردّ عليه.

رواية غريبة وخطأ في تبليغ أمر النبي ﷺ.

وهذه الرواية صعبة التأويل جداً إذا صحّت سنداً، لأنه كيف يعقل أن يبعث رسول الله ﷺ رجلاً يختاره، فيقول له: «قم يا فلان» ويسمّيه باسمه برسالة إلى أحد أبطال قادة جند الجهاد ـ وهو أشهر وأعرف قواد جيش الفتح ـ برسالة موجزة في عبارتها وأسلوبها، بيّنة الهدف في مقصودها، وهي: «قل لخالد فليرفع يده عن القتل» فيذهب الرجل، ويبلغ غير ما أرسل به إلى خالد، يبلّغه رسالة مناقضة كل المناقضة في ألفاظها وأسلوبها وهدفها لرسالة رسول الله ﷺ التي كلّفه إبلاغها خالد بن الوليد ليرفع يده عن القتل؟.

بحث وتحقيق في صحة هذه الرواية ومناقشة ما قيل فيها من تأويل متعسف.

ثم كيف يعقل أن ينسى الرجل المبعوث إلى خالد برسالة رسول الله ﷺ نص رسالته ﷺ على إيجازها الذي لا تُجاوز به جملة واحدة، مؤلفة من عدة حروف لا تزيد على عدد أصابع اليدين، ثم يبلغ خالداً رسالة مختلفة لم يقلها النبي ﷺ تزيد في كلماتها على الرسالة المكلف إبلاغها؟.

وإذا أحضر النبي ﷺ هذا الرجل وسأله عما بلّغه إلى خالد ليعرف وجهة نظره فيما بلّغه، فيقول له: «ألم أمرك أن تنذر خالداً» والإنذار هو التخويف الشديد من عواقب المنذر من أجله، وهو الاستمرار في القتل، فيقول هذا الرجل في ردّه على النبي ﷺ متجهماً متغاضباً جافياً كأنه يذكر

رسول الله بأمر فاته؟ فيقول مخاطباً له ﷺ: أردتَ أمراً، وأراد الله أمراً، وكان أمر الله فوق أمرك.

هذه الجفوة المتجهمة المتغاضبة في مخاطبة النبي ﷺ وحدها كافية في إسقاط هذه الرواية عن القبول، وزَعْمُ أن هذا الرجل أنصاري، وأنه تأوّل الكلام لا محل له، ولا ينبغي أن يقال، وإلا فأين مكان التأويل؟ أفي رسالة النبي ﷺ إلى خالد ليرفع يده عن القتل، وهي واضحة شديدة الوضوح، لا إبهام فيها ولا غموض، وهي شديدة الإيجاز لا تعدو جملة واحدة؟ أم في كلام هذا الرجل الذي اخترعه فبلّغه خالداً؟.

وكيف يسوغ التأويل باحتمال أن هذا الكلام المخترع الذي بلّغه الرجل إلى خالد سبق إلى سمع الرجل فبلّغه خالداً، وقتل خالد بسببه سبعين من قريش؟ وليس بين كلام النبي ﷺ الذي بعث به هذا الرجل إلى خالد وكلامه المخترع الذي بلّغه خالداً أدنى اشتباه في لفظه ومعناه، فكيف يسبق إلى سمعه نقيضُ ما بعثه به رسول الله ﷺ ليبلّغه إلى خالد ليرفع يده عن القتل؟

ثم إن ردَّ هذا الرجل الذي قيل أنه أنصاري على سؤال رسول الله ﷺ جاءت الرواية به في أسلوب جاف، متجهِّم متغضِّب، يبعد جداً أن يصدر في مخاطبة رسول الله ﷺ من رجل مؤمن صادق الإيمان، صفيّ اليقين، يعرف للنبي ﷺ قدره المنيف، ومنزلته من الله تعالى ومكانته في قلوب أمته، ويعلم أن الله تعالى أدب المؤمنين أدباً خاصاً في مخاطبتهم له ﷺ، وعلّمهم كيف يتحدّثون إليه، وكيف يسمعون منه، وكيف يستجيبون لأوامره، رفعاً لقدره ومنزلته فوق أقدار ومنازل جميع خلقه، تشريفاً لمقامه الأشرف بين أصحابه، وأجيال أمته من بعدهم، فقال تعالى يصف خلّص أهل الإيمان:

نموذج مما أدب الله به المؤمنين في توقير النبي ﷺ.

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم * لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً،

قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لِوَاذاً، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[1].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين منهج تعظيم قدر النبي ﷺ، وبيان ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين في جميع أمورهم التي تربطهم به ﷺ نبياً ورسولاً، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، وخلع عليه جلابيب حرصه عليهم، وعزة عنتهم عليه، وخصّه باسمين من أسمائه الحسنى، فجعله رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين، وهذا تعظيم لم يكن قطُّ لغيره ﷺ، لأنه تعظيم يرتبط بأصل الإيمان برسالته وهدايته.

قال الزمخشري في كشّافه: أراد الله عز وجل أن يريهم عظيم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه ﴿إذا كانوا معه على أمر جامع﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله، وجعلها كالتشبيب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما، وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانَيْنْ، ثم عقّبه بما يزيده توكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله: ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ وضمّنه شيئاً آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصدِّق بصحة الإيمان وعرّض بالمنافقين وتسلّلهم لواذاً.

والأمر الجامع الذي يجمع له الناس، وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهمّ أو تضامّ لإرهاب مخالف، وفي قوله: ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ أنه خطب جليل، لا بدّ لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه عليه، ويعاونوه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايتهم، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشقُّ على قلبه ويشعِّث عليه رأيه، فمن ثمة غلّظ عليهم، وضيّق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله:

---

(١) سورة النور آيتا (٦٢ - ٦٣).

«لبعض شأنهم» وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على الأحسن الأفضل أن لا يحدِّثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه.

ثم قال الزمخشري في تفسير قوله جل وعلا: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمِّي بعضكم بعضاً، ويناديه باسمه الذي سمّاه به أبواه، ولا تقولوا يا محمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع.

وقال القرطبي في معنى قوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾، أي عظِّموه وخاطبوه في رفق ولين، وغير تجهُّم، وروى عن قتادة في تفسيرها: أمرهم أن يشرِّفوه ويفخِّموه.

فأين يقع ما جاء في رواية الطبراني منسوباً إلى الرجل الذي قيل أنه أنصاري، وأن النبي ﷺ اختاره، وسمّاه باسمه مبعوثاً إلى خالد ليقول له أن رسول الله ﷺ يقول لك: «ارفع يدك عن القتل» فبلّغ خالداً رسالة تناقض رسالة النبي ﷺ في ألفاظها ومعانيها وهدفها، فلما سأله رسول الله ﷺ عن إبلاغه خالداً ما لم يرسله به ﷺ تجهّم وجفا، وتغاضب وخاطب النبي ﷺ بأسلوب لم يشم رائحة التوقير، والتعظيم، وحسن الأدب، ولطف القول ولين الجانب، ورقة الألفاظ، وخفض الصوت والتواضع مما ينبغي أن يتحلّى به كل مؤمن صادق الإيمان.

من هذا الأدب الرفيع الذي أدّب الله به المؤمنين جاءت به هاتان الآيتان الكريمتان اللتان أبرز الزمخشري وغيره ما فيهما من تشريف وتعظيم لرسول الله ﷺ، وما جرى مجراهما من آيات كثيرة في سور متعدّدة من سور القرآن الكريم، نزلت لتبين للمؤمنين مقام شرف رسول الله ﷺ وعظيم منزلته عند ربه، مما يوجب على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطباتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم.

وقد سجّل الله الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدّبوا بهذا الأدب القرآني

الرفيع في قوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾.

وكما قال تعالى في الإنافة بمقامه الأشرف، وبيان حقّه على كل مؤمن ومؤمنة: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلاً﴾ وقد ذهب علماء السلف إلى أن الضمير في قوله جل شأنه: ﴿وتعزّروه وتوقروه﴾ راجع إلى رسول الله ﷺ ومعناه: تعظّموا رسول الله ﷺ وتفخموه في أدب المخاطبة معه والتحدث إليه ومجالسته.

أسلوب أصرح في وجوب التزام توقير رسول الله ﷺ.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ ففي هذه الآية الكريمة من الحثّ على التزام أرفع منازل الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ بحيث لا يغمر صوته في جهارته صوت رسول الله ﷺ في محادثته.

والنهي عن الجهر له ﷺ بالقول كجهر بعض المتخاطبين لبعض في مخاطباتهم ومحاوراتهم ومحادثاتهم التي تستدعيها أمور دينهم ودنياهم، قد جعل مخالفته في المخاطبة سبباً لإحباط العمل، وقد يكون هذا الإحباط دون شعور من المخالف للنهي، لأنه لم يستحضر في مخاطباته النبي ﷺ ما يجب له من توقير وتعظيم وهيبة تحمل مخاطبه على خفض الصوت، ولين القول، ورقة الألفاظ، وهذا أمر خطير ووعيد شديد لمن يتبصر في أمره، ويكون مستحضراً بقلبه تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره.

ولهذا أتبع هذه الآية الكريمة بآية امتدح فيها قوماً من ذوي الأدب الرفيع في مخاطبة النبي ﷺ فقال عز شأنه: ﴿إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ فهذا ثناء على الذين اعتصموا بأدب توقير رسول الله ﷺ، وتعظيمه في مخاطباتهم وأحاديثهم في مجالستهم له ﷺ كما تقتضيه (العندية) في قوله: (عند رسول الله).

ومعنى ذلك أن هؤلاء الصفوة الذين استمسكوا بعواصم الأدب الرفيع

مع رسول الله ﷺ فعزّروه ووقّروه، وعظّموه، وأظهروا إجلاله وتبجيله إذْ يكونون معه ولو لم يكونوا في مخاطبة له.

نفحات من تفسير الزمخشري لهذه الآيات.

وللزمخشري نفحات من روعة الأسلوب فسّر بها هذه الآيات في كشّافه رأينا أن نقبسها منه لما فيها من إحسان في أداء المعنى القرآني الذي يبيِّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من تفخيم شأن رسول الله ﷺ وتشريفه بأفضل ما يجب له من التوقير والتعظيم، فقال: أعاد النداء عليهم ـ أي في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ ـ استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتروا، ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم.

وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يـألو عملاً بما يحدوه عليه، وارتداعاً بما يصدّه عنه، وانتهاء إلى كل خير.

والمراد بقوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدِّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون ميزته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق غير خافٍ، لا أن تغمروا صوته بلفظكم، وتبهروا منطقه بصخبكم.

وبقوله: ﴿ولا تجهروا له بالقول﴾ أنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول البيِّن المقرَّب من الهمس الذي لا يضاهي الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظَّم، عاملين بقوله عز شأنه: ﴿وتعزِّروه وتوقروه﴾.

وليس الغرض من رفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف

والاستهانة لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء، ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منه، ورده إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير.

ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذّى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدو، فلم يُنْهَوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مقيد بصفة أعلى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم، وهو الخلو عن مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها.

ومن البداهة أن هذه الآيات وأمثالها في تأديب الأمة وتعليمها إنما جاءت بأسلوبها المعجز لتفخيم شأن النبي ﷺ، وإظهار رفعة قدره المنيف، وسمو منزلته ﷺ فوق كل منزلة أحد من الخلق، وهي مسوقة في مواضعها من القرآن الكريم لتعليم الأمة أفراداً وجماعات الأدب الأكمل مع النبي ﷺ في كل ما يتصل بمخاطبته، والتحدُّث إليه، والإصغاء إلى حديثه، ومجالسته حتى يستشعر المؤمن بقلبه وروحه وكافة إحساساته ومشاعره ما أوجبه الله تعالى من توقيره ﷺ توقيراً يجلّي رفيع قدره، وعظيم مقامه، ويظهر تشريف الله تعالى له ﷺ بما ميّزه به على سائر الخلق، وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعلام الأمة على أن حرمته ﷺ في حياته البرزخية كحرمته في حياته الدنيوية.

إسقاط ابن حجر الكلمات الجافية من كلام الرجل لعلّه إشارة إلى أنَّ في الحديث ضعفاً.

وقد أجاد ابن حجر فأحسن إذ أسقط ما نسب إلى الرجل من الكلمات الجافية المتجهمة، واقتصر على ذكر قوله لخالد: إن نبي الله يقول لك: «اقتل كل من قدرت عليه» فقتل خالد سبعين، ثم اعتذر الرجل للنبي ﷺ، فسكت عنه ﷺ، ولم يذكر ابن حجر الكلمات المنسوبة للرجل في اعتذاره للنبي ﷺ - وهي موضع النظر - التي أحسن بإسقاطها وعدم ذكرها، وكأن ابن حجر لمح ما فيها مما لا يليق من الجفوة، والتجهم فتركها.

وهذا مسلك جزئي سلكه ابن حجر في كلامه على هذا الحديث،

فأحسن إذ ترك من الكلام ما هو موضع المؤاخذة، ولكن كان يجب على الحافظ ابن حجر أن ينظر في الحديث نظرة شاملة، تبيِّن صحة سنده، واستقامة متنه ومعناه وأسلوبه، ولا عليه أن ينصح بما هو الحق في صحة الحديث سنداً ومتناً، ولا سيما أن المعروف عن كافة الصحابة صادقي الإيمان التفخّم بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره إلى درجة تبلغ ذروة التقدير لشرفه ومقامه ورفعة منزلته، فإذا غلب التغضّب أحدَ من لم يكن منهم قادراً على مغالبة طبيعته فلا حرج على من يصرِّح بغلط من غلط، أو يبين أن الحديث لم تثبت صحته، ولا داعي لبذل الجهد وتحمّل المشقة في تأويله تأويلاً متعسفاً.

وإنما أطلنا النفس قليلاً في مناقشة ما جاء في هذا الحديث عند الطبراني - من أسلوب جاف متجهم وكلمات متغضبة نافرة في مخاطبته ﷺ، مما يجافي ما يجب له صلوات الله عليه من توقير وتعظيم، وخفض جناح الرقّة في الخطاب، لنذكّر بما هو واجب مضيّق على أمته أفراداً وجماعات من رفيع الأدب والتفخيم لشأنه، ومحبته محبة تعلو على كل محبة، واتباعه اتباعاً يجعل هوى كل مؤمن تبعاً لما جاء به ﷺ في كل ما يثبت عنه من أحكام وآداب، وتربية، وسلوك اجتماعي يقوم على أكرم مكارم الأخلاق - لنلفت نظر المجتمع المسلم أينما كان منه فرد أو جماعة في أرض الله إلى أن المتحدِّثين عنه صلوات الله وسلامه عليه - لا سيما شباب الإسلام - ينبغي أن يكونوا على بصيرة وحذق بما يحوكه الملحدون لهم من نسج الميوعة والانحلال الخلقي، ليخرجوا هذا الشباب من إطار الإسلام إلى الانطلاق الذي يسمِّيه لهم الملحدون تحرراً، وهو في حقيقته انسلال عن الإسلام دون شعور، والله تعالى يقول: ﴿فأقم وجهك للدين القيِّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله، يومئذ يصدّعون، من كفر فعليه كفره، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾.

قال الزمخشري: وقوله (فعليه كفره) كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار، لأن من كان ضارّه كفره فقد أحاطت به كل مضرة.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾.

الراجح أنَّ القتال بين جيش الفتح وأهل مكة وقع مرة واحدة.

والذي يظهر لنا من التأمل في جُموع الحوادث التي وقعت منذ وطئت قدم رسول الله ﷺ أرض مكة فاتحاً أن القتال الذي حدث إنما هو وقعة واحدة، هي التي جمع فيها الموتورون من سوابق الغزوات الذين جمعوا لفائف من أوباش قريش وأتباعها ليقاتلوا جيش الفتح، وينقضوا أمان رسول الله ﷺ لأهل مكة عامّة، وكان أسبق القوّاد المجاهدين دخولاً إلى مكة خالد ابن الوليد، معه راية بني سليم، فناوشه الأوباش وقادتهم، وكفّ خالد ابن الوليد عن قتالهم ما استطاع إطاعة لأمر رسول الله ﷺ لعامة قواد جيش الفتح، إذ قال لهم: «أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم».

وقد أطمع هذا الحلم الكريم أولئك الموتورين وأوباشهم، فركبهم الشيطان وزيّن لهم نقض الأمان وإشعال نار الحرب، وأرادوها موقعة فاصلة، وحملوا على جند خالد حملة مسعورة، وقتلوا من جنده من قتلوا، فكان لا بد له أن يدفع عن نفسه وجنده، فقاتل فلول الموتورين وأوباشهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، أذاقتهم أوجاع الغدر ونقض عهد الأمان، ورأى رسول الله ﷺ بارقة السيوف وهي تلمع، فقال: «ما هذا؟ وقد نهيت عن القتال؟» فقال له بعض أصحابه: هذا خالد نظن أنه بُدِىء بالقتال، فكان لا بد له من أن يدفع عن نفسه وجنده، فقاتلهم، فلما جاء خالد قال له رسول الله ﷺ: «لم قاتلت؟ وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدأونا بالقتال وقد كففتُ يدي ما استطعت، فقال ﷺ: «قضاء الله خير».

هذا مجمل ما نظن أنه وقع، ولكن الرواة أكثروا من الروايات، وأدخلوا في كل رواية واقعة مما وصل إليهم من واقعة خالد، وجعلوها وقائع مستقلة أعطوها في رواياتهم قوائم الوقائع المتعددة، ولم يثبت لنا من طريق صحيح وقوع معارك إلا ما كان من واقعة خالد التي كانت أصلاً لما تفرّع عنها من الوقائع في الروايات المختلفة حتى أوقفها فرّار الموتورين وقادة الأوشاب، وتجديد الأمان من رسول الله ﷺ بعد استغاثة أبي سفيان به في قوله: «لا قريش بعد اليوم» فقال النبي ﷺ: «من دخل داره فهو آمن» وهذا تجديد للأمان صاح بعده أبو سفيان وحكيم بن حزام في قومهم: يا معشر

قريش، علام تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، فأسرع الفرّار إلى البيوت يدخلونها ويغلقون أبوابها دونهم، ويطرحون السلاح في الطرقات.

منزل رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم.

وكان رسول الله ﷺ ينزل في قبة ضربت له بالحجون، وقيل له ﷺ: ألا تنزل منزلك من الشِّعْب؟ فقال ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً» وكان عقيل بن أبي طالب قبل أن يسلم قد باع منزل النبي ﷺ ومنزل إخوته أولاد أبي طالب من الرجال والنساء التي كانت لهم بمكة، فقيل لرسول الله ﷺ: فانزل في بعض بيوت مكة، غير منازلك، فأبى ﷺ وقال: «لا أدخل البيوت» وكان ﷺ يأتي المسجد لكل صلاة من الحَجون. وكان أبو رافع مولى العباس ابن عبد المطلب قد ضرب له قبة بالمسجد من أدم، ومعه أم سلمة وميمونة، وذكر ميمونة هنا هو الغريب، فإنه ﷺ لم يبنِ بها إلا في الطريق بسَرف.

وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة من طريق أبي سلمة أنه ﷺ قال: «منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخَيْف»، وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً: «خيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر» والمقصود الإشارة إلى تحالف قريش الظالم الكفور وحصرهم بني هاشم والمطّلب بشعْب أبي طالب، وتعاهدهم أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم كما فصّلنا قصة هذا الحصار الفاجر الظلوم في موضعه من أحداث مكة قبل الهجرة.

وإنما اختار رسول الله ﷺ النزول في خيف بني كنانة يوم الفتح الأعظم، فتح البلد الأمين واستسلام أهلها، ودخولهم في الإسلام بين طائع قد تبين له الرشد من الغي، وبين كاره مكره، حاقد مرعوب مفزّع يخاف على رأسه أن تزايل مكانها من عنقه ـ ليتذكر ﷺ ما كان من قريش من فجور، فقدت فيه مشاعر الإنسانية، وكفر شرس وطغيان وثني مجنون، وعنجهية جاهلية واستكبار مغرور، وظلم جهول، وإيذاء للمؤمنين، وليتمثّل ﷺ ما بين يديه ﷺ من نعمة الله عليه وعلى أصحابه بإعزاز دينه وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، فيزداد شكراً لله تعالى على هذه النعمة العظمى، نعمة الفتح الأعظم، فتح مكة بلد الله الحرام، وتطهّر الكعبة المشركة من رجس الشرك ووضر الوثنية، وتمكنه ﷺ من دخول بلده المحرّم

التي جعلها الله حرماً آمناً للناس إلى يوم القيامة، ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم إخوة ترفرف فوق رؤوسهم ألوية النصر، وتخفق بين أيديهم رايات الشكر، وهم يرون الذين أخرجوهم بالأمس أذلة مستسلمين يستأمنون رسول الله ﷺ فيؤمنهم، ويتلطّف بهم رحمة لهم.

فرحة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم بالفتح الأعظم.

وقد كان ﷺ في دخوله مكة مفعم المشاعر، رويّ الإحساس، مشرق الوجدان، تبرق أساريره بالفرحة العظمى، وتضيء روحه المشرقة بنور تقدير نعمة الله عليه حقّ قدرها، وعرفانه فضل الله عليه وعلى مجتمعه المسلم ممثلاً في عامّة أصحابه الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه فكانوا هم المفلحين، وكانت فرحة السابقين الأولين من المهاجرين خاصة ـ الذين رزحوا تحت آلام البلاء في البلد الحرام على أيدي طواغيت الشرك وطغاة الوثنية قبل هجرتهم فصبروا على ما أصابهم، واحتسبوه عند الله، وهم يرجون من الله النصر على أعدائهم من الكافرين ـ أعظم وأظهر.

وها هو ذا النصر يحفُّهم وهم يكتنفون راحلة رسول الله ﷺ، وهو صلوات الله عليه فوقها متذلّلاً لله، متواضعاً لعظمته، واضعاً رأسه تخشّعاً وعرفاناً بحق شكر الله تعالى على ما أسداه إليه من نعمة الفتح العظمى.

ذكر محمد بن إسحق عن شيخه عبدالله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حِبَرة حمراء، وأن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه ـ أي لحيته ـ ليكاد يمسّ واسطة الرحل. وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند البيهقي قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وذقنه على رحله متخشّعاً. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند البيهقي أيضاً عن شيخه أبي عبدالله الحاكم قال: إن رجلاً كلّم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال له ﷺ: «هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

وكان من أعظم مواقف الشكر لله تعالى في هذا المقام الحافل بالنعم،

أعظم مواقف الشكر في الفتح كان العفو الغامر عند المقدرة.

ونفحات العطايا الربانية موقفه ﷺ في الامتنان بإطلاق بقايا سيوف المسلمين من مشركي قريش الذين استبقاهم الهرب فرّاراً منهزمين أمام كتائب المجاهدين في سوابق الغزوات، بعد أن صاروا أسارى في يده ﷺ، وأيدي أصحابه، وهم يظنّون كل الظن أنهم سيؤخذون بذنوبهم وجرائرهم، وقد نشف الدم في عروقهم، وتيبست أعصابهم، واصفرّت جلودهم من شدّة ما كانوا فيه من الخوف الهالع، والرعب المفزع خشية أن يقضي فيهم رسول الله ﷺ بما يستحقونه قضاء يقضي عليهم، أو يسمهم بميسم الذلّ الأبدي والهوان السرمدي، فيجعلهم عبيداً وخولاً، يتقاسمهم جند الجهاد الفاتحين، لكنه ﷺ رحمهم ورقّ لهم، ووقف منهم جميعاً إلا ما استثني موقف الشكر لله لتزلّفهم، وهو ﷺ يقول لهم: «ماذا تظنّون أني فاعل بكم؟» قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال ﷺ: «إني أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فخرجوا من المسجد سراعاً، وكأنهم أشباح فارقتها أرواحها إلى بيوتهم أو كأنما نشروا من القبور.

هذا موقف من مواقف العفو الكريم والصفح الجميل لم يعرفه التاريخ، ولا عرف مثله في النبل والإحسان ومكارم الأخلاق، وقفه رسول الله ﷺ مع من أساؤوا إليه، وكذّبوه وسخروا منه، وآذوه بالقول والفعل حتى أخرجوه من بلده المحرم الآمن مهاجراً في سبيل أداء رسالته ونشر هداها، وآذوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعشائرهم.

أبو سفيان يقوده الشيطان ثم يتخلى عنه.

وإذا انضم إلى هذا الموقف النبيل الأكرم مواقفه ﷺ من أفراد دانت لهم قريش بزعامتها، وكان الشيطان قد اتخذهم مطايا لخبائثه وجرائره، فهمّ بعضهم بقاصمة القواصم، مثل أبي سفيان بن حرب الذي آمن ثم كفر، ثم آمن، ثم ازداد كفراً إذ يوحي إليه الشيطان وهو آخذ بمقوده أكثر من مرة بعد أن آمن، وأمِن وأمِن معه ولأجله قومه، أن يجمع لمقاتلة رسول الله ﷺ، ويأتي الخبر بما حدّث به نفسه من نقض الأمان، فيخبره النبي ﷺ بما حدّث به نفسه، وقال له: «إذاً يخزيك الله» فيعفو عنه رسول الله ﷺ، ويتركه، فلا يؤاخذه شكراً لله تعالى.

وروى ابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن رسول الله ﷺ خرج من الكعبة وأبو سفيان بن حرب جالس في المسجد، فقال أبو سفيان في نفسه: ما أدري بم يغلبنا محمد؟ فأتاه ﷺ فضرب صدره، وقال: «بالله نغلبك» فقال أبو سفيان: أشهد أنك رسول الله. وروى الحاكم وتلميذه البيهقي عن ابن عباس، وابن سعد عن أبي إسحاق السبيعي، قالوا: رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون على عقبه، فقال: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ وجمعت له جمعاً، فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب في صدره، فقال: «إذاً يخزيك الله» فقال أبو سفيان: أتوب إلى الله، وأستغفره، ما أيقنت أنك نبي إلا الساعة، إني كنت لأحدث نفسي بذلك.

قصة فضالة بن الملوح وهمّه برسول الله ليغدر به وفضح الله له.

وذكر ابن هشام والقسطلاني في مواهبه وابن كثير في بدايته وابن عبد البر في دُرَرِه أن فضالة بن عمير بن الملوِّح همّ بقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال له النبي ﷺ: «ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك ﷺ ثم قال له: «استغفر الله مما حدَّثت به نفسك» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه.

وقصة صفوان بن أمية بن خلف، وعكرمة بن أبي جهل معروفة، وهربهما خوفاً على نفسيهما منه ﷺ لما اقترفاه، ولا سيما يوم الفتح إذْ وشّبوا أوشاباً من قريش وأتباعهم، وقاتلوا جنود الفتح فقتل منهم خالد بن الوليد مقتلة عظيمة، ومع ذلك فقد أرسل إليهما رسول الله ﷺ مؤمّناً لهما، فجاءا فأسلم عكرمة مكانه، واستأجل صفوان إسلامه شهرين، فأعطاه ﷺ أربعة أشهر.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها من طريق عروة عند ابن إسحاق قالت: خرج صفوان بن أمية يريد جُدَّة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير ابن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيِّد قومه، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر، فأمّنه يا رسول الله صلى الله عليك، فقال ﷺ: «هو آمن» فقال عمير: يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه ﷺ عمامته

التي دخل بها مكة، فخرج عمير بها حتى أدركه وهو يريد أن يركب في البحر، فقال عمير: يا صفوان فداك أبي وأمي، الله، الله في نفسك أن تهلكها، هذا أمان من رسول الله ﷺ، وقد جئتك به، قال صفوان: ويلك اغرب عني فلا تكلمني، قال عمير: فداك أبي وأمي، هو أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزّه عزّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال صفوان: إني أخافه على نفسي، قال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع صفوان مع عمير حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمنتني، قال ﷺ: «صدق» قال صفوان: فاجعلني بالخيار فيه شهرين، فقال ﷺ: «أنت بالخيار أربعة أشهر».

قصة عتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأبي سفيان وقد سمعوا بلالاً يؤذن فقالوا وكشف الله سترهم.

وقصة أبي سفيان، وعتّاب بن أسِيد، وأخيه خالد بن أسيد، والحارث ابن هشام، وهم جلوس بفناء الكعبة إذ حانت صلاة الظهر، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن فوق الكعبة، فقال عتاب وخالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يسمع هذا فيغيظه، وقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، إن يكن الله يكره هذا فسيغيِّره، وقال أبو سفيان: لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «قد علمت الذي قلتم» وأخبرهم بقول كل واحد منهم، فأسلم الحارث وعتاب، وقالا: نشهد أنك رسول الله، ما اطلّع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك، وقبل ﷺ إسلام من أسلم ولم يؤاخذ من تأخر بإسلامه.

وهكذا كان رسول الله ﷺ في قمة الشكر، عفوّاً كريماً، صفوحاً محسناً، حكيماً، صبوراً، رؤوفاً، رحيماً، جامعا لمكارم الأخلاق وأحسن محاسن الشيم كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

قصة ضنّ الأنصار
برسول الله صلى الله عليه وسلم
أن لا يفارقهم إلى غيرهم

ذكر ابن هشام عن مرسل يحيى بن سعيد أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، وظهرت عليه مظاهر الأنس بمشاعرها ومتعبداتها، أنس المشوق إلى حبيب غاب عنه، ثم عاد إليه، تخوّف الأنصار أن يكون هذا الأنس بمواقف العبودية في مشاعرها رغبة عند رسول الله ﷺ في إقامته بمكة، بلده، وأنس قلبه وفيها عشيرته وقومه الأدْنَون، فقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟.

وإنما قال الأنصار ذلك حباً في رسول الله ﷺ، وضنّاً به أن تكون إقامته بينهم سرمدية لا يفارقهم، ولا يفارقونه، تعلقاً به ﷺ، وحرصاً عليه أن يظل موضع اختصاصهم به في الإقامة بينهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

وقد حفزهم على هذا الظن ما رأوه منه ﷺ من مزيد الأنس بالمشاعر والشوق إلى مطالعة أسرار العبودية في مجاليها، بكثرة ذكر الله تعالى والدعاء المتضرع في ظل نسمات جودها، استنزالاً لرحمات الله في معالمها، وكان ﷺ حين قال الأنصار ذلك قد علا من الصفا حتى يرى البيت، فرفع يديه، وجعل يحمد الله ويذكره ويدعو بما شاء الله أن يدعو، متضرِّعاً متخشِّعاً، والأنصار تحته في سفح الصفا.

فلما فرغ ﷺ من دعائه أخبره الوحي بما قالوا رأفة بهم ليمسح عن أفئدتهم ما مسّها من شعور الألم والحزن على مفارقة رسول الله ﷺ، وحظوة غيرهم بقربه، وعيشه بينهم، فالتفت إليهم ﷺ، وقال لهم: «ماذا قلتم؟»

قالوا ـ استحياء من مواجهته ﷺ بما هجس في خواطرهم حياله، وحرصاً على وجوده بينهم ـ: لا شيء، فلم يزل يتلطف بهم حتى أخبروه بما قالوا، فقال ﷺ ليطمئن أفئدتهم الوالهة، ويثلج صدورهم بإخباره أنه باقٍ لهم، وسيعيش بينهم: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

رواية لا يتفتح لها القلب إلا بنوع من التأويل والاعتذار.

قال الزرقاني: وهذا المرسل صحّ بأتم منه في مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ لما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلي منه حتى يرى البيت، فرفع يديه وجعل يحمد الله تعالى ويذكره، ويدعو بما شاء الله أن يدعو، والأنصار تحته، فقال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إليه، فلما قُضي الوحي قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله، قال صلوات الله عليه: «قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال ﷺ: «فما اسمي إذاً؟ كلا، إني عبدالله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله وبرسوله، فقال لهم ﷺ: «فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدّقانكم».

بحث وتحقيق حول هذه الرواية التي صحح العلماء سندها.

وقول هذه الرواية التي صحّحها الزرقاني، وهي كما قال من رواية مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده، وغيرهما من الرواة عن الأنصار أنهم قالوا: أما الرجل ـ يعنون سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمداً ﷺ ـ فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته ـ أسلوب لا يستقيم مع ما عرف عن الأنصار من رفيع الأدب النفسي، والأدب التعبيري، خاصة مع رسول الله ﷺ في وصفه، والتحدث إليه ومخاطبته.

ولهذا قال لهم صلوات الله عليه بعد أن أخبرهم بأنهم قالوا هذا القول، واعترفوا ـ كما تقول الرواية ـ وقالوا، قلنا يا رسول الله: «فما اسمي إذاً؟ كلا، إني عبد الله ورسوله» وهذا استفهام إنكاري مؤيد بحرف الزجر

(كلا) يُقصد به أن قولهم عن رسول الله (أما الرجل) لا يوائم ما عرف عنهم من شدّة حبِّهم له ﷺ، وتوقيره وتعظيمه أخذاً بما أدّب الله به المؤمنين من رفيع الأدب في التحدُّث عن رسول الله ﷺ، والأنصار خير المؤمنين بعد السابقين من المهاجرين.

وذكر هذا الاستفهام، واتباعه بحرف الزجر (كلّا) دون ذكر جواب عنه يحتمل أن يكون بعضهم أجاب عن الاستفهام، فذكر اسم رسول الله ﷺ الذي كان ينادى به قبل بعثته (محمد بن عبدالله) فرد بقوله: (كلّا) ومعناه الزجر أن يكون هذا هو اسمه بعـد رسالته في كل ما يُتحدّث به عنه مما يدخل في إطار رسالته، وإنما اسمه الذي يجب أن يُتَحدَّث به عنه في مقام رسالته: أنه عبد الله ورسوله.

ثم أخبرهم عن خصيصة اسمه بعد الرسالة بأنه هو الذي جمعه ﷺ بهم، ولأجله هاجر إلى الله وإليهم، تاركاً أرضه إلى أرضهم وبلده إلى بلدهم، وعشيرته إلى الحياة بينهم، فآووْه ونصروه على من كذّبه وأخرجه من بلده، وحاربه، ووقف أمام رسالته معوّقاً مسيرتها إلى الآفاق، فحاربوا أعداءه وأعداء رسالته، وكانوا جيش الفتح الأعظم بعد أن كانوا كتائب النصر المؤزر.

ويحتمل أسلوب الكلام أنهم سكتوا، فلم يجيبوا عن استفهـامه ﷺ استحياء منه لما رأوا من إنكاره عليهم أن يقولوا عنه: (أما الرجل)، ويرشّح ذلك أنه ﷺ أتبع استفهامه بحرف الـزجر فيكـون الإنكار المفهـوم من الاستفهام منصباً على قولهم: (أما الرجل)، أي لا ينبغي لكم في شرعة رفيع الأدب التحدّث عن نبيِّكم ورسولكم أن تقولوا عنه: (أما الرجل) وهو اسم يعم على الأولين والآخرين من الناس.

ولهذا قال صلوات الله عليه معلّماً ومؤدباً: «كلا، إني عبدالله ورسوله» ثم بيّن لهم أن هذا الاسم الخاص بالرسالة هو الذي هاجر به إلى الله وإليهم، فهو العروة الإيمانية الوثقى بيني وبينكم خاصّة وبيني وبين المؤمنين عامة، ثم رحمهم بعد هذا الدرس التربوي، فأقر أعينهم بأنه لن يفارقهم،

فمحياه محياهم، ومماته مماتهم، وأرضهم أرضه، وبلدهم بلده، وهي مثواه الأبدي، يحيا فيه معهم، وإذا فارقهم إلى الرفيق الأعلى، فحياته البرزخية فيها حتى يبعث الله العالمين للجزاء.

وفي هذا الإخبار من البشرى لهم ما أثلج صدورهم، واقتلع جذور الظنون والأوهام من أفئدتهم، وملأها بالسكينة وبرد اليقين، وهذا التأويل أقرب مناسبة لمعاني الروايات.

رأي الزرقاني في الجمع بين الروايتين وبيان وجه هذا الرأي.

وقد أشار الزرقاني إلى ما يمكن الجمع به بين الروايتين، ولكنه لم يأثره، وإنما ذكره احتمالاً فقال: وكأن ذلك وقع لطائفتين، فبادر النبي ﷺ بإخبار إحداهما، فقال لهم: «قلتم» لجزمها بالقول، وتلطّف بالأخرى لكونها لم تجزم، فقالت أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه مكة بلده يقيم بها أم يرجع إلينا.

ومعنى كلام الزرقاني أن الأنصار رضي الله عنهم لمّا رأوا مظاهر الأنس ووله الشوق تغمر مشاعر رسول الله ﷺ، ورأوا إشراق الغبطة وبارقات السرور بفضل الله عليه وعلى جميع أمته تبرق أساريره داخلهم الظن، وحرصاً على رسول الله ﷺ، وضنّاً به أن يشركهم غيرهم فيما خُصُّوا به من إقامته بينهم - أفضى بعضهم إلى بعض بما دار في أخلادهم، وكان المتحدّثون منهم طائفتين، فطائفة قال بعضها لبعض: أما الرجل فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

ولعل هذه الطائفة ممن جمح بها الحرص على بقاء رسول الله ﷺ بينهم، والضن به أن يفارقهم إلى غيرهم، فتفوّهوا بهذه الكلمة (أما الرجل) في ضمن ما قالوه، ولم يكونوا من ذوي القِدْمة في الإسلام، الراسخين في ضبط ألسنتهم المعبِّرة عمّا في أنفسهم من الحرص على رسول الله ﷺ والحب والشح به أن يشاركهم فيه غيرهم.

ولهذا كان خطابه صلوات الله عليه مع هذه الطائفة جازماً حاسماً، فقال لهم: قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في بلده، ورأفة على عشيرته، فقالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، فأخذ ﷺ يذكّرهم بما كان ينبغي عليهم من

وزن الكلمات المعبِّرة عن خوالجهم لأنهم أسوة يتأسّى بهم غيرهم، فقال لهم: «فما اسمي إذاً، كلا، إني عبد الله ورسوله» فأقبلوا إليه يبكون، يقولون معتذرين عما انزلقت به ألسنتهم: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله ورسوله، فقال صلوات الله عليه: «إن الله تعالى ورسوله يعذرانكم ويصدّقانكم».

أما الطائفة الثانية الذين قالوا ظناً: أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم أم يرجع إلينا؟ فهؤلاء كانوا من الراسخين الذين استلجموا ألسنتهم بحكمات اليقين، واعتصموا برفيع الأدب في التحدّث عن رسول الله ﷺ، فأبرزوا ما دار في دخائل أفئدتهم المفعمة بحب رسول الله ﷺ الضنينة به أن يفارقهم إلى غيرهم.

أولاً ـ بأسلوب الاستفهام، كأن كل واحد منهم يقول لأصحابه: هل عندكم من علم بما عند رسول الله ﷺ من عزيمة، هل يقيم ببلده بين قومه وعشيرته بعد أن فتح الله عليه مكة، أو يرجع إلينا؟.

ولا شك أن هذه الظنون تثيرها لهفة الحب، ولكنهم لم يجزموا، لأنه لم تبدُ لهم بادرة قولية أو فعلية تدلُّ على ما عزم عليه رسول الله ﷺ.

وثانياً ـ أنهم أبرزوا دخائل أنفسهم بأسلوب الظن ولم يجزموا بشيء، في أسلوب من الأدب الرفيع الذي أُدّب به المؤمنون، فقالوا: أترون أن رسول الله ﷺ إذْ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟.

ولهذا تلطّف ﷺ مع هؤلاء، فلم يقل لهم كما قال للطائفة الأولى: «قلتم أما الرجل» وهذا لحسن تصرفهم وجمال تعبيرهم عن خوالجهم، فقال لهم: «ماذا قلتم؟» فلم يخبرهم بما قالوا بأسلوب الجزم، وهو قد أُعلم عن طريق الوحي بما قالوا.

وفي استفهامه ﷺ منهم عما قالوا وهو به عليم زيادة في التلطُّف بهم ليكون في ذلك درس تربوي، ولا سيما للذين قالوا: أما الرجل ليعلّمهم عن طريق أخوتهم أدب التعبير في التحدّث عنه ﷺ.

ولهذا نفى الراسخون في ردِّهم على رسول الله ﷺ إذ قال لهم (ماذا قلتم)، فقالوا: لا شيء، أي لم نقل شيئاً جزمنا به واعتقدناه في قلوبنا، ولكنّا ظننا ظنّاً عبّرنا عنه بما علمته يا رسول الله، رجاء أن يرحمنا الله ببقائك معنا حتى لا نرجع إلى ديارنا إلا ورسول الله ﷺ إمامنا وقائدنا محاطاً بحبِّنا وتعظيمنا لمقامه المنيف، وتطمئن قلوبنا ونعلم أنا صدقنا ما عاهدنا الله عليه من الحب لله ولرسوله ﷺ.

التوسع في تحليل كلام الزرقاني نقله إلى حل الإشكال في التعبير بقول من قال (أمّا الرجل).

ونحن نشعر أنّا توسّعنا قليلاً في بيان معنى كلام الزرقاني لندفع به إشكال الاختلاف بين الطائفتين اللتين فرض الزرقاني أن الكلام كان منهما، واختلف لاختلافه ردُّ رسول الله ﷺ عليهما، مع التماس العذر للذين جمحت بهم العبارة، فقالوا: (أما الرجل) مدفوعين بحماسة الحب لرسول الله ﷺ والضنِّ به أن يرجعوا إلى دارهم وليس فيهم صلوات الله عليه.

وإن كان الزرقاني ذكر هذا الكلام ليدفع به إشكال اختلاف الروايتين في كلام الطائفتين وردّ رسول الله ﷺ عليهما على مقتضى ما جاء فيهما، فرواية قالت: إن النبي ﷺ قال لهم: «قلتم أما الرجل» مخبراً لهم بما قالوا بأسلوب الجزم فأقروا بما قالوا واعتذروا، وجاؤوه يبكون، فعذرهم وصدّقهم، والتزموا ما ألزمهم الله من الأدب الرفيع تعظيماً له ﷺ.

ورواية قالت إنه ﷺ سألهم: «ماذا قلتم؟» فاستحيوا منه ﷺ أن يصارحوه بما قالوا، فلم يزل يتلطّف بهم حتى اعترفوا بما قالوا.

فأراد الزرقاني أن يجمع بين هذين الاختلافين في كلام الأنصار، وأن يوفِّق بين كلام رسول الله ﷺ في ردِّه عليهم حسبما جاء في الروايتين، فذكر ما ظهر له من احتمال أن الكلام والردّ عليه وقع من الطائفتين على نهج ما ذكرناه.

وقد رأينا أن ما ذكره الزرقاني احتمالاً هو الأقرب للجمع بين الاختلافين، وهو أسلم من ردِّ الروايات عند الاختلاف، وأنه كلام حسن، لأنه إذْ يدفع اختلاف الروايتين يدفع أيضاً ما جاء في إحداهما من إشكال في التعبير يجافي الواجب في ملاحظة رفيع الأدب عند التحدث عن رسول

الله ﷺ، ويخرجه أن يكون صَدَر من الأنصار كلهم، وذلك في قول إحدى الطائفتين، بعضهم لبعض: (أما الرجل فأدركته رغبة في بلده) فسيّرناه إلى هذا الإشكال لندفعه به، وهذا من قبيل التوسع في معنى الكلام ومدّه إلى أن يزيل إشكال الروايات في طرف آخر غير طرفه الذي سبق له، ولعل هذا الحديث دخله ما يدخل رواية الحديث بالمعنى من قصور في التعبير، والعلم عند الله.

مظاهر فرحة المؤمنين بدخول مكة
يوم الفتح الأعظم

مقابلة الإحسان إلى أهل مكة بأسوأ الغدر من الموتورين فأخزاهم الله.

دخلت كتائب المجاهدين مكة يوم الفتح الأعظم، يقدمهم قادتهم، وحاملو ألويتهم وراياتهم من حيث أمرهم رسول الله ﷺ، وركزت راية رسول الله التي كان يحملها الزبير بن العوام بالحَجُون بأمره حيث نزل رسول الله ﷺ في قبة ضربت له، وأبى لحكمة سياسية أن ينزل في منزله الذي كان له قبل أن يهاجر لأن عقيل بن أبي طالب باعه فيما باع، كما أبى ﷺ أن ينزل في بيت أحد، وقال: «لا أنزل في البيوت» ثم انتقل إلى خيف بني كنانة، حيث تقاسم سدنة الكفر وأحلاس الوثنية على أظلم حلف تحالفوه ضد بني هاشم والمطّلب.

وقد حاول بعض بقايا الموتورين من قريش أن يقاتلوا كتائب الجهاد وهم داخلون حيث يفاجؤنهم في طرقات مكة التي تجمع فيها أوشابهم ومن تبعهم من القبائل، وقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنّا معهم، وإن لم يكن لهم شيء أجبنا محمداً ـ إلى ما يطلبه منّا، وكان أول من قاتلوه من الكتائب كتيبة بني سُلَيم، وقائدها خالد بن الوليد، فكفّ عنهم يده استجابة لأمر رسول الله ﷺ أن لا يقاتل قوّاد الكتائب إلا إذا قوتلوا ليكونوا مدافعين، ولكن الموتورين من زعماء قريش طمعوا في غير مطمع، فقاتلوا خالداً وقتلوا من رجاله رجلاً، فقاتلهم خالد، وضربهم ضربة حاسمة، بدّدت جمعهم وشتّتت شملهم وفرقت جموعهم.

ولما فرغت كتائب الجهاد من هذه المناوشات التي لم تكن تغني عن

قريش شيئاً راجعوا أنفسهم، وطلبوا تجديد الأمان، فجدّده لهم رسول الله ﷺ، وأسرعوا إلى بيوتهم يغلقون أبوابها عليهم، وطرحوا أسلحتهم في الطرقات فأخذها المجاهدون.

وكان المجاهدون يوم دخولهم مكة مُجْهَدين متعبين من طول ما قطعوا من الأرض مسافرين صائمين قبل أن يرخص لهم في الفطر، يحملون أثقالهم الحربية، فكانوا في أشد الحاجة إلى الراحة، فاتخذوا من يوم دخولهم مكة فاتحين يوم فرحة وراحة، فانطلقوا بعد أن قضوا على ما صادفهم من المناوشات في طرقات مكة ومشاعرها ومعالمها، يهلّلون ويكبّرون ويحمدون الله على عظيم فضله ويسبّحونه شاكرين إنعامه على رسول الله ﷺ، وعلى أمته، يهنىء بعضهم بعضاً، ويكثرون من الطواف بالبيت المشرف، تعبّداً لله تعالى، وشوقاً إلى هذه المعالم التعبدية والمشاعر الإيمانية التي فارقوها ملجئين.

مظاهر فرحة المسلمين يوم دخولهم مكة فاتحين.

روى البيهقي عن سعيد بن المسيّب قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة، ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا.

وكأنهم رضي الله عنهم جعلوا يوم دخولهم البلد الحرام لراحتهم وفرحتهم، فوسّع لهم النبي ﷺ، وكان معهم سمحاً كريماً، مقدّراً لما عانوه في سفرهم الطويل الشاق المضني، وهم صائمون في بعض أيام سيرهم، يحملون على كواهلهم ومراكبهم أثقال أهبتهم، وعدة الحرب لمن حاربهم، وأداة قتال من قاتلهم، فتركهم حتى يأخذوا شيئاً من راحة أبدانهم.

فلما أصبحوا من الغد رآهم ﷺ قد استجمُّوا وأخذوا من الراحة قسطاً أعاد إليهم أنفاسهم هادئة ونفوسهم مطمئنة، وكان ﷺ قد قضى يومه وليلته في تطهير البيت من أرجاس الوثنية، فلم يزل بالأصنام تكسيراً حتى قضى عليها، ثم دخل البيت فمكث فيه نهاراً طويلاً، وتجمّع أصحابه ينتظرون خروجه فخرج إليهم، وكان قد انضم إليهم من ضَوَى لجمعهم ممّن آمن من قريش، بعد أن اطمأنوا إلى تجديد أمان رسول الله ﷺ إثر صرخة فزع من أبي سفيان بن حرب، وهو يرى موقف خالد بن الوليد من أوباش قريش: لقد أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم.

ووقف ﷺ على درج البيت خطيباً في الناس، فخطبهم خطبة شاملة جامعة لكثير من الأحكام التشريعية، والحكم الاجتماعية، والآداب الخلقية، والمواعظ التربوية، فقال ﷺ:

خطبـة
رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم الفتح الأعظم

بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، أيها الناس إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا تحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجراً، فإن أحد ترخّص فيها بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ﷺ، ولم يأذن لكم، وإنما أُحلّت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها الآن كحرمتها بالأمس، فليبلّغ الشاهد الغائب».

ثم التفت ﷺ إلى جموع قريش فقال لهم: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال ﷺ: «فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

موقف شجاع من مواقف أبطال الصحابة رضي الله عنهم.

وقد خرّج البخاري حديث الخطبة العظيمة عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه ـ واسمه خويلد بن عمرو، وقيل غير ذلك ـ في موقف من مواقف الجهر بكلمة الحق بين أيدي الظلمة السفّاكين، قال البخاري رحمه الله: حدثنا سعيد بن شرحبيل، حدثنا الليث عن المقبري، عن أبي شريح الخزاعي أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة ـ أي لقتال عبدالله بن الزبير رضي الله عنه ـ: ائذن لي أيها الأمير، أحدثك قولاً، قام به رسول الله ﷺ الغد من فتح مكة، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته

عيناي حين تكلم به، أنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرّمها الله، ولم يحرّمها الناس، لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد شجراً، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله تعـالى أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلّغ الشاهد الغائب». قال عمرو بن سعيد لأبي شريح رضي الله عنه: انصرف أيها الشيخ، فنحن أعلم بحرمتها منك، إنها لا تمنع سافك دم، ولا مانع طاعة، ولا مانع جزية، فقال أبو شريح رضي الله عنه: إني كنت شاهداً وكنت غائباً، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبنا وقد بلّغتك، فأنت وشأنك.

بهذه المواقف في الجهر بكلمة الحق يصك أهل رسوخ الإيمان بها مسامع الظلمة من ذوي الطغيان ارتفع بناء الإسلام

وموقف أبي شريح رضي الله عنه هذا من مواقف رسوخ الإيمان، وصلابة اليقين الذي يشهد فيه أصفياء الإيمان مجريات القدر في كتب غيب الله، ويرون فيه بنور بصائرهم وإشراق أرواحهم أن ليس أحد من الخلق بمغنٍ عن أحد من الله شيئاً، وهو موقف من مواقف الجهاد في محاربة الباطل، ونصرة الحق، والجهر بكلمة الحق بين أيدي الظالمين، يصكّون بها أسماعهم على سمع جلاوزتهم وهم مصلتو سيوفهم انتظاراً لخائنة الأعين من الطغاة الفجرة، لإخلاء أعنـاق ناصـري الحق، الصارخـين بكلمته من رؤوسهم.

فما أحوج الإسلام والمسلمين في هذه الأيام إلى أمثال أبي شريح رضي الله عنه صراحة في أدب وحكمة، فهو رضي الله عنه لم يهجم هجوم الحمقى، ولكنه تلطّف بعمرو بن سعيد الأشدق ـ لطيم الشيطان، وأحد جبابرة دولة المروانيين، ومسعّري نيران الفتن الجائحة المدمِّرة في صدر الإسلام ـ فاستأذنه أن يبلغه قولاً، سمعه من النبي ﷺ سماعاً مؤكداً، لا يمتري في كلمة منه، وأبلغه أن النبي أمر الشاهدين لأمره من أصحابه أن يبلّغوا الغائبين ما سمعوه جيلاً بعد جيل.

ولما لجّ عمرو بن سعيد في عناد الضلال، وطغيان الفجور، وادّعى أنه أعلم من أبي شريح بما حدّثه به عن رسول الله ﷺ لم يسكت أبو شريح

رضي الله عنه على هذا الضلال الجهول، بل قال لعمرو بن سعيد: وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلِّغ شاهدنا غائبنا، ثم تابع أبو شريح رضي الله عنه كلامه بلون من الوعيد المبطَّن بالنصح، فقال لعمرو بن سعيد: وكنتُ شاهداً وكنت غائباً، وقد بلّغتُك فأنت وشأنك.

نص آخر لخطبة النبي ﷺ يوم الفتح.

وقد أخرج البخاري أيضاً حديث خطبة الفتح من مرسل مجاهد فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لا تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحلُلْ إلاّ ساعة من الدهر، لا ينفّر صيدها، ولا يُعْضَد شوكها، ولا يُختلى خلاؤها، لا تحلُّ لقطتها إلا لمنشد» فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لا بد منه للدفن والبيوت، فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «إلا الإذخر، فإنه حلال».

غلط ابن إسحاق في تسمية من كان معه موقف أبي شريح.

وفي هذه الرواية اختصار من جانب وزيادات من جانب آخر، وقد ذكر ابن إسحاق حديث أبي شريح في خطبة الفتح،وغلط ابن إسحاق في تسمية من بلّغه أبو شريح حديث الخطبة عن النبي ﷺ، فسماه عمروابن الزبير، فقال: وحدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعي، قال: لما قدم عمرو بن الزبير مكة لقتال أخيه عبدالله بن الزبير جئته، فقلت له: يا هذا، إنا كنّا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، فلما كان الغد من يوم الفتح عَدَت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال: «أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام الله إلى يوم القيامة؛ فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد بها شجراً، لم تحلّ لأحد كان قبلي، ولا تحلّ لأحد يكون بعدي، ولم تحل إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ألا ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يحلّها لكم».

ومع ما في سياق ابن إسحاق من المخالفة لسياق غيره في نص ما ذكروه

من الخطبة فقد وَهَم ابن إسحاق فجعل عمرو بن سعيد بن العاصي الأشدق ـ وكان يسمى لطيم الشيطان، وكان كما يقول السهيلي جبّاراً شديد البأس ـ عمرو بن الزبير، وقد خالف ابن إسحق جميع من ساقوا حديث أبي شريح في هذا الوهم.

وقد ساق ابن إسحق خطبة الفتح في موضع آخر بسند آخر وفيما ساقه زيادات مفيدة اتفق في بعضها مع غيره من رواة الحديث والمغازي؛ ونحن نسوق هذا النص لما فيه من هذه الزيادات لما فيها من الفائدة.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيدالله ابن عبدالله بن أبي ثور، عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجنه في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفَّ له الناس في المسجد، وزاد موسى بن عقبة أنه ﷺ انصرف إلى زمزم فاطّلع فيها، ودعا بماء فشرب منه وتوضأ، والناس يبتدرون وضوءه، والمشركون يتعجّبون من ذلك، ويقولون: ما رأينا ملكاً قط، ولا سمعنا به مثل هذا، وأخّر رسول الله ﷺ المقام إلى مقامه اليوم، وكان مُلْصقاً بالبيت.

نص لخطبة الفتح أوفى وأبسط يسوقه ابن إسحاق.

ثم ساق ابن إسحاق نصاً من نصوص الخطبة، فقال: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ وقف على باب الكعبة فقال:

«لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو موضوع تحت قدميّ هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلّظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها».

«يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة، وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿يا أيها

الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم»، قال ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده ﷺ، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلّى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان ابن طلحة» فدُعي له، فقال ﷺ: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء».

* * *

مجمل إطار البحث في غزوة الفتح.

في هذا الإطار أجرينا الحديث في ذكر معالم هذه الغزوة المباركة، غزوة الفتح الأعظم، فتح مكة، بلد الله المحرّم، وبلد رسوله ﷺ الذي اختاره الله مهداً لمولده، ومرتعاً لنشأته، ومتقلّباً لشبابه، ومراحاً ومغدىً لرجوليته، ومهبطاً لرسالته، ومتنزلاً لبعثته، وغرس في قلبه حبه لها، فقال فيها وهو واقف في الحزوَّرة: «أما إنك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت».

وقد بينّا أن النبي ﷺ أعد لفتحها جيشاً عرمرماً كثيفاً، كامل الأهبة وافي العدة بالسلاح والكُراع والمؤن، وأدوات الحرب والقتال، بَيْدَ أنه ﷺ كان يتفادى القتال فيها وفي المسير إليها، ويتخذ من الرحمة بأهلها دروعاً تقيهم بأس الغزاة، فتلطّف بهم غاية التلطّف أفراداً وجماعات، وأدناهم من نفسه، وقابل من أساء وطغى وبغى منهم بأعظم الإحسان، وعفا عمّا سلف منهم ومن آبائهم، ولكن أحقاد الجاهلية البرصاء كانت لا تزال تملأ قلوب الموتورين الذين وبّشوا الأوباش وجمعوا الأتباع لقتال كتائب الفتح والجهاد وهي تدخل مكة آمنة مطمئنة، فأراهم الله فيما بيتوه من الغدر وخيانة الأمان الخزي والخذلان.

حملة تأديبية للغادرين ناقضي عهد الأمان.

وكان رسول الله ﷺ قد أمر قوّاد كتائبه أن لا يقاتلوا إلاّ من بدأهم بالقتال، وأن يكفُّوا أيديهم ما استطاعوا، ولكن ذلك الإحسان أطمع الموتورين من زعماء قريش، فبدأوا بقتال كتيبة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقتلوا منها من قتلوا غدراً وخيانة وكلباً وضراوة، فقاتلهم خالد ابن الوليد ليدفع عن نفسه وجنوده، فقتل منهم مقتلة عظيمة.

ولما رأى رسول الله ﷺ جموع الأوباش الذين وبّشهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أمر قواد كتائب الأنصار أن يحصدوا هؤلاء الأوباش حصداً، تأديباً لهم ولزعمائهم الذين جمّعوهم ليريهم عواقب الغدر ونقض عهود الأمان التي كان ﷺ قد منحهم إياها على يد زعيمهم أبي سفيان بن حرب، ورفيقه حكيم بن حزام اللذين لم يكونا مع المحرِّضين على القتال.

ومضت حملة التأديب لتأخذ على الـذين سعّروا ويسعِّرون نيران الفتن طريقهم حتى استسلمت قريش بعد أن صرخ فيهم أبو سفيان وحكيم: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، وأسرعت أوباش قريش ومن كان يحرضهم على القتال إلى البيوت يدخلونها، ويغلقون أبوابها عليهم، والرعب يملأ قلوبهم والفزع يلعب بأفئدتهم، ويهز كيانهم هزاً عنيفاً لا يتركهم يستقرون على شيء.

عفو رسول الله ﷺ عن الغادرين جعل منهم قادة لكتائب الفتح الإسلامي.

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم يجدوا ملجأ يتنفّسون فيه أنفاس الراحة إلا أن يلقُوا بأيديهم مستسلمين في ضراعة إلى التوبة والندم بين يدي رسول الله ﷺ، فرقّ لهم ﷺ، وقبل منهم ضراعتهم، فأسلموا طائعين ومكرهين، فقبل إسلامهم، ولم يبحث عمّا في قلوبهم، بل عفا عنهم مستألفاً قلوبهم، حتى صلح حالهم أو حال أكثرهم بما بوّأهم الله تعالى من ساحة الإيمان، وأحسن الله إليهم بفضله، فكانوا بعد ذلك قادة ذادة، وسادة رادة، وحملوا ألوية الفتح والجهاد، وحمل من بعدهم أبناؤهم وأحفادهم رايات الهداية الإسلامية، وأدربوا بها في آفاق الأرض براً وبحراً يدعون إلى الله، ليحرروا الناس من ذلّ عبوديتهم للمخلوقين إلى عزّ عبوديتهم للخالق

عزّ شأنه، وأخرجوا الحياة بمن فيها وما فيها من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والرحمة.

والمتأمل فيما كتبنا في إطار مراحل هذه الغزوة المباركة، غزوة الفتح الأعظم يدرك منحانا فيما أردنا من سوق بعض أحداثها، وأسبابها وآثارها، وأنها كانت غزوة بر ورحمة ورأفة، ووفاء وعفو وصفح، وأنها كانت نسجاً لخيوط وحدة إيمانية أوسع وأعظم من الوحدة الإيمانية التي بدأت بمكة قبل الهجرة في دار الأرقم، ومن الوحدة التكافلية الاجتماعية التي عقدت عرواتها في المسجد النبوي، وهو يؤسس على الأخوة والتقوى، وفي دار أنس ابن مالك بالمدينة المنوّرة، لأن وحدة الفتح بمكة كانت وحدة انطلاق بالهداية ونشر رسالة الإسلام في أوسع مدىً من البلاد والأمم والشعوب، أما الوحدة الإيمانية قبل الهجرة، والوحدة التكافلية بعد الهجرة فهي وإن كانت أمتن نسجاً، وأفضل سرداً وأشرف منبعاً لكنها كانت أضيق حدوداً وأصلب عوداً، وأقوم سبيلاً، بل كانت عماد قوة المجتمع المسلم أفراداً وجماعات الروحية، وكانت أساس حضارته الإيمانية التي حملها روّاد الوحدة المكية بعد الفتح الأعظم، وبقوتها الروحية انتشرت الرسالة الإسلامية بمناهجها الأصيلة.

أسباب ما نالت غزوة الفتح الأعظم من عظيم المنزلة بين جميع الغزوات.

وإنما كان لفتح مكة هذه المنزلة العليا، والمكانة الفضلى، والشهرة الداوية في أسماع التاريخ بين الغزوات التي سبقتها في قتال المشركين وقتال الوثنيين حتى سمّاها ابن القيم (الفتح الأعظم) لما اشتملت عليه من أمور دينية واجتماعية، وآداب تربوية نذكر منها ما قبسه الخاطر من نور مصابيحها:

أولاً - إن فتح مكة كان مفتاح الفتوحات الإسلامية التي تعاقبت بعده، فكان هذا الفتح جديراً أن يكون بمنزلته العُظْمى التي عرفها له التاريخ عامة وتاريخ الإسلام خاصة.

ثانياً - أن هذا الفتح حرّر البلد الأمين من رقّ التعبد للأصنام والأوثان، وطهّره من الشرك، وجعله متعبداً توحيدياً لله الواحد الأحد.

ثالثاً - أن هذا الفتح جعل من البلد الحرام دار أمن وأمان، وسلامة

وإسلام كما أرادها الله تعالى منذ خلقها يوم خلق السموات والأرض.

رابعاً ـ أن هذا الفتح طهّر الكعبة المشرفة من رجس الشرك، وجعلها قبلة يتجه إليها المسلمون بقلوبهم وأرواحهم وأبدانهم في صلواتهم، حيثما كانوا من أرض الله، فلا تقبل صلاة من مسلم ـ وهو متمكن من التوجه إليها ـ إلا إذا كان مولياً وجهه وقلبه وروحه إليها بإخلاص في التعبد لله وحده، وفي ذلك جمع كلمة المسلمين، وتحقيق وحدتهم الإيمانية التي يكونون بها إخوة متحابين متراحمين مهما تناءت بهم الأوطان؛ لأن مشاعرهم موحدة، وإحساساتهم موحدة، وأهدافهم موحدة، وآمالهم موحدة، وآلامهم موحدة، كما قال رسول الله ﷺ وهو يصف حال المسلمين في وحدتهم الإيمانية: إنهم «**كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسَّهر**».

وبذلك يكون المجتمع المسلم موحّداً في كل ما ينتابه من الآمال والآلام، وتكون وسائل هذا المجتمع المسلم في حياته للوصول إلى غاياته سِلْماً وحرباً موحّدة في ظل بيئاتهم ووحدتهم.

خامساً ـ هذا الفتح أعاد محمداً رسول الله ﷺ إلى بلده آمناً سيداً منصوراً، سالماً مشرّفاً بفضل الله عليه وعلى أمته، بعد أن أُخرج منه مهاجراً، لأنه لم يجد في بلده الأمين متنفّساً لدعوته، ولا مسالمة له ولأصحابه، وسدّت أمام رسالته وهدايته الطرق التي كانت مفتحة الأبواب لكل شرك وإلحاد.

سادساً ـ أن هذا الفتح وجّه الأمة الإسلامية بقوتها الروحية والماديّة إلى الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته بين العباد، وجعل لهذا الجهاد ممّن هداهم الله وأسلموا من أهل مكة، ومن أولادهم وأحفادهم جنوداً وأبطالاً حملوا ألويته وراياته فانساحوا بها في البلاد يفتحون القلوب بالإيمان، ويفتحون البلاد بالعدل والإخاء والمرحمة والحب الإيماني، والمواساة والترافق.

سابعاً ـ أن هذا الفتح حرّر المجتمع الإنساني من الخوف والظلم والجهل، فأصبح المسلم في ظل راية هذا الفتح لا يخاف أحداً إلا الله الذي بيده نواصي العباد.

ثامناً ـ أن هذا الفتح المكّي الأعظم أنقذ به أقواماً، فأخرجهم من هاوية الكفر والضلال إلى أن أقعدهم مقاعد الصدق في ميادين البطولة، فكان منهم قادة للأمة في أفكارها، وسياستها، وعلومها ومعارفها، ومعالم حضارتها المسلمة، ومكنوا للحياة الصالحة بما تمّ على أيديهم من الفتوحات الهادية العادلة.

وبهذا كان هؤلاء تفسيراً عملياً لقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾ وكان مجتمعهم الذي يعيشون معه، ويحيون بينه دعاة إلى الله تعالى تفسيراً تطبيقياً لقوله عز شأنه: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

وكانوا بياناً لحجة الله البالغة في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا إن نتّبع الهُدى معكم نُتخطَّف من أرضنا؛ أو لم نمكِّن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كلِّ شيء رزقاً من لدنّا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

غـزوة حُنـين

جموع هوازن وثقيف

درس تربوي في أقسى محنة ينتهي إلى أعظم منحة

انضمام ثقيف إلى هوازن في هذه الغزوة.

هذه الغزوة في وقائعها وأحداثها، والذين قوتلوا فيها غزوة واحدة متداخلة الوقائع والأحداث، متلاحقة الحوادث، متشابهة الأسباب والدوافع، موحدة الآثار، ممتزجة الحشود وإن جعلها الرواة غزوتين: غزوة هوازن في حنين وأوطاس، وغزوة ثقيف في الطائف.

بدأت هذه الغزوة في وادي حنين وهو على فرسخ من عرفة تجمعت فيه قبيلة هوازن وهي من كبريات القبائل العربية عدداً وأوفرها عُدَّة، وأكثرها أموالاً، وأشدها تعزّزاً بتراث الجاهلية ومواريث أعرافها وعاداتها، وانضوى إليها من بقايا الجيوب القبليّة والبطون المنتشرة هنا وهناك من أعراب البوادي حول مكة أعداد كثيرة، وانضمّت إليها ثقيف كلها، وهي وإن قلّت في أعدادها وأموالها عن هوازن، لكنها كانت أشد منها عناداً ومناكرة للإسلام، وجموحاً متأبياً، وفجوراً في صلابة الكفر والشرك والوثنية.

وكانت هوازن كما روى الواقدي في مغازيه ـ أقامت سنة تجمِّع الجموع، وتسير رؤساءها في العرب لتجمعهم حولها لحرب رسول الله ﷺ لما أفزعها انتصاره في غزواته انتصاراً تطامنت له رقاب قبائل العرب في مضاربها، إلا ما كان من قريش وعنادها حتى جاء أجلها في الاستسلام بفتح مكة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ منها، وتمّهدت له بعد كسر شوكتها، وذهاب طواغيتها إلى الفناء في الغزوات التي واقفت فيها النبي ﷺ وجند كتائبه

تآمر بين زعماء هوازن وثقيف على حرب رسول الله ﷺ في أهبة وافرة.

المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله فزعت هوازن وثقيف فزعاً شديداً حين عرفوا أن مكة فتحت، واستسلمت، وأسلمت طوعاً أو كرهاً، ومشى زعماء ثقيف وهوازن بعضهم إلى بعض، وحشدوا جموعهم في أعداد هائلة، وعدّة وافرة، وأموال متكاثرة؛ إشفاقاً ورهبة أن يغزوهم رسول الله ﷺ، وتقاولوا وهم في جموعهم التي بلغت أكثر من عشرين ألف مقاتل ـ كما جاء في كلام قائدهم مالك بن عوف ـ بما في صدورهم، وأبدَوا ما في دخائل نفوسهم من الحرد الحقود، والتغاضب الفجور، وقالوا فيما تقاولوا به: قد فرغ محمد فلا ناهية له دوننا، ولا حواجز تمنعنا منه.

والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا، وزعموا متكذِّبين ليثيروا نخوة القتال في أوشابهم وأتباعهم من الغوغاء كما تكذّب من قبلهم إخوة لهم من اليهود، يهود بني قينقاع عقب انتصار رسول الله ﷺ على قريش ببدر انتصاراً تجاوبت بأصدائه آفاق الجزيرة العربية كلها، وقد كانت قريش إذ ذاك على أحدّ شوكتها، وأقوى قوتها، وذروة غرورها، وأوفر العدد من طواغيتها وقادتها الذين كانوا أشد حرداً وحقداً، وقد جعلت زمام قيادتها في يد أفجر فراعين الأرض، وأخبث من مشى على أديمها أبي جهل بن هشام، فقادها بغروره وفجوره إلى حتوف أشرافها وصناديدها الذين كان يقدمهم إلى قليب بدر، ولكنها انهزمت على كثرة أعدادها وأوفر عددها، وأشرافها وصناديدها الذين قتلهم الله تعالى بسيوف الإسلام، فانكسرت شوكة قريش بهذه الغزوة وهي أول غزوة في الإسلام.

تشابه بين غرور هوازن ويهود بني قينقاع.

ولما بلغ هذا الانتصار يهود المدينة قالوا: لئن صحَّ هذا فبطن الأرض خير من ظهرها، وقال بنو قينقاع منهم يتكذبون، وهم أخبث اليهود كفراً، وأصلبهم عـوداً، وأفجرهم لؤماً، وأبأسهم في قتال: إن محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال، ولو قاتلنا لعلم أنّا الناس، فأكذبهم الله تعالى وفضحهم، وسلَّط عليهم رسوله ﷺ، فحاصرهم وأذلَّهم حتى شفع لهم عنده ﷺ ربيبهم رأس النفاق والمنافقين عبدالله بن أبي بن سلول، وكانوا مواليه وحلفاءه، فأطلقهم له رسول الله ﷺ، وأجلاهم عن جزيرة العرب، فخرجوا أذلاء مدحورين إلى أذرعات، وقطع الله دابرهم فلم يبق لهم ذكر في الحياة.

كذلك قالت هوازن مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، حذو النعل بالنعل، وأخذوا يتحاثّون، ويتحاضّون على حرب رسول الله ﷺ، وقال بعضهم لبعض: فأجمعوا أمركم، وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم، وساروا بجموعهم الحاشدة ومن ورائهم أموالهم، ونساؤهم، وذراريهم إلى وادي حُنَين، وهو وادٍ حطوطٍ كثير الانحدارات والشِّعاب، والمكامن، وجعلوا عناج أمرهم إلى مالك بن عوف النصري، وهو شاب غرير، لم يتجاوز الثلاثين من عمره، لم يشهد من تجارب الحروب وخبراتها وسياستها شيئاً سوى أنه مغرور بشبابه وكثرة حشود قومه ومن ضوى إليهم، تدفعه حماسة الشباب الغرير المغرور الذي لم يأخذ من دروس التجارب في الحياة ما يحجزه عن التهور الأحمق، المنطلق بالتِّيه والبأو والعنجهية عن قيود الفكر المتأني الذي يحسب لكل أمر حسابه، ويلبس لكل حالة لبوسها، ويتخذ للأحداث أقرانها، وللوقائع شكولها، ممّا جعله يسلك مسلكاً في تأهُّبه للقتال، وملاقاة جموع كتائب الجهاد المسلمة بقيادة رسول الله ﷺ لم يعرف لأحد من قادة العرب في حروبهم قبله، فقد حشد زعيم هوازن مالك بن عوف أموال هوازن ونساءها وذراريها ونزل بهم في وادي أوطاس، واجتمع إليه أشراف قومه، وفيهم دريد ابن الصمّة، فارس فرسانهم، وبطل أبطال حروبهم الذي نهد تحت ظلال السيوف والرماح، وكان قد بلغ من العمر أرذله، فجعل منه ذلك مخبار تجارب في خوض معامع الحرب ومعرفة سياستها، وقد جيء به في شجارٍ له، يقاد به، ولم يبق فيه للكر والفرّ شيء، وإنما بقي فيه التيمّن برأيه والاستفادة من تجاربه، فلما أنزل من شجاره، قال: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعْم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.

مالك بن عوف قائد جموع ثقيف وهوازن يدفعه الغرور إلى إلقاء قومه للتهلكة.

محاورة بين دريد ابن الصمة ومالك ابن عوف.

وعند ابن إسحاق أن هوازن لما اجتمعت على حرب المصطفى ﷺ سألت دريد بن الصمّة الرياسة عليها، فقال لهم دريد: وما ذاك؟ وقد عمي بصري، وما أستمسك على ظهر الفرس، ولكن أحضر معكم لأشير عليكم رأيي بشرط أن لا أخالف، فإن ظننتم أني مخالف أقمت ولم أخرج، فقالوا له: لا نخالفك، وجاءه مالك بن عوف، وقال له: لا نخالفك فيما تراه، فقال دريد: تريد أن تقاتل رجلاً كريماً، قد أوطأ العرب وخافته العجم ومن

بالشام، وأجلى يهود الحجاز إما قتلاً، وإما خروجاً عن ذلٍّ وصغار، ويومك هذا الذي تلقى فيه محمداً ما بعده يوم! قال مالك بن عوف: إني لأطمع أن ترى ما يسرك! قال دريد: منزلي حيث ترى، فإذا جمعت الناس سرتُ إليك، فلما خرج مالك بالظعن والأموال وأقبل دريد قال لمالك: مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير ويَعار الشاء، فقالوا: ساق مالك ابن عوف مع الناس أموالهم، ونساءهم وأبناءهم، فقال دريد: فأين مالك؟ فدُعي إليه، وقالوا: هذا مالك، فقال له دريد: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قال مالك بن عوف: سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال دريد: ولم ذاك؟ قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، فأنقض له دريد ـ أي صوَّت له بلسانه وهو داخل فمه بما يشبه الريح الذي يخرج من الإنسان سخرية منه ـ ثم قال له إمعاناً في السخرية، راعي ضأن والله، ما له وللحرب، وصفّق بإحدى يديه على الأخرى تعجباً، وقال: وهل يردّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك، ثم قال دريد لمالك: يا مالك ابن عوف إنك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى متمنّع بلادهم، وعليا قومهم، ثم الق الصُبّاء على متون الخيل، فإن كانت لك لحقت بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال مالك بن عوف في غرور متعجرف، وعناد مستكبر، وتهور أحمق: والله لا أفعل، ذلك أنك كبرت وكبر عقلك، فغضب دريد، وقال: يا معشر هوازن، ما هذا برأي، إن هذا فاضحكم في عـورتكم، وممكِّن منكم عدوكم، ولاحـق بحصن ثقيف وتارككم.

ثم توجّه مالك بن عوف إلى قومه فقال: والله لتطيعنيٍّ يا معشر هوازن أو لأتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، فقالوا: أطعناك.

وتهيؤا للقتال تحت إمرة مالك بن عوف، ولم يسمعوا لرأي دريد ابن الصمَّة، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني.

مخابرات رسول الله تأتيه بأخبار أعدائه.

وكان رسول الله ﷺ على منهجه السياسي في غزواته من الاهتمام بتعرف حال أعدائه قد بعث عبدالله بن أبي حدرد رضي الله عنه - كما في حديث جابر عند ابن إسحق من رواية الشيباني - وأمره بالدخول في عسكر هوازن وثقيف، ليعلم له علمهم، ويتعرف حالهم، ليكون الإقدام على مواقفتهم على بصيرة من أمرهم، فأتاهم ابن أبي حدرد رضي الله عنه، وكان رجلاً خبيراً بمداخل الأمور ومخارجها، فدخل فيهم، وجاس خلال عسكرهم وأقام بينهم يوماً أو يومين، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك بن عوف قائد القوم، وعرف أمرهم، وما هم عليه من قوة في العدد والعدّة.

سطحية آراء مالك ابن عوف في توجيه قومه للمعركة.

وعند الواقدي أن عبدالله بن أبي حدرد انتهى إلى خباء مالك بن عوف، فيجد عنده رؤساء هوازن، فسمعه يقول لهم: إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً، لا علم لهم بالحرب، فيظهر عليهم.

فإذا كان السَّحَر فصفُّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم صفُّوا، ثم تكون الحملة منكم، واكسروا جفون سيوفكم، فتلقونه بعشرين ألفاً مكسورة الجفون، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً.

فجاء ابن أبي حدرد إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال ﷺ لعمر ابن الخطاب: «ألا تسمع ما يقول؟» فقال عمر: كذب، فقال ابن أبي حدرد لئن كذبتني يا عمر ربما كذّبت بالحق، فقال عمر لرسول الله ﷺ: ألا تسمع ما يقول؟ فقال رسول الله ﷺ لعمر: «قد كنت ضالاً فهداك الله».

يقظة حراس الإسلام في حومة الجهاد وتوجيهات القيادة.

وفي حديث سهل بن الحنظلية عند أبي داود والنسائي بإسناد حسن، أن أصحاب رسول الله ﷺ ساروا معه فأطنبوا السير، فجاء رجل فارس - هو ابن أبي حدرد كما يقول الحافظ ابن حجر - وهو المتقدّم في حديث جابر فقال:

إني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، وإذا أنا بهوازن عن بَكْرة أبيهم، بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله» وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «فاركب» فركب ابن أبي مرثد فرساً له، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه، ولا نُغَرَنّ من قِبلك الليلة».

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاّه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: ما أحسسناه، فثوّب بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشّعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشِّعب، حيث أمرني ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحداً، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» فقال: لا، إلا مصلياً أو قاضي حاجة، فقال له ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها».

وهذه القصة تمثل أعظم منازل الرفعة لمن يحرس المسلمين، وهي نموذج من نماذج السياسة الحكيمة التي تمثل مَعْلَماً من معالم المنهج الإسلامي في رسالة الإسلام، في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عدداً وعدّة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة من ألزم ما يلزم قادة كتائب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، ليتقي بها المجتمع المسلم المفاجآت من قبل العدو، ويتخذ لكل حركة من حركاته ما يتلاءم معها سلباً وإيجاباً.

قال الواقدي: لما كان ثلث الليل عمد مالك بن عوف قائد هوازن إلى أصحابه فعبّأهم في وادي حُنَين، وهو واد حطوط ذو شعاب ومضايق، وفرّق الناس، وأوعز إليهم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة.

وعبىّ رسول الله ﷺ كتائبه وصفّهم صفوفاً، ووضع الألوية والرايات

في أهلها، وتهيّأ ﷺ للحرب، ولبس درعين، والمغفر، والبيضة، واستقبل الصفوف، وطاف عليهم بعضاً خلف بعض يتحدرون، فحثّهم على القتال وبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا.

دفاع ابن القيم عن أن اتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل.

قال ابن القيم: من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعاً، فإنه ﷺ أكمل الخلق توكلاً، وقد دخل مكة والبيضة على رأسه، ولبس يوم حنين درعين وقد أنزل الله عليه ﴿والله يعصمك من الناس﴾.

وكثير ممن لا تحقيق عنده يستشكل هذا، ويتكايس في الجواب تارة بأنه فعله تعليماً لأمته، وتارة بأنه قبل نزول الآية، ولو تأمل أن ضمان الله العصمة لا ينافيه تعاطيه لأسبابها، فإن ضمان ربه لا ينافي احتراسه من الناس، كما أن إخباره تعالى بأنه يظهره على الدين كلّه ويعليه لا يناقض أمره بالقتال وإعداده العدّة والقوة ورباط الخيل، والأخذ بالجدّ والحذر والاحتراس من عدوه ومحاربته بأنواع الحرب والتورية، فكان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها، وذلك لأنه إخبار من الله عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها بحكمته موجبة لما وعد به من النصر والظفر وإظهار دينه وغلبة عدوّه.

ونظر بعض جند كتائب الإسلام إلى صفوف المسلمين فأعجبته كثرتهم، فاهتبلها الشيطان وصرخ بها على لسان هذا الذي أعجبته كثرة جند الإسلام، قائلاً: لن نُغلب اليوم من قلّة، فمضت الكلمة مسرعة تهوي إلى أسماع وقلوب من كان منها على مسمع، تحمل إلى عامّة الجند الفرحة الغافلة، والاسترخاء الكسول، والتواكل المتثاقل.

جهالة قائل الكلمة المغررة توهّن حديثها.

وقد روى يونس بن بكير، المعروف بالشيباني في زيادته على مغازي أستاذه ابن إسحاق، عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين: لن نُغلب اليوم من قلّة، قال الزرقاني مبيِّناً لجهالة الرجل في رواية ابن بكير عن الربيع ابن أنس: هو غلام من الأنصار كما في حديث أنس عند البزار، بيد أن كلام الزرقاني لم يذهب الجهالة كلّها عن الرجل، وإنما أذهب بعضها، وبقي على أكثر حاله في الجهالة، لأن قول الزرقاني أخذاً من حديث أنس عند البزار هو

غلام من الأنصار لم يبيِّن من هو هذا الغلام الأنصاري؟ وما مكانته في الجهاد؟ وما منزلته بين المسلمين المقاتلين؟ وقيل: إن قائل ذلك رجل من بني بكر لم يسمّ، فبلغت هذه الكلمة المغرِّرة التي لم تكن تجري على منهج رسالة الإسلام، مسامع رسول الله ﷺ فشقَّ ذلك عليه، وكرهه، روى الحاكم وصحَّحه، وابن المنذر، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه، قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة، وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل حين اجتمعنا، فكره ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم.

وهذه الرواية أقرب الروايات إلى أسلوب القرآن الحكيم، إذ أسند الإعجاب إلى الجماعة ولم يخصِّص فرداً، ولهذا كانت المحنة التأديبية قاسية شاملة، فلم يثبت مع النبي ﷺ إلا نفر من آل بيته، كان فيهم العباس عمُّ رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه ﷺ، وبعض أبناء العباس، وأبو بكر الصدّيق وعلي بن أبي طالب، وفرَّ جمهرة الجيش مدبرين كما قال الله تعالى معاتباً ومنذراً، ومحذّراً، ومعلِّماً ومذكّراً: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم ولَّيتم مدبرين﴾ وفي قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ إشارة إلى أن النصر لا تلزمه كثرة الجند وضخامة الأهبة، وفيه إشارة إلى ما سبق لهم من مواقف كثيرة في مواطن الجهاد، ولم تكن لهم كثرة عدديّة، ولا قوة تأهبية، وإنما كانت قلوبهم مفعمة بالاعتماد على الله، والثقة به، يرون أن النصر من عنده، يؤيد به من يشاء من عباده.

تحقيق في تبيان معنى الآية.

وفيه عتاب مطوي للذين أعجبوا بالكثرة، فلم تُغْنِ عنهم شيئاً، مع علمهم القاطع بأنهم نصروا وهم قلّة في مواطن كثيرة، فلما كثّرهم الله نَسُوا ما كان من نعم الله عليهم بالنصر المؤزر في ظل القلة الصابرة المعتمدة على الله.

ثم أفصح الله تعالى عن صريح العتاب المعيِّر لهم بقوله جل شأنه: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً﴾ مذكّراً لهم ما كان منهم في ظل الكثرة المعجبة لهم، وأنهم لم يكن لهم مع الكثرة صبرهم الذي

كان لهم مع القلّة المتوكلة على الله في ثقة اليقين ورسوخ الإيمـان، وأنهم لم يحتملوا مع الكثرة ما احتملوه في سوابقهم مع القلّة، بل ضاقت عليهم أنفسهم لمّا اعتمدوا على الكثرة، وتخلّوا عن مرارة الصبر، فولّوا مدبرين، تاركين رسول الله ﷺ في نحر العدو في قلّة قليلة من آل بيته وخلصّ المؤمنين.

ثم ذكر الله تعالى ما تفضّل به من إنعام على رسوله ﷺ بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، وتأييده بنزول الملائكة بعد أن فرّوا عنه، وحمى مقامه المنيف الأشرف من أن تشوبه أدنى شائبة افتخار أو إعجاب بكثرة الجند ووفرة الأهبة، فقال تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهذا تذكير من الله تعالى للمؤمنين بما سبق لهم في مواطن اشتد عليهم فيها الكرب، ففرّج عنهم بما أمدّ الله به رسوله من جنود الغيب من الملائكة وغيرهم، وأجلّ هذه المواطن غزوة بدر، إذ كان المؤمنون في قلّة عدديّة مستضعفة العدّة، فأنزل الله تعالى ملائكته مدداً لرسوله ﷺ ممتناً بذلك على المؤمنين، فقال جلّ شأنه: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾.

حكمة التعبير عن القلة بالذلة.

وفي التعبير عن القلّة بقوله: ﴿وأنتم أذلة﴾ تلميح إلى ما كان عليه المؤمنون من قلة في العدد وضعف في الأهبة بالنسبة إلى ما كان عليه أعداؤهم من وفرة العدد وقوة العدة والأهبة.

وفيه إشارة إلى ما كان يساور أنفسهم من رهبة ملاقاة العدو في عدده وعدته.

وفي التعبير بقوله: ﴿لقد نصركم الله﴾ بما فيه من افتتاح الكلام بأقوى المؤكّدات وإسناد النصر لله تعالى، وذكر حال المؤمنين في قلّة عددهم وضعف عدّتهم التي لم تكن تؤهلهم في ظاهر حالهم لمّا تنزل عليهم من النصر المؤزر، الذي لم تكن له أسبابه الظاهرة في مجتمعهم المسلم الناشىء، إشارة إلى أن النصر ليس بالكثرة، وأن عدم الغلبة ليس بالقلّة، وإنما النصر بيد الله، يؤتيه من يشاء من عباده.

فلا فخر، ولا مكان للإعجاب بالكثرة ليسند إليها الغلبة، وتسند الهزيمة إلى القلّة، والله تعالى يقدِّم لعباده العبرة في تصاريف أقداره لعلّهم يعقلون.

لو قال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل الجهل لأنصف من نفسه بذكر هذه الرواية الخبيثة.

ومن أعجب العجب أن يروي ابن إسحق عن بعض أهل العلم بمكة إسناد هذه الكلمة البشعة (لن نغلب اليوم من قلّة) إلى سيد الخلق محمد ﷺ، فيقول ابن إسحق: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال حين رأى كثرة من معه من جنود الله تعالى: (لن نغلب اليوم من قلّة).

وليس العجب من أن يرويها ابن إسحق عن بعض أهل مكة الذي يحتمل أن يكون من الطُلقاء الذين دخلوا في الإسلام وهم كارهون، وكان رسول الله ﷺ بما جُبل عليه من الرحمة والرأفة يستألفهم لعلهم يهتدون إنقاذاً لهم من عذاب الخلود في الجحيم.

والزمن بين غزوة حنين وفتح مكة لم يكن كافياً ليفتح مغاليق قلوب هؤلاء المستألفين ويخرجهم من ظلمات العناد ليستقر الإيمان في أفئدتهم استقراراً مطمئناً.

ورواية أن قائل هذه الكلمة الفخورة بالكثرة المعجبة بها غلام من الأنصار، كما قال الزرقاني، أو أن قائلها مَسْلَمة بن وقش الأنصاري ليست بعيدة عن الاحتمال، والأنصار أفرحهم جداً فتح مكة، ورأوا أنه أمدّ الإسلام بقوة فوق قوة ما كان له في مجتمع المدينة، فأخذوا عن منهج رسالة الإسلام حينما رأوا كتائب الجهاد لمّا صفهم رسول الله ﷺ صفوفاً بعضهم وراء بعض، فظهرت للعين كثرتهم، وغالب هذا القائل فرح أشبه ما يكون بالغفلة والعجب، فقال ما قال على مسمع من رسول الله ﷺ، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ وكرهه.

وليس العجب أن يروي ابن إسحق عن بعض مجاهيل أهل العلم بمكة إسناد هذه الكلمة البشعة المعجبة بكثرة الرجال دون استحضار لعظمة فضل الله تعالى في حفاوته برسوله محمد ﷺ، وإنعامه عليه وعلى أصحابه بنعمة النصر مع قلة عددهم وضعف عدتهم، ودون استحضار لما كان

عليه ﷺ من التواضع لله وهو يدخل مكة فاتحاً مظفّراً منصوراً، فقد أجمعت الروايات على أنه ﷺ دخل مكة في جيش عرمرم جرّار، وهو يضع رأسه على رَحْله حتى كانت لحيته تمس الرحل تواضعاً لله تعالى وشكراً على إنعامه وفضله.

العجب من تشبث بعض العلماء بهذه الروايات الباطلة والتعسف في تأويلها.

ولكن العجب العاجب أن تذكر هذه الرواية التي لا زمام لها ولا خُطام، ثم ينتهض بعض أهل العلم كالطيبي في حواشيه على الكشاف للدفاع عنها وتأويل عبارتها تأويلاً متعسفاً متمحّلاً في توجيهها، وهذه التمحّلات في تأويل الروايات الباطلة من أخطر ما ابتلي به الإسلام في تراثه الفكري، وماذا على هؤلاء العلماء لو أنهم أهملوا مثل هذه الروايات الباطلة، ولم يكثّروا بها على الناس، وليسوا كلهم في طاقتهم فهم هذه التأويلات المتعسِّفة والتمحُّلات المتكلفة.

وقد تبع الزرقاني الطيبي وأمثاله، فقال: وعلى فرض صحة أن المصطفى ﷺ قال هذه الكلمة أو الصدّيق رضي الله عنه، فليس المراد الافتخار، بل التسليم لله، فالمقصود نفي القلّة، لا نفي الغلبة، أي إن غُلبنا فليس لأجل القلّة، بل من الله الذي بيده النصر والخذلان، ونقول للزرقاني: هل يقف أعداء الإسلام عند هذا التأويل، يرضونه جواباً عن الإشكال الذي قد يؤدي إلى أمر عظيم في حق النبي ﷺ؟.

ومما يدخل في دائرة العجب أن الواقدي ـ وليس هو بالنسبة لابن إسحاق بخير الرجلين ـ روى عن سعيد بن المسيِّب أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، لن نغلب اليوم من قلّة، وهذه رواية باطلة، ألصقت إلصاقاً بسيد التابعين سعيد بن المسيِّب رحمه الله تعالى، لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان أخص الأخصاء برسول الله ﷺ في أخلاقه وآدابه، وفقهه في الدين وعلمه بأحكام الشريعة، ومعرفته بالله تعالى، فلا يمكن أن يكون هو قائلها لأنها بعيدة كل البعد عن رسوخ الإيمان وقوة اليقين، والصدِّيق منها في الذروة بعد رسول الله ﷺ.

وأعجب من هذا العجب أن الحافظ العَيْلم أبو عمر بن عبد البر يجزم

بهذه الرواية الباطلة سنداً ومتناً، وهذا بعيد عن منهج الحافظ ابن عبد البر في معرفته بالروايات ونقدها، ولعل هذا مما أُدخل عليه في بعض مؤلفاته، ولا سيما دُرَرِه، وهو كتاب لطيف موجز، أشبه بفهرست لحوادث السيرة النبوية.

كان فرار الطلقاء سبباً للهزيمة في الجولة الأولى.

وقدّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ـ وكان على قيادة بني سُلَيم، وأهل مكة من الطلقاء الذين لم يستقر الإسلام في قلوبهم استقراراً مدعّماً بالمعرفة والإخلاص ـ ومن هؤلاء كان البلاء، وكانت المحنة القاسية، فقد استقبلهم من هوازن ومن ضَوَى إليها ما لم يروا مثله قط من السواد والكثرة، وكان ذلك في غبش الصبح وعمايته، فاستقبلتهم كتائب العدو خارجة من مضايق الوادي وشِعابه، وحملوا على مقدّمة المسلمين من بني سُلَيم وطلقاء مكة حملة واحدة، فانكشفت خيل بني سُلَيم مولِّية، لتقدم كثير ممن لا نية لهم في القتال وأكثرهم من شباب الطلقاء ومرضى القلوب، وتبعهم سائر أهل مكة ممن كان إسلامه مدخولاً، وقال بعضهم لبعض: اخذلوه ـ يعنون رسول الله ﷺ ـ فهذا وقته، فانهزموا وتبعهم الناس وهم لا يشعرون.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين من الوادي، وجعل ينادي في الناس: «أيها الناس هلمّ إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله».

نحن نرجح رواية ابن سعد ومن معه من الأئمة على رواية البخاري في حديث البراء.

وعند ابن سعد، وابن إسحاق، ورواه أحمد، وابن حبان عن جابر، قال: لما استقبلنا وادي حُنَين انحططنا في جوف وادٍ حَطوط، له مضايق وشعوب، وإنما ننحدر فيه انحداراً، وفي عماية الصبح، وقد كان القوم سبقونا إلى الوادي فكمنوا في شعابه وأجنابه، ومضايقه، وتهيؤا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطّون إلا الكتائب شدّوا علينا، شدة رجل واحد، وكانوا رماة، فانطلق الناس.

هذه الرواية صريحة في أن المسلمين انكشفوا بمجرد التلاقي، وولّوا مدبرين كما أخبر الله عنهم، وفي حديث البراء بن عازب ما يخالف هذا، ويفيد أن انكشاف المسلمين وتولِّيهم مدبرين إنما كان بعد تلاقيهم بالمشركين وقتلهم حتى كشفوهم وأكبوا على الغنائم يجمعونها، فاستقبلهم العدو بالسهام فانكشفوا.

وهذا خلاف جوهري لم نرَ مَنْ وقف عنده للجمع بين الروايتين أو ترجيح إحداهما على الأخرى، ونحن نميل إلى ترجيح رواية ابن سعد ومن معه من الأئمة على رواية البخاري، لأن هوازن أعرف بمضايق واديهم وشعابه ومنحدراته، ولعلهم وضعوا أكثر من كمين في هذه المضايق والشّعاب، فلما حمل المسلمون على من بدا لهم من كتائب هوازن خرجت الكتائب من مكامنها، وكانوا رماة فرشقوا المسلمين بسهامهم، وحملوا عليهم حملة واحدة، فانكشف الطلقاء، وتخلخلت صفوف المسلمين بما فاجأهم من الحملة عليهم وولوا مدبرين.

وفي حديث أنس عند البخاري: فأدبروا عنه حتى بقي وحده، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ونادى كتائبه وأصحابه مذكّراً داعياً لهم إلى الكرّة على العدو، مقوّياً عزائمهم بأنه ﷺ رسول الله، وقد وعده الله نصره.

في رواية الواقدي وابن إسحاق دليل على أن المنهزمين كانوا من الطلقاء.

وروى الواقدي عن قتادة قال: مضى سَرَعان المنهزمين إلى مكة يخبرون أهلها بالهزيمة، فسُرّ بذلك قوم من أهل مكة وأظهروا الشماتة، وقال قائلهم: ترجع العرب إلى دينها ودين آبائها، وقد قتل محمد وتفرق أصحابه، فقال عتّاب بن أسيد أمير مكة: إن قتل محمد فإن دين الله قائم، والذي يعبده محمد حيّ لا يموت، فما أمسوا حتى جاءهم الخبر بنصره ﷺ، فسُرّ عتّاب بن أسيد وكبت الله من كان يسرّه خلاف ذلك.

وعند ابن إسحاق: لما رأى من كان معه ﷺ من جفاة أهل مكة ما وقع، وتكلّم رجال بما في أنفسهم، فقال أبو سفيان بن حرب ـ وكان إسلامه بعد مدخولاً ـ لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الأزلام لمعه في كنانته.

وصرخ جَبَلة أو كَلَدة بن الحنبل ـ وهو أخو صفوان بن أمية لأمه ـ ألا بطل السحر، فقال له أخوه صفوان وهو على شركه لم يسلم بعد: اسكت فضّ الله فاك: لأن يربّني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربّني رجل من هوازن: وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثأري، أقتل محمداً، فأقبل شيء حتى غشي فؤادي، فعلمت أنه ممنوع مني، فالتفت إليّ ﷺ وتبسم، وعرف ما أردت فمسح صدري وذهب الشك.

كرة صارمة بعد فرَّة عابرة وجاء الله بالنصر المؤزر

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال للعباس: «ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة ـ أي شجرة الرضوان التي بايعوه تحتها على أن لا يفرّوا حتى يموتوا بين يديه أو ينتصروا على المشركين ـ يا أصحاب سورة البقرة».

وقد التمس الزرقاني رحمه الله حكمة لإدخال سورة البقرة في النداء على كتائب الجهاد، فقال: خُصّت بالذكر حين الفرار لتضمنها ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ أو لتضمنها ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ أو لاشتمالها على قوله جل شأنه: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾.

وكان العباس رضي الله عنه رجلاً صيّتاً جهير الصوت، قوي الصرخة: فنادى بما أمره به رسول الله ﷺ، وبلغ نداؤه مسامع المسلمين، وهم على مسافات بعيدة، فأقبلوا سراعاً كأنهم الإبل إذا حنّت على أولادها، وهم يقولون: لبيك، يا لبيك، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع انحدر عنه وأرسله وأخذ درعه، يقذفها في عنقه، وأخذ سيفه وترسه، يؤم الصوت، وازدحموا على رسول الله ﷺ ازدحاماً شديداً، حتى كأنه ﷺ في حرجة فقال العباس رضي الله عنه، فَلَرِماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار، لشدة ما أحاط الأنصار برسول الله ﷺ، وهم يقاتلون عنه، ويمحون ما كان من هفوتهم في التولي عنه ﷺ.

فأمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة على أعدائهم المشركين، فقاتلوهم قتالاً شديداً جعل رسول الله ﷺ يشرف عليهم مبتهجاً بشجاعتهم وبطولتهم، وقال: «الآن حمي الوطيس» وهذا من أفصح الكلام الذي لم يُسمع من أحد قبله ﷺ.

وتناول حفنة من الحصباء بنفسه الشريفة أو ناولها له عمه العباس أو غيره من أصحابه رضي الله عنهم ورمى بها وجوه الأعداء المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فهزمهم الله تعالى هزيمة منكرة، فرَّقت جموعهم، وأرسلوا أرجلهم بالفرار لا يلوون على شيء.

ولما أقبل المسلمون بعد فيئتهم على رسول الله ﷺ، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشُهُب ـ وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل الملائكة مدداً، وقتل من قتل من المشركين، وأفاء الله على رسوله أموالهم، وكانت أكثر أموال الغنائم في جميع الغزوات، كما أفاء عليه ﷺ نساءهم وأبناءهم، وفرّ قائدهم مالك بن عوف في جماعة من أشراف قومه حتى بلغ حصن الطائف ـ أسلم كثير من أهل مكة الذين بقيت قلوبهم على وثنيتها وشركها حين رأوا نصر الله لرسوله وإعزاز دينه.

ثم أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من يقدر على قتله من أعداء الله وقال لأصحابه: «اجزروهم جزراً» وأومأ بيده إلى مكان الذبح من الحيوان، كما أخرجه البزار من حديث أنس برجال ثقات، فامتثل جند الله أمر قائدهم الأعظم، وأمعنوا في القتل حتى أفضى ذلك إلى الذرية، فنهاهم ﷺ عن قتل الذرية والنساء.

روى الواقدي أن سعد بن عبادة جعل يصيح يومئذ بالخزرج ثلاثاً، وأسيد بن حضير بالأوس ثلاثاً، فثابوا إليهما من كل ناحية، كأنهم النحل تأوي إلى يعسوبها.

نهي رسول الله ﷺ عن قتل من لم يكن من أهل القتال.

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن القتل أسرع في ذراري المشركين قال صلوات الله عليه: «ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية، ألا لا تقتل الذرية» ثلاثاً، فقال أسيد بن حضير: أليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها».

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن رباح بن ربيع أنه مر هو والصحابة على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة، فوقفوا ينظرون إليها ويعجبون من خَلْقها حتى لحقهم ﷺ على راحلته، فانفرجوا عنها، فوقف عليها ﷺ فقال: «ما كانت هذه لتقاتل» فقال لأحدهم: «الحق بخالد، فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً، أو امرأة، أو عسيفاً».

وروى الواقدي عن شيوخ ثقيف: ما زال ﷺ في طلبنا ونحن مولُّون،

حتى إن الرجل ليدخل حصن الطائف، وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة، وروى الواقدي عن مالك بن أوس: حدثني عدّة من قومي شهدوا ذلك اليوم، يقولون: لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى، فما منا أحد إلا يشكو القذى في عينيه، ولقد كنّا نجد في صدورنا خفقاناً كوقع الحصى في الطاس، ما يهدأ ذلك الخفقان.

تشابه الموقفين بين أحد وحنين في المحنة والمنحة.

وما ذكره الله تعالى في غزوة حنين من انكشاف كتائب المجاهدين في أول ملاقاة العدو، وتولّيهم مدبرين عن رسول الله ﷺ، إذْ أعجبتهم كثرتهم فركنوا إليها، فلم تغن عنهم شيئاً، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم ولّيتم مدبرين﴾.

ثم تدارك الله تعالى لهم بفضله، ورجوعهم إلى رسول الله ﷺ مقبلين، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشُّهب إثر نداء العباس عليهم بما أمره به رسول الله ﷺ من أوصاف الشرف ونعوت البطولة الفدائية المؤمنة، وما عتب الله عليهم من ركونهم إلى الأسباب المادية في إعجابهم بكثرتهم، وقولهم: لن نُغلب اليوم من قلّة، وإراءتهم ببصائرهم وأعين أبصارهم أن هذه الكثرة لم تُغْنِ عنهم شيئاً، بل كان إعجابهم بها وبالاً عليهم، أذْهلهم عن مفاجأة العدو، فلم يثبتوا له، وولّوا مدبرين تاركين قائدهم الأعظم ورسولهم الأكرم سيد الخلق وحيداً في نحر العدو، إلا من قلة قليلة ثبتت معه من الأبطال الأشاوس من آل بيته الأكارم، وخلّص خلصاء المؤمنين، وما امتن به سبحانه عليهم بإنزال السكينة على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وبتنزّل جنود الغيب مدداً من الله من الملائكة وغيرهم، ومن تسليطهم على أعدائهم بالقتل والتشريد والإذلال، ثم أذاقهم حلاوة التوبة المنيبة إلى الله معلقاً لها بمشيئته وإرادته لإشعارهم أن الأمر كلّه لله، ومن ختمه الآيات الكريمات بما غسل به ما علق بقلوبهم، وذلك في قوله عز شأنه: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾.

كل ذلك يجعل الموقف في حُنين أقرب شبهاً بالموقف في غزوة (أحد) في جميع مراحله، وكل ما كان هناك من دروس تربوية للمجتمع المسلم جعلها الله نماذج لإبراز معالم منهج الرسالة الإسلامية الخالدة، وتطبيق رسول الله ﷺ لها تطبيقاً عملياً، لتكون أسوة لأجيال الإسلام في مستقبل الحياة أينما كانوا من أرض الله، وكيفما كانوا قوة وعلماً ومعرفة وأدباً وسياسة ونظماً اجتماعية إن هم صبروا عليها وأقاموا دعائمها فيما بينهم علماً وعملاً، يجده المسلم المتفقه في دين الله وسيرة النبي ﷺ باعتبارها منهجاً قويماً لسير المجتمع المسلم في حياته العملية عليها هنا في غزوة حنين بدءاً ونهاية، فهناك في غزوة (أحد) ختمت آيات العتاب التربوي بالعفو، فقال تعالى: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ وهنا في غزوة حنين ختمت الآيات المعاتبة بالمغفرة والرحمة بعد الإشارة الحكيمة المحكمة إلى أن الله تعالى يتوب على من يشاء، وذلك إطماع في التوبة ليعم كل مسلم يهفو ثم ينيب إلى الله بالتوبة، فلا يبقى في قلب مؤمن أثر لليأس من رحمة الله، ولا يبقى للهفوات انطلاق بغير خُطُم تزمُّها عن الجموح في مراتع الشهوات وطواعية الشيطان.

وجوه التشابه بين الموقفين بدءاً ونهاية.

وليس بعد عفو الله، ومغفرته، ورحمته، وحكمه مكان للحديث عن أنّ هذا الفرار الذي كان إلى توبة منيبة إلى الله بالندم ـ معصية من كبائر الذنوب أو ليس بمعصية، حتى ولا من صغائر الهفوات وتوافه الذنوب، ولا يعظم ذنب أمام عفو الله، ولا يصغر ذنب أمام جلال الله.

ومن الغريب أن يتخذ بعض العلماء مناسبة هذا العتاب المتلطف في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ ذريعة إلى الحديث عن الفرار من الزحف هل هو من كبائر الذنوب أو ليس من كبائرها.

أقوال العلماء في الفرار من الزحف وهل يدخل فيه الفرار عن رسول الله ﷺ.

وقد أطنب بعض المؤلفين في السيرة وفي غيرها، وأطالوا رشاء القول في الخلاف بين العلماء في ذلك، حتى التمس بعضهم الاعتذار عن الفرار هنا في غزوة حنين بأن العدو كان ضعف عدد المؤمنين أو أربى من الضعف، ولا ندري هل كثرة العدو عدداً وعُدّة تبيح للمؤمنين التراخي عن الجهاد، وتبيح لهم الفرار من وجه العدو إذا كان أكثر منهم بأضعاف مضاعفة؟ ولكنا نعلم

علم اليقين أن المسلمين واقفوا الفرس والرومان في وقائع متعددة، وكانت أعداد العدو وعدته أكثر من أضعاف أعداد المسلمين وعدّتهم، وقد نصر الله تعالى المؤمنين على قلتهم النسبية على أعدائهم، ففتحوا جميع فارس وجعلوها أرض إسلام وإيمان وعلم ومعرفة، وطهّروا أرض العرب في الشام ومصر والمغرب من حشود الروم وحرّروها للإسلام ورسالته الخالدة، فلم يقل أحد أن الكثرة العددية في العدو تُقْعِد عن الجهاد، أو تجيز الفرار أمام العدو ليتخذ من بلاد الإسلام ديار استعباد وإذلال.

رأي الطبري ومناقشته.

وذهب أبو جعفر الطبري إلى أن الانهزام المنهي عنه هو ما وقع على غير نية العود، ونقول لأبي جعفر الطبري: كيف يحكم على أمر بأنه منهي عنه أو غير منهي عنه إذا كان مشتركاً فيه معرفته أمر مغيب، تستحيل معرفته إلاّ بعد وقوعه والإبانة عنه، والنية أمر مكنون في الصدور لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن ارتضى من رسول يُعْلِمه بوحيه ما لم يعلم، وإلا مَنْ انطوى عليه صدره ممن نواه وعزم عليه، وليس لدينا أثر صحيح ثابت أن رسول الله ﷺ أخبر عن الفارّين بأنهم فرّوا إلى عَوْد، ولا أنّ أحداً من الفارّين أخبر عن نفسه أنه فر وأنه ينوي العودة.

ثم قال الطبري: وأما الفرار للكثرة فهو كالمتحيز إلى فئة ـ يعني أنه ليس انهزاماً منهياً عنه ـ وهذا كلام لا يستقيم، ولا يقبل، لأنه لم يذكر له مأخذ من نص، ثم إن الفرار في غزوتي (أحد) و(حنين) كان عن رسول الله ﷺ، وليس وراءه ﷺ فئة يتحيز إليها، فكيف يكون الفرار للكثرة على إطلاقه جائزاً كفرار المتحيِّز إلى فئة؟.

رأي السهيلي ونقده.

وقال السهيلي في الروض: لم يجمع العلماء على أنّ الفرار من الزحف من الكبائر إلا في يوم بدر وهو ظاهر قوله: ﴿ومن يولّهم يومئذ دُبُره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ ثم أنزل التخفيف في الفارِّين يوم (أحد) وهو قوله: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ وكذا أنزل ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ إلى قوله: ﴿والله غفور رحيم﴾.

وهذا كلام غير مسلّم على إطلاقه، لأن ما ذكر من الآيات في يوم

بدر، مقيّد بزمن معيّن، وهو يوم بدر، كما يفهمه صراحة قوله: (يومئذ)، وكذا ما أنزل يوم (أحد) و(حنين) إنما أنزل في وقائع معيّنة لقوم معيّنين، وهم الذين شهدوا (أحداً وحُنيناً) وفرّوا ثم فاؤوا، وليس في النص ما يشعر بالعموم الشمولي الذي يتعدّاهم إلى غيرهم، وهؤلاء عوتبوا ثم شُرّفوا بالعفو، والمغفرة، والرحمة، فلا تصلح هذه الآيات أن تكون بناء لقاعدة لكون التولّي يوم الزحف من كبائر الذنوب، وإنما مأخذ ذلك من حديث رسول الله ﷺ الثابت عنه حين سئل عن الكبائر فذكر منها ـ في بعض الروايات الصحيحة ـ التولّي يوم الزحف.

وقد حاول ابن القيِّم رحمه الله أن يبين حكمة ما وقع في حنين من المحنة، ثم الكرّة بعد التولّي، والنصر بعد الهزيمة في أسلوب مطنب، كما حاول من قبل في غزوة (أحد) إبراز ما كان في محنتها من دروس تربوية للمجتمع المسلم، وحكم إلّهية ترشد المؤمن إلى أنه تعالى أنزل رسالة الإسلام الخالدة لتكون منهجاً سلوكياً لحياة الأمة الإسلامية في قيادتها الإنسانية، وقد ذكرنا منه في مناسبته ما استدعى المقام ذكره.

وقال هنا في (الهدي النبوي) ونقله عنه بشيء من التصرف القسطلاني في مواهبه وعلق عليه شارحها الزرقاني.

كلام ابن القيم في بيان حكمة محنة حنين من لطائف الأدب وليس من تحقيق العلم.

كان الله تعالى قد وعد رسول الله ﷺ إذا فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً ـ يشير ذلك إلى سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ فالفتح في السورة فتح مكة ـ ودانت له العرب بأسرها، فلما تمّ له الفتح المبين اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتأهبوا لحربه عليه الصلاة والسلام ليظهر أمره تعالى، وإتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليظهر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون قبلها مثلها ـ قال الزرقاني في الكثرة وشدة البأس ـ وغاية ما لقوا في (أحد) ثلاثة آلاف، وكان لهم الظفر ابتداء، لكن لما خالف الرماة موقفهم الذي أمرهم ﷺ بعدم مفارقته استشهد

من استشهد إظهاراً لأنه لا ينبغي مخالفته ﷺ في أمر ما، وغاية ما لقوا في الخندق عشرة آلاف، ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ وأما هؤلاء فكانوا أضعاف المسلمين ـ ولا يقـاومهم بعد أحـد من العرب، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة، مع كثرة عددهم وعددهم وقوة شوكتهم ليطامن رؤوساً رُفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخل عليه الصلاة والسلام، فابُتلوا بقصّة حنين، منعاً لهم من إظهار الترفع، وتنبيهاً لهم على أن المطلوب منهم التواضع، وإظهار الشكر كما فعل ﷺ في دخوله، واضعاً رأسه منحنياً على مركوبه، تواضعاً لربه، وخضوعاً لعظمته أن أحل له بلده ولم يحلّه لأحد قبله، ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: لن نُغلب اليوم من قلّة أن النصر إنما هو من عند الله، بفضله، وأن من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له، وأنه سبحانه هو الذي تولّى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتكم بها، فإنها لم تُغْنِ عنكم شيئاً فولّيتم مدبرين.

فلما انكسرت قلوبهم أرسلت خِلَع الجبر مع بريد (أنزل الله سكينته) على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تَرَوْها، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن خِلَع النصر وجوائزه إنما تفاض على أهل الانكسار، قال الله تعالى ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض﴾ وافتتح الله تعالى غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزاة حنين، ولهذا يجمع بينهما فيقال: غزوة بدر وحنين. . ورمى فيهما رسول الله ﷺ وجوه المشركين بالحصى، وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ. فالأولى خوّفتهم وكسرت من حدِّهم، والثانية استغرقت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلّت جمعهم حتى لم يجدوا بداً من الدخول في دين الله، وجبر الله أهل مكة بهذه الغزوة، وفرَّحهم بما نالوا من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من المحنة، وإن كان عين جبرهم وتمام نعمته تعالى عليهم بما صرفه عنهم من شر من كان يجاورهم من أشرار العرب وهوازن وثقيف بما أوقع بهم من الكسرة، وبما قيّض لهم من دخولهم في الإسلام، ولولا ذلك ما كان أهل مكة يطيقون مقاومة تلك القبائل من شدتها.

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بطلب الفرار وفيهم قائد هوازن مالك بن عوف.

ثم أمر رسول الله ﷺ بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف، وفي هؤلاء قائد هوازن مالك بن عوف في جماعة من أشراف قومه، فإنهم لمّا انهزموا وقف مالك بن عوف على ثنية في شبّان أصحابه، فقال لهم: قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم، ويتتام آخركم، فبصر بهم الزبير بن العوام، فحمل عليهم حتى أهبطهم من الثنية، وهرب مالك بن عوف إلى الطائف، وبعضهم انتهى في فراره إلى نخلة، فتبعتهم خيل المسلمين.

وروى البزار عن أنس بن مالك قال: لما انهزم المشركون انحاز دريد ابن الصمّة في ستماية نفس على أكمة، فرأوا كتيبة، فقال دريد: خلّوهم لي، فخلوهم، فقال هذه قضاعة ولا بأس عليكم منهم، ثم رأوا كتيبة مثل ذلك، فقال هذه سُليم، ثم رأوا فارساً وحده، فقال دريد: خلُّوه لي، فقالوا: معتجر بعمامة سوداء، فقال هذا الزبير بن العوام، وهو قاتلكم ومخرجكم من مكانكم هذا، فالتفت الزبير فراهم فقال: علام هؤلاء هنا؟ فمضى إليهم، وتبعه جماعة من المجاهدين، فقتلوا منهم ثلاثمئة، وحز رأس دريد بن الصمة، فجفلوا بين يديه، وفي قتل دريد رواية أخرى مشهورة، ولكن رواية البزار أقوى سنداً.

واستشهد من المسلمين أربعة، وقتل من المشركين أثناء النزال أكثر من سبعين، وقيل أن هذا العدد كان من ثقيف وحدها.

روى البيهقي عن عبدالله بن الحارث عن أبيه قال: قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل من المسلمين يوم بدر.

طلب
فُرّار هوازن وثقيف

بعث أبي عامر الأشعري إلى وادي أوطاس لطلب الفارين

كان رسول الله ﷺ بعد فراغه من وقعة حنين ـ بانتصاره على حشود هوازن وثقيف انتصاراً رعبل جموعهم، وبدّد كثرتهم، وأذلّ غرورهم، وأرغم معاطسهم، وشتت شملهم، ففر منهم من وجد للفرار فرصة، وتفرّق هؤلاء الفارون بين الوديان، والشّعاب، وقمم الجبال، ورؤوس التلال، ومنهم من ذهب إلى الطائف مع فرّار ثقيف، وكانوا كلّهم مفزعين، مرعوبين ـ قد أمر بطلب فلول المنهزمين، وتتبّع الفرّار خشية أن يتجمعوا لحربه مرة أخرى، فبعث أبا عامر الأشعري، عمّ أبي موسى (عبدالله بـن قيس الأشعري) المشهور بين الصحابة بعلمه وفضله، إلى الذين فرّوا إلى وادي (أوطاس) وهو وادٍ قريب من وادي حُنَين حتى كان يعد أنه هو.

وإلى هذا الرأي ذهب القاضي عياض رحمه الله، فقال: هو موضع حرب حنين، هكذا نص عبارته بلفظ (حرب) بالحاء المهملة، ولكن الحافظ ابن حجر لم يرتضِ قول عياض، ورجح عليه قول غيره، فقال: وهذا الذي قاله ذهب إليه بعضُ أهل السِّيَر، والراجح أن وادي أوطاس غير وادي حنين، ويوضحه ما ذكره ابن إسحاق: أن الوقعة كانت في وادي حنين، وأن هوازن لما انصرفوا صارت طائفة إلى الطائف، وطائفة إلى نَخْلة، وطائفة إلى أوطاس، قال الزرقاني، هكذا في الفتح عن عياض (حرب) بالحاء المهملة، وكذا يأتي اعتراض الحافظ على عياض، وتصحَّف على من قرأ (قرب) بقاف، وأجاب ابن حجر بأنه لا يخالف الراجح، لأن غاية ما فيه أنه مع مغايرته لحنين قريب منها.

وهذا خلاف ليس تحته كبير طائل إلا ما فيه من التحرّي والدقّة التي لو

بذلت في فقه متون الأحاديث لكان فيها أعظم ما يقدّم من خدمة للسنة النبوية، لأن الاحتمال يمكن أن يكون متسعاً لقبول كل من القولين، فالقاضي عياض رحمه الله يقول مع أهل المغازي والسير: إن أوطاس هو الوادي الذي وقعت فيه حرب حنين، ويؤيد ذلك قول دريد بن الصمة إذ سأل أشراف هوازن فقال لهم: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا بأوطاس، قال دريد: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، فهذا قول بيّن أن الوقعة كانت بأوطاس وهي حرب حنين.

ويحتمل أن حنيناً واسع الأرجاء متباعد الأكناف، يشمل في بعض جوانبه وادي أوطاس، وكانت فيه الوقعة، ولا ينافي هذا قول عياض: هو موضع حرب حنين، على معنى أنه ميدانها من حُنين، وهذا عندنا أرجح.

تأثر ابن حجر بما نقله عن ابن إسحاق في ذكره مواضع فرار الفارين.

أما الحافظ ابن حجر رحمه الله فإنه تأثر بقول ابن إسحاق في ذكره تعدّد المواضع التي ذهب إليها فرّار هوازن وثقيف، وذكر منها أوطاس، فظنّ الحافظ ابن حجر أن أوطاس خارج عن حنين، فاعترض على عياض ورجّح على قوله قول غيره، مع أن كلام ابن إسحاق لا ينافي أن أوطاس جانب من جوانب حنين، فيرجع قول ابن إسحق الذي جعله الحافظ توضيحاً لما ذهب إليه من التغاير بين حنين وأوطاس إلى قول عياض.

ومن قرأ من أهل العلم عبارة عياض بلفظ (قرب) بقاف بدل لفظ (حرب) بحاء مهملة لم يصحف، ولكنه أراد التفسير والبيان بأن موقع حرب حنين أي ميدانها هو قرب حنين، أي في جانب من جوانب حنين.

وصدع أبو عامر الأشعري بأمر النبي ﷺ وسار بكتيبته المجاهدة إلى هؤلاء الفرّار حتى لقيهم بأوطاس مجتمعين، فقاتلهم، وقتل منهم تسعة أخوة مبارزة بعد أن كان يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام، ويُشهد الله عليه قبل أن يقاتله كما هو منهج الرسالة في الجهاد لإعلاء كلمة الله.

وفي حديث أبي موسى عند الطبراني قال: لما هزم الله المشركين يوم حُنين بعث ﷺ على خيل الطلب أبا عامر وأنا معه، فقتل سلمة بن دريد ابن

الصمة أبا عامر، فعدلت إليه فقتلته، وأخذت اللواء مستخلفاً من أبي عامر، فقاتل أبو موسى المشركين حتى هزمهم وظفر بغنائمهم وسباياهم.

قصة الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة.

وكان في السبي الشيماء بنت الحارث بن عبد العزّى السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، ولم تجد بين سائقي السبي من يعرفها، وقد أتعبها في السير من كان يسوق بالسبايا، فقالت لهم الشيماء متوددة مستعطفة: تعلموا أني أخت صاحبكم - تعني رسول الله ﷺ - من الرضاعة! فلم يتقبلوا كلامها بتصديقها فيما قالت، لأنه لم يكن معها من الدلائل والقرائن ما يشعرهم بشيء مما قالت، وساروا بالسبي يعنِّفون في سيرهم المطنب، والشيماء قد ركنت إلى الصبر والاستسلام متحمِّلة نصيبها من مشاق السير ومتاعبه حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أختك - أي من الرضاعة - وكان العهد قد طال، والزمن قد أسرع المرور، والأحداث توالت وتراكمت، والصغير قد كبر، والمعالم تغيرت، واختفت شواهد وخلفتها شواهد، فلم يستحضر رسول الله ﷺ من أحداث رضاعه في بادية بني سعد الأمور الخاصّة بحياته الشخصية في إبّان طفولته، فلما أخبرته الشيماء بهذا الخبر الطريف الغريب أراد أن يتثبّت من صحة إخبارها، فقال لها مستطلعاً ما عندها من القرائن والدلائل: «وما علامة ذلك» أي ما علامة أنك أختي من الرضاعة، والزمن بعيد، والأحداث متكاثرة متتابعة؟ فقالت الشيماء مبرهنة على صدقها فيما ادعت: علامة ذلك عضّة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، فذكر رسول الله ﷺ ما كان منه إليها وهي تحمله طفلاً، ولعل هذه العضّة كانت من مداعبات الطفولة، وكانت مظهراً من مظاهر قوة المداعبة التي لعلّها كانت ردّاً على مداعبة منها إليه ﷺ، فردّ عليها مداعبتها بأشد مما كان منها إليه حتى أبقت مداعبته ﷺ أثرها في بدنها، ليكون لهذا الأثر شأن يجعله آية من آيات أحداث النبوة وحوادث الرسالة بعد زمن مديد.

إكرام الشيماء قياماً بحق الوفاء وصلة القربى.

ولما ذكر رسول الله ﷺ هذا الحدث الطريف في أحداث طفوليته وعرف ما ذكرته له فكان علامة واضحة - بسط لها رداءه إكراماً لها، وأداء لحقّ صلتها القربى وما كانت تقوم به نحوه ﷺ، وأجلسها عليه احتفاء بذكريات

الماضي في شخصها، ورحّب بها، وأخرجها من ضوائق السبي، ودمعت عيناه ﷺ رقّة لها، وعرفاناً لشأنها، وتذكراً لأيام الماضي المشرق بنور الإعداد الإلهي والتربية الربانية، لما كتب له في كتاب الغيب من جلال الرسالة الخاتمة الخالدة وهداية الإنسانية إلى معرفة خالقها مقيمة لموازين العدل فيما بينها أفراداً وجماعات، وها هو ذا ﷺ في يومه الذي يرى فيه أخته من الرضاعة تخاطبه فتقول له: إني أختك، ويستعلمها عن علامة يذكر بها صدق قولها، فتخبره، فيذكر ويكرمها ويرحّب بها، ويقول لها ﷺ مخيّراً مواسياً آسياً لجراحها: «إن أحببت فعندي محبّبة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى أهلك» فتقول الشيماء: بل تمتعني وتردّني إلى قومي، وأسلمت الشيماء، وأعطاها رسول الله ﷺ غلاماً وجارية، فزوجت الغلام بالجارية ورزقهما الله نسلاً من هذا الزواج المبارك، فلم يزل في بني سعد من نسلهما بقية.

وقال رسول الله ﷺ للشيماء تحقيقاً لرغبتها في الرجوع إلى قومها امنة مطمئنة ممتعة: «ارجعي إلى الجعرانة تكونين مع قومك» وكانت الجعرانة محبس سبي هوازن، حبسه ﷺ فيها مستأنياً بهوازن لعلها تثوب إلى الإسلام وتجيء مسلمة فيردّ سبيها، ثم قال ﷺ للشيماء زيادة في طمأنتها: «إني أمضي إلى الطائف» فرجعت الشيماء مكرّمة إلى الجعرانة لتكون مع قومها من الأسارى والسبايا، حتى وافاها رسول الله ﷺ بالجعرانة، وأعطاها فوق ما أعطاها من قبل نعماً وشاء لها ولمن بقي من أهل بيتها.

هذا الموقف النبيل الكريم ـ الذي وقفه رسول الله ﷺ من الشيماء أخته من الرضاعة وقد جيء بها إليه ﷺ سبية في سبايا قومها هوازن، فتعرفت له ﷺ فعرفها ـ يمثل جانباً جزئياً في منهج الرسالة الخالدة، ذلك هو منهج التلطف الأكرم، والحفاوة العاطفة بمن أزلقت به قدم الحياة ومجريات المقادير، وهو حري بما كان له من صلات عاطفية، وروابط إخاء ودود أن يكون في منزلة الشمول بالإكرام والحفاوة، وقد تكشفت أغطية الغيب بعد طول المدى عن تحقيق ما كان قد فوّته الزمن بمروره السريع الطويل، ونالت الشيماء من الإكرام والحفاوة ما لم يكن لها ولا لقومها في الحسبان.

نص آخر في استشهاد أبي عامر الأشعري وشجاعته وشجاعة أبي موسى الأشعري.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري، قال: لما فرغ ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي أبو عامر دريد بن الصمّة، وقتله، وهزم الله أصحاب دريد.

وهذه الرواية المخرّجة في أصحِّ الصحيح سنداً تتعارض مع الرواية التي تزعم أن قاتل دريد هو الزبير بن العوام، التي سقناها فيما سبق عن روايات أصحاب المغازي والسير، ولا شك أن رواية البخاري هي الراجحة بل هي الصحيحة.

قال أبو موسى رضي الله عنه: وبعثني ﷺ مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه رجل بسهم فأثبته في ركبته، قال أبو موسى: فانتهيت إلى أبي عامر، فقلت يا عمّ من رماك؟ فأشار إليَّ، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فلحقته، فلما رآني ولّى، فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف، فقتلته ثم قلت لأبي عامر: قتل الله قاتلك، فقال أبو عامر لأبي موسى: فانزع مني السهم، فنزعته فنزا منه الماء، فقال أبو عامر لأبي موسى: يا ابن أخي أقرىء النبي ﷺ السلام، وقل له: يستغفر لي، ثم مات أبو عامر، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل، وعليه فراش قد أثّر رمال السرير بظهره وجنبه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبي عامر وأنه قال: قل له: يستغفر لي، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ، ثم رفع يديه، وقال: «اللهم اغفر لعبيدٍ» - هكذا دون إضافة إلى شيء وهو اسم أبي عامر - (أبي عامر) ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة في الجنة فوق كثير من خلقك» قال أبو موسى: فقلت: ولي استغفر، قال: «اللّهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»!!

التشديد في النهي عن الغلول.

لما استسلمت هوازن بجموعها المهزومة، وفرّ من رجالها من فرّ إلى الطائف ودخلوا مع ثقيف في حصنهم أمر رسول الله ﷺ بجمع السبي والغنائم وجعلها في الجعرانة، وأقام على حراستها، والقيام بشؤونها مسعود بن عمرو الغفاري، وقيل: بُدَيل بن ورقاء الخزاعي.

روى الطبراني عن بُديل أنه قال: أمر رسول الله ﷺ أن تحبس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم، وكان ﷺ قد مضى إلى الطائف، ثم أمر منادياً ينادي في الناس: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغلّ»، وشدّد في النهي عن الغلول والخلس من هذا المال بما لا يعلم أنه شدّد بمثله في شيء أخذ بغير حله.

روى الإمام أحمد، وابن ماجه، والحاكم بسند صحيح عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أخذ يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم، فجعلهـا بين أصبعيه ثم قال: «أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخُمُس، والخمس مردود عليكم، فأدُّوا الخيـاط والمخيط، وإياكم والغلول، فإن الغلول عار، ونار، وشنار على أهله في الدنيا والآخرة».

إشفاق الناس وخشيتهم من مغبة الغلول.

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشفقوا على أنفسهم وخافوا خوفاً شديداً، فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعير لي دبر، فقال له ﷺ: «أما حقّي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك» فقال الأنصاري: أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها فرمى بها من يده.

وأخرج عبد الرزاق في مصنّفه من طريق زيد بن أسلم، عن أبيه أن عقيل بن أبي طالب دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطّخ دما، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليرده، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم.

هذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه ـ يمثل معْلَمًا من أهم معالم منهج رسالة الإسلام في التربية السلوكية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم في حياته العملية إيماناً وأمانة، لأن هذا النهي المتعمق في تقبيح الغلول إنما يقصد به النبي ﷺ تطهير المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة، لأن التساهل في

صغير الخيانة يسوق إلى كبيرها، والخيانة أرذل رذائل السلوك الإنساني.

ولهذا كانت استجابة الذين تساهلوا فغلُّوا بعض المحقّرات من الغنائم سريعة قاطعة لدابر هذه الرذيلة في السلوك الإسلامي، تطهّراً مما عساه أن يتسلّل في رغائب بعض الأفراد، فتكبر معه الاستهانة في صغائر المحقرات، فتمتد بين أيدي المستهينين إلى الكبير والصغير، وإلى ماله قدر بعد الحقير الذي لا قدر له، ثم يتأصل هذا المسلك المعيب، ويصبح عند من لا يرعوي خلقاً يفسد على المجتمع المسلم حياته الاجتماعية وتربيته الخلقية التي جاءت رسالة الإسلام لتطهِّر مجتمعها من أدرانه وتقيمه على دعائم استقامة السلوك، حتى تأخذ كل فضيلة إنسانية مكانها من خلائق المسلم، ثم لا تجد الرذائل وراءها مكاناً تفرغ فيه سمومها، وبهذه التربية السلوكية يصبح المسلم نموذجاً حياً لمعالم منهج رسالة الإسلام، يتحرك بين أرجاء الحياة بفضائله الإنسانية في أشخاص المسلمين أفراداً وجماعات، قدوة للذين يريدون الحياة الفاضلة في أكمل وأجمل مثلها الإنسانية.

ضخامة غنائم هوازن وقدوم وفدهم بإسلامهم.

ولقد كانت غنائم هوازن شيئاً كثيراً غامراً، عُرف منه فيما عَرف العادون المحصون ستة آلاف من النساء والأطفال، ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، إلى ما كان مع ذلك من البقر والحمير مما لا يعرف عدده، كما يدل عليه قول دريد بن الصمّة، وهو يحاور قائد حرب هوازن مالك ابن عوف النصري ـ وكان مالك قد حشد كل أموال هوازن وراء جيوشها ونسائها وأبنائها من الأطفال ـ: ما لي أسمع نهاق الحمير وخوار البقر، وإنما لم يذكر ذلك في إحصاء الغنائم لأن البقر والحمر لم يكونا من أصول أموال العرب التي يتكاثرون ويتفاخرون بها.

وفي المواقف التي تشيع فيها الفوضى والدهش يغيب عن الإحصاء ما لايقل عما أحصي وعرف، وطبيعة أرض العرب، ولا سيما منازل هوازن ببطونها الكثيرة وجبالها ووديانها وكهوفها ومغاورها وشعابها ومتعرجاتها ما يسهل تغييب الكثير من الناس والمال فلا يعرف ليُحصى، والمقصود أن غزوة

هوازن أفاض الله تعالى فيها من فضله وخيره وبركاته على المسلمين ما لم يكن له مثيل قط في غزوة من الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه في حياته المباركة، وقد استأنى رسول الله ﷺ بهوازن وانتظرهم قبل أن يتصرف فيما أفاء الله عليه وعلى المسلمين من أموالهم وسبيهم وذراريهم بالقسمة في مستحقيها من المجاهدين، أو بما يراه ﷺ لصالح الإسلام والمسلمين بضع عشرة ليلة، ظلَّ فيها هذا المال الكثير الضخم محبوساً في الجعرانة، رجاء منه ﷺ أن تقدم هوازن مسلمة، فلم يقدموا، فقسم الأموال إثر عودته من الطائف بعد حصارها الأول.

ثم ألقى الله نور الإسلام في قلوب هوازن فاهتدت، وقدمت وفودها وأشرافها على رسول الله ﷺ مبايعين مسلمين، ولكن قدومهم كان بعد أن قسمت غنائمهم من الأموال والسبايا والأطفال على جنود الله من المجاهدين، وملك كل ذي حق منهم حقه، وأسرعوا التصرف في الأموال.

هوازن تستعطف رسول الله ﷺ لرد سبيهم وأموالهم عليهم.

وقام أشراف هوازن يسألون رسول الله ﷺ أن يردّ عليهم سبيهم وأموالهم، فقالوا يستعطفونه ﷺ، ويستنزلون مكارم أخلاقه من عليا فضائله: يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منّ الله عليك.

ثم قام زهير بن صُرَد، وهو احد أشراف بني سعد الذين أرضعوا رسول الله ﷺ وهم بطن من هوازن، فقال زهير: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك، وخالاتك، وحواضنك اللاتي كنّ يكْفُلْنك، ولو أننا ملَحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين.

ثم قال زهير مستزيداً في استعطاف رسول الله ﷺ، واستجلاب رأفته.

امنن علينا رسول الله في كرم — فإنك المرء نرجوه وندّخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر — ممزق شملها في دهرها غير

رسول الله ﷺ يخير هوازن بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم.

فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا.

وفي رواية أن النبي ﷺ قال لهم: «معي من ترون» يريد ﷺ أصحابه المجاهدين معه الذين نصرهم الله على حشود هوازن، وتجمّعاتهم الهائلة، وأورثهم أموالهم وغنّمهم نساءهم وأبناءهم، ليشعر القوم أن الأمر بين المسلمين شورى، وأن هؤلاء المجاهدين قد أصبح لهم حق فيما ملكت أيديهم من هذه الأموال والسبايا بعد قسمها بينهم، وقد حاز صاحب كل حق حقه فلا يؤخذ إلا برضائه.

ثم قال رسول الله ﷺ لأشراف هوازن مبيِّناً أن إسلامهم كان أحب إليه من أموالهم وسباياهم: «وقد استأنينا بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت السبي، فاختاروا: إما السبي، وإما المال» فاختاروا السبي، فكلم أصحابه في ردِّ سبيهم عليهم، وبدأ ﷺ بنفسه وخاصة أهله وأقاربه وقال لأشراف هوازن يلقنهم ما يبلغون به رضا المسلمين من التوسل به ﷺ إلى المسلمين، والاستشفاع بالمسلمين إليه لرد سبيهم عليهم: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صلَّيت بالناس، فقولوا: «إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم» فلما صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قام أشراف هوازن، فتكلّموا بالذي أمرهم به رسول الله ﷺ من استرضاء المسلمين واسترحامهم لردِّ ما ملكوه بالقسمة من السبي، فبادر رسول الله ﷺ إلى ما وعدهم به من المكارم، ليقتدي به أصحابه رضي الله عنهم فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فأسرع المهاجرون فقالوا: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقفّاهم الأنصار فقالوا: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقالت بنو سُلَيم مراغمة لرئيسها عباس بن مرداس بمثل ما قال خُلَّص المسلمين من المهاجرين والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله، فقال لهم زعيمهم ابن مرداس لقد وهّنتموني، فلم يعبؤا بقوله، ومضوا مع الخيِّرين الأصفياء.

وخالف منهج المكارم التميميون، فاتبعوا رئيسهم الأقرع بن حابس في ضنّه بما عنده وعند قومه، وقفّاه سائراً على طريقته في الشحّ بما عنده وعند قومه الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، وتبعه قومه، وكان الأقرع ابن حابس وعيينة بن حصن الفزاري متلازمين مقترنين، وكانا إلى ذلك الحين ممن يُزَنّ بضعف الإيمان، ولا سيما الأحمق المطاع.

تميم وفزارة تتبعان زعيميهما الأقرع وعيينة في التنحي عن منهج المكارم.

فلما رأى رسول الله ﷺ هذا التدلّي إلى مواطىء الضنّ الشحيح من هذين الرجلين أراد أن يستصفي النفوس لتسمح بالبقاء صفاً واحداً، وتدخل ساحة المكارم، فقال ﷺ: «أما من تمسّك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل إنسان ست فرائض ـ أو قلائص ـ من أول ما نصيبه»، فطابت نفوس من كان مخالفاً، ورد المجاهدون على هوازن سبيهم من النساء والذراري.

وقد كان المسلمون المجاهدون المثل الأعلى في الورع والتقوى، ونظافة الضمير والمبادرة إلى الاستجابة لشفاعة رسول الله ﷺ، ففي حديث عبدالله ابن عمر عند ابن حُمَيد، قال: أعطى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب جارية من سبي هوازن، فوهبها لي، فبعثت بها إلى أخوالي من جمح ليصلحوا لي منها حتى أطوف بالبيت، ثم آتيهم، وأنا أريد أن أصيبها إذا رجعت إليها، فخرجت من المسجد حين فرغت، فإذا الناس يشتدون، فقلت: ما شأنكم؟ قالوا: ردّ علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبناءنا، فقلت: تلكم صاحبتكم في بني جمح، فاذهبوا فخذوها، فذهبوا فأخذوها.

وقد أوقع الله الأحمق المطاع عيينة بن حصن في هاوية شحّه وضنّه، فأخذ عجوزاً من عجائز هوازن وأبى عليه شرهه أن يردّها بما قال رسول الله ﷺ بست فرائض أو قلائص، طمعاً في أن يساوم عليها قومها، وقال: هذه عجوز وهي أم الحي، لعلّهم يغلوا في فدائها، وفي رواية الطبري: أرى عجوزاً وأرى لها في الحي نسباً، وعسى أن يعظم فداؤها، فقال زهير بن صرد السعدي الهوازني: خذها عنك فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا درها بماكد، ولا زوجها بواجد، فلما يئس الأحمق المطاع

ضعف عقل الأحمق المطاع وحرصه على الدنيا حرمه من نيل آماله في المغنم.

من الالتفاف إليها، وتركت له محقّرة ردّها بست فرائض، فشكا حاله وخيبة أمله إلى صاحبه الأقرع بن حابس فلم يشكه الأقرع بشيء يخفف من آلامه، بل زاده وخزاً وتقريعاً وتسفيهاً لرأيه، فقال له: إنك والله ما أخذتها بكراً غريرة، ولا نصفاً وثيرة.

إسلام مالك بن عوف ومجيئه إلى رسول الله ﷺ لتلطفه به ووعده بإكرامه.

ثم سأل رسول الله وفد هوازن عن مالك بن عوف قائد حرب هوازن، فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددتُ عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل» فأُتي مالك بقول النبي ﷺ ووعده الصادق، فخرج مالك من الطائف ليلقي بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ مسلماً مستسلماً، وكان مالك قد خاف ثقيفاً على نفسه إذا علموا أن رسول الله ﷺ أرسل إليه بوعده أن يضفي عليه من مكارمه ما يأسو به جراحه، فحبسوه في حصنهم، ولكن مالكاً ليقينه بصدق النبي ﷺ ووفائه بوعده، ولما كان فيه من حيرة وبؤس وقد أصبح أسيراً لثقيف يتحكّمون في حياته، وقد كان بالأمس القريب قائد جحافل هوازن وثقيف خاضعين له، يأتمرون بأمره، فاحتال للخروج من حصنهم، والتفلّت من سلطانهم وحصارهم الذي ضربوه عليه، وأمر براحلته فهيئت له، وخرج من الطائف متخفياً بظلام الليل حتى أتى رسول الله ﷺ بالجعرانة أو بمكة، فردّ عليه رسول الله ﷺ أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم مالك فحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ﷺ على قومه، وعلى من أسلم من القبائل التي كانت حول الطائف، فكان مالك يقاتل بقومه وبمن آمن معهم ثقيفاً، فلا يخرج لهم سَرْح إلاّ أغار عليه حتى ضيّق عليهم مسالك الحياة، وكان عمله هذا تمهيداً لغزو ثقيف وحصارها واستسلامها، وكان مجيء مالك ابن عوف إلى رسول الله ﷺ نهاية أحداث غزوة حنين، وإسلام هوازن، وقد عاد النبي ﷺ إلى مدينته المنوّرة مظفَّراً منصوراً واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم لنا فيئنا من الإبل والغنم حتى ألجؤوه إلى شجرة خطفت رداءه، فقال ﷺ: «ردّوا عليّ ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً، ولا جباناً ولا كذّاباً».

وقد سمت مكارم رسول الله ﷺ في الجود بهذا المال الكثير الغامر

الذي يعجز الإحصاء عن حصره إلى ذروة الذرا في الفضائل الإنسانية، فلم يُنِل نفسه الشريفة من هذه الغنائم شيئاً، حتى الخمس الذي جعله الله تعالى له حقاً خالصاً ينفقه فيما يرى من مصالحه ومصالح المسلمين وإيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ردّه على عامة الناس، كما أنه ﷺ لم يُنِل خواصّ أصحابه من المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن رسخ إيمانهم، وصفا يقينهم، فأنفقوا أموالهم وثرواتهم في سبيل الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الهدى وإقامة معالم الدين الحق منالاً، ولكنه ﷺ جعلها كلها على ضخامتها وكثرتها في استئلاف قلوب الذين لم يسلموا أو الذين أسلموا ولم يخلص إيمانهم من شوائب الريب والبأو الجاهلي، وإشفاقاً عليهم أن تتخطفهم الشياطين فتكبهم في النار على مناخرهم، وكان هؤلاء المستألفون أشرافاً من أشراف جاهلية قريش وغيرها من قبائل العرب.

تسامي مكارم النبي ﷺ في إغراق العطاء لاستئلاف القلوب على الإسلام.

فأعطى ﷺ المئين من الإبل والعديد من أواقي الفضة لأفراد من هؤلاء المؤلفة، وأعطى أقواماً دونهم دون ما أعطاهم، بل أعطى بعض الأفراد ما لا يعرف إحصاؤه، ولكنه كان شيئاً من الإبل والغنم يملأ وادياً.

مكارم النبي ﷺ ترضي مطامع صفوان ابن أمية ليخلص إيمانه.

ذكر الواقدي أن صفوان بن أمية طاف مع رسول الله ﷺ قبل أن يسلم يتصفح الغنائم إذ مرّ بشعب مملوءٍ إبلاً وغنماً، فأعجب هذا الوادي بما فيه صفوان، وجعل ينظر إليه، فقال له النبي ﷺ: «أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟» فقال صفوان: نعم، فقال له ﷺ: «هو لك بما فيه» فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله، ما طابت بهذا نفس أحد إلا نبي. ومن حديث صفوان في الصحيحين أنه قال: ما زال يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليّ حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه، وفي رواية مسلم أنه ﷺ. أعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة، وفي هذا بيان لقوله في الرواية الأولى: ما زال يعطيني، وعند ابن إسحق عن محمد ابن إبراهيم بن الحارث أن قائلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال له: أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس مائة، مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري؟ فقال ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لجُعيل بن سراقة خير من طِلاع الأرض، كلهم مثل عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، ولكني

تألفتهما ليسلما، ووكلت جُعيل بن سراقة إلى اسلامه».

وقد ذكر أهل المغازي وأرباب السير أنه ﷺ كسا كل واحد من السبي قبطية، ونقل بعض السيريين عن مغازي ابن عقبة أن النبي ﷺ كسا السبي بروداً هجرية.

لطيفة من المكارم النبوية وكشف ما فيها من تلطف.

ومن لطائف المكارم النبوية التي ذكرت في هذا المقام أن رجلاً من الصحابة الذين شهدوا حنيناً قال: إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي، وفي رجلي نعل غليظة إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته، فقرع قدمي بالسوط وقال: «أوجعتني، فتأخر عني» فانصرفت، فلما كان الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني، فقلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله ﷺ بالأمس، فجئته وأنا أتوقع فقال لي: «إنك قد أصبت رجلي بالأمس، فأوجعتني، فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوِّضك منها» فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني.

في هذه القصة اللطيفة موضع للتأمل الفكري، ومنزل من منازل السلوك التربوي بما حوته من تصرف جمع ألواناً من دروس التربية والتأديب، ثم انتهى إلى الرحمة المشفقة ملفوفة في نسج من الإحسان الأكرم والإنعام الرحيم.

فهذا رجل من عامة الصحابة لم تعرف له خصيصة القرب من رسول الله ﷺ في مماشاته، ولكنه لما كان يرى من سهولة أخلاقه ﷺ اقترب منه حتى زاحمت ناقته ناقته، والركب يعج بالحشود الهائلة من كتائب الجهاد، ومعها ركائبها وأسلحتها وأمتعتها، وهي تسير في لجّة ورجّة مدوية شديدة اختلاط الأصوات، وزاحم الرجل في مماشاته رسول الله ﷺ فوقع حرف نعل الرجل الغليظة على ساقه ﷺ فأوجعته، فكان من حسن التربية والتأديب الاجتماعي، وحكمة السياسة التعليمية أن ينبِّه ﷺ هذا الرجل الذي تخطّى مكانه الاجتماعي في الركب حتى ماشى رسول الله ﷺ، فزحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ في مماشاته حتى وقع حرف نعله الغليظة على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته، وكان رسول الله ﷺ رقيق البشرة، سوي المزاج، لم يألف هذا اللون من المزاحمة الذي خلا من أبسط صور الأدب الاجتماعي، وإن

كان غير مقصود، وفي تعبير الرجل عن وقع حرف نعله الغليظة على ساق رسول الله ﷺ بلفظ (فأوجعته) دلالة على إحساس الرجل بأن وقع حرف نعله الغليظة على ساقه ﷺ كان شديداً مؤلماً، وقد أبان ﷺ عن ذلك بقوله، وهو يقرع قدم الرجل بسوطه: «أوجعتني فتأخر عني»، وأسرع الرجل إلى الإنصراف عن مكانه بعيداً، وهو يخاف عاقبة ما كان منه، حتى إذا كان الغد أخذ رسول الله ﷺ الإشفاق على الرجل فالتمسه فازداد خوف الرجل، وداخلته الأوهام والظنون في أن رسول الله ﷺ إنما يلتمسه ليزيد في عقوبته وزجره، فجاء إليه وهو يتوقع ما خافه، ولكنه رأى وهو بين يدي رسول الله ﷺ من التلطف به والإحسان إليه ما لم يخطر له على بال، فبادر ﷺ فأخبره بسبب التماسه ليهدِّىء من رَوْعه حتى ينزل الإحسان إليه على قلبه برداً وسلاماً ورحمة وإنعاماً، فقال له: «إنك أصبت رجلي بالأمس، فأوجعتني، فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوضك منها».

هذه مكرمة من مكارم رسول الله ﷺ جمعت من صور التربية السلوكية والرحمة ما لم يُعرف في إطار المكارم والفضائل الإنسانية إلا له صلوات الله وسلامه عليه، فهو قد بدأ فأدَّب أدباً أملته روح التربية التي كانت شعاره ﷺ في بناء مجتمعه المسلم، ليجعل من هذا المجتمع بناء إنسانياً سليم التركيب الاجتماعي، مستقيم السلوك، قويم الأخلاق، ثم أشفق فرحم وأحسن فأنعم، وأعطى فأكرم، وعوض الرجل عن ضربة ضربها له تعويضاً مسح به ما ألمّ بالرجل من خوف أرعبه، ومن توقع أقلقه، فأهدى إليه عطية أثلجت قلبه، وغسلت عنه كل ما كان في إحساسه ومشاعره، وأعلمه أنه ﷺ في عظيم خلقه ورأفته بمجتمعه أفراداً وجماعات، ورحمته بالحياة بمن فيها وما فيها أنه لا ينتقم لنفسه قط، وأن تعزيراته وعقوباته إنما كانت من قبيل التربية السلوكية والتأديب المهذب، وقد غلبت رحمته غضبه تخلقاً بأخلاق الله تعالى، ورأى أن قرع قدم الرجل بالسوط قد يتصوره من لم يكن على علم تام بمكارم أخلاقه أنه انتصار لنفسه، فأراد صلوات الله عليه أن يمحو هذا الوهم من أنفس من يتوهمونه، فالتمس الرجل ودعاه إليه، وأخبره بسبب التماسه إليه، وأعطاه عطية تهلّلت لها أساريره بالفرح والبهجة.

موقف الأنصار من غنائم حنين
وموقف النبي ﷺ منهم

الأنصار درع الإسلام الحصينة في مواقفهم الجهادية.

الأنصار كتيبة الإسلام الأولى مع السابقين الأولين من المهاجرين، لم تفقدهم غزوة مع رسول الله ﷺ، ولم تفتهم سرية من سرايا الجهاد، ولا بَعْثة من بعوث الدعوة إلى الله التي كان ينفذها رسول الله ﷺ ويعقد راياتها، ويوجهها إلى أقوام من أعداء الإسـلام دُعوا إليه فأبوا إلا الكفر بالله والاستمرار على الوثنية الضالة.

وكان الأنصار في غزوات رسول الله ﷺ التي قادها بنفسه الشريفة حرسه الخاص الذين يفدونه بأرواحهم وأموالهم ودمائهم، وكانوا في غزوة الفتح الأعظم، فتح البلد الأمين مكة المكرمة هم الكثرة الغامرة الذين اصطفاهم القائد الأعظم رسول الله ﷺ ليكونوا كتيبته الخضراء، يحيطونه بأنفسهم، ويحمونه بسيوفهم، وكانت حملات القتال في جميع الغزوات لهم أو عليهم، فإن كانت لهم لم يكونوا إلاّ طليعة للمكارم، وإن كانت عليهم هانت عليهم أرواحهم في سبيل الله، فهم الصُبُر عند اللقاء الصُّـدُق إذا احمرت حومة الوغى وحمي الوطيس.

بهذه القوة الفدائية كان موقف الأنصار في حنين وبهذه القوة البطولية كروا على الأعداء فكان النصر.

وبهذه القوة الفدائية كانوا في غزوة حنين أمام حشود هوازن، وتجمعاتها الهائلة التي لا يحصيها العدّ ـ ولما انهزم الرعاء من القبائل، وتبعهم الطلقاء ومن كان على غرارهم ـ ممن لم تشرب قلوبُهم الإيمان في صدق تبعاته في أول جولة فوجئوا فيها برشق السهام دفعة واحدة، وهم غارّون، فلم يحتملوا رشق النبال تمطرهم بالسهام، ولم يصبروا على عضّ السيوف، وكانت لحظة

من لحظات الدهش المذهل، وتقعسس النـاس، وفرّوا، ووقف رسـول الله ﷺ في قلّة من أبطال الهاشميين، لا يزول ولا يحول ـ كان الأنصار هم المنادَيْن للكرّة الصادقة على الأعداء، وخُلعت عليهم من القائد الأعظم رسول الله ﷺ خلِع البطولة، ونُودوا بألقابهم ألقاب الفدائية والشجاعة، فقيل لهم: يا أصحاب السَّمُرة تذكيراً لهم ببيعة الرضوان التي بايعوا فيها رسول الله ﷺ على الموت، وقيل لهم: يا أصحاب سورة البقرة تذكيراً لهم بما فيها من آيات الفداء وحب الاستشهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، وقيل لهم يا أنصار الله، تذكيراً لهم بما عاهدوا الله ورسوله عليه من نصرة دينه، في بَيْعتهم الكبرى، فكان جوابهم عن كل هذا قولهم: لبيك، يا لبيك، وكرُّوا على جموع هوازن وثقيف وسيوفهم بأيديهم كأنها الشُّهب حتى أزالوهم عن مواقفهم، وهزموهم شر هزيمة، وأخذوهم بالأيدي أسراً وسبياً، بعد أن قتلوا منهم عديداً من الرجال المحاربين، وطابت للمسلمين غنائمهم التي لا يأخذها العدُّ والحصر ولا يأتي عليها الإحصاء والتقدير، وكان الأنصار أحق بها وأهلها.

وقد أشرنا إلى موقف بيضة الإسلام المهاجرين السابقين الأولين الذين انفردوا بشرف السبق فلم يُلحقوا في الفضل، فكانوا أخصّ الخاصة في مواطن العزّة والفداء والبطولة عندما ذكرنا أن رسول الله ﷺ لم يُنِل نفسه الشريفة من هذه الغنائم شيئاً قط، كما أنه ﷺ لم يعطِ خواصَّ أصحابه، وفي طليعتهم المهاجرون ولا وبَرَة.

شباب الأنصار يتكلمون لحرمانهم من غنائم حنين على كثرتها الهائلة.

وإنما عرضنا هنا لموقف الأنصار، لأن بعض ذوي الطموح من حدثائهم عزّ عليهم أن يعطي رسولُ الله ﷺ غنائم هوازن على كثرتها الهائلة للطلقاء، والذين في قلوبهم مرض من مسلمة الفتح بصورة فاقت كل صور الكرم الإنساني، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، وهم يرون أن سيوفهم لا تزال تقطر دماً من جموع هوازن وثقيف وحشودهم ممّا كان هو السبب المباشر في حيازة هذه الغنائم الهائلة الضخمة الغامرة، كما أن هذه السيوف الأنصارية هي التي قهرت من ظلَّ على كفره وعتوه من أهل مكة، فساقتهم إلى الإسلام

طَوْعاً أو كَرْهاً، فتكلم شباب الأنصار وحدثاؤهم في ذلك بكلام ينمُّ عن غضبهم، وتخوّفهم أن يتركهم رسول الله يرجعون إلى المدينة، وليس هو ﷺ فيهم، بل يبقى بين قومه في بلده (مكة)، وسكت كبراؤهم وذوو الرأي فيهم فلم يشاركوهم فيما تكلّموا به، ولم ينهوهم عنه.

تلطف رسول الله ﷺ مع الأنصار وإبرازه مناقبهم في الإسلام.

وبلغ حديثهم رسول الله ﷺ، فدعاهم دعوة خاصة إلى الاجتماع به، فجاؤوه: أشرافهم وحدثاؤهم، فتحدث إليهم حديث الوفاء والحب وعرفان الجميل المشكور الذي لا يُنكر، وأراهم منزلتهم من الإسلام، وما بذلوا في سبيل إعزازه من الحب لله ورسوله ﷺ، وحسم الأمر بما جعلهم يفيئون إلى منازل رسوخ اليقين، ووزن الدنيا وزخرفها بميزانها عند رسول الله ﷺ من سرعة تقضّيها وفنائها وحقارة زهرتها، وما يصحبها من غصص وأكدار، فرفع أفئدتهم إلى سمو الآخرة وخلودها وخلوص نعيمها من شوائب الأكدار لمن كان من أهلها في رسوخ الإيمان وصالح العمل.

وكانت الآية الكبرى في هذا الحديث معهم تطمينهم إلى أن رسول الله ﷺ لن يتركهم يعودون إلى دار الإيمان المدينة المنورة، وهو ﷺ ليس معهم يقودهم في عودتهم المظفّرة إلى داره ودارهم، فمحياه ﷺ محياهم، ومماته مماتهم، وسيرجعون به إلى دار الإيمان يحوطهم بكنفه، ويكنفهم بحبه ورعايته، يسدّدهم ويربيهم بأرفع دروس التربية والتفقه في الدين، ويعلّمهم ممّا يعلّمه الله، ويرجع الناس إلى منازلهم بالشاء والبعير، فبكى الأنصار وقالوا: يا رسول الله، قد رضينا.

أخرج ابن إسحاق والإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري، قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك الغنائم في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه.

وفي مواهب القسطلاني، فقال ناس من الأنصار: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، والله إن هذا لهو العجب، إذا كانت شديدة نُدعى وتعطى الغنائم لغيرنا، وودنا أن نعلم ممّن

كان هذا؟ فإن كان من الله صبرنا، وإن كان من رأيه ﷺ استعتبناه، وفي حديث أبي سعيد عند الإمام أحمد وابن إسحق: فقال رجل من الأنصار: لقد كنت أحدِّثكم أنه لو استقامت الأمور، لقد آثر عليكم غيركم، فردّوا عليه ردّاً عنيفاً.

وعندنا أن هذا الرجل لم يحسن أن يتكلم بكلمة الإيمان المهذب، ولا ندري إذا صحت الرواية هل كان ممن آمن ولم يرسخ الإيمان في قلبه، فغلبت عليه العنجهية الجاهلية، فقال ما قال؟ ومن ثَمّ فقد عَنّف في الرد عليه المؤمنون الصادقون، أو كان ممن في قلبه مرض، فتكلم بأسلوب مرضى القلوب؟.

وهذا كله كان من حدثائهم وشبابهم، أما رؤساؤهم، فسكتوا ولم يقولوا شيئاً، كما هو صريح رواية الصحيح التي جاء فيها: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً.

سعد بن عبادة سيد الخزرج يستطلع حكمة تصرفه ﷺ في غنائم هوازن.

وعند الطبري من رواية أحمد وابن إسحق، فدخل عليه سعد ابن عبادة فقال: يا رسول الله، هذا الحي من الأنصار قد وجَدُوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، فقال النبي ﷺ لسعد: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» فقال سعد: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

وهذا القول من سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، والخزرج غمرة الأنصار وكثرتهم إنما أراد به أن يستطلع لقومه حكمة السياسة النبوية في هذا التصرف ليظهرهم على السبب الذي لأجله تصرّف رسول الله ﷺ فيما أفاء الله عليه وعلى المسلمين من غنائم هوازن، ليستصلح سعد نيات قومه ويصفّي إخلاصهم لله تعالى في جهادهم، ويعلّمهم أن الجهاد في سبيل الله لم يكن في دين الإسلام كحروب الجاهلية، تشعل نيرانها لجمع الغنائم من الأموال والسبايا، وإنما هو قتال لإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الإسلام، وتأليف القلوب على حبِّ هذا الدين القيِّم. ولهذا قال رسول الله ﷺ لسعد

حديثه ﷺ مع الأنصار فيما بلغه من مقالة حدثائهم حتى أرضاهم فبكوا إشفاقاً وحباً.

ابن عبادة: «فاجمع لي قومك في الحظيرة»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال ﷺ: «يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم؟ وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، لله ورسوله المنّ والفضل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ورسوله المنّ والفضل، فقال رسول الله ﷺ يلقنهم ألواناً من الفضل انفردوا بها عن سائر من أظلّه لواء الإسلام في أرض الله تبياناً لرفيع منزلتهم، ليعرف حُدّثاؤهم أنه ﷺ لم يحرمهم العطاء من هذه الغنائم جحداً لفضلهم، وإنكاراً لمنزلتهم، وإنما أعطى العطاء العظيم ليتألف به قوماً حديثي عهد بكفر، أشفق عليهم أن يستحوذ الشيطان على قلوبهم فيوطن فيها الكفر، ويردّهم على أعقابهم إلى الشرك والوثنية، وهما لا يزالان في مداخل أنفسهم متزملين برداء ميراث الجاهلية، وقد جاء في رواية أن فقهاء الأنصار قالوا: أما فقهاؤنا فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم».

الحياء منع الأنصار أن يجيبوا النبي ﷺ فأجاب عنهم تلطفاً بهم وحباً لهم.

ثم انتقل بهم ﷺ إلى ما يستل من نفوسهم كل إحساس بأن هذا العطاء الذي تألّف به قوماً أشفق عليهم أن تتخطفهم الشياطين، فتهوي بهم إلى عذاب النار، ويردّوهم عن الإسلام الذي دخلوا في ساحته ولم يشربوا حبه، وأنه ﷺ ترك الأنصار ـ وهم مَنْ هم من السؤدد والفضل ـ لرفيع منزلتهم في الإسلام، ورسوخ إيمانهم بموجباته، ومعالم هدايته، فقال لهم مشيداً بمآثرهم: «أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصُدِّقتم، أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا

الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكت شِعْب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

ملاحقة فلول ثقيف في حصونهم بالطائف

لم تكن غزوة الطائف غزوة مستقلة، قصد إليها رسول الله ﷺ قصداً قتالياً، ولكنها كانت من ملحقات غزوة حنين.

وقد ذكرت روايات تجمّعات بطون هوازن ومن ضوى إليها من القبائل التي حولها بقيادة مالك بن عوف النَّصري أن ثقيفاً كلها انضمت مع جموع هوازن لمحاربة رسول الله ﷺ، فلما انهزمت جموع هوازن، حقّت الهزيمة المنكرة على ثقيف، وفرّ المنهزمون من رجال هوازن إلى الوديان، والشِّعاب، وقمم التلال والجبال.

وبعث رسول الله ﷺ السرايا والبعوث في أثرهم، وأمر بتتبع المنهزمين الذين فرّوا إلى الوديان والشِّعاب ليقضي على ما بقي لديهم من أسباب المقاومة بكسر شوكتهم.

مفاوضة خالد ابن الوليد ثقيفاً ليستنزلهم من حصنهم.

كانت فلول المنهزمين من ثقيف قد يمّمت بلدها الطائف، وكان فيهم قائد الحملة مالك بن عوف، فاعتصمت هذه الفلول بحصون الطائف بعد أن حصّنتها تحصيناً قوياً، وأدخلوا فيها ما يصلحهم من مؤن وطعام وأسلحة، حتى لا يحتاجوا إلى النزول منها إلا إذا نفد ما جمعوه، وكان شيئاً كثيراً، قيل إنهم زعموا أنه يكفيهم سنة أو أكثر، وتهيؤوا للقتال من وراء حصونهمْ بأسلحة ليس أسلحة الكرِّ والفرِّ، ولكنها كانت أسلحة رمي من أعالي الحصون، أعدُّوا فيها سككاً من حديد، وجمعوا حجارة كثيرة، وأمنوا سَرْحهم في رعيه، فأمروا رعاتهم أن يرتعوا في مواطن يأمنون فيها سطوة

الجيوش المسلمة، وقاموا على حصونهم بالسلاح والرجال.

وكان رسول الله ﷺ قد قدّم خالد بن الوليد على مقدمته في ألف مقاتل من سُلَيم وغيرهم من القبائل التي كانت تحت راية خالد في فتح مكة ومن انضم إليهم من الطلقاء، فدنا خالد من حصنهم، ودار حوله، ونظر في نواحيه عسى أن يجد منفذاً ينفذ منه إلى ثقيف ومن معها، فيشغلهم بالقتال في داخله ويفتحه لكتائب المجاهدين، ولكنه لم يعثر على منفذ ينفذ منه إليهم، فلجأ إلى سياسة المفاوضة معهم، فوقف في ناحية من الحصن، ونادى ثقيفاً. ينزل إليّ أحدكم أكلمه وهو آمن حتى يرجع إليكم، أو اجعلوا لي مثل ذلك، وأدخل عليكم أعلمكم، فأبوا ذلك إباء شديداً وأن يفتحوا معه باب المفاوضة على أي صورة، وقالوا له: لا ينزل إليك رجل منا، ولا تصل إلينا، ثم أخذتهم العزّة بالإثم، ونفخ الشيطان في معاطسهم نفخة العتوّ والفجور، فقالوا كما قال قائدهم في حملة هوازن مالك بن عوف، ومن قبله يهود بني قينقاع: إن صاحبكم لم يلق قوماً يحسنون القتال غيرنا، فقال خالد ليذهب غرورهم ويكسر شوكتهم، ويكفكف من عنجهيتهم وبأوهم، ويريهم ما لعلهم لم يكونوا قد رأوه من انتصارات النبي ﷺ على جميع من حاربوه عناداً وكفراً: فاسمعوا من قولي: نزل رسول الله ﷺ بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر، وبعث رجلاً واحداً إلى فدك، فنزلوا على حكمه، وأنا أحذّركم مثل ما نزل بقريظة، حصرهم رسول الله ﷺ أياماً، ثم نزلوا على حكمه فقتل مقاتلتهم في صعيد واحد، وسبى الذرية، وفتح مكة، وأوطأ هوازن في جموعها، وإنما أنتم في حصن في ناحية من الأرض، لو ترككم رسول الله ﷺ لقتلكم من حولكم ممن أسلم، فقالوا عناداً وكفراً: لا نفارق ديننا، فتركهم خالد ورجع إلى كتيبته.

وكان في من حصر من ثقيف عمرو بن أمية الثقفي، وهو داهية العرب قال لهم يحرضهم: لا يخرج إلى محمد أحد منكم إذا دعا أصحابه إلى البراز، دعوه يقيم ما أقام، فنادى خالد: من يبارز؟ فلم يُجَب منهم للبراز عملاً برأي داهيتهم عمرو بن أمية، وصرخ عبد يا ليل يجيب خالداً فقال: لا ينزل إليك أحد، ولكنا نقيم في حصننا، خبأنا فيه ما يصلحنا السنين، فإن

أقمت حتى يذهب ذلك الطعام خرجنا إليك جميعاً بأسيافنا حتى نموت عن آخرنا.

حصار ثقيف

حصار ثقيف وشدته على المسلمين.

سار رسول الله ﷺ إلى ثقيف، وهي محُصّنة في حصونها بعدما تأهّبت لطول الحصار بما أعدّت من مؤن وطعام وأسلحة، ونزل بكتائبه المجاهدة قريباً من حصنهم، وهيأ نزلاً لعسكره، وأشرف أشراف ثقيف من فوق حصنهم فرأوا عسكر رسول الله ﷺ قريباً من حصنهم تناله نبالهم وسهامهم، فرموا المسلمين بالنبل والمقاليع رمياً شديداً، ودلّوا على من زحف من المسلمين إلى حصنهم سكك الحديد المصهورة بالنار حتى أصابوا عددا من المسلمين بالجراح، وقتلوا عدداً آخر،فارتفع رسول الله ﷺ بعسكره عن منزله الذي نزله أول ما نزل، وكان قريباً من حصن ثقيف، تناله نبالهم ومقاليعهم إلى منزل أبعد من مرمى النبل والمقاليع.

وظل رسول الله ﷺ محاصراً لحصن ثقيف حصاراً اختلفت فيه الرواية اختلافاً واسعاً، لا تتلاقى أطرافه، ومن أكثر الروايات مبالغة في تقدير مدة الحصار ما رواه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده من حديث أنس أن هذا الحصار كان أربعين يوماً، وأقربها وأشهرها أنه ظل بضع عشرة ليلة، قال ابن حزم: وهذا هو الصحيح بلا شك، ولا ندري ما مراد ابن حزم من جزمه الموكد بأن هذا هو الصحيح، فإن أراد صحة السند، فهو معارض برواية مسلم وسنده، ورواية أحمد وسنده، وإن كان قد أراد صحة المتن فمن أين أخذه؟.

ولو لم يكن لمسلم رواية لكان لتصحيح ابن حزم رواية بضع عشرة ليلة وجه وجيه لأنها تشمل سائر الروايات التي حدّدت مدة الحصار بأقل من عشرين ليلة لشمول البضع وصدقه على تسع عشرة ليلة فأقلّ، ولكن تبقى معارضة رواية مسلم وأحمد بأربعين ليلة، وسند مسلم لا يُطعن فيه إلاّ بأمر بينّ.

وقد ذكر القسطلاني في مواهبه ثمانية عشر يوماً، وحكى ابن سعد في الطبقات خمسة عشر يوماً، وذكر ابن هشام سبع عشرة ليلة، وذكر ابن إسحاق من رواية زياد بضعاً وعشرين ليلة، ومن رواية يونس ثلاثين ليلة.

وكان الحصار شديداً على ثقيف، رماهم فيه ﷺ بالمنجنيق، ولكنهم لم يستسلموا ولم يحسم المنجنيق أمرهم، وظلوا على حالهم في احتمال شدة الحصار.

ولكن رسول الله ﷺ رأى أن يأخذهم بسياسة لا يطيقون الصبر على احتمالها، فأمر ﷺ أن يصنع ما يغيظهم ويستنزلهم إلى التفكير في التحرك للخروج من هذا الجمود وهم عاجزون عن الردّ على هذه السياسة التي كيدوا بها في أعز ما يملكون، إذ أمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخيلهم وتحريقها، فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً نكأ جراح ثقيف وآلمهم ولم يجدوا سبيلاً إلا أن يسألوا رسول الله ﷺ ضارعين أن يترك الأعناب والنخيل لله والرحم، وقالوا: لم تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظفرتم علينا، وإما أن تتركها لله والرحم، فكان ذلك أول خطوة كسروا الجمود فيها، وتحركوا نحو مقاربة المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ ليزيد في مقاربتهم للمسلمين: «إني أدعها لله والرحم».

ترغيب رقيق لحمل ثقيف على النزول.

ثم سلك بهم ﷺ مسلكاً آخر، لا يقل وخزاً في قلوبهم عن قطع أعنابهم ونخيلهم، بل كان أنكى لهم، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر» فخرج منهم كما ذكره ابن إسحق بضعة عشر رجلاً، فيهم أبو بَكْرة الصحابي الشهير.

وفي حديث البخاري عن أبي عثمان النَّهدي أن الذين نزلوا لما سمعوا منادي رسول الله ﷺ كانوا ثلاثة وعشرين رجلاً، قال أبو عثمان النهدي - واسمه عبد الرحمن بن ملّ - : سمعت سعداً وأبا بَكْرة عن النبي ﷺ قال: «من ادّعىٰ إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام» قال عاصم - الأحول - قلت لأبي عثمان: لقد شهد عندك رجلان حسبك بهما، قال أجل، أما

أحدهما فأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأما الآخر فنزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف.

وقد أعتق النبي ﷺ جميع من نزل إليه، كما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أعتق ﷺ يوم الطائف كل من خرج إليه من رقيق المشركين، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشقّ ذلك على أهل الطائف مشقّة شديدة، ولما أسلمت ثقيف تكلم أشرافهم في أرقائهم أن يردوهم إلى الرقّ، فأبى رسول الله ﷺ أن يردّهم إلى الرق، وقال: «أولئك عتقاء الله، لا سبيل إليهم».

أذن النبي ﷺ بالرحيل عن ثقيف بعد طول حصارهم فكره المسلمون ذلك.

وبقيت ثقيف في عنادها محصورة في حصنها، لم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف هذا العام، قال العلماء في بيان حكمة ذلك إشفاقاً عليهم أن يستأصلهم المسلمون لما وقع منهم لرسول الله ﷺ حين ذهب إليهم بعد موت عمه أبي طالب الذي كان له أقوى سند، وبعد خروجه ﷺ من حصار قريش، ذلك الحصار الظالم الذي تعاهدوا عليه وكتبوا به صحيفتهم الظالمة التي مزقها الله تعالى، فلم يبق فيها إلا اسمه جل شأنه، وكانت قريش قد اشتد ظلمها وعنادها له ﷺ بعد موت عمه إذ توهّموا أنّ الجو خلا لهم، فذهب ﷺ إلى ثقيف بالطائف فدعاهم إلى الله، وطلب منهم أن يؤوه حتى يبلّغ رسالة ربه، فكانوا أشد أهل الشرك قبحاً في ردِّهم عليه ﷺ، وآذوه إيذاء شديداً، وأبوا أن يدّرعوا بالمروءة العربية، ولكنهم وقفوا منه ﷺ موقفاً منكراً، وأخرجوه من ديارهم في صورة تمثل العناد والفجور والعتوِّ المتجبر في أقبح وأشنع صورها.

وقد زاد في غضب المسلمين عليهم أنهم انضموا إلى هوازن في حربها لرسول الله ﷺ مما جعل المسلمين يحملون لهم الحفيظة عليهم، فآثر ﷺ تحقيقاً لما جبله الله عليه من الرحمة والرأفة، وحبه لنشر رسالته الهادية أن يستأني بهم رجاء إسلامهم.

وقد استشار في شأنهم نوفل بن معاوية الدِّيلي، فقال له: «يا نوفل، ما ترى في المقام عليهم؟» فقال نوفل: يا رسول الله، ثعلب في جُحْر، إن

أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرك.

سياسة حكيمة جعلت المسلمين يرغبون فيما كانوا يكرهون.

ثم أمر ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يؤذن في الناس بالرحيل، فضج المسلمون من ذلك، وقالوا نرحل ولم تفتح علينا الطائف؟ فأخذهم ﷺ بسياسته الحكيمة المحكمة ولم يرغمهم على الرحيل بل قال لهم: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم الجراحات، فشكوا إلى رسول الله وقالوا: أخذتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم» ثم قال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى» فسُرَّ المسلمون بذلك، وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك تعجباً من تغيّر رأيهم، وفي حديث الصحيحين: لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف، فلم ينل منهم شيئاً قال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فثقل على المسلمين، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال ﷺ: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم جراحات، فقال ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى» فأعجبهم، فضحك ﷺ.

قال النووي في شرح مسلم: قصد ﷺ الشفقة عليهم والرفق بهم بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره، وشدة الكفار من أهله، وتقوّيهم بحصنهم، فلما رأى ﷺ حرص الصحابة على المقام والجهاد أقام وجدّ في القتال، فلما أصابتهم الجراح رجع ﷺ إلى ما كان قصده أولاً من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لمّا رأوا المشقة، ووافقوا على الرحيل، فضحك ﷺ تعجّباً من تغيّر رأيهم.

هذا موقف من مواقف معالم منهج رسالة الإسلام، وهو جدير بالتأمل ليستهدى بما فيه من سياسة حكيمة، تجلّت في مسلك رسول الله ﷺ وموقفه مع أصحابه، وأخذهم بالرفق، وموقفه مع ثقيف، وأخذهم بألوان من السياسة الحكيمة، على رغم ما أتوا إليه من سوء اللقاء والإيذاء، حين ذهب لدعوتهم إلى الله تعالى، وحين مكّنه الله تعالى منهم، فحصرهم في حصنهم حصاراً قيّدهم بأغلال الاستسلام، وإن طال عليهم الأمد فقد تلطّف بهم، وأشفق عليهم من سيوف أصحابه، ثم دعا لهم بالهداية واعتناق الدين

الحق، دين الإسلام، فقبل الله تعالى دعاءه لهم، وأقبلت وفودهم عليه ﷺ مسلمة مستسلمة.

وفي كل موقف من المواقف المتلطفة حيناً، والمشتدة حيناً آخر نماذج من معالم منهج الهداية في رسالة الإسلام، توجب على المسلمين في شتى أجيالهم أن يتخذوها مسلكاً في مواقفهم الداعية إلى الله، وسيرتهم الخالدة في نشر رسالة الإسلام.

إيمان مهزوز يقوم على الرغبة في حطام الدنيا.

ولما استقلّ الناس وهمُّوا بالمسير قافلين إلى المدينة المنوّرة نادى سعيد ابن عبيد بن أسيد الثقفي وهو محصور مع قومه: ألا إن الحيّ ـ يعني قومه ـ مقيم، فقال الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري ـ وكان في عداد المسلمين المجاهدين، ولكنه كان مهزوز الإيمان ـ أجل والله مجدة كراماً، يمدح ثقيفاً وهم في موقفهم لا يزالون على كفرهم وشديد عداوتهم للإسلام وأهله، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة!! أتمدح قوماً من المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ، وقد جئت تنصره؟ فقال عيينة: إني والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفاً، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف، فأصيب من ثقيف جارية أتبطنها لعلها أن تلد لي رجلاً، فإن ثقيفاً قوم مناكير.

إسلام عروة ابن مسعود الثقفي في طريق عودة النبي ﷺ إلى المدينة.

ولما جدّ برسول الله ﷺ وأصحابه السير، وهم قافلون لحقه في الطريق عروة بن مسعود بن معتّب أحد سادات ثقيف ـ وكان له موقف في الحديبية مشهّراً مذكوراً ـ فأسلم وبايع رسول الله ﷺ، وسأل رسول الله أن يرجع إلى قومه بإسلامه، ليدعوهم إلى الإسلام، فأشفق عليه رسول الله ﷺ من عناد قومه وعتو كفرهم، وعنجهيتهم، ونخوة امتناعهم عن مفارقة شركهم ووثنيتهم، فقال عروة: لأنا أحب إليهم من أبكارهم، وكذلك كان فيهم عروة محبّباً مطاعاً، فخرج عائداً إلى بلده وقومه، وأنبأهم بإسلامه، ودعاهم إلى الإسلام، ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم.

فلما أشرف عروة على عُلّية له، وأظهر لهم إسلامه، ودعاهم إلى الإسلام، وأنه آمن بالله رباً، وبمحمد رسولاً ركبوا صهوات حماقاتهم، واستزلّهم الشيطان بكفرهم، وعُتو فجورهم، فرموه بالنبل فقتلوه، فقال قوم

عروة له: ما ترى في دمك؟ يريدون الثأر له، فقال لهم عروة ليصرفهم عن مقصدهم: كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إليّ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، وقد قال فيه رسول الله ﷺ لما بلغه استشهاده: «إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه».

وقد أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً لا تتقدم ولا تتأخر، وطال عليهم الحصار واشتد، ورأوا مسارعة الناس إلى الدخول في دين الله أفواجاً، وصاروا في عزلة موحشة مكفهرة، وعلموا أن ما قال لهم خالد بن الوليد في محاوراته معهم حقٌ مشهود يرونه واقعاً بهم، فهم محصورون في حصن في ناحية من الأرض لو تركهم رسول الله ﷺ لقتلهم من أسلم حولهم، فائتمروا فيما بينهم، ومشى رؤساؤهم بعضهم إلى بعض، يتداولون الرأي، ويبحثون عن مخرج يوفضون إليه ليتقوا المزالق الموبقة.

بين عمرو بن أمية وعبد ياليل زعيمي ثقيف في محنتها.

وكان داهيتهم عمرو بن أمية الثقفي مهاجراً لطاغيتهم عبد يا ليل لما كان بينهما من سوء، فمشى عمرو بن أمية إلى عبد يا ليل بن عمرو حتى دخل عليه داره متناسياً ما بينهما من خصام ومهاجرة، ثم أرسل إليه بعض أهله وقال للرسول: قل له إن عمرو بن أمية يقول لك: اخرج إليّ، فلم يصدّق ذلك عبد ياليل واستغربه جداً واستبعده ـ لمكان عمرو بن أمية في ثقيف، وما كانوا يحملونه له من منزلة، وما كان معروفاً به من الدهاء وسعة التفكير، وجودة الرأي ـ فقال للرسول يكاذبه ويظهر له تعجبه مما يقول: ويحك، أعمرو أرسلك؟! قال الرسول: نعم، وهوذا واقف في دارك، فقال عبد ياليل: إن هذا أمر ما كنت أظنه، لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك.

وخرج عبد ياليل إلى عمرو بن أمية، فلما رآه رحب به، وقال له عمرو: إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحربه طاقة، فانظروا في أمركم.

واجتمع أشراف ثقيف، وائتمروا فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض:

وفد ثقيف يقدم على رسول الله ﷺ.

ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع به، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة بن مسعود، فكلموا عبد ياليل ـ وكان في سن عروة ـ وعرضوا عليه أن يكون رسولهم إلى رسول الله ﷺ، فأبى أن يقبل متمثلاً موقفهم مع عروة وقتلهم له، وهو يظهرهم على إسلامه ويدعوهم إلى الإسلام.

وقال عبد ياليل لقومه: لست فاعلاً حتى تبعثوا معي رجالاً، فأجمعوا على أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة رجال من بني مالك، فكانوا ستة يرأسهم عبد ياليل.

وإنما فعل ذلك عبد ياليل ليشغل كل رجل منهم إذا رجعوا للطائف رهطه بحمايته أن يصنع به ما صنع بعروة بن مسعود.

محاورة بين الصديق والمغيرة بن شعبة للإسراع بتبشير رسول الله ﷺ بقدوم وفد ثقيف.

فلما دنوا من المدينة المنورة لقيهم المغيرة بن شعبة، وهو ثقفي من رهط عروة بن مسعود، قديم الإسلام، وله موقف في الحديبية مع عروة في كف يده عن مسِّ لحية رسول الله ﷺ، وكان في موقفه شديداً على عروة، وكان المغيرة يوم قدوم وفد ثقيف في نوبته لرعي ركاب أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت رعيتها نوباً على أصحابه، تحقيقاً لأعظم مَعْلم من معالم منهج رسالة الإسلام وهو المساواة المتواسية بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته.

وقد فرح المغيرة بن شعبة بقدوم وفد قومه فرحاً شديداً، وترك الركاب التي يرعاها وضبر ـ أي وثب ـ ليبشِّر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فأخبره عن وفد ثقيف، وأنهم قدموا على رسول الله ﷺ يريدون البيعة والإسلام وأن يشرط لهم شروطاً، وأن يكتب لهم كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم.

وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلم الناس بما يدخل السرور على رسول الله ﷺ، فقال للمغيرة أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدّثه لعلمه باستشرافه ﷺ وشدّة رغبته في قدوم وفد ثقيف مسلمين، فأراد الصديق رضي الله عنه أن يكون هو الذي يبشره ﷺ قبل كل أحد ليدخل عليه السرور بقدومهم، ففعل المغيرة، وحقق رغبة الصديق

رضي الله عنه، وأقبل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدوم وفد ثقيف، وأنهم قد قدموا مسلمين، يريدون البيعة والكتاب في قومهم، ورجع المغيرة إلى ركب قومه مرحباً بهم، معلّماً لهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، وشاركهم في ترويح ظهرهم، ولكن عنجهية الجاهلية، ونخوة العتو فيهم أبتا عليهم إلا أن يتمسكوا بتراث جاهليتهم في تحية رسول الله ﷺ.

ابتهاج رسول الله ﷺ بقدوم وفد ثقيف وترحيبه بهم وإكرام نزلهم.

وأمر رسول الله ﷺ أن تضرب لهم قبة في ناحية من مسجده الشريف، وجعل خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بين رسول الله وبينهم في الحديث والمفاوضة حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد بن سعيد هو الذي كتب لهم كتابهم بيده، ولكنهم كانوا لا يزالون على مواريث الجاهلية، فكانوا لا يأكلون طعاماً حتى يأكل منه خالد بن سعيد قبلهم، جهالة منهم لمنزلة رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق، وجهالة منهم لمعالم رسالة الإسلام في تزكية النفوس وتطهير القلوب، وكراهية الغدر، وما يجب من إكرام الضيف.

ولكنهم لمّا أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ، وكتب لهم الكتاب الذي أراده في قومهم وبلدهم وأموالهم بدأت بشاشة الإيمان تخالط قلوبهم وتشرح صدورهم، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ وأعمالهم وتعبداتهم، وسمعوا القرآن الكريم، وسمعوا الحكمة تتنزّل على قلب رسول الله ﷺ فينشرها بين أصحابه إيماناً وعلماً وأدباً وتشريعاً وتربية.

وكان من أكثرهم حرصاً على التفقّه في الدين وتعلم القرآن عثمان ابن أبي العاص، وهو أحدثهم سناً، فأمّره عليهم رسول الله ﷺ بإشارة أبي بكر رضي الله عنه إذ قال: يا رسول الله، إني رأيت هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

جهالة جاهلة من مواريث الجاهلية.

وكان من جهالتهم الجاهلة أنهم في مفاوضتهم قد سألوا رسول الله ﷺ أن يترك لهم طاغيتهم (اللّات) فلا يهدمها، وجعلوا لذلك أجلاً مسمّىً، فأبى ﷺ ذلك إباء شديداً، وظلوا يتخففون من الأجل الذي سمّوه لمدة تركها شيئاً فشيئاً وشهراً شهراً خوفاً من سفهائهم ونسائهم وذراريهم،

وكرهوا أن يروّعوهم بهدمها حتى يؤنسوهم بالدعوة إلى الإسلام، فيدخل عليهم على حقيقته التوحيدية الخالصة من شوائب الشرك والوثنية، وعزم رسول الله ﷺ على أن لا يدعها شيئاً يسمّى قط، فسلّموا كارهين بعد ما شاهدوا روح التوحيد الخالص تسري في جميع أعمال الصحابة رضي الله عنهم.

إرسال أبي سفيان والمغيرة لهدم اللّات طاغية ثقيف.

وأرسل رسول الله ﷺ في أثر ركبهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة ابن شعبة لهدم الطاغية (اللّات) لما كان بينهما وبين ثقيف من صلات تكف ثقيفاً عن إيذائهما، فالمغيرة بن شعبة ثقفي من رهط عروة بن مسعود رضي الله عنهما، وأبو سفيان بن حرب، كانت ابنته تحت عروة بن مسعود، وقد ولدت له ابنه داود بن عروة.

وقد كان قتل عروة مرزأة لثقيف، أخاف رؤساءهم وأشرافهم أن يشعل بينهم حرباً داخلية بين أرهاط ثقيف لمكانة عروة فيهم، ومنزلة رهطه منهم، ولما كان بين عمرو بـن أمية وعبد ياليل من التصالح الذي بدأه عمرو ابن أمية داهية ثقيف.

ولما قدم أبو سفيان والمغيرة أراد المغيرة بن شعبة سياسة منه مع قومه أن يقدّم أبا سفيان لهدم الطاغية، فأبى أبو سفيان إلا أن يقابل دهاء المغيرة بمثله، فأحجم أن يتقدم على المغيرة خوفاً من ثقيـف ونخوتها في شركها ووثنيتها، وقال للمغيرة: ادخل أنت على قومك، وذهب أبو سفيان إلى مال له هناك بعيداً عن معمعان الرجّة في ثقيف.

المغيرة بن شعبة يهدم الطاغية وأبو سفيان يتفرج ويمالىء جهلة ثقيف.

ودخل المغيرة ميمّـماً الطاغية، وعلاها يضربها بالمعول، ووقف رهطه بنو معتّب دونه يحمونه من غوغاء ثقيف وسفهائهم خشية أن يرمى كما رمي عروة بن مسعود قبله، وخرج نساء ثقيف يبكين على طاغيتهم جهالة وكفراً، وكان أبو سفيان قد عاد من ماله حينما تثبّت من أمر المغيرة في هدم الطاغية، فوقف ينظر إلى ضربات معول المغيرة وهي تنزل على الطاغية فتفتتها، وهو يقول مصانعة لثقيف بقدر ما كان عنده من هزهزة: واهاً لك!! واهاً لك!! يظهر بذلك أنه خائف على المغيرة مشفق عليه أن توقع به الطاغية.

ولما انتهى المغيرة رضي الله عنه من تسوية بناء الطاغية بالأرض أرسل بمالها وحليِّها إلى أبي سفيان ليقوم بما أمر به رسول الله ﷺ من قضاء دين عروة بن مسعود من مال الطاغية.

* * *

وإلى هنا نكفُّ من عنان القلم عن الاسترسال في قصة أحداث ثقيف وإسلامهم وهدم طاغيتهم، لأن ما ذكرناه في ملاحقتهم إلى حصنهم ببلدهم الطائف بعد هزيمتهم مع حشود هوازن وجموعها ممن ضَوى إليهم من لفائف المتربصين من بقايا القبائل فيه غنية لتبيان ما قصدنا إليه من إبراز معالم منهج رسالة الإسلام.

فقد صار إليهم النبي ﷺ بنفسه الشريفة، يقود كتائب الجهاد في سبيل الله، ليحسم أمر الفارِّين من حُنَين، ويقضي على ما عسى أن يكون لهم من بقية قوة للمقاومة، يستغلها الشيطان في إثارة حمية الجاهلية لمواقفة حشود الإسلام المنتصرة.

وقد أوضحنا في ثنايا عرض الموقف ما كان من النبي ﷺ في محاولته أن يأخذ ثقيفاً بغير حرب مدمِّرة، وأنه ﷺ آثر أن يتلطف بهم ليهدي الله قلوبهم إلى الإيمان، ويقبلوا عليه مسلمين، فحاصرهم وصبر عليهم وصابرهم، ثم ارتحل عنهم بعد جولات بالترامي بالنبل والمقاليع التي استشهد فيها نفر من المجاهدين.

وكان أصحابه ﷺ كارهين لهذا الارتحال قبل أن تفتح عليهم الطائف، ولكن سياسة النبي ﷺ التي سلكها معهم جعلتهم يغيِّرون من رأيهم، ويرغبون فيما كانوا له كارهين من الرحيل عن ثقيف حتى يأتي الله بهم مهتدين.

تلطف رسول الله ﷺ بثقيف حتى هداهم الله.

ولم يكد رسول الله ﷺ يبلغ المدينة المنوّرة حتى تنزّل غيث الهداية على ثقيف، فائتمروا فيما بينهم وهم في حصنهم، ورأوا أنهم ـ كما قال نوفل ابن معاوية ـ ثعلب في جُحْر، لو تركهم رسول الله ﷺ لم يضروه شيئاً، وإن أقام

عليهم أخذهم، وكما قال لهم خالد بن الوليد في محاورته معهم: لو تركَكم رسول الله ﷺ لقتلكم من حولكم ممّن أسلم من القبائل، وتبيّن لهم أن لا محيص عن الاستسلام والإسلام، وركب وفدهم إلى رسول الله ﷺ ففرح بهم ورحّب بقدومهم، وأنزلهم منزلاً كريماً، ونصب لهم قبّة في ناحية من مسجده، وبالغ في إكرامهم، ولكن ذلك كله لم يكن ليطفىء نيران عتوهم وعنادهم مما تجلّى في مفاوضتهم للدخول في الإسلام دخول إيمان لا دخول سياسة واستسلام.

ولم يزل رسول الله ﷺ يروض جماحهم، ويكفكف من غلوائهم في عتو الكفر حتى آمن وفدهم، ورجع إلى قومه بإسلامه ودعوتهم إلى الدخول في ساحة الإيمان الصادق، وتقبل الله تعالى دعوة نبيه ﷺ فيهم، حين قال له أصحابه رضي الله عنهم لفرط ما أصابهم من طول الإقامة على حصارهم: ادعُ على ثقيف، فقد اخترقتنا نبالهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين».

فأسلموا وحسن إسلامهم، ولم يقع بينهم وبين جند الله الذين حاصروهم في حصنهم قتال مواجهة حتى صاروا من جند كتائب الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وشهد كثير منهم غزوة العسرة مع رسول الله ﷺ في تبوك، وكان هذا وأمثاله من أقوى الدلائل على أن غزوات رسول الله ﷺ لم تكن تستهدف القتال وجمع الغنائم وسفك الدماء، ولكنها كانت كلها للدعوة إلى الله، والدفاع عن الدعوة، وحماية حوزة الإسلام والمسلمين، فإن أغنت الحجة والبيان فلا يرفع في وجه أحد الحسام، ولا يطعن بالسنان، ومن لم يغنه البيان وناصع البرهان استؤني به حتى يثوب إلى رشده، ما لم يرفع يده في وجه الدعوة إلى الله، معوِّقاً سيرها، وناصباً قلاع القتال لحاملي راية الجهاد في سبيل الله، فعندئذ يجب جهاد القتال للظالمين المعتدين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد حتى يفيئوا إلى الحق ويعتنقوا رسالته.

أما إطلاق اسم غزوة على هذه الملاحقة الثقفية فهو من قبيل التوسع اللفظي، ولعل الحكمة في هذه التسمية التي أجمع عليها أرباب المغازي وأهل

السير وكثير من المحدِّثين هو وجود النبي ﷺ قائداً لكتائبها، ومدبِّراً لسياستها، وحاجزاً بين هؤلاء الفارِّين من هزيمة هوازن في حنين أن تأخذهم سيوف المسلمين مستأصلة لهم لما كان في سوابقهم من الإيذاء ومقاومة الدعوة إلى الله، وفجور الكفر الطاغي ممّا فصلنا في مواضعه ومناسباته، ولانضمامهم إلى هوازن في حربهم رسول الله ومجتمعه المسلم، فعفا عنهم، ودعا لهم بالهداية، لما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة، ومعالي مكارم الأخلاق.

إطلاق اسم غزوة على ملاحقة ثقيف في حصنهم توسع لفظي.

وبهذه الملاحقة لفلول ثقيف في بلدها الطائف وحصرها في حصنها، وما تمّ لهم من نعمة الإيمان والإسلام ببركة دعوة النبي ﷺ لهم بالهداية والمجيء بهم إليه مسلمين ختمت غزواته ﷺ القتالية التي غزاها بنفسه الشريفة الطاهرة المطهرة، قائداً لحشود الجهاد، إعلاء لكلمة الله، ونشر راية الإسلام على آفاق الجزيرة العربية التي أصبحت دار الإسلام، ولم يبق فيها منابذ لدعوته ﷺ، ولا مناكر للإيمان برسالته إلا حفنات منتشرة هنا وهناك في مضارب الأعراب وأطراف الأرض وأقاصي النواحي الذين لم يتركهم رسول الله ﷺ دون أن تبلغهم دعوته، بل أرسل إليهم البعوث والسرايا تدعوهم إلى الإسلام، فجالوا معهم جولات، فمنهم من آمن، ومنهم من قوتل وغُلب على أمره فأسلم استسلاماً حتى علم حقيقة دعوة الإسلام فأسلم إيماناً، وجاءت وفودهم إلى رسول الله ﷺ مسلمين مبايعين في طواعية وإخلاص، وكتبت لهم الكتب مرسلة إلى أقوامهم تدعوهم إلى الله تعالى، وإلى الإيمان بما أنزل من كتاب حكيم، جمع شرائع وأحكاماً وآداباً، وتربية سلوكية ونظماً اجتماعية، شملت قيام الأسرة على دعائم من الطهر والمودّة والرحمة، وشملت أصول التعامل بين الناس في الأموال والأخلاق وحسن المعاشرة وطرح مواريث الجاهلية إلا ما كان منها مكرمة إنسانية، ومنقبة اجتماعية، كانوا يتحاجزون بها عن الانزلاق إلى مساوي المنكرات ممّا أقره الإسلام، فأبقاه وحض عليه لأنه منطو تحت فضائله، داخل في مبادئه الإصلاحية حتى تشعر الحياة أنها حاملة في أردانها بذرة الخير التي تحتاج في نموها إلى من يتعهدها بالرعاية ويسقيها بماء الهداية لتثبيت جذورها في منابت الإصلاح.

غَــزوَةُ تَــبُوك

وَهِيَ غزوة العُسرة

أسبابها وأحداثها وآثارها

لماذا سميت هذه الغزوة غزوة تبوك؟

هذه الغزوة كانت آخر خرجات رسول الله ﷺ قائداً لحشود المجاهدين داعية إلى الله ونشر رسالة الإسلام، وتسمَّى هذه الغزوة عند جمهور أصحاب المغازي ومدوِّني أحداث السيرة النبوية غزوة (تبوك) تسمية لها باسم عين هناك، وقد جاء اسم العين بهذا الاسم في حديث معاذ عند مالك ومسلم، قال معاذ: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فقال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين (تبوك) فمن جاءها فلا يمسّ من مائها شيئاً» فجئناها وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبضُّ بشيء من ماء، وقد لام النبي ﷺ الرجلين اللذين سبقا إليها، فاستقيا منها، ونقشاها فقال لهم ﷺ: «ما زلتم تبوكانها منذ اليوم» ثم غسل ﷺ وجهه ويديه بشيء من مائها، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء غزير، فاستقى الناس وتطهّروا، ونالوا حاجتهم من الماء، وهذه معجزة من معجزاته ﷺ الكونية التي أكرم الله تعالى بها نبيه ﷺ تشريفاً لمقامه وتعظيماً لقدره المنيف، وقد بلغت في كثرتها وثبوتها بأسانيد عليّة مبلغ التواتر في جملتها، ولم يقع بشيء منها التحدي العام الذي انفرد به القرآن الكريم.

وهذا المكان الذي فيه عين تبوك أقرب إلى الشام منه إلى الحجاز، إذ بينه وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة، وبينه وبين المدينة المنورة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة على نحو النصف من طريق المدينة إلى دمشق، وإنما سُمِّيت هذه الغزوة بهذا الاسم الذي شُهرت به في أحاديث المغازي والسِّير على نسق ما عهد في تسمية الغزوات بأسماء الآبار والعيون والأودية، لأنها

أماكن التجمع للقبائل التي تنزل البطاح التي حولها، كما سميت غزوة بني المصطلق باسم (المُريسيع) وهي عين لهم يكون عندها تجمّعهم لسقي سَرْحهم، وكما سميت غزوة هوازن باسم وادي (حُنَين) وهو وادٍ كانت فيه الموقعة، وبه جاء القرآن الكريم، وكما سميت غزوة أوطاس باسم أعظم أوديتها.

وقد سمّى البخاري رحمه الله هذه الغزوة في صحيحه غزوة (العُسْرة) أخذاً من قوله تعالى في التنويه بشأن المؤمنين الذين نهضوا مع رسول الله ﷺ لها سراعاً، سامعين مطيعين، وهم يعلمون ما فيها من شدائد ومشقّات ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾.

بيان معنى التوبة في حق النبي ﷺ.

والتوبة على النبي ﷺ التي جاء بها التعبير في هذا النص المحكم من آيات القرآن العظيم إنما هي تشريف لمقامه المنيف، وتعظيم لقدره الشريف، ورفع لدرجاته في مقامات الترقي الأرفع في مصاعد القرب، لمكانه ﷺ من ذروة العصمة، فهي ليست توبة من ذنب، إذ لم يكن منه ﷺ ذنب قط، وإنما هي حالة انتقال من مقام في مصاعد القرب، وشهود عظمة الله وجلاله في آياته الكبرى التي انطوت عليها أسرار الكون إلى مقام أجل وأعظم منه، وبيان أن النبي ﷺ وهو أفضل مخلوقات الله لا يخرج عن كونه عبدالله ورسوله، ومقام الرسالة يزيده رفعة في مقام العبودية الذي هو أعظم مقامات القرب المنوّه به في قوله عز شأنه خطاباً لأعز عباده: ﴿واسجد واقترب﴾.

وإبراز هذا المعنى السامي في أسلوب الآية بلفظ (التوبة) المقتضي في عرف الشرع العام وقوع ما منه يُتاب إظهار لضراعة العبودية التي لا يخرج عنها أحد من مخلوقات الله في الأرض ولا في السماء بين يدي جلال الربوبية.

معنى التوبة على المهاجرين والأنصار في الآية.

والتوبة على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا النبي ﷺ في النهوض إلى هذا الوجه للجهاد، وسرعة الاستجابة لندائه ﷺ حينما أعلن لهم أنه يريد أن يتخطّى بهم أسوار الجزيرة العربية، بعد أن تمّ لهم فتحها، وانصياع أهلها لدعوة الإسلام، لينشروا دعوته ويبلّغوا بعده رسالته إلى العالمين تحقيقاً

لعمومها في آفاق الحياة، وتطبيقاً عملياً لنصوص العموم التي أنزل بها القرآن الكريم في كثير من بيِّناته، مثل قوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ فهي توبة تفضُّل من الله تعالى على هؤلاء الصفوة من خُلَّص المؤمنين، تنويهاً بذكرهم وبيان فضلهم في تحقيق ما نيط بهم من نشر الدعوة إلى توحيد الله، وتبليغ رسالة النبي ﷺ إلى الأحمر والأسود من سائر أجيال الإنسانية، جيلاً بعد جيل، فهي توبة تفضُّل من قبيل ما جاء في أهل بدر من تفضُّلٍ عليهم بالمغفرة العامة لذنوبهم، فعاشوا كراماً مطهَّرين، وشارك من كان حيّاً منهم في هذه الغزوة فجمع الله لهم الحسنيين، حسنى حمل لواء تأسيس الجهاد لتثبيت أقدام الدعوة وإنشاء كتائبها المجاهدة، وحسنى حمل لواء عموم الدعوة، وتبليغ الرسالة إلى الآفاق.

فهي توبة تكليف بالجهاد الفكري والقتالي حتى لا يكون للناس على الله حجّة بعد التبليغ، وهي توبة تضع منهج الرسالة في عمومها موضع العمل الإيجابي، حتى يستقر في قلب كل فرد من أفراد الأمة أنّ حمل لواء الجهاد والسير به لتبليغ الدعوة إلى من قرب ومن بعد جزء من الإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات الله إشعاراً لهم بوجوب تطهّرهم من دنس الركون إلى الاسترخاء المذلّ، حتى يجعل الله منهم وممن يخلفهم في حمل لواء الدعوة مجتمعاً يدّرع الاعتصام بالله تعالى في نشر خاتمة رسالاته، وتبليغها إلى القاصي والداني بالحجة النيِّرة، والبيان الناصع، ثم بالسيف الذي يردّ كل اعتداء على الدعوة وحاملي لواءها، ويدفع عن طرائقها كل تعويق لها في مسيرتها إلى أرجاء الحياة بما فيها من أجيال وأفكار.

وعلى أيدي هؤلاء الصفوة تمّت أربح صفقة بينهم وبين ربهم جلّ شأنه في قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويقتَلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ ومع هؤلاء الصفوة وضع منهج السير بالدعوة، فكانت أول خطوات هذا السير المتدرج المحكم أن تقف الدعوة بحجَّتها وقوتها الفكرية

والمادية مع الذين يلون منبعها ويقربون من هذا المنبع، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غِلظةً، واعلموا أن الله مع المتّقين﴾.

وقد وضعت غزوة العسرة (تبوك) الأمة كلها على طرف المسيرة، وتنزّل إليها الإذن بالسير في هذا النداء الذي بدأت به آية التدرج في الجهاد، والغلظة التي جاءت في الآية موضعها بعد استنفاد كل طرائق الحجة والبيان، ولذلك جاءت بعد الأمر بالقتال، لا بعد الأمر بالجهاد، والقتال في الإسلام لا يكون جهاداً في سبيل إعلاء كلمة الله إلا بعد الدعوة وبسط الحجة، وتعقيب الأمر بالقتال مع الغلظة بقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ تحذير زاجر للتحرُّزِ من تخطّي سدّة منهج الدعوة إلى الله الرؤوف الرحيم بتجاوز الحدّ، وقتل من لم يكن من أهل القتال.

حكمة تخصيص المهاجرين والأنصار بالذكر في الآية.

وتخصيص المهاجرين والأنصار بالذكر في جانب توبة التفضل بالفضل والإنعام تنويه بسابقتهم، وفدائيتهم وقوة إيمانهم في إرساء صَرْح الجهاد، وإقامتهم معالم أساس عموم الرسالة الخاتمة الخالدة، ليكونوا قدوة لمن يخلفهم من أجيال الإسلام في حمل لواء المسيرة بالدعوة وعدم توقفها عن هدفها الذي ينبغي أن لا تحط رحالها مسترخية إلا بعد وصولها إليها، إيذاناً بأن الجهاد شرعة الإيمان، وأنه مُحْكم الحجّة نيرّ البرهان، وقد ثبت في الأثر: «ما ترك قوم الجهاد إلا ذلُّوا» وهذا المعنى المقصود بُيِّن في واقع أمة الإسلام الذي تعيشه بين الأمم.

لماذا سميت هذه الغزوة غزوة العسرة.

وإنما سمِّيت هذه الغزوة (غزوة العسرة) لأنها كانت تدريباً على أعتى أنواع المشاق التي ستقابل المجتمع المسلم في مسيرته وهو يحمل الدعوة إلى الله، ويدعو لتبليغ رسالة الهدى إلى الإنسانية أينما وجدها، كما أن هذه الغزوة كانت امتحاناً شاقاً لإخلاص الإيمان في قلوب الذين اصطفاهم القدر الإلٓهي لقيادة مسيرة الإسلام، فقد أحاطت بها الشدائد، واكتنفها العسر من كل جانب، منذ كانت بذرة في غيب التكليف، وقد كان الخروج إليها في حرٍّ شديد، وقيظ محرق، وجدب قاحل، وسفر بعيد إلى عدوٍّ كثير، له من القوة ما

كان يهزّ مجرد ذكره وذكرها الكيان العربي رُعباً وتهيباً، مع عدم توافر أضعف الوسائل لحمل حشود المسلمين، فلا ظهر ولا ماء، ولا مؤن من الطعام، ولا أهبة في السلاح، مع كثافة عدد الجيش الذي لم يخرج مثله في غزوة من الغزوات.

ومن ثَمّ خرج بها النبي ﷺ عن سنته في غزواته، إذْ أعلن عنها، ولم يورّ ليتأهب لها المجاهدون أهبة توائم ما سيلقون في مسيرهم إليها من الشدائد والأزمات، ففي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه عند البخاري ومسلم قال: لم يكن ﷺ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، وغزا عدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد.

وفي حديث محمد بن عبدالله بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي عند عبد الرزاق من طريق شيخه مَعْمَر بن راشد، قال: خرجوا في قلّة من الظهر، وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة في الماء وفي الظهر، وفي النفقة، فسمّيت غزوة العسرة.

اختلاف الروايات في أسباب غزوة تبوك الرواية الأولى وتحقيق القول فيها.

وقد اختلفت الروايات في سبب هذه الغزوة، فعند ابن سعد وشيخه الواقدي وغيرهما من رواة أحداث السيرة النبوية ووقائع المغازي أن النبي ﷺ بلغه من التجار الذين يقدمون بتجارتهم من الشام إلى المدينة المنورة أن هرقل جمع الروم الذين توطنوا الشام، وأمرهم بالتأهب، وأعطاهم رزق سنة ليتفرغوا من أعمالهم، ويستعدوا لحرب رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، واستجاب لدعوة هرقل مع الروم بعض القبائل العربية التي تعيش في جوارهم تحت سلطانهم، وتدين بدينهم، دين النصرانية، وهم لَخْم، وجُذام وعاملة وغسان، وغيرهم من متنصرة العرب، وتحركت مقدمتهم حتى بلغت البلقاء من مشارف الشام، فندب النبي ﷺ الناس لملاقاتهم، جرياً على عادته القويمة وسياسته الحكيمة المحكمة في تربيته السلوكية لمجتمعه، وهو يحمل لواء الدعوة إلى الله، مبلّغاً رسالة النور والحق والهدى والخير إلى أجيال

الإنسانية المتتابعة في وجودها مع سيرورة الزمن و(تطورات) الحياة الفكرية والاجتماعية.

وقد كان ﷺ إذا بلغته أخبار قوم يتأهبون لحربه، ويستعدون لمهاجمة المجتمع المسلم اغتراراً بما تحت أيديهم من قوة مادية، وتجمعات قتالية تتمثل في حشود الكتائب المحاربة، وكثافة الجيوش المقاتلة التي تتوافر لها وسائل التأهب والاستعداد بالرجال المدرَّبين تدريباً مرموقاً على خوض غمرات الحرب وكثرة الأسلحة التي يملكونها، وهي أسلحة متنوعة، شديدة الفتك، كما تتمثل في كثرة المؤن وتوافرها لكل فرد، مع يسر الحصول عليها، وكثرة الظهر، والخيل المطهّمة التي تملك جولات الفروسية في ميادين الكر والفر، وللخيل منزلة خاصة في الحروب، وخاصة في العهود القديمة.

في إطار هذا التصور ـ كما جاءت به هذه الرواية ـ سار النبي ﷺ إلى هذه الغزوة في جيش عرمرم، لم يجتمع مثله للمسلمين في غزوة من غزواتهم المتعددة، إذْ بلغ أكثر من ثلاثين ألفاً في أشهر الروايات، مع الأهبة والاستعداد على رغم ما كانوا فيه من عُسْرة وشدة وقلة في الظهر، والماء والمؤن، وأدوات القتال وأنواع الأسلحة، حتى وصل ﷺ بجيشه إلى تبوك، وأقام بها بضع عشرة ليلة، ثم عاد ﷺ بكتائبه إلى المدينة، بعد أن عقد مصالحات، وضرب الجزية على أهل أيلة وأذرح وجربا ممن جاؤوه يطلبون مصالحته، ويقرّون بالجزية على رقابهم، دون أن يلقى كيداً.

ولعل هذه الرواية من أمثل روايات سبب هذه الغزوة التي رواها أرباب المغازي وأهل السير، وهي ممّا لا يسرع إليها النظر بالرفض والإنكار، لأنها معقولة المعنى متناسبة مع سياسة النبي ﷺ في غزواته التي قادها ﷺ بنفسه الشريفة.

الزرقاني يصرح ببطلان هذه الرواية جرياً وراء الواقدي مع احتمال صحتها.

بيد أن الزرقاني في شرح المواهب صرح ببطلانها مرتين في مكانين، فقال مرة بعد أن ساق الرواية: ولم يكن لذلك حقيقة، ولم يذكر الزرقاني سنداً لهذا النفي ولا ندري من أين أخذه.

وقال مرة أخرى تعليقاً على قول القسطلاني نقلاً عن الواقدي: ووجد

هرقل بحمص، دار ملكه ولم يتحرك ولم يرجف، فكان الذي أُخبر به ﷺ من تعبية أصحابه، ودنوه إلى الشام باطلاً، لم يرد ذلك ولا همّ به.

والواقدي مُتَكلَّم فيه، فلا يوثق بروايته إلاّ إذا تقوّت بنقل مَنْ هو أقوى وأوثق منه، وإلاّ فما وجه أن ذلك ليس له حقيقة، وأنه باطل، لم يرده هرقل ولا همّ به؟ وهل وجود هرقل في دار ملكه (حمص) ينفي أن يكون أراد محاربة النبي ﷺ خشية أن يقوم ﷺ بمهاجمته بما لا طاقة له به بعد أن صكّت أذنيه انتصاراته ﷺ على سائر العرب في جزيرتهم العربية، وأنهم آمنوا برسالته وبايعوه على تصديقهم بها، وأنهم أصبحوا جنوده في كتائب مجتمعه المسلم، وأن هرقل وهو بدار ملكه حمص جهّز جيشاً من الروم ومن متنصّرة القبائل العربية، وأمّر عليه رجلاً من قواده كما جاء صريحاً في الرواية الثانية من تأميره قباذ أحد قادة الروم على جيش من أربعين ألفاً وبقي في دار ملكه حمص، وقد كان النبي ﷺ قد أرسل إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام زمن عهد الحديبية، فأظهر هرقل قناعته بصدقه ﷺ، ولكنه خشي على نفسه من قومه وضنّ بملكه، وظل على نصرانيته، وأراد مهاجمة النبي ﷺ قبل أن يسير إليه بجيوش الكتائب المسلمة، ولكنه عاودته قناعته بأن محمداً ﷺ رسول من الله تعالى يجده في كتبهم، فردّ جموعهم التي حشدها مع قائده الروماني بعد أن وصلت إلى البلقاء، وبعد أن بلغ النبي ﷺ أمر تجمعاتها لحربه، وسار إليها بكتائبه فلم يجد لها أثراً، وكتب له النبي ﷺ كتاباً آخر غير كتابه الأول يجدّد فيه دعوته إلى الإسلام، وهذا الكتاب الثاني كتب في تبوك، ومنها أرسل إلى هرقل، حمله إليه دِحْية بن خليفة الكلبي، وهو رسول رسول الله ﷺ إلى هرقل بكتابه الأول الذي كتب سنة ست في مدة عهد الحديبية، وهذا الكتاب في صحيح البخاري في بدء الوحي.

أما الكتاب الثاني الذي كتب في تبوك وأرسل منها فقد رواه ابن حبان والإمام أحمد وأبو يعلى، قالوا: قدم ﷺ تبوك، فبعث دِحْية إلى هرقل، فلما جاءه الكتاب دعا القسيسين والبطارقة، وأغلق عليهم وعليه، فقال: إن هذا الرجل ـ يريد النبي ﷺ ـ يدعوني ـ إلى الإيمان برسالته، وبما جاء به من الدين الحق دين الإسلام. والله لقد قرأتم فيما تقرؤون من الكتب: ليأخذنّ ما تحت

قدمي، فهلّم إلى أن نتبعه، فنخروا نخرة رجل واحد، حتى إن بعضهم خرج عن برنسه، فلما ظنَّ أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم، قال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم- كما قدمنا، وأنه كتب إلى النبي ﷺ وبعث بكتابه رجلاً من تنوخ، وأوصاه أن يسمع ما يقوله رسول الله ﷺ عند قراءة كتابه، ويسجله.

قال ابن حجر في الفتح: وروى ابن حبّان أنه ﷺ كتب إليه بتبوك يدعوه إلى الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب، وفي مسند أحمد أنه كتب إلى النبي ﷺ: أني مسلم، فقال ﷺ: «كذب بل هو على نصرانيته».

أليس في كل هذا قرائن قويّة وأمارات ظاهرة على أنه لا ينبغي الجزم بالحكم بغير حجة بيّنة بأن ما جاء في هذه الرواية عن سبب هذه الغزوة باطل، وأنه ليس له حقيقة، وأن هرقل لم يرده، ولا همّ.

الرواية الثانية في سبب غزوة تبوك والتعليق عليها.

أما الرواية الثانية في سبب هذه الغزوة فهي ما رواه الطبراني عن عمران بن حُصَين، وما رواه الترمذي والحاكم من طريق عبد الرحمن ابن خبّاب كما جاء في فتح ابن حجر: أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل تقول له: إن هذا الرجل الذي خرج يدّعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن، فبعث هرقل رجلاً من عظماء قواد الروم، يقال له قباذ، وجهز معه أربعين ألفاً من الروم، ومن متنصرة العرب، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ولم يكن بالمسلمين قوة للذهاب إلى أرضهم لملاقاتهم لفقد الظهر، وقلة النفقة، وشدّة الحر وبعد السفر، وهيبة العدو.

وهذه الرواية يبدو من سياقها وبعض عباراتها أنها ملفّقة من بعض ما جاء في الرواية الأولى، ومن بعض ما تزيّد به ضعفة الرواة الذين يتلقّفون ما يُلقى إليهم في حلقات القصّاص ومجالس السَّمر، وقد نصّ الزرقاني على ضعف سند حديثها، واكتفى بإيرادها ولم يعلّق عليها بشيء.

الرواية الثالثة في سبب هذه الغزوة ونقد ابن كثير لها.

الرواية الثالثة في سبب هذه الغزوة ما تردّد في كثير من كتب التفاسير التي لا يعنيها تحقيق الروايات في أسباب النزول، لا سنداً ولا متناً، فقد ذكروا في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض

ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً، سُنّة مَنْ قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ عدة روايات اعتمد على بعضها أهل المغازي والسِّير الذين رأوها تذكر في سبب غزوة تبوك فجعلوها سبباً لها.

قال ابن كثير: قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على النبي ﷺ بسكنى الشام، بلد الأنبياء، وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف لأن الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك، وهذا التعليل في بيان ضعف القول بهذه الرواية ضعيف، لم يبين ابن كثير له حجّة، ولا ذكر له سنداً، وقد عرفنا في بحوثنا ان ابن كثير يعتمد في مكية الآيات ومدنيتها على ما قيل في السورة: أنها مكية أو مدنية، وهذا قول يعني الأغلبية من آيات السورة، ولا يعني جميع آياتها، وكثير من سور القرآن نُصَّ على مكيتها باعتبار أغلب آياتها، ووضعت فيها آيات مدنية لمناسبة معانيها لمعاني بعض آيات السورة فذكرت معها توقيفاً من النبي ﷺ.

ثم قال ابن كثير: وقيل: إنها نزلت بتبوك، وفي صحته نظر، ثم روى ابن كثير عن البيهقي أنه روى عن الحاكم عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر ابن حوشب، عن عبد الرحمن بـن غنم: أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر، وأرض الأنبياء، فصدّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد أن ختمت السورة ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً * سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث، قال ابن كثير: وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أنه ليس بصحيح. وهذا من حذق ابن كثير وبراعته في الروايات سنداً ومتناً، في كثير مما ينقل في تفسيره وتاريخه.

وكان هذا الرأي الذي صرّح به ابن كثير كافياً في إلقاء ستر الظلام

تفنيد هذه الرواية متناً وبيان سخفها وبطلانها.

على هذه الرواية الكاذبة، واليهود أمة الكذب الأبله، والنفاق الفاجر، وحسب هذه الرواية ما جاء فيها من سخف، يجعل من محمد رسول الله ﷺ، سيد الخلق، وأكملهم عقلاً، وأعلمهم بالله تعالى، وسننه العامة والخاصة في الكون إنساناً تُلْقى إليه الكلمات من أخبث من عرفت الإنسانية من ذرائع الفجور فيهم، هكذا إلقاء عابراً فيصدقها، ويرتب عليها غزوة لم يعرف في تاريخ الإسلام غزوة أشق ولا أعسر منها، كما لم يعرف في تاريخ الغزوات كلها غزوة حُشد لها جيش أعظم عدداً من جيشها، ويسير رسول الله ﷺ بهذا الجيش العرمرم إلى الشام ولا يريد غيره؛ تحقيقاً لأكذوبة سخيفة تنهضه من مقره ومقر مجتمعه المسلم ليترك هذا المقر ويقيم بعيداًعنه إقامة أبدية بعد كل ما أنعم به الله عليـه وعلى مجتمعه المسلم في هذا المستقر الذي ثبت أنه مأمور بالهجرة إليه، وكان له ﷺ ولمجتمعه الذي ربّاه وبنى كيانه في هذا المستقر إنزال ما جاءت به رسالته من تشريع وأحكام وآداب ونظم اجتماعية واقتصادية، وتربية سلوكية تمّ بها جميعها إكمال الدين له ﷺ ولمجتمعه المسلم في جميع أجياله، وأتم عليهم في هذا المستقر نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً، والمدينة المنورة مستقراً وملاذاً، جعلها الله دار الإسلام ومتبوأ الإيمان، ثم يُنزل الله تعالى عليه في تبوك آيات تردّه إلى مستقره، ويأمره بالرجوع من تبوك إلى مدينته بعد تحمُّله وتحمُّل جيشه كل هذه المشاق والعسر التي فاقت تحملات طاقة البشر، ويقول له فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث.

سبحان الله؟! ما الذي يبقى لسيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ من معالم العصمة التي هي شرط لتحقيق النبوة وصدق الرسالـة وراء هذا الانصياع لكلمة سخيفة وأكذوبة فاجرة يلقيها إليه أعدى أعداء دينه، وأبغض الفجرة الكافرين لرسالته حسداً من عند أنفسهم؟.

وما الذي يجعل المؤمنين برسالته ﷺ، الباذلين في سبيل نشرها أموالهم وأرواحهم، يربطون على قلوبهم بعواصم الثقة الإيمانية في تبليغه لهم شرائع هذه الرسالة وأحكامها ونظمها إذا علموا أنه ﷺ كلفهم هذه المشقة الأزمة لمجرد كلمة سخيفة من أفجر أكاذيب خبثاء اليهود الملعَّنين على ألسنة الأنبياء

والمرسلين؟ وما الذي يجعل من الذين يُدْعون إلى اعتناق هذه الرسالة إيماناً بها وتصديقاً لحامل أمانة تلقِّيها ووحيها قوماً يعلمون أن وحيها من الله لتبليغها إلى العالمين في مشارق الأرض ومغاربها؟ هذه رواية ساقطة سخيفة ما كان ينبغي أن تدوّن في كتاب يحمل شرف الحديث عن الإسلام وهدايته، وعن محمد سيد الوجود ورسالته، وأحداث وأحاديث سيرته؟.

بَيْدَ أن البله والغفلة العقلية إذا تسلّطا على بعض من نُظِموا غلطاً في سلك العلماء أفسدتا عقولهم، فجعلتهم يقبلون كل غثاء يُروى تكثّراً وتعالماً، غافلين عما يجره ذلك من شرور وأضرار على الدعوة ونشرها.

وهذا النحو من الروايات الساقطة التي لعب بها اليهود والملحدون أدواراً عصيبة في تشويه جمال الإسلام لا يزال ضررها جاثماً ينفث سمومه، إن لم يتداركه أهل العلم من العلماء بتبيان ما فيه من زيف وخبث وأباطيل كُذب بها على دعوة الإسلام وقَبِلَها البُله من أهل الغفلة المتعالمين.

الرواية الرابعة في سبب هذه الغزوة. وتحقيق ما جاء فيها.

الرواية الرابعة في سبب هذه الغزوة من رواية ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وما رواه ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن مجاهد، وما رواه ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير، من أن سببها أن الله تعالى لما منع المشركين من قربان المسجد الحرام قرباناً مطلقاً في حج أو غيره، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس؛ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ والإشارة عائدة على العام العاشر الذي حجّ فيه النبي ﷺ بعد حجة أبي بكر بالناس في العام التاسع الهجري، كما حقّقه القاضي أبو بكر بن العربي.

والمراد بالمسجد الحرام الحرم كله، أخذاً من قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾، وإنما أسْرى به ﷺ من بيت أم هانىء على أرجح الأقوال في بدء الإسراء، وبيت أم هانىء من الحرم، لا من المسجد الحرام.

وقد اختلف العلماء في سائر المساجد، هل يدخلها مشرك؟ وهل

يدخلها أحد من أهل الكتاب، يهودي أو نصراني، فأخذ بعضهم بمنطوق الآية، فجعل الحظر قاصراً على خصوص المسجد الحرام، وعمّم في داخليه، وبعضهم أخذ بالمعنى الذي كان من أجله المنع، وهو الذي أشير إليه بقوله قبل أن يأتي النهي: ﴿إنما المشركون نجس﴾ وهذا متحقق في سائر المساجد، والمسألة مفصّلة في كتب فقه مذاهب أئمة الأمصار من علماء الأمة.

ولما نزلت هذه الآية بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام، وكانوا يجلبون الأطعمة والتجارات للمسلمين إلى مكة، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر والعيلة، وقالوا: من أين نعيش، فوعده الله أن يغنيهم من فضله، قال الضحّاك: ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله عز وجل: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾: لّما حرم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام وجد المسلمون في أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها، فوعدهم الله أن يغنيهم عما كان يجلبه أولئك المشركون من التجارات، فأحلّ لهم الجزية، وكانت لم تؤخذ قبل ذلك، فجعلها عوضاً ممّا منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم.

وكذلك عوضهم بما يغنمونه من مقاتلة الذين يلونهم من الكفار بعد أن أصفقت الجزيرة العربية على الإيمان برسالة النبي ﷺ، فقال تعالى يعلمهم بعموم الجهاد بعموم الرسالة، ويحرِّضهم على قتال من كان خارجاً عن نطاق الجزيرة متدرجاً بهم، وكانت الخطوة الأولى في نشر عموم الرسالة هي ما تقتضيه طبيعة التحرك الإيجابي المقدور عليه في غير رعونة ولا تهوّر: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتّقين﴾ وهذه الغلظة المذكورة في الآية إنما جاءت لتذيب ما كان في نفوس العرب قبل الإسلام من تهيّب للأمم الذين حولهم، وما كان في قلوبهم من رعب وخوف في التفكير في مواقفتهم للحرب والقتال، نظراً لما كان عند أولئك الأمم - ولا سيما الروم والفرس - من قدرات مادية

ورجال مدربين على أنواع الحروب، وأسلحة منوعة وأموال طائلة، ومؤن متوافرة، فجاء ذكر الغلظة في الآية تجريئاً للمسلمين على مواقفة أولئك الكافرين، وإعداداً لهم للخروج بالدعوة إلى الآفاق الإنسانية في ظل من سياسة التدرج الحكيم، وبياناً بأن القوة الماديّة ليست هي السبب الوحيد للنصر، ومن ثَمّ عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم وغزوهم في عقر دارهم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولاهم بالدعوة إلى الحق وأقربهم إلى الإسلام داراً وعشرة.

ترجيح هذه الرواية على سائر الروايات مع شيء من التوضيح.

هذه الرواية هي التي أصابت الهدف في بيان سبب هذه الغزوة، وهي التي قرطست على السبب الحقيقي للقيام بها وتحمل مشاقها وأزماتها وشدائدها وعسرها وباهظ تضحياتها، وما جاء في قصتها في القرآن الكريم من معاتبة عنيفة لمن تخلّف عنها مؤمناً مخلصاً، وما جاء فيها من شدّة الوعيد الزاجر، والزجر المقرِّع لمن تخلّف عنها وهو غير مؤمن بقلبه، وما جاء فيها من غمز قناة المعذّرين من الأعراب المستأذنين في القعود عن الجهاد مع الخالفين إرجافاً بالنبي ﷺ وبمجتمعه المسلم، بما لم يكن لهم فيه عذر، ولكنهم تعلّلوا بالمعاذير الكاذبة، وحلفوا له ﷺ، فقبل ظاهر اعتذاراتهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وجاء في مغازي ابن عقبة: لما دنا ﷺ من المدينة تلقّاه عامة الذين تخلّفوا، فقال لأصحابه: «لا تكلموا رجلاً منهم، ولا تجالسوهم حتى آذن لكم» فأعرض عنهم ﷺ هو والمؤمنون، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه، وإن المرأة لتعرض عن زوجها، فمكثوا كذلك أياماً حتى كرب الذين تخلفوا، وجعلوا يعتذرون بالجهد والأسقام، ويحلفون له ﷺ فرحمهم وبايعهم واستغفر لهم.

ومن ثَمّ كان السبب الحقيقي لهذه الغزوة إنما هو توجيه المجتمع المسلم توجيهاً إيجابياً عملياً لتنفيذ عموم الجهاد لعموم الرسالة، ولذلك احتفل بها النبي ﷺ احتفالاً عظيماً ضخماً فحشد لها جيشاً عرمرماً كثيفاً استوعب أكثر الذين كانوا أهلاً لحمل راية الجهاد، وقادهم رسول الله ﷺ بنفسه، واشتد

فيها العتاب والزجر على عموم الذين تخلّفوا، ثم أكرم الله تعالى من شاء إكرامه منهم بالتوبة وعظيم الحفاوة، حتى توضع الرسالة في عمـومها ـ والنبي ﷺ بين ظهراني مجتمعه المسلم ليضع هذا العموم موضع العمل ـ في صورته الجامعة لكل ما ينهض بالحياة، حتى يبلغ بها مداها المقدور لها في لوح الغيب، والتقدير ليستقر في قلب أفراد الأمة وجماعاتها أن حمل لواء الجهاد والسير بالدعوة لتبليغها إلى من قرب ومن بعد من الأحمر والأسود من أبناء الإنسانية وأجيالها وأوطانها جزء من الإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات الله تعالى؛ إشعاراً للمجتمع المسلم بوجوب تطهّرهم من دنس الركون إلى الاسترخاء الذليل المذلّ، حتى يجعل منهم وممن يخلفهم في حمل لواء الدعوة لإعلاء كلمة الحق والهدى مجتمعاً يدّرع الاعتصام بالله في نشر رسالته وتبليغها إلى القاصي والداني، وذلك أولاً ـ بالحجة النيّرة، والبيان الناصع، والحكمة البالغة والموعظة الحسنة، وثانياً ـ بالسيف الذي يردّ عنها كل اعتداء أو تعويق لها في مسيرتها إلى آفاق الحياة، وما يتوارد عليها من أجيال وأفكار، ونظم وشرائع تنبع أحكامها من أصولها، فالجهاد القتالي في رسالة الإسلام لا يكون إلا بعد التبليغ والبيان، فمن أغنت عنه الحجة كُفّ عنه السيف ومن لم يغنِ عنه البيان المبين، ونصب للرسالة معالم الفجور، ووقف في طريقها أزيح بشبا السيوف يميناً أو شمالاً، ليفتح الطريق أمام مسيرة الدعوة وتبليغ الرسالة.

إعداد المجتمع المسلم نفسياً ومادياً لتحقيق نشر عموم الرسالة سبب هذه الغزوة

كان هذا السبب الحقيقي في النهوض لهذه الغزوة ـ التي ختمت بها الغزوات الداخلية في نشر الرسالة بين القبائل العربية الذين أعدّوا ليكونوا مدداً للغزو الخارجي، يتطلّب إعداداً نفسياً، وإعداداً مادياً لكتائب الجهاد ـ أولاً ـ وهي الكتائب التي تقف في وجه أعداء الله وأعداء رسوله ودعوته إلى الله لتباشر القتال إذ أُلجئت إليه، دفاعاً عن كيانها وتمهيداً لطريق مسيرتها، وإزاحة العوائق التي تقام أمامها.

وإعداداً لكافة عناصر المجتمع المسلم كلها، وهي العناصر التي تقف وراء هذا المجتمع في قواعدها لتمدّه بأقصى ما تملك من قوة نفسية، وطاقات روحية وماديّة، لتجعل منه حركة إيجابية، يزجيها الأمل المتوثب

الذي يجب أن يملأ قلوب جميع أفراد المجتمع وجماعاته التي يُركّب منها عناصر بناؤه باعتباره وحدة إيمانية، ووحدة اجتماعية تكافلية متعاونة.

وهذا المعنى هو الذي ربّى النبي ﷺ مجتمعه المسلم على أساسه، وأقام بناءه على دعائمه فيما عقده ﷺ بين أفراد هذا المجتمع وجماعاته من أواصر المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي قامت على قواعد المؤاخاة الإيمانية التي عقدها الله بين جميع المؤمنين، فجعلهم أخوة يتحابّون في الله، ويجاهدون أعداء الله في الله، فقال مخبراً عنهم: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وضمن لهم بهذا العَقْد التي لا تُحل أواصره، ولا تنفك عراه الهداية إلى سُبُله ما داموا مستقيمين على هدايته، لا يُسْلم مسلم مسلماً ولا يخذله، فقال جل شأنه: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلنا﴾.

النبي ﷺ يضع شعار الإخاء التكافلي بين المجتمع المسلم.

وقد وضع النبي ﷺ شعار هذا الإخاء التكافلي أمام أعين مجتمعه ليستقيم على نهجه، فقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وقال: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى» وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله».

ثم أخذ النبي ﷺ بوصفه القائد الأعظم لمجتمعه المسلم، وبوصفه صاحب الرسالة العظمى خاتمة الرسالات الإلّهية، وبوصفه خاتم النبيين فلا نبي بعده يوحى إليه بشيء قط من الوحي الإلّهي الذي اكتملت آياته وهدايته في هذه الرسالة العامة الشاملة، رسالة الإسلام المنزّلة على محمد ﷺ، وهي الرسالة التي يجب على حاملي ألويتها أن يبلّغوها إلى الأمم والمجتمعات الإنسانية بلاغاً هادياً - في الإعداد النفسي لمجتمعه حينما عزم على النهوض لهذه الغزوة، فأعلن عنها ليتأهب لها الناس، ويقدِّروا مشقاتها، ويتمثلوا متاعبها وشدائد المسير إليها، وما سيقابلهم في هذا المسير من أزمات وعسر.

وكان ﷺ إذا عزم على غزوة داخلية في جزيرة العرب ورّى عنها، ولم يصرِّح خشية أن تبلغ أخبار عزيمته أعداءه الذين يتأهبون لمهاجمته فيهربون

الإعلان عن غزوة تبوك إشعار بعظم منزلتها بين الغزوات.

من ملاقاة كتائبه، أو يضاعفون الإعداد لملاقاته، وذلك لتقارب مضارب القبائل، وشدّة الترابط بينها مما يسهّل نقل الأخبار إليها.

أما في هذه الغزوة فقد كانت الأحوال في إبّانها شديدة شدة سمّاها الله تعالى ساعة العسرة، وكان هذا تعبيراً يحمل في طياته من شدائد الحياة ومشاقِّها ما لم يترك وراءه مشقة ولا شدة إلا طواها بين جوانحه

قال ابن إسحق راوياً عن شيوخه: إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص في الحال من الزمان الذي هم عليه.

وكان رسول الله ﷺ قلّ ما يخرج في غزوة إلّا كنًّى عنها إلّا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس، لبعد الشقة، وشدّة الزمان وكثرة العدّو الذي يصمد إليه ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم.

الإعداد النفسي للمجتمع المسلم لهذه الغزوة كان ملائمًا لعظمة هدفها.

هذا الإعداد النفسي للمجتمع المسلم في غمرة هذه الشدائد والمشقات البالغة في محنها وتمحيصها مبلغاً لم يترك فرداً إلا مسّه بوخز آلامه كان إعداداً لمستقبل مليء بالبلاء والمحن، فكان لوناً من التربية على تحمل المشقّات الباهظة في سبيل تبليغ رسالة الهدى والخير، ونشر دعوة الحق والعدل والنور، وترك الاسترخاء المتثائب في ظل الترهّل والتمتع بزخارف الحياة ومتعها ولذائذها الفانية.

واستجاب المجتمع المسلم لقائده الأعظم، ورسوله الأكرم، وأخذ الناس في التأهب والاستعداد لمسيرهم الذي لا يرجون فيه إلا رضاء الله وثوابه وقياماً بحقِّ الوفاء بتبليغ الرسالة العامة إلى الناس كافة.

ونظر النبي ﷺ إلى الناس وهم يعملون سراعاً في تأهبهم بأقصى ما في طاقتهم من الاستطاعة، فرأى أعداداً وفيرة وحشداً كثيراً من الرجال الذين استنفروا فنفروا، ورأى ﷺ أن تأهّبهم المادي الذي تأهّبوه لا يقوم بهم في

الوصول إلى هدفهم، ولا يبلغ بهم ما استهدفه رسول الله ﷺ من وضع الدعوة إلى الله على مشارف عمومها والتخطّي بها إلى ما وراء حواجز الجزيرة العربية وقبائلها، لتنطلق بإذن الله إلى آفاق الحياة الوسيعة حيث أجيال الإنسانية السادرة في الغي والضلال وهي ترزح تحت كلاكل الظلم والطغيان، ليخرجهم من هذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض إلى نور التحرر من رق العبودية للمخلوقين.

سلطان الضمير والحب كان منبع الإعداد النفسي والمادي.

فشمّر ﷺ للعمل على أن يجعل من هذا الإعداد النفسي منبعاً للإعداد المادي، إعداداً يقوم بحاجة هؤلاء المستنفرين في كثرتهم الهائلة وضعف تأهبهم لملاقاة عدوهم، لكنه ﷺ أراد أن يكون هذا الإعداد المادي نابعاً من مداخل القلوب والضمائر التي يعمرها الإيمان بإخلاصه، واليقين برسوخه، حتى يكون طبيعة وخلقاً من طبائع وأخلاق المؤمنين على توالي الأزمان والأجيال، يسعفهم كلما حرّكوه بدافع الإيمان. لا أن يكون بالقهر، وإهدار إنسانية الناس بمصادرة أموالهم، وأخذهم بسياط الطغيان، فيكرهون الجهاد وتنحرف قلوبهم وعقولهم عن مداراتها في فلك الإخلاص لله تعالى والتعبّد له.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيد المجتمع المسلم في البذل والإنفاق.

ذكر الواقدي: أن النبي ﷺ حضّ على النفقة والحُمْلان في سبيل الله، فجاء المؤمنون بصدقات كثيرة، وكان أول من جاء بصدقته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بماله كله، أربعة آلاف درهم، فقال له ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً» فقال الصدّيق رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، فسأله النبي ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» قال: نعم، أبقيت لهم نصف مالي.

وتنافس صادقـو الإيمان من أهل المكارم، والبذل في سبيل الله، فحمل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن عبادة رضي الله عنهم، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية، وتصدّق عاصم ابن عدي بسبعين وسقاً من تمر.

وجهز عثمان رضي الله عنه ثلث الجيش، وكان عدده في أقل تقادير

الروايات ثلاثين ألفاً، فيكون عثمان وحده قد جهّز عشرة آلاف.

إنفاق عثمان كان المثل الأعلى في مكارم الإسلام.

قال ابن إسحاق: أنفق عثمان في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق مثلها أحد، وعن قتادة قال: حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرساً.

وفي حديث الترمذي وأحمد والبيهقي عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: جاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينار في كمِّه فنثرها في حجر رسول الله ﷺ، قال عبد الرحمن بن سمرة راوي الحديث: فرأيت رسول الله ﷺ يقلِّبها في حجره، ويقول: «ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم».

وأخرج ابن عدي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: بعث عثمان بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله ﷺ فصُبّت بين يديه ﷺ، فجعل صلوات الله عليه يقول بيده ـ أي يحركها ـ ويقلّبها ظهراً لبطن، ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها».

مناقشة ابن حجر في تأويله لما جاء في حديث حذيفة عند ابن عدي.

طعن ابن حجر في سند هذا الحديث، فقال: سند واه، ثم قال ابن حجر عقب ذلك: ولعلها ـ أي العشرة آلاف دينار التي جاءت في هذه الرواية ـ عشرة آلاف درهم، فتوافق رواية ألف دينار.

وقول ابن حجر: ولعلها عشرة آلاف درهم لا تعلُّق له بالطعن في سند الحديث بالوهي، وإنما هو نقد لمتن الحديث، وتأويل نصِّه بمعنى بعيد ليوافق الرواية الأخرى، ولو أنصف الحافظ ابن حجر لوقف عند نقده لسند الحديث بالوهي لأنه كاف في ردِّه وعدم الاحتجاج به، ولو جاء متنه بعشرة آلاف درهم.

وقد عقَّب الزرقاني في شرح المواهب على كلام ابن حجر فقال مجيباً عن نقده لمتن الحديث مع إمكان الجمع بين روايتي ألف دينار، وعشرة آلاف دينار فقال: ولو صح ـ أي سند حديث ابن عدي ـ أمكن أن الألف جاء بها، والعشرة آلاف بعث بها، وهذا معناه إمكان الجمع بين متن الحديث في

الروايتين إذا صحّ السند، وأن الروايتين وقعتا معاً، فيكون عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء بنفسه بألف دينار، وبعث مع غيره عشرة آلاف دينار، وحينئذ يكون مجموع ما تبرع به عثمان بمقتضى الروايتين أحد عشر ألف دينار، ولا وجه لاستبعاد ابن حجر ذلك أخذاً بمضمون رواية الطيالسي والإمام أحمد والنسائي الصحيحة عن الأحنف بن قيس، قال: سمعت عثمان يقول لسعد بن أبي وقاص وعلي والزبير وطلحة بن عبيد الله: أنشدكم الله ؟ هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من جهّز جيش العسرة غفر الله له» فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً! قالوا: اللّهم نعم. وهذه رواية مطلقة شهد بها أفضل من بقي من أخصّاء الصحابة رضي الله عنهم، وهي صريحة بأن عثمان رضي الله عنه جهّز جيش العسرة كلّه، فلا يجوز تقييدها بعدد أو بقدر من المال إلّا بما ثبت من طريق صحيح، ولو ثبت ذلك لبقي لعثمان رضي الله عنه تجهيز معظم جيش العسرة، وعشرة آلاف دينار التي استبعدها ابن حجر وأخرجها بالتأويل الذي لا سند له ليست بالشيء الكثير على مكارم عثمان وسخائه وبذله في الإسلام، وسعة ثرائه، قال ابن هشام: حدثني من أثق به أن عثمان أنفق ألف دينار غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك، فقال النبي ﷺ: «اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راض».

وروى الترمذي، وعبدالله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند، والبيهقي عن عبد الرحمن بن خبّاب، قال: خطب رسول الله ﷺ، فحثَّ الناس على جيش العسرة، فقال عثمان: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل النبي ﷺ مرقاة أخرى من المنبر، ثم حثّ، فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل ﷺ مرقاة أخرى فحثّ فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال عبد الرحمن بن خبّاب راوي الحديث: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها كالمتعجب: «ما على عثمان بعد هذا اليوم - أو قال بعدها».

موقف نبيل في المكارم تنافس في ميدانه المتنافسون.

هذا الموقف الكريم النبيل الذي وقفه أصحاب رسول الله ﷺ في سرعة استجابتهم لتحقيق رغائبه الإيمانية، وحضّه على الإنفاق السخيّ، والبذل الرضيّ في تجهيز جيش العسرة، والذي سبق إليه ذو النورين عثمان

ابن عفان رضي الله عنه ممّا يعجز القلم عن الإحاطة بوصفه، وتوفيته حقّه، مما جعل النبي ﷺ يتعجّب من سماحته، وسخائه، وغامر جوده في سبيل الله وإعلاء كلمته، وقال في الثناء عليه كلماته النورانية التي جاءت في الروايات المختلفة في أسانيدها، المنوّعة في أساليبها، حتى انتهت كلّها إلى موقف فريد في باب المكارم المضيئة بنور الإخلاص المصفّى من كدورات تسلّط الدنيا بزخارفها وغرورها على طبيعة عثمان حتى هانت عليه، وعرف فضل الله عليه وقدّر نعمته حقّ قدرها فيما أفاض عليه من ثراء وسيع، فبذله شكراً لله تعالى في سبيل مرضاته ومرضاة رسوله ﷺ، ممّا جعله صلوات الله عليه يكثر من التعجّب بيده ولسانه مبتهجاً بمظهر هذا الكرم الذي مثّله في أرفع صوره، وأرقى نماذجه، وأنقى مواطنه رجل من أصحابه من أحب الناس إلى قلبه، وآثرهم عنده، وأكرمهم عليه.

وليقل في هذه الروايات ـ التي تحدّثت عن مكارم عثمان في تجهيز جيش العسرة، والتي بلغت في معناها مبلغ التواتر المعنوي ـ المغـرمون بالأسانيد ما يقولون، فليس قولهم بضائر عثمان رضي الله عنه، ولا هو بمنزله عن مكانه من ذروة المكارم.

مجمل الروايات في مكارم عثمان تكفي في إبراز تساميه في الإنفاق على كل منفق في سبيل الله.

وحسب البحث أن يلفت نظر الناظرين إلى كثرة الروايات التي جاءت كل رواية منها بنوع من المكارم جاد بها هذا الكريم الفيّاض بالمكارم الغامرة في ساحة الجهاد، والأزمات مكتنفة بالمجتمع المسلم اكتنافاً ضاقت حلقاته حتى أخذت عليه منافذ الطرق لتجهيز كتائب الإسلام وحشودها المتكاثفة، وليس في يد هذا المجتمع المسلم من ذرائع القوة التي تعينه على التحرك في مسيرته إلى هدفه، إلّا ما كان من عثمان وإخوته في المكارم والبذل في سبيل الله.

وليس من المعقول أن تكون هذه الكثرة الكاثرة من الروايات المتعدِّدة المتنوعة في أساليبها ومعاني متونها، وتنوع أصناف مكارمها بين آلاف الدنانير والدراهم، ومئات الأبعرة والأفراس، وأطنان الزاد والمؤن ـ مصنوعة، ولو ثبت أن منها ما هو مصنوع فلن يصدق ذلك إلّا على أقلّ القليل منها، ويبقى

بعد ذلك في صحائف مكارم عثمان الإسلامية ما هو فوق كل مكرمة.

أما الأماثل الأكارم السُّبَّق من خُلَصاء المؤمنين الذين جادوا بما وفّقهم الله إليه من البذل في سبيل الله من أمثال الفاروق وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن عبادة، وطلحة بن عبيد الله الفياض، فأولئك هم المفلحون الذين لم يضنُّوا في ساعة العسرة بما كان في طاقتهم، فأدخلوا على قلب رسول الله ﷺ السرور والبهجة بما جادوا به من الكثير الطيِّب، وجعلوا من الجود في هذه الغزوة درس تمحيص لرسوخ الإيمان وصفاء اليقين، وقوة العزيمة في نصرة دين الله، وتعزيز رسول الله ﷺ، ونشر دعوته، وتبليغ رسالته، كما جعلوا من هذه الغزوة درس تنافس في المكارم، يتسابق إلى تلقّيه من الاقتداء برسول الله ﷺ أهل الوفاء وصدق الإيمان.

غزوة العسرة كانت تمحيصاً وامتحاناً لصدق الإيمان وإخلاص اليقين.

فهي إذاً كانت غزوة عُسْرة عسيرة، وشدة آزمة، وأزمات شداد، فهي أيضاً غزوة امتحان لصدق الإيمان، وإخلاص اليقين، والتفاني في فداء العقيدة ونشر الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة بما تتطلّبه من بذل الأرواح والأموال أبانت عن معادن النفوس المؤمنة التي ربّاها النبي ﷺ لتكون نموذجاً للفضائل تتأسّى به أجيال الإسلام في مستقبل حياتها، وما يقابلها في طريق مسيرتها من عقبات وشدائد، لا يخرجها منها إلا إيمان صادق، وعزائم صارمة، واستسلام لوجه الله يجعل من الأرواح والأموال وسائل لتحقيق مراضي الله ورسوله وحبِّهما، والوقوف عند أوامرهما ونواهيهما.

أما موقف أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه الذي تصدَّق بجميع ماله، وأبقى لأهله الله ورسوله فهو موقف عزيز المنال، فإنه لا يوضع مع مواقف الناس في ميزان، لأنه تسامى فسما فلم يُلحَق، فكان موقفاً صدِّيقياً من نسج الطبيعة الصدِّيقية العظمى، ولم يكن غريباً على حياة الصدِّيق الإيمانية، التي كان بها أبو بكر سيّد المؤمنين من أتباع الأنبياء والمرسلين من الأوّلين والآخرين، وهو أحد مواقف الصدِّيق الأعظم الصاحب في الغار، والرفيق في طريق الهجرة، المتزمِّل برداء المعية في ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ والمدّثّر بإشراقات «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما».

* * *

إرجاف المنافقين وبث سموم نفاقهم ليثبطوا المؤمنين عن المسير للجهاد.

ولمّا أتّم النبي ﷺ أهبته للخروج لما قصد أرجف به المنافقون، وجعلوا يثبّطون العزائم بإلقاء الأكاذيب، وقول بعضهم لبعض لينتشر ذلك بين صفوف الكتائب المجاهدة، يبغونهم الفتنة، وفيهم سمّاعون لهم: لا تنفروا في الحرّ، ففضحهم الله، وكشف أستارهم، وعرّى سوءاتهم وأنزل قوله تعالى يحكي إرجافهم وشكّهم وسوء مكرهم: ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾ ثم بكّتهم على جبنهم وخور عزائمهم فقال لنبيه ﷺ في الرد عليهم: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ ومعنى هذا الرد المقرّع لهؤلاء المنافقين أن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الجبناء الرعاديد إن كنتم تَفْرقون من حرِّ الدنيا، وهو مشّاء متنقل لا يدوم على حال، فما شأنكم يوم تقذفون في نار جهنم وهي أشد حرّاً بما لا يقاس مع حرِّها وعذابها حرّ نيران الدنيا مجتمعة، ولكن هؤلاء المنافقين لا يفقهون شيئاً من أمور الآخرة لعدم إيمانهم بها وبما يجري فيها من ثواب ونعيم للمؤمنين وعقاب وعذاب للكافرين والمنافقين.

كشف سوآت النفاق وإفساد تدبير المنافقين.

ثم كشف الله تعالى عن سوأة أخرى أقبح من سوآتهم السابقة، وسوآتهم لا تنقضي خبائثها، فجبههم مقرّعاً بأنهم يعيشون بقلوب فارغة وأدمغة خاوية فهم كالأنعام، بل هم أضلّ، لا هدف لحياتهم إلا ملء بطونهم وتدبير المكايد لكل خير يقع أو سيقع، فإذا رأوا مكايدهم أفرخت في أوكار الفجور فرحوا ضاحكين، يسخرون مستهزئين، فقال لهم الله تعالى متوعِّداً: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ في دنيا فجورهم، فإنهم سيبكون كثيراً في دار حسرتهم، فهو أمر وعيد وتهديد، واستهزاء بهم وسخرية منهم.

أخبث موقف لأخبث جرثومة في النفاق.

وذكر ابن عقبة والواقدي وغيرهما أن صاحب هذه المقالة الخبيثة الجدّ ابن قيس أحد بني سَلِمة، وهو القائل للنبي ﷺ في غزوة تبوك حين قال له صلوات الله عليه: «يا جدّ هل لك في جِلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصفاء»: قد عرف قومي أني مُغْرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألّا أصبر عنهن؛ فلا تفتني وائذن لي في القعود، وأعينك بمالي. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال له: «قد أذنت لك» ولم يكن له علّة إلّا النفاق.

وفي حديث جابر عند ابن أبي حاتم، وابن مردويه لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى تبوك قال للجد بن قيس: «ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟» فقال جدّ بن قيس: إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساءهم أفتتن بهن، فائذن لي ولا تفتني، فأعرض عنه النبي ﷺ، وقال له: «قد أذنّا لك» فأنزل الله: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ قال ابن إسحاق في تفسيرها: أي إن كان خشي من الفتنة بنساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلّفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، وإن جهنم لمن ورائه، ويزاد في توضيح تفسير ابن إسحاق، أن هذا المنافق الخبيث إن كان كما زعم، وهو كذوب أنه خشي من الفتنة بنساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من فجور النفاق وخبث الضلال أكبر من خشيته الفتنة بنساء بني الأصفر، لأن النفاق أورثه الجبن، فخلّفه عن رسول الله ﷺ ورغب بنفسه عن نفس رسول الله ﷺ، وما ينتظره من عذاب السعير في الآخرة أكبر.

بين رسوخ الإيمان ولؤم النفاق.

قال الواقدي: فجاء ابنه عبد الله، وكان بدرياً، فلامه، فقال جدّ ابن قيس: مالي وللخروج في الريح والحرّ الشديد والعسرة إلى بني الأصفر وأنا أخالفهم في منزلي فأغزوهم، وإني لعالم بالدوائر، وهكذا كشف الغطاء عن خبث فجوره ونفاقه، فأغلظ له ابنه، وقال له: لا والله، ولكنه النفاق، والله لينزلنّ فيك قرآن، فضرب جدّ بن قيس بنعله وجه ابنه، فانصرف عنه ابنه ولم يكلمه، فما أشبه جدّ بن قيس في خبثه بابن أبيّ في فجوره، وما أشبه عبدالله بـن جدّ بن قيس في إخلاص إيمانه بعبد الله بن عبدالله بن أبيّ في صفاء يقينه.

وعند ابن هشام من حديث عبدالله بن حارثة، عن أبيه، قال: بلغ رسول الله ﷺ أنّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبّطون الناس عن تبوك، فبعث ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر، وأمره أن يحرّق عليهم بيت سويلم، ففعل، فاقتحم المنافقون جدران البيت وفرّوا.

وكان رسول الله ﷺ قد استنفر أهل مكة وقبائل العرب في مضاربهم

موقف البكائين وحبهم للجهاد في سبيل الله. وما نزل فيهم من القرآن ثناء عليهم.

فنفر معه الجمُّ الغفير، وجاء البكاؤون إليه ﷺ يستحملونه، وهم معسرون، لا يجدون ظهراً ولكنهم رغبوا رغبة شديدة في الجهاد، ومرافقة المجاهدين في هذا الوجه الذي يقصد إليه النبي ﷺ، فلم يجدْ صلوات الله عليه ما يحملهم عليه، فعادوا إلى منازلهم تفيض أعينهم من الدمع حزناً على ما سيفوتهم من مرافقة رسول الله ﷺ في جهاده، لأنهم لا يجدون ما ينفقون، وهؤلاء الخلّص هم الذين شُهروا بلقب البكّائين، وهو من أشرف ألقاب الإخلاص لله ولدينه وإعلاء كلمته، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألّا يجدوا ما ينفقون﴾.

فالآية الأولى من هاتين الآيتين الكريمتين جاءت كالتمهيد للآية الثانية إذ رفعت الحرج وأسقطت التكليف عن العجزة، فهي من باب قوله تعالى: ﴿لا يكلِّف الله نفساً إلا وُسْعَها﴾ وقوله جل شأنه: ﴿ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج﴾ والعجز عن الفعل يختلف باختلاف حالة الشخص العاجز، والفعل المعجوز عنه، فقد يعجز شخص عن فعل لا يعجز عنه غيره كما أوضحت ذلك آية ﴿ليس على الأعمى حرج﴾، فعجز الأعمى ليس كعجز الأعرج وعجزهما ليس كعجز المريض.

وفي حديث أنس اعند أبي داود أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه في غزوة تبوك: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيرة، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال ﷺ: «حبسهم العذر».

ولهذا شرطت الآية بديلاً عن الفعل المعجوز عنه ما لا يتناوله العجز عن الفعل المعجوز عنه، فقالت: ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ والنصح لله يتحقق بفعل قلبي لا يعجز عنه، وهو إخلاص الاعتقاد في وحدانية الله

تعالى، وسائر ما يجب له من الكمالات اللائقة بجلال ألوهيته، مع الرغبة في محابّه، والتجافي عن مساخطه، ثم النصح لرسولـه ﷺ، ويتحقق ذلك بالتصديق المذعن لنبوته ورسالته، والتزام متابعته متابعة تجعل هوى الشخص ورغائبه تبعاً لما جاء به من الأمر والنهي والطاعة في المنشط والمكره، مع توقيره ومحبته وتعظيمه وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، والتمسُّك بسنته من غير تفريط ولا إفراط.

ثم جاءت الآية الثانية رافعة للحرج الخاص في موضوعها، وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته عن العجز عنه لعدم وجود وسائله من المال وغيره.

وكان هذا العجز في جماعة من خلصاء المؤمنين، جاؤوا إلى النبي ﷺ يستحملونه ليكونوا في رفقته في جهاده، فلم يجدوا عنده حملاناً لهم، فعادوا وهم يبكون حزناً على أنهم عجزوا عن السير معه.

وقد اختلف العلماء في هؤلاء البكّائين اختلافاً كثيراً، فذكر بعضهم ما لم يذكره غيره، والجمهور على أنهم بنو مقرّن المزنيين، وكانوا سبعة إخوة آمنوا وهاجروا، وشهدوا مع رسول الله ﷺ بعض مشاهده، ولم يكن في الصحابة إخوة في عددهم شرفوا بهذه المكرمة، وقد ذكر الفيروزبـادي صاحب القاموس أسماءهم في قاموسه، في مادة (قرن) وهم: عبدالله، وعبد الرحمن، وعقيل، ومعقل، والنعمان، وهو أشهرهم، وسويد، وسنان. وبنو مقرّن هم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، ألا إنها قربة لهم، سيدخلهم الله في رحمته، إن الله غفور رحيم﴾ وسبب النزول لا يخصِّص النص القرآني، وإنما ترد فيه النماذج مرتبطة وقت النزول بـالأشخاص والحوادث، لتكون هذه النماذج قدوة للأجيال المقبلة من المجتمع المسلم، ولذلك قد يتعدَّد سبب النزول، وقال الإمام الحسن البصري: نزلت الآية في أبي موسى وأصحابه، ويدل لقوله: ما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم،

موقف لأبي موسى وأصحابه الأشعريين يمثل صدق الإيمان وإخلاص اليقين.

فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «والله لا أحملكم على شيء، وما عندي ما أحملكم عليه» ووافقته وهو غضبان ولا أشعر. وهذا من أبي موسى كالاعتذار لأصحابه عن قسم رسول الله ﷺ لعدم حملانهم، ولعل غضب رسول الله ﷺ كان بسبب ما يبلغه من إرجاف المنافقين به وبأصحابه وتثبيطهم العزائم، وفي المجتمع المسلم سمّاعون لهم من ضعفاء الإيمان وحدثاء الداخلين في الإسلام.

قال أبو موسى رضي الله عنه: فرجعت إلى أصحابي حزيناً من منع النبي ﷺ أن يحملنا، ومن مخافة أن يكون النبي ﷺ وجد عليّ في نفسه، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بالذي قال النبي ﷺ، فلم ألبث إلّا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي: أين عبدالله بن قيس، فأجبته، فقال: أجبْ، رسول الله ﷺ يدعوك، فلما أتيته قال: «خُذْ هذين القرينتين وهذين القرينتين ـ لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد ـ فانطلق بهنّ إلى أصحابك، فقل: إن الله، أو إن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن» فانطلقت إليهم بهنَّ، فقلت: إن النبي ﷺ يحملكم على هؤلاء الأبعرة، ولكني والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ، لا تظنُّوا أني أحدّثكم شيئاً لم يقله رسول الله ﷺ، فقالوا: إنك عندنا لَمصَدَّق، ولنفعلنَّ ما أحببت، فانطلق أبو موسى بنفرٍ منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ ومَنْعه إياهم، ثم إعطاءهم بعدُ فحدّثوهم بمثل ما حدّثهم به أبو موسى.

وهذا الصنيع من أبي موسى رضي الله عنه في اعتذاره لأصحابه إنما أراد به ـ فيما يظهر ـ حمايتهم أن يقذف الشيطان في قلوبهم سوأة ظن به، لأن الزمن الذي انقضى بين منع النبي ﷺ من حملانهم وقَسَمه ألّا يحملهم على شيء، وبين إعطائهم الحملان كان قليلاً جداً، عبّر عنه أبو موسى بلفظ (سُوَيعة) أي لحظات من الزمن، فخشي أبو موسى أن يكون قرب الزمن ذريعة لشيء من وسوسة الشيطان، فأراد أن تبقى له قلوبهم على صفائها وإخلاصها.

قصة علبة بن زيد أحد البكائين ومناجاته ربه وتصدقه على كل مسلم بكل مظلمة أصابه بها.

وذكر بعضهم من البكائين علبة بن زيد بن عمرو بن عوف الأنصاري الذي لم يدركه شيء من حملان النبي ﷺ لمن حملهم، ولكنه استأنس بإيمانه وقد أرخى الليل سدوله، وستر الحياة بسكونه، فقام يصلّي ويبكي ويناجي الله ربه وهو أعلم، ويقول في مناجاته: اللّهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغّبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها، مال أو جسد، أو عرض. ثم أصبح علبة مع الناس، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: أين المتصدّق بهذه الليلة؟ فلم يقم أحد، ثم قال ﷺ: «أين المتصدّق؟» فلم يقم أحد، ثم قال صلوات الله عليه: «أين المتصدق؟ فليقم»، فقام علبة بن زيد إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بأمره وحاله، فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر، فوالذي نفس محمد بيده، لقد كتبت في الزكاة المتقبلة».

وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص، وحب الجهاد لنصرة دين الله وبثّ دعوته في الآفاق، وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين لايقفون في حياتهم مواقف سلبية يتلقطون فيها الأماني الكواذب، ولكنهم يعيشون في حياتهم عيشة عملية، فهم إذا عجزوا عن متابعة الحركة الإيجابية التي يدعوهم إليها الموقف لم ييأسوا، ولم يلبسوا، ووجهوا أنفسهم إلى هذا الدين القيِّم من مناح حركية يستطيعونها، وهذا لون من أشرف مناهج رسالة الإسلام، عظّمه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ، فكان مَعْلَماً من معالم الهداية التي يستهدفها الإسلام في رسالته، وهو مَعْلَم يستطيع كل مسلم أن يحققه في حياته.

مواقف من في قلوبهم مرض الذين كذبوا الله ورسوله وإخوانهم المعذرين من الأعراب.

أما الذين في قلوبهم مرض، فإنهم في مثل هذه المواقف يلوذون بكواذب المعاذير، ولا يجدون في أنفسهم من دوافع الخير ما يسعفهم في أزماتهم الإيمانية، وإنما يجدون في لَدَدِ النفاق طرقاً للمعاذير، ومذاهب للأباطيل والكواذب، ولهذا لما رأى مهزوزو الإيمان الجدّ في التأهب لمسيرة الجهاد، ورأوا صوارم العزائم تشرق في وجوه صادقي الإيمان من خلصاء المؤمنين

أخذتهم الرهبة، واكتنفهم الرعب والفزع، واستحوذ عليهم الذعر، واستولى عليهم الجبن والخور، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ مصفرَّة وجوههم يابسة جلودهم، كأنهم الأشباح خارجة من قبورها ينتحلون المعاذير ويفترون الأكاذيب ليقعدوا مع الخوالف، متعلِّلين بالجهد وكثرة العيال، وما بهم من ذلك من شيء، واستأذنوا رسول الله ﷺ في التخلّف عنه ورغبوا بأنفسهم عن نفسه، فأذن لهم، وجرى في شوطهم جرآء المنافقين من ذوي الصفاقة، غلاظ الأكباد، بجاح العيون، الذين نزع الله منهم كل حياء، فتخلّفوا بغير عذر جراءة على الله ورسوله، وقد ذكر الله تعالى الطائفتين ناعياً عليهم سوء فعلهم وقبح موقفهم، لكنه جل شأنه أجمل ذكر المعذّرين، وفصّل بعض الشيء موقف المنافقين الذين لم يعتذروا استهتاراً منهم بالموقف، فوصفهم الله بالكذب على الله وعلى رسوله، وذكر ما أعده لهم من أليم العذاب، فقال في الطائفتين: ﴿وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

ولما تمّت الأهبة، وأخذت كتائب المجاهدين مواقفها تحت ألويتها وراياتها استعداداً للمسير أقام رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه خليفة على عياله وأهله، وعلى سائر من بقي بالمدينة من ذوي الصدق في أعذارهم، ففي مرسل عطاء بن أبي رباح عند الحاكم في الإكليل أن النبي ﷺ قال لعلي: «يا علي اخلفني في أهلي واضرب وعظ» ثم دعا رسول الله ﷺ نساءه وقال لهن: «اسمعن لعليٍّ وأطعن».

وفي الصحيحين، والنسائي، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف علياً رضي الله عنه، فقال علي: أتخلّفني في النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟» وزاد الإمام أحمد فقال عليّ: رضيت، ثم رضيت، ثم رضيت.

وكان المنافقون قد أرجفوا بعليّ رضي الله عنه، فقالوا: ما خلّفه إلّا استثقالاً له، وتخففاً منه، فأخذ عليّ سلاحه ثم أتى رسول الله ﷺ وهو نازل

بكتائبه وحشوده بالجرف على مشارف المدينة فقال: يا نبي الله ﷺ زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني، وتخففت مني؟ فقال له النبي ﷺ: «كذبوا، ولكن خلفتُك لما تركت ورائي، فارجع في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي»، فرجع عليّ إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ في مسيرته ميممًا هدفه من غزوته حتى بلغ تبوك.

وإرجاف المنافقين بعليّ رضي الله عنه في تخليف رسول الله ﷺ له في أهله، وهو ميّمم سفراً بعيداً، قد يطول المقام فيه أو يقصر، وأهل بيت رسول الله ﷺ، ومن بقي من مسلمة المدينة الذين حبسهم العذر عن السير معه ﷺ في أشد الحاجة إلى من يرعى مصالحهم ويقوم على حمايتهم ويحفظ ضيعتهم ـ إنما هو نزيز صديد من حقد النفاق والمنافقين، ورشح من بثور الغيظ الممضّ الذي نغل قلوبهم، لأن علياً رضي الله عنه كان شجاً في حلاقيم كل كفور عنيد، وغصّة تكتم أنفاس كل منافق كنود، تربى منذ طفوليته بين أحضان عطف رسول الله ﷺ، فأحبّه وآثره بمنزلته منه، وأرضعه المكارم من ثديي أدب نبوته، وفوّزه بأكرم الصهر منه، وجعل الله منه خلود ذرية أهل البيت، فكانت لرسول الله ﷺ لسان صدق في الآخرين، فمن أولى من عليّ صاحب البرد الأخضر في ليلة الهجرة أن يخلف رسول الله ﷺ في أهله؟ ولكن غباء النفاق، ولؤم نحيزة المنافقين أبيا إلّا أن يكونا أحد طرفي حبل الفجور يتجاذبانه مع أكذب خلق الله الروافض، فهؤلاء كذبوا على الله ورسوله، وقالوا منكراً من القول وزوراً، وأولئك تقولّوا إفكاً من الأباطيل والفِرى، ولكن الله تعالى هو الفعّال لما يشاء، يضل بالحب الكفور من يشاء، ويدخل في مساخطه بغباء الفجور من يشاء، لا يسأل عما يفعل ويحلم ما يريد.

تخلف بعض صادقي الإيمان عن رسول الله ﷺ ليكونوا أسوة في عدم الاعتماد على غير الله تعالى.

وقد تخلّف عن المسير مع رسول الله ﷺ نفر قليل من خلّص الصحابة رضي الله عنهم بغير عذر، ولم يعرف عنهم قط غميزة في دينهم وإخلاصهم وحبهم لله ورسوله ـ لحكمة أرادها الله تعالى، ليكون في هذا التخلّف، وما جاء في قصته من عبر وعظات، ودروس في تربية السلوك الإيماني أسوة

للأجيال المقبلة مما يوجه المجتمع المسلم أفراداً وجماعات إلى ما ينبغي أن يكون عليه هذا المجتمع في جميع أحواله ومواقفه على صلة وثيقة بربه، وأن يكون دائماً على يقظة حذرة من نزعات الشيطان حتى لا يخدعه عما تجري به تصاريف الأقدار في غيبها، وأن يكون قلبه معلّقاً بأجنحة الخوف من مكنون الغيب، والرجاء في لطف الله ورحمته.

قصة الثلاثة الذين خلفوا وما فيها من عبر وعظات وتلطف.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم قصة الثلاثة الفضلاء من أصحاب رسول الله ﷺ الذين تخلّفوا عنه بغير عذر، ثم خُلِّفوا عن التوبة عليهم، فعاشوا في شدائد الأزمات خمسين يوماً مهاجرين لا يُكلَّمون ولا يكلّمون ولا يعاملون: وهم كعب مالك السُّلَمي الأنصاري، ومرّارة بن الربيع العمْري الأنصاري، وهلال بن أمية الواقفي الأنصاري - في أسلوب تصويري مبدع الإعجاز، رائع البيان، فقال تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنُّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ وهذا التصوير المجسّد للموقف، الناطق بإعجازه، وروعة إيجازه يحمل في طياته صورة مجسّدة للمعنى الذي تقصد إليه الآية الكريمة، فقوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة﴾ ينادي بتخصيصهم العددي، وإفرادهم بالذكر مع إبهام أشخاصهم معلناً ما لهم من منزلة إيمانية رفيعة، مشعرة بالحفاوة بهم دون أن تذكر خصائصهم المعيّنة لهم كما تعين الأسماء مسمياتها، بالعتب المتلطف، كأنه قيل لهم: أنتم في سمو منزلتكم الإيمانية لم تكونوا ممَّن ينبغي أن يصدر منه ما صدر منكم من التخلُّف عن أعظم الشرف، وهكذا جمع التعبير المؤلف من اسم وحرف ثناء رمزياً، وعتباً إشارياً، والثناء والعتب طرفان بينهما حب نديّ، يأخذ من كل طرف حظّه.

وقوله جل شأنه: ﴿الذين خُلّفوا﴾ وصف مشعر لجميع أفراد المجتمع المسلم أنّ الأعزة لا يعاملون في أدب السلوك معاملة الخادعين المتكذبين، الذين يتسارع إلى إزاحتهم عن المواجهة بقبول ظواهرهم، وتركهم بذنوبهم إلى يوم يوعدون.

ولكن الأعزّة يوقف بهم موقف ينضح عنهم رشاش ما لحقهم من آثار الهفوات، حتى إذا وردوا على ساحة العتاب وردوها، يقدمهم نور الرجاء مظللّين بظل ﴿إن الله يحب التوّابين﴾.

وقد جاء في مرسل الحسن بيان سبب تخلف مرّارة بن الربيع عن رسول الله ﷺ: أنه كان له حائط ـ بستان ـ قد زها حين الاستنفار لتبوك، وكأنه أعجبه، فقال في نفسه: قد غزوت قبلها، فلو أقمتُ عامي هذا؟ ثم تذكر ذنبه فأسرع الأوبة منادماً للتوبة، وقال: اللّهم إني أشهدك أني قد تصدقت به ـ أي بحائطه ـ في سبيلك.

وفي هذا الصنيع الأوّاب معالم من معالم المنهج التربوي في رسالة الإسلام، فقد عرف مرّارة بن الربيع رضي الله عنه أنه فتن في إيمانه بإعجابه بحائطه الذي زهت ثماره وأينعت، وقد غفل عما قد يعتري حائطه من الجوائح المبيدة أو ما قد يلم به من الغصص فيحرمه المتعة بما أعجب به، وقد حُرم مرافقة رسول الله ﷺ في مسيره للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، وما في ذلك من خير لا يبيد ولا ينقطع، متعلّلاً بأنه قد غزا قبل هذه الغزوة، فلما تنبَّه إلى ما وقع منه، وتيقظ إيمانه، وتمثّل له ذنبه فاستعظمه أسرع إلى الإنابة تائباً من ذنبه توبة نسجها الإخلاص والصدق، فانخلع عن هذا الحائط وثمره الزاهي، فوضع بعمله هذا دعامة من دعائم التربية السلوكية للذين هفوا وأرادوا أن يتطهروا من هفواتهم، فكان ذلك مَعْلَمًا تربوياً من معالم منهج الرسالة التي ربّاهم عليها رسول الله ﷺ حتى تكون تلك المعالم معتصمهم عند النوازل والافتتان بالدنيا وزخارفها، فكل ما كان سبباً في مواقعة الذنب، وضعفت النفس أمام إغرائه يجب التخلص منه، وإزاحته عن طريق السالك في مسيرة الرسالة الخالدة إقامة لمنائر منهاجها مضيئة هادية.

تهدِّي الصحابة للخروج من المآزق بما يمحو آثارها.

ومن دقة فهم الصحابة لمناهج رسالة الإسلام أنهم يخرجون من مواقفة الهفوات إلى الدخول في عرصات الطاعات بنفس ما كان سبباً للهفوات، فهذا الصحابي الأوّاب مرّارة بن الربيع رضي الله عنه حين آب إلى الله تعالى

تائباً من ذنبه جعل من توبته أن يتصدّق بهذا المال الذي أعجب به، فكان سبب هفوته، فجمع الله له بما وفقه الحسنيين: التوبة من الهفوة، والتصدّق بهذا المال الذي أعجبه فآثره على الجهاد مع رسول الله ﷺ.

وفي مرسل الحسن أيضاً ذكر سبب تخلّف هلال بن أمية الواقفي الأنصاري الذي حكاه عن نفسه فقال: إنه كان له أهل تفرقوا ثم اجتمعوا، فحدّث نفسه بأنه لو أقام هذا العام عندهم متخلّفاً عن مرافقة رسول الله ﷺ في مسيرة جهاده، ولكنه سرعان ما تيقّظ قلبه فأدرك أنه هفا بذنب، فآب إلى التوبة، وانخلع عما كان فيه راغباً من الإقامة عند أهله هذا العام، وأناب إلى الله، وقال: اللّهم لك عليّ أن لا أرجع إلى أهل أو مال، فغسل بتوبته حوبة هفوته.

موقف كعب بن مالك نموذج حي للإيمان الصادق.

أما كعب بن مالك رضي الله عنه، فقد ذكر في حديثه حاله وموقفه في تفصيل طويل مسهب، جعل من هذا الحديث كتاباً يحوي بين دفتيه الكثير من معالم منهج الرسالة الخالدة، وقد آثرنا تسجيله في بحثنا على طوله واستفاضة حوادثه، لا ليكون قصة تثير الإعجاب والعجب، ولكن ليكون منارة يهتدي بنورها التائبون إلى منازل القبول، وليظهر أن منهج الإسلام في سلوكه الإيماني لم يكن مجموعة من الأمشاج المثالية السلبية، وإنما هي آيات بيِّنات من واقع الحياة تجعل من المسلم أينما كان من أرض الله قوة روحية بها كانت الأمة الإسلامية خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وهذان المنهجان هما جماع سعادة الأمة ومناط عزها.

موقف كعب بن مالك في تخلفه
حتى تاب الله عليه كما يصوّره بأسلوبه

حديث كعب ابن مالك المسهب وما فيه من صدق الإخلاص ونماذج التربية السلوكية للمجتمع المسلم.

أخرج الصحيحان حديث الثلاثة الذين خلّفوا برواية كعب بن مالك وأسلوبه من طريق الزهري، عن عبد الرحمن بن عبدالله، حفيد كعب ابن مالك، عن أبيه عبدالله بن كعب بن مالك، وكان عبدالله قائد أبيه من بين بنيه، حين عمي كعب، قال عبدالله: سمعت كعب بن مالك يحدِّث حين تخلف عن قصة تبوك فقال كعب: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلاّ في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلّفت في غزوة بدر، ولم يعاتب رسول الله ﷺ أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر منيِّ حين تخلّفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ أي ديوان ـ فقلَّ رجل يريد أن يتغيّب إلاّ ظن أنَّ ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي من الله تعالى.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر ـ أميل ـ، فتجهّز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه إذا أردته، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلتُ ثم لم يقدّر لي ذلك، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أن لا أرى لي أسوة إلاّ رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سَلِمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنظر في عِطْفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

ثم قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنّ رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني همّي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، وصبحّ رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس.

موقف كعب بن مالك بين يدي رسول الله ﷺ وصدقه الذي أنجاه.

فلما فعل ذلك جاءه المتخلِّفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت تبسّم تبسُّم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك» فقلت: بلى، إني والله يا رسول الله، لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، والله لقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه عليّ إني لأرجو فيه عفو الله، وفي رواية مسلم، عقبى الله،

لا، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت، وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في ألاّ تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المتخلّفون؟ فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكرا رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة - هذا من رواية الواقدي، ذهب فيها مذهب أبي بكر الأثرم، والجمهور على أنهما لم يشهداها، كما لم يشهدها كعب ابن مالك - فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيّها الثلاثة من بين من تخلّف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكّرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فقد استكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردِّ السلام أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمتُ عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله؟ هل تعلمنّ أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى

موقف إيماني بين أبي قتادة وكعب ابن مالك.

شدة البلاء على كعب أن يدعوه ملك غسان للجوء إليه في محنته.

جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نواسِك، فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء؟ فتيمّمت بها التنّور فسجرته بها.

أمر الثلاثة باعتزال زوجاتهم على رأس أربعين ليلة من ابتداء المحنة وموقف امرأة هلال.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: (إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك) فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: (لا، بل اعتزلها، فلا تقربنّها)، فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنّك» فقالت: إنه والله مابه حركة إلى شيء!!، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، ثم صلّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج.

اعتناء أم المؤمنين السيدة أم سلمة بشأن كعب بن مالك وتوبته.

وذكر ابن حجر في الفتح: أنه وقع في رواية إسحق بن راشد، وفي رواية مَعْمَر: فأنزل الله توبتنا على نبيّه حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معتنية بأمري، فقال ﷺ: «يا أم سلمة، تيب على كعب» قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال صلوات الله عليه: «إذاً يحطمكم الناس، فيمنعوكم النوم سائر الليلة» حتى إذا صلّى الفجر آذن بتوبة الله علينا.

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب

الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشّرون، وركض إليّ رجل - قيل أنه الزبير بن العوام كما رواه الواقدي - فرساً، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع إليّ من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما.

كيف عرف كعب بالتوبة عليه وعلى صاحبيه؟ وأول من بشره؟.

وفي الفتح أن الذي سعى فأوفى على الجبل هو حمزة بن عمرو الأسلمي، وقد نقل الزرقاني عن ابن عائذ أن اللذين سعيا أبو بكر وعمر، وعند الواقدي أن الذي أوفى على الجبل أبو بكر الصدِّيق، فصاح: قد تاب الله على كعب، والذي في الصحيح من أن الساعي إلى الجبل أسلمي أصحّ، وقد جزم ابن حجر بأنه هو حمزة بن عمرو، وحكى ابن حجر عن كعب بن مالك أنه قال: وكان الذي بشرني فنزعت له ثوبيّ حمزة بن عمرو الأسلمي، وكان الذي بشّر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد، قال سعيد: وخرجت إلى بني واقف فبشرته، فسجد، فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه، لِما كان فيه من الجهد، لأنه امتنع من الطعام حتى كان يواصل الأيام صائماً لا يفتر عن البكاء.

قال كعب في حديثه: وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال في الفتح: وسبب ذلك أن النبي ﷺ كان آخى بينه وبين طلحة لمّا آخى بين المهاجرين والأنصار، قال ابن حجر: والذي ذكره أصحاب المغازي أن كعباً كان أخا الزبير بن العوام، لكن كان الزبير أخا طلحة في أخوة المهاجرين، فهو أخو أخيه وهذا كلام ضعيف، لأن ما كان بين المهاجرين من التآخي كان من قبيل أخوة الإيمان التي عقدها الله تعالى بين عامة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

فرح المسلمين بالتوبة على إخوتهم الثلاثة واستقبال الناس كعباً بالتهنئة.

أما المؤاخاة التكافلية الاجتماعية فهي التي عقدها النبي ﷺ بين

المهاجرين والأنصار، فجعل لكل مهاجري أخاً من الأنصار وكتب ﷺ بذلك كتاباً، وقد فسرنا الكلام عن المؤاخاة وما قيل عنها تفصيلاً جمع بين رواياتها وآراء العلماء فيها، ورجّحنا أن المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ في مسجده الشريف، وفي بيت أنس بن مالك رضي الله عنه هي المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار.

تهنئة رسول الله ﷺ كعباً بتوبة الله عليه وتقبيل كعب يده وركبتيه.

قال كعب بن مالك في حديثه: فلما سلّمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك» فقلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنانعرف ذلك منه.

وعند ابن مردويه وأبي الشيخ عن كعب بن مالك قال: لما نزلت توبتي أتيت النبي ﷺ فقبلت يده وركبتيه، وكسوت المبشّر ثوبين.

تصدق كعب بماله كله لتوبة الله عليه وردّ رسول الله ﷺ هذا التصدق إلى بعض ماله إبقاء على مستوى عيشه.

فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبة الله عليّ أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، فأنزل الله عز وجل: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

ثم قال كعب بن مالك في حديثه: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط

إعظام كعب نعمة الله عليه في توفيقه صدق رسول الله ﷺ.

بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ ألّا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، فقال تعالى: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم إنهم رجْس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن تَرْضَوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾.

قال كعب: كنا خُلّفنا أيّها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وعلى الثلاثة﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا تخلّفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

قصة أبي خيثمة وما تضمنته من معالم منهج الرسالة وإنهاض الإيمان المؤمن من كبوته.

وقد نظم الله جل شأنه في سلك هؤلاء الثلاثة الأصفياء الأوّابين أول ما بدأت المحنة أبا خيثمة ثم تداركه الله بلطفه، فأيقظ الإيمان في قلبه، فثاب إليه رشده، وعزم فأمضى حتى لحق بالنبي ﷺ بعد وصوله إلى تبوك، فكان في قصته وحديثه مَعْلم من معالم رسالة هذا الدين القيِّم بدأ برشح من غفوة الإيمان، ثم انتهى بصحوة عارمة هزّت كيانه، ومضى قُدُماً إلى تتبع خطوات رسول الله ﷺ حتى لقيه في تبوك، ذلكم أبو خيثمة، قيل إنه صاحب التصدّق بصاع التمر الذي لمزه المنافقون، فتولى الله تعالى الدفاع عنه وأنزل قصته قرآناً يُتلى تعبّداً، ويتحدى إعجازاً، ويسخر من طغمة المنافقين الذين سخروا منه ومن صدقته، فقال جل شأنه: ﴿الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلّا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾.

تحقيق يكشف عن أنّ أبا خيثمة ليس هو المتصدق بصاع التمر الملموز من المنافقين.

وقول ابن جرير الطبري فيما أخرجه عن عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن الذي تصدّق بصاع التمر فلمزه المنافقون أبو خيثمة الأنصاري يتعارض كل التعارض مع ما جاء في قصة تخلُّف أبي خيثمة عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم نهض للّحاق به حتى أدركه بعد ما نزل

بتبوك، من أنه كان يملك حائطاً، وتحته امرأتان، ولكل واحدة منهما عريش رشته بالماء، وهيأت طعاماً لزوجها أبي خيثمة، فلما جاء إليهما وقف بالباب، ورأى ما صنعت كل منهما بعريشها، فحلف ألا يدخل عريش واحدة منهما حتى يلحق برسول الله ﷺ، وقد أخذ القرطبي برواية الطبري، فقال عن أبي خيثمة: وهو الذي تصدّق بصاع التمر حتى لمزه المنافقـون، ثم ناقض القرطبي نفسه بما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿الذين يلمزون المطّوعين﴾ من أن المتصدِّق بصاع التمر هو أبو عقيل، واسمه الحبحاب.

ووجه تعارض رواية الطبري مع ما جاء في قصة تخلُّف أبي خيثمة أن الذي جاء في القصة مشعر بأن أبا خيثمة كان من أهل الاستطاعة بالتصدّق بما هو أكثر من صاع التمر، وأن صاع التمر أقلُّ جداً من جهده الذي يستطيع، فجعله هو الملموز من المنافقين لأنه تصدّق بصاع التمر وهو جهده، يتنافى مع حاله المذكور في قصة تخلّفه.

ترجيح تعدد قصة المتصدق بصاع التمر الملموز من المنافقين.

والظاهر أن قصة المتصدِّق بالقليل الذي يستطيعه جهده إلى جانب المتصدِّق بالكثير الغامر مثل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الذي لمزه المنافقون بالرياء قد تعدّدت، لأن الروايات تعدّدت واختلف الأشخاص باختلاف الروايات، فبعضها عدّ أبا خيثمة، وبعضهـا ذكر أبـا نهيك، وبعضها سمّى الحبحاب، وهو أبو عقيل، وبعضها ذكر سهل بن رافع، كما في رواية البغوي في معجمه وابن قانع، وابن مردويه عن سعيد بن عثمان البلوي عن جدّته ليلى بنت عدي، أن أمها عميرة بنت سهل بن رافع صاحب الصاعين الذي لمزه المنافقون أخبرتها أنه خرج بصاع من تمـر وابنته عميرة، حتى أتى النبي ﷺ بصاع من تمر فصبّه.

رواية تخلف أبي خيثمة عند الطبراني كما يرويها عن نفسه.

وحديث تخلّف أبي خيثمة أخرجه الطبراني من رواية أبي خيثمة نفسه قال: تخلّفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطاً، فرأيت عريشاً قد رُشّ بالماء، ورأيت زوجتي، فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السَّموم والحر، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات، وخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس قال ﷺ: «كن أبا خيثمة» فجئت فدعا لي،

وهذه رواية موجزة مقتضبة اختصر الكثير منها.

سياق الطبري لقصة أبي خيثمة سياق مفصل اشتمل على زيادات مفيدة.

وقد روى القصة أبو جعفر الطبري في تاريخه، فساقها سياقاً مفصّلاً انسجمت فيه حوادثها، واشتملت على زيادات مفيدة رأينا أن نسوقها بسياقه ونسجلها بروايته.

قال أبو جعفر: ثم إنّ أبا خيثمة أخا بني سالم رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فرأى امرأتين له في عريشين لهما في حائط، قد رشّت كلٌّ منهما عريشها وبرّدت له فيه الماء، وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريشين، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله في الضحّ والريح، وأبو خيثمة في ظلال باردة، وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف!! والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قام إلى ناضحه فارتحله، وخرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

وتقدم أبو خيثمة في سيره حتى دنا من رسول الله ﷺ قال الناس: يارسول الله، هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أبو خيثمة أقبل فسلّم على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «أولى يا أبا خيثمة»، ثم أخبر أبو خيثمة رسول الله ﷺ خبره، فقال ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

عبر واعظة في آيات تربية متلطفة

التنبيه إلى ما في قصة الثلاثة المتخلفين من عبر وآيات متلطفة.

المتأمل في قصة هؤلاء الذين تخلّفوا عن مسيرة الجهاد مع رسول الله ﷺ في آخر غزوة غزاها في حياته - كما رواها كعب بن مالك في حديثه، مع صدق إيمانهم، وإخلاص يقينهم، دون أن يكون لهم عذر في تخلّفهم، حتى خُلِّفوا عن التوبة، وأرجئوا حتى قضى الله في أمرهم، وتاب عليهم - يرى فيها من العبر الواعظة، وآيات التربية المتلطِّفة التي حواها منهج الرسالة السلوكي في إقامة بناء المجتمع المسلم على دعائم التمحيص بالمحن، حتى

يكون مجتمعاً قوي التماسك في عناصره الداخلية النفسية، لا تهزه أعاصير الأحداث مهما عتت، ويكون مجتمعاً سليم التكوين في عناصره الفردية الجماعية، يمثل الإنسانية في واقعها الوجودي، فيهفو ويعلم أنه قد هفا، وينهض من هفوته متطهِّراً، ويعلم أن الهفوات لا تقعد به عن الوثوب إلى آفاق الحياة، وذلك سبيل الإنسانية في طبيعتها التي تحيا بها حياة عملية تدور بين النقص والكمال البشري.

صدق إيمان المتخلفين جعلها نماذج لتربية المجتمع المسلم.

كذلك كان هؤلاء المخلّفون، إيمان لا يتزعزع، ويقين لا يتضعضع، وغرائز إنسانية حية لا تضعف عن الصراع والتجاذب، والشدِّ والدفع، تتربص بالفرص وراء جهام الغفوات القلبية، وستائر الغفلات العقلية، لتثب بصاحبها بعيداً عن منائر الإيمان ومعالم اليقين.

ولكنها سَرْعَ ما يعشوها نور الحق فيقهرها، فإذا هي ناكصة على أعقابها، وإذا شمس الإيمان مشرقة بأضوائها في قلوب صادقي الإيمان، كأنما أشعتها نسج من خيوط أنوار التوبة الضارعة بالتذلّل بين يدي الله الرؤوف الرحيم الودود، فتفتح لها أبواب الرضا والقبول، ويجعل الله جل شأنه من ذلك كله درساً تربوياً سلوكياً تتوارثه الأجيال المقبلة من سلائل المجتمع المسلم على مرّ الأزمنة واختلاف البيئات والأوطان، توثيقاً للوحدة التربوية المؤسسة على الإيمان بين هذه الأجيال، وهي تمرّ مع الحياة.

فهؤلاء الثلاثة الأصفياء الذين سمت بهم هفواتهم إلى ذرا التمحيص والتطهر كانوا نماذج إنسانية لتربية المجتمع المسلم تربية منهجية سلوكية، تعتمد على تطبيق معالم منهج الرسالة تطبيقاً عملياً على الأفراد والجماعات.

خصائص غزوة تبوك جعلت مساءلة التخلف عنها عظيمة.

فإذا نادى منادي رسول الله ﷺ ـ وهو القائد الأعظم الذي تجب طاعته رسولاً وقائداً بالنفير إلى الجهاد ـ فقد وجب على كل مسلم بلغه النداء أن ينفر مستجيباً لنداء الرسالة والقيادة العظمى

وقد كان لهذه الغزوة خصائصها التي تميزها عن سائر الغزوات مما يجعل المساءلة عن التخلّف عنها عظيمة بالقياس إلى المساءلة عن التخلُّف في غيرها.

وأول تلك الخصائص وأهمّها أن غزوة تبوك كانت خاتمة غزوات رسول الله ﷺ التي قاد فيها كتائب الجهاد وحشودها بنفسه، لأنها كانت غزوة الإعلان العملي لعموم الرسالة، وأنها كانت تطبيقاً عملياً لوضع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ وهو من آخر ما نزل من القرآن موضع التنفيذ، والنداء في الآية عام شامل لجميع المؤمنين، وهؤلاء كانوا هم المجتمع المسلم المخاطب بالآية، وهم العرب قاطبة الذين ينطبق عليهم الوصف الذي نُودوا به، ولا عبرة بالقلة الشاردة عن الإيمان.

الإعلان العملي عن عموم الرسالة هو الخصيصة الأولى لغزوة تبوك.

وثاني خصائص هذه الغزوة أنها كانت غزوة عُسْرة في كل شيء حتى سماها الله تعالى ساعة العُسرة، في ثنائه على الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ، فاتبعوه في سَيْرِه لهذه الغزوة إيثاراً للجهاد في سبيل الله على الراحة والاسترخاء المترهِّل الكسول، والتثاؤب في ظلال الثمار الزاهية، فقال تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العُسْرة﴾.

الخصيصة الثانية ما كان فيها من عسر وأزمات.

وثالث خصائص هذه الغزوة أن النبي ﷺ خالف عادته الكريمة التي كان يسير عليها في غزواته من التورية والكناية، إلا ما كان منه ﷺ في غزوة العسرة، فقد أعلن عنها وأخبر بها الناس ليقطع عذر كلٍّ من بلغه نداء النفير، مستهدفاً من هذا الإعلان أن يشرك في هذه الغزوة أكبر عدد من أصحابه في جهادها معه، الذي يضع به اللبنة الأولى في عموم الدعوة إلى الله، التي جاءت بها رسالته الخالدة، وهذه اللبنة بدء مرحلة جديدة في تبليغ الرسالة، تحتاج إلى تأهب قوي لما كان في السير إليها من عسر وعسرة، وشدة أزمة.

الخصيصة الثالثة ما كان فيها من الإعلان عنها صراحة.

ورابع خصائص هذه الغزوة أنها كانت امتحاناً قاسياً في البذل والإنفاق والتصدّق لتجهيز جيشها في كثافة وكثرة عدده، مما لم يعرف مثله في غزوة من الغزوات.

الخصيصة الرابعة ما كان فيها من بذل وإنفاق وتصدق بلغ الذروة من المكارم.

وقد أنفق فيها المكثرون والمقلون ابتغاء وجه الله ورضوانه، فالحبحاب

أبو عقيل الذي بات يجر الجرير على صاعين من تمر، أتى بأحدهما إلى رسول الله ﷺ وترك الآخر لقوت عياله نال من فضل الله وتشريفه أن سلكه الله في عقد الأكرمين: الصديق أبي بكر، والفاروق عمر، وذي النورين عثمان ابن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدي الأنصاري، الذين أنفقوا الألوف والمئين، واستقلُّوا بتجهيز جيش العسرة على ضخامته، فنالوا من رضاء الله ورسوله ما سجّله لهم تاريخ الجهاد في الإسلام في صحائف أمجاده.

الخصيصة الخامسة أن هذه الغزوة كانت من أعظم مظاهر العزة الإسلامية.

وخامس خصائص هذه الغزوة أنها استوعبت أكبر وأعظم جيش قاده رسول الله ﷺ في حياته المباركة، ليري الكافرين خارج نطاق الجزيرة العربية قوة الإسلام والمسلمين، وليجرىء المسلمين على أعدائهم الذين كانوا يسترهبونهم قبل أن يوحِّد الإسلام كلمة العرب، ويتخذ منهم قادة يحملون ألوية الجهاد ورايات الدعوة إلى الله، طوّافين في الأرض، يبلِّغون رسالة الإسلام، وينشرون دعوة الهدى والرشاد، ويحرِّرون البلاد والعباد، ويفتحون مغاليق القلوب والعقول والأفكار.

الخصيصة السادسة أن هذه الغزوة كشفت سوآت المنافقين وقضت على وجودهم.

وسادس خصائص هذه الغزوة أنها فضحت المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فكشفت عن سوآتهم، وجلّلتهم بالخزي والخذلان، وألبستهم جلابيب العار والشنار، وأظهرت النفاق على حقيقته من الضَّعة والإسفاف، وأبانت عن حقيقة المنافقين وما جبلوا عليه من الجبن وخور العزائم، والكذب والغدر والخيانة، والفجور، وأنهت وجودهم في الحياة أذلّاء.

بهذه الخصائص انفردت غزوة تبوك بوضعها وقدرها.

في ظل هذه الخصائص وغيرها مما لم نذكره لتعالمه في التاريخ الإسلامي كانت هذه الغزوة منفردة بوضعها الجهادي وقدرها الاجتماعي بين غزوات المجتمع المسلم في مهد حياته، فإذا تخلّف عنها مسلم لم يعرف عنه إلا الصدق في إيمانه والإخلاص في يقينه، كان ذلك من أعجب العجب الموجب للتساؤل في إشفاق واستغراب، وكان مدعاة لخوض المنافقين، وأسف حزين من عامة المؤمنين الذين تدعوهم الوحدة الإيمانية إلى حمل همّ من يهفو من إخوانهم في الإيمان، يُشغلون بحاله وأمره، ويرجون من الله أن يكشف غمته،

أما الذين تخلّفوا نفاقاً ومرضاً في قلوبهم فهؤلاء لا يقام لهم وزن، ولا يُتساءل عنهم، لأنهم معروفون بحالهم من الكذب والفجور.

ومن ثَمّ كان موقف الثلاثة الذين خُلّفوا، وهم في صدق يقينهم وإخلاص إيمانهم لا يغمزون، موضع عجب وعتب، وتساؤل مشفق، وتشاغل مؤسف، حتى إذا تفضّل الله عليهم قضى في أمرهم، وأنزل في شأنهم قرآناً يتلى، لتكون قصتهم درساً سلوكياً في حياة المجتمع المسلم، ما بقي القرآن الكريم يُتلى في محاريب الإسلام.

وقد كان حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خُلّفوا ـ وهو حديث من أصح الصحيح، بل هو متواتر المعنى ـ سجلاً حافلاً بتفاصيل أحداثها منذ بَدْئها إلى نهايتها، رواها كعب رضي الله عنه في صدق وأمانة وإخلاص.

فقد وصف في حديثه حاله ساعة أن بلغه نداء رسول الله ﷺ باستنفار الناس إلى جهاد بني الأصفر، وهم الروم، فقال: إني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنه ﷺ. فهو يقرّ على نفسه أنه تخلّف عن مسيرة الجهاد مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهو قادر قوي، ميسر الأسباب موفَّر الوسائل، وهكذا كان صاحباه: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فثلاثتهم تخلّفوا عن رسول الله ﷺ بغير عذر يبيح التخلّف، وإنما كان تخلفهم هكذا قضاء وقدراً، والقضاء والقدر لا يعفيان من المساءلة، ولا ينجيان من المحاسبة، لأنهما غيب لا يعلمه المكلف، فلا ترتبط بهما مساءلته ومحاسبته ومجازاته على ما وقع منه، والمساءلة إنما ترتبط بالأمر والنهي اللذين هما مناط التكليف وسبب الثواب والعقاب.

وقد اشتمل حديث كعب على جملة من المعاني والحقائق التي أجملها القرآن الكريم في آية واحدة من آياته البيِّنات، جاءت في أسلوب بياني رائع الأداء، بارع الإعجاز، بليغ الإيجاز، حاوية للكثير من معالم منهج الرسالة الخالدة في مناحيها المختلفة، بين المعالم النفسية والاجتماعية والتربوية مع ما صاحبها من الأحكام الشرعية والآداب الخلقية.

كان حديث كعب بما حواه من المعاني والحقائق نبراس هداية للخطائين.

ومن ثَمَّ جاء حديث كعب بن مالك في تفصيله لأحداث القصة ومعالم المنهج السلوكي نبراساً يهتدي به الخطّاؤن الذين قد تغلبهم نوازعهم الغريزية فتقعد بهم دون مكانهم من المجتمع المسلم، ولكن الدوافع الإيمانية تنهضهم وتتسامى بهم ليستعيدوا ما كان لهم من مكانة مرموقة لاعتصامهم بالصبر على المحن التي جرت بها تصاريف الأقدار في مجاري الغيب، لا يلحقهم ضعف معجز، ولكنهم يتخذون من أخطائهم منائر هداية تنير لهم طريق الأوبة إلى الله مستسلمين لأحكامه وأقداره.

فإذا جاءتهم بشائر الإنعام بالرضا والقبول لم تبطرهم، بل تفتح لهم منافذ الشكر، وتنهضهم إلى صالح العمل، كما صنع كعب بن مالك وصاحباه مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وثلاثتهم من الرعيل الأول من أنصار الله وأنصار دينه، وأنصار رسوله ﷺ، فإنهم صدقوا الله، وتابوا توبة كانت مثلاً شروداً في رسوخ الإيمان وقوة اليقين.

عظم أثر توبة الثلاثة الذين خلفوا.

لقد كان من توبتهم أنهم طرحوا غرور الدنيا، وتصدّقوا بأموالهم، وانخلعوا عن كل ما كان سبباً في تخلّفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة التي امتازت بخصائصها عن جميع الغزوات قبلها، حتى صهروا أنفسهم بنيران اليقين الذي مثّل لهم ضخامة ما اقترفوه من هفوتهم، فصبروا على هجران النبي ﷺ، وهو أشق على أنفسهم من كل ما أصابهم في محنتهم، ثم صبروا على هجران المسلمين، عامتهم وخاصتهم، سواء من الأقربين أو البعداء، وصبروا على اعتزالهم زوجاتهم خمسين ليلة، لا يكلّمون ولا يعاملون في بيع ولا شراء، واجتنبهم الناس اجتناباً كلياً شاقاً، وتغيروا لهم في كل شيء، حتى ضاقت عليهم الأرض على سعتها، فأنكروها، وصارت في أعينهم شيئاً غريباً عليهم، وكأنها ليست هي الأرض التي عرفوها وعاشوا فوق أديمها، وطعموا من ثمرها وشربوا من مائها، قال الزمخشري في قوله: ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ وهو مثل للحَيْرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه.

وضاقت عليهم أنفسهم حتى كأن خلايا أبدانهم تضامرت، فلا سبيل

لها إلى الحركة، وصارت قلوبهم وأرواحهم مسدودة المنافذ، لا يغشاها أنس، ولا يدخلها سرور، وكأنها خرجت من فرط الوحشة والغم من شدة ما لا قوه من بثٍّ وهم، وحزن وضيق، لإعراض الناس عنهم إعراضاً لا هوادة فيه، حتى بلغ ببعضهم فرط الغم والحزن أن تسوّروا الحوائط والجدران على جيرانهم من ذوي قرباهم وأرحامهم وأحبِّ الناس إليهم، عسى أن يجدوا عندهم منفذاً لكلمة مواسية أو نظرة مرجية، فأبوا عليهم أن يردوا سلامهم، وتنكّروا لهم، وأنكروا عليهم ما كانوا يعرفونه لهم من إخلاص الإيمان والحبِّ لله ولرسوله ﷺ.

يقول كعب بن مالك في حديثه مصوِّراً بعض حاله: حتى إذا طال ذلك علينا من هجر المسلمين مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمتُ عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

توبة الثلاثة الأصفياء في ضوء تأملات حول ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾.

لقد تاب هؤلاء الثلاثة الأصفياء توبة أشرقت بها قلوبهم، وتحاتّت عنهم هفواتهم كما تتحاتُّ أوراق الأشجار حين يهزّها لفح الخريف، واستضاءت بها أرواحهم بنور التطهر من أدران الشرود في أودية الخشية، متحقّقين بنفحات ﴿إن الذين اتقّوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾.

ولنتأمل التعبير المتلطّف بقوله: (مسّهم) فإن فيه إشعاراً بأن هفوات المتّقين ليست من ثوابت الذنوب والمخالفات، وإنما هي أشبه بمرّ الظلال مع جري الشمس في مقارِّها، وفي قوله (طائف) تبيان لعدم تمكن الوسوسة من أفئدة المتقين، وأقصى ما تبلغه منهم أن تطوف بهم، فيسرعوا إلى مسح ما عسى أن يكون قد علق بهم من رشحها بماء الاستغفار، واللجوء إلى كنف ذلّ الضراعة طاهرين مطّهرين.

وفي قوله جل شأنه: ﴿فإذا هم مبصرون﴾ تصوير مبدع في روعته

وبراعته يكشف عن سرعة تطاير همزات الشيطان، لا تكاد تحل حبوتها في ساحات صدق إيمانهم حتى ينجلي جهامها عنهم، فإذا هم في ضياء شمس إخلاصهم ينعمون وفي عرصات التوبة النصوح يتقلبون.

وحسب هؤلاء التوابين ما هنأ به رسول الله ﷺ أحدهم وهو كعب ابن مالك فقال له: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك»، وهذه التهنئة تحمل في طيّاتها أنهم أحسنوا التوبة فأحسن الله إليهم رضاءً عنهم، وأدخلهم في منازل ﴿إن الله يحب التوّابين﴾ حيث بوّأهم فيها أشرف مراتعها، وآتاهم الله من فضله أن جعل توبتهم قرآناً يتعبد به إلى يوم الدين.

* * *

غزوة تبوك غزوة بيضاء وهي أعظم الغزوات.

وقد كانت هذه الغزوة البيضاء التي لم يقع فيها قتال، ولا سفكت فيها دماء، وقد عاد منها النبي ﷺ وأصحابه مكلَّلين بتوفيق الله تعالى بعد أن أعلنوا على سمع الدنيا في قوة قاهرة صوت الإسلام في رسالته الخاتمة الخالدة، مؤذناً للإنسانية كلها أن قد جاء رسول من عند الله ليخرجكم من الظلمات إلى النور ـ أعظم غزوات رسول الله ﷺ في قوتها المادية والمعنوية، وكثافة حشودها، وضخامة جيشها الذي خرج به ﷺ إلى تبوك، مستوعباً أكثر القادرين على حمل السلاح من المهاجرين والأنصار، فلم يعرف مهاجري تخلّف عن هذه الغزوة ولا أنصاري لم يأخذ مكانه في كتائبها إلا من ذكر الله تعالى، كما خرج معه ﷺ جماهير من الأعراب ورجال القبائل إلا من توارى وراء أستار الأعذار، وهم قلة لم يبلغوا زهاء ثمانين رجلاً.

اختلاف الروايات في عدد جيش تبوك وتحقيق الراجح من هذه الروايات.

واستنفر ﷺ أهل مكة ومن حولها فنفروا قضُّهم بقضيضهم حتى اجتمع له أكثر من ثلاثين ألفاً في أشهر الروايات، وروى الحاكم في الإكليل عن معاذ بن جبل، ورواه الواقدي عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما بلفظ متوافق في الروايتين، قالا رضي الله عنهما: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفاً، وهذا محتمل أن يكون المراد به جموع المهاجرين والأنصار الذين خرجوا معه ﷺ من المدينة المنورة، ولم يشمل من انضم إليهم في مسيرهم من القبائل التي أسلمت قبيل فتح مكة وبعده، كما

أنه لا يشمل أهل مكة الذين استنفرهم رسول الله ﷺ فنفروا معه، وكانوا عدداً كثيراً، وهذا الاحتمال هو مخرج ما جاء من رواية عن الإمام الحافظ الثقة أبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي عند الحاكم في الإكليل قال: إن الذين خرجوا مع النبي ﷺ كانوا سبعين ألفا، وقد ذكر ابن حجر في الفتح عن هذا الإمام أبي زرعة الرازي، أن الذين خرجوا في جيش تبوك كانوا أربعين ألفاً، وهذه الرواية أقرب إلى رواية الحاكم المتقدمة عن معاذ ابن جبل، ورواية الواقدي عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما أن الذين خرجوا مع النبي ﷺ في جيش تبوك كانوا أزيد من ثلاثين ألفاً. وقد حاول بعض أهل العلم التوفيق بين هذه الروايات بما لا يتم التوفيق به إلا بتعسف وتمحّل. وأغرب ما قيل في التوفيق بين روايتي ثلاثين ألفاً، وسبعين ألفاً أنَّ من قال ثلاثين ألفاً لم يعدّ التابع، ومن قال سبعين ألفاً عدّ التابع والمتبوع، وهذا جمع أشبه بالتفريق منه بالتوفيق، وهو من أبعد البعد، إذ كيف يعقل أن يكون التابعون أزيد عدداً من متبوعيهم بعشرة آلاف؟ فهل كان لكل متبوع أكثر من تابع في أكثر الحالات، وتابع واحد في أقل الحالات؟ وهل كانت شؤون الغزوة وما فيها من عسرة في كل شيء، عسرة في الظهر، وعسرة في الماء، وعسرة في القوت مع شدة الحر، وبعد السفر، تسمح بهذه الكثرة من الأتباع؟ هذا تفكير متعسِّف، وتأويل متمحِّل.

وجنح ابن حجر في التوفيق بين ما رواه الحاكم عن معاذ بن جبل وما رواه الواقدي أن عدد الخارجين مع النبي ﷺ إلى تبوك أزيد من ثلاثين ألفاً وبين ما نقله في الفتح عن أبي زرعة الرازي أن العدد كان أربعين ألفاً، إلى احتمال أن من قال أن العدد كان أربعين ألفاً جبر الكسر الذي جاء في رواية أزيد من ثلاثين ألفاً، وهذا احتمال قريب معقول.

وقد عنّ لنا في التوفيق رأي نرجِّح به رواية الحاكم في الإكليل عن رواية أبي زرعة أن العدد كان سبعين ألفاً، وذلك أن الذين نفروا معه ﷺ من المدينة وما حولها كانوا موعبين لمن فيها من المهاجرين والأنصار والقادرين على حمل السلاح من غيرهم، وهؤلاء لا يقلُّون في عددهم عن أربعين ألفاً

عند من يستحضر معنى قوله تعالى: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ فقد أقبلت وفود القبائل على رسول الله ﷺ بأعداد كثيرة متتابعة مبايعين مسلمين بعد الانتصار المدوّي على جموع هوازن والطائف، وهؤلاء الذين أقبلوا على رسول الله ﷺ مبايعين مسلمين كان قد فاتهم فضل الجهاد معه ﷺ، فلما استنفروا نفروا راغبين إما في تعويض ما فاتهم وإما في تحصيل شيء من الغنائم التي تسامعوا بأخبارها وكثرتها، وما كان فيها من مكارم رسول الله ﷺ وعطاياه الغامرة، ولا سيما ما كان في غنائم هوازن من ضخامة العطاء الذي كان يمثل صورة في المكارم وتأليف القلوب لم تعرف في تاريخ الأكرمين؛ مما لعب بقلوب الذين كان طموحهم يستشرف إلى أكبر حظ من هذه المكارم والمغانم.

ثم إن النبي ﷺ بعد أن اجتمع له هذا العدد الكثير من المهاجرين والأنصار وممّن كانوا حول المدينة من مسلمة الأعراب، أرسل إلى أهل مكة ومن حولها من القبائل التي أسلمت بإسلام قريش يستنفرهم للنهوض معه إلى تبوك لجلاد بني الأصفر، فنفروا رغبة ورهبة، وأقبلت حشودهم منضمّين إلى كتائب الجهاد الذين كانوا مع رسول الله ﷺ، فبلغ بهم عدد الجيش سبعين ألفاً أو يزيدون، مع من عسى أن يكون قد انضم إليهم في طريقهم من القبائل المسلمة.

وعسكر ﷺ بهذه الحشود الكثيفة بثنيّة الوداع ليكمل من لم يكن أكمل أهبته لهذا السفر البعيد الشاق، وفي ثنيّة الوداع عقد ﷺ الألوية والرايات ودفعها إلى قادة الكتائب، وأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، ودفع رايته العظمى إلى الزبير بن العوّام رضي الله عنه، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة أو حباب ابن المنذر.

واتخذ ﷺ علقمة بن الغفو الخزاعي دليله إلى تبوك، وبدأ سيره يوم الخميس، وكان ﷺ يحب أن يبدأ سفره في هذا اليوم في جهاده أو غيره.

وهنا تفاجىء البحث رواية بلهاء كأنها حديث خرافة، رواها ابن

روایة سخيفة باطلة عن حشد المنافقين بزعامة رأس النفاق عبد الله بن أبيّ.

إسحاق والـواقدي ومحمد بن سعد، قالوا أو قال من قوّلهم: وقد عسكر عبدالله بن أبيّ بن سلول ـ رأس النفاق وزعيم المنافقين ـ مع النبي ﷺ واتخذ لعسكره مكاناً منفرداً عن عسكر المسلمين، وأقام ابن أبيّ بعسكره مدة إقامة النبي ﷺ بثنية الوداع، فلما أجمع ﷺ السير إلى وجهه الذي أعلنه لأصحـابه وتحركت حشود المسلمين انخزل ابن أبيّ بمن معه من شراذم المنافقين، وتخلّف بهم عن رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة وهو يقول ليثبِّط الضعفاء من الذين آمنوا يبغيهم الفتنة، وفيهم سمّاعون للمنافقين: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر، والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب أن قتالهم اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرّنين بالحبـال، إرجافـاً به ﷺ وبأصحابه.

ثم قال رواة هذه الأبطولة البلهاء: وكان عسكر ابن أبيّ فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، أي إن هؤلاء الزاعمين البلهاء يقولون: إن عسكر النفاق والمنافقين بقيادة زعيمهم أخبث المنافقين كانوا أزيد من ثلاثين ألفاً، لأن هذا هو أقل عدد اتفقت عليه جمهور الرواة من أصحاب المغازي وأهل السِّير، وقد جزم ابن حزم ببطلان هذه الرواية البلهاء إذ يقول: هذا باطل، لم يتخلّف عن رسول الله ﷺ إلاّ ما بين السبعين إلى الثمانين فقط.

ولكن هذه الروايات البلهاء الباطلة تحتل في السيرة النبوية الشريفة ودواوينها ومراجعها مكاناً يمدّ أعداء الإسـلام بمدد من الأكاذيب والأباطيل والتقوّلات وسخافات الأفكار والآراء بما يكون وسيلة للشك في الصحيح من الروايات، ولا نـدري لهؤلاء الزاعمـين الذين حكى عنهم ابن إسحق والواقدي وتلميذه محمد بن سعد هذه الأكذوبة السخيفة وجوداً بين أهل العلم، فلا يعرف من هم وما هم، وما هويتهم، ولا وزنهم العلمي، ومكانتهم في مجال الفكر المسلم ومعرفتهم بنقد الروايـات في أسانيـدها ومتونها.

ثم كيف يعقل هؤلاء الأشياخ الذين رووا في كتبهم هذه الرواية ولطّفوها بقولهم (فيما يزعمون) وهم يعلمون أنهم في عداد أساطين أهل

المغازي والسيريين، وأن كتبهم ورواياتهم مراجع لأحداث الغزوات وحوادث السيرة ووقائعها، وبطلانها لا يحتاج إلى توقف باحث، ولا تحقيق ممّحص؟

مناقشة هذه الرواية البلهاء حماية لمن يقرؤها في مصادرها.

وكان يكفي هؤلاء الأشياخ الثلاثة لعدم ذكر هذا الكلام الذي يتنافى مع بدهيات تاريخ الجهاد الإسلامي لأن غزوة تبوك كانت آخر غزوات رسول الله ﷺ، وقد سبقها غزوات مع المشركين العرب، ومع اليهود، وهم أساتذة النفاق والمنافقين، ومربُّو عبد الله بن أبيّ في مدرسة نفاقهم وغدرهم، وقد انتهت هذه الغزوات كلها بإسلام مشركي العرب، وإجلاء اليهود بجميع هيئاتهم وطوائفهم عن المدينة، ثم عن جزيرة العرب كلها إلّا ما أبقاهم رسول الله ﷺ في خيبر لفلاحة الأرض وزراعتها على شرط أن لا يفسدوا ولا يغدروا، فأقاموا على الشرط مقموعين مقهورين بسلطان الإسلام والمسلمين حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنقضهم العهد وخيانتهم وغدرهم.

ومن ثَمّ لم يكن لمنافقي اليهود أي وجود في المدينة المنورة، كما أنه لم يكن من مشركي العرب من بقي على شركه بعد فتح مكة إلا قلة ضئيلة منثورة في الأرض مع حبات الرمال، هكذا يقول التاريخ الصحيح فمن أين جاء ابن أبيّ بهذا العدد الهائل من المنافقين الذي قالت عنهم الرواية البلهاء أنهم لم يكونوا بأقل العسكرين ـ أي إنهم كانوا مثل عدد عسكر المسلمين أو أكثر منهم ـ وقد جاءت رواية الجمهور بأن عدد عسكر المسلمين كان يزيد على ثلاثين ألفاً، فهل كان المنافقون من العرب من أهل المدينة بعد فتح مكة بهذه الكثرة المخيفة المرعبة؟ وهل كان رسول الله ﷺ على علم بهذه الأعداد الهائلة من المنافقين في مدينته؟ والمنافقون قد انكشف أمرهم وتعالَنَ نفاقهم في كثير من الأحداث والوقائع، وقد نزلت في بعثرة فضائحهم وكشف أستار نفاقهم وقبائحهم، وغدرهم وخياناتهم سورة براءة حتى أكثرت من قولها فيهم: (ومنهم، ومنهم) حاكية مثالبهم ومخازيهم، وفي آياتها جاء قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾، فهل من امتثال الأمر بجهادهم والغِلْظة عليهم أن يتركوا بهذه الصورة الحاشدة معسكرين في

انفراد عن المسلمين إلى جانبهم، ويراهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ثم يتركهم يرجعون إلى المدينة منتفخة أوداجهم، متورمة بالفجور معاطسهم، وفي المدينة المستضعفون من الرجال والنساء والذرية، وفيها ثَقَل رسول الله ﷺ وآله، ولم يكن معهم من أبطال المسلمين سوى عليّ رضي الله عنه؟

وإفساد المنافقين متعالم لا يخفى على أحد، هذا كله من حصيلة هذه الرواية البلهاء من أبعد البعد، بل من المستحيل أن يقع من رسول الله ﷺ لشدة حذره وحرصه على حماية المسلمين ووقايتهم من التعرض للفتن الموبقة على أيدي أعدائه وأعداء دينه ورسالته ومجتمعه المسلم.

ثم هل يعقل أن تبلغ النبي كلمات الخبيث ابن أُبيّ الخبيثة التي قالها وهو يرحل بحشوده المنافقين ـ كما تقوله الرواية البلهاء ـ راجعين إلى مدينة رسول الله ﷺ، ويطمئن النبي إلى سلامة موقفه، وموقف مشايعيه من شراذم النفاق، ويتركهم يرجعون إلى المدينة دون أن يتخذ حيالهم أية إجراءات سياسية تحول بينهم وبين شرورهم ومفاسدهم التي تمتزج بدمائهم وظلمات أرواحهم، ونسج قلوبهم، ولو بتنبيه أقوامهم من صادقي الإيمان في حشود المسلمين؟ كما كان يقع في أحداث مؤامرات المنافقين، فكان أقوامهم هم الذين يقفون لهم بالمرصاد، كما حدث في غزوة بني المصطلق التي ظهر فيها موقف الرجل الصالح صادق الإيمان عبدالله بن عبدالله بن أبيّ من أبيه زعيم المنافقين حين بلغه قول أبيه الذي حكاه عنه الله في قوله: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل﴾.

ثم إن معاني كلمة الخبيث ابن أُبيّ الخبيثة التي قالها على مسمع من المسلمين أما كانت موجودة في نفسه منذ عرف أن هذه الغزوة أعدّت لجلاد بني الأصفر الذي قال عنهم ما قال في كلمته الخبيثة، مما يمسّ مقام رسول الله ﷺ، وهي كلمات تداولها من قبله فجرة الكفرة المغرورون بقواهم المادية في غزوات سابقة، فهي ليست من افتئات ابن أبيّ. والذي يمكن أن يكون قد كان لا يخرج عن كون ابن أبيّ جمع حوله شرذمة من بقايا المنافقين، وصنع ما صنع في أحد، بَيْدَ أن طريقة ابن أبيّ التي ألبسته الرواية البلهاء جلبابها أشبه

تشابه بين خبث اليهود وفجور المنافقين.

ما تكون بطريقة معلميه اليهود فيما حكاه الله عنهم من سوء المكر في الإرجاف بالمسلمين، ونشر الفتنة في قلوب الضعفاء من حدثاء الإسلام، كما حكاه الله عنهم في سورة آل عمران في مطلع نشوء المجتمع المسلم في بنائه التكافلي الجديد، فقال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ قال قتادة: إنهم فعلوا ذلك ليشكّكوا المسلمين، وقال القرطبي: ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد أول النهار ثم اكفروا به آخره، فإنكم إذا فعلتم ذلك دخل على من يتبعه ارتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم ويقولون: إن أهل الكتاب أعلم به منّا.

فخبثاء المنافقين أخذوا طريقة خبثاء معلّميهم من خبثاء اليهود في تشكيك ضعفاء الإيمان من حدثاء الإسلام في دينهم الحق، إذ وسوسوا إلى سفلتهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ويظهروا التصديق برسالته أول النهار، ثم يكفروا بما أظهروا الإيمان به آخر النهار، فإذا رآهم ضعفاء الإيمان في تقلبهم بين الإيمان أول النهار، والكفر آخر النهار تساءلوا في أنفسهم: لماذا آمنوا صباحاً ثم كفروا بما آمنوا مساء، وهم أهل العلم الأول، والكتاب المنّزل، وعندئذ يتسرب الشك إلى قلوبهم، ويفتنون في إيمانهم وعقيدتهم.

والمنافقون دبّروا كيدهم عندما علموا بغزوة تبوك، وأن النبي ﷺ أعلن عنها وأمر أصحابه بالتأهّب لها، فأعدّ المنافقون عدّتهم، وتأهبوا لموقف النفاق أهبتهم، وخرجوا مع المسلمين بأهبتهم ليوهموا المسلمين أنهم جاؤوا معهم مجاهدين، وعسكروا منفردين عن عسكر المسلمين خشية أن يرى غوغاؤهم وسفلتهم ما عليه المسلمون من إخلاص الجهاد لله، وإعلاء كلمته، ويروا ما هم عليه من استقامة في العقيدة والتعبد لله وحده، فيميلوا ميلهم ويتركوا النفاق والكفر، أو على الأقل يتشككون فيما عليه أخابثهم من فجور النفاق.

ولما رآهم المسلمون في كثرتهم ـ كما تقول الرواية البلهاء ـ أنسوا بهم وقالوا: لعلّ وعسى، وهذا في مقابلة قول خبثاء اليهود وسفلتهم آمنوا بمحمد ودينه وجه النهار ـ أي أوله ـ ثم لما عزم رسول الله ﷺ السير لوجهه الذي

يقصد، وتحركت كتائبه نكص المنافقون على أعقابهم، وحضرهم غدرهم ونفاقهم وفجور كيدهم، فانخزلوا مدحورين راجعين إلى المدينة، وقال ابن أبّي كلمته الفاجرة الكافرة ليثبِّط بها عزائم ضعفاء الإيمان من حدثاء الإسلام، ويشكّك الذين في قلوبهم مرض لعلّهم يرجعون.

وهذا في مقابلة قول خبثاء اليهود لسفلتهم: ﴿واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ وكما فشل اليهود في كيدهم وأحاط بهم سوء مكرهم فلم يقع من المسلمين ما أرادوه من الرجوع عن دينهم الحق فشل المنافقون في سيء تدبيرهم فلم ينالوا مما أملوه شيئاً، وعصم الله المسلمين في الموقفين وخذل اليهود والمنافقين في الحالين.

* * *

مشاورة يتعين فيها مواطن الشورى.

ولما بلغ رسول الله ﷺ بجيشه تبوك شاور أصحابه في التقدم إلى ما وراء تبوك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن كنت أُمرت بالمسير فسر، فقال ﷺ: «لو أمرت بالمسير لم أستشركم فيه».

وهذا نص يعيِّن مواطن الشورى ويبيِّن منازلها في رسالة الإسلام، فهي لا تكون إلّا فيما خلا عن نص يتضمّن حكمه، لأن الشورى لون من الاجتهاد، والاجتهاد لا يكون إلّا فيما لا نص فيه. وهذا من أعظم معالم منهج رسالة الإسلام الخالدة في تربية الأمة تربية اجتماعية سياسية تكافليّة، لأن مبدأ الشورى في الإسلام مبدأ أساسي لا يجوز للمجتمع المسلم أن يتهاون في العمل به أو يتراخى في إقامة معالمه. ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مبيناً لحكمة رأيه: يا رسول الله، إن للروم جموعاً كثيرة، ليس بها مسلم، وقد دنونا منهم وأفزعهم دنوّك، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً.

في قول عمر رضي الله عنه بيان تحقق هدف هذه الغزوة.

وهذا الموقف من عمر رضي الله عنه أشبه به موقفه مع أبي بكر رضي الله عنه في بدء حرب الردة، وفي قول عمر لرسول الله ﷺ، قد دنونا منهم وأفزعهم دنوّك بيان تحقيق هدف هذه الغزوة، وحكمتها في تجريء المسلمين

على الخروج بالدعوة، ونشر الرسالة خارج نطاق الجزيرة العربية إعلاناً عملياً لعموم الرسالة، وربط ذلك بالجهاد في سبيل تعميم الدعوة إلى الله في آفاق الحياة إظهاراً لعزّة الإسلام، وما آتاه الله من قوة التكافل الاجتماعي، والمؤاخاة الإيمانية، فجمع له القوة الماديّة بالتكافل الاجتماعي والقوة الروحية بالمؤاخاة الإيمانية.

ولهذا أعاد رسول الله ﷺ الكتابة إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام، ولم ير ﷺ مهاجمته، لأنه عرف منه اهتزاز نصرانيته، وقناعته بصدق دعوة الإسلام، ولكنه آثر الدنيا وعض على ملكه، وخاف على نفسه من قومه إذا انخلع عن نصرانيته ودخل في الإسلام، فتركه إلى أن يحين حين أخذ ما تحت قدميه من ملكه في الشام.

وكان هذا الكتاب كتبه رسول الله ﷺ إلى هرقل بتبوك تأكيداً لكتابه الأول، وتجديداً لدعوته إلى الإسلام ليضع أمام عامة المسلمين تكليفهم الجهاد في سبيل تبليغ الرسالة، وأن يبدؤا بمن يلونهم من الكفار لتقوم مسيرة نشر الدعوة على التدرج الذي يمكِّن للمسلمين من تثبيت أقدامهم في مواطن الجهاد، كما أمرهم الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾.

وكتاب رسول الله ﷺ الأول إلى هرقل كان في مدة هدنة معاهدة الحديبية سنة ستٍ من الهجرة، وكان رسول رسول الله ﷺ إلى هرقل بالكتابين في مرتيها الصحابي الجليل دِحْية بن خليفة الكلبي، والكتاب الأول مروي في الصحيح في حديث طويل، كان لأبي سفيان بن حرب حديث في قصته وهو يومئذ على كفره وعناده، وكان حديث أبي سفيان سبباً من أسباب تأكيد قناعة هرقل بصدق رسالة الإسلام، ولكنه سبق عليه القضاء فلم يسلم، واكتفى بأن كتب إلى النبي ﷺ كتاباً زعم فيه أنه مسلم، فأكذبه النبي ﷺ، ولم يقبل منه ما زعمه من إسلامه، وقال فيه: «كذب عدوّ الله، بل هو على نصرانيته» وكان أشد الروم على هرقل في الحيلولة بينه وبين الإسلام قومه وأهله، قال السهيلي: إن هرقل أمر منادياً ينادي: ألا إن هرقل

قد آمن بمحمد واتبعه، فدخلت عليه جنوده في سلاحها تريد قتله، فاحتال لتهدئتهم وأرسل إليهم، إني أردت أن أختبر صلابتكم في دينكم، فقد رضيت عنكم، فرضوا عنه.

رد هرقل على كتاب رسول الله ﷺ في تبوك بأنه مسلم كذب.

وفي صحيح ابن حبّان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن هرقل كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً يجيب فيه عن كتاب رسول الله ﷺ الذي دعاه فيه إلى الإسلام، فقال هرقل: إني مسلم ولكني مغلوب على أمري، وأرسل هرقل كتابه مع دِحْية، وأرسل معه هدية فلما قرئ كتابه على رسول الله ﷺ قال: «كذب عدو الله ليس بمسلم، بل هو على نصرانيته» وقبل هديته على أنها فيء أفاءه الله على المجاهدين فقسمها بينهم، وقد بيّن الحارث بن أبي أسامة في روايته عن بكر بن عبدالله نوع الهدية التي أرسل بها هرقل إلى رسول الله ﷺ مع كتابه، وأنها كانت دنانير، فقال الحارث: قال رسول الله ﷺ: «من يذهب بهذا الكتاب إلى قيصر، وله الجنة؟» فقال رجل من الصحابة: وإن لم يقبل؟ فقال ﷺ: «وإن لم يقبل» فانطلق الرجل فأتى قيصر بالكتاب، فقرأه قيصر، وقال للرسول: اذهب إلى نبيكم، فأخبره أني متبعه ولكن لا أريد أن أدع ملكي، وبعث قيصر مع الرسول بدنانير إلى رسول الله ﷺ، فرجع الرسول إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من هرقل، ودفع إليه هديته، فقال رسول الله ﷺ: «كذب» وقسم الدنانير.

سياسة حكيمة في تجريء المسلمين على الروم وغيرهم من الأمم.

وفي حديث الحارث زيادات وفوائد ولطائف لم تذكر في حديث غيره، وأحسن ما في هذا الحوار عرض النبي ﷺ على أصحابه ذهاب أحدهم إلى قيصر - وهو هرقل ملك سوريا - وشرطه لمن يذهب بكتابه إليه الجنة، وموضع الحسن في ذلك دلالة هذا العرض المتلطّف مع شرطه على ما كان يعلمه رسول الله ﷺ من التهيّب الذي كان يملأ قلوب العرب لمن حولهم من الأمم خارج جزيرتهم، وإرادة النبي ﷺ من عرضه على هذه الصورة تجريء المسلمين على هذه الأمم، تحقيقاً لهدف هذه الغزوة، وإفهام المجتمع المسلم عملياً أن هذا التهيب الذي توارثوه عن الجاهلية إنما يقوم على التخيّل، وليس له من الواقع ركائز يتكئ عليها، فيجب اقتحامه في سبيل تبليغ رسالة الله تعالى إلى الأحمر والأسود، وأن المسلم هو الرابح في هذا الاقتحام،

لأنه إما أن يفوز بالنصر على حشود الكافرين، وإما أن يستشهد في سبيل الله، فيفوز بالجنة ونعيمها المقيم.

ويؤكد ذلك قول الرجل للنبي ﷺ: ولو لم يقبل؟ وهذا قول يبرهن على أن قصد هذا الرجل من استفهامه أن يفوز بأداء هذه الرسالة وما وعد على أدائها لمجرد أن يذهب بالكتاب إلى هرقل، ولا يلزمه أن يخاطبه ويحاوره ليقنعه بقبول ما حواه كتاب رسول الله ﷺ من دعوته إلى الإسلام والدخول فيه، نظراً لما كان في نفس الرجل باعتباره نموذجاً عربياً من التهيّب الذي كان موجوداً عند كل عربي قبل الإسلام، وقبل هذه الغزوة.

وفي قول النبي ﷺ: «ولو لم يقبل» بيان أن المقصود هو الذهاب إلى قيصر، واقتحام التهيب ليكون ذلك خطوة أولى في تجريء المسلمين على اقتحام هذا التهيب الذي لا يعتمد في واقعه على شيء من الحقيقة، ولو كان هذا التهيّب حقيقة لها وجود واقعي لكان في اقتحامه لون من التربية العملية التي تطهِّر المسلم من الخوف والجبن، وتعوّده على الشجاعة النفسية والجرأة الإيمانية، فما بالك بشيء لا وجود له.

وقد ذكر ابن القيِّم في (الهدي) هذا الحديث مختصراً عن أبي حاتم وابن حبّان في صحيحه عن أنس بن مالك فقال: وقد روى أبو حاتم وابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟» فقال رجل من القوم: وإن لم يقبل؟ قال ﷺ: «وإن لم يقبل» فوافق - أي الرجل الحامل لصحيفة رسول الله ﷺ - قيصر وهو يأتي بيت المقدس، فرمى بالكتاب على البساط وتنحّى، فنادى قيصر: من صاحب الكتاب؟ فهو آمن، قال الرجل: أنا، قال قيصر: فإذا قدمتُ فائتني، فلما قدم أتاه، فأمر قيصر بأبواب قصره فغُلِّقت، ثم أمر منادياً ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمداً وترك النصرانية، فأقبل جنده وقد تسلّحوا، فقال لرسول رسول الله ﷺ: إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ: «كذب عدو الله، ليس بمسلم، وهو على النصرانية» وقسم ﷺ الدنانير.

وقال ابن كثير: قال الإمام أحمد عن سعيد بن أبي راشد، قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى النبي ﷺ بحمص وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ العقد أو قرب، فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ورسالته ﷺ إلى هرقل؟ قال: بلى، قدم رسول الله ﷺ تبوك، فبعث دِحْية إلى هرقل بكتاب، فأرسل هرقل إلى قسيسي الروم وبطارقتها يدعوهم إلى مجلسه، ثم أغلق عليه وعليهم الدار، وقال لهم: قد نزل هذا الرجل - يريد رسول الله ﷺ - حيث رأيتم، وأرسل يدعوني إلى ثلاث خصال: أن أتبعه على دينه، أو الجزية، أو الحرب، وقد عرفتم فيما قرأتم من كتب ليأخذنَّ أرضنا، فهلمَّ فلنتبعه، أو نعطه مالاً، فنخروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا لهرقل: تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز؟ فلما رأى ذلك هرقل منهم قال يسترضيهم ويطفىء جمرة غضبهم، إنما أردت أن أعلم صلابتكم في دينكم، فلما ظنّ هرقل أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم ولم يكد، ثم دعا هرقل رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب فقال له: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل، فجاء التجيبي بي، فدفع إليّ هرقل كتاباً. وقال اذهب إليه - يريد رسول الله ﷺ - فاحفظ من حديثه ثلاثاً، هل يذكر كتابه الذي كتب إليّ، وإذا قرأ كتابي هل يذكر الليل، وهل في ظهره شيء؟.

حيرة هرقل وخوفه من قومه وضنه بملكه حالت بينه وبين الإسلام.

قصة رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بكتاب هرقل.

قال التنوخي: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكاً، فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قالوا ها هوذا؟ فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته الكتاب، فوضعه في حجره، ثم قال «ممّن أنت؟» فقلت: أنا أخو تنوخ، قال: «هل لك في الإسلام والحنيفية ملة أبيكم إبراهيم؟» قلت: إني رسول قوم، وعلى دين قوم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين﴾ «يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها، والله مخرّقه ومخرق قومه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلن يزال الناس

يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير» فقلت: هذه إحدى الثلاث، فكتبتها في جفن سيفي، ثم ناول الكتاب إلى معاوية، فقرأ فيه: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «سبحان الله؟ فأين النهار إذا جاء الليل؟» فكتبته في جفن سيفي.

وقد ودّ التنوخي رسول هرقل أن يعطيه رسول الله ﷺ جائزة، فأتاه عثمان بن عفان رضي الله عنه بحلّة، وأمر النبي ﷺ بإنزاله عنده، فقام التنوخي مع الأنصاري، فناداه النبي ﷺ فكشف له عن ظهره، فرأى خاتم النبوة.

تعدد الروايات بمعان متفقة تؤكد ترجيحنا أن سبب هذه الغزوة الحقيقي هو الإعلان العملي لعموم الرسالة.

وهذه الروايات المتضافرة وإن اختلفت في سياقها وأسلوبها تؤكد ما رجحناه في سبب هذه الغزوة الخاتمة لغزوات النبي ﷺ، وتبين أن السبب الحقيقي لها يكمن في علم النبي ﷺ أن انتقاله إلى الرفيق الأعلى قد دنا، وأنه لا يغزو بنفسه في داخل جزيرة العرب بعد أن أتم الله عليه نعمته، وأكمل له دينه الحق، وثبّت له قوائم رسالته، واستسلم له العرب، ودخلوا في دين الله أفواجاً، وأقبلت عليه وفودهم من كل حدب ينسلون، يبايعونه على الإسلام، ولم يبق له ﷺ في حياته المباركة الشريفة إلا أن يخطو بمجتمعه المسلم الخطوة الأولى في إعلان عموم رسالته عملياً، بعد أن أعلنها القرآن الكريم نظرياً في كثير من آياته البيِّنات في تطبيق عملي يقوده ﷺ بنفسه في غزوة استوعبت جماهير المجتمع المسلم، ليريهم من آيات الله، في عموم الرسالة ما يجب عليهم أن يتخذوه منهجاً في الدعوة إلى الله حتى لا يكون لأحد من المسلمين حجة في التخلف عن الجهاد لتبليغ عموم الرسالة إلى العالمين تحقيقاً لمعنى قوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ فكما حملوا لواء الجهاد وراياته لنشر الهداية في نطاق العرب الخاص بجزيرتهم، فليحملوا لواء هذا الجهاد وراياته إلى سائر الأمم والشعوب، لا فرق بين أسود وأبيض حتى يتعالم هذا التكليف بنشر عموم الرسالة وتتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل.

وفي هذه الغزوة العظمى وضع رسول الله ﷺ قاعدة الحَجْر الصحِّي

بقوله ﷺ: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها، وإن كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها» وهذا الحديث هو الذي حسم به عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه الموقف الذي كان بين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة ابن الجراح حين قدم عمر إلى الشام في خلافته، وكان الطاعون قد وقع بها فتوقف عمر عن الدخول إليها، فلامه أبو عبيدة، وقال له: أفراراً من قدر الله، فقال عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم تدارك الموقف عبد الرحمن ابن عوف، وروى لهما الحديث ـ وهو من أحاديث مسند أحمد ـ فحسم به القضية.

في هذه الغزوة وضعت قاعدة الحجر الصحي وقاعدة التحصين ضد الأوبئة وقاعدة الوقاية خير من العلاج.

وكذلك وضع ﷺ قاعدة: الوقاية خير من العلاج، وقاعدة التحصين ضد الأوبئة العامة وانتقال عدواها من المريض إلى الصحيح بهذا الحديث الشريف.

مصالحة يحنة بن رؤبة وقومه وضرب الجزية على رقابهم ونص كتابهم.

وفي تبوك قدم على النبي ﷺ يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة، إذ بلغه أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك أحد رؤساء متنصِّرة العرب، وأسره خالد وقتل أخاه حساناً، واضطر أكيدر إلى أن يفتح حصنه لكتائب المجاهدين، فخاف يُحَنَّة بن رؤبة أن يرسل إليه النبي ﷺ سرية كما أرسل إلى أكيدر صاحب دومة، فأسرع يُحَنَّة إلى المصالحة حقناً لدماء قومه، فصالحه النبي ﷺ، وأمر أن يكتب له بصلحه كتاب، فكتب له: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله، ومحمد النبي، رسول الله ﷺ ليُحَنَّة ابن رؤبة وأهل أيلة، أساقفتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة النبي، ومن معه ـ أي مع يُحَنَّة ـ من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فأنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر» هذا كتاب ـ أي كتابة ـ جهيم بن الصلت، وشرحبيل بن حسنة، بإذن رسول الله ﷺ. وكان يحنة قد أهدى النبي بغلة بيضاء، فكساه النبي ﷺ برداً، والتزم يُحَنَّة بالجزية عن نفسه، وعن أهل مدينته، وكانوا ثلاثمئة رجل، فوضع النبي ﷺ الجزية عليهم ثلاثمئة دينار كل سنة.

ونص هذا الكتاب الذي ذكرناه أورده ابن إسحاق، وابن سيد الناس صاحب عيون الأثر، وذكره ابن سعد عن شيخه محمد بن عمر الواقدي، ثم ذكر ابن سعد رواية أخرى لنص الكتاب مختلفة بالزيادة عن النص المتقدم.

نص آخر لكتاب مصالحة يحنة بن رؤبة يتضمن تفصيلات تدل على تكرر الواقعة وتعدد الكتاب.

قال ابن سعد: إنه ﷺ كتب إلى يُحَنّة بن رؤبة وسروات أهل أيلة - أي أمر بالكتابة لهم -: «سَلْمٌ أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم، فأسلم، أو أعط الجزية، وأطع الله ورسوله ورسل رسوله، وأكرمهم، واكسهم كسوة حسنة، فمهما أرضيت رسلي فإني قد رضيت وقد علمت الجزية، فإن أردتم أن يأمن البحر والبر فأطع الله ورسوله، ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلاّ حق الله وحق رسوله، وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منك شيئاً حتى أقاتلكم فأسبي الصغير وأقتل الكبير، وإني رسول الله بالحق أومن بالله وكتبه ورسله، والمسيح بن مريم أنه كلمة الله، وإني أومن به أنه رسول الله، وائت قبل أن يمسكم الشر، فإني أوصيت رسلي بكم، وأعط حرملة ثلاثة أوسق من شعير، وإنّ حرملة شفع لكم، وإني لولا الله وذلك - أي شفاعة حرملة - لم أراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش، وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن كان معه ورسلي وشرحبيل وأبو حرملة - تقدم أنه حرملة - وحريث بن زيد الطائي، فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته، وإن لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، والسلام عليكم».

قال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني: ولعل هذا الكتاب أرسل ليُحَنّة قبل أن يقدم على رسول الله ﷺ، والظاهر أن رسل رسول الله ﷺ أتوا يُحَنّة وضربوا عليه وعلى أهل مدينته الجزية فلم يقنع بما صنعوا، وأسرع إلي رسول الله ﷺ فأهدى له وصالحه، وأمر ﷺ أن يكتب له الكتاب الموجز المتقدم، وهو كتاب الصلح والجزية التي ضربها رسول الله ﷺ على أهل مدينته.

وهذا من أحسن ما يقال في الجمع بين الروايتين، وهو خير من الأخذ برواية وترك الأخرى ما لم يكن في إحداهما ضعف ظاهر في السند أو المتن

يستوجب تركها، ثم قدم على رسول الله ﷺ أهل جَرْبا، وأهل أذرح، وهما بلدان صغيران من بلاد الشام متقاربان بينهما ثلاثة أميال، ولهذا التقارب الذي يجعلهما كالبلد الواحد في وحدة مصالحهما، جاء وفدهما موحّداً من رجالهما وطلبوا الصلح وإعطاء الجزية، فصالحهما رسول الله ﷺ، وأمر أن يُكتب لهما كتاب واحد بهذا النص: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح وجربا: أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين في المخافة والتعزيز إذا خشوا على المسلمين، فهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد ﷺ شيئاً من قتل أو خروج».

مصالحة أهل جربا وأذرح ونص كتابهم وضرب الجزية على رقابهم.

وقد كان هؤلاء المتنصِّرون من العرب أجنحة للروم، يقيمون على مشارف الشام وبعض القرى المسامتة للجزيرة العربية، وقد تابعوا الروم على نصرانيتهم دون أن يعقلوا من هذه النصرانية شيئاً سوى بعض طقوس شكلية لا تغني عنهم شيئاً، فإقدام من أقدم منهم على مصالحة رسول الله ﷺ والتزامهم بالجزية قصٌّ لهذه الأجنحة، وبتر لحبال تبعيتهم للروم، وتحريرٌ لهم من هذه التبعية التي كانت تذلّهم وتخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به، وخوفاً من ظلمهم لقوتهم الباطشة، وقد وفُوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يدٍ وهم صاغرون.

قص أجنحة الروم بهذه المصالحات وتحرير متنصرة العرب من التبعية الرومانية.

هذا نوع من السياسة الحكيمة المحكمة التي اختطّها رسول الله ﷺ في إعلان عموم رسالته إعلاناً عملياً، قاد لتحقيقه المسلمين بنفسه في أعظم غزوة غزاها، وختم بها غزواته، حشد فيها كل من كان من أهل الجهاد في مجتمعه المسلم الذي ربّاه نظرياً وسلوكياً فأحسن تربيته، وخاض به معارك الجهاد في داخل الجزيرة العربية حتى أخضعها، واستسلمت له قبائلها وبطونها، وجاءته وفودها تبايعه على الإسلام، ورأى ﷺ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

سياسة حكيمة اختطها رسول الله ﷺ لإعلان عموم دعوته عملياً.

وكان عموم رسالته ﷺ يقتضيه بوصف كونه القائد الأعظم الذي

وجب له بمقتضى الرسالة العامة الخاتمة الخالدة أن يجعل من مجتمعه المسلم حاملاً لواء عموم الدعوة ونشرها في الآفاق، وتحقيق ذلك يلزمه أن يمحو من قلوب هؤلاء الذين صاروا منبع استنبات الكتائب الجهادية الخوف والتردد في جهاد من كان خارجاً عن نطاق ميادين نشر الدعوة في داخل الجزيرة العربية من الأمم التي كانت الجاهلية العربية تتهيبهم وتخافهم، وتخشى بطشهم لما وقر في نفوسهم من تمثّل القوة المادية التي يملكونها، فجاءت غزوة تبوك لتزيل من صدور أفراد المجتمع المسلم آثار هذا التهيب والخوف، وتجرئهم على إزاحة عوائق الجهاد لهذه الأمم والشعوب، وهؤلاء العرب الذين حملوا لواء الرسالة ونهضوا لنشرها بعد رسول الله ﷺ، والخروج بها إلى آفاق الحياة الفسيحة في أقطار الأرض ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الاستعباد الظلوم إلى نور الحرية المشرق بالعلم والإيمان.

وقد كان هذا من أهم وأعظم العوامل التي أسرعت بتطهير الشام من نير الاستعباد الروماني في عهدي الخليفتين الأولين: الصدّيق أبي بكر، ثم الفاروق عمر رضي الله عنهما على أيدي أبطال الإسلام من أضراب خالد ابن الوليد، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وغيرهم من القادة الذين شُهروا بمواقف البطولة وسياسة القيادة الحربية.

تشريف هذه الغزوة بما وقع من آيات كونية ومعجزة.

وقد شرّف هذه الغزوة بما زادها شرفاً، فكانت ـ على ما فيها من حشود إسلامية متكاثفة مستوعبة للمهاجرين والأنصار ومن أسلم من رجالات القبائل وأهل مكة ومن حولهم ـ غزوة بيضاء لم يقع فيها مواجهة قتالية بين المسلمين والروم، ولكنها كانت مباءة لفضل الله وإحسانه، فأكرم الله فيها نبيّه وحبيبه ﷺ بآيات كونية ومعجزات إلهية زادت قلوب المسلمين تثبيتاً ويقيناً، وأرغمت الشيطان، فلم ينل منهم منالاً في شدة ما لاقوه من أزمات ومحن، تقبّلوها بالصبر الجميل، وملأت قلوب المنافقين غيظاً أحرق أكبادهم، وأشجتهم، وفضحتهم وكشفت عن سوآتهم وخبث نفاقهم وسيء مكرهم وتدبيرهم المكايد للمسلمين ليسيروا بينهم الفتن والبلبلة، فردّ الله بهذه المعجزات الكونية كيدهم في نحورهم، ودمغتهم بالذلّ والصَّغار،

وألبستهم لباس المهانة والخذلان، وقضت على وجودهم في الحياة، فبقي من بقي منهم هياكل من أشباح لا روح فيها.

ونحن نذكر هنا من هذه الآيات المعجزة التي أكرم الله تعالى بها نبيه محمداً ﷺ - زيادة في تشريفه والتنويه بمقامه المنيف، وأنقذ بها عباده المجاهدين في سبيل الله، إعلاءً لكلمته، وإعلاناً عملياً لعموم دعوة الحق والهدى والخير - ما صحت روايته، وثبتت واقعيته.

منهجنا في تقبل الآيات الكونية المعجزة يعتمد على ثبوت وقوعها لا على دخولها في إطار مدركات العقل.

وسبيلنا في تقبل ذلك والإيمان به هو سبيلنا فيما مهّدناه من بحث هذه الآيات الباهرات في إعجازها في بحث (محمد ﷺ من نَبْعته إلى بَعْثته) الذي هو أول بحوث هذا السِّفر في سيرة الرسول ﷺ، وقد كتبنا هذا البحث ليكون مقدمات ممّهدات لهذا الكتاب، لأنه بحث يدور حول حياة محمد ﷺ إنساناً مكمَّلاً بأكمل ما في البشرية من محاسن الفضل ومكارم الأخلاق، قبل أن يبعثه الله رسولاً.

وقد عرضنا هناك بعض الإرهاصات المعجزة التي ثبتت صحة وقوعها برواية الثقات الحفاظ، وبيّنا عند عرضها أنها آيات تجري على مقتضى سنن إلهية خاصّة تدخل في إطار الاقتدار الإلهي على الخلق والإبداع، دون تقيد بنظام الكون العام الذي يسيِّره قانون الارتباط العام بين عناصر الكون في سيرها.

وعند ذلك يجب اطّراح الغرور العقلي، ووقوف العقل الإنساني عند حدود مدركاته، وهذا العقل عاجز عن معرفة هوية نفسه، وإدراك حقيقته، فهؤلاء الذين يؤلهون العقل الإنساني، ويعطونه ما هو فوق طاقته وحدود مدركاته أعجز في معرفة حقيقته، فتحكيمهم له في كل شيء إلحاد علمي، وتجاوز لمدى حدوده، ولا سيما في عوالم الغيب.

وإذا كان هذا العقل الإنساني في أقصى درجات مدركاته عاجزاً عن معرفة حقيقة أبسط الأمور التي تعيش بها ومعها الحياة كلها في كل لحظة من لحظات وجودها وسيرها دون توقف، فمؤلهو العقل البشري أعجز منه عن إدراك حقيقة هذه البسائط التي تتكرر عشرات آلاف المرات في كل يوم بل في

كل ساعة. فليقل لنا مؤلهو العقل البشري بعد عجزهم عن معرفة ماهية هذا العقل: ما الحب؟ وما حقيقته؟ وما البغض؟ وما كنهه؟ بل ما الشبع وما الجوع، وما السعادة؟ وما الشقاوة؟ ولنقرب بالسؤال إلى ما هو من خصائص العقل البشري في نظر مؤلهيه، فليقولوا لنا: ما العبقرية، وما الذكاء؟ وما البلادة وما الحياة؟ وما الموت؟ وما الروح؟ وأين تكمن من الإنسان؟.

إن مؤلهي العقل البشري أعجز من أن يجيبوا على سؤال واحد من هذه الاسئلة، ولكنهم يستطيعون أن يبرطموا بكلمات جوفاء خالية عن المحتوى يسمّونها فلسفة، ولن توصلهم هذه البرطمة وهذا التفلسف إلى شيء من المعرفة، لأن جميع الأمور الشعورية، والوجدانية، والعاطفية، لا يعرف العقل - أي عقل - حقائقها وهوياتها، وأقصى ما يستطيعه من المعرفة عنها أنه يشعر بآثارها، ويحسُّ ببعض أوصافها فقط.

العقل البشري عاجز عن إدراك حقائق الأمور الشعورية والوجدانية وهو أعجز عن إدراك حقائق الغيب.

وإذا كان هذا شأن العقل البشري في الأمور التي يحسُّها ويشعر بها؛ فكيف يكون حاله في الأمور الغيبية التي لا يراها ولا يشعر بها ولا يحس بشيء يتعلق بها؛ لأنها تقوم في وجودها على نوع من سنن الله الخاصة التي قد تختلف قليلاً أو كثيراً في ظاهر الأمر عن السنن العامة التي يقوم عليها ما يعرفه الإنسان من نظام الكون والحياة وترابط عناصرهما.

فالله تعالى الذي خلق السنن العامة وربط بها عناصر الكون، وأقام على دعائمهانظام سيره، وهو الذي خلق السنن الخاصة وربط عناصر الأحداث الخاصة التي تتطلبها مناسباتها - لا يحدّ قدرته شيء، فضلاً عمّا وصل إليه الإنسان من معرفة وعلم لا يمثلان قطرة في محيط ترابط عناصر الكون، وقد قال الله تعالى للمغرورين المغرَّرين: ﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾ وهذا خطاب عام عموم الإنسان في أجياله وأطوار تفكيره، ولا يقيد هذا العموم ما قيل في سبب نزول الآية التي لا يعدو أن يكون حادثة تدخل في إطار أحداث الحياة، فتأخذ من النص وصفها وحكمها.

ولكن الغرور الإنساني عند محدودي الدخل العلمي هو الذي يدفع بالإنسان إلى التعالي والبطر، فيزعم لنفسه ما ليس له بحق، ولكن الله تعالى

في جلال قهره، وعزة رحمته يهدي من يشاء ويضل من يشاء، رضي المغرورون أم أبوا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

في هذا الإطار نذكر بعض الآيات الكونية التي خرَّجها الأئمة في كتبهم.

وحديثنا في هذا المجال مع الذين يؤمنون بسلطان اقتدار الألوهية الحقّة، أما الذين يلحدون في آيات الله تقليداً أو اغتراراً بما وصل إليه من نزيز العلم والمعرفة ـ فهؤلاء للحديث معهم أسلوب آخر، ومكان آخر، نرجو أن نوفق لتناوله في تفصيل يضع الحقائق في مواضعها.

في ضوء هذا الوضع نذكر بعض ما وقع من الآيات الكونية المعجزة في غزوة تبوك تشريفاً لهذا الكتاب، وتبركاً بما أفاضه الله تعالى على نبيه محمد ﷺ وعلى مجتمعه المسلم من هذه الآيات البيِّنات التي لا ينكرها عقل مؤمن بجلال الاقتدار الإلهي، ولا يتنكَّر لها إلا من طمس الله على بصيرته واستولى الران على قلبه، وأعماه حبُّ العصرية ولقب التجديد، فاستعبد إيمانَه عقلُه، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

والذي نذكره هنا من آيات الإعجاز الكوني كان من قبيل آيات الرسالة ومعجزاتها التي لم يقع بها التحدِّي الذي استأثر به القرآن الكريم، ولكنه وقع تكريماً لرسول الله ﷺ تشريفاً لقدره العظيم، وتنويهاً بمقامه المنيف، وغياثاً للمجاهدين الذين أعدوا أرواحهم فداء لعقيدتهم، وكان الموقف قد تأزم بهم تأزماً شديداً، ولا سيما في قلة الزاد، وعدم الماء، وقد كانوا يتداولون فيما بينهم التمرة الواحدة يمصها أحدهم ليشرب على مصتها الماء، ثم يناولها أخاه ليفعل بها ما فعل، وقد أكلوا التمر المسوس، والإهالة السنخة، وفقد الماء حتى كادت رقابهم تتقطع من شدة العطش، وحتى كانوا ينحرون البعير ليشربوا ما في كرشه حتى إذا نفد ما فيها من الماء كانوا يضعونها في أكبادهم.

حديث عمر عن الآية الكونية الأولى من معجزات غزوة تبوك.

١ ـ روى الإمام أحمد، والحاكم، وابن خزيمة، وابن حبان عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، قال: خرجنا إلى تبوك في يوم قيظ شديد، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش شديد حتى ظنّنا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان

الرجل ليذهب ليلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر كرشه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده.

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا، فقال رسول الله ﷺ: «أتحب ذلك؟» قال أبو بكر نعم، فرفع ﷺ يديه نحو السماء، فلم يرجعهما حتى قالت السماء - أي كساها السحاب - فأطلّت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر.

رواية ابن أبي حاتم عن الآية الثانية من الآيات الكونية.

٢ - روى ابن أبي حاتم عن جزرة قال: نزلت هذه الآية ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون﴾ في غزوة تبوك، ونزلوا بالحِجْر - أي ديار ثمود - فأمرهم ﷺ أن لا يحملوا من مائها شيئاً، ثم ارتحل ونزل منزلاً آخر، وليس معهم ماء، فشكُوا إليه ﷺ، فقام فصلَّى ركعتين، ثم دعا فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها، فقال أنصاري لآخر من قومه يُتّهم بالنفاق: ويحك قد ترى ما دعا رسول الله ﷺ، فأمطر الله علينا السماء؟ فقال المنافق: قد مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

حديث محمود بن لبيد عن الآية الثالثة من هذه الآيات.

٣ - وفي حديث محمود بن لبيد عن رجال من قومه عند ابن إسحاق، قال كان رجل معروف نفاقه يسير مع رسول الله ﷺ حيثما سار، فلما كان من أمر الحِجْر ما كان ودعا ﷺ فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، أقبلنا عليه، نقول: ويحك؟ هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارّة.

حديث ناقته ﷺ القصواء من أشهر هذه الآيات وهو حديث مهم.

٤ - روى البيهقي وأبو نعيم في دلائلهما، وابن إسحاق والواقدي: أن ناقته ﷺ القصواء قد ضلّت، فلم يهتد إلى مكانها، فقال زيد بن اللصّيت - وكان منافقاً من يهود بني قينقاع - فأسلم إسلام نفاق، إذ أجلى النبي ﷺ قومه عقيب غزوة بدر - وكان ابن اللصّيت خبيث النفاق، جمع غش اليهود وغدرهم، وسيء حقدهم على رسول الله ﷺ وحسدهم له على رسالته التي بعثه الله بها للعالمين بشيراً ونذيراً، واضطغانهم على مجتمعه المسلم - أليس يزعم محمد أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟

وكان ابن اللصَّيت ينزل في رحل عمارة بن حزم العقبي البدري، فقال رسول الله ﷺ وعمارة بن حزم عنده: «إن رجلاً يقـول كذا وكذا» وذكر ﷺ مقالة ابن اللصِّيت التي أعلمه الله بها بالوحي «وإني والله لا أعلم إلاّ ما علمني الله، وقد دلّني عليها، وهي في الوادي، في شِعْب كذا، وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها» فانطلقوا فجاؤوا بها. ورجع عمارة بـن حزم إلى رحله، فقال: العجب لشيء حدّثنا به رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل، أخبره الله بكذا، وكذا، للذي قال الخبيث ابن اللصِّيت، فقال رجل ممّن كان في رَحْل عمارة بن حزم ـ وصرح الواقدي أن ذلك الرجل أخو عمارة بن حزم ـ: زيد بن اللصِّيت والله قائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا، فأقبل عمارة بـن حزم على زيد بن اللصِّيت يطعنه في عنقه، ويقول: يا عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، فاخرج يا عدو الله من رَحْلي ولا تصحبني.

* * *

مدة إقامته ﷺ بتبوك واختلاف الروايات في ذلك.

وقد أقام ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة في رواية ابن عقبة وابن إسحاق، وقال بروايتهما صاحب عيون الأثر، وخالف ذلك ابن سعد فعينّ مدّة الإقامة، فقد أخرج عن يحيى بن أبي كثير أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين ليلة، يصلِّي ركعتين، وهو قول شيخه الواقدي، وذهب إليه ابن حزم، وأخرجه الإمام أحمد عن جابر.

ويظهر بشيء من التأمل أن هذا ليس بخلاف لأن البضع يقال في اللغة على ما فوق الثلاث إلى التسع، والتعبير عن ذلك بعشرين ليلة مما يمكن قبوله مع شيء من التجوّز في التعبير، وجمع بعض العلماء بين الروايتين فقال: إن من قـال عشرين ليلة حسب يوم القدوم ويوم الارتحال.

كانت غزوة تبوك مجالاً لإظهار قوة الإسلام.

وقد حقّق ﷺ مقصده من هذه الغزوة على أكمل وجه، فأظهر قوة الإسلام بما حشد لها من جيش عرمرم وكتائب متكاثفة متأهبة، وبما كتب إلى قيصر، وهو هرقل، مرة أخرى يدعوه إلى الإسلام، وبما جرّأ المسلمين على الروم، ونزع من قلوبهم تهيّبهم لهم، وبما عقد من صلح وضرب من جزية

على متنصِّرة العرب الذين كانوا يقيمون على مشارف الشام خاضعين لقوة الرومان وسلطانهم، وبما أرسل من سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة وأسره وفتح مدينته، وبما أعلن من عموم رسالته عملياً، وبما كبت من حقد المنافقين وأحرق من أكبادهم، وأذلَّ نفوسهم، وعاش من بقي منهم في ذلٍّ المهانة مطأطأ الرأس، منكسر القلب، يندب نفاقه، ويبكي معلِّميه من خبثاء اليهود وطغاتهم.

عودته ﷺ إلى المدينة مكللاً بتوفيق الله وإعزازه.

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بأصحابه موفور المكانة، رفيع المنزلة، لم يلق في غزوته الخاتمة كيداً، ولا واجه حرباً، يحفُّه العز ويحيط به توفيق الله، بعد أن أرى أصحابه أنّ ما كان في أنفسهم من تهيّب للروم إنما هو خيال وهمي، موروث عن جاهلية ممزقة الروابط، لم يكن لها قبل الإسلام نظام اجتماعي يسلكهم في أنظمة الأمم، كما أراهم أن عموم رسالته ﷺ يقتضيهم أن يخرجوا بها إلى هذه الأمم في أقطار الأرض بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومفارقته الدنيا بعد أن بيّن لهم حياتهم الإيمانية، وتركهم على بيضاء ليلها كنهارها، وأنهم صاروا بالإسلام ورسالته رادّة للإنسانية وقادة لمسيرتها إلى حضارة مؤمنة رحيمة عادلة، تحقيقاً لقول الله جل شأنه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾ ليحقق الله تعالى لهم وعده باستخلافهم في الأرض وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم، ولجميع عباده نظاماً شاملاً، يوحّد به كلمة الإنسانية على أساس ما بين شعوبها من ترابط أخوي مدعّم بدعائم المواساة والتراحم.

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه، وفيما حققناه من رواياتها، وبيان ما فيها من معالم منهج الرسالة الخاتمة الخالدة، غُنْية عن الاسترسال في سَوْق الروايات الكثيرة التي أوردت أخبار السرايا والبعوث التي كان ﷺ يرسلها داعية إلى الله، مجاهدة في سبيله، بيد أننا لم نُخْلِ البحث من الحديث عن بعض السرايا والبعوث التي رأينا في أحداثها نماذج لمعالم منهج الرسالة التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ، فكانت حياته المباركة هي منهج رسالته التي جعلها دروساً لتربية أمته في أجيالها المقبلة.

مِنْ رَوَائِعِ أَحَادِيثِ الوُفُودِ

وتحقيق غرر أحداثها

نماذج تصوّر ولا تستقصي

مِنْ رَوَائِعِ أَحَادِيثِ الوُفُودِ

اختلفت روايات مصادر المغازي، ومراجع السيرة النبوية، ودواوين الحديث وكتب الطبقات اختلافاً واسع المدى عريض الشقة في:

الدوافع الإيجابية لوفادة الوفود.

أولاً - بدء وفادة وفود بقايا القبائل التي كانت تتربص بدخولها الإسلام على النبي ﷺ بعد أن أداخ المجتمع المسلم سائر القبائل التي تمثل جمهرة العرب في كثرتها وكثافة رجالها، واعتزازها بقوتها المادية وتوافر وسائل التأهّب والاستعداد لمواقفة كتائب الجهاد بقيادة النبي ﷺ لموقفها العدائي من الدعوة الإسلامية، خشية أن يجرفها تيار نموّ المجتمع المسلم نمواً سريعاً، جعله متماسك العناصر، قوي البناء، شديد البطش على المعتدين المهاجمين له بقواتهم المادية التي لم يكن لهذا المجتمع ما يماثلها أو يقرب منها في مهد نشأته، وتكوين شخصيته التي أصبحت لها خصائصها ومميزاتها، حتى إذا شبّ هذا المجتمع في إطار هذه الخصائص والمميزات ونهض ليرد اعتداء المعتدين، تغيّرت صورة الموقف تغيّراً كاملاً، فصارت تلك القوى المهاجمة للمجتمع المسلم ترعد فرائصها رهبة لملاقاة كتائب هذا المجتمع المجاهدة، ومواقفة تلك الكتائب في ميادين القتال، فكانت تبذل أقصى طاقتها من جهد لتجميع أضخم عدد، وأعظم حشد يمكنها الوصول إليه، مع أضخم أهبة وأعظم استعداد بالرجال والسلاح والمؤن.

وبذلك يتسنى لها توافر أعظم قوة ماديّة لتهاجم هذا المجتمع لتستأصله وتسكت نأمته، وتقضي على حياته، لتبقي على وثنيتها البليدة، وشركها

الخبيث مرتعاً تجول في حمأتها، مدرّعة بالظلم الاجتماعي والفجور الخلقي، والانغماس في أرذل شهوات الرذائل، لا يردعها قانون، ولا يصدّها دين، ولا تمنعها عقيدة، ولا يكفكف من غرورها نظام اجتماعي يرد الظالم عن المظلوم، ويريح العدل في مكانه من ساحة احتكام الخصوم.

ولكن انتصارات المجتمع المسلم بقيادته العظيمة، ممثلة في سيد المرسلين محمد ﷺ كان دويّها المرعب قد ملأ قلوب بقايا البطون العربية المشتتة بالفزع والهلع، مع تتابع هزائمهم أمام البعوث والسرايا التي كان يرسلها إليهم ﷺ في مضارب أحيائهم، مزوّدة بقوة الإيمان وهم يواقفون قوى الشرك المادية الضخمة، فتنحدر أمامهم مدحورة مهزومة على رغم الفوارق الهائلة في مظاهر القوة المادية التي كان يعتمد عليها المشركون والتي لم يكن لها مظهر قط في مواقف كتائب الجهاد المسلمة، فضلاً عن أن تكون مثل أو قريباً من قوى الشرك والوثنية.

قوة إيمان المجتمع المسلم كانت أقوى عوامل استجابة الوفود.

ولكنّ المجتمع المسلم كانت له قوة من طراز آخر غير كثافة الرجال وتوافر السلاح والمؤن، تلك هي قوة الإيمان، وحب الموت في سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر دعوة الحق، وتبليغ رسالة الهدى والنور، وإزاحة العقبات من طريقها، فكانت تنزّلات النصر المؤزر تترى متوالية متتابعة، وكان إيمان كتائب الجهاد المسلمة بهدفها يمدّها بقوة الصبر إلى جانب قوة الإيمان، حتى إذا امتحنت بشيء من البلاء الممحّص تلقته بالصبر مع الإيمان، وسرعان ما يتكشّف البلاء عن إشراقات النصر وتنزّلات آياته من سموات العزة الإيمانية.

وهكذا كانت مواقف الجهاد أمام مواقف الطغيان، حتى فاء المنهزمون من أحلاس الشرك إلى كنف الإيمان، فآمنت طوائفهم واستسلمت جموعهم، ووسعهم حلم رسول الله ﷺ ورحمته، وقبل من أتاه منهم تائباً مسلماً وضمّه إلى المجتمع المسلم أخاً للمسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم، ولم يؤاخذهم بما كان منهم إليه من أسواء وأذى، وضمّد جراحهم بإشفاقه ورأفته، ونشر بينهم مبدأ التسامح والعفو ونسيان الماضي بآلامه وكوارثه، فقال لهم ليمسح

عن قلوبهم آثار الضغائن والمحن: «الإسلام يجبّ ما قبله».

هذه الوفود وقبائلهم هم الذين أسرعوا بنشر الدعوة والفتوحات العظمى.

ومن ثَمّ انتقلت القوة المادية بانتقال كثافة عدد الرجال إلى قوة المجتمع المسلم الإيمانية التي كانت ولا تزال هي العماد القوي في انتصارات هذا المجتمع على أعدائه، وكانت ولا تزال هي الدعامة الأولى في انتشار دعوة الهدى والحق في آفاق العالمين في زمن لم يعرف مثله التاريخ لانتشار فكرة أو مذهب أو نحلة أو ملة، أو دين، ما دامت قائمة في منهج تبليغ الرسالة ونشر الدعوة.

وبهذه القوة المزدوجة انفرد المجتمع المسلم، وهو يمر بمسيرته عبر تاريخ الحياة، فكان يوم أن كانت القوة الإيمانية عدته في مواقفة أعدائه في ميادين القتال لإعلاء كلمة الله لا يواقف، وبهذه القوة الإيمانية غزا رسول الله ﷺ قريشاً في عقر دارها، وفتح مكة عنوة، حتى استسلمت، وسلمت وأسلمت، وكان أهلها متربص العرب بإسلامهم واستسلامهم، لأنهم كانوا أئمة الكفر، وأهل البيت المعظّم عند كافة العرب قاصيهم ودانيهم، وهم الذين كانوا يواقفون المجتمع المسلم بقواهم المادية، ويهاجمونه عدْواً وبَغْياً، حتى جاء الفتح الأعظم، ودانت قريش لسلطان الإسلام طَوْعاً وكَرْهاً، فأصبحوا جميعاً في قبضته محكومين بقهره، خاضعين لحكمه، حتى أطلقهم أحراراً بعد أن أداخهم المجتمع المسلم بقوة كتائبه المؤمنة المجاهدة.

وعندئذ عرف العرب في أقطار جزيرتهم أنهم لا طاقة لهم بمواقفة محمد رسول الله ﷺ، وهو يقود مجتمعه المسلم من نصر إلى نصر، فلم يجدوا بدّاً من الدخول في دين الله أفواجاً، فجاؤوه يطوون الزمان والمكان وافدين إليه من كلِّ وجه وحدب ينسلون، مبايعين مسلمين.

روى البخاري من حديث عمرو بن سلمة، قال: كانت العرب تلوّم بإسلامهم فتح مكة، فيقول بعضهم لبعض: اتركوه ـ أي رسول الله ﷺ ـ وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كان الفتح الأعظم بادر كل قوم بإسلامهم، وبادر قومي بإسلامهم.

واختلاف الروايات في زمن بدء الوفادات العربية لا يحمل في طياته

كبير معنى من معاني المنهج في الرسالة الخالدة، ولكنا عرضنا له من باب التحذير من تكثير الروايات فيما لا يهم، حذراً أن يسبب تشكيكاً فيما يهمُّ من الأمور الجوهرية.

رأي ابن حجر في ابتداء الوفود ومناقشته.

وزبدة الخلاف في تحديد زمن بدء الوفادات، وقدوم الوفود على رسول الله ﷺ مستسلمة مسلمة هي كما قال ابن حجر في الفتح: والواقع أن ابتداء الوفود كان بعد رجوع النبي ﷺ من الجعرانة في أواخر سنة ثمان، وما بعدها، بل ذكر ابن إسحاق أن الوفود كانت بعد غزوة تبوك.

ونحن نقول: إن ابتداء الوفود كان قبل سنة ثمان، وأنه على التحديد كان في سنة خمس من الهجرة، حيث قدم فيها على النبي ﷺ وفد مزينة، وكانوا أربعمائة رجل كما ذكره الواقدي بسنده فقال: حدثنا كثير بن عبدالله المزني، عن أبيه، عن جده، قال: كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة رجل من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم، وقال لهم: «أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم» فرجعوا إلى بلادهم. ثم قال الواقدي: إن أول من قدم من مزينة خزاعي بن نهم، ومعه عشرة من قومه، فيهم بلال ابن الحارث، والنعمان بن مقرن، وأبو أسماء، وأسامة، وعبدالله بن بردة، وعبدالله بن درة، فبايع خزاعي رسول الله ﷺ على إسلام قومه، ولما توجه إليهم لم يجدهم كما ظنّ فيهم، فتأخروا عنه، فأمر رسول الله ﷺ حسان ابن ثابت أن يعرِّض بخزاعي، وقال له: «اذكر خزاعياً ولا تَهْجُه» فقال حسان رضي الله عنه:

أول من قدم وفد مزينة، يقدمهم خزاعي بن نهم.

تعريض حسان بخزاعي كان سبباً في استجابة قومه.

ألا أبلغ خزاعياً رسولاً	بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرو	وأسناها إذا ذكر السناء
وبايعت الرسول وكنت خيراً	إلى خير وأدّاك الثراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه	من الأشياء لا تعجز عداء

و(عداء) اسم رهط خزاعي الذي هو منه في مزينة، فقام خزاعي في قومه فقال لهم: يا قوم، قد خصَّكم شاعر الرجل، فأنشدكم الله. فقالوا:

إنا لا ننبوا عليك، فأسلموا، وكان لواء مزينة يوم الفتح الأعظم بيد خزاعي، دفعه إليه رسول الله ﷺ، وكانوا يومئذ ألف رجل، قال ابن سعد وخزاعي أخو عبدالله ذي البجادين.

بحث مع الحافظ ابن حجر فيما نقله عن ابن سعد.

وبما ينبغي الوقوف عنده قول ابن حجر عقب كلامه السابق: نعم، اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، ولم يظهر لنا مرجع اسم الإشارة في قول ابن حجر: اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، كما لم يظهر لنا مراده من قوله: اتفقوا، من هم المتفقون؟ كيف يصحّ قوله: اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، والخلاف مشهور متعالم عند أهل العلم، كما هو صريح في قوله: والواقع أن ابتداء الوفود كان في أواخر سنة ثمان بعد الرجوع من الجعرانة، وكما نقله عن ابن إسحق من أن الوفود كانت بعد غزوة تبوك.

أما قوله اتفقوا، فإن أراد به أصحاب الروايات من أهل المغازي وأرباب السير، فما ذكره الواقدي بسنده يرد عليه، وكذلك ما نقله ابن حجر نفسه عن ابن إسحاق، وكذلك ماارتضاه وجزم به في قوله: الواقع أن ابتداء الوفود كان بعد الجعرانة في سنة ثمانٍ وما بعدها يناقضه، ولعل في عبارة ابن حجر غلطاً مطبعياً.

وذكر ابن حجر عن ابن هشام أنه قال: حدثني أبو عبيدة أن سنة تسع كانت تسمَّى سنة الوفود، وهذا كلام قريب، يمكن قبوله لأن سنة تسع كانت سنة وفادة أكثر الوفود، فهي تسمّى باعتبار الأغلب الأعم، ولا حرج في التسمية بهذا الاعتبار.

كلام ابن كثير في تقدم الوفود على فتح مكة

وذكر ابن كثير أن محمد بن إسحاق، ثم الواقدي، والبخاري، ثم البيهقي بعدهم: أن من الوفود ما هو متقدم تاريخ قدومهم على سنة تسع بل وعلى فتح مكة، وقد قال تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلًّا وعد الله الحسنى﴾ وقال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية» فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين على زمن الفتح ممن يُعَدُّ وفوده

هجرة، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله خيراً وحسنى، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة.

وهذا الكلام يتفق مع ما ذهبنا إليه من أن بدء الوفود على رسول الله ﷺ كان قبل سنة ثمان، وقبل غزوة تبوك، بل قبل غزوة الفتح كالذي كان من المزنيين سنة خمس من الهجرة.

ولعلّ كثرة عدد أفراد وفدهم إذ كانوا أربعمائة رجل، جعلت رسول الله ﷺ يجعل لهم هجرة حيثما كانوا خشية أن يطول مقامهم بدار الهجرة، وهم عدد كثير، فيضيِّقوا على أهل المدينة عيشهم، ويزحموهم في مساكنهم ووسائل عيشهم ومصالحهم، ولا سيما إذا تتابعت الوفود واستقر بعضهم في المدينة، ومن هنا نظن أن حديث «لا هجرة، ولكن جهاد ونية» مقيّد بما يكنفه من ضرورات ومصالح.

نقد ابن كثير للأئمة الذين لم يستوعبوا الوفود.

ثم قال ابن كثير ناقداً للذين عرضوا في مؤلفاتهم للوفود وأحاديثها لعدم استيعابهم للوفود فيما ذكروه: **على أن هؤلاء الأئمة الذين اعتنوا بإيراد الوفود قد تركوا فيها أوردوه أشياء لم يذكروها**، ثم قال: ونحن نورد بحمد الله ومنّه ما ذكروه، وننبه على ما ينبغي التنبيه عليه من ذلك، ونذكر ما وقع لنا مما أهملوه.

نقد ابن كثير لإيراده حديث وافد السباع.

ونحن نقول للعلّامة ابن كثير: إنه من حق الحق عليه أن يضيف إلى قوله: إنهم قد تركوا فيها أوردوه أشياء لم يذكروها، لما ينبغي أن يكمل هذا النقد، فيقول: وأوردوا أشياء لم يكن ليحسن إيرادها، ليدخل نفسه نَصَفاً لها وللحق وللأئمة الذين نقدهم، وذلك كإيراده ما سمّاه وفد السباع، وما سمّاه وفد الجن، لأن حديث الذي زعم فيه أن النبي ﷺ قال عنه: «هذا وافد السباع إليكم» لا وجه إطلاقاً لذكره في هذا المقام، وإنما موضعه معجزات رسول الله ﷺ إذا صح سنده، بدليل ما ذكره ابن كثير نفسه من أحاديث المعجزات النبوية في تكلّم وتكليم ما ليس من شأنه التكلّم والتكليم، كالحيوانات، وعذبات الأسواط، وأشراك النعال، وأفخاذ الرجال عقب حديث الذئب، كحديث: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبها

الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، فقال للراعي: ألا تتّقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ؟ فقال الراعي: يا عجباً؟! ذئب مُقْعٍ على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ فقال الراعي: بلى، قال الذئب: محمد رسول الله ﷺ بيثرب يخبر الناس بأخبار ما قد سبق، فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ، فنُودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابي: «أخبرهم» فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وتكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده».

قال ابن كثير معقّباً: هذا الحديث مرسل من وجه شعيب بن عبادة عن عبد المطّلب بن عبدالله بن حنطب، والمرسل عند الجمهور من قبيل الضعيف، ولكن ابن كثير قال في تعقيبة أخرى: ورواه الترمذي عن سفيان ابن وكيع بن الجراح عن أبيه، عن القاسم بن الفضل بهذا السند، والقاسم ابن الفضل ثقة مأمون عند أهل الحديث، وثقّه يحيى، وابن مهدي، ثم ذكر ابن كثير أن الإمام أحمد رواه من طريقين مختلفين، ثم قال عند الإسناد الثاني: إسناد أبي النضر عن شيوخه سياقه أشبه، وهو على شرط أهل السنن ولم يخرِّجوه. وصحة سند هذا الحديث لا تسوِّغ إخراجه في مقام وفود العرب.

ونقده لا يراده حديث الجن مع تصريحه بأنه موضوع.

أما حديث الجن فأمره أعجب وأغرب، ما كان يليق بعِلْم ابن كثير وفضله وإمامته في الحديث وعلومه، ومعرفته بأحداث السيرة النبوية، ودقته في نقد الأسانيد والمتون أن يلمّ بهذا الحديث في هذا المقام من قريب أو بعيد، لأن ابن كثير نفسه طعن في صحته فقال: وقد أورد الحافظ أبو بكر البيهقي ها هنا حديثاً غريباً، بل منكراً، أو موضوعاً، ولكن مخرجه عزيز.

فابن كثير قضى على هذا الحديث، وانتهى في حكمه عليه إلى أنه موضوع مكذوب مختلق مفترىً، ولكنه لعزّة مخرجه أحب ابن كثير أن يورده

في غير مورد متابعة للبيهقي، ثم قال ابن كثير: والعجب من البيهقي أنه قال في دلائل النبوة: باب قدوم هامة بن الهيم أو الأهيم بن لاقيس أو الأقيس ابن إبليس على النبي ﷺ وإسلامه، ومعنى هذا أن هامة بن الهيم هو ابن حفيد إبليس لعنه الله تعالى، وقد عجب النبي ﷺ من شدة إيغاله في الدهر وقربه من إبليس، فقال له: «فما بينك وبين إبليس إلا أبوان؟ فكم أتى لك من الدهر؟» فلم يحرْ جواباً صريحاً، ولكنه ذهب في متاهات الحياة وأحداثها منذ خلقها الله تعالى حتى بلغ بنفسه وهو غلام أنه شهد حادث قابيل وهابيل ابني آدم، وذكر إفساده في الأرض حتى قال له النبي ﷺ: «بئس عمل الشيخ المتوسم، والشاب المتلوم» ثم زعم أنه تائب إلى الله، كيف والله تعالى يقول: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ ولم يستثن من ذرية إبليس في عداوة المؤمنين هامة بن الهيم، ولا غيره، فأنّى تكون له توبة؟ وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير نفسه في تفسيره لا تدخل ذرية إبليس الجنّة.

قصة صرف الجن لاستماع القرآن أشبه بوفادات الوفود للإسلام.

ولو أن ابن كثير أهمل قصة هامة بن الهيم حفيد لا قيس بن إبليس، وذكر مكانها قصة الجن الذين صرفهم الله إلى رسوله ﷺ، وهو قائم يصلي بنَخْلة بعد عودته من الطائف محزوناً مهموماً، فاستمعوا القرآن فلما سمعوه استنصت بعضهم بعضاً إعجاباً بما سمعوا من آيات الله، واستطعاماً لما فيها من حكم وأحكام، وكانوا على دين التوراة، قيل إنهم من جنّ نصيبين، وقيل إنهم من جن نينوى، وقيل: غير ذلك، فلما سمعوا القرآن من النبي ﷺ، وشهدوا صلاته حتى إذا قضاها ولّوا إلى قومهم منذرين. وهذا هو الموافق لما كان عليه حال الوفود العربية ـ لكان موفّقاً في سياقته لأحاديث الوفود، وذكر هؤلاء الجن الذين وفدوا على رسول الله ﷺ بتوجيه الله لهم وبعثهم إليه أدخل في حديث وفادات الوفود، إن كان لا بد من إدخال أحاديث الجن في أحاديث الوفود، لأن قصة هؤلاء الوافدين من الجن على رسول الله ﷺ وهو يصلي ببطن نَخْلة بعد عودته من الطائف ثابتة بنص القرآن، لا ينكرها مؤمن، وفيها من سِمات الوفادات ما يجعلها قريبة جداً من أحاديث الوفود التي عُقد لها في مؤلفات السيرة النبوية باب خاص، وقد أطنب ابن كثير في

تفسيره وهو يسوق قصتهم وأكثر من الروايات وأقوال العلماء المختلفة.

وقد تعلّل ابن كثير لذكره هذا الحديث الموضوع كما أورده البيهقي بعزّة مَخْرَجه، ونحن نتساءل متى كانت عزة المخرج منهجاً علمياً يبيح ذكر الأحاديث الباطلة الموضوعة التي يفتتن بها كثير من أهل العلم، فضلاً عن العامة؟ وهل مما يليق بمكانة ابن كثير أن يضع نفسه في موضع التقليد في رواية ما يعرف أنه موضوع مكذوب، لأنه عزيز المخرج؟ هذا ممّا كنا نرفع مكانة ابن كثير أن تنزل إليه، وأبواب العلم والمعارف الصحيحة لا تنقضي عجائبها، وهي مفتحة لكل طالب ليلج إليها من يريد التكثر وعزّة المخارج بعيداً عن الأباطيل والأكاذيب.

الوجه الثاني هو اختلاف الروايات في عدد الوفود رغبة في الإسلام.

ثانياً ـ فيما اختلفت فيه روايات مصادر السيرة عدد الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ للإسلام والبَيْعة، بعد أن تبين لهم أنه لا طاقة لأحد منهم بمواقفة المجتمع المسلم الذي يقوده محمد رسول الله ﷺ في ميادين المواجهة والقتال، وقد علموا أنه ﷺ أداخ بكتائبه الجهادية كبريات القبائل، دهم حشودهم مجتمعين ومتفرقين، وأجلى اليهود بعد دحرهم مع صلفهم وغرورهم بما في أيديهم من قوة المال والسلاح ووفرة المؤن، وفتح مكة عنوة، واستسلمت له قريش بعد قهرها، وإرغام أنوف طغاتها، وأرعب الروم في تبوك، واستنزل ثقيفاً من حصونها حتى وفدت إليه راغمة وفدها ليستأمن لها، حتى رضيت من رسول الله ﷺ بكل ما شرطه عليها من شروط الإسلام، فاستسلمت وأسلمت بعد تأبٍّ وشموخ لم ينفعاها بشيء.

وخلاصة ما قيل في عدد الوفود ما قاله ابن حجر في الفتح إذ قال: وقد سرد محمد بن سعد في الطبقات الوفود وتبعه الدمياطي في سيرته، وابن سيد الناس اليعمري في عيون الأثر ومغلطاي، وزين الدين العراقي في منظومته، ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين، قال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني الذي نقل كلام صاحب الفتح تعقيباً على كلام ابن حجر: ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين: ولا تبلغ السبعين على المتبادر من هذه العبارة عرفاً، وهذا التعقيب من الزرقاني مما لا وجه له، لأن ابن سعد وهو

العمدة في عبارة ابن حجر في سرد الوفودأوصلهم في طبقاته التي في أيدي الناس إلى خمسة وسبعين وفداً، وبعبارة ابن حجر التي نقلها القسطلاني في مواهبه، وعقَّب عليها شارحها الزرقاني محتملة للعدد الذي ذكره ابن سعد، وما زاد عليه، فتفسيرها بأنها لا تبلغ السبعين كما قال الزرقاني تقييد لها ينفي عنها ما هو محتمل فيها.

وقد ذكر ابن سعد فيما سرده تفصيلاً وتبويباً من أسماء الوفود وأحاديثها وأحداثها وافد السباع الذي بينا فيما سبق أنه ـ إذا صح سنده ـ ليس له مكان في أحاديث الوفود العربية، وإنما مكانه في أحاديث المعجزات التي أوتيها رسول الله ﷺ تشريفاً لمكانه المنيف، وتكريماً لقدره الشريف، ليزداد بها الذين آمنوا إيماناً، ويدخل من بابها للتصديق بالرسالة من لم يكن أهلاً للنظر في الإعجاز الفكري والروعة الأسلوبية، وطرائق الهداية ومنازلها في آفاق الحياة وأطوارها الاجتماعية من كل ما استأثر به القرآن العظيم في إعجازه العام المتحدّى به.

حديث وافد السباع مكانه بين المعجزات.

ومن ثَمّ فإن هذه المعجزات الكونية لم يقع بها التحدِّي العام الدائم، وإنما ذلك كان حقاً للقرآن المجيد، فهو وحده الذي وقع به التحدِّي العام، وحمله في آياته باعتباره معجزة التحدِّي الوحيدة الدائمة الخالدة.

وإيراد ابن سعد لقصة وافد السباع بين أحاديث الوفود تجاوز لمقصد الحديث عن الوفود، وإنما أُتي ابن سعد من قبل شيخه الواقدي، والكلام معروف مشهور فيه.

موقف ابن كثير أصعب من موقف ابن سعد.

وقد استهوى حديث وافد السباع العلاّمة ابن كثير ـ كما سبق لنا التنبيه عليه، ولعلنا نعود بتوفيق الله إلى الحديث عنه في مكانه من أحاديث الوفود ـ فرواه في تاريخه (البداية والنهاية) من طريق الواقدي بالسند الذي ساقه به محمد بن سعد، وكأن ابن كثير استشعر القلق في روايته هذا الحديث من طريق الواقدي، وإدخاله في أحاديث الوفود، فأراد أن يدعمه، فذكر معه أحاديث من أحاديث الخوارق الإعجازية في تكلّم وتكليم الحيوانات للناس بكلام الإنس كحديث الراعي الذي أخذ الذئب شاة من غنمه، فطلبها

الراعي حتى انتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه وكلم الراعي، بيد أن ابن كثير ترك حديث الواقدي لمجرد روايته، ثم راح يعضد حديث الراعي مع الذئب بأسانيد عن الترمذي والإمام أحمد، ولكنها أحاديث تشعر ببعد وقوع أحداثها إلا عند ابتداء انفراط عقد السنن الكونية العامة التي قام عليها نظام الكون في مسيرة الحياة، وتحل محلها سنن خاصة تمهد لحياة جديدة هي حياة الدار الآخرة بقوانينها وسننها التي تغاير سنن الحياة، ويدل لذلك قول رسول الله ﷺ الذي ذكره ابن كثير عقب حديث الراعي الذي أراد ابن كثير من إيراده دعم حديث وافد السباع: «والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى تكلِّم السباع الإنس، وتكلِّم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده».

فحديث وافد السباع ضعيف لضعف الواقدي، والأحاديث التي ساقها ابن كثير بعده صريحة كلها في أنها من آيات الله تعالى التي تقع أحداثها قرب قيام الساعة، ودخول نظام الكون العام في هذه الحياة الدنيا في طور انفراط عقد نظامه القائم على السنن الإلهية العامة التي تدخل تحت سلطان إدراك العقل الإنساني وقواعد العلم الكوني، وأصول المعرفة التي أقام الله تعالى على أساسها بسلطان اقتداره وقهره نظام الكون العام لتسير الحياة الدنيا على مقتضاه.

فلا وجه مطلقاً لإدخال حديث السباع في إطار أحاديث الوفود، كيف والعمدة في رواية هذا الحديث هو الواقدي، وضعفه وعدم الاعتماد على روايته إذا انفرد بها أمر معروف مشهور بين أهل العلم، ويزيد من ضعف إيراد هذا الحديث بين أحاديث الوفود ما عنون به ابن سعد في طبقاته لأحاديث الوفود، إذ قال: وفادات العرب على رسول الله ﷺ، فهل كان وفود الذئب، الذي تزعم رواية الواقدي أن النبي ﷺ سمّاه وافد السباع من وفادات العرب؟

وإنما وقفنا هذا الموقف من ابن سعد، وابن كثير في هذه المناقشة لنبيِّن للناس أن في مؤلفات الأكابر من أهل العلم الذين أخذوا حيزاً من إطار

المعارف الإسلامية بعض ما لا يحسن أن يكون في آثارهم من هذه المعارف، ولا سيما في موارد أحداث السيرة النبوية ومساقات أحاديثها، حذراً أن يلمّ بما فيها من لم يكن هناك من شباب الإسلام وناشئي طلاب العلم، وحذراً من أن يقع عليه نظر المتلقّفين لهفوات المعارف والعلوم فيتوهمها حقائق إسلامية، يشن بها غارة هوجاء على منهج الرسالة الفكري، ويتخذها ذريعة إلى لون من النقد المشنّع قد يمس بعض قضايا الرسالة ومنهجها في كثير من نواحيه، مما يفتح جدلاً في قضايا المنهج الفكري أمام الدعاة لنشر الدعوة، فيعوق مسيرتها في الآفاق العالمية.

دعوتنا المتكررة إلى القيام بتنقية التراث الفكري في رسالة الإسلام واجب إسلامي.

ومن هنا فإننا لا نمل التكرار، ولا نسأم الإعادة لدعوة صادقي الإخلاص من أهل العلم في التشمير للنهوض إلى العمل الجاد لتنقية التراث الإسلامي مما ألم به من (ميكروب) الأوبئة الفكرية التي شوّهت معالم الرسالة، ووقفت عقبة كؤوداً في أعصر الجمود أمام اندفاع تيار نشر الدعوة وتبليغ الرسالة أداء لحق الوراثة النبوية، ومتابعة المسيرة التي حمل لواءها حذّاق العلماء من أئمة الإسلام وسلف الأمة الراسخين في فهم أصول الرسالة وفروعها وحكم أحكامها، ودقّة نظمها الاجتماعية، وعدالة أوضاعها الاقتصادية، ونقاء سياستها التربوية، واستقامة توجيهاتها السلوكية في الحياة.

قدّمنا أن ابن هشام ذكر أن أبا عبيدة قال: إن سنة تسع من الهجرة كانت سنة الوفود، وبيّنا تأويل ذلك بالحمل على الكثير الأغلب، لثبوت قدوم وفد مزينة ووفد هوازن وغيرهما قبل سنة تسع، وهذا الوصف لا يمكن أن يشتهر بين العلماء لهذه السنة إلا إذا كان قدم فيها على رسول الله ﷺ عدد من وفود العرب للإسلام والبَيْعة يملأ أحيازها بما يجعلها تستأهل هذا الوصف حتى كان خصيصة لها بين رواة أحاديث السيرة وأحداثها.

ونحن على منهجنا في البحث لا نقصد إلى استقصاء الروايات ولا نستهدف استيعابها، لكثرتها واشتمالها على الصحيح والسقيم من الواقع والأحداث، وفي هذه الروايات الموجز المخل، وفيها المسهب الممل الذي يستغرق فراغاً من البحث دون أن يكون فيه ما يحقق هدفنا منه.

هدفنا من هذه البحوث إبراز معالم منهج الرسالة في ضوء النقد الممحص.

وقد قلنا مكرراً أن هدفنا من هذا البحث إنما هو إبراز الأحاديث التي تحمل في طياتها شيئاً من معالم منهج الرسالة الخاتمة للرسالات الإلٓهية، ليكون نبراس هداية للأجيال المتعاقبة مع مرور الحياة من المجتمع المسلم أينما كان وكيفما كان لتتأسَّى تلك الأجيال بهذه المعالم، وتتخذ ما فيها من توجيه إلٓهي وإرشاد نبوي، وتطبيق سلوكي، جمع لها حصائل الفكر والعمـل ما حقق للأمة الإسلامية تاريخاً في قيادة الإنسانية وبناء حضارة إيمانية لم تعرف الحياة لغير هذه الأمة مدة استقامتها على منهج رسالتها.

والذين عنوا بذكر هذه الوفادات العربية على النبي ﷺ بعد انتصاراته المدوِّية كثيرون جداً، وحسبنا أن نعلم من واقع المعرفة الإسلامية أن كل من ألف في السيرة النبوية ودوّن أحداثها وجمع أحاديثها من القدامى على طريقهم في تجميع الروايات لم يغفل أحد منهم الحديث عن هذه الوفادات بين مقل مجحف، ومكثر مستنزف، ومتخير توسط فوفق.

بيد أنها في جملتها كانت تعوزها دقّة البحث والنقد المميز بين الغث والسمين، وقيامها على دعائم البحث والتحقيق، وكانت أميل إلى النقد ومتابعة الخالف للسالف اعتماداً على كثرة الحفظ والأسانيد، وكثرة الحفظ لم تكن قط في الحياة العلمية الإسلامية من موازين البحث والتحقيق، بل ربما كانت في أكثر أحوالها أبعد عن الضبط والتمحيص.

ومن ثَمّ اختلفت مؤلفاتهم بين الإيجاز الرامز والإطناب المستطرد، وكـان الإيجاز ظـاهرة كتب أعليـاء المحدِّثـين، والمثل الحي عـلى ذلـك الصحيحان، فهما من أوجز مصادر السنة عامة، وباب الوفود خاصة، وكان الإطناب المستطرد ظاهرة كتب المغازي والطبقات، والتجميع للتكثر في الروايات.

تحقيق عدد الوفود في أشهر مؤلفات السيرة.

وقد تراوحت أعداد الوفود التي دوِّنت رواياتها مفصّلة مبوّبة بين عشرة وفـود ـ وهذا مـا أمكن العثور عليـه عند المقلّين، ومن هؤلاء صـاحبا الصحيحين ـ وبين خمسة وسبعين وفداً، وهذا ما ذكره محمد بن سعد في طبقاته، وأكثره كان من رواية شيخه محمد بن عمر الواقدي، وذكر ابن سعد

في هذا العدد حديث وافد السباع، وقد نقدنا صنيعه في ذكر هذا الحديث بين أحاديث وفود العرب.

ثم مضى على الطريق طائفة من المؤلفين في السيرة، فتفاوتت أعدادهم للوفود، مع التقارب في العدد، فابن كثير ذكر في تاريخه (البداية والنهاية) عدد الوفود وأحاديثهم وأحداثهم، فبلغ بها الخمسين وفداً، لكنه ذكر فيهم وفدي السباع والجن، فكان في ذلك متجاوزاً مقام الوفادات العربية، لأن حديث وفد السباع ليس له مكان في مقام الوفادات العربية، وإنما مكانه في باب المعجزات والخوارق الكونية، وحديث الجن - على ضعفه، بل بطلانه - مكانه عند تفسير قول الله جل شأنه: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾.

وقد تخلّف عن إطناب الواقدي على لسان تلميذه محمد بن سعد في الطبقات عصريه وقرنه في المغازي وروايات أحاديث السيرة وأحداثها محمد ابن إسحاق، فذكر في سيرته التي وصلت إلى أيدي الناس بتهذيب الراوية الناقد ابن هشام من الوفود أقل قليلاً من نصف العدد الذي ذكره محمد ابن سعد في طبقاته.

ولم يفت الإمام العلّامة شمس الدين بن القيّم ذكر الوفادات العربية في كتابه (زاد المعاد)، فذكر منها مبوباً مفصلاً مع التعليق على ما عنّ له التعليق عليه لبيان فكرة لمحها فأراد إبرازها اثنين وثلاثين وفداً، وقد وقفنا معه عند ذكره لحديث وفد بني المنتفق، وكان متكلمهم لقيط بن عامر، أو ابن صبرة، وقد جاء في هذا الحديث تحاور للقيط مع النبي ﷺ في قضايا ومسائل لم تكن من معارف ذلك العصر قبل الإسلام، لكن ابن القيم تحمّس لها في حمية تشعر قارئها بشيء من العصبية الفكرية المذهبية، وسنعرض إن شاء الله تعالى لبحث ذلك عند الكلام على حديث هذا الوفد في عرض ابن القيِّم له فيما ذكره من أحاديث الوفود.

ثم جاء اليعمري فذكر في عيون الأثر أحاديث وأحداث ثلاثين وفداً، فكان قريباً في العدد من ابن القيم، وقد زاد عليهما القسطلاني في مواهبه،

قليلاً فذكر من الوفود خمسة وثلاثين وفداً، ذكرها مرقمة.

وقد ذكر الزرقاني في شرحه للمواهب القسطلانية تعليقاً فقال: وقد سردهم الشامي فزاد على مائة، فلعلّ الجماعة اقتصروا على المشهورين أو الآتين لترتيب مصالحهم.

تأويل ما نقل الزرقاني عن الشامي في عدد الوفود.

ولم نطّلع على كلام الشامي في مؤلفه، ولعل هذه الزيادة الكبيرة عند الشامي في عدد الوفود جاءت من قبل التساهل في عد قدوم بعض الأفراد الوافدين وفوداً مستقلة، نحو قدوم ضمام بن ثعلبة، بعثه قومه بنو سعد ابن بكر، وكان النبي ﷺ بعث إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فبعثوا ضماماً ليتعرّف لهم ما كتب به إليهم رسول الله ﷺ، فلم يعدّ بعض ذاكري الوفود قدوم ضمام بن ثعلبة وفداً، كما أنهم لم يعدّوا قدوم مسعود بن سعد الجذامي رسول فروة بن عمرو الجذامي وفداً، وكان فروة عاملاً للروم على من يليه من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، وكان النبي ﷺ كتب إليه يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وأهدى للنبي ﷺ بغلة وفرساً، وأثواباً وقباء مذهّباً في أشياء أخرى، فقبل النبي ﷺ هديته، وأجاز رسوله مسعود ابن سعد باثني عشرة أوقية من فضة.

ولما علم الروم بإسلام فروة أخذوه وصلبوه على ماء يقال له: عفراء بفلسطين، ثم ضربوا عنقه رضي الله عنه على هذا الماء، وقد أبان عن قوة إيمانه بقوله حين قدموه ليقتلوه:

بلِّغ سراة المسلمين بأنني ... سَلْم لربي أعظمي ومقامي

ولم يعدّ قدوم فروة بن مسيك المرادي وفداً، قال ابن إسحاق: وقدوم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله ﷺ، مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم بعد أن أوقعت همذان بقومه بني مراد في يوم الردم حتى أثخنوهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، قال له رسول الله ﷺ: «هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟» فقال فروة: من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم لا يسؤه ذلك؟ فقال له ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً» ثم استعمله ﷺ على مراد وزبيد ومذجح، وأرسل معه خالد بن سعيد ابن

العاص على الصدقة، فكان خالد بن سعيد معه حتى توفي رسول الله ﷺ.

والذين ذكروا قدوم بعض الأفراد موفدين من أقوامهم إنما ذكروهم بعنوان القدوم، لا بعنوان كونهم وفداً، لأن المنفرد ـ كما يقول الزرقاني ـ لا يعد وافداً عرفاً، وإن عدّ لغة، وبعض المؤلفين في السيرة لا يتقيد بتعبير لفظ (وافد)، وقد يعبر عن الجماعة الوافدة بلفظ (قدم) كما وقع للقسطلاني في مواهبه، فذكر وفد الأشعريين وأهل اليمن بلفظ (قدم)، فقال تحت عنوان الوفد الثامن: وقدم عليه ـ أي رسول الله ﷺ ـ الأشعريون وأهل اليمن.

وقد قدّمنا أن احتمال أن الشامي ذكر كل من قدم على رسول الله ﷺ وافداً من قومه أو رسولاً بلفظ وفد، سواء أكان فرداً أو جماعة، وهذا مما يتسامح فيه، لأنه لا يترتب عليه ما يغير المقصود.

لم نقصد بهذا التحقيق استيعاب عدد الوفود.

وقد قدمنا أننا لا نقصد إلى استقصاء الروايات واستيعابها، وسنقتصر في بحثنا على اختيار بعض الوفود ممن نلمح على رواياتهم شيئاً من معالم منهج الرسالة التي نقف عندها مستوحين ما يتنزل من سمواتها من آيات عقلانية ودروس تربوية، وتشريعات حكيمة، وأنظمة اجتماعية، وآداب إنسانية، وفضائل خلقية أريد بها أن تكون عنواناً على عموم منهج الرسالة، ومناراً لهدايتها، ونماذج من قصص من نلمح في قدومهم لوامع من المنهج الإسلامي.

* * *

قدّمنا الحديث على وفد مزينة، وعلى وفد هوازن، وعلى وفد ثقيف في مناسباتها التي اقتضت الحديث عنها، وبيّنا في حديث كل وفد منها ما اقتضاه المقام من تعليق يبرز ما فيه من معالم منهج الرسالة، كما قدمنا شيئاً عن قدمة عامر بن الطفيل في وفد قومه بني عامر، الذين شعروا أنه يضمر غدراً بالنبي ﷺ فقالوا له: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم، فأبى عليه فجوره وغروره وشراسة كفره أن يدخل فيما دخل فيه الناس من الهدى، وقال لقومه: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟ ثم توافق مع قرنه في الفجور ولؤم الكفر أربد

فجور عامر بن الطفيل وخذلان الله تعالى له.

ابن قيس أخي الشاعر لبيد بن ربيعة لأمه على الغدر برسول الله ﷺ، ومكرا ومكر الله والله خير الماكرين، وباءا بالخيبة والخزي والخذلان، وعصم الله تعالى رسوله ﷺ من كيدهما، ولما رأى عدو الله عامر بن الطفيل ما حلّ به وبقرنه في الفجور من الفشل في مكرهما قال يتوعد رسول الله ﷺ بأكذوبة الغرور الأجوف: (والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً) ثم ولّى مستكبراً فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل» وخرج عامر وقرنه أربد حتى إذا كانا ببعض الطريق رمى الله عامراً بالطاعون، وبرزت له غدّة كغدّة البعير وهو في بيت امرأة من سلول، فقتله الله أبشع قتلة وأماته أشنع ميتة، وجعل يندب نفسه ويقول: غدّة كغدّة البكر، وموت في بيت سلولية؟ قال السهيلي: عند غير ابن إسحاق أن عامراً ـ لعنه الله ـ لما رأى فشله في مكره قال في وعيده: (لأملأنّها عليك خيلاً جُرْداً ورجالاً مُرْداً، ولأربطنّ بكل نخلة فرساً) فجعل أسيد بن حضير يضرب في رؤسهما ويقول اخرجا أيها الهجرسان، فقال له عامر: ومن أنت؟ فقال أسيد بن حضير، فقال عامر: أحضيرابن سماك؟ قال: نعم، فقال عامر: أبوك كان خيراً منك، فقال له أسيد: بل أنا خير منك ومن أبي لأن أبي كان مشركاً وأنت مشرك.

وكان وفد مزينة أكبر الوفود عدداً، وأقدمهم زمناً، ثم وفد هوازن ثم وفد ثقيف.

قدوم أول وفد لبني تميم
تحقيق أسباب قدومه وأحداثه وآثارها
في تربية المجتمع المسلم

تحقيق فيما كان من وفد بني تميم في أول قدمة لهم على رسول الله ﷺ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى قدومهم إشارة واضحة، فذكر ما كان منهم من جهالة وحماقة أجمع المفسرون على أنهم هم المقصودون بآيتها، فقال الله تبارك وتعالى خطاباً لرسوله ﷺ ليخفف عنه شدّة ما آذوه به من سوء الأدب: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون﴾ ثم أبان عن طيشهم وسفاهة جهلهم، وأنهم قوم يستحوذ عليهم النَّزَق وخفّة الأحلام، لا يعرفون الأناة خُلُقاً، ولا التحلّم تخلّقاً، فقال جل شأنه: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ فهم جُفاة لا يعرفون مواقع لقاء العظماء، الذين يجب توقيرهم عند طلب لقائهم للتحدّث إليهم والحديث معهم ومخاطباتهم.

فالمناداة بمجردها تقتضي ـ عرفاً ـ الشعور والإشعار بالتباعد والنفرة، ويصحبها جهالة المنادي مكانة المنادَى، وعدم استحضار ما يستحقه من التوقير والتعظيم فوق ما يستحقه سائر الناس من الخاصة والعامة، كما يصحبها رفع الصوت مع الصَّخَب وقلّة المبالاة، وعدم عرفان أدب الخطاب مع المنـادَى.

وكون النداء من وراء الحجرات يشعر بعدم رعاية الأدب العام الذي يجب أن يسود مخاطبات الناس والتحدّث إليهم والتحدّث معهم، كما يشعر أيضاً بالجهالة الجافية، والجفوة الجاهلة التي تسدل على العقل أستاراً كثيرة من ظلمات الحماقة، والحماقة توأم الجنون، ومن ثم جاءت الآية في خاتمتها

بتسجيل هذا الوصف على أولئك الحمقى، فقالت: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ والمتأمل في هذا التعبير يستشعر من حنايا دقته صورة للإنصاف والمعدلة، لأن هؤلاء المنادين للنبي ﷺ من وراء حُجُراته لم يَخْلُ جمعهم من أفراد حصّنهم العقل بشيء من رفيع الأدب، وحياء التخاطب، فأخرجوا من إطار سفه الحماقة وسوء الأدب في التخاطب، تمييزاً لهم بما تحلّوا به من خلق أبعدهم عن مشاركة الحمقى الجفاة في وصفهم الذي دمغوا به في الكتاب العزيز.

ثم بيّن الله تعالى أن هؤلاء الحمقى قد أعمى الجهل الجافي أبصارهم وبصائرهم، فلم يدركوا أولى بدائه العقل في موقفهم الطائش، لأن العقل يقتضي حسن الأدب، ومعرفة قدر النبي ﷺ، وما ينبغي له من تعظيم وتوقير، ولا سيما أنهم ـ كما في بعض الروايات ـ جاؤوه وقت القائلة وهو ﷺ نائم ليستريح قليلاً، ثم يخرج إلى أصحابه للصلاة بهم، فقال الله لهم بأسلوب الغَيْبة إنزالاً لهم عن مرتبة شرف الخطاب: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾ ومعناه: ولو أنهم اعتصموا بالصبر، فتفادوا حماقتهم الجافية في مناداتك من وراء حجراتك، حتى آذوك بصياحهم وصخبهم جهلاً بمقامك وقدرك (لكان خيراً لهم) في موقفهم، وتحقيق ما جاؤوا يبغونه من رسول الله ﷺ من إطلاق سبيّهم والمنّ عليهم، وإفضال الله تعالى عليهم.

ثم تفضّل ربُّ العزّة جلّ شأنه ـ وهو أهل الفضل والمنّ بعد هذا الدرس التهذيبي في مكارم الأخلاق ـ ففتح لهم باب الرجاء في رحمة الله التي وسعت كلّ شيء، فقال في خاتمة هذه الآية: ﴿والله غفور﴾ لزلّات عباده، متجاوز عن هفوتهم، (رحيم) بهم، يستنقذهم بجنود إحسانه من شراك الخطيئة، ويسبغ عليهم من سحائب فضله ما يطهرهم من أدران ما اقترفوه من الإثم.

عتب متلطف وتعليم للقادرين على الإرشاد أن لا يسكتوا عن الجهر بكلمة الحق ردعاً للسفهاء.

وفي قوله تعالى: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ عتب متلطف للذين تركوا الأمر لمن لم يحسنه، بما تضمنه من إشارة إلى ما يجب على الجماعة المترابطة من التكافل في مهام أمورهم اتقاء المزالق، ولا سيما في أدب الخطاب، وأن يكون عند العقلاء ما يردع أهل السَّفَه والحمقى من وسائل التفاهم، ليردّ المحسن

على المسيء بالقول أو الفعل، أو الإشارة المفهمة، أو الإيماءة الرامزة. وقد كان في هذا الجمع كما قلنا من كان يعدّ من خاصة عقلاء العرب وحلمائهم الحكماء، وذوي رأيهم الذين تحلّ بهم المعضلات من أضراب قيس بن عاصم المنقري الذي كان يضرب بحلمه ورجاحة عقله المثل، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ في قدمته ـ كما رواه ابن سعد بإسناد حسن ـ: (إنه سيد أهل الوبر).

وفي رواية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للأحنف بن قيس ـ وهو أحد حكماء العرب وحلماء الإسلام ـ ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس ابن عاصم، رأيته أتي برجل مكتوف، وآخر مقتول، فقيل: هذا ابن أخيك قتل ابنك، فالتفت إلى ابن أخيه فقال: يا ابن أخي، بئس ما فعلت، أثمت بربك، وقطعت رحمك، ورميت نفسك بسهمك، ثم قال لابن له آخر: قم يا بني وحلّ كتاف ابن عمك، وسُقْ إلى أمه مائة ناقة دية ابنها، فإنها غريبة، وحسب القوم قيس فيهم.

وهؤلاء القوم لم يقدموا على رسول الله ﷺ ليسلموا ويبايعوا كما كان شأن سائر وفود العرب، ولكنهم قدموا لفداء سبيِّهم وذراريهم، فدخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: يا محمد، يا محمد، اخرج لنا، فمَدْحُنا زَيْن، وذمنا شَيْن، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذاك الله إذا مدح زان، وإذا ذمَّ شان، إني لم أبعث بالشعر ولم أومر بالفخر».

سبب قدوم أول وفد من تميم وتأديب قومهم على يد من ليس منهم، ثم انزلق فكان منهم.

وكان عدد القوم كثيراً يربون على السبعين، فيهم عشرة من أشرافهم وذوي رأيهم، منهم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، والقعقاع ابن معبد، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، وأضرابهم.

وذكر ابن كثير عن الواقدي أن سبب قدومهم أنهم كانوا قد جهّزوا السلاح وتأهبوا لغزو خزاعة بغياً وعَدْواً، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إليهم عيينة بن حصن في خمسين رجلاً، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم حتى ولّوا مدبرين، فأخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً، فلما قدم بهم المدينة أمر بهم رسول الله ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث.

تصدّي تميم لمصدقي النبي ﷺ في أموال خزاعة.

وفي رواية عن الواقدي وأيضاً عن الزهري أن سبب البعث إليهم أنهم غاروا على ناس من خزاعة لمّا بعث إليهم رسول الله ﷺ بِشْر بن أبي سفيان العدوي الكلبي، يأخذ منهم الصدقات، ونهاه عن كرائم أموالهم، وقيل إنه بعث النحّام العدويّ فجمعوا له ما طلبه، فاستكثره بنو تميم وقالوا: ما لهذا يأخذ أموالكم بالباطل؟ فشهروا السيوف في وجه خزاعة، فقال لهم الخزاعيون: نحن مسلمون، وهذا أمر ديننا، فقال التميميون: لا يصل إلى بعير منها أبداً، فهرب بشر بن أبي سفيان رسول النبي ﷺ لأخذ صدقة خزاعة ورجع إليه ﷺ، وأخبره الخبر، فوثبت خزاعة على التميميين فأخرجوهم وقالوا لهم: لولا قرابتكم ما وصلتم إلى بلادكم، ليدخلنَّ علينا بلاء من محمد ﷺ حيث تعرضتم لرسوله، تردّونه عن صدقات أموالنا؟! فخرجوا راجعين إلى بلادهم، فقال ﷺ: «من لهؤلاء القوم؟» فانتدب أول الناس عيينة بن حصن، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوا جمعه ولّوا هاربين، وسبى منهم نساء وذراري، وأسر رجالاً، وعاد بهم إلى المدينة المنوّرة، فقدم فيهم عدد من بني تميم يتقدمهم بعض من رؤسائهم وأشرافهم، ودخلوا المسجد ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته حتى آذوه بصياحهم الأحمق، وطيشهم الأخرق، وخروجهم عن حدود ما يجب له ﷺ من التوقير والتعظيم، فخرج ﷺ، وأقام بلال الصلاة، وتعلّق أولئك الجفاة برسول الله ﷺ يكلّمونه، فلما فرغ من الصلاة، قاموا فقالوا له صلوات الله عليه: يا محمد جئناك نفاخرك، فأذن لخطيبنا وشاعرنا، فقال عليه الصلاة والسلام «قد أذنت لخطيبكم «فليقل»، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، فقال:

خطبة عطارد بن حاجب خطيب وفد بني تميم

كلام خطيب تميم عطارد بن حاجب بن زرارة.

الحمد لله الذي له علينا الفضل، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق، وأكثره عدداً وأيسره عدّة.

فمن مثلنا في الناس؟! ألسنا برؤوس الناس، وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فلْيَعْدُد مثل ما عدَدْنا، وإنا لو نشأ لأكثرنا الكلام، ولكنا نخشى من

الأكثر فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا.

فقال رسول الله ﷺ لخطيبه ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري - وكان مفوّهاً فصيحاً عليّما بمقامات الكلام، قوّاماً بالكلمة الفاصلة -: «قم ياثابت فأجب الرجل في خطبته» فقام ثابت، وبين شدقيه لسان قؤول، وفي حنُايا صدره قلب عقول فقال:

خطبة ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ

إجابة خطيب رسول الله ﷺ لعطارد.

الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، وسع كرسيه علمه، لم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خيرته رسولاً، أكرمه نسباً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتاباً، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله ﷺ المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فِعالاً.

ثم كان أول الناس إجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

* * *

نظر وتأمل في منهج الخطيبين.

ونظرة متأملة في الخطبتين تكشف عن الفوارق الفكرية بينهما، وهي فوارق تنبع من معين البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها الخطيبان، فعطارد ابن حاجب خطيب تميم نهد في بيئة بدوية مغلقة النوافذ عن نسيم الحياة الفكرية المتحضرة، مسدودة الأبواب عن أي نظام اجتماعي مترابط، يربط الفرد بالجماعة والجماعة بالفرد، ربطاً يقوم على دعائم من العدل والحكمة، فهي بيئة محجوبة عن شمس الهداية وضوئها بركام من سحاب الجهالة، لا تعرف من مفاخر الحياة إلا المال، تتفاخر بكثرته، وتتباهى بأنواعه، وتَعَزَّز برؤيته، بيئة لا تعرف عقيدة، ولا تعتصم بدين، ولا تئل تربيتها إلى قانون أو نظام

سياسي يقيم موازين العدل بينهم، وينشر الأمن والاستقرار فيهم.

وهذه كلها أمور موضعية في بيئة قفراء مجدبة، تعيش على الغارات للنهب والسلب وسفك الدماء؛ ليأكل الذين يعيشون فيها من سائمات الإنسانية كما تأكل الإنعام، دون أن يكون لهم وراء ذلك هدف إنساني أو مطمع في خير، بيئة تفكيرها حماقة، وعلمها جهالة، ودينها ضلالة، وحلمها سفاهة، وسعيها مثبور، وأمنها مبتور، وحماها مشرع مورود، تحكمها الحماقات الهائجة والثارات المسعورة، والنفوس الموتورة ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ﴾.

يشترون الكفر بالإيمان، والضلال بالهدى، والسفاهة بالحلم، والحماقة بالعقل، والأمن بالخوف، والعزّة بالذلّة، وفي ذلك كانت مفاخرهم، وشموخ معاطسهم، وبطر أنفسهم، لا يقبلون الخير إلاّ وهم كارهون، ولا يردون موارد النور إلا وهم عن إشراقها أعشياء لا يبصرون، يحسبون نمير الحق سراباً، ينتشر في آفاق الشِّعاب والأودية، تسوقهم شياطين الغرور ومردة الفجور إلى حتوفهم وهم لا يشعرون، استحبُّوا العمى على الهدى، فكانوا في ضلالاتهم أخسر الأولين والآخرين صفقة إلا من عصم الله فاهتدى بهُدَى الله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

أما خطيب رسول الله ﷺ ومتكلم المجتمع المسلم ثابت بن قيس الأنصاري فكان في حكمته الأسلوبية، وبراعته اللسانية، وسياسته الجوابية ومعرفته بمواقع الكلمة النافذة في مقامها لتصيب المحز، وتطبق المفصل، كأنه يقرأ صحائف من نور الهداية البالغة في منازلها من النفوس الواعية.

فبدأ بحمد الله على عظمة خلقه، ونفاذ أمره، مبيِّناً أن ما فخر به أولئك الجفاة من كثرة المال ووسيع الثراء إنما هو من نعم الله وفضله الذي يستوجب شكره، والإيمان به إلَهاً واحداً، لا ندّ له ولا شريك في ملكه وملكوته، وأنه تعالى اصطفى من خيرته رسولاً، خصّه من فضله بما لم يعطِ خلقه مثله، وأنه حمّله أمانة رسالته الخاتمة، فكان بها خيرة الله من العالمين،

وأنه دعا الناس قاطبة إلى الإيمان به رسولاً، فأقبل عليه صفوة الخلق من المهاجرين، وذوي القربى وهم أكرم الناس معادن، وأشرفهم في منازل الإنسانية أحساباً، وأمجدهم في فواضلها فعالاً، ثم قفّى على أثرهم أنصار الله وأنصار رسوله ووزراؤه، فكانوا أخلص من دعي إلى الهدى، فأجاب داعي الله وآمن، ونصر وآزر، وآوى وآثر.

ومن هؤلاء وهؤلاء أقام رسول الله ﷺ مجتمعه المسلم الذي حمل لواء الدعوة إلى الله، ورفع رايات نشر الرسالة خفّاقة في الآفاق، يدعون الناس إلى الإيمان بما جاءهم من الحق والهدى، فمن آمن فقد حصن نفسه وماله، وعصم دمه، ومن أبى عناداً وفجوراً، وأعرض كفراً وعتوّاً قاتلوه حتى يفيء إلى أمر الله، أو يطهِّروا من رجسه الأرض، وكان ذلك عليهم يسيراً.

ثم ختم خطيب رسول الله ﷺ خطبته بما أرغم به الشيطان، وكبح به جماح الغرور بهضم نفسه، والاستشعار بالقصور في القيام بحق العبودية لله وحده، فقال: وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. وهذه إحدى الروايات في نص الاستغفار الذي ختم به خطبته.

الاختلاف فيما جاء في نص استغفار ثابت ابن قيس وتوجيه ذلك.

وهـذا الاستغفار لنفسه رضي الله عنه ثمرة من ثمرات الإيمان والعلم بجلال الله في وحدانية ألوهيته وربوبيته، وفيه إشعار لهؤلاء الجفاة أن أول الحقوق وهو حقُّ الله على عباده بإخلاص الإيمان بجلال وحدانيته وإفراده بالعبودية له بجميع أنواعها ومظاهرها، وفي ذلك تلميح بتبكيتهم ما ارتضوه لأنفسهم من ضلال أحمق وجَفْوة خرقاء، وهذا الاستغفار الذي جاءت به هذه الرواية لهؤلاء المتسوِّرين بنداء سيد المرسلين من وراء الحجرات كان من قبيل الاستئلاف واستمالة القلوب للدخول في الإسلام، وهذا لا ينافي أن يكون من قبيل الدعاء لهم بالهداية تأدباً بأدب النبوة الرحيمة، على حدِّ قوله ﷺ في غزوة أحد وقد آذاه المشركون من قومه أبشع إيذاء: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وقد تأوَّل العلماء طلب المغفرة لهم وهم ليسوا بأهلها بالهداية، فكأنه قال صلوات الله عليه: «اللّهم اهد قومي» وقد وردت

الرواية بلفظ (الهداية)، فكان حمل رواية (اغفر) على معنى (اهد) أولى في الجمع بين الروايتين من ترك إحداهما.

وأما الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فهو على ظاهره، لأن العبد لا يخلو عن هفوات وتأثمات، ويحتمل أنه دعاء لهم أن يحجب الله عليهم الإثم أو يحجبهم عن الإثم، فلا يلحقهم إبقاء على طهرهم، وصفاء إيمانهم، ونقاء إخلاصهم.

نص آخر لخطبة ثابت بن قيس نميل إلى ترجيحه.

وفي تفسير أبي حيان المسمّى البحر المحيط نص لخطبة خطيب رسول الله ﷺ ثابت بن قيس، يختلف عن النص الذي أورده ابن إسحاق ومن تابعه في روايته للقصة وأحاديثها وأحداثها، ونحن نورد هذا النص عن البحر لأبي حيان، قال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمه، أحسن الناس وجوهاً، وأعظمهم أحلاماً فأجابوه.

والحمد لله الذي جعلنا أنصار دينه، ووزراء رسوله، وعزّاً لدينه، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع نفسه وماله، ومن أباها قتلناه، وكان رغمه علينا هيناً، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

ونحن أميل أن هذا النص الذي لم يذكر له أبو حيان سنداً ولا مخرجاً أرجح وأقرب إلى معالم الهداية الإسلامية في أسلوبه ومعانيه.

* * *

المفاخرة بالشعر وشعر القوم لا يوثق به ويغلب عليه الانتحال والتلفيق.

ثم أذن رسول الله ﷺ لشاعر القوم، فقام الزبرقان بن بدر فأنشد ـ كما يقول محمد بن إسحاق: ـ

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا يُنْصب البِيَع

وفي رواية: وفينا تقسم الربع.

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع

وقد أنكر ابن هشام أن تكون هذه العينية من شعر الزبرقان، وكان

حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر رسول الله ﷺ غائباً، فبعث إليه رسول الله ﷺ، قال حسان رضي الله عنه: جاءني رسول رسول الله ﷺ فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم، فقال ما قال أعرضت له في قولي وقلت على نحو ما قال:

إن الذوائب من فِهْر وإخوتهم ... قد بيّنوا سنة للناس تُتَّبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يتبع
قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إن كان في الناس سبّاقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ
إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا

في أبيات تقرب في عدتها من أبيات القصيدة المنسوبة للزبرقان التي أنكرها ابن هشام، ولم يعلّق ابن هشام على أبيات حسّان، وهي على روي وبحر قصيدة الزبرقان ومعارضة معانيها؛ ممّا يدل على صحة نسبتها لحسان ابن ثابت رضي الله عنه أو نسبة بعضها له، وأدخل فيها من الشعر المنحول ما أدخل، وهذا ظاهر في تفاوت معانيها، وانسجام أسلوبها، وإذا صحّت النسبة إلى حسان، ولو لبعض الأبيات صحت نسبة بعض أبيات قصيدة الزبرقان له أو لغيره من قومه.

قال ابن هشام: وأخبرني أهل العلم بالشعر من بني تميم أن الزبرقان ابن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناسُ فضلنا ... إذا اختلفوا عند احتضار المواسم
بأنّا فروع الناس في كل موطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارمِ

وهذان البيتان اللذان نسبهما ابن هشام للزبرقان بن بدر نسبهما أبو حيّان مع شيء من التلفيق إلى الأقرع بن حابس، قال أبو حيان بعد أن أورد أبياتاً من قصيدة حسان الرائية: نصرنا رسول الله والدين عنوة، فقام الأقرع فقال: إني والله قد جئت لأمر، وقد قلت شعراً فاسمعه - يريد رسول الله ﷺ - ثم أنشد:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وأنا رؤوس الناس في كل غارة تكـون بنجد أو بـأرض التهائم

ثم ذكر أبو حيان بيتاً ثالثاً ملفّقاً فقال:

وأنـا لنا المـرباع في كـل معشر وأن ليس في أرض الحجاز كَدارمِ

فقال النبي ﷺ لحسان: «أجبه» فأجابه حسان بأبياته الميمية التي يقول فيها:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يصـير وبالاً عنـد ذكـر المكـارم
هبلتم علينـا تفـخـرون وأنتـم لنـا خدم من بـين ظئر وخـادم

فقال النبي ﷺ: «لقد كنت غنياً يا أخا دارم أن يذكر منك ما ظننت أن الناس قد لتنوه»، فكان قوله ﷺ أشد عليهم من جميع ما قاله حسان رضي الله عنه.

ثم ذكر أبو حيّان بيتي حسان رضي الله عنه:

فإن كنتم جئتم لحقـن دمـائكـم وأموالكم أن تُقسموا في المقـاسم
فـلا تجعلوا لله نِـدّاً وأسلمـوا ولا تفخـروا عنـد النبي بـدارم

فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر؟ تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا الأقرع من رسول الله ﷺ وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال النبي ﷺ: «ما يضرك ما كان قبل هذا» ثم أعطاهم وكساهم استئلافاً لهم، ولم يكن ذلك من قبيل الجوائز.

ثم قام حسان رضي الله عنه، فقال:

نـصـرنـا وآويـنـا النبي محمداً على أنف راضٍ من معدّ وراغم
بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعـود وبـالاً عنـد ذكـر المكـارم
فـإن كنتم جئتم لحقن دمـائكم وأموالكم أن تُقسموا في المقاسم
فـلا تجعلوا لله نِـدّاً وأسلمـوا ولا تلبسـوا زيّاً كـزي الأعاجم

قال ابن إسحاق: فلما فرغ حسّان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمؤتّى له!! لخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من

شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا!!

ثم قال ابن إسحاق: فلما فرغ القوم أسلموا، وجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

* * *

بين الزبرقان وعمرو بن الأهتم والإعجاز البشري في كلام رسول الله ﷺ.

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) أن الحافظ أبا بكر البيهقي روى بسنده من طريق يعقوب بن سفيان، عن محمد بن الزبير الحنظلي، قال قدم على رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن الأهتم: «أخبرني عن الزبرقان، فأما هذا - أي قيس بن عاصم - فلست أسألك عنه» قال راوي الحديث: وأراه قد عرف قيساً، فقال عمرو بن الأهتم يصف الزبرقان: مطاع في أدنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: قد قال ما قال وهو يعلم أني أفضل ممّا قال، فقال عمرو بن الأهتم: والله ما علمتك إلا زمر المروءة، ضيق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال، فرؤي في وجه رسول الله ﷺ، فقال عمرو بن الأهتم: يا رسول الله، قد صدقت فيهما جميعاً، أرضاني فقلت أحسن ما علمت، وأسخطني فقلت بأسوأ ما أعلم، فقال ﷺ: «إن من البيان سحراً».

قال ابن كثير: وهذا مرسل من هذا الوجه، قال البيهقي: وقد روي من وجه آخر موصولاً، ثم روى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس إلى رسول الله ﷺ: قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر، وعمروابن الأهتم التميميون، ففخر الزبرقان، فقال يا رسول الله، أنا سيد تميم، والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم، وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا أي عمرو بن الأهتم، يعلم ذلك، فقال عمرو بن الأهتم: إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أدنيه، فقال الزبرقان: والله يا رسول الله، لقد علم مني غير ما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو بن الأهتم: أنا أحسدك؟ فوالله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مضيّع في العشيرة، فرؤي في وجه رسول الله ﷺ عدم الرضا لاختلاف القول في

شخص واحد، وزمن واحد ومكان واحد، فقال عمرو بن الأهتم وقد عرف الإنكار لقوله في وجه رسول الله ﷺ: والله يا رسول الله، لقد صدقتُ فيما قلت أولاً، وما كذبت فيما قلت آخراً، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقتُ في الأولى والأخرى جميعاً، فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان سحراً» قال ابن كثير: هذا إسناد غريب جداً.

* * *

مناقشة قول ابن إسحاق فلما فرغ القوم أسلموا وجوّزوا.

عَرْض قصة قدوم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ، وفيهم من أشرافهم جماعة مسمّون في قومهم في هذا الإطار الذي عرضته فيه روايات القصة واضح في أن سبب قدوم هذا الوفد لم يكن قطُّ مستهدفاً الدخول في الإسلام، ومبايعة رسول الله ﷺ كما كانت تستهدف ذلك سائر وفود العرب التي ضربت إليه ﷺ آباط الإبل بعد غزوة تبوك مبايعة مسلمة، سائلة عن أحكام هذا الدين القيِّم، عاملة بما علمت، حاملة رايات نشره والدعوة إليه في الآفاق.

ولم نقع على رواية من روايات القصّة تحدثت عن إسلام بني تميم في هذه القَدْمة سوى هذه الكلمة العابرة التي ختم بها ابن إسحاق عرضه لأحاديث وأحداث قدوم وفد بني تميم، الذي أطبقت الروايات على أن سبب قدومه إنما هو فداء أسراهم من النساء والذراري الذين جلبهم عيينة ابن حصن الفزاري، بعد أن هرب رجالهم، وتركوهم نهباً للسبي والأسر، إلى جانب ما كان منهم من مظاهر حماقاتهم الخرقاء واصطراخهم الصاخب الأهوج بأنهم قدموا للمفاخرة والمنافرة.

ومن هنا لم يظهر لنا وجه لإقحام ابن إسحاق قوله: فلما فرغ القوم أسلموا وجوّزهم فأحسن جوائزهم.

وهذا كلام يحوطه القلق من أكنافه في موضعه الذي اختاره له ابن إسحاق من إطار القصة وأحداثها، وهو بصورته المبترة وأسلوبه المحزم كأنما

ألقي هكذا إلقاء لتختم به قصة قدوم وفد بني تميم مضاهأة للصورة التي ختمت قصص الوفود التي قدمت للإسلام والبَيْعة، فأسلمت وبايعت، وعادوا إلى أقوامهم في مضاربهم مبشّرين ومنذرين، وهداةً معلمين، وجنداً في كتائب الإسلام مجاهدين.

وجوه استبعاد ما زعمه ابن إسحاق من إسلام وفد تميم.

والذي يجعلنا نستبعد صحة هذا القول من ابن إسحاق وغيره ممن اتبعه من المؤلفين في السيرة بعده:

أولاً - أن الذين ذكروا قدوم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ في مؤلفاتهم السيريّة يوشك أن يكونوا مطبقين على أن بني تميم لم يقدم وفدهم في هذه القَدْمة يريدون الإسلام والبَيْعة، كما هو حال سائر وفود العرب، وإنما كان سبب قدوم وفد بني تميم فداء سبيهم وذراريهم الذين أخذتهم سريّة رسول الله ﷺ التي بعثها إليهم بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، لما بلغه ﷺ أن بني تميم جهّزوا لحرب خزاعة، أو بني العنبر، وقد جاءهم مصدّق رسول الله ﷺ بشر بن أبي سفيان، أو النحّام العدوي، ليقبض صدقاتهم، فكبر ذلك على بني تميم واستكثروه، ومنعوا مصدِّق رسول الله ﷺ أن يقبض ما أعدّته خزاعة أو بنو العنبر من صدقات أموالهم، وكان هذا من أشد ما تعرّض له المجتمع المسلم في سبيل تطبيق أركان الإسلام، فعظم ذلك على النبي ﷺ، وبعث إليهم سرّية عيينة، ولكنهم لما رأوا كتيبة المجاهدين فرّوا هاربين، فأخذ عيينة ما وجده في ديارهم من النساء والذراري ورجع به إلى النبي ﷺ، وكان من عادته الكريمة ﷺ أن لا يتعجّل بالأسرى والسبي، بل كان يستأني بهم تطلُّعاً إلى إسلام قومهم، فحبس ﷺ سبايا عيينة في دار رملة بنت الحارث وكان بيتها داراً للأسرى.

الوجه الثاني لهذا الاستبعاد.

ثانياً - أن القادمين على النبي ﷺ من بني تميم جاؤوا تَقْدُمهم حماقاتهم الجافية، وبأو عنجهيتهم الطائشة في صورة أزعجته ﷺ وآذته إيذاء شديداً، خرجت عن كل أدب عامٍّ في المخاطبة، فدخلوا المسجد النبوي في وقت القائلة، والنبي ﷺ نائم، وكانوا زهاء تسعين رجلاً، فيهم عدد من أشرافهم ورؤسائهم، فنادَوه ﷺ باسمه مجرداً عن سمات التوقير والتعظيم ومظاهر

الأدب في صياح صاخب من وراء حجراته: يا محمد، اخرج إلينا، فإنا جئناك نفاخرك، وقال أحد سفهائهم: إن مدحي زَيْن، وذمي شَينْ، فخرج إليهم ﷺ وقال لكاذبهم: «كذبت، ذاك الله تبارك وتعالى» وأنزل الله فيهم: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون﴾.

ولم يذكروا شيئاً عن رغبتهم في الإسلام، فكيف يقال أنهم أسلموا؟ وكيف أسلموا؟ وما الذي عرفوه عن الإسلام في هذه القِدْمة؟ وما أثر إسلامهم هذا في أقوامهم بعد إذ رجعوا إليهم؟.

الوجه الثالث لاستبعاد زعم ابن إسحاق.

ثالثاً - إنهم حينما خرج إليهم رسول الله ﷺ استقبلوه بعنجهية شرسة، فقالوا له: جئناك لنفاخرك، فائذن لخطيبنا وشاعرنا، وهذا قول نسجت خيوطه الحماقة الجافية، وهو من أشد المجافاة للإسلام، فلو كان الإسلام هَجَس في قلوبهم لقالوا مثل ما قال الذين وفدوا على رسول الله ﷺ يريدون الهداية والإسلام.

وقد تلطَّف بهم رسول الله ﷺ، فوسع حلمه حماقتهم، وأذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة - وهو أحد رؤسائهم - فقال ما قال في خطبته، دون أن يذكر فيها كلمة واحدة تدل على رغبتهم في الإسلام وهدايته، فأين كان إسلامهم الذي رمى به ابن إسحاق في روايته لقصتهم دون أية مقدمات تمهِّد له، أو إشارة تدل على وجوده في أنفسهم، سوى أنهم جاؤوا للمفاخرة ففاخروا، وطلبوا المنافرة فنافروا، وكبا بهم جواد حماقتهم كبوة رمت بهم في هاوية الاستسلام بأنهم في موقفهم الأحمق ليسوا بأهل لأن يفاخروا مجتمعاً ربّاه أكمل الكملة صلوات الله وسلامه عليه.

ولما انتهى خطيبهم من لوثة أعرابيته أمر رسول الله ﷺ خطيبه ثابت ابن قيس الأنصاري أن يقوم فيجيبه، فقام ثابت رضي الله عنه بروح مؤمنة، ولسان مهذَّب، وقلب أخلصه صفاء الإيمان، فتكلم لا يقيم وزناً لمفاخرة الجاهلية الوثنية، ولكنه كان يتكلم بلسان الهداية التي كانت وما تزال مفاخرها هي نصرة دين الله تعالى، ونصرة نبيه ﷺ، ونشر دعوته وتبليغ رسالته، والجهاد لإعلاء كلمة الله بالحجّة البيِّنة، ثم بالسيف المقيم لعوج

الأخادع عند المغرورين المستكبرين من أحلاس الشرك ومراضع الوثنية.

الوجه الرابع لاستبعاد زعم ابن إسحاق

رابعاً - إننا نقرأ في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ الذي أجاب به الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم هذين البيتين اللذين خاطب بهما وفد بني تميم:

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تلبسوا زيّاً كزيّ الأعاجم

وأول البيتين صريح في أنهم قدموا لحقن دمائهم وصون أموالهم خشية أن يجزيهم النبي ﷺ على سوء تصرفهم مع مصدّقه لأموال خزاعة، أو أموال بني العنبر، أو على تجهيزهم السلاح لحرب خزاعة الذين كانوا قد أعدّوا صدقاتهم ليبعثوا بها إلى رسول الله ﷺ، ليضعها في مواضعها من مقاسم الصدقات، ولم يُذكر شيء قط في هذه المفاخرة الشعرية يؤذن من قريب أو بعيد بأن هؤلاء الجفاة الحمقى قدموا على رسول الله ﷺ ليسلموا ويبايعوا، أو ليتكلموا في فداء سباياهم وذراريهم، فقد أنستهم جفوتهم الحمقاء أن يتحدّثوا في تخليص هؤلاء السبايا والذراري الذين أجهشوا لهم بالبكاء حينما رأوهم يمرّون عليهم وهم في محبسهم من دار رملة بنت الحارث الأنصارية.

ويأتي البيت الثاني صريحاً في تسجيل عدم إسلامهم، وأنهم لم يَقْدَموا كسائر وفود العرب للإسلام والبَيْعة، لأن حسّان رضي الله عنه جبههم في هذا البيت بأنهم لم يَقْدَموا للإسلام، وإنما قدموالحقن دمائهم وأموالهم، وهذا أمر لا يتحقق لهم إلا إذا طرحوا الشرك وراء ظهورهم، واتخذوا التوحيد عقيدتهم، ودخلوا في دين الله كما دخل فيه الناس أفواجاً، ولا يتخذوا من الكفر هيئة تبعدهم عن عروبتهم، وتدخلهم في حظائر الأعاجم الذين لم يؤمنوا بالله إلهاً واحداً ويخلعوا الأنداد والشركاء.

فهذان البيتان صريحان في أن وفد بني تميم لم يَقْدَم للإسلام ولا حدّث نفسه به، فمن أين جاءت رواية ابن إسحاق التي يخبر فيها بأن القوم أسلموا، وأن النبي ﷺ جوّزهم فأحسن جوائزهم، بمجرد أن فرغت مفاخرتهم ومنافرتهم، دون أي حديث يمهّد لهذا الإسلام؟.

الوجه الخامس لاستبعاد زعم إسلام بني تميم.

خامساً ـ إن الناظر في قصص الوافدين من قبائل العرب، متأملاً في أحاديثهم وأحداثهم، سواء كانوا أفراداً من أشراف القبائل ورؤوس البطون، بعثهم أقوامهم ليرتادوا لهم الأخبار عن انتصارات المجتمع المسلم بقيادة رسول الله ﷺ، أم كانوا جماعات من ذوي رأي القبائل وزعماء البطون أرسلهم أقوامهم ليعلموا لهم علم رسول الله ﷺ، وعلم ما جاء به من هذا الدين الجديد الذي سفّه أحلام العرب في شركهم ووثنيتهم التي توارثها الآباء عن الأجداد، والذي كشف الغطاء عن جهالتهم الحالكة، فانقادت له قبائل العرب، واعتنقت عقيدته التوحيدية، وحملت رايات الجهاد في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى العالمين، ولم تبقَ بعيدة عنه في جزيرة العرب إلا هذه الشراذم المتشتتة هنا وهناك، تراوحها الحَيْرة، متربصة، لا تتقدم ولا تتأخر حتى أتاها اليقين، فنهضت لتلحق بركب الهدى والنور، وأرسلت عرّافيها، وأهل خبرتها وحكماءها، فجاؤوها بالبيِّنات بعدما سألوا وأجيبوا وعلموا وعُلِّموا، وأسلموا وبايعوا، ونشروا بين أقوامهم صحائف الهداية، فاتّبعهم أقوامهم، وآمنوا إيمانهم وأسلموا وجوههم لله رب العالمين.

كذلك كان حال الوفود في حرصهم على فهم الإسلام، وتعلّم شرائعه وأحكامه، وآدابه، ونظمه في الحياة، وتطبيق ما عُلِّموه تطبيقاً عملياً، جعلهم نماذج حية لفضائله.

حرص الوفود على التفقه في الدين ومكارم رسول الله فيهم.

وقد كان لكثير منهم سؤالات عن أشياء كانت شائعة بينهم ابتغاء معرفة حلالها وحرامها، وكان النبي ﷺ حريصاً أشدّ الحرص على تفقيههم في الدين، وبيان أحكام ما سألوه عنه، وكان صلوات الله وسلامه عليه يدني منه من يعلم منه زيادة حرص على القرآن العظيم وحفظ آياته تفقهاً فيه ويقول لأصحابه: «فقِّهوا إخوانكم».

وكان الوافدون ينزلون في أيام وفادتهم دار الضيافة، فيكرمهم، ويرسل لهم الطعام من بيته، ويذهب إليهم يحدثهم ويعلمهم وهو واقف بينهم يراوح بين رجليه من طول قيامه حفاوة بهم، وإشفاقاً عليهم، وعلى مَنْ وراءهم من أقوامهم ليخرجهم من ظلمات الجهالة الوثنية إلى نور الهداية

التوحيدية، ويسألهم عن حال قومهم وبلادهم، ويدعو لهم بأخصب الغوث إذا أجدبوا، ويبتهل إلى الله تعالى أن يرفع عنهم ما ينزل بهم من بلاء وأزمات في أنفسهم وأموالهم، ويهدي إليهم ويقبل هداياهم، ويحدّثهم ويبتهل إليهم، ويسأل عمّن يعرف من شرفائهم، فإذا رغبوا في الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق في الشدة والرخاء، وحثّهم على الاعتصام بالصبر إذا طاف بهم طائف البلاء، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان، ويسوِّي بينهم، فيجيز صغيرهم بمثل ما يجيز كبيرهم، وكان خازنه بلال رضي الله عنه إذا لم يسعفه ما عنده لقلّة ما في يده أعطاهم ما سنح واعتذر لهم.

فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هُداة دعاة، مشرقة قلوبهم بنور الإيمان، يعلمونهم مما علِّموا، ويحدثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النبي ﷺ وبرّه وبِشْره، واستنارة وجهه سروراً بمَقْدَمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تآخيهم وتحاببهم، ومواساة بعضهم بعضاً، ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله ﷺ، ولقاء أصحابه، ويحببوا إليهم التأسّي بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم.

هكذا كان دأب الوفود التي وفدت على النبي ﷺ للإسلام والبَيْعة، لم يندّ عن ذلك إلا وفد بني تميم في قَدْمته لفداء سباياهم وذراريهم، وهكذا كان موقف النبي ﷺ وموقف أصحابه من جميع الوفود التي وفدت للإسلام والبَيْعة.

فالدافع لجميع الوفود التي روى أحاديثها وأحداثها أهل السيرة النبوية من السلف والخلف خلا وفد تميم الذي قدم للمفاخرة والمنافرة، ونسي الدافع الأول لقدومه، وهو تخليص سباياه وذراريه- إنما كان هو الإسلام والبَيْعة والتشرّف برؤية النبي ﷺ، وتلقِّي أصول الإسلام وشرائعه منه ﷺ، والاقتداء بسمته وعمله، والتأسِّي بأصحابه فيما أخذوه عنه من الهُدَى ومعالم الإيمان علماً وعملاً وسلوكاً وتربية.

فمن أين جاء ابن إسحاق بإسلام بني تميم في هذه القَدْمة الذي أقحمه على القصة وختم به حديثها؟ بصورة شاردة نافرة، وأسلوب قلق لا

يرتبط بأحداث القصة، ولا بشيء من وقائعها.

تجبيه القرآن الحكيم لوفد بني تميم يرد دعوى ابن إسحاق في إسلامهم.

ولو لم يكن من موجبات طرح قول ابن إسحق أن القوم لما فرغوا ـ أي من مفاخراتهم الجاهلية ومنافراتهم العنجهية الحمقاء ـ أسلموا وجوّزهم النبي ﷺ فأحسن جوائزهم ـ! إلا ما أنزل الله تعالى في تجبيههم وتقريعهم على قبح ما صدر منهم لكان كافياً، بل فوق الكفاية، وذلك بما أنزل الله تعالى فيهم من وحيه الذي حطّهم عن معنى الإنسانية الذي خصّ الله به الإنسان تمييزاً له عن سائر مخلوقاته، وبه فضّله على كثير منها، وبه وضع في يده قيادة الحياة، وبه سخّر له معالم الكون، وأخضع له مظاهر الطبيعة حتى علم من أسرارها ما كشف له عن وجه الحقيقة الكبرى، وهي التي أرسل بها جميع الرسل لهداية الخلق وإخراجهم من ظلمات الشرك، وحوالك الوثنية إلى نور التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى وحده، ثم ختم عزّ شأنه هذه الرسالات ـ بعد أن اكتمل مناط التكليف في الإنسان باكتمال خصّيصة التمييز بين المتماثلات والتفريق بين المتشابهات التي هي سرّ الله في الإنسان ـ بهذه الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد النبي الأميّ ﷺ، التي شَرُفَ بها الوجود عامة، وأمة العرب خاصة على سائر الأمم والشعوب باستخلافها في الأرض ما دامت معتصمة بهذه الرسالة، باصطفائه حامل أمانتها من أشرف أروماتها، وكتب التوفيق والفلاح لمن اتبع سبيلها، وجعل البوار والضلال على من تنكّب طريقها.

وذلك قول الله تعالى: ﴿إن الذين ينادُونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وقد أجمع المفسّرون على أن هذه الآية نزلت لتسجيل جفوة هؤلاء الحمقى، وتسجيل ما عابهم الله به وعنّفهم عليه، ووصفهم فيها بما حطّهم عن أحطّ مراتب خصّيصة الإنسان التي كان بها إنساناً، وقد ذكر المفسرون ما لعلّه مستند لإجماعهم على ما قالوا، قال القرطبي: وسئل رسول الله ﷺ فقال: «هم جفاة بني تميم، ولولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجّال لدعوتُ الله عليهم أن يهلكهم».

ومعنى هذا الحديث أن الآية ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾

نزلت في جفاة بني تميم الذين آذوا النبي ﷺ بجلافتهم وسوء أدبهم وقبح فعالهم، إذ نادوه في سفه وحماقة وهو قائل في ساعة الظهيرة من وراء بيته في صياح صاخب لا يصدر عن إنسان متحلٍّ بحلية الخصيصة الإنسانية، وإنما يصدر ممن لم يكن له حظ من هذه الخصِّيصة، منحدراً من عليائها إلى مهاوي الحيوانيّة التي لم يكن لها في خلقتها من هذه الخصيصة نصيب.

هل الحديث هو القول الفصل في بطلان قول ابن إسحاق

ثم أخبر النبي ﷺ بطريق الإشارة المعبِّرة بما جاءه به الوحي أن هؤلاء الجفاة الحمقى سيُخرج الله من أصلابهم وأصلاب سلالاتهم على مرّ الدهور من يكون له موقف إسلامي كريم عند نزول جائحات الفتن التي سيكون أشدها خروج الأعور الدجّال، وهذا الموقف منهم سيكون من أشد المواقف في الجهاد ودرء جوائح الفتن عن الأمة، ومن أجل هذا الموقف أكرمهم رسول الله ﷺ وامتنع عن الدعاء عليهم دعاء يهلكهم ويستأصل شأفتهم جزاء ما اقترفوه في حماقاتهم، وهذا الموقف هو أحد مواقف أبناء وأحفاد وسلالات الطغاة الذين آذوا رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده، فأبوا إلا العناد، وركبوا متن الشيطان حتى قذفهم في نار جهنم خالدين، ولكن الله تعالى بحكمته استنبت منهم نباتاً طيباً، واستخرج من ظهورهم ذرية صالحة حملت ألوية الجهاد في سبيل الله، فكانت أعظم الفتوحات الإسلامية على أيديهم، وأحاديث الأعور الدجال صحيحة، وهو من عالم الغيب الذي يؤذن وجوده ببدء نهاية هذه الحياة، ومن هنا قلنا: إن خروجه سيكون من أشد الفتن التي سيتعرض لها الناس قبل قيام الساعة.

والمقصود أن قول ابن إسحاق ومتابعة من تابعه فيه من مؤلفي السيرة بعده: إن هذا الوفد التميمي أسلم في هذه القَدْمة، ممّا يدل عليه سياق الروايات في مطالعها وأحاديثها وأحداثها حتى نهاياتها، فهو قول مقحم ملزوز، نافر عن روايات القصّة في هذه القَدْمة، شارد عن معالمها.

كلام أبي حيان مغلق المنافذ في فهمه.

وما ورد في تفسير أبي حيّان في البحر من إسلام الأقرع بن حابس بين يدي رسول الله ﷺ بعد أن ردّ على الأقرع تنفّجه وغروره في مفاخراته الكاسدة، ومنافراته البائرة، وكان هو الذي أشعل نار هذه المفاخرة،

وأغرى قومه بتلك المنافرة، بقوله الأحمق لرسول الله ﷺ: جئناك نفاخرك، فقبل منهم ذلك رسول الله ﷺ تنزلاً يستلّ به سخائم الشيطان، بعد أن بيّن لهم أنه لم يرسل بالشعر ولم يؤمر بالمفاخرة، ليردهم عن حماقتهم الجاهلية التي قضى عليها الإسلام بمنهاجه التربوي الخلقي الذي جعل من الأمة العربية أمة رائدة في سَمْتها وسلوكها، وهدايتها، ومكارم أخلاقها، ومحاسن آدابها، ومفاخر شمائلها، وسياستها الاجتماعية، ونظمها في الحياة من كل ما ألّمت به شريعتها: عقيدة وتعبداً، ومعاملة ونظماً ـ أمر مستغلق الفهم، لأن الروايات الثابتة أثبتت شهود الأقرع بن حابس وصاحبه عيينة بن حصن الفزاري فتح مكة مع المسلمين تحت قيادة رسول الله ﷺ، وفتح مكة كان في السنة الثامنة الهجرية، وأول قَدْمة عرفت لوفد بني تميم كانت في سنة الوفود، وهي السنة التاسعة من الهجرة، وكان الأقرع بن حابس أحد أفراد هذا الوفد، معدوداً في رؤسائه، ودخل فيهم من ليس منهم، عيينة بن حصن الفزاري، ولعله قد أدخله هذا المدخل الوبيء توافقه في سلوكه المتأرجح في أراجيح الشكوك والأوهام، والتخيّلات مع صاحبه الأقرع بن حابس التميمي، فهل كان الأقرع بن حابس دخيلاً على المسلمين في فتح مكة، ولم يكن في قلبه منه إلا أن يفوز بشيء من الغنائم؟ أو كان الأقرع مسلماً في فتح مكة صحيح الإسلام، ثم نكص على عقبيه وارتد عن الإسلام بعد الفتح الذي لم تكن فيه غنائم جاهليّة؟ وبهذا الكفر الأصيل أو الطارىء حضر مع وفد قومه بني تميم، منضماً لأشرافهم ورؤسائهم، وأنه صاحب الكلمة الحمقاء في مناداة رسول الله ﷺ من وراء حجراته إذ قال: يا محمد اخرج إلينا، فإنا جئناك نفاخرك، وكذلك كان صاحب الكلمة المتسفّهة التي قالها معبّراً عن جلافته وغروره وجهالته: إنّ مدحي زَيْن، وإنّ ذمّي شيْن، فقال له رسول الله ﷺ يرد جماح كفره: «ذاك الله تعالى».

احتمالات وفروض حول الأقرع ابن حابس وإسلامه.

ولما استفرغ الأقرع كل ما عنده من غرور أجوف وحماقة فاجرة لم يجد أمام عجزه وخزيه وخذلانه إلاّ أن يستصغر ويذل، ويعترف أن خطيب رسول الله ﷺ كان أخطب من خطيبهم، وأن شاعره ﷺ كان أشعر من شاعرهم، وأن أصوات المجتمع المسلم أعلى من أصواتهم.

ثم دنا من رسول الله ﷺ وأسلم وشهد شهادة الحق، فآواه النبي ﷺ إلى كنف الإسلام، وقال له ليثبِّت إيمانه: «ما يضرك ما كان قبل هذا».

ولا ندري هل أراد سيدنا رسول الله ﷺ بقوله هذا ما كان من الأقرع من كفر جاهليّ وضلالة وثنية، وفجور في الشرك، أو أراد ﷺ ما كان من الأقرع من كفر بعد إيمان، وضلالة بعد هداية؟ وفحوى الرواية يشعر بهذا الأخير، ولم تذكر هذه الرواية التي يوشك أن يكون قد انفرد بها أبو حيّان أن أحداً من وفد بني تميم أسلم في هذه القَدْمة غير الأقرع، فهو وحده الذي سجلت الرواية إسلامه.

أما الإعطاء والكساء فكانا من مكارم أخلاق رسول الله ﷺ، فعمّ بهما أفراد الوفد كلهم تكرماً وتألفاً لقلوبهم على الإسلام، ولهذا ذكرتهم الرواية بصيغة الجمع، فقالت: ثم أعطاهم وكساهم، ولم يكن من مكارم أخلاقه ﷺ أن يخصّ بعطائه ومكارمه أحداً دون أحد ممن وفد عليه، والإسلام والكفر لا مدخل لهما في المكارم المادية وشؤون الحياة في المطعم والملبس.

ومن ثَمّ فإن هذه الرواية لا تصلح مطلقاً متشبثاً لقول ابن إسحاق بأن وفد تميم أسلم في هذه القَدْمة، ولعله كانت لبني تميم قَدْمة أخرى أو قَدْمات أخر وقع فيها إسلامهم، وجُوّزوا كما جُوّز الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ للإسلام والبيعة، والتفقه في الدين.

مجمل قصة وفد تميم في أول قدمة لهم كما ساقها منهج مؤلفي السيرة.

هذا وجه من أوجه يمكن بها تفسير قصة الحماقة التميمية، ويمكن أن يدخل بها قول ابن إسحاق في دائرة القبول، رغم ما سجلته عليهم جلافة وفدهم في أول قَدْمة لهم على رسول الله ﷺ ليفدُوا سباياهم وذراريهم التي أخذها منهم غِلاباً عيينة بن حصن الفزاري قرين الأقرع بن حابس التميمي، وصديقه في إطار التراث الجاهلي ومظاهره المادية.

قدم وفد تميم معتصماً بكل ما أتيح له من تراث الجاهلية الوثنية في المفاخرات والمنافرات التي جعلوها مقصدهم في قدمتهم الحمقاء، فقالوا في

ندائهم الأحمق من وراء الحجرات: جئناك لنفاخرك، فخرج إليهم ﷺ وأراد أن يكفكف من حدّة حماقتهم، ويطفىء نار غرورهم بتأدية صلاة الظهر، فتركهم وصلّى بالناس، ولكنهم كانوا لا يزالون منغمسين في حمأة الحماقة، فتلطّف بهم ﷺ وأجابهم لما طلبوه من المنافرة التي انتهت بهم إلى الخزي والخذلان، وعادوا إلى قومهم عودة الأجلاف الجفاة إلى الجفاة الأجلاف، وقلّدهم النبي ﷺ من مكارمه قلائد لا تنسى، فأعطاهم وكساهم ليتألف قلوبهم على الإيمان حتى يعودوا إليه مسلمين.

بَيْد أن القرآن الحكيم اتخذ من قصتهم ميسماً وسمهم به جزاء تفلّتهم من عواصم استقامة التفكير الإنساني، وألقى بهم في مراغاة أحطِّ أنواع الحيوان، فقال بعد أن وصفهم بسوء الأدب في جملة ابتدائية، كان فيها المبتدأ اسماً موصولاً جمعهم وعمَّهم، ثم الخبر مسجِّلاً عليهم قاصمة الظهر فقال: (أكثرهم لا يعقلون).

والتعبير بالكثرة فن من فنون البراعة البيانية في القرآن العظيم يراد به الجميع أو ما هو أقرب إلى شمول الجميع، لتأخذ الدقّة الأسلوبية مكانها من التعبير، ويأخذ الاحتياط لإخراج من عسى أن لا يكون قد كان منهم في الحماقة، ولكنه عجز أن يدفع الحماقة بالكياسة طريقه إلى منفذ الاستثناء من العموم.

في منهج علماء الحديث ما يشعر بقدمة لبني تميم أو قدمات بعد قدمتهم الأولى كان فيها إسلامهم.

وقد يوجد في بعض أحاديث قدوم وفد بني تميم وأحداثهم عند علماء الحديث روايات قد تكشف عن بعض هذه الأوجه الأخرى للقصة؛ ممّا قد يدل على أن لبني تميم قَدْمة أخرى أو قَدْمات أُخَر غير التي انساقت إليها روايات أهل السِّير، قد تختلف قليلاً أو كثيراً مع هذه الروايات السِّيريّة في الأسلوب والحوادث.

ولا ريب أن نسق أهل الحديث في سياقاتهم لروايات أحاديث ووقائع السيرة النبوية أدق أسلوباً وأصفى منزعاً، وأقرب إلى نُضْج البحث وسواء التحقيق، لأنه منهج في البحث يقوم على تقبُّل النقد الممحِّص للأسانيد والمتون، ولا ننكر أنه قد ندَّ عن هذا المنهج الحديثي الشيء بعد الشيء،

فيلاحقه التأويل المتعسِّف لتصحيح تخريجه تغليباً لحسن الظن بالمعدَّلين من الرواة، ولا سيما إذا كان الراوي الثقة ممن كسب في تاريخه الحديثي شهرة وإعظاماً أقاماه في نظر الخالفين من الباحثين مقاماً محموداً، ولكن الله عز شأنه لم يجعل العصمة في دينه لأحد من البشر سوى الأنبياء والمرسلين.

موازنة حقيقية بين المنهج الحديثي والمنهج السيري.

وهذا المنهج الحديثي يجري في البحث على خلاف نسق السِّيريِّين الذي يسوده الاحتكام إلى العواطف الوجدانية، سلباً وإيجاباً، نفياً وإثباتاً، على معنى أنهم قد يثبتون ما لا يثبت، وينفون بحكم عواطفهم ما لا ينبغي أن ينفى بحكم واقعه من الوجود، لأن منطقهم في البحث منطق عاطفي يقوم على مبدأ التسامح في الفضائل، وهذا النسق السيري في ظل هذا المبدأ المتسامح لا يتحرج من قبول الروايات الفضفاضة التي تستجلب الإعجاب البطولي، والبراعة البطولية، ومطّ الشفاه؛ لأن موازين هذا النسق في البحث تأبى أن تخضع للتفكير المستقيم على دعائم السنن العامة في نظام الكون ومسيرة الحياة.

ولا يرى أصحاب هذا النسق حرجاً أن يكون مقياسهم في البحث قائماً في كثير من وقائعها على منهج السنن الخاصة، حتى ولو لم يتطلبها الموقف، ولا يسمح للعقل أن يجول خلالها ليكشف حقائقها، وهذا نسج من التفكير يلوي عنق الدعوة الإسلامية، ويعوق مسيرتها في تبليغ الرسالة، ويجعل موقفها من العقل موقف الخصم الذي يجادل عن الحق بغير حجة مقبولة في منهج المنطق العقلي.

استظهار أن إسلام بني تميم بدأ بعد قدمتهم الأولى الحمقاء.

على أساس هذا التصور الذي عرضنا في إطاره عرضاً مفصّلاً قصة أول قَدْمة لأول وفد من بني تميم، وعلى أساس رواة المحدثين من أئمة السنة بمناهجهم السندية والنقدية، البخاري وغيره من هؤلاء العلماء، وعلى أساس ما ذكروه في كتبهم الحديثية من أحاديث وأحداث هذه القصة.

وعلى أساس ما ذكره المفسرون في تفاسيرهم للقرآن العظيم في بيان معنى وأسباب نزول قوله عز شأنه: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ نستظهر أن هذه القَدْمة التميمية - التي جاءت أحاديثها

وأحداثها من طريق روايات مؤلفي السيرة النبوية، ومدوِّني وقائعها، والتي كان فيها ما كان ـ طبقاً لما روته الروايات السيرية ـ من صور الجلافة الوثنية، وجفاء الشرك المتغطرس، وفجور الكفر المتنطِّس، والحماقة المتسفِّهة، وغرور البطش المتحلل من قيود الإنسانية المتحلِّي بسوء الأدب الاجتماعي المسعور، وتهوّر التصرف الأبله في مخاطبة سيد الخلق محمد خاتم النبيين ﷺ.

والتي نزل فيها من القرآن العظيم ما سجَّل على هؤلاء الحمقى أقبح وأرذل صور الحماقة الطائشة في قوله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ والتي زاد فيها أبو حيّان في تفسيره على روايات السيريين حكاية الأقرع بن حابس، وموقفه الذي أفرده به أبو حيّان دون غيره من بقية رؤساء الوفد، مما لم نعرف له سنداً يتكىء عليه ـ كانت أول قَدْمة من بني تميم الذين كانوا في عنفوان جاهليتهم، تلتها قدمة أو قدمات بعد أن شذّبتْ فيها تميم من أشواك عنجهيتها وضريع كفرها.

وهذه القدمات أو القدمة هي التي وقع فيها إسلام وفود بني تميم، وعادوا لأقوامهم فأسلموا متتابعين بإسلامهم بعد أن نقلوا لهم الكثير من أحاديث شمائل محمد ﷺ، ومكارم أخلاقه، ومحاسن شِيَمه، ولطف عشرته، وسماحته، وفضائل دعوته، وسمو رسالته، وما اشتملت عليه من حكم وأحكام في عقيدتها، وشرائع تعبداتها، ونظمها الاجتماعية في مجتمعها المسلم من كل ما يحقِّق بين أفراد وجماعات هذا المجتمع المسلم الذي يكتنف رسول الله ﷺ بأرفع معاني الحب الإيماني، ويحقق العدالة والإخاء والمساواة والمواساة والترافق والتراحم، حتى كانوا كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً.

سبب قدوم أول وفد من تميم على رسول الله ﷺ وغزوة عيينة بني تميم.

وكان سبب قدوم وفد بني تميم في أول قَدْمة قدمها على رسول الله ﷺ وهم متجلببون جلابيب الجاهلية الحمقاء، وقد وقع من هذا الوفد كما وقع له ما روته أحاديث السيرة من الوقائع الطائشة، والأحداث المتسفِّهة ـ هو القصد إلى افتداء سباياهم وذراريهم ورجالهم الذين أخذهم عيينة بن حصن الفزاري بعد هربهم من مواجهته وتركهم لهم وراءهم في ديارهم كما ذكره الواقدي.

وكان عيينة بن حصن في صفوف المسلمين مع النبي ﷺ، وشهد معه فتح مكة، وحُنيناً والطائف حينما بلغ النبي ﷺ أن تميًا جهزوا السلاح لمحاربة خزاعة من أجل أن يمنعوهم من توصيل صدقات من أموالهم إلى رسول الله ﷺ على يد مصدِّقه الذي بعثه إليهم ليقبض صدقاتهم، فقال ﷺ: «من لهؤلاء؟» فندب عيينة بن حصن نفسه إليهم، فانتدبه رسول الله ﷺ أميراً لسرية من خمسين رجلاً من عامة المسلمين، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري صيانة لهم عن رياسته،لئلا يقع لهم منه ما يسوؤهم، وفي رواية عند البخاري أن بني تميم تعرّضوا لمصدّق رسول الله ﷺ فمنعوه من قبض صدقات بني العنبر، وهم رهط من بني تميم استكثاراً لها، فذهب إليهم عيينة في سريته يكمن النهار ويسير الليل حتى فاجأهم، ففرّوا هاربين من وجهه، وتركوا من تركوا من أقوامهم، فأخذهم عيينة أسرى وسبايا، وكانوا أحد عشر رجلاً، واحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً.

فلما بلغ بهم عيينة المدينة وضعوا في دار رملة بنت الحارث الأنصارية، وكانت دارها قد اتخذت محبساً للأسرى قبل التصرف في شأنهم، ورجع بنو تميم إلى ديارهم بعد أن هربوا منها، وبعد أن نجا عيينة بغنيمته فلم يجدوا فيها، فتلاوموا، وعزموا الرحيل لافتداء رجالهم ونسائهم وذراريهم، ووصلوا المدينة في نحو تسعين رجلاً يتزعمهم أشراف جاهليتهم، ودخلوا مسجد النبي ﷺ في صياح منكر وصخب أحمق، ونسوا ما كانوا قد جاؤوا إليه، وكان منهم ما كان في المسجد النبوي مع رسول الله ﷺ وأصحابه مما قصصناه تفصيلاً.

وقد جاء في بعض الروايات السيريّة أن النبي ﷺ - على رغم ما كان منهم - تلطّف بهم، وترفّق معهم متكرماً، فمنّ عليهم بإطلاق نصف أسراهم من الرجال والنساء والذراري دون فداء تألفاً لقلوبهم على الإسلام وفادى نصفهم، ولكن حماقة الغرور الجاهلي لم تقنع بهذه السماحة الرحيمة، وهذا التفضّل الكريم، فلجوّا في طغيانهم وتعالّوا في بأوهم، وأصروا على حماقتهم، واستكبروا استكباراً، وتحامقوا سفاهة، وطلبوا من رسول الله ﷺ

المفاخرة، وقال متكلمهم الأقرع بن حابس لرسول الله ﷺ: جئناك لنفاخرك، فأجابهم تنزلاً وتلطفاً بهم، ولكن الله تعالى أخزاهم فيما طلبوه من المفاخرة خزياً نكّس به رؤوسهم، وأذلّ غرورهم، وخذلهم خذلاناً فشّ بُجْر عنادهم، وسيّح تورّم أخادعهم.

وكان الأقرع بن حابس هو المتكلم عنهم المعلن لخزيهم وخذلانهم بقوله بعد انتهاء المفاخرة: وأبي، إن هذا لَمُؤتّى له، لخطيبهُ أخطبُ من خطيبنا، وشاعره أشعرُ من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم تقول الرواية: إن الأقرع دنا من النبي ﷺ فأسلم، وشهد شهادة الحق.

والقارىء لا يخفى عليه هذه التناقضات والمواقف المنحّلة، ولا ندري كيف رضي بها الذين دوّنوها في كتبهم ومؤلفاتهم، وكيف قبلتها عقولهم، وفيهم من أهل العلم من يشار إليه في معارف الإسلام؟

وأعجب العجب ذكر عيينة بن حصن الفزاري في وفد أشراف وزعماء بني تميم وهو ليس منهم، وهو قد كان مع المسلمين في صفوفهم قبل سنة الوفود، وشهد مع المسلمين الفتح الأعظم وغزوة حنين والطائف، فكيف يتفق ذلك مع موقف عيينة في زعامته لبني تميم؟ وليس من مآثر قبائل العرب أن يرئّسوا عليهم رجلاً من غير قبيلتهم، ولا سيما في كبريات قبائلهم.

قدمة أخرى لبني تميم أخرجها البخاري ليس فيها ما في القدمة الأولى من سوء الأدب والحماقة في الجاهلية.

وقد روى البخاري رحمه الله في إيجاز موجز حديث وفد بني تميم في كتاب (بَدْءِ الخلق) من صحيحه، وفي باب البعوث والسرايا عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما فقال: أتى نفر من بني تميم النبي ﷺ، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: يا رسول الله، بشّرتنا فأعطنا، فرؤي ذلك في وجهه ـ أي رأى أصحابه رضوان الله عليهم دلائل الأسف والحزن في وجهه من سوء ما ردّوا به بشراه ﷺ مما عراه من التغير، وقد شرحت الرواية الأخرى هذه العبارة، فبينت المراد منها، فقالت: فتغيّر وجهه ﷺ، وهذا مثل قول الصحابة إذا أُتي بين يديه فعل لم يعجبه وتُكلِّم بكلام وهو يسمع فلم يرقه: (فتمعّر وجهه ﷺ ورؤي فيه مثل الظُّلل).

وهذا التغيّر الذي بدا على وجهه الشريف إنما كان لما اعتراه من الحزن

عليهم والأسف لهم إذ فاتهم من الخير ما لا يقدِّر قدره إلا الله تعالى، لإيثارهم الدنيا قبل أن يعرفوا ما يريد أن يبشرهم به ﷺ، وبشراه لا تخرج عن خيري الدنيا والآخرة، ولكنهم بسوء أطماعهم في عَرَض الدنيا وزخارفها فاجأوا النبي ﷺ بتعجّل الفانية على الدار الباقية.

وفي هذا التعبير دلالة على شدّة ما ألمَّ به ﷺ من شدة الأسى عليهم والحزن لهم والأسف لما فاتهم من الخير لو أنهم هشّوا لبشرى رسول الله ﷺ وقبلوها بإيمان ورضا، كما قبلها الأشعريون رهط أبي موسى الأشعري رضي الله عنه كما جاء في الحديث نفسه في روايتيه.

وليس في روايتي البخاري رحمه الله ما يشير من قريب أو بعيد إلى شيء مما أورده أهل السِّير في قصة وفد بني تميم، لا من ناحية سبب قدومهم، ولا من ناحية ما كان من الوافدين من التميميين من حماقة طائشة، وجلافة جاهليّة، سجّلها القرآن العظيم في آية ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ ولا من ناحية تنفجهم بطلب المفاخرة، ولا من ناحية ما زعمه ابن إسحاق في ختام كلامه عن القصّة من أن وفد بني تميم قد أسلموا بعد أن فرغوا من مفاخراتهم، وأن النبي ﷺ قد أمر لهم بجوائز وكسيّ.

الحافظ ابن حجر يقحم على رواية البخاري ما يشرحها من كلام ابن إسحاق

بيد أننا نجد ابن حجر قد أقحم أشياء من كلام ابن إسحاق فأدخلها في فتحه لشرح الجامع الصحيح، فحكى عن ابن إسحاق تسمية بعض أفراد الوفد من زعماء بني تميم، فقال: وذكر ابن إسحاق أن أشراف بني تميم قدموا على النبي ﷺ، منهم عطارد بن حاجب الدارمي، والـزبرقـان بن بدر السعدي، وعمرو بن الأهتم المنقري، والحتّات بن يزيد المجاشعي، ونعيم بن يزيد بن قيس بن الحارث، وقيس بن عاصم المنقري.

ثم قال ابن حجر: قال ابن إسحاق: ومعهم عيينة بن حصـن الفزاري ـ وكان الأقرع بن حابس وعيينة شهدا الفتح، ثم كانا مع بني تميم.

ولا ندري ما هذا؟ وكيف كان؟ وعيينة فزاري وليس تميمياً، وكان

من شهود الفتح الأعظم في صفوف المسلمين، فما الذي أتى به في وفد بني تميم قبل أن يسلموا، وما الذي دفعه إلى ما كان منه ـ طبقاً لروايات السيرة ـ ممّا لا يصدر عن مسلم؟.

إمارة سرية عيينة لبني تميم يخرجها البخاري عن ابن إسحاق

وأغرب من ذلك وأدخل في استدعاء العجب أن عيينة كان أمير السرية التي غزت بني العنبر، وهم بطن من تميم، فأوقع بهم، وسبىٰ نساءهم وذراريهم، وأسر رجالهم، فقدم رؤساء بطون تميم، كما ذكرهم ابن إسحاق بأنسابهم، وأدخل معهم عيينة الفزاري، قال ابن سعد في طبقاته: كان ذلك في المحرّم سنة تسع.

وحديث غزو عيينة لبني العنبر إحدى بطون تميم خرّجه البخاري في صحيحه عن ابن إسحاق، فقال: باب، قال ابن إسحاق: غزوة عيينة ابن حصن بن حذيفة بن بدر بني العنبر، من بني تميم، بعثه النبي ﷺ إليهم فأغار وأصاب منهم ناساً، وسبى منهم سباء.

وقد ذكر ابن حجر ـ في شرح كلام ابن إسحاق الذي رواه البخاري عنه ـ: كلام الواقدي في بيان سبب بعث عيينة إلى بني تميم، أو إلى بني العنبر منهم، فقال: إن بني تميم أغاروا على ناس من خزاعة، فبعث النبي ﷺ إليهم عيينة بن حصن في خمسين رجلاً، ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري، فأسر منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً، فقدم رؤساؤهم بسبب ذلك.

تناقض بين موقف عيينة بن حصن الذي أخرجه البخاري وموقفه الذي أقحمه ابن إسحاق

فكيف يتفق مجيء عيينة الفزاري في وفد بني تميم الذي قدم المدينة لافتداء أسراهم الذين أسرهم عيينة في غزوه لهم مبعوثاً من النبي ﷺ إليهم لتعدّيهم على مصدّق رسول الله ﷺ، وعلى أموال الزكاة، بعد شهوده فتح مكة في صفوف المسلمين، ويكون متكلم وفد تميم ولسانهم وزعيمهم في حماقتهم؟ فهل كان عيينة في فتح مكة مسلماً صحيح الإسلام ثم ارتد عن إسلامه ليكون مع بني تميم في حماقاتهم؟ أو أن عيينة كان في حضوره مع المسلمين فتح مكة بغير إسلام صحيح، وإنما أطماعه في المغانم هو الذي ساقه هذا المساق المشبوه، ولعيينة بن حصن موقف في الطائف أشبه بهذا

الموقف، حينما تعاصَتْ ثقيف على النبي ﷺ فقال قائل: ألا إن القوم مقيمون، فقال عيينة: أجل مجَدَة كرام، فقال له بعض المسلمين: قاتلك الله؟! أتمدح قوماً لأنهم تعاصوا على رسول الله ﷺ؟ فقال عيينة: أما إني لم أصحبكم لأحارب معكم ثقيفاً، ولكني صحبتكم رجاء أن يفتح محمد ـ ﷺ ـ ثقيفاً، وهم قوم مناكير، فأتبطن منهم جارية لعلها تلد لي غلاماً.

وكيف ساغ لابن حجر أن يقبل كلام ابن إسحق في ذكره عيينة بين أفراد رؤساء الوفد التميمي؟ وعيينة هو الذي أوقع بهم، وأسر رجالهم، وسبىٰ نساءهم وذراريهم؟

هذه روايات عجيبة في مساقها، مضطربة في مخارجها، متهافتة في أسلوبها، لا يصلح أن تذكر في مصادر السيرة النبوية وأحاديثها وأحداثها.

غموض في روايات البخاري لأحداث قصة وفد بني تميم وما نزل فيها من الآيات القرآنية.

وقد أورد البخاري في تفسير سورة الحجرات من جامعه الصحيح قول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ وأتبعه بذكر حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، من طريق ابن أبي مُلَيكة، فقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجّاج عن ابن جريج، قال: أخبرني ابن أبي مُلَيكة أن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أخبرهم أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه للنبي ﷺ: أمِّر القعقاع بن معبد ـ أي على بني تميم ـ وقال عمر رضي الله عنه: أمرِّ الأقرع ابن حابس، فقال أبو بكر ـ أي موجهاً الكلام إلى عمر ـ ما أردت إلى خلافي؟ أو قال: ما أردت إلاّ خلافي، ومعنى هذه الجملة بصورتيها أن قول أبي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه كان تعبيراً من تعبيرين، وقع الشك من الراوي في تعيين التعبير الذي صدر من أبي بكر رضي الله عنه، هل قال لعمر: ما أردت إلا خلافي بأسلوب القصر المؤدي بـ(ما) النافية و(إلا) الاستثنائية، على معنى (إنما أردت خلافي)، أو قال: ما أردت إلى خلافي بأسلوب الاستفهام الإنكاري، المؤدي بـ(ما) الاستفهامية و(إلى) الجارة الانتهائية، فقال عمر: مبيناً أنه لم يقصد مخالفته، وإنما أشار على رسول

الله ﷺ بما أدّاه إليه اجتهاده، لمصلحة الإسلام والمسلمين. وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث بغير شك، بطريق القصر بـ (إنما) فقال: إنما أردت خلافي، أي ليس مقصودك إلّا مخالفة قولي، وقد اعتمد ابن حجر رواية الإمام أحمد التي لا تردّد فيها، وهي رافعة للشك عند من زعمه في كلام الصديق رضي الله عنه.

قال ابن أبي مليكة في حديثه عن عبدالله بن الزبير: فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية، وفي رواية ابن جريج إلى قوله: (ولو أنهم صبروا).

التماس حكمة لصنيع البخاري في روايات القصة.

وسياق هذا الحديث يشعر أن شيئاً من الاختصار قد دخله فتداخلت جمله وألفاظه، وغمضت بعض مقاصده ومراميه، ولعل ذلك جاء من قبيل أن المحدّثين به كانوا أقرب إلى معرفة الأحداث، فحدّثوا بما يشبه عنوانات السائل ولا سيما في الإشارة إلى ما نزل من الآيات.

قال ابن حجر: وقد استُشكل ذلك، قال ابن عطية: الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جُفاة الأعراب، والظاهر أن مرجع الإشارة في كلام ابن عطية هو الإتيان من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ وهذا الإطلاق كثير في كلامهم.

ويوضح ما ذهبنا إليه ما جاء في الرواية الأخرى لحديث ابن أبي مليكة فنزل في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية، ثم أتبع البخاري ذلك بقوله: باب قوله: (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم)، ولم يذكر حديثاً في باب هذه الآية ليدلّل بذلك على أن هذه الآية داخلة مع سابقتها في سببيّة النزول.

قال ابن حجر: قلت: لا يعارض ذلك هذا الحديث، أي حديث: كاد الخيّران أن يهلكا، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة (لا تقدّموا)، ولكن لما اتصل بها قوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾ تمسك عمر منها بخفض الصوت.

دعوى ابن حجر أن الذي نزل متعلقاً بقصة الشيخين هو قوله: (لا تقدموا) غير مسلمة.

وقول ابن حجر: فإن الذي يتعلّق بقصة الشيخين هو أول السورة (لا تقدّموا) غير مسلّم، لأن مجرد تكلم الشيخين في التأمير، وتخالفهما في الرأي لا يقتضي عتاباً، بل نهياً لا يخلو من الشّدة، لأن كلًّا منهما بين يدي النبي ﷺ كان من قبيل المشورة، واختيار أمثل الرجلين القعقاع بن معبد التميمي، أو الأقرع بن حابس التميمي لتأميره على بني تميم فهو من باب الاجتهاد لصالح المسلمين.

ولا شك أن هذا أمر مشروع، بل أمر محبّب إلى رسول الله ﷺ، وقد جاء في حديث أبي هريرة: ما رأيت أكثر مشاورة من رسول الله ﷺ، وكان من دأبه اختصاص الشيخين بمشاورتهما في كُبْريات الأحداث وعظائم المشكلات، فيأخذ برأيهما إن اجتمعا على رأي، أو برأي أحدهما إن رأى فيه رفقاً وصلاحاً للأمة، كما هو مشهور متعارف، وقصة اختصاصهما في مشاورتهما في أسرى بدرٍ مما وقع عليه إجماع المحدِّثين وأهل السِّير، وبدهي أن ذلك لم يكن منه ﷺ إلَّا فيما لم ينزل في شأنه وحي من الله تعالى، وقد ثبت عنه ﷺ أنه شاور أصحابه في غزوة تبوك في التقدّم بهم إلى ما وراء تبوك، فقال عمر رضي الله عنه: إن كنت أُمرت بالسير فسر، فقال ﷺ: «لو أمرت بالمسير لما استشرتكم فيه».

لمحات من كلام المفسرين في الآيات من أول السورة لعلّها تضع الأمور في مواضعها.

وهذه الآية التي افتتحت بها سورة الحجرات ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ لم تنزل على سبب خاص، وإنما نزلت تمهيداً وبساطاً لما بعدها من النهي عن رفع الصوت والجهر له ﷺ بالقول جهراً يغمر صوته بلفظهم، ويبهر منطقه بصخبهم، مما يخلُّ بمقام توقيره وتبجيله، ويزلزل في نفوسهم الحرص على التزام رفيع الأدب في مخاطبته ﷺ.

قال الزمخشري: ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك، ثم قال الزمخشري: وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته، لأن من أحظاه الله بهذه الأثرة، واختصه هذا الاختصاص القوي، كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال

أن يخفض بين يديه الصوت، ويخافت لديه بالكلام.

وقد أكدت ذلك آية الافتتاح، إذ قرنت التوطئة بالنهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله بالأمر بالتقوى لبيان أن التقوى إذا تخلّلت شغاف القلب كانت أعظم حاجز عن الانزلاق إلى ما يخالف منازلها من ذروة الإيمان.

قال الزمخشري في بيان قوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها، وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه، فإن التقيّ حذر لا يشافه أمراً إلا عند ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه.

والشيخان: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق هما سيدا المؤمنين من أتباع المرسلين، وأعلمهم بالله، وأرعاهم لحقّ رسول الله ﷺ في التوقير والتعظيم، وألزمهم للتقوى، وكانا أحق بها وأهلها، فهما أحذر الأوّلين والآخرين من المؤمنين أن يشافها أمراً إلا بعد أن يعرفاه معرفة تكشف عن مداخله ومخارجه، ومكانه من الدين في عقيدته وآدابه وأوامره ونواهيه وأنه لا تبعة عليهما فيه.

وليس هذا من قبيل ادّعاء العصمة لهما أو لغيرهما من عامة المؤمنين وخاصتهم عن وقوع بعض هفوات الزلل والخطأ في أمر من أمور سياسة الدنيا والاعتصام بعروة الدين، لأن العصمة خاصّة من خواص النبوة لا تتحقق إلاّ بها، ولا تكون إلاّ معها.

إن مراقبة الله في الجهر والنجوى كانت شطر إيمانهما، فإذا وقعت منهما الهفوة من الزلل أو الخطأ أسرعا إلى مسارهما في مطالع ﴿إن الذين اتّقَوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مُبْصِرون﴾.

فمفتتح السورة لا مدخل للشيخين فيه إلا كما يدخل عامة المنادين بما فيه من التشريف، ولم يكن قطُّ ممّا يخصهما أو يخص مؤمناً بعينه وشخصه، ولم يكن نزوله لمقتضٍ استدعاه كما هو شأن أسباب النزول المرتبطة في نزولها بالأشخاص والأحداث.

ولكنه نزل مفتاحاً لما جاء بعده في هذه السورة العظيمة من الأوامر والنواهي والآداب الاجتماعية التي أدّب الله بها المجتمع المسلم في سلوكه ومكارم أخلاقه حتى يكون قدوة لسائر مجتمعات الإنسانية في مستقبل حياتها، ما دام هذا المجتمع الإيماني معتصماً بعروة هذا الدين القيِّم، دين الإسلام والمؤاخاة والتراحم والمساواة، والمواساة والترافق، هذا الدين الذي ارتضاه عزّ شأنه ديناً للناس أينما كانوا من أرض الله، يقودهم بخَطْم التوحيد الخالص لله جلّ وعز إلى ذروة العبودية ويقين الإخلاص والحب لله وفي الله.

تخالف حديث ابن أبي مليكة في السند والمتن.

وحديث ابن أبي مليكة رواه البخاري رحمه الله في كتاب التفسير من الجامع الصحيح بسندين مختلفين، وساقه بعبارة متخالفة تخالفاً يكاد يكون تعارضاً.

الرواية الأولى: قال البخاري: حدثنا يسرة بن صفوان بن جميل اللخمي، حدثنا نافع بن عمر ـ قال ابن حجر: في إزالة ما توهمه واهم: هو أي نافع بن عمر المذكور في سند الحديث ـ الجمحي المكي، ليس هو نافعاً مولى ابن عمر ـ وهذا توهم لإزالة وهم، ما كان يليق بمثل الحافظ ابن حجر أن يتوهمه فيشتغل بدفعه، لأنه دفع لشيء غير موجود، ولا يتوهم أن يوجد، لأن المذكور في سند الحديث نافع بن عمر، وهو لا يشتبه قط بنافع مولى ابن عمر، حامل زاملة علم عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولم نعلم أن أحداً نسب نافعاً مولى ابن عمر نسبة بنوّة حقيقية إلى من اسمه عمر، فمن أين يجيء هذا التوهم الموهوم؟ الذي تبرع بدفعه أحفظ حفاظ عصره؟.

غمزة ابن حجر للكرماني ليست من لآلي العلم ولكنها من أصدافه.

ومن العجب العجيب أن ابن حجر ذكر عقب كلامه مباشرة في تصحيح ما توهمه راوي الحديث، وهو نافع بن عمر الجمحي مأخذاً على العلامة الكرماني، فغمزه فيه غمزة دامية، فقال: ونبه الكرماني هنا على شيء لا يتخيله من له أدنى إلمام بالحديث والرجال، فقال: ليس هذا الحديث ثلاثياً، لأن عبدالله بن أبي مليكة تابعي.

وهذه الغمزة أخف في تخيّلها عند الكرماني من توهم ما توهم به ابن

حجر في تخيّله في حق نافع بن عمر الجمحي راوي حديث عبدالله ابن أبي مليكة، فكان ابن حجر أحق بها، لأن هذا التوهم لا يتخيله من له أدنى إلمام بالحديث والرجال، ولعل عذر الكرماني فيما توهمه من أن الحديث ثلاثي أن ابن أبي مليكة من كبار التابعين، يقول الحافظ ابن حجر في تهذيبه حاكياً عنه أنه أدرك ثلاثين من الصحابة، ثم ذكر رواية أخرى أنه أدرك ثمانين منهم رضوان الله عليهم، فتوهمه صاحبياً لكثرة عدد من لقيه منهم، وعدد من روى عنهم، ولا سيما على رواية أنه أدرك ثمانين صحابياً، وكان ابن أبي مليكة من رجال ابن الزبير الملازمين له، وكان قاضيه ومؤذنه، ثم خفّ تخيل الكرماني أمام توهم الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى، ثم تابع البخاري الكلام بعد قوله: عن نافع بن عمر، فقال عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه وفد بني تميم - إلى أن قال فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية.

وقد صدّر البخاري رحمه الله تفسير سورة الحجرات بهذا الحديث مبوّباً له بقوله: باب ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية، ثم ذكر البخاري عقب ذكر الآية نص الحديث على أنه تفسير حديثي لها، كما هو نهج المحدِّثين في تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم بما يسمّى التفسير بالمأثور، وقد سبق أن ذكرنا نص الحديث كاملاً، وفيه: فارتفعت أصواتهما في ذلك - أي في خلافهما على تعيين من يؤمِّره رسول الله ﷺ على بني تميم، فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية.

أوفق روايات البخاري سنداً وموضوعاً في هذه القصة.

وهذه الرواية أوفق الروايات بموضوعها، وحديثها أصوب في مناسبة نزول الآية الملائمة لمقام الواقعة، وأحسنها سياقاً، لأنها عيّنت الآية النازلة، وذكر سبب نزولها، وهي من أتقن التناسب بين السبب والمسبب.

الرواية الثانية: قال البخاري رحمه الله تعالى: باب ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجّاج، عن ابن جريج: قال: أخبرني ابن أبي مليكة أن عبدالله ابن

الزبير رضي الله عنهما أخبرهم: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمرّ الأقرع بن حابس، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية.

ثم عقّب ذلك البخاري رحمه الله بقوله: باب قوله: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾.

وهذا الحديث مخالف لحديث الرواية الأولى من وجوه:

تخالف بين حديث ابن أبي مليكة هنا وحديثه في الرواية الأخرى.

أولاً ـ اختلافهما في السند قبل ابن أبي مُلَيكة، واتفاقهما في ابن أبي مُلَيكة، إرسالاً في الظاهر وأخذاً عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما في الواقع، إذ سند الرواية الأولى لم يُذكر فيه حجّاج بن محمد، ولم يذكر فيه ابن جريج.

ثانياً ـ أن الرواية الأولى صريحة في أن الآية التي نزلت هي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ وأن الرواية الثانية صريحة في أن الآية التي نزلت هي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ وهذا خلاف يباعد ما بين الروايتين في المقصود من إيرادهما.

ثالثاً ـ أن الرواية الثانية بينت أن سبب نزول ﴿يا أيها الذين أمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ هو تماري الشيخين في اختيار من يؤمِّره رسول الله ﷺ على بني تميم في هذه القَدْمة التي أسلم فيها من أسلم منهم، وأن أصواتهما ارتفعت بين يدي رسول الله ﷺ تأثراً من كل منهما بأحقيَّة من أشار بتأميره مستهدفاً مصلحة الإسلام والمسلمين، وقد أُنسيا مكانهما في مجلس النبي ﷺ، فارتفعت أصواتهما بما أخرجهما عن وقار المجلس، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية.

رابعاً ـ أن الرواية الثانية ذكرت الحديث عقب سَوْق البخاري قول الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وهذا

غموض سياق البخاري لحديث ابن أبي مليكة عقب قول الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾.

سياق يشعر بالنظر إلى الطريقة الحديثيّة بما يسمّى بالتفسير بالمأثور أن الحديث ذُكر تفسيراً للآية المذكور عقبها، مبيِّناً لسبب نزولها.

وهذا بعيد جداً، بل يكاد يكون باطلاً، إذ لا تناسب مطلقاً بين آية المناداة من وراء الحجرات والحديث المذكور، لأنَّ أحداً قطُّ لم يقل أن الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا هما المنادِيَيْنْ رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، ولا كانا فيمن نادوه كذلك.

وإجماع المفسِّرين قائم على أن المنادين لرسول الله ﷺ من وراء حجراته، هم أجلاف أعراب بني تميم الذين لم يكونوا قد أسلموا - كما ذكره ابن حجر في الفتح عن الطبري راوياً له عن مجاهد، فقال: والذي يختص بهم - أي بالجفاة من بني تميم - قوله: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾.

وما كان يليق أن يوضع هذا السياق الموهم لعظيمة العظائم في إطار قصة الشيخين في هذا الوضع الشائك، ولذلك قال ابن عطية - وهو أحد أئمة المفسرين -: الصحيح أن سبب نزول هذه الآية - أي آية ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾ - كلام جفاة الأعراب، فأولى وأوجب أن تكون آية ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ لا صلة لها من قريب أو بعيد بقصة خلاف الشيخين، بل هي من تتمة ما عيب على أجلاف تميم من سوء الأدب، والجهل بمقام توقير وتعظيم رسول الله ﷺ.

استشكال ابن حجر لا إشكال فيه.

والذي استشكله ابن حجر في هذا الموضع لا إشكال فيه، لأنه لفّق الروايتين، فجعل الآيات من أول السورة إلى آخر قوله تعالى: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾، كما هو في رواية ان جريح نازلة في قصة الشيخين، وقد استبعدنا ذلك وهو جدير بالاستبعاد وعدم القبول، وبيّنا أن الآية الأولى التي افتتحت بها السورة كانت من قبيل التوطئة والتمهيد لما يذكر بعدها.

ثم إن البخاري رحمه الله بوّب لآية المناداة من وراء الحجرات، وذكر عقبها حديث الحسن بن محمد، وهو الحديث المذكور فيه رواية ابن جريج،

وهذا الحديث لا صلة له مطلقاً بهذه الآية، ولا مناسبة بين الآية المذكورة وبين ما جاء فيه، كما بوّب البخاري رحمه الله لقول الله عز شأنه: ﴿ولو أنهم صبروا﴾ وهو من متعلّقات آية المناداة لاتفاق المفسرين على أن الضمائر في (أنهم) و(صبروا) و(لهم) و(إليهم) كلها راجعة للمنادِين رسول الله ﷺ من وراء حجراته، ولم يذكر البخاري حديثاً بعد آية المناداة من وراء الحجرات.

اعتراف ابن حجر بأن آيتي ﴿إن الذين ينادونك﴾ و ﴿ولو أنهم صبروا﴾ ذكرتا ترجمة بغير حديث.

قال ابن حجر في الفتح: هكذا في جميع الروايات، الترجمة بغير حديث، ثم قال ابن حجر: وقد أخرج الطبري والبغوي، وابن أبي عاصم في كتبهم في الصحابة من طريق موسى بن عقبة عن أبي سلمة، قال: حدثني الأقرع بن حابس التميمي أنه أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد اخرج إلينا، فنزلت الآية: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾.

ولا ندري ما الذي يقصده الحافظ ابن حجر من وراء التقاطه روايات لبعض الجمّاعين في كتب لم تُعرف بسلامتها من غير الصحيح، ولم يرفع لها البخاري رأسه، لأنها لا تتمشى مع منهجه في الثقة والصحة؟.

والموقف كان يقتضي من الحافظ ابن حجر أن يحقق هذه الروايات حتى يقف على حالها من الصحة أو غيرها، ثم يبينّ أن صحتها عند من رووها لا تُلزم البخاري بذكرها، لأنها ليست على مذهبه في الصحّة، ثم يبين حكمة صنيع البخاري في هذا الموقف المضطرب المتداخل.

التماس عذر للبخاري في تبويبه للآيات دون ذكر حديث يفسرها

ومن المعروف المتعالم أن حديث هؤلاء العلماء لم يكن جارياً على منهج الصحة البخاريّة في الجامع الصحيح، فلم يذكره الإمام البخاري عقب الآية ليكون سبباً لنزولها، ولعل البخاري وضع الترجمة ترقباً لعثوره على حديث يجري وفق مذهبه في صحة السند.

في هذا العرض لقصة وفد بني تميم نماذج تمثل منهج المتخصّصين في روايات أحاديث السيرة المطهرة وأحداثها، كما أن فيه لوناً من روايات المحدِّثين الذين أحلّهم التاريخ مقاعد الصدارة من علم الحديث وروايته وسما بهم إلى ذروة التحقيق والنقد للأسانيد.

وهذه النماذج تظهر طرائق السيريين في تدوين أحاديث السيرة المشرّفة كما أنها تظهر شيئاً من التسامح المتساهل في روايات أحاديث السيرة ووقائعها وقبول ما لا يقبله ثقاة المحدِّثين، وتظهر شيئاً من المساهلة عند أهل الصدارة من المحدّثين، وإلا فكيف سوّغ البخاري رحمه الله في فضله ودقته في نقد الرجال وهو قمة القمم في أهل الصدارة ونقد الأسانيد، وتحقيق القول في معرفة الرجال أن يروي عن ابن إسحاق، وهو صدر المتصدّرين لرواية أحاديث السيرة وقصصها، فقال في جامعه الصحيح: باب: قال ابن إسحاق: غزوة عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، بني العنبر من بني تميم، بعثه النبي ﷺ إليهم، وأصاب منهم ناساً وسبىٰ ومنهم سباء،

حكمة الإسهاب في هذا المقام هي قصد التحقيق الذي يفتح أعين عقول المفكرين.

ولم نر للبخاري رواية عن ابن إسحاق في جامعه الصحيح في كتبه وأبوابه الأخرى، والبخاري رحمه الله أعلم بالرجال وأعرف بنقدهم، وفي طليعتهم ابن إسحاق.

وإنما أطلنا النّفس في هذا العرض، وأكثرنا فيه من الوقفات مع الرواة والحفّاظ لأن أحاديث السيرة الشريفة وأحداثها هي اللبنة الأولى في بناء التاريخ الإسلامي، الذي يجب أن يكون صورة لما ينبغي أن يقرأ ويكتب على أساسه هذا التاريخ الذي شوّهته الفتن المتعجِّلة الجائحة الماحقة، واتخذته الدويلات القائمة على أنقاض هذه الفتن والمذاهب المستوردة من وراء السهوب والرواسي سلاحها، مما يجب أن ينقّى منه هذا التاريخ المظلوم دون تهيب لنقد الأحداث والأشخاص، لأن الإسلام وتاريخه الواقعي، ونظامه الاجتماعي، وشرائعه العقائدية والتعبّدية وأوضاعه السياسية والتربوية، وآدابه الخلقية، أجلُّ وأعظم وأرسخ وأثبت وأصلب، وأقوى من أن تهزه عاتيات العواصف المتربصة، لأنه دين الله العليم الحكيم، ونظامه الذي اختاره لتعيش عليه الحياة بمن فيها وما فيها، وتحيا في ظله قويّة متماسكة العناصر الأصيلة في بنائه ﴿ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فالذين تأخذهم الرِّعدة مرتجفين رعباً من نقد التراث الإسلامي لتنقيته مما دخل فيه من الغَلَس والدغل عليهم أن ينزعوا بشيء من الشجاعة النفسية ليستعيدوا قراءة هذا التراث على ضوء الحقائق القرآنية التي لم يمَسْسْها التأويل

المتعسِّف، ولم يسيطر عليها الاستسلام المخرف، ولم يحتضنها الجهل المحرف، وعليهم بعد تنقية هذا التراث من الأساطير والأباطيل أن يعيدوا تدوين هذا التاريخ على ضوء حياة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم الذي ربّاه على يديه تربية جعلت من أمته الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، واستخلفهم في الأرض ما كانوا قائمين بأوامر هذا الدين توحيداً خالصاً لله تعالى، وتعبداً له بما شرع، ونظاماً يقوم على دعائمه تطبيقه العملي في الأدب السلوكي، والأخلاق العملية.

فلما تفرقوا شيعاً وأحزاباً، واستعبدتهم رذائل الشهوات سلّط الله عليهم من لا يدفع عن نفسه، فملك زمام حياتهم حتى أنزلهم منازل الذلّ والهوان، ولم تستقم قناتهم حتى يعودوا كما كانوا غرباء بإسلامهم في الأرض، فتعود إليهم عزتهم واسترخاصهم للموت في سبيل الحفاظ على كرامتهم لتوهب لهم الحياة.

رواية تؤكد أن لبني تميم قَدْمات بعد قدمتهم الأولى التي استبعدنا إسلامهم فيها.

وحديث الرواية الثانية من روايتي البخاري فيه إشعار بأن رَكْب تميم المذكور قدومه في هذا الحديث كان غير الركب الأول الذي قدم لافتداء أسراهم وسباياهم وذراريهم الذين أخذهم عيينة بن حصن الفزاري، حينما بعثه النبي ﷺ على رأس سرية لتأديب بني تميم على ما كان منهم من مصادرة صدقات خزاعة أو بني العنبر أن تصل إلى رسول الله ﷺ لاستكثارهم لها.

وفي هذه القَدْمة الأولى كان ما كان من سوء الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ مخاطبة خلت من التوقير والتعظيم، وعرفان مكانته ﷺ من الله، إذ نادَوه من وراء حجراته في صياح أحمق ولفظ صاخب، فخرج ﷺ إليهم حين حانت صلاة الظهر، والناس ينتظرونه للصلاة، فوقف معهم وكلّموه في فداء أسراهم، فامتنّ عليهم بإطلاق نصف الأسرى بغير فداء، وفاداهم بالنصف الآخر ليتألف قلوبهم. ولكن أجلاف وفد تميم أبوا أن يقابلوا هذه المكرمة العظيمة إلا باللّجاج فيما زيّن لهم الشيطان ليلبسهم جلابيب الخزي والخذلان، فطلبوا مفاخرة رسول الله ﷺ، فنهنهم عن غرورهم فلم يزدجروا وأصروا واستكبروا استكباراً، فلما رأى منهم التصميم على ما طلبوه أجابهم

متلطفا بهم، وأذن لخطيبهم وشاعرهم، فقالوا ما ألقاه دنس الوثنية الجاهلية على ألسنتهم، ثم أمر ﷺ خطيبه ثابت بن قيس الأنصاري أن يرد على خطيبهم وأمر شاعره حسان بن ثابت أن يجيب شاعرهم، فألقماهم الحجر، واستحوذ عليهم الذلّ والهوان، وتسلّلوا إلى قومهم لواذاً، وعلموا أنهم لا طاقة لهم برسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، فكان ذلك أول ما هُديت تميم إلى أن تعرف الحق لله، وأن الإسلام هو دين الله الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فترحّل منهم وفد آخر لمبايعة رسول الله ﷺ والدخول في الإسلام على يديه وهدايته.

رواية لا تنافي الإسلام ولكنها تصور ما بقي من جفوة البداوة في بني تميم ولعلّها هي مراد ابن إسحاق.

وهذه هي القدمة الثانية لركب من تميم، قدموا فيها ليسلموا، وكانت لا تزال الجلافة تسيطر على بعضهم، والجفاء الجاهلي يفرض سلطانه على تصرفاتهم، فلم يكد يراهم رسول الله ﷺ حتى بادرهم بتلطفه ليؤنس مجالستهم، فقال لهم ما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما عند البخاري من طريق صفوان بن محرز المازني، قال عمران: إن نفراً من بني تميم أتوا النبي ﷺ، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: يا رسول الله، بشرتنا فأعطِنا، فرؤي ذلك في وجهه، وفي رواية أخرى عن عمران ابن حصين عند البخاري أيضاً من طريق صفوان بن مُحْرز مع تخالف في السند، قال عمران رضي الله عنه: جاء نفر من بني تميم إلى النبي ﷺ، فقال: «يا بني تميم، أبشروا» قالوا: بشّرتنا فأعطنا، فتغيّر وجهه، وهذه الجملة مبيّنة لما جاء في الحديث الأول من التعبير بقوله: فرؤي ذلك في وجهه ﷺ.

ولما رأى الشيخان رضي الله عنهما ما عند بني تميم من العنجهية، وإيثار الدنيا، وكراهية رسول الله ﷺ لذلك منهم، وظهور آثار هذه الكراهية على وجهه ﷺ أشارا على رسول الله ﷺ بتأمير أحد أشرافهم عليهم ليأخذهم بأدب الإسلام، وأدب مخاطبة رسول الله ﷺ، فأشار الصدّيق على رسول الله ﷺ برجل، وأشار عمر برجل آخر فتماريا وارتفعت أصواتهما، فنزلت آية النهي عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ، فانتهيا وبالغا في الانتهاء حتى ما كانا يكلمانه ﷺ إلا كأخي السِّرار، فمدحهما الله مدحاً تقطّع دونه رقاب الأعلَيْنَ من المؤمنين، فقال تعالى: ﴿إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم﴾.

فحديثا عمران بن حصين احتمالها قوي في جانب بَدْء إسلام وفد تميم في هذه القَدْمة الثانية بدليل قولهم: بشرتنا يا رسول الله فأعطنا، لأنّ هذا النداء التنبيهي في قولهم: بشّرتنا يا رسول الله دليل ظاهري على إيمانهم برسالته ﷺ، وقولهم: فأعطِنا تعبير يمثّل ما انزوى في حنايا أنفسهم من بقايا الجفاء والحرص على طلب الدنيا، فإذا انضم إلى هذا تعجّل الشيخين رضي الله عنهما بمشورتهما في تأمير أحد أشرافهم عليهم ليملك في يديه زمام توجيههم وإرشادهم ليتفقّهوا في شرائع الإسلام وآدابه مع الأفراد والجماعات عامة، ومع رسول الله ﷺ خاصة لما أقامه عليه من المكانة الخاصّة به في التوقير والتعظيم.

ولعلّ الإسلام الذي قصده ابن إسحق في قوله: فلما فرغوا أسلموا، وجوّزهم النبي ﷺ فأحسن جوائزهم ـ هو ما كان في قَدْمتهم الثانية ويراد من قوله: فلما فرغوا فراغهم بانتهاء أمرهم إلى الإسلام ومبايعة رسول الله ﷺ، للذي سمعوه ورأوه من محاسن شِيَمه، ومكارم أخلاقه ومعالي شمائله معهم ومع إخوانهم الذين سبقوهم بالقَدْمة الأولى التي كان فيها ما كان؛ مما فصّلناه فيما سبق تفصيلاً لا يبقى معه شيء من التطلّع إلى شيء.

وفد عبد القيس

حفاوة النبي ﷺ بقدومهم وإكرامهم

ثناؤه ﷺ عليهم وترحيبه بقدومهم

تحقيق الاختلاف في توقيت وفادة وفد عبد القيس

بيان سبب وفادة وفد عبد القيس

روايات أحاديثهم من الصحيحين وغيرهما

الأحداث والوقائع

معالم منهجية في هذه الأحداث تمثِّل نماذج في تربية المجتمع المسلم

استقدام النبي ﷺ وفد عبد القيس.

ذكر محمد بن سعد في طبقاته قال: أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي - يقصد شيخه الواقدي - بسنده عن عروة بن الزبير وبما حدثه عبد الحميد ابن جعفر عن أبيه قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم، فقدم عليه عشرون رجلاً رأسهم: عبد الله ابن عوف الأشج وفيهم الجارود، ومنقذ بن حبان، وهو ابن أخت الأشج وكان قدومهم عام الفتح، فلما وصلوا إلى النبي ﷺ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، هؤلاء وفد عبد القيس، فقال ﷺ: «مرحباً بهم، نعم القوم عبد القيس».

ثناء النبي ﷺ على عبد القيس وترحيبه بوفدهم ورئيسهم الأشج.

ثم ذكر ابن سعد أن النبي ﷺ نظر إلى الأفق صبيحة ليلة قدوم الوفد وقال: «ليأتينَّ ركب من المشركين، لم يُكرهوا على الإسلام، قد أنضوا الركاب، وأفنوا الزاد، يصاحبهم علامة، اللهم اغفر لعبد القيس، هم خير أهل المشرق».

ولما دخلوا على رسول الله ﷺ وسلّموا عليه قال لهم: «أيكم عبدالله

الأشج»؟ قال الأشج: أنا يا رسول الله ـ وكان الأشج رجلاً دميًا ـ فنظر إليه ﷺ وقال: «إنه لا يُستقى في مسوك الرجال ـ جمع مسك، وهو الجلد ـ إنما يُحتاج من الرجل إلى أصغريه: لسانه وقلبه» ثم قال ﷺ للأشج: «فيك خصلتان يحبُّهما الله» وفي رواية «يحبهما الله ورسوله» فقال الأشج: وما هما؟ قال ﷺ: «الحلم والأناة» قال الأشج: أشيء حدث؟ أم جُبِلْتُ عليهما؟ قال ﷺ: «بل جُبلت عليه».

إسلام الجارود وإخلاص يقينه.

وكان في الوفد الجارود وكان نصرانياً فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم فحسن إسلامه، وقد كان له موقف في الردّة يدل على ثبات قلبه على الإسلام.

وكان عبدالله بن الأشج معنياً بمساءلة رسول الله ﷺ عن الفقه والقرآن، ومن ثَمّ فضّله رسول الله ﷺ على سائر الوفد في جائزته.

تعليق وتوضيح.

والمتأمل في كلام ابن سعد يرى أن النبي ﷺ أعلن عن ابتهاجه وسروره بقدوم وفد عبد القيس بمدحه لهم وترحيبه بهم، وذكر ﷺ أن بُشّر بقدومهم عليه بوحي من الله تعالى، فبشّر أصحابه بما أخبر به، ثم ذكر لهؤلاء القادمين نعوتاً من الفضائل تميزوا بها عن سائر الوفود، وهي نعوت تدور على محور الإخلاص في إيمانهم وإسلامهم، وعدم إرادة الدنيا والاغترار بحطامها وزخارفها، وأنهم تحمّلوا في سبيل هذا الإخلاص أشدَّ المشقات والمتاعب، فقد جدّوا المسير إلى رسول الله ﷺ حتى أهزلوا ركائبهم وأفنَوا زادهم، ليقطعوا شاسع المسافات ووعثاء البوادي والجبال والشِّعاب والأودية شوقاً إلى رسول الله ﷺ، ليسلموا على يديه، ويطالعوا إشراق نور النبوّة في وجهه الشريف.

خصائص الرجولية التي امتاز بها الأشج رأس وفد عبد القيس.

ثم خَصَّ رسول الله ﷺ بأطيب الذكر، وأحمد الثناء رئيسهم عبدالله ابن الأشج، وسمّاه صاحبهم ليشعره ويشعرهم على سمع المجتمع المسلم بأن المسلمين كيفما كانوا ما دام الإيمان برسالتهم الخالدة يعمر قلوبهم أخوة متصاحبين، ثم ذكر ﷺ أن ما تميّز به هذا الصاحب الحكيم من الفضائل الإنسانية لا يرجع إلى فراهة بدنه، وحسن سَمْتِه، وجمال منظره، فهو دميم

المنظر، غير سويِّ المظهر، وإنما كان له هذا الامتياز على سائر القوم بما حباه الله به من أخلاق حميدة ومكارم عقلية، جبله الله عليها، وفي طليعة ذلك كله (الحلم والأناة) وإلى هاتين الخصلتين يرجع جِماع حكمته ومكارمه.

ولعل سيدنا رسول الله ﷺ أراد بهذا الإخبار لفت نظر أصحابه الأكرمين أن يكون نظرهم إلى الرجال في تفاضلهم هو السموُّ الخلقي والفكري، لأن الرجال لا يرادون في الحياة الجادّة لضخامة أبدانهم، وطول أجسامهم ليتخذ من جلودهم أسقية وسيعة عظيمة، وإنما يرادون لِلسان ناطق بالحكمة، وقلب مفعم بالإيمان والرحمة.

وهذه النظرة للرجال من أعظم معالم منهج رسالة الإسلام، لأن الرجال يعيشون على الأرض لإقامة موازين العدل بالحكمة النافذة، والموعظة المؤثرة، والجدل بمنطق الحق، ومجاهدة الباطل العتيد بالسيف وسائر وسائل الحرب المطهِّرة أو المؤدِّبة، ولا يكون ذلك إلا بلسان منطيق بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل المتناصف، ومن وراء ذلك قلب يمدُّ هذا اللسان بجرأة تحب الموت في سبيل نصرة الحق، وشجاعة لا تتهور، ولكنها قوة أثبت من رسوخ الأطواد، لا تكره الموت ولا ترمي بنفسها بين أحضانه في رعونة المراءاة والتسميع.

تحقيق الاختلاف في توقيت وفادة وفد عبد القيس

تحقيق الخلاف بين ابن سعد وابن حجر في توقيت وفادة عبد القيس.

وقول ابن سعد في روايته: وكان قدومهم عام الفتح يفيد أن لهم قَدْمة واحدة، وأنها كانت سنة ثمان من الهجرة، وهي سنة الفتح، ولكن الحافظ ابن حجر لم يرتض هذا الرأي، وذهب في كلام مدلَّل بروايات لا تنزل عن مرتبة الصحّة أو الحسن، فقال في الفتح: والذي تبيّن لنا أنه كان لعبد القيس وفادتان:

إحداهما قبل الفتح، ولهذا قالوا للنبي ﷺ: بيننا وبينك كفّار مضر، وكان ذلك قديماً إما في سنة خمس أو قبلها، وكانت قريتهم في البحرين أول قرية أقيمت فيها الجمعة بعد المدينة، وكان عدد الوفد الأول ثلاثة عشر رجلاً.

وفيها سألوا النبي ﷺ عن الإيمان، وعن الأشربة، وكان فيهم الأشج، وقال له النبي ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحِلْم والأناة».

ويلاحظ على كلام ابن حجر أنه جزم في صدر كلامه بأن القَدْمة الأولى لوفد عبد القيس كانت قبل الفتح دون تردد، ثم قال بعد ذلك: وكان ذلك قديماً إما في سنة خمس أو قبلها، وقد عرفنا في كلام ابن سعد أن وفادتهم كانت في عام الفتح، والفتح كان في سنة ثمان من الهجرة، وهي فيما يظهر من كلام ابن سعد وفادة واحدة.

وقول الحافظ: وكانت قريتهم أول قرية أقيمت فيها الجمعة بعد المدينة يشعر أن إسلامهم كان قديماً لأن الجمعة أقيمت في المدينة في السنة الأولى للهجرة إثر انتهاء بناء المسجد النبوي، كما يؤيد ذلك قولهم للنبي ﷺ؛ بيننا وبينك كفّار مضر.

وقول ابن حجر: وفيها ـ أي في هذه القَدْمة الأولى لوفد عبد القيس التي قال عنها ابن حجر نفسه أنها كانت قبل الفتح ـ سألوا عن الإيمان وعن الأشربة غير مسلّم على إطلاقه، لأن قبلية الفتح لم يعيّن زمنها، فهي لأن تكون قبلية بعيدة، وحينئذ يقال كيف يسألون عن الإيمان، وكانوا قد آمنوا وأقاموا الجمعة في قريتهم (جُواثا) قبل أي بلد سوى المدينة المنورة؟ ثم يقال: كيف سألوا عن الأشربة، ولم تحرّم محرماتها إلا بعد نزول المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن، بل قال بعض الأئمة من السلف: إنها آخر ما نزل من وحي القرآن؟.

ثم ذكر ابن حجر: أنه كان فيهم الأشج في هذه القَدْمة، وأن النبي ﷺ قال له: «إن فيك خصلتين يحبهما الله» وهذا مما لم تختلف فيه الروايات، فهو أحرى أن يكون في القدمة الثانية لهذا الوفد، وسيأتي ذكر ابن حجر لها. ومضى ابن حجر في كلامه فقال: وروى أبو داود من طريق أم أبان بنت الوازع بن الزارع، عن جدها زارع وكان في وفد عبد القيس، قال فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبِّل يد النبي ﷺ، وانتظر الأشج واسمه المنذر حتى لبس ثوبيه، فأتى النبيَّ ﷺ، فقال له ﷺ: «إن فيك خصلتين

يحبهما الله ورسوله: الحِلْم والأناة» وفي حديث هود بن عبدالله بن سعد العَصْري أنه سمع جدّه مزيدة العصري، قال: بينما النبي ﷺ يحدث أصحابه، إذ قال لهم: «سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق» وهذه الرواية محتملة أنها هي رواية أن النبي ﷺ نظر إلى الأفق صبيحة ليلة قدوم وفد عبد القيس فقال لأصحابه ما قدمناه في رواية ابن سعد دخلها الاختصار الموجز.

ثم تقول رواية مزيدة العَصْري: فقام عمر فتوجّه نحوهم، فلقي ثلاثة عشر راكباً فبشرهم بقول النبي ﷺ في مدحهم، ثم مشى معهم عمر رضي الله عنه حتى أتى النبي ﷺ، فرموا بأنفسهم عن ركائبهم فأخذوا يده فقبّلوها، وتأخر الأشج في الركائب حتى أناخها، وجمع متاعهم ثم جاء يمشي، فقال النبي ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله».

الوفادة الثانية كانت في سنة الوفود سنة تسع.

ثانيتهما - أي ثانية الوفادتين اللتين كانتا لوفد عبد القيس - كانت في سنة الوفود، وكان عددهم حينئذ أربعين رجلاً، وكان فيهم الجارود بن بشر ابن المعلّى، وكان نصرانياً، فأسلم فحسن إسلامه.

ثم قال ابن حجر: ويؤيد التعدّد - أي تعدد وفادة عبد القيس على النبي ﷺ - ما أخرجه ابن حبّان أن النبي ﷺ قال لهم: «ما لي أرى ألوانكم تغيرت؟» فإن فيه إشعاراً بأنه كان رآهم قبل التغيّر.

الاختلاف في اسم الأشج وترجيح ابن حجر أنه عبدالله ومناقشة رأيه.

وقد اختلفت أقوال العلماء في اسم الأشج، وأشهرها قول من قال: اسمه المنذر بن عائذ، وسمّاه النبي ﷺ الأشج لأثر كان في وجهه، قال النووي: هذا هو الصحيح المشهور في اسمه الذي قاله ابن عبد البر والأكثرون.

وقد ذكر هذا القسطلاني في المواهب نقلاً عن ابن حجر في الفتح، فقال: وكان عدد الوفد الأول ثلاثة عشر رجلاً، وقيل: أربعة عشر، قال الزرقاني: كما جزم به القرطبي والنووي، وهم المنذر بن عائذ، وهو الأشج، ومنقذ بن حبان، ومزيدة بن مالك، وعمرو بن مرحوم، والحارث بن شعيب، وعبيدة بن همام، والحارث بن جندب، وصحار بن عباس، وعقبة ابن

جروة، وقيس بن النعمان، والجهم بن قثم، وجويرية العبدي، ورستم العبدي، والزارع بن عامر، قال الزرقاني: انتهى ملخّصاً من الفتح.

فترجيح ابن حجر بإصراره على تسمية الأشج عبدالله ترجيح لغير المشهور الذي عليه الأكثرون من مترجمي الرجال، وفي طليعتهم الحافظ الثقة المتقن أبو عمرو بن عبد البر، وجزم السهيلي بأنه المنذر بن عائذ، واختار محمد بن سعد في طبقاته أن اسمه عبدالله بن عوف، ووراء ذلك أقوال.

وقول النووي: وسمّاه النبي ﷺ الأشج لأثر كان في وجهه مخالف لظاهر حديث الزارع بن عامر أحد رجال الوفد، وهو أعلم بصاحبهم، إذ جاء في حديثه عند البيهقي ما يشعر بأنه كان معروفاً في قومه بلقب الأشج، قال الزارع: فجعلنا نتبادر من رواحلنا نقبل يد رسول الله ورجله، وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه، وفي حديث عند أحمد: فأخرج الأشج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبلها.

وفي حديث مزيدة بن مالك عند البيهقي، وأبي يعلى والطبراني أن النبي ﷺ لمّا بشّر أصحابه بقدوم عبد القيس، وقال فيهم: «إنهم خير أهل المشرق» قام عمر رضي الله عنه، فتوجّه نحوهم، فلما لقيهم سألهم فقال من القوم؟ قالوا: من بني عبد القيس، قال عمر: فما أقدمكم هذه البلاد ألتجارة؟ قالوا: لا، قال عمر: أما إن النبي ﷺ قد ذكركم آنفاً فقال خيراً، ثم مشى معهم حتى أتى النبي ﷺ، فقال عمر للقوم: هذا صاحبكم الذي تريدون، فرموا بأنفسهم عن ركائبهم، فمنهم من مشى إليه، ومنهم من هرول، ومنهم من سعى، حتى أتوا النبي ﷺ فابتدروه، ولم يلبسوا إلا ثياب السّفر، فأخذوا يده فقبلوها، وتخلّف الأشج ـ وهو أصغر القوم ـ في الركاب حتى أناخها، وجمع متاع القوم وذلك بعين رسول الله ﷺ.

هذه الأحاديث كلها مشعرة بأن لقب الأشج كان معروفاً يلقب به المنذر بن عائذ، فقول من قال: إن النبي ﷺ سمّاه به لأثر كان في وجهه ينبغي تأويله ـ إذا صحّ ـ وأظهر ما يقال في تأويله أن سيدنا رسول الله ﷺ

كان يناديه بلقبه الأشج تمييزاً له بأثر ماديٍّ في بدنه بعد أن ميّزه بأثر معنوي خُلُقي في عقله وإشراق روحه، وأن فيه خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحِلْم والأناة، والتميز بالصفات المعنوية الخلقية التي ترجع إلى مكارم الأخلاق من أرفع الشمائل الروحية التي ينبتها صفاء المعدن النفسي، ويتعاهدها الإيمان بما يصونها ويُعلي الفضائل الإنسانية قدرها، وهذا ممّا خُص بمعرفته وقدره أهل النُّهَى من خاصة الحكماء والحلماء.

ومن ثَمّ أراد النبي ﷺ أن يشهِّره بهذا اللقب الذي يحمل في طواياه شيئاً يبعده عن مظاهر الجمال المادي والاستواء البدني، ليجمع له الفضل من أطرافه، ويصبح هذا اللقب هو الاسم الذي يعرف به ويغلب عليه ليردّ عنه حزّازة بعض النفوس التي تغرّها المظاهر، ليكون فيه للمجتمع المسلم درس منهجي تربوي، يحيا به هذا المجتمع ما بقي طموحاً إلى مكارم الأخلاق في حياته السلوكية.

بيان سبب وفادة وفد عبد القيس

ذكرت مؤلفات السيرة النبوية رواية في بيان سبب وفادة وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، ولكن هذه الرواية لُوّنت بألوان مختلفة في صياغتها، وأسلوبها وسياقها، إيجازاً وإطناباً، بالنقص والزيادة، استطراداً لما يتصل بها وإن لم يكن من صميمها.

رواية محمد بن سعد هي أصل الروايات في بيان سبب وفادة عبد القيس.

ولعلّ أقدم مؤلف ذكرها في إيجاز معبرّ هو محمد بن سعد في طبقاته، فقد جاء فيها صدر الحديث عن وفادة وفد عبد القيس، قال: أخبرني محمد ابن عمر الأسلمي ـ يقصد شيخه الواقدي ـ قال: حدثني قدامة بن موسى، عن عبد العزيز بن رمّانة، عن عروة بن الزبير، وقال ـ أي الواقدي ـ وحدثني عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قالا ـ أي عروة وجعفر ـ: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم، فقدم عليه عشرون رجلاً، رأسهم عبدالله بن عوف الأشج، وفيهم الجارود، ومنقذ بن حبّان، وهو ابن أخت الأشج وزوج ابنته، وكان قدومهم عام

الفتح، فلما تراءوا لمجلس رسول الله ﷺ قيل: يا رسول الله، هؤلاء وفد عبد القيس، قال ﷺ: «مرحباً بهم، نعم القوم عبد القيس».

هذه رواية ابن سعد، وهي الرواية المبيِّنة لسبب وفادة وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، وفيها التصريح بأن النبي ﷺ هو الذي كتب لأهل البحرين يستقدم وفد عبد القيس، وفيها أنه ﷺ عيّن في كتبه عدد رجال الوفد الذين استقدمهم إليه، وهذا التعيين خفيّ الحكمة، مستبعد أن يكون قد كان إلّا بتأويل أن يكون ﷺ كان على علم بعقلائهم وأهل الحكمة فيهم، كما يدل على ذلك سؤاله ﷺ منقذ بن حبان عن أشراف قومه، رجل، رجل، يسمِّيهم بأسمائهم، مما دعا منقذاً إلى الإسلام، قبل أن يصل إلى قومه، على ما سيأتي في كلام النووي رحمه الله تعالى.

وكان ﷺ يقصد بأهل البحرين الذين كتب إليهم كتابه قبيلة ربيعة، وهي إحدى قبيلتين عظيمتين يرجع إليهما النسب العدناني في الجزيرة العربية، وكانت ربيعة تقطن البحرين وما حولها حتى أطراف العراق ومشارف الشام، وما كان بقربها من مخاليف، وسهول، ووديان، وشعاب وجبال.

وكان يوازيها قبيلة مضر النزارية العدنانية، وكانت تتوطن الحجاز بتهائمه ونجوده وكُوَره، وقراه وبلاده، وكانت القبيلتان مضرب المثل في كثرة العدد والمنافسة المتنافرة المتغالبة، وإلى مضر تنتمي قريش جِذْم عبد مناف دَوْحة رسول الله ﷺ.

ولعله ﷺ قصد إلى أن يجمع تحت لواء الإسلام أعظم قبائل العرب، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ليكونوا عدة وقوة ماديّة وروحيّة لدعوته، وسنداً قوياً لنشر رسالته رسالة الهدى والخير في آفاق العالمين، بالحجة النيِّرة والبرهان المضيء، وليردُّوا وهم في ظلال الوحدة الإيمانية مع مجتمع الإسلام اعتداء المعتدين، ويطهِّروا مسارهم من عوائق المعوقِّين بالقوة القاهرة إن لم تنفع الحجّة الباهرة.

وعبد القيس التي قدم وفدها عليه ﷺ كانت من كبريات بطون قبيلة

ربيعة، وحاملي رايات شرفها قوة وعدداً وشجاعة وتعقلا، وينتهي نسب عبد القيس بعد أن أفضى إلى جديلة بن أسد بن نزار، وإليهم وقع كتاب رسول الله ﷺ بقدومهم عليه، لأن حامل الكتاب منقذ بن حبان كان أحد رجالهم العقلاء المتحلِّين بأدب الأخلاق وفضائل المعاشرة، ولعلّه كسب ذلك من مهنته التجارية التي كان يتنقَّل بها بين البلاد والمجتمعات، فيرى ويسمع، ويأخذ ويعطي، ويختار من الأخلاق ما يقرّبه إلى القلوب، ويفتح عقله إلى كل جديد من الأحداث والتفكير، وآية ذلك أنه لما مرّ عليه النبي ﷺ وهو قاعد على متجره نهض إليه، فحيّاه النبي ﷺ وسأله عن حاله وعن أشراف قومه، وسمّاهم بأسمائهم، فوقع الإسلام في قلب منقذ، فأسلم وقرأ من القرآن ما قدر له، وصلّى مع رسول الله ﷺ.

وقدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، يرأسهم المنذر بن عائذ، أو عبدالله بن عوف، وهو الملقَّب بالأشج لأثر شجّة كانت في وجهه، ففرح النبي ﷺ بقدومهم عليه، فمدحهم وأكرم نزلهم، وضيّفهم فأحسن ضيافتهم، وقرّبهم إليه، وأسمعهم القرآن، وفقّههم في الدين، ثم أجازهم فأعظم جوائزهم، وعادوا إلى قومهم دعاة إلى الله وهدايته، فكانوا من خير المسلمين.

هذا الكتاب الذي ذكره ابن سعد في طبقاته عن شيخه الواقدي في قصة موجزة لبيان سبب وفادة وفد عبد القيس هو الكتاب الذي جاء ذكره في عبارة الكرماني التي نقلها الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني.

رواية الكرماني في سبب وفادة عبد القيس مأخوذة عن رواية ابن سعد.

قال: وكان سبب وفادة عبد القيس على النبي ﷺ أن منقذ بن حبّان كان متجره إلى المدينة، فمرّ به ﷺ وهو قاعد فنهض إليه، فقال له رسول الله ﷺ: «كيف قومك؟» ثم سأله عن أشرافهم، رجل رجل، بأسمائهم، فأسلم منقذ، وتعلم الفاتحة وسورة اقرأ، وكتب ﷺ لجماعة عبد القيس كتاباً أرسله مع منقذ، فلما وصل منقذ إلى قومه ومعه كتاب النبي ﷺ كتم الكتاب أياماً - لعله لينظر حال قومه في تقبّلهم لما جاءهم به من عند رسول الله ﷺ - وكان منقذ يصلي في بيته وتراه زوجه وهو يتطهّر، ويركع ويسجد، فقالت لأبيها

المنذر بن عائذ، وهو الأشج: إني أنكرت فعل بعلي منذ قدم من يثرب، إنه يغسل أطرافه، ثم يستقبل الكعبة فيحني ظهره مرة، ويضع جبينه على الأرض أخرى.

فالتقى الأشج بمنقذ، فتجاريا الحديث، فوقع الإسلام في قلب الأشج، ثم أخذ من منقذ كتاب رسول الله ﷺ، وذهب به إلى قومه، فقرأه عليهم، فأسلموا، وأجمعوا المسير إلى رسول الله ﷺ واعتلوا ركائبهم، وجدّوا في سيرهم حتى أنضوا ركائبهم وأهزلوها من شدة ما عنّفوا بها، وأفنوا زادهم، وطوَوا الأرض تحت أرقال ركائبهم، وقطعوا سهولها، واقتحموا جبالها، يبتغون الإسلام بين يديه ﷺ، استجابة لدعوته لهم في كتابه الذي أرسله إليهم مع أحدهم منقذ بن حبان رضي الله عنه.

وكذلك رواية النووي مرجعها إلى رواية محمد بن سعد.

وهذا الكتاب الكريم الذي كان إنسان عين قصة قدوم وفد عبد القيس على النبي ﷺ وهو عين الكتاب الذي جاء ذكره مع شرح مسلم للنووي مبيِّناً سبب وفادة وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ في قصة أشبه بالقصة التي ساقها الكرماني ونقلها عنه الزرقاني، ولعلها هي هي، لا يفصلها عنها فواصل جوهرية في الموضوع، وإنما دخلت عليها زيادات استطرادية لا تخرجها عن مقصودها.

قال النووي وهو يشرح حديث ابن عباس من طريق أبي جمرة: قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، وكان سبب قدومهم أن منقذ بن حبان أحد بني غنم بن وديعة ـ بطن من عبد القيس ـ كان متجره إلى يثرب في الجاهلية، فشخص إلى يثرب بملاحف وتمر من هَجَر بعد هجرة النبي ﷺ، فبينا منقذ بن حبان قاعد إذ مرّ به النبي ﷺ، فنهض منقذ إليه، فقال النبي ﷺ: «أمنقذ بن حبان؟ كيف جميع هيئتك وقومك» ثم سأله عن أشرافهم، رجل، رجل، يسمِّيهم بأسمائهم، فأسلم منقذ، وتعلّم الفاتحة، واقرأ باسم ربك.

ثم رحل منقذ قِبَل هَجَر، فكتب النبي ﷺ معه إلى جماعة عبد القيس كتاباً، فذهب وكتمه أياماً، ثم اطلعت عليه امرأته، وهي بنت المنذر ابن

عائذ، والمنذر هو الأشج، سمّاه رسول الله ﷺ به لأثر كان في وجهه، وكان منقذ رضي الله عنه يصلي ويقرأ، فنكرت امرأته ذلك، فذكرته لأبيها المنذر، فقال: أنكرت بعلي منذ قدم من يثرب، إنه يغسل أطرافه، ويستقبل الجهة ـ تعني القبلة ـ فيحني ظهره مرة، ويضع جبينه مرة، ذلك ديدنه منذ قدم.

فتلاقى الأشج ومنقذ، فتجاريا ذلك ـ أي أمر منقذ في طهارته وصلاته ـ فوقع الإسلام في قلب الأشج، ثم سار إلى قومه: عَصْر ومحارب بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه عليهم فوقع الإسلام في قلوبهم، وأجمعوا على السير إلى رسول الله ﷺ، وأعدُّوا لذلك عدّتهم، وعلَوا ظهور ركائبهم، وساروا حتى إذا دنَوا من المدينة قال رسول الله ﷺ لجلسائه من أصحابه: «أتاكم وفد عبد القيس، خير أهل المشرق، وفيهم الأشج العصري، غير ناكثين ولا مبدِّلين، ولا مرتابين، إذ لم يسلم إلا قوم وتروا».

ما جاء في وفد عبد القيس
من أحاديث وأحداث

أصح أحاديث الوفود أحاديث وفد عبدالقيس.

أحاديث وفادة أشراف عبد القيس على النبي ﷺ، قادمين من البحرين، على بعد الشُّقة ومخاطر الطريق، ووعثاء السفر، وقلة الزاد، وافتقاد الزاد، وافتقاد الحملان ـ أصحُّ ما روي في أحاديث الوفود، سنداً ومتناً، على اختلاف الروايات في الأسلوب والعبارة، ونسج السياق، وتفاوت في المعاني والحقائق وذكر الأحكام الشرعية والنظم الاجتماعية، لا تكثر حتى تخلّ بالسياق، ولا تقلّ حتى تفقد مزية الوحدة في الاتساق وائتلاف الأسلوب وتقارب التعبير واكتمال الأداء للمعاني والحقائق.

وقد خرّج أحاديث هذا الوفد المبارك الميمون الشيخان: البخاري ومسلم، وأبو داود، والطيالسي، والإمام أحمد، وسائر الأجلّة الثقاة في مؤلفاتهم، أخرجها البخاري في جامعه الصحيح في مواضع متعددة، تناهز العشرة، وأخرجها مسلم في موضعين: الإيمان والأشربة، وهي مما أجمع عليها أهل السير النبوية.

ونحن نسوق من هذه الروايات ما يبلّغ المقصد. أخرج البخاري في

الجامع الصحيح حديثهم تحت عنوان: باب وفد عبد القيس، بأسانيد مختلفة، تنتهي إلى ابن عباس رضي الله عنهما، من طريق أبي جَمْرة قال: حدثني إسحاق، أخبرنا أبو عامر العقدي، حدثنا قرّة، عن أبي جَمْرة، قلتُ لابن عباس: إن لي جـرّة تُنبذ لي فيها نبيذاً، فأشربه حلواً في جر، إن أكثرت منه فجالست القوم، فأطلت الجلوس خشيت أن أفتضح، فقال ابن عباس: قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، فقال لهم: «مرحبا بالقوم غير خزايا ولا الندامى» فقالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبينك المشركين من مُضَر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر الحرم، حَدِّثنا بجُمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو به من وراءنا.

اختيارنا روايات أحاديث وفد عبد القيس من الصحيح.

قال ﷺ: «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، الإيمان بالله، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تُعطوا من المغانم الخمس. وأنهاكم عن أربع، ما انتبذ في الدبّاء، والنقير، والحنتم، والمزفّت» قال ابن كثير: هكذا رواه مسلم من حديث قرّة بـن خالد عن أبي جَمْرة، وله طرق في الصحيحين عن أبي جَمْرة، ثم ذكر عن الطيالسي بتحديث شعبة عن أبي جمرة.

وأخرج البخاري أيضاً تحت العنوان المتقدِّم حديث هذا الوفد بسند ينتهي إلى أبي جمرة، فقال: حدثني سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عـن أبي جَمْـرة؛ سمعـت ابـن عبـاس يقـول: قـدم وفـد عبـد القيـس على النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنّا هذا الحيّ من ربيعة، وقد حالت بيننا وبينك كفّار مُضَر، فلسنا نخلص إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأشياء نأخذ بها، وندعو إليها من وراءنا، قال: آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، الإيمان بالله» وعقد واحدة «وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا لله خمس ما غنمتم. وأنهاكم عن الدبّاء، والنقير، والحنتم، والمزفّت» ويلاحظ أن هذه الرواية لم تذكر الصوم، مخالفة في ذلك الرواية الأولى.

ثم روى البخاري حديثاً أوجز قصة وفد عبد القيس، وأطال في متعلقاتها فقال رحمه الله: حدثني يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وَهْب،

أخبرني عمرو وقال بكر بن مضر، عن عمرو بن الحارث، عن بكير: أن كريباً مولى ابن عباس حدثه أن ابن عبد الرحمن بن أزهر، والمِسْورَ بن مَخرمة، أرسلوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالوا: اقرأ عليها السلام منا جميعاً، وسَلْها عن الركعتين بعد العصر فإنّا أُخبرنا أنك تصلّينَهما، وقد بلغنا أن النبي ﷺ نهى عنهما، قال ابن عباس: وكنت أضرب مع عمر الناس عنهما.

قال كريب: فدخلتُ عليها، وبلّغتُها ما أرسلوني، فقالت: سَلْ أم سلمة، فأخبرتهم، فردّوني إلى أم سلمة رضي الله عنها بمثل ما أرسلوني إلى عائشة، فقالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنها، وإنه صلّى العصر ثم دخل عليّ وعندي نسوة من بني حَرَام من الأنصار، فصلاّهما، فأرسلت إليه الخادم فقلت: قومي إلى جنبه، فقولي: تقول أم سلمة: يا رسول الله ألم أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين؟ فإن أشار بيده، فاستأخري، ففعلت الجارية، فأشار بيده، فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: «يا بنت أبي أمية، سألت عن الركعتين بعد العصر؟ إنه أتاني أناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان».

نظرات تأملية فيما اشتمل عليه هذا الحديث من معالم منهجية في التربية السلوكية.

وإنما ذكرنا هذه الرواية، وليس فيها من قصة وفد عبد القيس إلاّ أنهم جاؤوه ﷺ بإسلام قومهم فشغلوه صلوات الله وسلامه عليه عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان اللتان رأيتني أصليهما ـ لما اشتملت عليه من نماذج وحكم منهجية، وأحكام شرعية تربوية عالية، وشمائل خلقية، وحسن التأتي في السؤال وتلقّي الجواب، وشدة الحرص على التعلّم والتعليم في مدرسة النبوّة وتنزلات الهداية، وأخذ خدم هذا البيت الأكرم بأرفع الأدب النفسي في التخاطب، والسفارة بين الأعلَيْن بالحفاظ على أدب الأسلوب في إيجاز الكلمة المعبِّرة، وحين تفهّم الخدم لما يقال لهنّ من أدب الخطاب، وملاحظة جو المخاطبة، وما عسى أن يكون في ظلاله من شغل يمنع من سرعة الإجابة، مع لطف الحركة، ولين الأسلوب، وسماحة اللفظ، وجمال القالب الذي انصبت فيه هذه المعاني السامية، والحقائق العالية، ممّا يجعل من الخادم في أول بيت أسس ليضع من نماذج الحياة المسلمة الفاضلة آية من

كتاب الإنسانية الرفيعة التي افتقد المسلمون معالمها في بيوتهم بعد غيبة شمس الهداية المشرقة بنور القرآن الحكيم، ووراء سحائب الحضارات الماديّة المسعورة التي تتخذ من جنون الغرائز الشهوية سلطاناً يحكمها بأسياط الإذلال والمهانة، وقد كان الخدم يوم كان الإسلام قيِّماً على حياة المسلمين السلوكية أبناء البيوت وبناتها، أخوة رجالها وأخوات نسائها.

ونحن ننبّه على ما جاء في هذا الحديث الشريف من حقائق الأدب النبيل عَرَضاً في قصة لم يكن المقصود منها أن ترسم منهجاً تربوياً سلوكياً لنوع من الحياة في أشرف بيت لأشرف أسرة على الأرض، يجمع في لحظة حركات هادئة وكلمات حكيمة معدودة أشعة شمس الهداية في مشكاة الحقائق الإسلامية، التي تنزلت من سماء التأسِّي لتكون منار هداية للسالكين من أجيال الإسلام والمسلمين.

النقطة التي بدأ منها خط هذه المعالم التربوية.

وقد بدأت هذه الآداب النفسية العالية من الحبر العليم ترجمان القرآن، ومذْرَهُ الإسلام عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وكان معه فيها رجلان من أقرانه سِناً، ونبلاً، هما عبد الرحمن بن أزهر، ومِسْور بن مَخْرمة الزهريان، وثلاثتهم عنوان زهرة شباب أصحاب سيد المرسلين محمد خاتم النبيين ﷺ.

وجرى الحديث بينهم في قضايا العلم الإسلامي ومشكلاته، وكذلك كانت مجالس أهل العلم من المؤمنين يومئذ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وهدىً إلى هداهم، ومعرفة إلى معارفهم، ويعرض حديثهم لقضية من قضايا تعبّدات الشريعة، سمعوا فيها من النبي ﷺ، أو ممّن سمع منه ﷺ من ذوي الأسنان العالية في مشرق الإسلام حُكْم الشريعة في شأن القضية التي جرى حديثهم فيها، فاعتصموا به ودرجوا عليه، وإذا بهم يبلغهم أن النبي ﷺ - وهو المشرِّع الذي لا تؤخذ أحكام الشريعة إلا عن طريقه، وكل حكم شرعي أخذ عن غيره فهو ردّ على من أخذ عنه أو عمل به - عمل على غير ما كان عندهم من علم سمعوه ووقر في قلوبهم، وتكيّفت به عقولهم، وجرى عليه تعبدهم، ولكنهم أرادوا أن يكشفوا الغطاء عما عندهم من علم في توافقه على ما بلغهم عن رسول الله ﷺ فلعلّ الحكم الأول نسخ ولم يبلغهم

النسخ، أو لعل ما بلغهم عن النبي ﷺ أولاً وآخراً لم تصل إليهم تفاصيله، وقد يكون في هذه التفاصيل ما يحلُّ عقدة إشكال القضية عندهم، فلم يسعهم السكوت وهم ورثة الدعوة إلى الله، وحاملو لواء نشر الرسالة إلا بعد اليقين، وهو أقرب إليهم من ترداد أنفاسهم.

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي الخط الأول في إطار معالم هذه التربية المنهجية في رسالة الإسلام

وهاهي تي عالمة الإسلام، وربيبة الوحي، وخزانة أسرار النبوة، المخصوصة باطِّلاعها على ما لم يمكن لغيرها أن يطَّلع عليه من شرائع هذا الدين القيم، وهدايته لمكانها من متنزل الوحي ﷺ هي صاحبة الخصائص الربّانية، السيدة الجليلة النبيلة، الصدّيقة بنت الصدِّيق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ على قيد خطوات من مجلسهم الشريف المشرّف، ليسألوها عما أشكل عليهم، حتى يأتيهم من عندها برد اليقين.

فأرسلوا إليها الأريب الأديب مولى ابن عباس، وقالوا له: اقرأ عليها السلام منا جميعاً لأنهم متساوون في منزلة بنوتهم لها، ومتكافئون في منزلة الأمومة منها، فهي أمهم جميعاً، وأم كل مؤمن منزلة وتشريفاً، والمؤمنون جميعاً أبناؤها تعزيزاً وتكريماً وتشرفاً وتوقيراً.

كريب معلم من معالم إنسانية الإسلام في تربية الموالي.

وصدع كريب بأمر سيده وصاحبيه، وذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبلّغ ما أرسل به، وكانت عائشة رضي الله عنها تعلم أن عند أم المؤمنين أم سلمة ما يؤكد ما عندها من العلم فيما سئلت عنه، فأرادت أن تجمع إلى علمها علم صاحبتها أم سلمة، وكان النبي ﷺ عندها في بيتها يصلِّي بعد العصر، فقالت لرسول علماء شباب الصحابة رضي الله عنهم: سَلْ أم سلمة.

أم سلمة رضي الله عنها كانت في حكمتها وعبقرية تفكيرها هي خديجة الثانية.

رجع كريب إلى مولاه وصاحبيه فبلَّغهم ما قالت عائشة، فلم يسكتوا، قال كريب: فردُّوني إلى أم سلمة بمثل ما أرسلوني إلى عائشة، فذهب كريب إلى أم سلمة، وبلَّغها ما أرسل به، فأجابت بما كان عندها من علم، وكان النبي ﷺ ساعتئذ في بيتها يصلِّي بعد العصر، لكنها لم تكن تعلم على وجه اليقين أن ما كان يصليه النبي ﷺ في بيتها هما ركعتي بعديّة العصر، أو صلاة أخرى، والفتوى لا تَحلّ إلا بيقين من العلم، وقد أرادت أم سلمة رضي الله

عنها هذا اليقين، فقالت ـ وكريب يسمع ـ: سمعت النبي ﷺ ينهى عنهما ـ أي عن الركعتين بعد العصر، وأنه صلى العصر ثم دخل عليّ وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فصلّاهما ـ أي فصلًى، فظننتُ أنه ﷺ يصلي ركعتي بعد العصر اللتين سمعته ينهى عنهما ـ وأم سلمة رضي الله عنها هي خديجة الثانية في حكمتها وعبقرية تفكيرها، وزكانة عقلها ـ فلم تتسوَّر محراب العلم، ولكنها تلبثتْ متأنية لتصل إلى اليقين وهو بين يديها، ورسول الله ﷺ عندها في بيتها، فأرسلت إليه رضي الله عنها خادمتها.

خيوط من رفيع الأدب يلتقطها القلم من معالم المنهج في بيت النبوة.

وهنا يقف القلم مذهولاً ليلتقط خيوطاً من رفيع الأدب في بيت النبوة تمثل نموذجاً من المنهج السلوكي فيما ينبغي أن تكون عليه بيوت المسلمين، سادة وخدماً من رفيع الأدب التربوي لتعرف الحياة منهج التربية المنزلية الذي جاءت به رسالة محمد ﷺ، حتى يكون ذلك المنهج صورة حية في إطار التربية الإسلامية التي تجعل من البيت المسلم المدرسة الأولى لتخريج أجيال الطفولية المسلمة منذ درجت في البيت بين أحضان هذه التربية، حتى تستقيم قناتها وهي تمشي في ركاب الزمن لتكون واقفة على أبواب الشبوبية الغضّة سوية الجسم والعقل والروح، لتصبح نماذج مؤمنة في المجتمع المسلم ساعية متحركة في فجاج الحياة المسلمة.

النبي ﷺ يصلي بعد العصر وهو في بيت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وهذه الصلاة هي إطار هذه القصة التي رسمت خيوطها في دائرته، وأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها مشغولة بكرائم من نسوة الأنصار من بني حَرَام كنّ يستضفنها، وقد أعظم الإسلام حق الضيافة في المؤانسة والملاطفة والإكرام، ومن أحق بأن يكون لذلك أعظم الأسوة من بيت النبوة، ولكن أم المؤمنين أم سلمة إذ جاءها السؤال وهي على حالها مع ضيفاتها رأت أن تسعف السائل بما لا ينقص من حق ضيفاتها ليرجع إلى من أرسله بالجواب الشافي، فأرسلت إلى النبي ﷺ ـ وهي لا تعلم إن كان قد أكمل صلاته وانصرف منها ـ الجارية بعد أن أعدّتها لهذه الرسالة العظيمة، فأقرأتها كتاب الحياة المنزلية في بيت النبوة آيات الأدب الرفيع في خطاب سيد الوجود الإنساني محمد ﷺ، فقالت لها: قومي إلى جنبه فقولي: تقول أم

سلمة: يا رسول الله ألم أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين؟ فأراك تصليهما؟ فإن أشار بيده فاستأخري، ففعلت الجارية، فأشار بيده فاستأخرت عنه.

درس من الأدب الرفيع تلقنه أم سلمة لجاريتها فتؤديه هذه الجارية أحسن أداء

وهنا يقف القلم مزهواً متعجباً، يستغرقه التأمل أمام هذا الأدب الرفيع وسمو التربية المنزلية التي لم تُعرف بما قامت عليه من تلطف وسماحة إلا في بيوت المسلمين على أنضر عهد في تاريخ الإنسانية.

أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها يرسل إليه ثلاثة من أعلياء شباب الصحابة رضي الله عنهم فضلاً وعلماً، يسألونها في حكم شرعي ردت عائشة رضي الله عنها الرأي فيه إليها، فقالت لرسول سائليها: سَلْ أم سلمة لما تعلم بما عندها من العلم في هذه القضية، وكان النبي ﷺ ساعتئذ في بيت أم سلمة يصلّي بعد العصر وعند أم سلمة ضيفاتها من كرائم نسوة الأنصار، وفضليات عقيلات بني حرام، فلم يدعها أدب الضيافة ومكارم الأخلاق أن تذهب بنفسها إلى النبي ﷺ، لتسأله عما سئلت عنه، فأرسلت إليه ﷺ الجارية بعد أن علمتها أدب مقامها منه ﷺ لمخاطبته وإسماعه رسالة سيدتها، فقالت لها: قومي إلى جنبه ـ أي بقدر ما يسمع كلامها، فلا يتكلف استفهامها، ولا تضطر إلى أن ترفع صوتها حتى يخرج عن سياج أدب الخطاب.

وهذا الأدب الرفيع في مخاطبة النبي ﷺ هو الأدب الذي أدّب به القرآن الحكيم الأمة كلّها في مخاطبته ﷺ بقوله عز شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾.

أدب الأسلوب ينبغي أن يتسق مع سمو المعاني.

ثم قالت أم سلمة رضي الله عنها للجارية: فقولي: ـ بعد أن تحسني مقامك إلى جنبه ليبلغ الحديث مبلغه: تقول أم سلمة يا رسول الله ـ وهنا موضع تأمل، ينم عن أرفع صور التأدّب والتأديب في لطف أسلوب المخاطبة الموسوطة، فإن أم سلمة لم تقل لجاريتها، تقول أم سلمة لك، لأن هذا الأسلوب لا يخلو عن ذروٍ من يبوسة الخطاب ونشفة في مخاطبة المتمازجين المتخالطين في الإحساس والشعور، وإنما قالت للجارية ما يرسم لها طريقة

إسماع رسول الله ﷺ ما تقصد إسماعه إليه، مع مراعاة الأدب في وداعة الروح، وخفض الصوت: تقول أم سلمة، كأنها لا توجه خطاباً إليه ﷺ بل كأنها لا توجه خطاباً إلى أحد، ولكنها تقول ليسمع منها، وهذا تصوير لنموذج من أدب الوحي الذي يتهامس به الملائكة المقرّبون في بيوت أمهات المؤمنين اللائي شرّفهن الله تعالى جميعاً، وأعزّهن وأعلى شأنهن بمكانهن من رسول الله ﷺ، فجعل بيوتهن متنزّلاً لرفع نماذج الأدب السلوكي المتحلّي به كل من استظل بأسقفها من السادة والخدم، حتى كانت البيوت الكريمة إطاراً تلمع في أكنافه أفضل الفضائل الإنسانية.

ثم قالت أم سلمة رضي الله عنها للجارية بعد أن تكون قد قامت بمراسم الأدب في قيامها إلى جانبه ﷺ طبقاً لما علمتها من ذلك: فإن أشار بيده إشارة يفهم منها أنه ﷺ ما يزال مشغولاً بصلاته فاستأخري، وهنا لمحة تعبيرية تصور أرفع منازل الأدب الأسلوبي في خطاب الأعلياء، إذ قطعت عن فعل الأمر في قولها (فاستأخري) صلته بمتعلق مّا، وهذا أشبه بما في قول أم سلمة: تقول أم سلمة، فكما لم تقل هناك: تقول لك، لم تقل هنا فاستأخري عنه، لأن ذلك لو كان قد قيل لكان إشعاراً للجارية بالتزيد في استئخارها والتباعد بموقفها، وهذا غير مقصود.

النبي ﷺ يفصل في قضية سؤال شباب علماء الصحابة.

وانصرف النبي ﷺ من صلاته، وكان قد سمع ما قالت أم سلمة، فقال ﷺ يخاطب زوجه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، ويرد على تساؤلها فيما سمعت منه من النهي، وفيما شهدته من فعله ﷺ وهو يصلّي في بيتها بعد العصر، ليوضح ما سمعت وما شهدت فيما سألت، معلناً لما يقول حتى تسمعه سماع تفقه وعلم، ويسمعه ضيفاتها الأنصاريات، لأن شرعة الأحكام الشرعية العامة هي العلانية والجهر حتى يبلّغ الشاهد الغائب، فربَّ مبلَّغ أفقه من سامع ـ «يا بنت أبي أمية، سألت عن الركعتين بعد العصر؟» وهذا القول محتمل في ظاهره لأن يريد منه ﷺ أن سؤالها كان عن الركعتين اللتين صلّاهما ﷺ في بيتها، لا بوصف كونهما سنة بعديّة العصر، ومحتمل لأن يريد ﷺ الركعتين بوصف كونهما هما الركعتين سنة بعد العصر، اللتين سمعته أم سلمة ينهى عنهما، وكان ابن عباس يضرب عليهما الناس مع

لا تعارض بين قول النبي ﷺ وفعله.

عمر، وقد أراد ﷺ أن يبين أن ما سمعته أم سلمة من النهي عن الركعتين بعد العصر باقٍ على حاله لم ينسخ، وأن الركعتين اللتين رأته يصلِّيهما في بيتها هما الركعتان اللتان بعد الظهر، فقد شغل بمهمٍّ من الإسلام عنهما، حتى صلَّى العصر ودخل بيته عند أم المؤمنين أم سلمة فصلاَّهما، فهما اللتان رأته يصلِّيهما، ولم يتعارض نهيه عن صلاة الركعتين بعد العصر وصلاته في بيت أم سلمة ركعتين بعد صلاة العصر، لأن هاتين كانتا بديلاً عنهما في وقتهما بعد الظهر، وكون النفل يُقضى أو لا يُقضى مبسوط في كتب الفقه واجتهادات أئمة الأمصار من الفقهاء، لكن النبي ﷺ كان عمله ديمة، وإذا عمل من أعمال الخير عملاً كان حريصاً على المحافظة عليه، فلا يتركه ما أمكنه فعله.

حياة شباب أعلام علماء الصحابة كانت تفتيحاً لأبواب الفكر والعلم.

وهكذا كان سؤال الثلاثة الأعلام من شباب الصحابة رضي الله عنهم باباً من أبواب العلم ونشر التشريع الإسلامي من الصحابة عن طريق ابن عباس وصاحبيه الزهريين، ثم عمَّ الأمة بالنشر العام، وكان ذلك من بركات وفد عبد القيس.

ولئن كنا أطنبنا في التعليق على هذا الحديث فلأن الموضوع الاستطرادي حقيق بما هو أكثر من ذلك، لأنَّ ما نبهنا عليه من الآداب السلوكية في التربية المنزلية أصلٌ من أصول هذا البحث الذي عقد له هذا الكتاب، لما فيه من لوامع ولوامح منهج رسالة الإسلام وتربيته المنزلية، مع أن الحديث الذي علّقنا عليه لم يكن من أمهات أحاديث وفادة وفد عبد القيس، ولكنه من أجمع جوامعها لألوان من التربية الإسلامية، وألوان من نماذج الأحداث التي جاء بها منهج الرسالة الخالدة، لتكون أسوة تتأسى بها الأجيال المتعاقبون من أبناء الإسلام.

قدوم وفد نصارى نجران

سبب وفادة وفدهم على النبي ﷺ
ورود قصتهم في القرآن والصحيحين وغيرهما

ما تضمنته هذه القصة من معالم منهج الرسالة في أحداثها ونماذجها التربوية

لمحات عن النصرانية في الجزيرة العربية.

لم يكن للديانة النصرانية في أرض العرب قبل بزوغ شمس الهداية الإسلامية حركة إيجابية حيوية باعتبارها ديانة إلهية الأصل، تتسامى بما في جذورها من مائية هذا الأصل السماوي من ميراث تتعالى به على الوثنية العربية المتهاوية في مهاوي أبطل الأباطيل.

ومن ثَمّ لم يكن للنصرانية بهذا الاعتبار ذكر في إطار الحياة العربية سوى ذكر خافت أشبه بهزاهز ذُبالة المصباح الذي أوشك زيته على النضوب.

لقد ربضت هذه النصرانية الراكدة بسلبيتها في ركنين قصيَّيْن في طرفي الجزيرة العربية، في جنوبها بنجران على حدود اليمن، وفي شمالها على مشارف الشام، وكان كل من الطائفتين النصرانية الشمالية، والنصرانية الجنوبية يخضع لسلطان نصرانية الروم، وقد اعتزلت نصرانية العرب في ركنيها القصيَّيْن الحياة واعتزلتها الحياة، وتركتها تدور حول نفسها تطحن برحاها الهواء المزمجر بعواصف العصبية الدينية الخرساء في الجنوب لدى نصارى نجران، والعصبية المأجورة التي عشعشت وأفرخت في قلوب المرتزقة المقهورين بسياط الاستعباد الروماني السياسي الخادع في الشمال، لدى الغساسنة ومن انساق وراءهم من القبائل العربية في الخضوع لعبودية التبعية

المطلقة لسلطان الرومان السياسي، وكلا الطائفتين: نصارى الجنوب، ونصارى الشمال كان أصمّ أبكم عن الحق، لا يعرف هداية يدين بها ويجادل عنها، ولا يبصر نوراً يمشي به في الناس.

خداع الرومان لمتنصرة الشمال.

وجاء الإسلام وهم على حالهم، نصرانية سياسية اتخذها الرومان مَصْيدة لهؤلاء العرب المتنصِّرين بعد أن خدعوهم بكثرة العطايا حتى أدخلوهم في نصرانيتهم، ليكونوا دريئة لهم يدفعون بهم موجات الهجوم المندفع من البادية وصحاريها المتناثرة هنا وهناك طلباً لمنازل العيش ومطالب الحياة، كما يدفعون بهم شر إمارة المناذرة الذين كانوا في تبعيتهم وخضوعهم لسلطان الفرس على غرار الغساسنة في خضوعهم للرومان.

وقد بالغ الرومان في خداع هؤلاء العرب الجوعى، فأسسوا لهم إمارة غسان في الشمال ليكونوا مع سائر عرب الشمال القريبين من روم الشام همز وصل بكرسي النصرانية الأم في روما، حتى لا يشعر العرب بالأنفة القومية، والنخوة العرقية أن يحكمهم من ليس من جلدتهم، وأغدق الروم على أمراء غسان وزعمائهم فنوناً من الترف ومظاهر الفجور، ورغائب الشهوات القاتلة للمروءة والشموخ، فانخدع أمراء غسان، واتّسموا بسمات الملوك، وانخدع بخداعهم من وراءهم من متنصرة القبائل المجاورة لهم.

موقف الروم من نصرانية نجران.

ثم مدّ الروم أذرعتهم إلى جنوب الجزيرة العربية حيث سلطان الفرس يقبض على زمام اليمن بعد زوال حضارتها العربية التي أقامها الحميريون والسبائيون، فجعلوا من نجران وهي على حدود اليمن منتجعاً لنصرانيتهم، فأغدقوا على أشراف نجران وزعمائها من العرب ألواناً من المظاهر الفاتنة المغرية التي اتخذها هؤلاء الزعماء وسيلة لتطويع جماهير النجرانيين لهذه التبعية الاستعبادية، بيد أن تبعية نجران لهم لم تكن تبعية سياسية تأخذ مظهر الملك والتأمير، وإنما كانت تبعية عصبية دينية كما جاء صريحاً في كلام أبي الحارث ابن علقمة أحد متقدِّمي نصارى نجران مع أخيه بشر بن علقمة، وهو يرد عليه ويزجره في مسّه لحمى نبوة محمد ﷺ، حينما كَبَتْ ناقته، ليفهم صراحة أن محمداً ـ ﷺ ـ هو النبي الذي كانوا ينتظرونه، فلما لامه أخوه بِشْر على

عدم متابعته لرسول الله ﷺ والإيمان به والتصديق برسالته كشف له عن وجه الحقيقة باعترافه أن محمداً ﷺ نبيٌّ ورسول، وهو المبشَّر به في كتبهم، وكانوا ينتظرونه.

كتاب النبي ﷺ إلى ملك غسان وموقفه من دعوة الإسلام.

وبلغتهم دعوة الإسلام ورسالته حين بلغت سادتهم الرومان، كما جاء في حديث هرقل عند البخاري وكتاب النبي ﷺ إليه يدعوه إلى الإسلام، ولكن هرقل - وهو القيصر - راوغ وضنّ بملكه، وهو عليم بالحق وصدق رسول الله ﷺ في دعوته، ولكنه لم يُقّدر له الإيمان، كما كتب ﷺ إلى (ملك) غسان - الحارث بن أبي شمر، كما سماه جمهور أرباب السِّيَر، أو جبلة ابن الأيهم، كما سمّاه ابن هشام - يدعوه إلى الإسلام، وأرسل ﷺ بكتابه شجاع ابن وهب رضي الله عنه، وكان الغساني مشغولاً بإعداد الهدايا والتحف ليقدمها إلى سيده القيصر، فأقام شجاع ببابه أياماً لا يأذن له للدخول عليه، وقد أسلم على يدي شجاع أمري حاجب الغساني، وكان في لهفة من الشوق للقاء رسول الله ﷺ، ولكنه كان يخاف الغساني ويرهبه لسطوته وطغيانه.

ولما فرغ الغساني من شغله أذن لرسول رسول الله ﷺ في الدخول فدخل إليه، وسلمه كتاب رسول الله ﷺ، فلما قرأه رمى به وزمجر، وطغى وتجبر، وعلا واستكبر، وقال: من يسلبني ملكي، وأمر بالجموع تحشد له، وأنعل الخيل، وأخذ يتجهز بالسلاح والمؤن والرجال لمحاربة رسول الله ﷺ، وتظاهر بقوته المادية، ليرهب بتكذبه رسول رسول الله ﷺ شجاع بن وهب، ويرهب بتنفُّجه المتكذِّب المجتمع المسلم، وقال لشجاع بن وهب: أخبر صاحبك بما ترى، ونسي هذا المأفون أنه ينهض على قدمين مستعارتين، وأنه مقصوص الجناحين، مقلَّم الأظافر، مسلوب الإرادة لأنه تعبَّد نفسه وقومه لسيده القيصر، عبودية غلَّت عقله ويديه، فلا يقوى على التحرك إلا بإذن من سيده القيصر، فكتب إليه يخبره بما كان من كتاب رسول الله ﷺ إليه يدعوه إلى الإسلام، وبما كان منه في حق رسول الله ﷺ من التهوّر وسوء الرعية برمي كتابه ﷺ، وما كان منه من الأخذ في التجهز بإعداد الحشود للسير لمحاربة رسول الله ﷺ.

فكتب إليه سيده القيصر بما يخزيه، ويرده إلى مزجره من ذلة العبودية

لسلطانه، وينهنه وينكر عليه حماقته وسوء تفكيره، ويسترذل تكذباته، وغرور مزاعمه، ويصرفه عن مقصده، بقوله: لا تَسِرْ هذا المسير، والْهُ عنه، وطلب إليه أن يوافيه بإيلياء، فخنع (ملك) غسان، وخضع لأمر سيده وتبعثر تنفُّجه وبأوه، وهوى عنه غروره وتجبُّره، وتصاغر أمام أمر القيصر وذلّ، وتبدّل انتفاخ أوداجه ضموراً، وتعاليه هوناً، وتشامخه خَوَراً ورعباً، ونهوضه انكساراً مسترخياً، ويقظته تثاؤباً منيباً، واستكباره مَلَقاً ومداهنة، وها هوذا سيده القيصر يرده عن رعونته، فيعود إليه عقله ويستكين ويستسلم، ويهدي إلى رسول الله ﷺ مع رسوله مائة مثقال من الذهب.

وعاد شجاع بن وَهْب إلى رسول الله ﷺ، وأخبره خبر (ملك) غسان، فقال النبي ﷺ: «باد ملكه» ولم تنفعه شفاعة الذهب، بل صدّق الله تعالى دعوة رسوله ﷺ في إخباره بزوال ملكه كما زال ملك كسرى حين عتا واستكبر، ومزّق كتاب رسول الله ﷺ الذي دعاه فيه إلى الإسلام، فمزّق الله ملكه.

ضعف وفادة وفد غسان إلى النبي ﷺ.

ولما استقرت الأمور بعد هذا الموقف من القيصر، ووهت علاقات الغساسنة وسائر القبائل المتنصِّرة على مشارف الشام بالرومان قدم وفد غسان على رسول الله ﷺ وكانوا ثلاثة نفر، فأسلموا، وقالوا لرسول الله ﷺ: إنا لا ندري أيتبعنا قومنا أم لا، وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر، فأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز وانصرفوا إلى قومهم وكتموا إسلامهم، ولم يتبعهم أحد على الإسلام.

غزوة تبوك أفزعت متنصرة العرب وسادتهم الرومان في الشام.

ولما توجه النبي ﷺ إلى تبوك لغزو الروم، يقود جيشاً عرمرماً، كثيف الجند عظيم القوة، فزعت منه القبائل المتنصرة فزعاً شديداً انسياباً ممّا دخل على سادتهم الروم من الهلع الذي زلزل أقدامهم، وأرقص الأرض من تحتهم، وشتّت شملهم، ولم يلق منهم رسول الله ﷺ والذين معه من كتائب الجهاد كيداً، بل عاد بجيشه موفور العزّة بعد أن عقد صلح الجزية مع من جاءه للمصالحة، وكتب لهم كتب الأمن والأمان ما داموا على الحفاظ لعهودهم ومواثيقهم لا يغدرون، ولا يظاهرون عدواً للمسلمين.

هذه إلمامة استطرادية دعا إليها قصداً البيان لحال النصرانية في جزيرة العرب، فكان لا بدّ من ذكر ملامح هذه النصرانية في شمال الجزيرة ليتبين حال نصارى نجران الذين عني بهم القرآن الكريم، ووفدوا على النبي ﷺ، وجادلوه في شأن عيسى عليه السلام، فنزل القرآن الكريم بما حجّهم.

نصارى نجران
وموقفهم من الرسالة الإسلامية

موقف ملوك حمير اليهود من نصارى نجران.

نجران بلد قديم متسع الأرجاء من بلدان الجزيرة العربية الجنوبية على حدود اليمن، كانت في الزمن القديم مجموعة كبيرة من القرى تربو على المائة قرية، وهي على سبع مراحل من مكة، مسيرة يوم للراكب السريع سير العهد القديم، وهي من المدينة المنورة أبعد، وفي إحدى قراها كانت حادثة الأخدود المذكورة في سورة البروج من القرآن الكريم.

وكان اليهود الذي يستوطنون البلاد المجاورة لنجران من اليمن كثرة منظمة في ممالك وأوضاع سياسية واجتماعية ودينية، وكانت فيهم عصبية لدينهم وكراهية شديدة لغيرهم، وفي عهد الأذواء من ملوك اليمن وحكامها غلب الدين اليهودي على هؤلاء فاعتنقوه، وتعصبوا له ضدّ النصرانية التي كان المتدينون بها مؤمنين إيماناً حقاً، فاشتدت كراهية لهم، وتفاقم حقدهم عليهم، وأرادوهم أن يدخلوا في دينهم المحرف المملوء بالأباطيل، فأبى عليهم نصارى نجران فاضطهدهم الأذواء، ولا سيما ذو نواس الحميري الذي غزا نجران ليرد أهلها من النصارى عن دينهم الحق يومئذ، فاعتصموا بإيمانهم، فصبّ عليهم ذو نواس العذاب صباً، وحرّقهم أحياء، وأنزل الله تعالى في قصتهم على نبيه محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد، إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾.

فلما أدخل اليهود التحريف والتبديل لعقيدة التوحيد، وأدخلوا عليهم

عقيدة التثليث وتبعيض الإله الحق جلّ شأنه، افتراء على الله تبارك وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقد سجّل عليهم القرآن الكريم ذلك الكفر الخبيث في قوله تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾ يعنون بالجزء عيسى عليه السلام إذ زعموا أنه ابن الله، متولد منه كما يتولد الابن من أبيه ولادة حقيقية.

نظر ومناقشة في كلام الزمخشري.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ أنه متصل بقوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفُنّ به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً، فوصفوه بصفات المخلوقين تعلق بغير قاطع، لأن سياق الكلام في أول السورة وإن كان قد جاء مع مشركي العرب، لكنه سيق مساق التوبيخ لهم لأنهم ضاهؤا النصارى في مقولتهم التي شرحها القرآن.

ثم قال الزمخشري: ومعنى من عباده جزءاً أن قالوا الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له وبَعْضاً منه، كما يكون الولد بضعة من والده، وجزءاً له بالتولد المادي الذي أدخله عليهم اليهود.

وتفسير الزمخشري ذلك بقولهم: إن الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له، وبعضاً منه لا يخلو من تصور فيما يحتمله الكلام، لأنه كما يحتمله صدقه على الملائكة وقول مشركي العرب فيهم: أنهم بنات الله ـ يحتمل أن يصدق على عيسى عليه السلام وقول النصارى فيه إنه ابن الله، وولد الله، تعالى الله عن هذا الكفر السخيف، والقول بأن الملائكة بنات الله من مقولة مشركي العرب، والقول بأن عيسى عليه السلام ابن الله، وولد الله من مقولة النصارى، وأصول كفرهم.

استئناس بكلام الرازي.

قال الرازي: في المراد من قوله: (وجعلوا له من عباده جزءاً) قولان: الأول وهو المشهور، أن المراد أنهم أثبتوا له ولداً، وتقدير الكلام أن ولد الرجل جزء منه، لأن المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ثم

يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الأصل، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه.

ثم قال الرازي: والحاصل أنهم أثبتوا لله ولداً.

وهذا الكلام في تفسير (الجزء) بالولد مشعر بأن مجرى الحديث في إبطال مقولة النصارى ببنوّة عيسى عليه السلام لله بنوة توالد مادي، وهذا أقبح الكفر، وأرذل مقولات الضلال، وذكر إنكار أن الملائكة بنات الله جاء بعد آية ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ كالمقابل له، ويجب حمل هذا على مقولة النصارى ليكون الكلام إبطالاً لمقولتي الفريقين، مقولة النصارى ببنوة عيسى عليه السلام في قوله ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ ومقولة مشركي العرب في قوله: ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾ تفادياً للتكرار.

كتاب النبي ﷺ إلى أهل نجران يدعوهم إلى الإسلام

كان نصارى نجران أشد عصبية لنصرانيتهم، وأكثر اعتزالاً للحياة من نصارى غسان والقبائل التي سارت في ركابهم خضوعاً للرومان وتبعية لسلطانهم السياسي.

كتاب النبي ﷺ لأهل نجران كان سبب وفادة وفدهم إليه.

ولما كتب النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء، والأقيال، والأذواء داخل الجزيرة العربية وخارجها من قَرُب منهم ومن بَعُد يدعوهم إلى الإسلام، كان النجرانيون فيمن كتب إليهم يدعوهم إلى التصديق برسالته والإيمان بدعوته، وكانت الكتابة إليهم باعثاً لهم على قدوم وفدهم إليه ﷺ.

قال محمد بن سعد في طبقاته: وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فخرج إليهم وفدهم، أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وذوي رأيهم. وعند ابن إسحق أن عدد رجال وفدهم كان ستين رجلاً، فيهم العاقب، وهو عبد المسيح رجل من كندة، وأبو الحارث بن علقمة، رجل من ربيعة، وأخوه كرز، وفي رواية الأكثر أن أخاه اسمه بِشْر، وأنه أخوه لأمه، وابن عمه، وهؤلاء الثلاثة العاقب، وهو أميرهم، وصاحب مشورتهم والذي يصدرون

عن أمره، وأبو الحارث أسقفهم وحبرهم وإمامهم، وصاحب مدارستهم، والسيد، وهو صاحب رحلتهم وفي رواية أن السيد هو العاقب.

ثم قال ابن سعد: فتقدم كُرْز أخو أبي الحارث، وهو يقول:

إليك تغدو قلقاً وضينها   معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

فقدم على النبي ﷺ، ثم قدم الوفد بعده، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق وأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» تألفاً لهم، لا إقراراً لهم على باطلهم.

ثم أتَوا النبي ﷺ فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان ذلك من أجل زيِّكم هذا، فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا عليه بزي الرهبان فسلّموا عليه فرد عليهم، ودعاهم إلى الإسلام فأبَوا، وكثر الكلام والحجاج بينهم وتلا عليهم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «إن أنكرتم ما أقول لكم فهلّم أباهِلْكم» فانصرفوا على ذلك.

فغدا عبد المسيح ـ وهو العاقب في رواية ابن سعد ـ ورجلان من ذوي رأيهم على رسول الله ﷺ فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببت نعطِك ونصالحْك، فصالحهم على ألفي حلّة، ألف في رجب وألف في صفر، وأوقية ذهب مع كل حلة من الحلل، وعلى عارية ثلاثين درعاً وثلاثين رمحاً وثلاثين بعيراً، وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد، ولنجران وحاشيتهم جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم، وبِيَعهم، لا يغيّر أسقف عن سقيفاه، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته، وأشهد رسول الله ﷺ على ذلك شهوداً من أصحابه.

ورجع وفد نجران إلى بلاده بهذه المصالحة التي قادتهم إلى الرضا بمذلّتها وهوانها عصبيتهم العمياء لنصرانيتهم المحرَّفة الكفور، ولكن أنامل

القدر كانت تجري بقلم الغيب لتخط في صحائف الهداية أسماء من أراد الله هدايتهم ودخولهم في ساحة دينه الحق، دين الإسلام، ومن ثَمّ لم يلبث العاقب والسيد إلا يسيراً بين قومهم حتى رجعا إلى النبي ﷺ فأسلما، وأكرمهما ﷺ، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري.

وأقام أهل نجران على ما كتب لهم رسول الله ﷺ في كتاب مصالحته لهم حتى قبضه الله إليه صلوات الله عليه ورحمته ورضوانه وسلامه.

تعليق وبيان

في رياض كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران.

هذه الرواية التي ساق فيها ابن سعد قصة وفادة وفد نجران إلى رسول الله ﷺ، وما وقع منهم وإليهم من الأحداث فيها جاءت هكذا موجزة إيجازاً مخلًا بكثير من التفاصيل التي أوردها جمهور المؤلفين في السيرة النبوية، وهذه القصة أو هذه القضية كانت أحرى بالبسط المحيط بأحداثها وأسبابها في مباديها ونهاياتها من طبقات ابن سعد وهي من أقدم وأرفع مراجع السيرة، لأن هذه القصة نالت من القرآن العظيم عناية فائقة، إذ نزلت فيها آيات من سورة آل عمران استغرقت قدراً عظيماً منها في حجاج تاريخي، وجدل منطقي، وضَعا أخطر قضية في الخلق والتكوين موضعها من الاقتدار الإلٓهي، تلك هي قضية خلق عيسى عليه السلام بأسلوبها الإعجازي الذي ارتفعت به إلى ذروة الإطلاق الإرادي لله جلَّ شأنه، كما نالت هذه القضية من رسول الله ﷺ قدراً من الجهد الفكري الإيماني في محادثة ومحاجّة أشراف وذوي رأي نصارى نجران، حتى أسلم من هؤلاء السادة من أسلم طواعية لقوة الحِجّاج المعتمد على المنطق القرآني العظيم، كما نالت هذه القضية الخطيرة أرفع المكارم التي عامل بها رسول الله ﷺ أهل نجران، فقد عفا ﷺ عما ألزمتهم به قوة الحق في الحِجاج الذي دار بينه وبينهم، وعفا عما ألزمتهم به المكارم الخلقية إذ طلب منهم النَّصَف في مباهلتهم فكفُّوا عنها ورهبوها، وطلبوا المصالحة على حكمه فيهم، فكان ﷺ رفيقاً بهم أشد الرفق، ولم يطلب منهم ما يؤودهم، وكتب لهم أماناً في ملَّتهم وأنفسهم وأموالهم، وكل ما ما يهمهم أمره.

ابن سعد طوى في إيجاز روايته نماذج من معالم منهج الرسالة.

وكثيراً من هذه الحقائق أوردها الثقاة في رواياتهم، وفي طليعة هؤلاء الثقاة صاحبا الصحيحين على اختصارهما الشديد في ذكر الأحداث، وهي حقائق تذكر أموراً من معالم منهج رسالة الإسلام تعتبر نماذج في إطار التربية الإسلامية، ومجابهة الأفكار التي تتعلق بالعقيدة وعدم التهرب منها، فهي دعائم لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة، توجب على القائمين بها من الدعاة تعمق الدراسة والبحث في كل ما يحيط العقيدة بقوة العقل، ومعرفة ظواهر الخلق والتكوين، ومعرفة أساليب الحجاج المنطقي والجدل العقلي القائم على أحسن طرق الاستهداء إلى الحق.

مآخذ على رواية البخاري ومناقضتها للقرآن الحكيم.

روى البخاري من حديث حذيفة قال: حدثنا عباس بن الحسين، حدثنا يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن صِلَة بن زفر، عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ، يريدان أن يلاعناه ـ لم يجيئا إليه ﷺ للملاعنة، وإنما جاءا في رياسة وفد قومهما استجابة لكتابه ﷺ الذي كتبه إليهم يدعوهم إلى الإسلام ـ فلم يقع لهم التوفيق بعد طول الكلام والحجاج، فعرض عليهم صلوات الله عليه المباهلة قياماً بأمر الله تعالى له في قوله تعالى: ﴿فمن حاجّك فيه (أي في خلق عيسى عليه السلام) من بعد ما جاءك من العلم فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ وهذا نص صريح في أن طلب المباهلة لم تكن في إرادتهم التي جاؤوا بها إلى النبي ﷺ، وإنما كان طلب المباهلة بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن قامت الحجّة عليهم ولزمهم مقتضاها في خلق وتكوين عيسى عليه السلام، وأنه في هذا الخَلْق والتكوين كمثل آدم الذي خلق من التراب بغير أم ولا أب، وهم مقرُّون بخلق آدم على هذه الصورة الإعجازية التي ليسَ لها مرجع إلا لاقتدار الله تعالى، ومطلق مشيئته وتصرفه في ملكه كما يشاء ويختار. ثم قال البخاري وهو يسوق تتمة حديث حذيفة: قال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا أميناً، لا تبعث معنا إلا رجلاً أميناً، فقال ﷺ: «لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها

أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام أبو عبيدة قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

رواية البيهقي أوسع الروايات وأوفاها بأحداث القصة.

وقد أورد الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران وافية بأسباب قدوم هذا الوفد على رسول الله ﷺ، مفصّلة للأحداث في سياق متسق الأسلوب والأداء، ونحن نسوق رواية هذا الإمام الحافظ لما جمعته من معالم منهج الرسالة في أحداثها وآثارها، وقد ندخل عليها ما نجده عند غير البيهقي مما يتصل بها في حقائق وقائعها، وقد اعتمد على هذه الرواية ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية.

قال البيهقي: أنبانا أبو عبدالله الحافظ، وأبو سعيد محمد بن موسى ابن الفضل، قالا: حدثنا أبو العباس، محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبّار، حدثنا يونس بن بُكَير، عن سلمة بن يسوع، عن أبيه، عن جده - قال يونس وكان نصرانياً فأسلم - أن رسول الله ﷺ كتب إلى نجران قبل أن ينزل طس سليمان - أي سورة النمل.

نص كتاب رسول الله إلى أهل نجران في رواية البيهقي

(باسم إله إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، من محمد رسول الله إلى أسقف نجران: سَلْم أنتم، فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم آذنتكم بحرب، والسلام».

حكمة افتتاح الكتاب إلى أهل نجران بصورة هذه التسمية والتحميد.

وإنما بدأ رسول الله ﷺ كتابه بهذه البداءة في قوله: «باسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب» ثم جرى عليها في التحميد تألّفاً لهؤلاء القوم الذين كانوا يدينون بالنصرانية في عصبية متشدِّدة، وكانوا يعظِّمون إبراهيم خليل الله وولده إسحق، وحفيده يعقوب عليهم السلام، وإظهاراً لخصيصة رسالته ﷺ في الإيمان بجميع الرسل وتعظيمهم، ولأن التسمية في الرسائل والكتب لم تنزل إلا بعد نزول سورة النمل وقصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، إذ كتب إليها بها في صدر كتابه إليها يدعوها إلى الإسلام، ولهذا جاء في هذا

الحديث أن كتبه ﷺ لأهل نجران كان قبل أن ينزل طس سليمان، وكان ﷺ قبل ذلك يكتب في كتبه ورسائله باسمك اللهم كما يدل عليه محاورة قصة معاهدة الحديبية.

فزع أسقف نجران حين قرأ كتاب رسول الله ﷺ.

فلما أتى الأسقفَّ كتابُ رسول الله ﷺ فقرأه فَظِعَ به، وذعر ذعراً شديداً، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة، وكان من همذان ـ ولم يكن أحد يُدْعى إذا نزلت معضلة قبله، لا الأيهم ـ كذا ضبطه الزرقاني بالخط والحروف ـ أي بالياء آخر الحروف الهجائية ـ ولا السيد، ولا العاقب، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمتَ ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمنك أن يكون هذا هو ذاك الرجل؟ ليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمر من أمور الدنيا لأشرتُ عليك فيه برأي، وجهدت لك، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس، فتنحَّى شرحبيل فجلس ناحيته، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: عبدالله بن شرحبيل ـ وهو من ذي أصبح، من حمير ـ فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس فتنحَّى، فجلس ناحيته، وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له جبّار بن فيض، من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبدالله، فأمره الأسقف فتنحَّى فجلس ناحيته.

فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ورفعت النيران في الصوامع ـ في العبارة قلق لما فيها من التكرار ـ فاجتمع حين ضرب بالناقوس ورفعت النيران والمسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، ومائة ألف مقاتل، فقرأ الأسقف عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبدالله ابن

شرحبيل الأصبحي، وجبّار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ.

وواضح أن سياق البيهقي في ذكر شرحبيل بن وداعة وصاحبيه، وما ذكر في هذا السياق من الأحداث ـ وهو قدر كبير اشتمل على أمور مهمة لم يذكر في غير دلائل البيهقي فيما نعلم ـ ومن هنا تظهر القصّة في سياق البيهقي وكأنها قصة أخرى غير التي ذكرها ابن سعد في طبقاته، ورواها البخاري في جامعه، لكنّا لم نجد أحداً من الرواة لأحداث السيرة النبوية تنبّه إلى ذلك فنبّه عليه، ليكون مجالاً للنظر.

أسماء وأحداث لم تذكر في غير رواية البيهقي ومن تابعه من الرواة.

وإلّا فأين العاقب، والسيد، وأبو الحارث الذين وصفوا في سياق غير البيهقي بأنهم أشرف أشرافهم وأئمتهم، وأصحاب الرأي فيهم الذين لا يصدرون إلا عن رأيهم، والذين قالت فيه رواية البخاري عن حذيفة أن اثنين منهما: العاقب والسيد جاءا يلاعنان رسول الله ﷺ، ثم نكصا ورجعا راضييْن بالدنية في المصالحة، وعادا مع الوفد إلى قومهما، ولم يلبثا إلا قليلاً حتى أسلما وقدما على رسول الله ﷺ مسلمين، وأقاما عنده بالمدينة، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري، وبقيا على ذلك حتى قبض رسول الله ﷺ، فتولّاهما بعده الصدّيق أبو بكر بالإكرام وحسن الرعاية.

إعراض النبي ﷺ عن الوفد لزخرفة زيهم.

قال البيهقي: فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُللاً يجرونها من حِبَرة وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتَوا رسول ﷺ، فسلّموا عليه فلم يرد عليهم السلام، وتصدّوا لكلامه نهاراً طويلاً فلم يكلمهم، وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وكانوا يعرفونهما فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس، فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلّمنا عليه، فلم يردّ سلامنا، وتصدّينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما؟ أترون أن نرجع؟ فقال عثمان وعبد الرحمن لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم، فقال

عليّ لعثمان وعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حُلَلَهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه، ففعلوا، فسلّموا فرد سلامهم، ثم قال ﷺ: «والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم».

ثم ساءلهم النبي ﷺ وساءلوه، فلم تزل به وبهم المساءلة حتى قالوا: ما تقول في عيسى، فإنا نرجع إلى قومنا، ونحن نصارى، ليسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى» فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحقُّ من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل: تعالَوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

شبهة النصارى وإبطال القرآن لها بآية واحدة من أقصر آياته.

وفي حديث ابن عباس عند ابن أبي حاتم أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال ﷺ: «من هو» قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله، فقال ﷺ: «أجل» قالوا: فهل رأيت مثل عيسى؟ أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل، فقال له: قل لهم إذا أتوك: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾.

هذه المساءلة التي دارت في الحوار بينهم وبين رسول الله ﷺ هي لبّ قصة وفد نجران، وهي التي عُني بها القرآن العظيم، فذكرها في سورة آل عمران، ولكنّها لم تذكر في الروايات الأخرى عند ابن سعد ومن تابعه ولا في الصحيحين، وهذا كثير في مسلك الذين ألّفوا في أحداث السيرة النبوية.

فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة وقال لابنيه وأمهما الزهراء: «وإذا دعوتُ فأمنّوا».

فقال أسقفهم عندما رآهم: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من جباله لأزاله، ثم قال لأصحابه من رجال الوفد: فلا تباهلوا

فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاء بالفصل في أمر صاحبكم ـ أي عيسى عليه السلام ـ فوالله ما باهل قوم نبياً إلاّ هلكوا، فإن أبيتم إلا دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا، فقالوا لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم لا نلاعنك، فقال لهم ﷺ: «فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم» فأبَوا، فقال لهم ﷺ: «فإني أنذركم» فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك فصالحهم.

شهادة أسقف نجران لقوة روحانية أغصان الدوحة النبوية وفزعه من مباهلتهم.

وفي رواية البيهقي أن شرحبيل بن وداعة قال لصاحبيه: عبد الله ابن شرحبيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يَرِدُوا ولم يصدُرُوا إلاّ عن رأيي، وإني والله أرى أمراً ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً متقوياً فكنا أول العرب نطعن في عيبته ونرد عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنّا أدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه فلا يبقى على وجه الأرض منّا شعر ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقال شرحبيل: رأيي أن أحكمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً، فقال له صاحباه: أنت وذاك، فتلقّى شرحبيل رسول الله ﷺ، فقال له: إني رأيت خيراً من ملاعنتك، فقال ﷺ: «وما هو؟» فقال شرحبيل: حكمك اليوم إلى الليل، وليلتك إلى الصباح، فما حكمت فينا فهو جائز، فقال رسول الله ﷺ: «لعلّ وراءك أحداً يثرّب عليك» فقال شرحبيل: سل صاحبي، فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلاّ عن رأي شرحبيل، فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم، حتى إذا كانوا الغد أتوه، فكتب لهم مترفقاً بهم كتاب مصالحتهم، وقد قدّمنا نصه، وجاء في ديباجته قول رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي الأمي رسول الله لنجران أن كان عليهم حكمه في كل ثمرة، وكل صفراء وبيضاء، ورقيق فأفضل عليهم، وترك ذلك كلّه على ألفي حلة، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة».

رفق رسول الله ﷺ بأهل نجران بعد أن فوضوا إليه الحكم في مصالحتهم.

بين أسقف نجران وأخيه بشر الذي سمع الحق من الأسقف فأسرع إلى الإسلام.

فلما قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران، ومع الأسقف أخ له من أمه، وهو ابن عمه من النسب، يقال بشر بن معاوية ـ سمّاه ابن سعد ومن تبعه (كرز بن علقمة) فجعله أخاً نسيباً للأسقف، وكنّاه أبا علقمة ـ فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف، فبينما هو يقرأ وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كَبَت ببشر ناقته، فتعَّس بِشْر، غير أنه لا يكني عن رسول الله ﷺ، فقال له الأسقف عند ذلك: قد والله تعّست نبياً مرسلاً، فقال له بشر: لا جرم لا أحل عنها عقداً حتى آتي رسول الله ﷺ، فضرب بشر وجه ناقته نحو المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه فقال له: افهم عني، إنما قلت هذا ليبلغ عني العرب مخافة أن يروا أنّا أخذنا حقّه ـ أي قبلنا دعوته ـ أو رضينا بصوته، أو نخعنا لهذا الرجل بما لم تنخع به العرب، ونحن أعزهم، وأجمعهم داراً.

فقال له بشر: لا، والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبداً، فضرب بشر ناقته وهو مولّي الأسقف ظهره يرتجز فيقول:

إليك تغدو قلقاً وضينها   معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

حتى أتى رسول الله ﷺ، وبقي معه حتى قتل بعد ذلك.

وقصة هذا الرجز، وما ذكر في سببه مما وقع بين الأسقف وأخيه بشر، وإقرار الأسقف بنبوة رسول الله ﷺ، وتصديقه برسالته، ووقوعه في قلب أخيه بشر، وتوجهه إلى رسول الله ﷺ، وإسلامه بين يديه، وبقائه عنده حتى قتل بعد ذلك من مواضع القلق والتشويش، وتفكك الأسلوب في سياق محمد بن سعد، بيد أنها في هذه الرواية سوية السياق، منتظمة الأسلوب، متّسقة الصياغة، مستقيمة الأداء.

قصة الراهب ابن أبي شمر الزبيدي وغلبة الأقدار الإلهية عليه.

ودخل الوفد إلى نجران، فأتى الراهب ابن أبي شمر الزبيدي، وهو في رأس صومعته، فقالوا له: إن نبياً بعث بتِهامة، وذكروا له ما كان من وفد نجران إلى رسول الله ﷺ، وأنه ﷺ عرض عليهم الملاعنة، فأَبَوا، وأن بشِرْ ابن معاوية دفع إليه فأسلم.

فقال الراهب: أنزلوني وإلا ألقيت نفسي من هذه الصومعة، فأنزلوه وتجهَّز ليلحق برسول الله ﷺ، وأخذ معه هدية، وذهب إلى رسول الله ﷺ، منها هذا البرد الذي يلبسه الخلفاء وقَعْباً وعصاً، وأقام مدة عند رسول الله ﷺ، يسمع الوحي ثم رجع إلى قومه، ولم يقدَّر له الإسلام، ووعد أنه سيعود، فغلب على أمره ولم يعد حتى توفي رسول الله ﷺ.

وفي بعض الروايات أن الأسقف أبا الحارث، ومعه السيد والعاقب، أتَوا رسول الله ﷺ في وجوه من أشراف قومهم، فأقاموا عنده ﷺ يسمعون ما ينزله الله عليه من الوحي، ثم عادوا إلى بلدهم، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه جوار لهم ومصالحة وتأمين على ما كان لهم من وظائف في ملتهم، وهو فيها ذكر فيه مخالف لنص كتاب المصالحة السابق، ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي للأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم، وكلٍّ ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يغيِّر أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبداً ما أصلحوا ونصحوا عليهم غير مبتلين بظلم ولا ظالمين».

وعند ابن إسحاق أن وفد نجران كانوا ستين راكباً، يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ثم سرد أسماء هؤلاء الرؤساء، وذكر فيهم العاقب، واسمه عبد المسيح والسيد، واسمه الأيهم، وفي هذه التسمية مخالفة لما ذكره جمهور مؤلفي السيرة النبوية، ثم ذكر ابن إسحق أبا الحارث بن علقمة، وهؤلاء الثلاثة هم الذين يؤول إليهم أمر الوفد، فالعاقب كان أميرهم، وذا رأيهم، وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد، وكان ثمالهم وصاحب رحلهم، وأبو حارثة بن علقمة، وكان أسقفهم وخيرهم، وهو رجل من العرب من بكر بن وائل، ولكن دخل في دين النصرانية، فعظَّمته الروم وشرّفوه، وبنَوا له الكنائس، وموّلوه وأخدموه لما يعرفون من صلابته في دينهم.

وكان أبو حارثة يعرف أمر رسول الله ﷺ، ولكن صدّه الشرف والجاه

عن اتباع الحق، وفي رواية يونس بن بُكَير عن شيخه ابن إسحاق أن أبا حارثة كان أسقفهم، وصاحب مدارستهم، وكانوا قد شرّفوه فيهم، وموّلوه، وأكرموه، وبسطوا له الكرامات، وبنَوا له الكنائس، لما بلغهم عنه من علمه، واجتهاده في دينهم.

ثم قالت هذه الرواية: ولّما توجه الوفد من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له، وإلى جنبه أخ يقال له كُرْز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبي حارثة، فقال كرز: تعس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ - فقال أبو حارثة: بل أنت تعست، فقال كرز: ولم يا أخي؟فقال: والله إنه للنّبي الذي كنا ننتظره. فقال له كرز: وما يمنعك وأنت تعلم هذا؟ فقال أبو حارثة: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا، وموّلونا، وأخدمونا، وقد أبَوا إلا خلافه، ولو فعلتُ نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز حتى أسلم بعد ذلك.

وفي رواية يونس بن بكير هذه مخالفات للروايات التي جاء بها رواتها عن غير محمد بن إسحاق شيخ يونس بن بكير، وقد نبهنا على نحو هذا من المخالفات فلا حاجة لإعادتها.

تأمل وتنبيه

على هامش روايات قصة وفد نجران.

الذي ينظر في روايات قصة وفد نجران، وما جاء في هذه الروايات المتكاثرة من أحداث وأحاديث ومساءلات ومحاورات، وأسماء وأوصاف وشخصيات، وأسباب ومسببات، وعوامل ومراجعات، ومواقف وآراء مختلفة - نظر تأمل فاحص لا يستطيع أن يباعد بين خطرات تذهب وتجيء إلى ذهنه وأفكاره، وبين ما يراوده من هزاهز فكرية أشبه ما تكون بالشك في وحدة القصة التي تذكرها هذه الروايات مختلفة الأسباب، والأحداث التي يزعم كل راوٍ أنها هي وقائع القصة مع ما بينها من اختلاف عريض مضطرب في أسماء الأشخاص ونصوص الكتب التي يقولون أن النبي ﷺ أمر بكتابتها لأهل نجران، أماناً ومصالحة لهم على الشروط التي يذكرها الرواة مختلفة الأوضاع والنتائج.

ولو قال قائل بعد استيعابه لما يمكن له من المراجع والمصادر التي عنيت

بهذه القصة في رواياتها المختلفة أن سياق هذه القصة في أساليب الروايات المتعددة المختلفة يوحي بأنها قصص متعددة، لكل قصة أحداثها ووقائعها وأسبابها وأشخاصها؛ لما ثرّب عليه أحد بوجه من الحق القاطع الذي لا يردّ، ولكنًا لم نجد من قال بالتعدد.

وهذا الاهتزاز الفكري المتردد بين خطرات الفكر والظن الذي لم يبلغ أن يكون علماً ليس في يدنا دليل عليه إلّا تباعد ما بين سياقات الروايات واختلافها في أمور تعتبر ركائز للقصة كلها.

وقد حاولنا قدر جهدنا المستطاع أن ننظر فيما تيّسر لنا من مراجع القصة ومصادرها الأصيلة، وجمعنا من رواياتها ما ظننا أنه لم يفته شيء من مهماتها، فأثبتناه في مناسبته مع ما تضمنه من معالم منهج الرسالة.

ولم نسوّغ لقلمنا أن يهجم على ردّ رواية من روايات القصة إلّا بعد نقدها بالحجة البيِّنة، لأن ردّ الروايات ولا سيما إذا كانت من تخريج أعلياء الثقاة المتشدِّدين في قبول الأسانيد، ما لم تعارض رواياتهم قاطعاً أعلا منها مثل ما ذكرنا في حديث حذيفة عند البخاري: أن العاقب والسيد جاءا لملاعنة رسول الله ﷺ فإنه معارض لنص القرآن الحكيم في قوله تعالى: ﴿فمن حاجَّك فيه ـ أي في خلق عيسى عليه السلام ـ من بعد ما جاءك من العلم، فقل: تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ المقتضي أن الله تعالى بعد أن أوحى إلى نبيه ﷺ بالحجّة القاطعة والقول الفصل في خلق عيسى عليه السلام أمر رسوله ﷺ أن يدعوَ رؤساء وفد نجران إلى الملاعنة إن لجوّا عناداً في باطلهم، ومنعتهم عصبيتهم لملتهم من قبول الحق والدخول في الإسلام.

ولو أن باحثاً أتيح له أن يجمع بين الحديث ونص القرآن العظيم بتأويل سائغ غير متعسف لحمدنا له مسلكه، لأن مسلك الجمع بين النصوص المتعارضة الثابتة أقوم وأسدُّ في شرعة العلم والمعرفة من الجرأة على ردّ روايات الثقاة، مع اعتقادنا أنهم غير معصومين عن الأوهام والخطأ.

وفد طيء وقصة عظيمَيْهم
زيد الخيل، وعديّ بن حاتم
أحداث هذا الوفد وأحاديثه وما فيها
من معالم منهج الرسالة

ذكر السهيلي في الروض برواية أبي علي البغدادي قال: قدم وفد طيء، فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد، ودخلوا وجلسوا قريباً من النبي ﷺ، حيث يسمعون صوته، فلما نظر إليهم ﷺ قال: «إني خير لكم من العزّى، ومن الجمل الأسود الذي تعبدون من دون الله، ومما حازت مناع من كل ضار غير نفاع» فقام زيد الخيل، وكان من أعظمهم خلقاً وأحسنهم وجهاً، فقال له النبي ﷺ ولا يعرفه: «الحمد لله الذي أتى بك من حَزْنك وسهلك، وسهَّل قلبك للإيمان» ثم قبض على يده، فقال: «من أنت؟» قال: أنا زيد الخيل من مهلهل، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أنت زيد الخير، ما خبِّرت عن رجل قط شيئاً إلا رأيته دون ما خبرت عنه غيرك» فبايعه وحسن إسلامه.

وقال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيء، وفيهم زيد الخيل، وهو سيدهم، فلما انتهَوا إليه كلّموه، وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا، فحسن إسلامهم.

وقال رسول الله ﷺ: «ما ذُكر رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلاّ رأيته دون ما يقال فيه إلاّ زيد الخيل، فإنه لم يبلغ الذي فيه» ثم سمّاه رسول الله ﷺ «زيد الخير» وقطع له أرضين في بلده، وكتب له بذلك كتاباً، فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه، فقال رسول الله ﷺ: «إن ينج زيد من حمّى المدينة...» ـ هذا شرط محذوف الجواب، ويقدّر جوابه بما يلائم

المقام - فلما انتهى زيد إلى ماء من مياه نجد يقال له فردة أصابته الحمّى، فمات هنالك، وقال حين أحس بالموت

أَمُرْتَحِلٌ قومي المشارق غدوة وأترك في بيت بفردة منجد
ألا ربَّ يوم لو مرضت لعادني عوائد من لم يبر منهن يجهد

ولما بلغ الخبر امرأته جزعت عليه جزعاً شديداً، وعمدت إلى ما كان معه من الكتب فحرقتها بالنار دون أن تعرف ما فيها جهلاً منها وغفلة عن قدرها.

واختصر ابن سعد هذه الرواية التي ذكرها عن شيخه الواقدي عن أشياخ من طيء قالوا: قدم وفد طيء على رسول الله ﷺ، خمسة عشر رجلاً، رأسهم زيد الخيل، وهو سيدهم وسريهم، فدخلوا المدينة، ورسول الله ﷺ في المسجد، فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد، ثم دخلوا فدنَوا من رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا، وجازهم ﷺ بخمس أواق فضة، كل رجل منهم، وأعطى زيد الخيل اثني عشر أوقية ونشّاً وسماه زيد الخير.

وكان في الوفد رجل، يقال له: وزر بن سدوس، أبى أن يسلم أنفة جاهلية وقال: إني أرى رجلاً يملك رقاب العرب، والله لا يملك رقبتي عربي أبداً، ثم لحق بالشام وتنصَّر.

وقد أبعد النجعة من ذكر زيد الخيل في المؤلفة، لأن هذا الوصف لم يُعرف إلا بعد غزوة حُنَين حين أعطى من غنائمها الغامرة قوماً من رؤوس قريش الطلقاء، ومن على شاكلتهم من زعماء القبائل، يتألفهم على الإسلام المئين وما فوقها وما دونها، وغزوة حنين إنما كانت في السنة الثامنة بعد فتح مكة، وقبل غزوة تبوك، وقدوم زيد الخيل على النبي ﷺ على رأس وفد قومه وإسلامه وإسلامهم كان في سنة تسع وهي سنة الوفود، وقد نقل هذا الخطأ الحافظ ابن حجر عن تلقيح ابن الجوزي في سرده أسماء المؤلفة قلوبهم.

ولعل الشبهة في عدّ زيد الخيل من المؤلفة دخلت على ابن الجوزي

وقبلها ابن حجر مما جاء في الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً رضي الله عنه بعث للنبي ﷺ بذهبية في أديم، فقسمها ﷺ بين الأقرع بن حابس، وعيينة ابن حصن، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخيل، والثلاثة المذكورون في الخبر مع زيد الخيل كانوا من المؤلفة، فظن من شهد ذلك أو سمعه أن ذكر زيد معهم، وأخذه حظاً من الذهبية أنه مثلهم من المؤلفة، وزيد بمقتضى رواية وفوده على رأس وفد قومه لم يمكث عند رسول الله ﷺ إلّا ريثما أسلم وأسلم معه رجال الوفد إلا وزر بن سدوس الذي لم يقبل الإسلام، وتنصّر بالشام، حتى رجع بوفده ومات بالطريق عند ماء فردة كما قدمناه، ولعل ذهبية عليّ رضي الله عنه وصلت النبي ﷺ قبل رحيل زيد الخيل ووفده، فشهد مجيئها في حضور من ذكر معه، فقسمها بينهم.

ومن حديث سُنَين مولى رسول الله ﷺ عند ابن عدي ـ وضعّفه ـ وعند ابن شاهين قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فأقبل زيد الخيل راكباً حتى أناخ راحلته، فقال: يا رسول الله، إني أتيتك من مسيرة تسع، أصهبت راحلتي، وأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، أسألك عن خصلتين أسهرتاني، فقال له ﷺ: «ما اسمك؟» قال: أنا زيد الخيل قال ﷺ: «بل أنت زيد الخير، فاسأل» قال: أسألك عن علاقة الله تعالى فيمن يريد، وعلاقته فيمن لا يريد؟ فقال ﷺ: «كيف أصبحت؟» قال: أصبحت أحب الخير وأهله، ومن يعمل به وإن عملت به أيقنت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حننت إليه، فقال له النبي ﷺ: «هذه علاقته فيمن يريد، وعلاقته فيمن لا يريد ضد ذلك، ولو أرادك بالأخرى هيأك لها، ثم لم يبالِ من أي وادٍ هلكت».

وظاهر هذه الروايات أن قدوم وفد طيء مع سيدهم زيد الخيل على النبي ﷺ لم يكن إجابة لكتاب كتبه لهم يدعوهم فيه إلى الإسلام كما كان سبب وفود غيرهم من قبائل العرب، أو بعث سرية إليهم تغزوهم إذ لم يسلموا، وإنما كان قدومهم باختيارهم، حين سمعوا بوفادة وفود العرب عليـه ﷺ سنة تسع ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

بيد أن أبا جعفر الطبري ذكر في تاريخه من طريق يزيد بن رومان،

فقال: وفي هذه السنة سنة تسع ـ وهي سنة الوفود ـ وجّه النبي ﷺ عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه في سرية إلى بلاد طيء في ربيع الآخر، فأغار عليهم فسبى، وأخذ سيفين كانا في بيت الصنم يقال لأحدهما (الرسوب) وللآخر (المخذم) كان الحارث بن أبي شمر الغساني نذرهما لصنم طيء، وكانت أخت عدي بن حاتم فيمن سَبَى علي رضي الله عنه.

وقد عقّب الطبري على هذه الرواية فقال: أما الأخبار الواردة عن عدي عندنا بذلك فبغير بيان وقت، وبغير ما قال الواقدي في سبي عليّ أخت عديّ، وهذا من أبي جعفر غمز لهذه الرواية لم يذكر سببه.

أما حديث إسلام عديّ بن حاتم وأحداث قصته فمرويّة بروايات مختلفة المخرج والوقائع، بعضُها في الصحاح، وبعضُها من روايات أصحاب الجوامع والسنن، وبعضها من روايات السيرة.

قال السهيلي في الروض: وحديث إسلام عديّ صحيح عجيب، أخرجه الترمذي. وأخته التي ذكر إسلامها أحسب اسمها سفّانة، لأني وجدت في خبر عن امرأة حاتم، تذكر فيه من سخائه، قالت: فأخذ حاتم عدياً يعلّله من الجوع، وأخذت أنا سفّانة.... ولحاتم عقب من قبل عبدالله بن حاتم، ولا يعرف له بنت إلاّ سفانة، فهي إذاً هذه المذكورة في السيرة.

وفي صحيح البخاري من حديث عدي بن حاتم قال: أتينا عمر ابن الخطاب ـ أي في خلافته ـ في وفد، فجعل يدعو رجلاً، رجلاً، يسمّيهم، فقال عدي ليلفت نظر عمر لمّا لم يذكره باسمه: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال عمر رضي الله عنه: بلى، أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا، فقال عدي: لا أبالي إذاً.

وقد أوجز ابن إسحاق قصة وفد طيء بزعامة سيدهم زيد الخيل، وقد أكملنا أحاديث وأحداث هذه القصة فذكرناها عند مناسبتها، ولكن ابن إسحاق أسهب وأطال في قصة عدي بن حاتم، وذكر هربه من وجه كتائب النبي ﷺ فاراً إلى الشام، وذكر سبي أخته ولم يسمّها، وذكر ترفّق النبي ﷺ

بها، وإحسانه إليها بعد منّه عليها، وتجهيزه لها بالحملان والنفقة والكسوة، وحرصه ﷺ على أمنها وسلامتها، ومشورتها على أخيها عدي بالقدوم على رسول الله ﷺ، وإسلامه، وما وقع له مع النبي ﷺ من محاورة فتح بها رسول الله ﷺ قلبه للإيمان، فأسلم وحسن إسلامه.

وقد نقل هذه الرواية المسهبة عن ابن إسحاق أكثر أصحاب السنن، ورواها بسنده الإمام أحمد في مسنده، وقام على دعائمها حديث قصة قدوم عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ عند أهل السِّير، وهي رواية مفصّلة جامعة جاء فيها من الأحداث ما لم يجيء في غيرها من الروايات، ونحن نسوقها لما فيها من معالم منهج الرسالة، ولا سيما محاورة النبي ﷺ لعديٍّ فيما يصدّه عن الدخول في الإسلام مما يراه من حاضر المجتمع المسلم في قلّة عدده وكثرة عدوِّه، وضعفه وقوة أعدائه، وفقره وحاجته وثراء أعدائه، وكثرة المال في أيديهم وإقبال الدنيا عليهم، مع شوكة الملك والسلطان، وإنباء النبي ﷺ بتغير ذلك كله، وانتقال الثراء والأمان، وكثرة العدد، وقوة الملك والسلطان إلى المجتمع المسلم.

قال ابن إسحاق راوياً عمّن سمّاه شيبان بن سعد الطائي يقول: ما رجل كان أشدّ كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني.

أما أنا فكنت امرءاً شريفاً، وكنت نصرانياً، أسير في قومي بالمرباع، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت رسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعياً لإبلي: لا أبالك، اعدد لي من إبلي أجمالاً ذللاً، سماناً مسان فاحبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذنِّي، ففعل، ثم أتاني ذات غداة، فقال يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها، فقالوا هذه جيوش محمد، فقلت: قرِّب لي أجمالي، فقرَّبها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الحوشية وتركت ابنة حاتم في الحاضر، وتخالفني خيل رسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم، وجعلت مع السبايا في حظيرة بباب

المسجد كانت السبايا يحبسن فيها، فمر بها رسول الله ﷺ، فقامت إليه ـ وكانت امرأة جزلة ـ فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ منّ الله عليك، قال ﷺ: «ومن وافدك» قالت: عديّ بن حاتم، قال صلوات الله عليه: «الفارُّ من الله ورسوله؟».

قالت: ثم مضى رسول الله وتركني حتى إذا كان الغد مرّ بي وقد أيست، فأشار إليّ رجل من خلفه: أن قومي فكلميه، فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ منّ الله عليك، قال ﷺ: «قد فعلت، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلِّغك إلى بلادك، ثم آذنيني» قالت: فسألت عن الرجل الذي أشار إليّ أن كلِّميه، فقيل: إنه عليّ بن أبي طالب، وأقمت حتى قدم ركب من بليّ أو من قضاعة، وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله قد قدم من قومي ركب لي فيهم ثقة وبلاغ، فكساني رسول الله وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عديّ: فوالله إني قاعد في أهلي فنظرت إلى ظعينة تصوِّب إليّ تؤمُّنا، فقال عديّ: ابنة حاتم، فإذا هي، هي، فلما وقفت عليّ انسحلت ـ أي انساقت تلوم جادة ـ تقول: القاطع، الظالم، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بنية والدك وعورته؟؟ قال عديّ: فقلت: يا أخيّة، لا تقولي إلاّ خيراً، فوالله مالي عذر، لقد صنعتُ ما ذكرتِ، ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمة ـ ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن لم يكن الرجل نبياً فالسابق إليه له فضيلة، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن، وأنت، أنت، قلتُ: والله إن هذا للرأي، فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمتُ عليه، فقال: «من الرجل؟» قلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً، تكلمه في حاجتها، قال عدي، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك، ثم مضى رسول الله ﷺ حتى دخل بيته،

فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها إليّ فقال لي: «اجلس على هذه» قلت: لا، بل أنت فاجلس عليها، قال «لا، بل أنت» فجلست، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال رسول الله ﷺ «إيه يا عدي بن حاتم، ألم تَكُ ركوسياً؟» قلت: بلى، قال ﷺ: «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟» قلت: بلى، قال ﷺ: «فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك» قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يجهل.

ثم قال ﷺ: «لعلّه يا عدي بن حاتم، إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم؟ فوالله ليوشكنّ المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوِّهم، وقلة عددهم، فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف إلا الله؟ ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت».

قال عدي: فأسلمت، وقد مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكوننَّ قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها، لا تخاف شيئاً حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكوننَّ الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.

بحث وتنبيه

والنظر المتأمل في هذا السياق المفصَّل لقصة وفادة عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ وإسلامه، وما خصه من الحفاوة والإكرام، وتمييزه بأمور من التلطف فضّله بها على كثير من سروات الوفود وأشراف العرب وزعماء القبائل الوافدين عليه ﷺ للإسلام والبيعة - يرى ما ضمّت رسالة الهدى والخلود عليه جوانحها من معالم منهجها الذي كان رسول الله ﷺ هو القيِّم على تطبيقه عملياً في واقع الحياة، ليكون هذا التطبيق الإيجابي درساً تربوياً

لقادة هذا المجتمع المسلم في مستقبل حياته، وليكون دعامة من دعائم إعداد الدعاة إلى الله، حاملي راية الحق والعدل والتآخي الرحيم، فيما ينبغي أن يكون عليه الذين يتصدَّون لنشر دعوة هذا الدين القيِّم، دين الإسلام، وتبليغ رسالته إلى العالمين في آفاق الأرض.

وليكون أسوة حية فيما ينبغي أن يكون عليه المتصدِّرون من ولاة أمور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في معرفة سياسة الناس، ومعرفة أقدار من يؤمونهم لطلب الهداية على أيديهم، لإنزال الناس منازلهم على حسب أقدارهم بين شعوبهم وأممهم، ومعرفة الفضل لأهله، لما في ذلك من استجابة القلوب لما تسمع من تراتيل الخير وترانيم الحق، لتقبل برغبة صاغية متفهمة لما تسمع.

وهكذا أقبل عدي بن حاتم ـ وهو كما وصف نفسه في جاهليته من الإعزاز في مكانته بين قومه ـ على رسول الله ﷺ ليعرف حال محمد ﷺ، ومكانه من المنزلتين اللتين ذكرتهما له أخته وهو في كليهما مصيب لإحدى الحسنيين، فإن كان محمد ملكاً فلن يذل عدي في ظل ملكه، وعدي هو، هو، العزيز في قومه، وإن كان محمد نبياً فللسابق فضل على من تلبث وتربص. واغتبط عدي بتفكير أخته وهي المرأة الحازمة، وأخذ بمشورتها، وترحّل عدي مقتنعاً برأي أخته ليذهب إلى محمد ﷺ يؤم المدينة، حتى إذا بلغها صوّب إلى المسجد فدخله، ورأى رسول الله ﷺ في مجلسه في المسجد، فتيّممه، فسلم عليه ـ ولم تذكر الرواية أنه ﷺ ردّ السلام على عدي ـ ولكنه بادره بسؤاله عمن يكون، فقال: «من الرجل؟» فرد عديّ منتسباً إلى أبيه، ـ وهو رأس أكارم العرب في الجاهلية ـ فقال: أنا عدي بن حاتم، ومن هنا يبدأ درس من دروس التربية النبوية يمليـه سيدنا رسول الله ﷺ على مرأى ومسمع من مجتمعه المسلم الذي يتدرج بتربيته لإعداده لقيادة الحياة الإنسانية، وبناء صرح حضارة إيمانية أساسها التحرر من عبادة المخلوقين بتوحيد الله الخالق لهذا الكون ومدبره في نظامه الفريد في وجوده، ليخرج البشرية المعذّبة من ظلمات الجهالة والاستعباد الظلوم المتجبر إلى نور العدل والتآخي والتراحم.

ولعلَّ هذا الاستفهام الذي بادر به رسول الله ﷺ عدي بن حاتم

إنما أثاره في نفسه أنه رأى على عدي سمةً فيها ملامح تدل على أنه من سروات العرب وأشرافهم وأعزتهم، الذين تضفي عليهم المكرمات مظهراً من مظاهر التعزُّز الأبِّي الرصين، وكأنهم منائر خبت أنوارها، وينبغي أن تضاء شموعها بمكارم الأخلاق لتدخل في ساحة الإيمان، وتقود السالكين إلى منازل الهداية مؤمنين آمنين.

قال عدي: فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، وهذا من باذخ مكارم الأخلاق التي بُعث ﷺ لتثبيت دعائمها وإعلاء منائرها، لم يصنعه ﷺ إلا مع أقل القليل من بواذخ أشراف العرب، وسرواتهم، بل لم نر في رواية أنه ﷺ صنع هذه المكرمة مع أحد غير عدي بن حاتم، إذ بادر بمجرد أن سمع من عدي اسمه ونسبه القصير الباذخ حتى قام من مجلسه منطلقاً به إلى بيته ليتحفه بإكرامه وينزله منزلته، عرفاناً بشرفه وبالغ فضله في جاهليته، والناس معادن، خيارهم في الجاهلية هم خيارهم في الإسلام.

وكان عديّ رضي الله عنه ما يزال وهو يمضي مع النبي ﷺ في مرحلة التعرف، ليتحقق من وصية أخته ومشورتها، وهي التي أوتيت نصيباً رفيعاً من أصالة الرأي، وقد قالت له: أسرع لتلحق به، فأمره لا يخرج - في وضعه المتوّج بانتصارات مدوية أداخت قبائل العرب، وأدارت رؤوس قادة الجاهلية وزعماء الوثنية عن كواهلها - عن أن يكون نبياً مرسلاً، فللسابق إليه فضل، وللنبوة وداعتها ورقة حاشيتها، ولطفها وتواضعها، ومسارب حسِّها في حركتها إلى القلوب وهي تنسرب في مداخلها لتشذب وتهذب، وتليِّن القاسي، وترفِّه الجاسي، وترقِّق الغليظ، وتسهِّل الجافي، وللرسالات الإلهية شمائلها الرفيعة ومسالكها في التحبب والتحبيب، لتجعل من البشرية في شتَّى مواطنها، ومختلف أجيالها وتفكيرها أسرة واحدة يظلِّلها الإيمان، متواسية متحابة، متساوية متآخية.

وفي ظل مرحلة التعرف وبدء أولى خطواتها (التطبيقية) بدأت أشعة شمس الهداية ترسل خيوطها إلى آفاق قلب عدي بن حاتم في رَيْث ومَهْل، فيرى - وهو يمشي مع النبي ﷺ عامداً به إلى بيته - أن امرأة ضعيفة كبيرة

تستوقف رسول الله ﷺ، فيقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، وهنا يتهاوى قناع التعالي عن قلب عديّ مائلاً إلى أحد جانبيه، ولكنه لا يسقط لتمكن غرزه في سرج الوثنية النصرانية التي كان يدين بها عديّ، ويحس عديّ بميل القناع عن قلبه، وتنسرب أشعة شمس الهداية إلى هذا القلب في خفةّ ولين، ويشعر عديّ بخيوطها تهتز على حفافي قلبه، فيقول محدّثاً نفسه، والله ما هذا أمر ملك، وعديّ رضي الله عنه كان من أعلم الناس بمظاهر الملك وقهره وجبريته وغشمه، وبوائقه وظلمه.

ثم يمضي رسول الله ﷺ في طريقه إلى بيته، وعـدي يتبعه حتى دخل ﷺ البيت وتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فألقاها إلى عديّ، وقال له: «اجلس على هذه» فقال عديّ: لا، بل أنت فاجلس عليها، فقال ﷺ: «لا، بل أنت» وجلس عديّ سامعاً مطيعاً على الوسادة، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، وكانت هذه المَعْلَمة من معالم المنهج الإسلامي نموذجاً يمثل أرفع مكارم الأخلاق في عرفان فضل شرف الشرفاء، وقال عدي يحدِّث نفسه: والله ما هذا بأمر ملك!! وماذا بقي بعد هذا؟ وأسرعت سحائب الظلام فانجابت عن سماء المعرفة والعلم، وعرف عديّ أن محمداً ﷺ لم يكن ملكاً متسلطاً، يكره الناس على الإيمان برسالته واتّباعه، والإيمان بدعوته، دعوة النور، والهدى، والخير، ومكارم الأخلاق، فآمن عدي، واستنار قلبه، ولكنه كان ما يزال مع ماضيه مشدوداً بمشاعره فيما كان يعيش عليه من مظاهر التعالي في قومه.

وهنا أراد النبي ﷺ أن ينتزعه من كابوس أحلامه، ويشدّه إلى الحقيقة الكبرى في الإسلام، وهي حقيقة توحيد الخالق وإفراده بالعبودية، ولم يزل به يحاوره بواقع تاريخ الحياة وتنقلاتها، ليجتثَّ بلبلة الوثنية النصرانية من جذور قلبه، وأراه من أخبار الغيب في أمور يحيا بها عدي بين قومه وهي لا تجوز له في دينه الباطل ونصرانيته الملفقة، ليكفكف من غلواء غروره بهذه النصرانية الباطلة، فقال له ﷺ: «إيه يا عديّ بن حاتـم، ألم تكن ركوسياً؟» قال عدي: بلى، ومعنى هذا التساؤل النبوي بيان أن عدي بن حاتم لم يكن على

شيء من النصرانية تديناً، وإنما كان على نِحْلة ملفَّقة لا تعرفها النصرانية التي يدّعيها عديّ ديناً له، وهذا كشف عن حقيقة كان يطويها عديّ في مداخل قلبه ليعيش بها في قومه ملكاً.

ثم قال النبي ﷺ: «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟» قال عديّ: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك» وهنا استخزى عدي، وعرف أن أمر محمد ﷺ أمر إلـهي، لا يبلغه إلّا نبي مرسل من الله تعالى، ولذلك قال عدي: أجل والله، إنه كان على نحلة ملفّقة بين النصرانية والصابئة، ومع تلفيقها وبطلانها فإنها لا تسوِّغ له أن يسير في قومه بالمرباع، وهو أخذ ربع غنائمهم.

ثم سلك النبي ﷺ به مسلكاً سياسياً قائماً على إخبار بالغيب لا يعلمه عدي ولا غيره، وهذا الإخبار يجمع بين الإعجاز، والتوجيه، فأما الإعجاز ففي كونه إخباراً بالغيب تحقق في واقع الحياة وشاهده عـديّ وغيره من جماهير الوافدين للإسلام والبَيْعة، كما وصفه المجتمع المسلم الذي حقق أسبابه واجتنى جنيه، وأما التوجيه ففي إعداد المجتمع المسلم للجهاد في سبيل الله ,ونشر الدعوة وتبليغ الرسالة خارج الجزيرة العربية بعد أن تطهّر داخلها من رجس الوثنية وأوضار الشرك، وقد بدأ هذا التوجيه بغزوة تبوك التي كانت الخطوة الأولى في التحرك الإيجابي للجهاد خارج الجزيرة العربية للبدء في تحقيق عموم الدعوة ونشرها في الآفاق.

ولا شكّ أن هذا الإعداد للمجتمع المسلم قائم على أن يكون هذا المجتمع مستعداً متأهباً بما ينبغي أن يكون عليه المجاهدون من القوة المادية التي تؤازر القوة الروحية في نشر الدعوة والدفاع عنها، مع ما في هذا الإخبار الغيبي من إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من صدق التوكل على الله من الطموح المترفِّع عن صغائر الحياة، ومع ما فيه مـن الإشارة إلى أن الأمم التي تعيش بعيداً عن حقيقة التوحيد والإيمان قد نخر السوس جذوعها، فهي دَوْحات منتشرة الأغصان، متـآكلة الجذور، لا تماسك لها بالأرض التي تقوم عليها.

فكان لابد من اجتثاث عوسج الشرك، وضريع الوثنية من أرض الإنسانية، وإلقاء بذور دوحات التوحيد، والتحرر من ربقة العبودية للمخلوقين.

وهذا المسلك السياسي الحكيم كان من قبيل المفاجأة لمشاعر عديّ ابن حاتم لتنبيه هذه المشاعر المتأرجحة في مداخل نفسه، ونفس كل زعيم من زعماء القبائل العربية التي تباطأت عن الدخول في هذا الدين، حباً في التعالي بين أقوامهم، واستدامة للثراء والجاه على حساب ما يتقاطر من عرق أولئك الأتباع وما يسفك من دمائهم في سبيل رغائب الزعماء، ليعيشوا في عنجهية الترف المهلك، ولقد كان الفقر هو سيما العرب قاطبة، يحيون في شظفه وقفاره، وبؤسه البئيس، فإذا عضّتهم المسغبة حتى أسلمتهم إلى المتربة سطا قويهم على ضعيفهم، وقادرهم على عاجزهم ليستلب منه ما في يده ليعيش دون أن يبالي بمن سواه، وهؤلاء الزعماء الذين يوجّهون الجماهير لطاعتهم تحقيقاً لشهواتهم المترفة قلة يعيش أقوامهم في ظل استبدادهم بهم عبيداً لما تقبض عليه أيديهم من فتات الحياة.

وكان عديّ بن حاتم من هذه القلّة التي عاشت في قومها عيشة الملوك المستبدين، وقد قرأ النبي ﷺ ما كان مسطوراً في صحيفة ضمير عديّ ممّا كان يكتمه في صدره، ويكنّه بين جوانحه من هلع وخوف أن يسلمه الإسلام إلى الفقر والشظف ويبس العيش، ومشقة السعي للحصول على الضروري منه، فبادره ﷺ بقوله ـ بعد أن نزع من قلبه حسك التعالي والاستكبار، وعيشه بين قومه ملكاً غير متوّج، وسيداً بالبأو والتنفّج مسوّداً تجبى إليه المرابع من غنائمهم التي يعرضون لأجلها رؤوسهم أن تتهاوى من فوق أعناقهم إرضاء لتلمُّظ شهوات زعامته: «ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم» وقد كان كذلك في نفس عديّ بن حاتم، لأن النقلة من حال الترف في مظاهر الملك المصطنع إلى حال الفقر المدقع الذي لا يكاد يجد فيه ما يسد الرمق أمرّ على النفس التي عاشت في قومها عيشة عديّ في ملكه المزور.

ثم تابع النبي ﷺ قوله بعد أن هزّ كل ذرة في كيان عديّ ليوقظه من أحلام الماضي إلى صدق الأمر المتوقَّع في المستقبل القريب الذي سيشهده عدي، ويوغل في متعته حلالاً طيباً «والله ليوشكنَّ المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه» وهذا تبشير لعدي خاصة ليسرع إلى رسوخ اليقين، وتبشير عام للمجتمع المسلم ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وإنذاراً للذين عمُوا عن أنوار الهداية ركوناً في ظلام الغرور، ليعلم الناس مؤمنهم ومشركهم أن الشدّة التي تغلِّف حياة المجتمع المسلم إنما هي سحابة عرضت في أفق الابتلاء، ليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، وستنجاب عنه قريباً سُحُب العُسْرة، وتشرق في آفاقه شموس الثراء الطافح الفيّاض، فيكثر المال في أيديهم، ويعمُّ الأفراد والجماعات، وتخرج منه الصدقات وافرة غامرة فلا تجد لها آخذاً محتاجاً، ولا متكثراً لتوافر الكفاية وما فوقها.

ودخلت الطمأنينة إلى قلب عديّ بن حاتم ومعها دفء اليقين، وبرد الإيمان، وامتلأت مشاعر عدي بأنه سيجد وهو أحد أفراد المجتمع المسلم ما يعوضه عن ملكه الزائف، ومرابعه الممزوجة بدماء قومه في حياة إيمانية نظيفة طيبة، فطابت نفسه، واستحوذ عليه الرضا بالمستقبل والرضا بحياة يغمرها الإيمان ويزينها الإسلام.

ولم يقف سيدنا رسول الله ﷺ في مساءلته لعديّ بن حاتم عن الحوائل التي تحول بينه وبين الدخول في هذا الدين، ومحاورته له محاورة منتزعة الموضوع مما يجول في داخل نفس عدي عند هذا الذي هيأ عقل عديّ ووجدانه لتفهّم واقع الإسلام ومستقبله، ولكنه ـ وهو الحكيم الذي أعطاه الله قوة من الإشراق الروحاني تسامت بإشراقها فوق جميع قوى إشراق الروحانية العليا ـ رأى أن عدياً ما يزال يداخله مع نور الهداية شيء يشدّه إلى الإعظام الجاهلي للقوة المادية، والتهيّب لها في مواطنها من وثنيات الأمم عرباً أو غير عرب، وهذه القوى المستعظمة في نظره المتهيبة في ماضيه الموروث تتمثل في كثرة عدد الذين يناصبون هذا الدين بالعداوة والبغضاء، ويقفون من دعوته موقف المناهض المحارب، ولا سيما أن عدياً بحكم نصرانيته الملفَّقة رأى في جموع الروم ببلاد الشام وما وراءها من أقطار

الاستعباد الروماني، وكأنهم صف يمتد حتى يبلغ روما عاصمة النصرانية المحرّفة، في جموع متكاثرة تكاثراً يسدّ عين الشمس، كما أن عدياً رأى جموع الفرس وحشودهم الضخمة وهم المنافسون للروم عدداً وعدّة.

وقد كانت الحرب بين الأمتين: الفرس والرومان سِجالاً، ولم يكن للعرب وجود ذو قيمة تتقى من أي أمة من الأمتين، بل كان الهلع والرعب من مجرد، ذكر اسمي الأمتين: الروم والفرس يصمُّ آذانهم، ويُعمي أبصارهم، ويبكم ألسنتهم، فأراد النبي ﷺ أن لا يستبقي في مشاعر عدي بن حاتم شيئاً من هذا الإعظام الذي كسرت شوكته غزوة تبوك، والذي جعل قلب عدي كالأرجوحة، يهتز بين الخوف الهالع والرجاء الواجم، الخوف من هذه الكثرة الهائلة المعادية للإسلام ومجتمعه، والرجاء في قوة الإيمان التي اكتسحت الجزيرة العربية، وجاءت به بعد هربه مستسلماً إلى دوافع الهداية، فقال ﷺ له ليثبت الإيمان في قلبه حتى يرى الأمن والأمان يمدّان جناحيهما وينشران ظلالهما على جميع من تقلّه أرض الإسلام على اتساع أرجائها، وتظلّله سماء الإيمان على ترامي إطاراتها: «فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله» ومعنى هذا أنه ﷺ يخبر بأن ظلال الإسلام ستمتد، وتفتح الأقطار والبلاد، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، ويتعاظم عدد المسلمين كثرة، ويفوق عددهم عدد أعدائهم، وهم محصّنون بمكارم الأخلاق ونور الإيمان، فيشيع بينهم الأمن ونخوة الإيمان.

وقد ضرب النبي ﷺ المثل في الاستشعار بالأمن بالمرأة، لأنها المخلوق الإنساني مهيض الجناح، ضعيف المقاومة، المثير للمطامع في أنفس الذين كانوا يعيشون في الدعارة وإخافة الآمنين، حتى دخلوا في هذا الدين فأذابهم في بوتقته، وأحالهم إلى مُثُلٍ حيّة للهداية والنخوة الإيمانية، لا يخيفون أحداً ولا يعتدون على أحد، ولكنهم ينهضون لحماية الضعيف وإغاثة الملهوف، ونجدة المكروب، وإعلاء شأن المؤاخاة التكافلية بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته أينما كانوا من أرض الله.

تلك المؤاخاة التي أقام على دعائمها رسول الله ﷺ صرح بناء هذا المجتمع، والتي أسس ﷺ على مبادئها أصول تربيته الاجتماعية التي ينبغي أن يعيش بها المجتمع المسلم في مستقبل حياته الرائدة لحياة الإنسانية.

وعلى ركائز هذا المنهج التربوي الاجتماعي ارتفع لواء المؤاخاة خفاقاً فوق قمم دنيا الإسلام، ومجتمعاته أينما كانوا، وكيفما كانوا في تفكيرهم ومعارفهم ما داموا في داخل سياج أصول الإسلام.

ومن ثَمّ يصبح كل رجل في هذا المجتمع المسلم أباً لكل طفل وطفلة، وأخاً لكل رجل وامرأة فيه، يذود عن ضعيفهم، ويحمي حوزتهم، ويغض عن محارمهم حتى يكون المجتمع المسلم أسرة واحدة على اتساع رقعة أوطانه وترامي أكنافه وأرجائه، يحس من كان في أقصى الأرض من أفراده وجماعاته بألم وشكوى من كان منهم في أطارفها الأخرى، ويشارك كل فرد من أفراده أو جماعة من جماعاته كل فرد أو جماعة نأت عنه بأوطانها فرحتهم، ولم تكن عينه قد اكتحلت بمرآه، ولكن وحدة الشعور والإحساس الوجداني كانت هي بريد الاتصال بينهم.

وإذ بلغ الإسلام هذا المستوى من البناء الاجتماعي في حياة معتنقيه ـ وهو هدفه الأصيل ـ من دعوته، وجماع معالم منهج رسالته التي أرساها النبي ﷺ، ثم خطا بها خطوات داخلية وخارجية، وضع بها ﷺ بها مجتمعه على أول نقطة في خط الحياة المستقبلة للمجتمع المسلم، وقد تابعه أصحابه الذين ربّاهم على عينه مدة عهد الشيخين: الصديق أبي بكر والفاروق عمر رضي الله عنهما، حتى ضرب الشيطان ضربته التي مزق بها أديم المجتمع المسلم كل ممزق.

وفي لفحة هذا التفسّخ مضى المجتمع المسلم يقتل بعضه بعضاً في فتن جائحة أوقفت المدّ الإسلامي، ثم ردّته إلى الجاهلية الأولى، ووقف الشيطان وجنوده ومِنْ ورائهم أعداء هذا الدين وفي أيديهم معازف العصبيات القبلية والقومية والوطنية، يعزفون لهم عليها لحن تأريث العداوات الفاجرة والبغضاء الكافرة.

وليعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، حكاماً ومحكومين أن الذئاب لا تشبع من لحوم الحملان، ولن تترك الذئاب صيدها الشهي من لحوم هذه الحملان المسلمة ما دامت حظائر الحملان مهملة لا تحرسها كواسر جيوش الجهاد بزئيرها الذي يشقّق مرائر الذئاب في أكبادها، ولا تجمعها كتائب الاستشهاد في سبيل العزة والكرامة.

ولن تشفع للحملان محالفات الصداقات، ومعاهدات المصالح المشتركة مع قطعان الذئاب الجائعة، ولن تجدي الحملان شيئاً في حمايتها والدفاع عنها الخطب الرنانة، ولا أحاديث الإذاعات الطنانة، ولا الأقلام المأجورة المسترزقة، ولا بيانات (التلفزة) المصورة، ولا احتفالات العبث المزوّرة على الدين، ولا التصريحات العاوية المكتوبة من دماء الحملان بمخالب الذئاب.

وليعلم المسلمون أن الزمن استطال بهم في تجارب التحضر المادي بعيداً عن هداية الإسلام الروحية والفكرية والعسكرية، وكانت حصيلة هذه التجارب التي لم يشهد الإسلام مؤتمراتها الخيبة والبوار، والذل والهوان وازدياد سوء الحال، ولم يبق للمسلمين من التجارب إلا تجربة العودة إلى دينهم وتاريخهم، وهداية دعوتهم إلى الله، عقيدة وتعبداً، وتفكيراً، ونظاماً اجتماعياً، وسلوكاً أخلاقياً، وأدباً تربوياً، وخوضاً في غمرات الموت في سبيل العزّة الإيمانية، فهذه العودة هي المنقذ لهم من الضلال الذي أُركسوا في مهاويه بالتقليد الأعمى والتبعية العشواء والجري وراء مظاهر الشهوات الفاجرة من خلف كثائف الستور، وجدران القصور، والله تعالى لا تخفى عليه خافية، وكيده متين، وإملاؤه فتون، وإمهاله استدراج، وأخذه قهر واقتدار.

وقد جاءت في قصة عدي بن حاتم، ومجيئه إلى رسول الله ومحاورته وإسلامه، بعد هربه من بلاده إلى الشام خوفاً من كتائب المجتمع المسلم المجاهدة التي يبتعثها رسول الله ﷺ إلى شراذم قبائل العرب وبطونهم يدعونهم إلى الإسلام ـ روايات أخرى مختلفة السياق والأحداث والأحاديث

بأسانيد مختلفة، ساق ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) كثيراً منها، بعد أن ساق رواية ابن إسحاق المتقدمة معلّقاً عليها بما يغمزها في إيرادها بغير إسناد، فقال: هكذا أورد ابن إسحاق رحمه الله هذا السياق بلا إسناد، ثم قال ابن كثير يسندها بعد غمزها: وله شواهد من وجوه أخر.

ونحن نسوق من هذه الروايات ما نرى فيه شيئاً من معالم منهج الرسالة الخالدة، وننبه على ذلك في تعليق يبرز ما لم تبرزه الروايات المتقدمة، مع ذكرنا بعض المخالفات بين الروايات.

روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى من طريق عبّاد بن حُبَيش، يحدِّث عن عدي بن حاتم قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ وأنا بعقرباء ـ وهي كورة من كور الشام ـ فأخذوا عمتي وناساً، فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ، فصفّوا له قالت ـ أي عمة حاتم ـ يا رسول الله، بان الوافد وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمنّ عليّ منّ الله عليك، فقال ﷺ: «من وافدك» قالت: عدي بن حاتم: قال ﷺ: «الذي فرّ من الله ورسوله» قالت عمة عدي: فمنّ عليّ، فلما رجع ورجل إلى جنبه ـ ترى أنه عليّ رضي الله عنه ـ قال: سليه حُمْلاناً، فسألته فأمر لها.

قال عدي: فأتتني فقالت: لقد فعلت فعلةً ما كان أبوك يفعلها، ثم قالت إيته راغباً أو راهباً، فقد أتاه فلان فأصاب منه، قال عدي فأتيته، فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي ـ فذكر قربهم منه ـ فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر.

ثم قال ﷺ لعدي: «يا عدي بن حاتم ما أفرّك؟ أفرّك أن يقال لا إله إلا الله، فهل من إله إلا الله؟ ما أفرّك؟ أفرّك أن يقال الله أكبر؟ فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل؟».

قال عديّ: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: «إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالّين النصارى».

قال عدي: ثم سألوه ـ أي أصحابه ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد: فلكم أيها الناس أن ترضخوا من الفضل، ارتضخ امرؤ بصاع، ببعض صاع، بقبضة، ببعض قبضة» قال شعبة: وأكثر علمي أنه قال: بتمرة، بشقّ تمرة، «وإن أحدكم لاقي الله، فقائل ما أقول: ألم أجعلك سميعاً بصيراً؟ ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فماذا قدّمت؟ فينظر بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، فما يجد شيئاً، فما يتّقي النار إلا بوجهه، فاتّقوا النّار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة لينة، إني لا أخشى عليكم الفاقة، لينصرنّكم الله ـ أو ليفتحنّ عليكم ـ حتى تسير الظعينة بين الحيرة ويثرب، إن أكثر ما تخاف السرق على ظعينتها».

ثم قال ابن كثير: وقد رواه الترمذي من حديث شعبة، وعمرو بن أبي قيس كلاهما عن سماك، ثم قال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك.

هذه الرواية على إسهابها جيّدة السياق، وقد اشتملت على أمور مفيدة لم تذكر في غيرها من روايات قصة عديّ بن حاتم، كما اشتملت على بعض المخالفات للروايات السابقة، فذكرت ما لم تذكره تلك الروايات، وأظهر هذه المخالفات أن هذه الرواية هي التي انفردت ـ في نظرنا بعد البحث بقدر المستطاع ـ بأن السبيّة من آل عديّ بن حاتم هي عمته، لا أخته، ولم تسمَّ واحدة منهما في هذا الحديث ولا في غيره، فهي رواية شاذّة أو محرّفة مغلوطة، والذي جاء عن السهيلي في حكاية ذكرها في الروض، واستنبط منها أن أخت عديّ التي ذكرتها روايات الجمهور على أنها هي السبيّة التي تعرّضت لرسول الله ﷺ تطلب منه أن يمنّ عليها، لم يكن نصاً في حديث من أحاديث قصة عديّ بن حاتم، وإنما كان استنباطاً من حكاية أدبية في سخاء حاتم، وما بلغ إليه جاءت على لسان امرأته.

ومن هذه المخالفات التي تضمنتها هذه الرواية بالنظر إلى الروايات الأخرى ما أجرى على لسانها في لومه وتعنيفه حينما وصلت إليه في أرض الشأم مما يناسب أنها عمته، ثم ترغيبها له في القدوم على رسول الله ﷺ بما وصفته من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فهو ﷺ لا يخيّب من قدم عليه،

وذكرت له أن ناساً من أشراف العرب قدموا عليه فأصابوا من نواله.

ومن هذه المخالفات أن سائر روايات الجمهور ذكرت أن بَدْء لقاء عديّ لرسول الله ﷺ كان بالمسجد، وأنه سأله: «من الرجل؟»، فذكر عديّ اسمه ونسبه إلى أبيه، فبادر رسول الله ﷺ بالقيام والسير به إلى بيته، ولكن هذه الرواية انفردت بأن عديّاً لما بلغ المدينة المنورة لم يدخل المسجد، ولكنه صوّب إلى حيث كان رسول الله ﷺ في بيت ابنته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، قال عديّ: فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي، فذكر ﷺ قربهم منه، ومن الراجح الذي لا يبعد عن اليقين أن المرأة وصبييها أو صبيها إنما هي بنته ﷺ فاطمة الزهراء وابنيها: الحسن، والحسين، أو أحدهما.

قال عديّ بعد أن رأى هذا المظهر الإنساني النبيل في مجلس سيد الخلق مع ابنته وصبييها في غير تكلف مع التواضع والمحبة، مما لا يخلو عن شيء من الدعابة الرفيعة التي كانت من سماته ﷺ مع أهله وأسرته.

وهنا يعترف بأن ما رآه من حاله ﷺ في سمو أخلاقه، ولطف معشره لم يكن فيه من مظاهر الملك وعجرفة المالكين، وضرب عديّ المثل بما رأى في ملك قيصر وكسرى من العنجهية والاستكبار في الأرض.

ومن هذه المخالفات بين هذه الرواية وروايات الجمهور اختلاف أسلوب المساءلة والمحاورة التي وقعت من النبي ﷺ مع عديّ في سبب فراره، ليفتح مغاليق قلبه للإيمان، مع الإيجاز النبوي المعجز في هذه الرواية، والإسهاب وتخالف المعاني والحقائق التي دارت حولها المساءلات والمحاورة، وهذا اختلاف أساسي، ولذلك انتهت هذه المساءلات بإسلام عديّ واستبشار النبي ﷺ بإسلامه وهدايته، وأفهمه بأن الله تعالى أنجاه من ملّة قوم أصابهم غضب الله وسخطه، كما أنجاه من ملّة الضُّلّال، فقال ﷺ يفسر ما ختمت به فاتحة الكتاب بما هو كالنموذج للمعنى، فكل من عرف الحق وتباعد عنه وناوأه فهو مغضب لله تعالى، وأظهر مثل لذلك هم اليهود، وكل من أقيمت له منائر الهداية فانحرف عنها إلى متاهات الضلال فهو ضال حيران لا يعرف الحق من الباطل، وأوضح مثل لذلك هم النصارى.

قال عديّ: ثم سألوه - أي أصحابه رضوان الله عليهم - عن أشياء من أمور الدين والقُرَب في صدقات المال وغيرها ليرشدوا في حياتهم، ويرضوا ربهم، فحمد ﷺ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: فلكم أيها الناس أن ترضخوا من الفضل - والارتضاخ هو العطاء المقارب الذي لا يستكثر فيه إكثار القادرين، ولا يستقل فيه إقلال الذين لا يجدون إلا جهدهم - وهذا لون من التربية الاجتماعية المتواسية المترافقة يوجه به النبي ﷺ مجتمعه إلى روح التعاطف والتراحم، فلا يَحْقِر أحد إنفاق ما يستطيع مهما قلّ، وفي سنة النبي ﷺ أمثلة ونماذج من ذلك نرجو أن نعرض لها عند الحديث عن الشمائل النبوية.

وقد بيّن ذلك صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث ليري عدياً أن تربية الإسلام الاجتماعية لا تقوم على التكاثر والتظاهر، وإنما تقوم بعد الإيمان على المؤاخاة التكافلية، فالمؤمن أخو المؤمن، يواسيه ويرتفق كل منهما بما عند الآخر، فقال ﷺ: «ارتضخ امرؤ بصاع، ببعض صاع، بقبضة، ببعض قبضة، بتمرة أو بشق تمرة، أو بكلمة لينة» تقع من قلب المؤمن موقع قطر الغيث من الصَّدْيان.

ثم ذكر ﷺ أن جميع ما أوتيه الإنسان من نعم الله وفضله مسؤول عنه يوم يلقى الله، فيسأله مقرراً له بما أفاض عليه من إحسانه، وخصَّ السمع والبصر بالذكر لأنهما منفذ الإدراك الفكري الذي تنقل إليه مظاهر الجلال الإلهي في الكون عن طريقهما، فهما رسولا العقل، الذي يحوّل إدراك المحسوس بهما إلى معرفة بالله تعالى ليستقر في قلب المؤمن أن المعرفة التقليدية هباء منثور، لا وزن لها في قيم الإيمان.

ثم ذكر ﷺ نعمتي المال والولد لأنهما زينة الحياة الدنيا، فعن طريقهما يتذوّق المرء حلاوة الحياة فيحسن كما أحسن الله إليه، فإذا بطر بنعمة الله في السمع والبصر والمال والولد فقد أذهب طيباته في هذه الحياة الفانية، وقدم على ربه مفلساً من الإيمان والعمل، وقد طولب بالجواب عما قدّم في حياته

من شكر هذه النعم، فينظر في ذهول وحَيْرة أمامه فلا يجد شيئاً قدّمه، وينظر من خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وسائر أقطاره وجوانبه علّه يجد شيئاً قدمه، ـ فلا يجد شيئاً يتّقي به لفح النار إلا وجهه.

ثم أبان ﷺ عن رحمة الله في أشد ما يلقى المرء من مآزق الاحتياج فقال: «فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة لينة» ومعنى هذا أن المؤمن ينبغي له أن يقيم حياته العملية على ملكات المكارم، يتعاهد بها نفسه ويربِّيها على التزوُّد منها حتى تكون طبيعة من طباعه، يأتيها الإنسان دون تكلّف أو شعور بالمضض.

والتدرج في تربية ملكات الخير من أنجع وأيسر طرائق غرس الخير في النفوس، فإعطاء القليل بعد القليل يغري بالكثير، وتكرار العمل في سبل الخير ينضجه وييسِّره على النفس الإنسانية.

ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الله تعالى أنه يجزي على القليل كثيراً، ويجعل من هذه القليل جُنّة من عذاب الله وسخطه، والقرآن الكريم جعل مثقال الذرّة مقياس الخير والشر في ميزان العدل الإلّهي.

ثم التفت ﷺ إلى صاحبه عدي بن حاتم وجوّ إسلامه فأراد أن يثبته، ويرسخ اليقين في قلبه بالنسبة لمستقبل المجتمع المسلم وما سيلقى من أمور الدنيا وخيراتها، وما سينال من نصر وعطاء من فضل الله، وفتح البلاد والممالك لهداية الإسلام، وأمن واستقرار، وحرية واطمئنان، تأكيداً لما مضى في محاوراته مع عدي، وضرب المثل له بالمرأة تخرج على رحَلْها وحيدة، لا تخاف أحداً إلّا الله تعالى، لا يخشى عليها إلا عبث السرق على ظعينتها، وأمثال ذلك من صغائر الأمور التي لا تخلص منها الحياة.

ومن روايات قصة عدي وقدومه على رسول الله ﷺ وإسلامه وما جرى له من أحداث ما خرّجه الإمام أحمد ـ أيضاً ـ من حديث محمد ابن سيرين، عن أبي عبيدة بن حذيفة، عن رجل، ومن طريق حماد، وهشام عن محمد بن أبي عبيدة، ولم يذكر عن رجل، فذهبت عن الحديث الجهالة في هذه الرواية، وحماد هو ابن زيد، وهشام بن عروة وهما ممن اتفق على توثيقهما.

قال الرجل الذي روى عنه أبو عبيدة بن حذيفة ولم يسمِّه، أو محمد ابن أبي عبيدة بن حذيفة: قلت لعدي بن حاتم: حديث بلغني عنك، أحب أن أسمعه منك، قال: نعم، لمّا بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة، فخرجت حتى وقعت ناحية الروم ـ وفي رواية: حتى قدمت على قيصر ـ فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه.

قال عدي: قلت: لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يضرني، وإن كان صادقاً علمت، فقدمت فأتيته، فلما قدمت قال الناس: عدي بن حاتم!! فدخلت على رسول الله ﷺ، فقال لي: «يا عدي بن حاتم أسلم تسلم» قالها ثلاثاً، قال عديّ: إني على دين، قال ﷺ «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال «نعم، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت بلى، قال: «هذا لا يحل لك في دينك» قلت: نعم، فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها.

ثم قال ﷺ: «أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام، تقول اتّبعه ضَعَفة الناس، ومن لا قوة لهم، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قال عدي: لم أرها، وقد سمعت بها، قال ﷺ: «فوالذي نفسي بيده ليتمَنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتَحَنَّ كنوز كسرى بن هرمز» قال عدي: قلت: كسرى ابن هرمز؟! قال صلوات الله عليه: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد».

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تأتي من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى، والذي نفسي بيده لتكوننّ الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

في هذه الرواية لطيفة أسلوبية تميزها عن سائر الروايات، وفيها الحجّة لرواية الحديث بالمعنى، وأن الأسلوب قد يختلف في التعبير عن المعنى الواحد، فيكون أحد التعبيرين أحلى مذاقاً من صاحبه.

فالروايات السابقة تقول على لسان عدي بن حاتم ـ وشاهدها رواية

ابن إسحاق أنه قال: ما رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، وتقول الرواية: فلما سمعت برسول الله ﷺ - كرهته ولا ريب أن التعبير بكراهة خروجه ﷺ ألطف من التعبير بكراهته، لأن ما كان يتحلّى به من رفيع الشمائل خَلْقاً وخُلُقاً لا يمكن أن يتعلق بها كراهة لشخصه ﷺ، وإنما الكراهة كانت لما جاء به من رسالة الهُدَى التي كان هدفها الأعظم هو القضاء على الشرك والوثنية والظلم والطغيان المستكبر، وتثبيت عقيدة التوحيد، وإقامة موازين العدل والإخاء والمحبة، نحن لا ندافع عن جاهلية عدي بن حاتم التي لا تبالي بجفوة الأسلوب.

وفي هذه الرواية من المخالفة أن عدياً قال: فخرجت حتى وقعت ناحية الروم، أو حتى قدمت على قيصر، فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه ﷺ، لأن عدياً شعر بأن ما كان فيه من مكانة بين قومه لم يبق له وجود أمام صلف قيصر واستكباره.

قال عدي: فلما قدمت على رسول الله ﷺ رآني أصحابه قبل أن أراه وأجلس إليه في مجلسه، فقال الناس: عدي بن حاتم، فرحاً بقدومه لمكانته في جاهليته، وهذا نوع من لفت النظر مفاخراً بأنه معروف المكانة.

قال عدي ثم دخلت على رسول الله ﷺ، وجلست في مجلس مع أصحابه الذين أخذوا بمجالسهم أكنافه وحفُّوا به في إعظام وتوقير وحب، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال له: «يا عديُّ بن حاتم، أسلم تسلم» قالها ثلاثاً تبليغاً ودعوة إلى الإسلام.

وهنا تتسع دائرة المخالفة بين هذه الرواية وغيرها من الروايات، لأن في بعضها أن رسول الله ﷺ لما رآه على زيِّه وسمته بادره بقوله «من الرجل؟» فانتسب له عدي وذكر اسمه واسم أبيه، فقام رسول الله ﷺ وانطلق به إلى بيته ليخصّه بإكرامه تألفاً لقلبه على الإسلام، وبينا رسول الله ﷺ في طريقه إلى بيته يتبعه عدي رأى عدي من شمائل رسول الله ﷺ ورفيع أخلاقه ومحاسن شِيَمه وتواضعه ما رأى في وقفته مع امرأة ضعيفة كبيرة، بلغت من علو السن ما كشف عن ضعفها، استوقفته طويلاً تحدثه في شأنها.

وهنا اهتز قلب عدي وعرف أن هذه الخصلة النبيلة من التواضع والصبر الجميل، والحلم الكريم ليست من ملك كسرى، ولا قيصر في شيء، ولكنها سجية لا يملكها إلا الذين لا يبالون بمظاهر الدنيا وزينتها.

ولا شك أن هذا كله مباين لما جاء في هذه الرواية، وزاد في استفتاح قلب عدي للهداية أن النبي ﷺ لما دخل في بيته ومعه عدي ألقى إليه وسادة تكريماً له، وقال له: «اجلس على هذه» فمنع الأدب عدياً أن يجلس عليها توقيراً لرسول الله ﷺ، وقال: بل أنت اجلس عليها، وعزم النبي ﷺ الأمر وقال: «بل أنت»، فجلس عدي على الوسادة إطاعة لرسول الله ﷺ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. وهذا أيضاً زاد في اهتزاز قلب عدي وجعله يحدث نفسه بقوله: والله ما هذا بأمر ملك، ثم أخذ النبي ﷺ في محاورة عدي ليزيح عنه رهام ظلام الجاهلية الذي تبقّى في نفسه.

وبدأ رسول الله ﷺ محاورته الحكيمة المحكمة بتخليصه مما عسى أن يكون خبيئاً في مشاعره ليطهّره من أدران الجاهلية عامة وجاهليته في ملكه الزائف، وما كان يصنعه بقومه من المظالم، وما كان يصنعه به قومه من التعبد لسلطانه، ويستنبت في أرض قلبه وعقله ومشاعره رياض الإيمان التي لا تنبت إلا في أرض طهور، فأراه أنه على نِحلة ملفّقة من النصرانية والصابئة المجوسية، وأنه يمشي في قومه بظلم لا تجيزه نحلته الزائفة، وهذا إخبار مُعْجِز لم يسَعْ عدياً أن يصبر على فضحه، فاعترف به وعرف يقيناً أن محمداً ﷺ نبي مرسل يخبر بالغيب فيخبر به، فإذا هو في صدقه كفلق الصبح ضياء ووضوحاً، فقال مقراً بصدق ما أخبر به رسول الله ﷺ: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يجهل.

ثم أراه ﷺ ما كان يكنُّه في نفسه من موانع تحجزه عن الدخول في الإسلام حتى انتهى به الأمر إلى ما لم يكن له منه بدّ، فأسلم، وكان يتحدث بأخبار النبي ﷺ، ويقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكوننّ، وفي رواية: لأن رسول الله ﷺ قد قالها، وهذا دليل على رسوخ إيمانه بصدق رسول الله ﷺ فيما يحدّث به ويخبر عنه.

ولنزمّ زمام القلم، ونكتفي بهذا التحقيق القليل عما يدور في النفس من الكثير، وما ذكرنا من البحث في موازنة الروايات فيه غناء لمن يريد.

* * *

وإلى هنا ـ أيضاً ـ نقف عن الاسترسال في عرض قصص الوفود، وما كان فيها من أحداث، وما وردت به في شأنها الأحاديث والآثار، فالقليل يدلُّ على الكثير، وسيجد قارىء الكتاب كثيراً من الوفود وأخبارها وقصصها وأحداثها وأحاديثها وآثارها والتعليق عليها فيما قدمنا عند مناسباتها مبسوطاً مفصلاً.

تم بعونه تعالى الجزء الرابع
من كتاب محمد رسول الله
وبه ينتهي الكتاب
والحمد لله الذي بنعمته
تتم الصالحات

خاتمة
ولمحة عن حياة المؤلف
رحمه الله

وبعد:

إلى هنا ويقف القلم عن متابعة الكتابة فيما بقي من السيرة الشريفة، ـ وما بقي إلا القليل ـ لقد أوقف القدر الإلهي الذي لا يُرد قلم المؤلف عن المضي في الكتابة، واستأثرت رحمه الله بشيخنا ولمّا يتح له أن يكتب في: حجة الوداع، ووفاة الرسول، وعن اليهود في السيرة، وكان ينوي تأخير الحديث عنهم ويجمعه في فصل واحد في نهايتها. وإن كان قد جرى ذكرهم في مواضع شتى من الكتاب.

ولكن عزاءنا وعزاء القراء أن المؤلف أتيح له أن يكتب في القسم الأعظم من سيرة سيد المرسلين ﷺ، فقد كتب وأفاض الكتابة في معالم السيرة الكبرى، وفي أبرز وقائعها وأشهر أيامها، وفصَّل فيما كتب تفصيلاً لا مزيد عليه، ونفذ إلى أعماق الأحداث فبيَّن معانيها وأسرارها، وربط كل ذلك بواقع حياة المسلمين، وترك أمامهم المجال كي ينتفعوا بما في سيرة رسولهم ﷺ.

لقد كان للمؤلف ـ رحمه الله ـ جولات واسعة وعميقة وذات شأن خطير في

السيرة والتاريخ الإسلامي، وفتح فتحاً جديداً للدارسين من بعده في هذا المجال الهام من علوم الإسلام وثقافته، وأرسى معالم مدرسة جديدة لفهم السيرة ولكتابتها سوف ينتفع بها أجيال من الباحثين والمؤلفين وإلى زمن بعيد إن شاء الله.

* * *

لست الآن في مجال الثناء على هذا الكتاب، وأترك الحكم عليه للعلماء والنقاد والقراء، لكنها نفثة قلم محب ومنصف إن شاء الله، وتوضيح للقارىء الكريم الذي قد يتساءل ويقول: وأين تتمة الكتاب؟

لمحة عن حياة المؤلف

هذا ملخص لحياة فضيلة الشيخ محمد الصادق عرجون مؤلف كتاب «محمد رسول الله ﷺ» قصد به بيان علمه وفضله رحمه الله راجين من الله عزّ وجلّ أن ينفع بعلمه المسلمين وأن يجزيه عن علمه النافع خير الجزاء.

ولد مؤلف هذا الكتاب في عام ١٩٠٣ الميلادي، وتخرج في الأزهر على نظامه القديم قبل إحداث نظام الكليات، ونال شهادة العالمية النظامية في سنة ١٩٢٩. ثم التحق بقسم التخصص ونال شهادته في عام ١٩٣٥، وعين مدرّساً بمعاهد الأزهر الشريف، ثم نقل إلى كلياته حيث عمل مدرّساً بكلية اللغة العربية ثم كلية أصول الدين.

ثم عُيِّن فضيلته شيخاً لمعهد دسوق الديني، واهتم هناك بنشر مراكز تحفيظ القرآن الكريم، ثم انتقل شيخاً لمعهد أسيوط الديني من عامي ١٩٥٣ - ١٩٥٤، ثم شيخاً لعلماء الإسكندرية وعميداً لمعهدها لمدة عشر سنوات.

وفي عهده بالإسكندرية برز نشاط المعهد الديني في المحاضرات الثقافية والندوات الدينية، وكان للمعهد دور ريادي في نشر الفكر الديني بالاشتراك مع الهيئات المهتمة بالنشاط الإسلامي في الإسكندرية، مثل جمعية الشبان المسلمين، وكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

وقد اشترك - وهو شيخ لمعهد الإسكندرية - في مهرجان الغزالي الذي أقيم في دمشق ببحث عنوانه «مفتاح شخصية الغزالي: هل شك حجة الإسلام؟» وقد طبع هذا البحث مستقلاً وضمن مجموعة بحوث المهرجان. وقد عرف فضيلته بغَيْرته على القرآن والإسلام، ولجأ إليه الغيورون على القرآن من أساتذة جامعة الإسكندرية للرد على رسالة في قراءات القرآن، وكانت الرسالة قد أجيزت وحصلت على الماجستير بتقدير جيد جداً، ثم ألغيت نتيجتها لما بيّنه المؤلف من انحرافها.

ثم تقلّد فضيلته عدداً من المناصب الإدارية بالمعاهد الأزهرية، فعمل مديراً للتعليم الابتدائي، ثم وكيلاً للتعليم الأزهري، وقد تميز نشاطه في تلك الفترة بالعمل على نشر مدارس تحفيظ القرآن الكريم في مصر والعالم الإسلامي، وكان من ثمار تلك الفترة المساهمة في تطوير التعليم الديني باليمن على نمط التعليم الأزهري في مصر.

وقد انتقل فضيلته بعد ذلك إلى جامعة الأزهر عميداً لكلية أصول الدين، وقد اهتم فيها بدفع النشاط العلمي وأبحاث الدراسات العليا، وكان آخر منصب تولاه في مصر، فقد تولى بعد ذلك عدة مناصب في دول إسلامية ساهم بها في دفع الدعوة الإسلامية. فقد تولى منصب مدير معهد الدراسات العليا للدعوة الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية، ثم عمل أستاذاً بالجامعات الإسلامية في الكويت والمدينة المنورة.

وقبل الدعوة للعمل أستاذاً زائراً بجامعة بني غازي، وألقى في كليات الجامعة عدة محاضرات في الفقه الإسلامي وسعة أفقه ومرونة أصوله وفي الاجتهاد والتقليد. وكان آخر منصب تولاه هو أستاذ الدراسنت العليا للحديث بجامعة الملك عبد العزيز[1] بمكة المكرمة، وقد تقاعد من هذا المنصب وتفرغ بالقاهرة لإتمام كتابه الذي بيد القارىء، وتوفي رحمه الله في ٩ نوفمبر (تشرين ثاني) من سنة ١٩٨٠ الميلادية.

---

(١) اسمها الآن «جامعة أم القرى».

وكان رحمه الله من أشدِّ المدافعين عن نـظام الأزهر القـديم، ومن المعارضين لما عُرف «بتطوير الأزهر»، فقد كان يرى أن أساس فعالية الأزهر هي احتفاظه باستقلاله العلمي وبنظامه العتيد الذي أخرج للعالم الإسلامي على مر التاريخ أجيالاً من حراس القرآن والسنّة ولغتهما العربية من العلماء الأزهريين.

كما كان رحمه الله مهتماً بقضايا العالم الإسلامي وزار عدداً كبيراً من دوله، كما اشترك في عدد من الوفود المهتمة بقضاياه، وحَمَلته زياراته إلى أندونيسيا التي طاف بأنحائها متعرفاً دارساً محاضراً باحثاً، واجتمع بكثير من علمائها، كما زار معظم دول العالم العربي.

وله رحمه الله أجيال من التلاميذ المنتشرين في أنحاء العالم الإسلامي من الذين تربّوا وتعلموا عليه، وشربـوا منه حب الله وحب رسولـه وحب العلم، وطريقته المحققة المدققة المستقلة عن طرق المستشرقين وغيرهم، والقاصدة لوجه الله ولروح البحث العلمي الدقيق المنضبط. وكانت العلاقة بينـه وبين تلاميـذه على مثال عـلاقات علمـاء السلف الصالـح بمشايخهم وتلاميذهم، وكان إلى ذلك معروفاً بشدته على تلاميذه في جهدهم العلمي، وأنه كان لا يرضى إلّا بالإتقان والعمل المستوفي لجوانب الجودة، وهو منهاج مشايخ الأزهر وعلمائه من الجيل القديم.

حياته العلمية ومؤلفاته:

بدأ المؤلف حياته العلمية وهو لا يزال طالباً في القسم العالي للأزهر، فعمل مصحّحاً ثم محرّراً في مجلة الأزهر ثم في جريدة الأهرام، وله فيهما وغيرهما عديد من المقالات والبحوث المتنوعة.

وقد تتلمذ على كبار أساتذة الأزهر الأجلاء، ولعله تأثر بهم في ما اشتهر به من اعتداد بالعلم واعتزاز بالنفس، كما تعلّم منهم أصالة البحث ودقة المنهج، وكان أبرز أساتذته الذين تأثر بهم مباشرة المرحوم الشيـخ الخضر حسين والشيخ الجبالي.

وكان يقرض الشعر وله قصائد منشورة، كما كان مشاركاً في الحياة الأدبية في مصر فكان له مساجلات أدبية، منها: بيني وبين الأستاذ محمد فريد وجدي (الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام) وقد طبع في كتاب في وقته.

ولكن جهده العلمي وإسهامه الفكري برزا في مجال تحقيق التاريخ الإسلامي، فكان له في ذلك عدة مؤلفات هامة، من أبرزها كتاب عثمان ابن عفان الذي قوبل بحفاوة ظاهرة في المحافل العلمية، وطبع عدة طبعات، ولا يزال يعتبر من المراجع الأساسية الأصيلة في موضوعه كما يشهد بذلك الإشارة إليه والأخذ عنه في كتب عديدة، نذكر منها تحقيق كتاب العواصم من القواصم للأستاذ محب الدين الخطيب، وكتاب أضواء على التاريخ الإسلامي للأستاذ فتحي عثمان، وكتاب الفتنة الكبرى للأستاذ طه حسين.

ثم كان له كتابه القيم خالد بن الوليد والذي اعتبره الباحثون من أفضل ما كتب عن خالد. وقد علّق على هذين الكتابين وقيمها الناقدون المعروفون في المجلات والجرائد الثقافية المعروفة في وقت صدور الكتابين مثل مجلة الرسالة، وكان من أبرز من نقد كتابيه وعلّق عليهما الدكتورة بنت الشاطىء، والمرحوم الأستاذ سيد قطب، وهو الذي كتب له أيضاً مقدمة كتاب خالد ابن الوليد.

وفي هذين الكتابين أرسى دعائم منهجه الخاص في تحقيق التاريخ الإسلامي، والذي يصفه في كتاب «محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته» قائلاً:

«وعمود البحث في منهجنا هو ما أصلّنا في كتبنا ومؤلفاتنا ولا سيما التاريخية منها، أننا نقرأ ونقرأ حتى نظن أننا استوعبنا أو قاربنا، ثم نفحص ونمحص ونوازن وننقد، ونعتمد ما تثبت لدينا صحته سنداً ويدخل في وصيد القبول متناً وأصلاً، ولم يعارضه من منخول العقل والعلم ما يعلو عليه، مع إيماننا بأن للعقل حدّاً يقف عنده، ولقضايا العلم موضوعات تنتهي عندها، وهما محجوبان عن عالم الغيب، مقصران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة».

ثم كان للمؤلف بعد ذلك سلسلة من المؤلفات والرسائل نذكر من أهمها كتاب «حجة الإسلام الغزالي: المفكر الثائر»، وكتابي «القرآن العظيم: هـدايته وإعجـازه في أقوال المفسـرين، و«التصوف في الإسـلام: منابعـه وأطواره».

ثم صدر له كتاب ضخم هو «الموسوعة في سماحة الإسلام»، وقد نشأت فكرته عن بحث طلبته الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بـالأزهر من المؤلف يدور موضوعه حول سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين. ولكن المؤلف عندما نظر في موضوع البحث نظرة أولية وجده واسع المدى، لا تكفي في الإحاطة بأطرافه رسالة صغيرة، وبعد حوالي اثني عشر عاماً من بدء الاتصال حول ذلك الموضوع أراد الله لفكرة ذلك البحث الصغير أن تظهر في كتاب «الموسوعة في سماحة الإسلام» وهو كتاب كبير الحجم من جزءين طبعته دار سجل العرب.

لكن روح المؤلف كانت تهفو به دائماً ـ كما يُستشف من كتبه الأولى بالحب والشوق إلى الكتابة عن سيد الوجود محمد ﷺ، ولم تتح له فرصة البدء في هذا العمل الكبير إلّا بعد أن ترك العمل الإداري وتفرغ تمـاماً للبحث والكتابة في هذا الموضوع العظيم، فبدأ بكتاب صغير نسبياً هو كتاب «محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته»، وانتهى منه في رمضان عام ١٣٩١هـ. ومنذ ذلك الحين تفرغ تماماً لمدة عشر سنوات حتى وفاته رحمه الله في أول أيام القرن الخامس عشر الهجري ليتم هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء. وقد كان معظم العمل في هذا الكتاب بين مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث كان رحمه الله يعمل أستاذاً بجامعة الملك عبد العزيز، وكان عبء التدريس وطبيعته البحثية مما يتيح له إعطاء الكثير من الوقت لهذا العمل الذي ارتبطت به حياته.

وله رحمه الله كتب أخرى لم تطبع ومن أهمها كتاب «نفحات الإنعام في تفسير سورة الأنعام».

كما كان له حلقات تليفزيونية لفترة طويلة تناولت تفسير

سور: التوبة والروم ولقمان والسجدة.

أما المطبوع من مؤلفاته فقد أوردناه في القائمة المرفقة.

رحم الله المؤلف وجزاه خيراً عن علمه وعمله في خدمة الإسلام والمسلمين.

د. محمد بهي الدين صادق عرجون

آثار المؤلف

١ ـ كتاب خالد بن الوليد، طبع عدة مرات.
٢ ـ كتاب عثمان بن عفان، طبع عدة مرات.
٣ ـ كتاب حجة الإسلام الغزالي المفكر الثائر نفدت طبعته الأولى.
٤ ـ القرآن العظيم ـ هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين.
٥ ـ التصوف في الإسلام (منابعه وأطواره).
٦ ـ الموسوعة في سماحة الإسلام.
٧ ـ محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته.
٨ ـ حرية الفكر في الإسلام.
٩ ـ الأدب بين القديم والحديث.
١٠ ـ عظمة محمد ﷺ في رسالته.
١١ ـ الدين منبع الإصلاح الاجتماعي.
١٢ ـ من رياض القرآن.
١٣ ـ موقف الإسلام من المخترعات الحديثة.
١٤ ـ بيني وبين الأستاذ محمد فريد وجدي (الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام).
١٥ ـ رد مزاعم رسالة في قراءات القرآن.
١٦ ـ سنن الله في المجتمع من خلال القرآن.
١٧ ـ الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن.
١٨ ـ نحو منهج في تفسير القرآن.

أما ما لم يطبع فهو:

١ ـ نفحات الإنعام في تفسير سورة الأنعام.
٢ ـ تفسير سور: التوبة والروم ولقمان والسجدة. حلقات تليفزيونية.
٣ ـ النقد الأدبي عند العرب.

الفهـــرس

من بدر وأُحُد إلى الحديبية

كانت غزوة بدر نموذجاً للسلوك المنهجي للمجتمع المسلم

كانت محنة (أُحُد) درساً تربوياً في حياة المجتمع المسلم

مراحل البحث في الغزوات
بَعْثُ الرّجيع

الاختلاف بين سياق البخاري وسياق ابن إسحاق في قصتي (الرجيع) (وبئر معونة)

سرية عبد الله بن أنيس إلى سفيان ابن خالد بن نبيح وقتله

سرية بئر معونة ـ وهي بعثة القراء أسبابها وأحداثها وآثارها

النسخ في القرآن من أخطر ما يجب التعمق في الحكم به

بحث وتحقيق

هل نزل قرآن في شأن سرية القرّاء

ثم نسخ؟؟؟

وقفة مع السهيلي وتحقيق
أنه لا نسخ بغير بدل
مناقشة رأيه فيما زعم من صحة روايات قرآن
نزل ثم نسخ إلى غير بدل

غزوة الأحزاب وهي غزوة الخندق
أسبابها وأحداثها وآثارها
مشابه بينها وبين غزوة أُحد
كانت شدائد أُحد دروساً تربوية لبطولات
لم تهزها أعاصير المحنة

تحقيق تاريخ غزوة الأحزاب

أسباب غزوة الأحزاب ـ الخندق ـ ومن تجمع لها
من فلّال المشركين وفجّار الأخابث من اليهود

تنبيه إلى ما في أحداث هذه الغزوة
من معالم منهج الرسالة

قصة نُعَيم بن مسعود
وتخذيله الأحزاب عن مواقفة المسلمين

بحث وتحقيق
في روايات قصة نعيم بن مسعود

مثل وشواهد من منهج الرسالة
في قصة نعيم بن مسعود

قصة حذيفة بن اليمان يوم الخندق
ودخوله بين الأحزاب ليأتي بأخبارهم

غزوة بني المصطلق ـ وهي غزوة المريسيع
أسبابها، وأحداثها، وأحاديثها، وآثارها

تحقيق سبب غزوة بني المصطلق

يُمْن عائشة رضي الله عنها وبركتها
في نزول تشريع التيمم

محنة الإفك والبهتان
أخبث وأخطر مكايد النفاق ولؤم المنافقين

معاهدة الحديبية

أسبابها ـ وأحداثها ـ وأحاديثها

وآثارها في سرعة نشر الدعوة

ما تضمنته من سياسة قيادية حكيمة

معالم منهج الفتوحات

بيان وتحقيق
يكشف عن أحكم سياسة في عقد هذه المعاهدة
ويبين ما تضمنته من معالم منهجية
في حياة المجتمع المسلم

شروط المعاهدة وبنودها

غزوة الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة
أسبابها ـ أحداثها ـ آثارها

قصة حاطب بن أبي بلتعة
وكتابه إلى قريش

مسير رسول الله ﷺ إلى مكة
في جيش كثير العدد قوي العدَّة

قصة ضنّ الأنصار
برسول الله صلّى الله عليه وسلّم
أن لا يفارقهم إلى غيرهم

مظاهر فرحة المؤمنين بدخول مكة
يوم الفتح الأعظم

خطبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم
يوم الفتح الأعظم

غزوة حنين
جموع هوازن وثقيف
درس تربوي في أقسى محنة
ينتهي إلى أعظم منحة

طلب
فُـرَّار هوازن وثقيف

موقف الأنصار من غنائم حنين
وموقف النبي ﷺ منهم

ملاحقة فلول ثقيف في حصونهم وحصارهم بالطائف

غزوة تبوك ـ وهي غزوة العسرة
أسبابها ـ وأحداثها ـ وآثارها

موقف كعب بن مالك في تخلفه
حتى تاب الله عليه كما يصوّره بأسلوبه

عبر واعظة في آيات تربية متلطفة

من روائع أحاديث الوفود
وتحقيق غرر أحداثها
نماذج تُصَوِّر ولا تستقصي

قدوم أول وفد لبني تميم
تحقيق أسباب قدومه وأحداثه وآثارها
في تربية المجتمع المسلم

وفد عبد القيس

حفاوة النبي ﷺ بقدومهم وإكرامهم

ثناؤه ﷺ عليهم وترحيبه بقدومهم

تحقيق الاختلاف في توقيت وفادة وفد عبد القيس

بيان سبب وفادة وفد عبد القيس

روايات أحاديثهم من الصحيحين وغيرهما

الأحداث والوقائع

معالم منهجية في هذه الأحداث تمثّل نماذج في تربية المجتمع المسلم

تحقيق الاختلاف في توقيت وفادة وفد عبد القيس

بيان سبب وفادة وفد عبد القيس

ما جاء في وفد عبد القيس

من أحاديث وأحداث

قدوم وفد نصارى نجران

سبب وفادة وفدهم على النبي ﷺ

ورود قصتهم في القرآن والصحيحين وغيرهما

ما تضمنته هذه القصة من معالم منهج الرسالة في أحداثها ونماذجها التربوية

نصارى نجران
وموقفهم من الرسالة الإسلامية

كتاب النبي ﷺ
إلى أهل نجران يدعوهم إلى الإسلام

تعليق وبيان

نص كتاب رسول الله إلى أهل نجران في رواية البيهقي

تأمل وتنبيه

وفد طيء وقصة عظَيميْهم

زيد الخيل، وعديّ بن حاتم

أحداث هذا الوفد وأحاديثه وما فيها